



جامعة الامارات العربيه المتحده

كلية الآداب

بالتعاون مع المجمع الثقافي

ندوة

مكانة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي

من سقوط بغداد الى نهاية الاستعمار البرتغالي

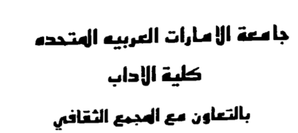
٦٥٦ - ١٠٦٤ هـ // ١٢٥٨ - ١٦٥٠ م



العين: ١-٣/ شعبان / ١٤١٠ هـ

الموافق: ٢٦-٢٨/ فبراير / ١٩٩٠ م





جامعة الإمارات العربيه المتحده

كلية الآداب

بالتعاون مع المجمع الثقافي

نـــــدوة

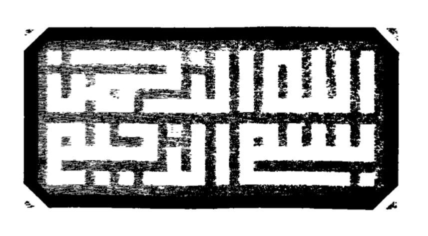
مكانة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي

من سقوط بغداد الى نهاية الاستعمار البرتغالي

٦٥٦ - ١٠٦٤ هـ // ١٢٥٨ - ١٦٥٠ م

العـــين : ١ -٣ / شعبـــان / ١٤١٠ هـ

الموافق : ٢٦ - ٢٨ / فبراير / ١٩٩٠ م


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتوى

الموضوع **الصفحة**

افتتاح

كلمة الاستاذ الدكتور / محمد ابراهيم حور
عميد كلية الاداب
ورئيس لجنة الاعداد والتنظيم للندوة

حين فكرت كلية الاداب قبل ثلاثة اعوام في عقد ندوات علمية متتابعة، تهدف الى التعريف بمكانة الخليج العربي في تاريخنا العربي الاسلامي، كانت تدرك ان هذه المنطقة لم تحظ بالاهتمام والدراسة اللذين حظيت بهما البيئات الاخرى ، خاصة في عصور النهضة والرقي ، ناهيك عن عصور التخلف والضعف . كما ان الكلية كانت تدرك ان لهذه المنطقة أهمية كبيرة تنبع من موقعها الاستراتيجي في اقصى الشرق والجنوب الشرقي لعالمنا العربي .

ومن هنا جاءت الاهداف ثابتة ومنسجمة مع كل العصور التي تم تناولها بالدرس والبحث ، وما سيتم استكماله ـ باذن الله ـ في المستقبل ، وهذه الاهداف هي :

ـ ابراز الوجه الحضاري ، والدور المهم لمنطقة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي .

ـ التعريف بهذه المنطقة عبر العصور ، بهدف تحقيق مادة علمية متكاملة ، تكشف عن خصائصها الاجتماعية ، والاقتصادية ، والفكرية .

ـ التعريف بأهم هذه الخصائص .

ولا شك ان المادة العلمية المتصلة بهذه المنطقة تفاوتت تفاوتا كبيرا من عصر لاخر . ففي الوقت الذي كان الشح والندرة ، في صدر الاسلام والعصر الاموي ، كانت المادة اوفر في العصر العباسي ، وها هي فيما بعد العصر العباسي اكثر ثراء وغنى منها في العصرين السابقين . وقد بذل الباحثون ـ من داخل الكلية وخارجها ـ جهدا محمودا ، كان من ثماره هذه الابحاث التي بلغت حتى الان ، اربعة وثلاثين بحثا ، تناولت جوانب مهمة في هذه المنطقة ، طيلة عشرة قرون ، وازعم ان فيها مادة جديدة قيمة ، وانها فتحت ابوابا ما كانت معروفة للكثيرين من قبل ، وحسبنا هذا نجاحا حققناه .

واذا كنا قد توقفنا في هذه الندوة ، عند منتصف القرن الحادي عشر للهجرة تقريبا ، منتصف القرن السابع عشر الميلادي ، فانني امل ان نستكمل دراسة القرون التالية في السنوات القادمة باذن الله .

واذاكان قد ترسخ تقليد علمي بكلّية الاداب بعقد هذه الندوات ، فان هناك تقليدا اخر يرفد الاول ولايقل اهمية عنه ، وهو اسلوب التعاون المثمر بين الجامعة والمجمع الثقافي في

ابوظبي ، في المجال العلمي والتنسيقي . والذي نأمل له ان ينمو ويتطور في المجالات التي تهم المؤسستين .

ايها السيدات والسادة /

لقد كان ـ وما زال ـ لدى كلية الاداب طموح كبير ، وعزيمة قوية في تحقيق هذا الامل الذي راودنا منذ سنين ، تصل الى عشر ، اعني دراسة هذه المنطقة ، بهذه الصورة التي تمت عليها . ولكن ما كان للطموح والعزيمة وحدهما ان يحققا الامل ، وانما كانا بحاجة ماسة ، للدعم المادي والمعنوي ، اللذين يشدان الازر ، ويذللان الصعب ، وهذا ما تحقق لنا من قبل سمو الرئيس الاعلى للجامعة الشيخ نهيان بن مبارك ال نهيان ، وسعادة مدير الجامعة ، وامينها العام ، وجميع الجهات المعنية في الجامعة . فاسمحوا لي ان اتوجه اليهم بالشكر على ما قدموه من دعم ومساعدة كان لهما الفضل في ان تكون هذه الندوات ، واقعا ملموسا ، وان تكون اعمالها ، بيد الدارسين والباحثين ، مطبوعة .

كما يطيب لي ان اتوجه بالشكر والتقدير للسادة ضيوف الندوة الذين اثروها بابحاثهم ، ونأمل ان يغنوها بمناقشاتهم. والشكر نفسه للاخوة الباحثين من الكلية ، وللاخوة اعضاء لجنة الاعداد والتنظيم للندوة .

ولا يفوتني ان انوه بالدور الفعال الذي ساعد على التعريف بالندوة ، وقامت به اجهزة الاعلام ممثلة في صحف الاتحاد ، الخليج ، البيان ، الفجر ، وكالة انباء الامارات ، تليفزيون ابوظبي ، دبي ، الشارقة ، واذاعة ابوظبي .

وفقنا الله واياكم لخدمة أمتنا ، واظهار وجهها المشرق على مر العصور .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

التوصيات

١ ـ الاهتمام بنشر الوثائق التاريخية ، والنصوص الادبية والاجتماعية التي نبهت اليها بحوث الندوة ومداخلات المشاركين : مما ورد باللغة العربية واللغات الاجنبية الاخرى .

٢ ـ دعوة جامعة الامارات والمجمع الثقافي الى الاهتمام بفتح قنوات اتصال مع المراكز والمؤسسات المعنية بتاريخ وتراث المنطقة وتبادل الوثائق والخبرات فيما بينها .

٣ ـ دعوة الجامعة ومراكز البحوث المعنية في المنطقة الى الاهتمام بدراسة اللغات العثمانية والبرتغالية بالاضافة الى الانجليزية باعتبارها اللغات الرئيسية التي كتبت بها وثائق هذه المنطقة ومصادرها في القرون المتأخرة .

٤ ـ الدعوة الى الاهتمام بالمصادر الادبية والتراثية عند دراسة تاريخ هذه المنطقة ، وظروفها الاقتصادية والاجتماعية .

٥ ـ الاهتمام بتراث المنطقة والحرص على نشره محققا تحقيقا علميا يليق به وبمكانة اعلامه .

٦ ـ دعوة المؤسسات المعنية الى تأسيس مكتبة «تراث الخليج» تحتوي على المصادر والوثائق المطبوعة والمخطوطة : اصولا ، وصورا ، وافلاما ، اضافة الى الدوريات .

٧ ـ دراسة تواصل اعلام اقطار الخليج العربي وعلمائه ، ودورهم المشترك في خدمة التراث .

٨ ـ الدعوة الى تأليف «موسوعة الخليج العربي» لتضم المعلومات الاساسية الاصيلة عن كل ما في الخليج ، وما يتعلق به «الاعلام ، البلدان والامكنة ، الكتب ، الحوادث ، الوفيات..» .

٩ ـ دعوة الجامعات ومراكز البحوث الى توجيه الدارسين في مجال الدراسات العليا الى العناية باعلام المنطقة في العصور الاسلامية ، من المؤرخين ، والادباء ، والعلماء ، في دراسات اكاديمية موسعة .

١٠ ـ ان تكون الندوة الرابعة بعنوان : «مكانة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي» في الفترة ١٠٦٤ ـ ١٢٣٧هـ / ١٦٥٠ ـ ١٨٢٠م

١١ ـ في الوقت الذي يقدر المشاركون في الندوة دور كلية الاداب والمجمع الثقافي في عقد هذه الندوات ، وطباعة الاعمال المنبثقة عنها ، فانهم يدعون الى

استمرارها في هذا الاتجاه لاستكمال الجانبين التاريخي والعلمي لهذه المنطقة .

١٢ ـ التوجه بالشكر والتقدير الى جامعة الامارات العربية المتحدة ، وكلية الاداب فيها ، على حسن الاعداد والتنظيم للندوة ، وعلى حسن الاستقبال والضيافة للمشاركين فيها .

١٣ ـ التوجه بالشكر والتقدير لاجهزة الاعلام بالدولة التي عنيت بالندوة ، والتعريف بها ، وتعميم فائدتها على جميع الاصعدة المرئية والمسموعة والمقروءة .

١٤ ـ رفع برقية شكر وتقدير لسمو الشيخ نهيان بن مبارك ال نهيان الرئيس الاعلى للجامعة على رعايته للندوة وتقديمه الدعم الذي ساعد على نجاحها .

١٥ ـ في الوقت الذي تناقش فيه الندوة موقف الخليج العربي من الاستعمار البرتغالي فان المنتدين يشدهم الموقف البطولي الصامد للشعب العربي الفلسطيني في الارض المحتلة ، مما يدعوهم الى توجيه تحية تقدير وتأييد لهذه المواقف الصامدة مع قلة الوسائل بايديهم .

برنامـــج النـــدوة

○ **أولا : أهـــداف النـــدوة :**

- ابراز الوجه الحضاري والدور المهم لمنطقة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي .

ب - التعريف بهذه المنطقة عبر العصور بهدف تحقيق مادة علمية متكاملة تكشف عن خصائصها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

ج - التعريف بأهم الخصائص الاجتماعية والاقتصادية السائدة في هذه المنطقة ما بعد العصر العباسي الى نهاية الاستعمار البرتغالي .

○ **ثانيا : محـــاور النـــدوة :**

تشتمل الندوة على اربعة محاور هي :

١ - التراث العلمي والثقافي للخليج العربي ويتناول الموضوعات التالية :

- في مجال الدراسات الاسلامية : فقها وتفسيرا وحديثا .
- في مجال الدراسات التاريخية والجغرافية .
- الحياة الادبية .

٢ - الخليج العربي في مواجهة الغزو الاجنبي. ويتناول الموضوعات التالية :

- الخليج العربي بعد الغزو المغولي .
- الدول والامارات في المنطقة .
- العلاقات الخارجية .

٣ - النظم الاقتصادية والاجتماعية . ويتناول الموضوعات التالية :

- التجارة البرية والبحرية .
- الحياة الاجتماعية .
- الحياة الاقتصادية .

٤ - الوجود البرتغالي في منطقة الخليج العربي : ويتناول الموضوعات التالية :

- الخليج العربي في مواجهة الاستعمار البرتغالي .
- موقف الدولة العثمانية من النفوذ البرتغالي في المنطقة .
- موقف الدولة الصفوية من النفوذ البرتغالي في المنطقة .

○ **ثالثا : لجنة الاعداد للندوة :**

أ.د./ محمد ابراهيم حور عميد كلية الاداب رئيسا

أ.د./ عبدالوهاب احمد وكيل كلية الاداب عضوا

أ.د./ محمد ابوالفتوح شريف قسم اللغة العربية عضوا

د./ عبدالله ابوعزة المجمع الثقافي عضوا

د./ محمد مرسي عبدالله المجمع الثقافي عضوا

د./ محمد ابوالفضل قسم التاريخ والاثار عضوا

د./ وليد محمود خالص قسم اللغة العربية عضوا

د./ محفوظ بن طرش ادارة العلاقات الثقافية عضوا

الجلســـات

○ **اليوم الاول : ١٩٩٠/٢/٢٦**

- الجلسة الاولى : ١٢ - ١

- رئيس الجلسة : الاستاذ الدكتور/ عبدالله ابوعزة
- الورقة الاولى : «دور الخليج العربي في بناء التراث»
- مقدم الورقة : الاستاذ الدكتور/ حسين علي محفوظ .
- الجلسة الثانية : ٥٫٠٠ - ٨٫٠٠ مساء .
- رئيس الجلسة : الاستاذ الدكتور/ عبدالوهاب احمد .
- الورقة الثالثة : «الخليج العربي في مواجهة البرتغاليين في النصف الاول من القرن السادس عشر الميلادي« .
- مقدم الورقة : الاستاد الدكتور جمال زكريا قاسم .
- الورقة الرابعة : «الغزو البرتغالي والدولة العثمانية» .
- مقدم الورقة : الاستاذة الدكتورة/ ليلى الصباغ .
- الورقة الخامسة : «التأثير البرتغالي على التجارة في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر» ا
- مقدم الورقة : الدكتور/ خالد ال خليفة .
- الورقة السادسة : «موقف الدولة العثمانية من النفوذ البرتغالي في الخليج العربي» .
- مقدم الورقة : الدكتور/ محمد رجائي ريان .

○ **اليوم الثاني : ١٩٩٠/٢/٢٧م**

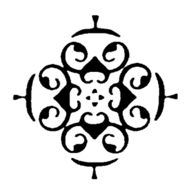
- الجلسة الثالثة : ١٠٫٠٠ - ١٫٠٠ صباحا .
- رئيس الجلسة : الاستاذ الدكتور/ محمد ابوالفتوح شريف .
- الورقة السابعة : «شاعر من عصر النباهنة في عمان ، سليمان بن سليمان النبهاني» .
- مقدم الورقة : الاستاذ الدكتور/ علي جواد الطاهر .
- الورقة الثامنة : «ابن ماجد : الملاح - الاديب - الشاعر» .
- مقدم الورقة : الاستاذ الدكتور علي الزبيدي.
- الورقة التاسعة : «المحاور الفكرية والفنية في شعر الكيذاوي» .
- مقدم الورقة : الدكتور/ شحادة خليل زغبر
- التعقيب .
- الجلسة الرابعة : ٣٫٠٠ - ٨٫٠٠ مساء
- رئيس الجلسة : الدكتور عصام سخنيني .
- الورقة العاشرة : «عمان الداخل ١٥٠٧ - ١٦٢٤م، التركيبة القبلية والسياسية» .

مقدم الورقة : الدكتور/ حسن النابودة .
- الورقة الحادية عشرة : «الصراع العثماني - البرتغالي في منطقة الخليج العربي خلال فترتي حكم السلطانين سليم الاول وسليمان القانوني» .
- مقدم الورقة : الدكتور/ فائق حمدي طهبوب .
- الورقة الثانية عشرة : الجملة النحوية من خلال ديوان النبهاني .

مقدم الورقة : الدكتور عبدالكريم

الزبيدي .

- التعقيب .
- استراحة
- تلاوة التوصيات .
- الختـــام



البحوث

دور الخليج العربي في بناء التراث
«٦٥٦هـ - ١٠٦٤هـ»

الاستاذ الدكتور

حسين على محفوظ

عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة

استاذ الدراسات الشرقية

كلية اللغات

جامعة بغداد

١٤١٠هـ

١٩٩٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

دور الخليج العربي في بناء التراث

٦٥٦هـ - ١٠٦٤ هـ

عناصر البحث :

- مكانة الخليج العربى
- جمال الدين على بن سليمان البحرانى
- ابن ميثم البحرانى
- شمس الدين محمد بن احمد الحكيم الكيشى
- ابن ابى قائد البحرانى
- ابن المتوج البحرانى ، احمد بن عبد الله بن محمد بن على بن حسن
- ابن المتوج ، عبد الله بن سعيد.
- ابن المتوج ، ناصر بن احمد
- اسماعيل بن ابراهيم بن عطية ، البحرانى.
- مفلح بن حسن الصيمري البحراني
- حسين بن مفلح الصيمرى ، البحرانى.

دور الخليج العربي في بناء التراث

الاستاذ الدكتور حسين على محفوظ

مكانة الخليج العربى معروفة في الشعر والفصاحة ، والعلم والادب والفكر . ومنزله اعلامه ورجاله واضحة في الكتابة والتأليف . وقد كنت اوسعت (أدب البحرين) و (تراث البحرين) و (مصادر دراسة تراث البحرين) درسا وتمحيصا . وفصلت ذلك تفصيلا في مباحثى ودراساتى . وقد نشر بعضها واستفاد منها الدارسون والحمد لله رب العالمين.

أوضحت في أبحاثى السابقة ان (البحرين) تعنى البحرين وبلاد الاحساء والقطيف فى المصطلح القديم.

والحق ـ ان الخليج كله من معاقل المعرفة ، ومواطن العلم والادب والفكر والفضل وفى مسودة (تراث البحرين) وما تم من اوراق (تراث الخليج العربى) ما يبين دور اهل الخليج ورجاله واعلامه وافاضله في بناء التراث العربى والاسلامى.

هذا ـ وقد ملأ نتاج اهل الخليج العربى الخزائن العامة والخاصة بنوادر الكتب واعلاق المصادر ، وذخائر التراث.

واذا سميت الفترة الواقعة بين دخول التتر بغداد وعصر النهضة بـ (الفترة المظلمة) فانا اسميها (الفترة المظلومة).

وتمثل المرحلة التي تبدأ بسنة ٦٥٦هـ والاستعمار البرتغالى سنة ١٠٦٤هـ (١٢٥٨ ـ ١٦٥٠ م)

جزءا من تلك الفترة او هى حقا عامرة بالعلماء والمؤلفين والمؤلفات.

ومن أعلام هذه الفترة الشيخ الفيلسوف الحكيم ، جمال الدين على بن سليمان البحرانى، دفين ستره.

اطراه العلامة الحلي (٧٢٦هـ) ، وقال فيه انه : «عارف بقواعد الحكماء . وله رسالة (الاشارات) في الالهيات على طريقة الحكماء المتألهين ، و (رسالة الطير) في شرح عينيه ابن سينا وقد تتلمذ عليه ، وروى عنه ابنه الشيخ حسين.

ومنهم الشيخ كمال الدين ، ميثم بن على بن ميثم البحرانى (٦٩٩هـ) ، نزيل بغداد المعروف بـ (العالم الربانى) . وسماه السيد الشريف بـ (بعض مشايخنا) في اوائل علم البيان من شرح مفتاح العلوم ، واثنى عليه ملا صدرا الفيلسوف ، وعبر عن اعجابه بما اورده في كتاب (المعراج السماوي).

وملا صدرا ـ هذا ـ المعروف بصدر المتألهين (١٠٥٠هـ) هو اكبر فلاسفة القرن الحادي عشر الهجرى ، ويعد من اكابر حكمه الاشراف في الفلسفة ، وهو صاحب (الاسفار الاربعة) و (المبدأ والمعاد) و (الشواهد التربوبية) و (اسرار الايات وانوار البيانات) و (المشاعر) و (الحكمة العرشية) . و(كسر الاصنام الجاهلية) وغيرها ، ولكلمته شأن كبير اذا كان من مطريه.

وابن ميثم ـ بعد ـ من شراح (نهج البلاغة) الكبار ، صنف في شرح هذا الكتاب العظيم ثلاثة شروح ، الكبير ، والمتوسط ، و،الصغير ، اضافة الى شرح المائة الكلمة.

اذا بلغت شروح النهج المعروفة (١٥٢) شرحا ـ كما احصاها شيخنا الرازي في كتاب (الذريعة) فان (مصباح السالكين) ـ وهو الشرح الكبير ـ الذي الفه للخواجة علاء الدين عطا ملك الجويني (٦٨٠هـ) في سنة ٦٧٧ هـ والشرح المتوسط الذي اختاره من الشوح الكبير لولدي الجويني ، في سنة ٦٨١هـ ، و (منهاج العارفين) في شرح الكلمات القصار تعد من احسن الشروح.

وشرح ابن ميثم كتاب (الاشارات) لاستاذه جمال الدين على بن سليمان البحراني ، والف كتاب (قواعد العقائد) في علم الكلام ، و (البحر الخضم ، وشرح (رسالة العلم) لاحمد بن سعادة البحراني ، وله كتاب (المعراج السماوي).

ويعتبر شمس الدين محمد بن احمد الحكيم الكيشي من اعلام الخليج في القرن السابع. ويعد من ائمة العلم في تاريخ التراث . وكان من اركان المعرفة ، وافاضل الرجال ، ومشاهير المدرسين ، وافاضل اساتذة الحكمة . وهو من مفاخر الامة مع ابن ميثم في تلك الفترة ، ويعدان من الروابط القديمة الوثيقة التي تشد الخليج بالعراق منذ قرون في الماضي البعيد.

ينتسب الكيشي الى جزيرة (قيس) في الخليج العربي، التي مفرسها لفظ (كيش) وربما اعتقد بعضهم ان قيس معرب كيش.

لم تتعرض المصادر لترجمة الكيشي ، ولم تذكره كتب التراجم المعروفة . ولولا ترجمة قصيرة جدا دونها معين الدين ابو القاسم جنيد الشيرازي في كتاب (شد الازار في حظ الاوزار عن زوار المزار) الذي الفه سنة ٧٩١هـ لظل الرجل منسيا مخفيا.

عده مؤلف شد الازار من نفاة المقبرة الباهلية ومايدانيها . وهذه المقبرة منسوبة الى الشيخ الباهلي . وتنسب اليه المحلة والمقبرة معا . وهو مدفون في طرفها الصبوي.

ومعنى الصبوي في اصطلاح اهل شيراز جهة الشمال او الشمال الشرقي . وهو مهب ريح الصبا في تلك البلدة.

وقد ذكر المؤلف دفناء هذه المقبرة في النوبة الثانية . واراد بالنوبة الثانية وقت الزيارة في اليوم الثاني من ايام الاسبوع وهو الاحد، اذ قسم المزارات على عدد الايام السبعة.

واذا ضنت المصادر الموجودة بأخبار الحكيم الكيشي ، فقد اشارت بعض الكتب والتواريخ

والاجازات الى شيء من المعلومات حوله استطرادا . ولقد حاول العلامة المحقق المرحوم محمد بن عبد الوهاب القزويني جمعها . واعدها لحواشي كتاب (شد الازار) الذي نشر في اواخر الاربعينات مزينا بتعليقاته وفوائده وحواشيه.

تشير ترجمة الكيشي في شدّ الازار الى مكانته في العلم والمعرفة والتصوف ، وممارسته للفروع والاصول ، وتصنيفه فما لمعقول والمنقول . وتنبه على تتلمذ قطب الدين الشيرازي عليه ، كما تذكر حجة ، وملازمته للشيخ جبرئيل الكردي ببغداد ، واشتغاله ، وبالخلوة والرياضة بأمر هذا الشيخ.

وفي هذه الترجمة الموجزة ان مصنفاته كتاب (الهادي) في النحو ، وانه صنفه بأخصر عبارة واوفر معنى . وان له قصائد تنبيء عن غزارة فضله ، وعلو همته ، ووفور علمه وحكمته. وقد اثبت منها دالية في (١٢) بيتا من الطويل.

هذا ــ وقد سقطت الآحاد والعشرات من عبارة تاريخ وفاته ، وبقى منها في سنة .. وستمائة وانه دفن في داره بمجلة دزك.

يستفاد من المعلومات المتناثرة التي التقطها المرحوم القزويني من المصادر العشرة غير شد الازار ان شمس الدين الكيشي كان فردا في عصره في العلم والفضل.

قال قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي المعروف بالعلامة الشيرازي ـ المتوفي سنة ٧١٠هـ ـ في شرحه على كليات القانون لابن سينا ، وهو يعدد اساتذته : فشرعت في كليات القانون عند عمي .. ثم على الامام المحقق ، والبحر المدقق شمس الملة والدين محمد بن احمد الحكيم الكيشي .. فانهم كانوا مشهورين بتدريس هذا الكتاب ، وتمييز قشره من اللباب ومتعينين لحل مشكلاته ، وكشف معضلاته..»

فالكيشي ـ اذن ـ من علماء الطب، ومن مدرسي كتاب (القانون) البارعين المعروفين.

وقال العلامة الحلي ، جمال الدين الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي ، المتوفى سنة ٧٢٦هـ ، في الاجازة المطولة التي كتبها للسيد علاء الدين ابي الحسن علي ابن ابراهيم بن محمد بن ابي الحسن بن ابي المحاسن زهرة ، وولده ، واخيه ، وولديه ـ وهؤلاء الخمسة من اعيان بني زهرة السادة الحلبيين ـ في سنة ٧٢٣هـ ومن ذلك جميع ماصنفه الشيخ المعظم شمس الدين محمد بن احمد الكيشي ، في العلوم العقلية والنقلية ، وما قرأه ورواه واجيز له روايته ، عني وعنه . وهذا الشيخ كان من افضل علماء الشافعية . وكان من انصف الناس في البحث . وكنت اقرأ عليه ، واورد عليه اعتراضات في بعض الاوقات . فيفتكر تارة. وفي بعض الاوقات يقول : حتى نفكر في هذا . عاودني في هذا السؤال . فأعاوده يوما ويومين وثلاثة. فتارة يجيب ، وتارة يقول : هذا قد عجزت عن جوابه).

هذه شيمة العالم المحقق الامين . وهو انموذج رفيع من الامانة العلمية وآداب البحث ، وصورة جميلة لتواضع العلماء.

تمثل جمل العلامة الحلي غاية المدح . وحسب الكيشي ان يطريه العلامة الحلي الذي كان (سيد فضلاء العصر ، ورئيس علماء الدهر. المبرز في فني المعقول والمنقول ، المطرز للواء علمي الفروع والاصول..) وهو (فريد العصر ، ونادرة الدهر) و (علامة وقته) . كما قالوا فيه . و (قد اشتهر ان مؤلفات العلامة بلغت في الكثرة الى حد لو قسمت على ايام عمره لكان لكل يوم الف سطر) و (انه فرغ من تصنيفاته الحكيمة والكلامية واخذ في تحرير الفقه من قبل ان يكمل له ست وعشرون سنة). و (ان للعلامة نحوا من الف مصنف). و (انه وجد بخطه خمسمائة مجلد من مصنفاته..)

كان الكيشي احد سبعة عشر من مشايخ العلامة ، من معارف علماء الامة الكبار المشاهير الذين قرأ عليهم وتعلم منهم ، وروى عنهم.

ولقد أشار مؤلف التاريخ المعروف (بالحوادث الجامعة) المنسوب الى ابن الفوطي المتوفي سنة ٧٢٣هـ ، في حوادث سنة ٦٦٥هـ وفيها وصل شمس الدين محمد ابن الكيشي الى بغداد وعين مدرسا

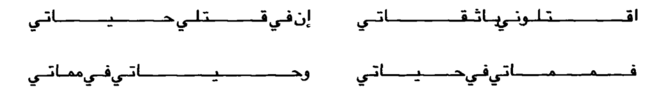
بالمدرسة النظامية وحضر درسه الحكام والعلماء . فلم يزل على ذلك الى ان خطر له التوجه الى بهاء الدين ابن الصاحب شمس الدين الجويني فسار اليه».

وبهاء الدين محمد الجويني هذا كان من الحكام في عهد اباقا . وقد توفى في حياة والده سنة ٦٧٨هـ.

ثم ذكر وفاته في حوادث سنة ٦٩٤هـ

وذكره هندو شاه بن سنجر الصاحبي الكيراني في (تجارب السلف) وهو ترجمة كتاب (الفخري) لابن الطقطقي من فلاسفة المؤرخين . عربه والفه في سنة ٧٢٤هـ.

قال الصاحبي في الكلام على مقتل الحلاج ، سنة ٣٠٩هـ «وقد عمل مولانا السعيد ، افضل المتأخرين ، شمس الحق والملة والدين ، محمد بن احمد الكيشي قدس الله روحه ـ وهو من اكابر العصر ، واساتذة هذا الضعيف يعني الصاحبي نفسه رسالة في شرح دعاء الحلاج :



اقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي

فمماتي في حياتي وحياتي في مماتي

وفي مكتوب كمال الدين عبد الرزاق الكاشي ـ المتوفي سنة ٧٣٥هـ ـ الذي كتبه الى الشيخ ركن الدين علاء الدولة السنمتالي ، في الدفاع عن القائلين بوحدة الوجود اشارة اجمالية الى بعض احوال شمس الدين الكيشي وقال مامعربه ثم بلغت صحبة مولانا شمس الدين الكيشي ، فقد سمعت من مولانا نور الدين انه لامثيل له في طريق المعرفة في هذا العصر . وكان يوضح هذا المعنى في التوحيد . وكان يقول كشف لي هذا بعد عدة اربعينات..» وعبد الرزاق الكاشي ـ هذا ـ عارف صوفي حكيم مشهور . ترك كثيرا من الكتب في التصوف والعرفان ، اشتهر منها (١٤) كتابا ورسالة ، اهمها (اصطلاحات الصوفية) ، و (شرح الفصوص) و (شرح منازل السائرين) و (كشف الوجوه الغر).

وفي كتاب (مونس الاحرار في دقائق الاشعار) تأليف محمد بن بدر الجاجرمي في سنة ٧٤١هـ ـ وهو مجموعة مفصلة مبسوطة تحوي منتخب من اشعار نحو من مائتي شاعر غزلان يؤكدان كون الكيشي من ذوي اللسانين والبيانين.

وفي كشكوك مخطوط مؤرخ في سنة ٧٥٠هـ قطعة نفيسة منسبها الجامع الى الكيشي قال في تصديرها : «لملك الائمة والحكماء شمس الدين الكيشي طاب مثواه».

وفي كشكول آخر مكتوب في سنة ١٠٩٧هـ يحوي عشر رسائل لمؤلفين مختلفين في مواضيع مختلفة من الحكمة والكلام ، منها رسالة في تفسير قول العلماء في نفس الامر للنصير وهي الثالثة . والرسالة السابعة اسمها (روضة المناظرة) تأليف شمس الدين الكيشي هذا وهي في شرح الرسالة المزبورة للنصير . وقد الف الكيشي الشرح باسم الخواجة بهاء الدين محمد بن الخواجة شمس الدين محمد الجويني.

وفي كشكول آخر يحوي رسائل متفرقة . ومن جملة محتوياته مكتوبان بين الكيشي والنصير.

سأل الكيشي النصير عن ثلاث من مسائل المنطق والحكمة . اجاب عنها النصير . وقد جاء في جواب هذه المسائل : ملك الحكماء والعلماء ، سيد الاكابر والفضلاء ، قدوة المبرزين والمحصلين ، كاشف اسرار المتقدمين والمتأخرين ، شمس الملة والدين..

كفى بالكيشي ـ على كل حال ـ تتملذ العلامة الحلي ، وكمال الدين عبد الرزاق الكاشي عليه وكذلك الصاحبي الكيراني المؤرخ الاديب . وهؤلاء الثلاثة هم من بقايا الافاضل. الاول من رؤوس المعرفة وفحولة الفقهاء . والثاني من اكابر الصوفية وفضلا العرفاء والثالث من معارف المؤرخين ومهرة الادباء.

ومن علماء الخليج فضل بن جعفر بن فضل بن ابي قائد البحراني ، نزيل الحلة ، مدينة العلم

وكبرى مراكز المعرفة في ذلك العصر.

تتملذ على المحقق (٦٧٦هـ) . وقرأ عليه كتابه (النهاية) في الفقه للشيخ . وهذا الكتاب من امهات كتب العلم في التراث الفقهي . وهو يشتمل على (٢٢) كتابا فيها (٢١٤) بابا تحتوي على (٣٦,٠٠٠) مسألة في الفقه والفتاوي.

والمحقق استاذ ابن ابي قائد كان امة في العلم . وهو من الفقهاء الهذليين المشاهير استفاد منه عشرات المجهدين الكبار . وكان خريتا ماهرا كما قال كبير الفلاسفة العلماء فيه.

ومنهم جمال الدين احمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن حسن (ابن المتوج) البحراني ، شيخ العلماء في وقته.

نزل الحلة في العراق . وتتلمذ على فخر المحققين (٧٧١هـ) ابن العلامة الحلي. وكان فخر المحققين من كبار علماء العالم في عصره وهو استاذ الفيروزابادي اللغوي صاحب (القاموس المحيط) وشيخه . وقد عبر عنه في الاجازة بـ (علامة الدنيا بحر العلوم) . وعبر عن والده العلامة الحلي في نفس الاجازة بـ (الامام الاعظم برهان علماء الامم).

ولابن المتوج كتب اغنت خزانة التراث ، منها (منهاج الهداية في تفسيرات آيات الاحكام الخمسماية)، و (مختصر التذكرة) الفه سنة ٨٠٢هـ و (كفاية الطالب)، و (نظم اخذ الثار) ، و (رسالة وجيزة) فيما تعم به البلوى من الفتوى . حق في بعض مباحث كقبلة البصرة ، وله ـ ايضا ـ (مجمع الغرائب).

ومن أفاضل الخليج عبد الله بن سعيد ، ابن المتوج تلميذ الحلة ، وخريج علامتها فخر المحققين.

كان العلماء الكبار في العلوم العربية والادبية . ترك (ديوان شعر) في المراثي يحتوي على

(٢١٫٠٠٠) بيت . وكتاب (المقاصد)، وكتاب (الناسخ والمنسوخ) وقد اختلفوا في نسبة كتاب (النهاية) اليه او الى ولده فخر الدين احمد بن عبد الله بن سعيد ابن المتوج - تلميذ فخر المحققين في الحلة ايضا - وهو كتاب (النهاية في تفسير الخمسمائة آية) من آيات الاحكام وله - كذلك - كتاب (كفاية الطالبين).

كان ابن المتوج من اقران الشهيد الاول العاملي - الذي كان من كبار المحققين وافاضل المؤلفين ، وشهداء العلماء سنة ٧٨هـ - جمعتهما مدارس الحلة ومجالسها . وقد تتلمذا معا على الفخر ابن العلامة.

ومن أعلام الخليج الشيخ ناصر بن احمد ابن المتوج كان من بناة التراث ورجال المعرفة . وهو استاذ الفاضلين ابني فهد الاحسائي (ق ٩هـ) والحلي (٨٤١هـ).

له تفسير القرآن الكريم ، و (شرح مشكلات القواعد) و (الناسخ والمنسوخ) ، ونظم مقتل الحسين (ع) . وله شعر كثير.

والقواعد - الذي شرحه ، هو كتاب (قواعد الاحكام في معرفة الحلال والحرام)للعلامة الحلي في الفقه . وهو كتاب مهم يحتوي على (٦٦٠٠) مسألة.

ومنهم : اسماعيل بن ابراهيم بن عطية البحراني ، مؤلف ٠الاسرار الشافية في شرح الكافية) الذي فرغ منه في سنة ٧٩٥هـ .

ومن اعلام الخليج في التأليف وخدمة المعارف والعلوم الشيخ مفلح بن حسن الصيمري البحراني ، وهو ممن اغنوا التراث بعطاء غير مجذوذ . وقد ترك العديد من الكتب الفاخرة في العلم والادب والدين ، منها : (الالزام) ، و (جواهر الكلمات في العقود والايقاعات) و (غاية المرام في شرح شرائع الاسلام) ، و (شرح الموجز).

اما (شرائع الاسلام) للمحقق فهو من عيون الكتب في الفقه . و (الموجز) لابن فهد من

طرائف الاسفار.

يمثل الصيمري تواصل بلدان الخليج العربي . فهو من (صيمر) بالبصرة . انتقل الى البحرين ، وسكن (سلما باد) وربما نسبت اليه مجلة صيمر فيها.

وبهداه اقتدى ولده الشيخ حسين بن مفلح في العلم والتأليف . توفى - رحمة الله عليه - في مفتتح شهر محرم الحرام سنة ٩٣٣هـ . وقد ترك من الكتب : (محاسن الكلمات في معرفة النيات)، و (المناسك الكبير) ، و (المناسك الصغير) ، و (اجوبة بعض المسائل) ، و (فتاوي).

ثم حفيده الشيخ عبد الله بن حسين بن مفلح الصيمري . وكان من شيوخ التدريب والاجازة.

تشير اجازته لحسين بن صالح الذي قرأ عليه كتاب التحرير للعلامة الحي ، وانهاه قراءة وبحثا وشرحا ، في سنة ٩٥٥هـ انه كان حيا في اوساط القرن العاشر الهجري.

ومنهم : يحيى حسين بن عشيرة البحراني تلميذ الشيخ حسين بن مفلح . قرأ عليه وروى عنه . ولعله مؤلف كتاب (الشهاب في الحكم والآداب) الذي صنفه على منوال كتاب القاضي القضاعي.

ومنهم . حسين بن علي بن حسين بن ابي سردال البحراني ، تلميذ المحقق الكركي (٩٤٠هـ) له : (الاعلام الجلية في شرح الالفية الشهدائي) ، و (الكواكب الدرية في شرح الرسالة النجمية) لاستاذ المحقق الكركي.

فرغ ابن سردال من شرح الالفية في سنة ٩٥٠هـ والالفية متن يشتمل على الف واجب في الصلاة للشهيد الاول . وقد شرحه العلماء من بعده . وجاوزت شروحه المشتهرة الثلاثين.

وفرغ من الكواكب الدرية في سنة ٩٤٧هـ .

والمحقق الكركي . هو الشيخ نور الدين على بن عبد العالي الكركي العاملي ، المعروف (الشيخ

العلائي) و بـ (المحقق الثاني) بعد (المحقق) الاول (المحقق الحلي) جعفر بن الحسن بن يحيى بن سعيد صاحب كتاب (شرائع الاسلام) المتقدم.

وفي المحقق الكركي في سنة ٩٤٠هـ وامره في الثقة والعلم والفضل جلالة القدوة وعظم الشأن وكثرة التحقيق اشهر من ان يتذكر وكان يعد «علامة وقته ، صاحب التحقيق والتدقيق . كثير العلم ، نقي الكلام ، جيد التصانيف».

ومنهم الشيخ علي بن الحسين الشاطري ، الشهدائي ، العسكري شارح (الالفية) في واجبات الصلاة . كان فقيه عصره غير مدافع وله حواش مفيدة ، ومباحث معتبرة . وهو من قرية عسكر التي تعرف بعسكر الشهداء التي عرفت من بعد بقرية المعامير.

ومنهم الشيخ داود بن محمد بن عبد الله بن ابي شافيز من صناديد الفلسفة والعلم والادب والشعر في البحرين . ومن آثاره : (رسالة وجيزة) في علم المنطق. اختار فيها مذهب الفارابي في تحقيق عقد الوضع في المحصورات . وان الممكنة تنتج في صغرى الشكل الاول . وابن ابي شافيز هو الذي ناظر الشيخ ناظر الشيخ حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي (٩٨٤هـ) والد الشيخ بهاء الدين العاملي لما زار البحرين سنة ٩٨٤هـ.

كان الحارثي الهمداني الجبعي العاملي شيخ الاسلام في زمنه . وكان من افاضل تلاميذ الشهيد الثاني (٩٦٦هـ) . له آثار وتصانيف يعرف منها (٢١) كتابا ورسالة.

ومنهم ، قرينه السيد حسين الغريفي ، افضل اهل زمانه . وقد ترك كتاب (حواشي الذكرى)، و (ديوان شعر) ، و (رسالة في علم العروض والقافية) ، و(شرح الرسالة الشمسية ، و (الغنية في مهمات الدين).

والسيد عبد الله القاروني ، نزيل كرانا . ومؤلف (شرح الغرة) و (شرح المغني).

وآل قارون من بيوتات العلم والادب. وهم رهط السيد محمد القاروني (١٠٠٨هـ) من اكابر العلماء واجلاء الرجال.

والسيد ماجد بن هاشم الصادقي (١٠٢٨هـ) الذي نشر علم الحديث في بلاد ساحل الخليج الشرقي.

نزل دار العلم فيها. وقد تتلمذ عليه اكابر فضلائها غير ستة من افاضل البحرين والخليج لازموه وانتفعوا به.

اجتمع الصادقي بالشيخ بهاء الدين العاملي سنة ١٠١٦ وروى عنه وحصل اجازته، ويعد لقاء السيد الشيخ من مجالس العلم التي تجمع الايناس والامتاع.

وللسيد من الكتب (الرسالة اليوسفية)، و (حواشي اليوسفية) و (حواشي المعالم) في الاصول، و (حواشي خلاصة الرجال) في التراجم و (حواشي الشرائع)، و (حواشي الاثني عشرية) للبهاء العاملي، و (حواشي كتابي الحديث الاستبصار والتهذيب) و (سلاسل الحديد) و (خطب) و (ديوان شعر) و (وقفية مدرسة الخان) والكتب التي حشاها السيد ماجد هي من عيون التراث، في الحديث والفقه والاصول.

ومن تلاميذ بهاء الدين العاملي السيد احمد بن عبد الصمد البحراني، وقد كان من اعلام العلم، واركان الفضل، وفحولة الادب.

ومنهم، الشيخ محمد العسكري البحراني الذي اطراه شيخه بهاء الدين، وعبر عنه بـ (صدر جريدة العلماء الاعلام، وبيت قصيدة الاجلاء الفخام..).

يدور اعلام هذه الفترة في الخليج مع الشيخ بهاء الدين العاملي (١٠٣٠هـ) صاحب (الكشكول) و (المخلاة) و (خلاصة الحساب). وقد بلغت مؤلفاته المائة غير الفوائد والجوابات والمسائل والاجازات

والسوانح والنصائح . كان استاذ علماء عصره وكتبه مما يعول عليه في الدراسة والتدريس ، والتعلم والتعليم منذ اربعة قرون.

روى علماء الخليج عامة والبحرين خاصة عن الشيخ بهاء الدين العاملي وقرأوا عليه واجاز لهم . ومنهم الشيخ نور الدين على بن عبد العزيز بن عبد الله بن علي ، ابن الحائك الحاسب) البحراني سنة ٩٩٨هـ والسيد ماجد بن هاشم البحراني سنة ١٠١٦هـ والشيخ ابو الحسن محمد بن يوسف البحراني العسكري سنة ٩٩٨و ٩٩٩ و ١٠٠٠هـ.

وقد زار ابو البحر الخطي الشاعر بهاء الدين العاملي في رجب سنة ١٠١٦هـ ، وارتجل رائيته الطنانة:

هي الدار تستسقيك مدمعك الجاري

فسقيا فأجدي الدمع ماكان للدار

وهي من قلائده في (٥٥) بيتا من عيون الشعر.

كان ابو البحر ناهج طرق البلاغة والفصاحة ، الزاخر الباحث الرحيب الساحة ، الحكيم الشعر ، الساحر البيان . اتى بكل مبتدع مطرب، ومخترع في حسنه مغرب. ومع قرب عهده فتبلغ ديوان شعره من الشهرة المدى . وقد وقفت على فرائده التي جمعت ، فرأيت مالاعين رأت ولا اذن سمعت .. كما قال السيد ابن معصوم في سلافة العصر . جمع تلميذه الغنوي ديوانه . ورتبه الخطيب على بن الحسين الهاشمي على الحروف ،في سنة ١٣٧٣هـ . توفى أبو البحر في سنة ١٠٢٨ هـ وترك ادبا يجمع القوة والجودة والفصاحة والبلاغة والمعاني والبيان ، والحكمة والسحر.

ومن افاضل الخليج ، السيد الشريف عبد الرؤوف بن الحسين العلوي الموسوي البحراني الجد حفصي (١٠٦٠هـ) قاضي القضاة . وهو من رؤساء العلماء في البحرين ، ومن ذوي الصناعتين

البارعين في الشعر والنثر.

ومنهم ، الشيخ علي بن سليمان القدمي البحراني (١٠٦٤هـ) الملقب (ام الحديث) انتهت اليه رئاسة العلماء في البحرين وماوالاها من البلاد. وهو صاحب المدرسة المعروفة في ارض القدم.

ومن آثاره : (رسالة في الصلاة) ، و (رسالة الجمعة) و (رسالة المناسك) و (رسالة في جواز التقليد) و (حواشي النافع) . والنافع هو (المختصر النافع) للمحقق الحلي . وهو من المختصرات المعتبرة في الفقه.

ومن كبار العلماء والادباء الذين عاشوا في هذه الفترة وادركوا سنين من العصر اللاحق ابن رحمة الحويزي (١٠٧٥هـ) العلامة الاديب ، المؤلف الكاتب ، الشاعر الناشر ، المؤرخ المحقق ، اللغوي النحوي ، البلاغي العروضي ، الحكيم الموسيقار الموسوعي.

ترك العديد من الكتب والرسائل والآثار تتميز بالاحاطة والرقة والاستيعاب والتنحيص، وقد افردت سيرته وتراثه بكتاب خاص غير الدراسات والابحاث والمقالات ، واحييت ذكراه المئوية.

اعود الى علم البحر . ومن مشاهير علماء البحر ماجد بن محمد صاحب الارجوزة الحجازية وهي تجاوز الالف . وهو ابن (نادرة البحر الاحمر) كما قال ولده احمد بن ماجد (نم ٩٠٦هـ) استفاد والده من الجد . وقد اخذ هو علم الرجلين مع كثرة التجربة كما قال.

ترك ابن ماجد عشرات الكتب عرف الدارسين حوالي (٣٠) منها. وهي كتب مبسوطة واراجيز تعد من طرائف الشعر التعليمي.

ومن آثاره كتاب (الفوائد في اصول علم البحر والقواعد) سنة ٨٩٥هـ ، و (حاوية الاختصار في اصول علم البحار) سنة ٩٦٦هـ و (الارجوزة المعربة) سنة ٨٩٠هـ ، و(سمت قبلة الاسلام في جميع الدنيا) سنة ٨٩٣هـ و (الارجوزة المخمسة) في الكواكب المفيدة في الملاحة سنة ٩٠٦هـ و (الارجوزة

السبعية) في علوم البحر السبعة سنة ٨٩٦هـ.

ومن اراجيزه : (بر العرب) ، و (قسمة الجمة على بنات نعش) ، كنز المعاملة) في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج واسمائها واقطابها ، و(عدة الاشهر الرومية) و (ضريبة الضرائب) و (نادرة الابدال) و (الفائقة في قياس الضفدع) ويسمى فم الحوت اليماني، و (الارجوزة السفالية) و (الارجوزة المعلبقة) و (الراهتامجات) الثلاث.

وله : (القصيدة المسكلية) و (القصيدة البائية الذهبية) ، و (القصيدة الهدية) وهي (هادية المعالم).

وله ايضا (ثمانية فصول) في الاغراض البحرية و (الميل) و (فكرة الهموم والغموم والعطر المشموم في العلم المبارك المقسوم في العلاقات والمسافات والنجوم) و (المراسي على ساحل الهند) و (المنهاج الفاخر في علم الزاخر).

واذا كان (ابن ماجد) سلطان البحر كما لقبه بعض الفضلاء فقد اتى من بعده سليمان بن احمد بن سليمان المهري (٩٦٨هـ) وهو مؤلف كتاب (العمدة المهرية) في ضبط العلوم البحرية و (قلادة الشموس واستخراج قواعد الاسوس) و (تحفة الفحول في تمهيد الاصول) و (شرح تحفة الفحول) و ·المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر) و (مرآة السلاك لكرات الافلاك). وهي كلها من الذخائر والاعلاق ، اقتدى فيها بهدى سلفه ابن ماجد ، واعتمد وعول عليه.

هذه امثلة قليلة من تراث الخليج ، واسماء معدودات من رجالاته واعلامه وراءهم كنوز من العلوم والمعارف والفنون لايستطيع الباحث الاحاطة بها ، ولايقدر على استقصائها ولايبلغ الالمام بأطرافها.

المصادر والمراجع :

١ ـ المنتخب من ادب البحرين / الدكتور حسين علي محفوظ

٢ ـ النابغة البحراني / الدكتور حسين علي محفوظ

٣ ـ نظرة في تراث البحرين / الدكتور حسين علي محفوظ

٤ ـ مصادر دراسة تراث البحرين / الدكتور حسين على محفوظ

٥ ـ اجازات الشيخ احمد الاحسائي/ الدكتور حسين علي محفوظ

٦ ـ اجازة الشيخ احمد الاحسائي للشيخ اسد الله الكاظمي الانصاري / الدكتور حسين علي محفوظ

٧ ـ سيرة الشيخ احمد الاحسائي / بقلمه (أخرجه الدكتور حسين علي محفوظ

٨ ـ تراث البحرين / د. حسين علي محفوظ

٩ ـ نظرات في تراث البحرين/ د. حسين علي محفوظ

١٠ ـ مراكز العلم الثلاثة في البحرين / د. حسين علي محفوظ

١١ ـ البيوتات العلمية والادبية في البحرين / د. حسين علي محفوظ

١٢ـ نماذج من آثار ستة عشر من علماء البحرين / د. حسين علي محفوظ

١٣ ـ تلخيص وتمهيد في «تراث البحرين » / د. حسين علي محفوظ

١٤ ـ اجازات الرواية والوراثة في القرون الاخيرة الثلاثة / محمد محسن الرازي

١٥ ـ انوار البدرين في تراجم علماء القطيف والاحساء والبحرين / الشيخ علي بن حسن البلادي البحراني.

١٦ ـ انيس المسافر وجليس الخاطر / الشيخ يوسف بن احمد بن ابراهيم الدرازي البحراني

١٧ ـ تحفة اهل الايمان في تراجم علماء آل عمران / الشيخ فرج آل عمران القطيفي.

١٨ ـ السلافة البهية في الترجمة الميثمية / الشيخ سليمان بن عبد الله البحراني

١٩ ـ سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر / السيد ابن معصوم المدني.

٢٠ ـ الشجرة الطيبة في الارض المخصبة / السيد رضا الصائغ الموسوي البحراني النسابة

٢١ ـ شعراء القطيف قديما وحديثا / الشيخ علي منصور المرهون

٢٢ ـ الطليعة / الشيخ محمد السماوي

٢٣ ـ فهرست علماء البحرين / الشيخ سليمان بن عبد الله الماحوزي البحراني

٢٤ ـ قصص العلماء / محمد بن سليمان التنكابني

٢٥ ـ لؤلؤة البحرين في الاجازة لقرتي العين / الشيخ يوسف بن احمد بن ابراهيم الدرازي البحراني.

٢٦ ـ ديوان الشيخ جعفر الخطي / ابو البحر الخطي

٢٧ ـ ديوان علي بن المقرب العيوني البحراني الاحسائي / ابن المقرب

٢٨ ـ مجموع لطف الله الجد حفصي / لطف الله بن علي بن لطف اله بن يحي بن راشد الجد حفصي.

٢٩ ـ المشيخة الاسناد المصفى الى آل المصطفى / محمد محسن الرازي

٣٠ ـ مصفى المقال في مصفى علم الرجال / محمد محسن الرازي

٣١ ـ الذريعة / محمد محسن الرازي

٣٢ ـ وفيات الاعلام / محمد محسن الرازي

٣٣ ـ اعلام البحرين في القرون الاربعة الاخيرة / د. حسين علي محفوظ

٣٤ ـ القرى العلمية في البحرين / د. حسين علي محفوظ

٣٥ ـ اتقان المقال في احوال الرجال / الشيخ محمد طه نجف

٣٦ ـ احسن الوديعة / السيد محمد مهدي الموسوي الكاظمي

٣٧ ـ كتاب الاعيان / السيد محسن الامين العاملي.

٣٨ ـ بغية الوعاة في طبقات مشايخ الاجازات/ السيد حسن صدر الدين الكاظمي

٣٩ ـ كتاب التأسيس لفنون الاسلام / السيد حسن صدر الدين الكاظمي

٤٠ ـ تتمة المنتهى / الشيخ عباس بن محمد رضا ، صاحب (الكنى والالقاب).

٤١ ـ تحفة الاحباب / الشيخ عباس بن محمد رضا

٤٢ ـ الكنى والالقاب / الشيخ عباس بن محمد رضا

٤٣ ـ هدية الاحباب / الشيخ عباس بن محمد رضا

٤٤ ـ تذكرة المتبحرين في العلماء المتأخرين / الشيخ محمد بن الحسن بن علي الحر العامل

٤٥ ـ الوسائل / الشيخ محمد بن الحسن بن علي الحر العاملي

٤٦ ـ تكملة امل الآمال / السيد حسن صدر الدين الكاظمي

٤٧ ـ تكلمة الرجال / الشيخ عبد النبي الكاظمي

٤٨ ـ تلخيص الاقوال في تحقيق احوال الرجال/ محمد الاسترابادي

٤٩ ـ تلقيح المقال في علم الرجال/ الشيخ عبد الله المامقاني.

٥٠ ـ جامع الرواة / حاجي محمد الاردبيلي

٥١ ـ جامع المقال فيما يتعلق باحوال الحديث والرجال / الشيخ فخر الدين الطريحي

٥٢ ـ جمع الشتات في صور الاجازات / محمد بن عبد الوهاب ، امام الحرمين الحمداني الكاظمي

٥٣ ـ خلاصة الاقوال / العلامة الحلي.

٥٤ ـ الرجال / ابن داود

٥٥ ـ الرجال / بحر العلوم

٥٦ ـ الرجال / الخاقاني

٥٧ ـ الرجال / الشيخ

٥٨ ـ الرجال / الكشي

٥٩ ـ الرجال / النجاشي

٦٠ ـ الرجال/ محمد بن الحسن بن علي الحر العاملي

٦١ ـ الرواشح السماوية / الدماد

٦٢ ـ الروضة البهية في الطرق الشفيعية / محمد شفيع الموسوي

٦٣ ـ رياض العلماء وحياض الفضلاء / عبد الله الافندي

٦٤ ـ ريحانه الادب في تراجم المعروفين بالكنية واللقب/ محمد علي الخياباني مدرس

٦٥ ـ سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار/ الشيخ عباس بن محمد رضا صاحب (الكني والالقاب).

٦٦ ـ سماء المقال في تحقيق علم الرجال / ابو الهدى الكلباسي

٦٧ ـ الشجرة المورقة والمشيخة الموثقة / محمد بن عبد الرهاب (امام الحرمين) الحمداني الكاظمي

٦٨ ـ شعب المقال في احوال الرجال/ ابو القاسم النراقي.

٦٩ ـ نوابغ الاعلام والرواة في رابعة المئات / محمد محسن الرازي (صاحب الذريعة)

٧٠ ـ ازالة الحلك الدامس بالشموس المنيرة في القرن الخامس / الرازي

٧١ ـ الانوار الساطعة في المائة السابعة / الرازي

٧٢ ـ الحقائق الراهنة في المائة الثامنة / الرازي

٧٣ ـ الضياء اللامع في عباقرة القرن التاسع / الرازي

٧٤ ـ احياء الداثر من مآثر اهل القرن العاشر / الرازي

٧٥ ـ الروضة النضرة في علماء المائة الحادية عشرة / الرازي

٧٦ ـ الكواكب المنتشرة في القرن الثاني بعد العشرة / الرازي

٧٧ ـ الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة / الرازي

٧٨ ـ نقباء البشر في القرن الرابع عشر/ الرازي

٧٩ ـ عدة الرجال/ السيد محسن الاعرجي

٨٠ ـ عوائد الايام / احمد بن محمد مهدي بن ابي ذر النراقي

٨١ ـ عيون الرجال / السيد حسن صدر الدين الكاظمي

٨٢ ـ الفهرست / الشيخ

٨٣ ـ الفهرست / الشيخ منتجب الدين

٨٤ ـ الفهرست / ابن النديم

٨٥ ـ الفوائد الرضوية / الشيخ عباس بن محمد رضا (صاحب الكنى والالقاب)

٨٦ ـ قاموس الرجال / محمد تقي التستري

٨٧ ـ المقابس / الشيخ اسد الله الانصاري

٨٨ ـ كشف الحجب والاستار عن اسماء الكتب والاسفار/ السيد اعجاز حسين الكنتوري

٨٩ ـ مجالس المؤمنين / القاضي نور الله التستري

٩٠ ـ مجمع الرجال / عنايت الله القهبائي

٩١ ـ مراقد المعارف / الشيخ محمد حرز الدين

٩٢ ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل / حسين النوري

٩٣ ـ مشايخ الثقات / عرفانيات

٩٤ ـ معارف الرجال / الشيخ محمد حرز الدين

٩٥ ـ ماضي النجف وحاضرها/ الشيخ جعفر محبوبة

٩٦ ـ معالم العلماء / ابن شهرا شوب

٩٧ ـ معجم رجال الحديث / السيد ابو القاسم

٩٨ ـ معجم رجال الفكر والادب في النجف / محمد هادي الاميني

٩٩ ـ الغدير / الشيخ عبد الحسين الاميني

١٠٠ ـ منتهى المقال في احوال الرجال / ابو علي ، محمد بن اسماعيل

١٠١ ـ منهج المقال في تحقيق احوال الرجال / محمد الاسترابادي

١٠٢ ـ نتيجة المقال في علم الرجال / البارفروشي

١٠٣ ـ نجوم السماء/ محمد علي الكهنوي الكشميري

١٠٤ ـ نظام الاقوال في معرفة الرجال / نظام الدين محمد الساوجي

١٠٥ ـ نقد الرجال السيد مصطفى بن الحسين الحسيني التفرشي

١٠٦ ـ نهاية الدراية / السيد حسن صدر الدين

١٠٧ ـ انتخاب الجيد من تنبيهات السيد/ الشيخ حسن الدمستاني

١٠٨ ـ الاعلام / خير الدين الزركلي

١٠٩ ـ روضات الجنات / السيد محمد باقر الخوانساري

١١٠ ـ اكتفاء القنوع بما هو مطبوع / ادورد غنديك

١١١ ـ ايضاح المكنون / اسماعيل باشا البغدادي

١١٢ ـ بروكلمن

١١٣ ـ تكملة بروكلمن

١١٤ ـ تاريخ آداب اللغة العربية/ جرجي زيدان

١١٥ ـ قاموس الاعلام / ش . سامي

١١٦ ـ كشف الظنون / حاجي خليفة

١١٧ ـ معجم المؤلفين / عمر رضا كحالة

١١٨ ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة / يوسف اليان سركيس

١١٩ ـ هدية العارفين اسماء المؤلفين وآثار المصنفين / اسماعيل باشا البغدادي.

١٢٠ ـ تتمة اليتيمة / الثعالبي

١٢١ ـ ديوان الشيخ علي نقي الاحسائي / تحقيق محمد كاظم الطريحي

١٢٢ ـ الحماسة الجتري

١٢٣ ـ الشعر والشعراء / ابن قتيبة

١٢٤ ـ طبقات فحول الشعراء / ابن سلام

١٢٥ ـ وفيات الاعيان / ابن خلكان

١٢٦ ـ الوافي بالوفيات / الصفدي

١٢٧ ـ فوات الوفيات / ابن شاكر الكتبي

١٢٨ ـ المفضليات / الضبي

١٢٩ ـ ابن رحمة الحويزي / د. حسين علي محفوظ

١٣٠ ـ تاريخ الفلك في العراق / عباس العزواي

١٣١ ـ اربعون حديثا / الشيخ حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي / تحقيق د. حسين على محفوظ

١٣٢ ـ الكشكول / بهاء الدين العاملي (تحيق السيد محمد مهدي الخرسان)

١٣٣ ـ فهرست خزانة السيد المشكاة

١٣٤ ـ كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد / ابن ماجد

١٣٥ ـ كتاب المنهاج الفاخر في علم البحر الزاهر / سليمان ابن احمد بن سليمان المهري

١٣٦ ـ العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية / سليمان المهري

١٣٧ ـ شد الازار / معين الدين ابو القاسم جنيد الشيرازي

١٣٨ ـ شرح كليات القانون / قطب الدين محمود بن مسعود ، العلامة الشيرازي

١٣٩ ـ اجازات البحار / محمد باقر بن محمد تقي المجلسي

١٤٠ ـ الاجازة الكبيرة لبني زهرة الحلبيين / العلامة الحلي.

١٤١ ـ الحوادث الجامعة / المنسوب الى ابن الفوطي

١٤٢ ـ تجارب السلف / هندوشاه بن سنجرا الصاحبي الكيراني

١٤٣ ـ نفحات•الانس / الجامعي

١٤٤ ـ ذيل النفحات

١٤٥ ـ مؤنس الاحرار في دقائق الاشعار/ محمد بن بدر الجاجرمي

١٤٦ ـ درة التاج لغرة الدباج / قطب الدين محمود بن مسعود ، العلامة الشيرازي

١٤٧ ـ نقول / د. حسين علي محفوظ

١٤٨ ـ مطالعاتي / د. حسين علي محفوظ

١٤٩ ـ قيد الاوابد / د. حسين علي محفوظ

١٥٠ ـ تراث الحلة/ د. حسين علي محفوظ

١٥١ ـ تراث البصرة/ د. حسين علي محفوظ

١٥٢ ـ دراسات ومقالات / د. سين علي محفوظ

١٥٣ ـ أبحاث / د. حسين على محفوظ

١٥٤ ـ الحوادث والاعلام في ١٤٠٠ عام/ د. حسين علي محفوظ

١٥٥ ـ شمس الدين محمد بن احمد الحكيم الكليشي / د. حسين على محفوظ

١٥٦ ـ وفيات المشاهير / د. حسين علي محفوظ.

* * * * * * *

«الغزو البرتغالي للبلاد العربية وموقف الدولة العثمانية منه في القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي»

د. ليلى الصباغ

جامعة دمشق

المقدمة :

قضيتان مصيريتان عاشهما العرب خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، وكان موقف الدولة العثمانية منهما مثار جدل ونقاش ، وهاتان القضيتان هما "قضية الغرباء" (١) في شبه جزيرة ايبرية ، وبخاصة اسبانية منها ، او مايطلق عليه في التاريخ الغربي اسم "قضية الموريسكيين" ، وقضية الغزو والبرتغالي للبلاد العربية . فمن المعروف بأن القضيتين لم تحسما في ذلك القرن لصالح العرب ، مع ان الدولة العثمانية التي كانت آنذاك على رأس الاسلام السني ، كانت قد احتوت معظم اجزاء العالم العربي في المشرق والمغرب ، وكانت في عنفوان قوتها ، وكانت جيوشها وأساطيلها ترهب اوروبة . فقد تمكنت ان تطول برا عاصمة الامبراطورية الجرمنية المقدسة (فينا) في ٢٢ محرم ٩٣٦هـ / ٢٦ ايلول (سبتمبر) ١٥٢٩م، وان تصل باساطيلها الى اقصى غربي البحر المتوسط وان تضرب سواحل البالئار واسبانية وتشتي تلك الاساطيل ، بتحالفها مع فرنسة في احد موانيء تلك الدولة ، وهو طولون في تموز سنة ١٥٤٣ م ، بل وتحتفل بشهر رمضان فيه ، وكأنها في اصطنبول.(٢).

---

(١) انظر حولها : ليلى الصباغ ، ثورة مسلمي غرناطة سنة ٩٧٦هـ / اواخر ١٥٦٩م ، والدولة العثمانية في كتاب ملتقى الفكر الاسلامي التاسع ، المنعقد في تلمسان خلال ٢ - ١٠ رجب ١٣٩٥هـ ١٠ - ١٩ تموز (يوليه) ١٩٧٥م ٤ مجلدات ، الجزائر ج ٢٩٣/١ - ٣٦٢ - وفي مجلة (الاصالة) العدد ٢٧ رمضان - شوال ١٣٩٥ هـ ٥ سبتمبر - اكتوبر ١٩٧٥ / ١١٦ - ١٧٥

(٢) Hauser (H) & Renaudet (A), Les debuts de l' age Moderne, Paris 1946, PP.409 - 410.

ولسنا هنا بالطبع بصدد الحديث عن القضية الاولى ، وان كانت لها صلتها العميقة بالقضية الثانية ، وانما سيسعى الى تتبع بعض جوانب القضية الثانية . والموضوع كما هو مطروح في ورقة عمل ندوتنا هذه ، وكما هو منتظر ان يعالج هو "الغزو للخليج العربي بالذات ، وموقف الدولة العثمانية منه" . ولكن من الواضح ان ذلك الغزو للخليج العربي لم يكن سوى جزء من كل ، اي ان الحديث عن موقف الدولة العثمانية منه ، لا يمكن فصله من موقفها من الغزو البرتغالي لمجموع البلاد العربية ، القائمة على طريق البرتغال الجديدة الى بلاد الهند ، وجنوب شرقي اسية . تلك الطريق التي كشفها فاسكو دوغاما بالتفافه حول رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م ، ثم بانطلاقه في مياه المحيط الهندي حتى وصل كاليكوت على الساحل الجنوبي الغربي لبلاد الهند سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م. اي لايمكن دراسته منفردا عن ذلك الغزو البرتغالي للسواحل الغربية للمغرب بالاقصى ، المطلة على المحيط الاطلنطي ، حيث عمل البرتغاليون منذ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي على السيطرة على اهم الموانيء فيه كما ان الغزو البرتغالي للخليج العربي لايمكن فصمه عن غزوهم لـ بلاد السواحل. اي لدول المدن العربية على الساحل الافريقي الشرقي ، ولالجنوب شبه الجزيرة العربية ولا للمناطق المطلة على خليج عمان ، ولا للبحر الاحمر . فكل هذه الامتدادات البحرية تكون وحدة جغرافية واحدة ، تتصل ببعضها اتصالا عضويا ، وتحصر بينها "الجزيرة العربية" التي ليست هي في الواقع ، بحد ودها البحرية تلك والمجاري النهرية الكبيرة فيها ، وطرق القوافل البرية المنبثة في ارجائها ، سوى برزخ يصل عالم البحر المتوسط بعالم الشرق الاقصى ، او بتعبير ادق العالم الاوربي والافريقي بالعالم الاسيوي بكل ابعاده.

وفي الحقيقة ، ان الناظر للعلاقات السياسية العربية ـ الاوروبية في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، لايسعه الا ان يربط بين قضية "الغزو والبرتغالي للبلاد العربية" وبين قضية الغزو الاسباني لسواحل البلاد العربية المغربية المطلة على البحر المتوسط التي اتت متزامنة معه . ذلك الغزو الذي كان يتقدم كسهم مندفع من غربي البحر المتوسط الى شرقه ، وكأنه

يودأن يطول المشرق العربي ويتوضع فيه . وبذلك بدا وكأن الغزوين للعالم العربي ، كانا يسعيان بتحالف ضمني - اذ ليس لدينا وثائق تثبت ذلك التحالف - الى تطويق ذلك العالم وحصره بين فكي كماشة . بل ولايسع الباحث في ذلك "الغزو الايبيري" الا ان يقر بانه ليس في واقعه سوى امتداد لحركة الهجوم الصليبية التي عاناها العالم العربي في مشرقه ومغربه في القرن الخامس الهجري / الحادى العاشر الميلادي، وردة فعل شرسة على الامتداد الاسلامي السابق على شبه الجزيرة الايبرية ، وعلى التوسع الاسلامي العثماني الجديد في شرقي اوربة.

واذا كان من العسير فصل الغزو البرتغالي للخليج آلعربي عن مجموع الغزو الايبري للعالم العربي، فانه لايمكن بالتالي قطعه من اتصاله الوثيق بالغزو البرتغالي للهند ، وجنوب شرقي اسية.

وهكذا يتضح ان موضوع" الغزو البرتغالي للخليج العربي" هو اوسع ساحة بكثير من الرقعة الجغرافية التي يمتد فيها خليجنا ، بل هو في صلاته ، لايقتصر على تلك البقاع المشار اليها سابقا ، وانما تتواصل آثاره، والاستجابات فيه بتلك الحدود التي اعطاها بعض الجغرافيين والمؤرخين لحوض البحر المتوسط والتي يمكننا قلبها واعطاءها للخليج العربي ذاته . فقد رأى المؤرخ بوركهاردت (٣) مثلا ، بأن البحر المتوسط بامتداداته المائية والبرية ، يتطاول حتى اقصى اجزاء المحيط الهندي ، ويمثل انسانا حيا واحدا (٤).

واذا كان المؤرخ فرنان بروديل (٥) قد اكد ان دراسة البحر المتوسط تعني دراسة كل الكتل البرية المتصلة به من قريب او بعيد ، كاوربة ، وافريقية الشمالية حتى بلاد السودان والنيجر والحبشة

---

(٣) Burckhardt (١٨١٨ - ١٨٩٧م) مؤرخ سويسري كتب بالالمانية. كان استاذا في مدرسة البوليتكنيك في زوريخ ، وفي جامعة بال .اشتهر باعماله في ميدان تاريخ الفن وتاريخ الحضارة ومن اشهر مؤلفاته "تاريخ الحضارة الاغريقية" ، وحضارة النهضة في ايطالية وملاحظات حول التاريخ العالمي.Grand Larousse Encyclopedique (G.L.E), 12. V0LS, PARIS 1965-1975. VOL II,P.445.

(٤) تصدير:Braudel (5), La Mediterranee et le Monde Mediterranien a l'epoque de Philippe II, Paris: 1949, P. 179.

جنوبا ، وكتلة الشرق الادنى حتى القوقاز والبحر الاسود ، وارمينية ، والعراق ، وايران ، واسيا الصغرى ، وشبه جزيرة العرب ، والبحر الاحمر شرقا (٦) ، فبالا حرى ان تتطلب دراسة الخليج العربي دراسة ذلك العالم المتوسطى ، الذي اشار اليه ، مضافا اليه عالم الشرق الاقصى ، لان تاريخ هذا الخليج في واقعه ، هو تاريخ طرق تجارة عالمية ، وخيرات كثيرة ، تفرعت منه ووجدت فيه وصبت فيه ، وانتقلت منه.

وغنى عن البيان ان ذلك الغزو البرتغالي المتعدد الساحات ، لم يكن مد فوعا فحسب بذلك الدافع الديني الصليبي، الراغب بالانتقام من الاسلام والمسلمين ، والمتحفز لنشر الدين النصراني والتبشير به ، وانما كان وراءه قوى اكثر فاعليه : اقتصادية ، واجتماعية ، وسياسية ، فمن المعروف والمتداول ، ان الطبقة البورجوازية التجارية التي نمت في اوربة الغربية في اواخر العصور الوسيطة والمفهومات القومية الجديدة التي اخذت تحرك غربي القارة في مطلع العصور الحديثة ، وتخرجها من عصر الاقطاع الى عصر الدول القومية ، المحكومة بنظام الملكية الاستبدادية المطلقة ، كانت المسيرة لتلك الهجمة الاوربية على العالم العربي والافريقي ، والاسيوي والعالم الجديد . فقد كانت اوربة تبغى من هجمتها تلك ، تحقيق الحلم الكبير الذي عاشت تهد هده طيلة العصور الوسطى ، وهو الوصول الى بلاد الهند ومنتوجاتها الشرق اقصوية الثمينة ، كالتوابل ، والذهب ، والحرير وغيرها عبر طرق مباشرة ، ودون وسيط ، فتحقق بذلك المكاسب الاقتصادية الوفيرة ، على حساب اعدائها العرب ، الذين كانوا بالنسبة اليها الوسيط الاول في جلب تلك المواد الثمينة بحكم موقعهم الجغرافي ، وفعالياتهم الاقتصادية الواسعة ، وعلى حساب الدويلات الايطالية المتوسطية ، كالبندقية وجنوة ، اللتين كانتا

---

(٥) "F. Braudel" مؤرخ فرنسي معاصر (١٩٠٢ ـ ١٩٨٦م) . كان استاذا في كلية فرنسة ومديرا لمركز البحوث التاريخية ، واسهم في دورية الحوليات Annales وسعى لاغناء التاريخ بربطه بالعلوم الاخرى. كتابه الشهير هو البحر المتوسط والعالم المتوسطي اثناء حكم فيليب الثاني . واصدره سنة ١٩٤٩م ، وكان اطروحته لنيل درجة الدكتوراة. G.L.E. Vol.II.P.342

(٦) (6) op.cit. P.188

الوسيط الثاني في نقل تلك السلع اليها. وهكذا كان هم الغزو الايبري في الحقيقة ، على الرغم من اظهاره في اعين النصرانية الاوروبية والبابوية ، بانه نشر للدين النصراني وكسب له ، كان الكشف عن طرق تجارية جديدة توصل الى بلاد الهند ، والشرق الاقصى ، تضرب الطرق التجارية العربية وتكون فيها السيادة للايبريين وحدهم . وبذلك يقطع ذلك السبيل الاقتصادي الغني الذي كان يغذي العالم العربي ، ويدعم وجوده. فمعظم طرق التجارة الحاملة لمنتوجات الشرق الاقصى والموصلة الى المنافذ الاوربية ان لم تكن كلها ، كانت تتجمع في اواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وبأمتداداتها البحرية والبرية ، في منطقة العالم الاسلامي. الشرقي ، ويسيطر عليها العرب والهنود ، والصينيون.

وموضوع الغزو البرتغالي للبلاد العربية ، وموقف الدولة العثمانية منه ليس في الواقع موضوعا جديدا على البحث ، فقد كرس عديد من المؤرخين ، وبصفة خاصة من الاوروبيين ، دراسات كثيرة ومستفيضة عنه ، انهم رأوا في الغزو البرتغالي بعامة ، منعطفا جوهريا وخصبا في تاريخهم : فهو مظهر رئيسي من مظاهر الثورة الاقتصادية الاوروبية في مطلع العصور الحديثة ، وعاملا هاما فيها . وهو بدء السيادة الاوروبية السياسية على العالمين الآسيوي والافريقي ، والخطوة الاولى للهيمنة الحضارية الاوروبية على العالم ، وهو ايضا مظهر من مظاهر تطور الفكر الاوروبي العلمي ، لانه ادى الى الكشف عن مناطق واسعة كانت مجهولة المجتمعات والحضارات بالنسبة للفكر الاوروبي . وساعد اولئك المؤرخين والبحاثة الاوروبيين على تغطية ذلك الموضوع ، توافر المصادر بين ايديهم عنه اكانت وثائق رسمية برتغالية او اوروبية او تقارير المرافقين للحملات البرتغالية ، والرحالة. (٧) واستعان بعضهم في المرحلة الاخيرة ببعض المصادر العربية والتركية.

واذا كان للغزو البرتغالي للبلاد العربية تلك الاهمية الاوروبية ، فانه كان له اثر اعمق في حياة البلاد العربية والاسلامية قاطبة ، لانه خلق لها مشكلة وجودية خطيرة ،اذ لم تسع البرتغال بذلك الغزو

الى مشاركة العرب في تجارتهم ، وانما عطت جاهدة بروح الكراهية والانتقام ، والاستئثار المادي ، الى التثبت على اجزاء من ارضهم ، وسد سبل تجارتهم ورزقهم ، وتدمير وجودهم ، ومظاهر حضارتهم . وعلى الرغم من الاهمية البالغة لهذا الحدث التاريخي في حياة العرب في حينه ، فانه لم يعثر الا على مصادر قليلة تتحدث عنه (٨) . الا ان الدراسات التاريخية العربية المعاصرة، عن الخليج العربي بالذات ، نشطت نشاطا كبيرا منذ العقد السادس من هذا القرن، وكان لمركز دراسات الخليج العربي والدوريات التاريخية الصادرة في مختلف دول الخليج ، ولجامعاتها ، وندواتها ، اثر كبير في غنى تلك الدراسات.

وامام هذا الفيض من الدراسات العربية والاجنبية المعاصرة لا ادعي ابدا بانني قادرة على ان آتى في هذا الباب بجديد . ومع ذلك فقد رأيت ان أدلي بدلوي في هذا المضمار ، لان الموضوع مسيس الصلة بدراستين اجريتهما سابقا، احداهما عن الفتح العثماني لبلاد الشام، وثانيتهما عن الجاليات الاوروبية فيها في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . فالموضوع قد يتمم مابدأت ، ويستكمل بعض الصور الناقص.ة .كما رأيت ان لملمة عناصر الموضوع المتفرقة ، التي درست مجزأة ، قد يجعل الرؤية اكثر وضوح،ا سائرة مع احدى القواعد التي وضعها العرب للتأليف بعامة ، والقائلة : لايؤلف احد كتابا الا في احد اقسام سبعة ، وهي اما ان يؤلف في شيء لم يسبق اليه يخترعه او شيء ناقص يتممه او شيء مستغلق يشرحه ، او طويل يختصره دون ان يخل بشيء من معانيه ، اوشيء مختلط يرتبه ،او شيء اخطأ فيه مصنفه يبّينه ، اوشيء مفرق يجمعه (٩)، وقد اكون من الفريق السابع والاخير.

---

(٧) أنظر البحوث التالية حول بعض المصادر والدراسات الاوروبية:

- طارق نافع حمداني : الرحالة البرتغاليون في الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في كتاب الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي وهو الجزء الاول من أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية الاولى (٥ ـ ٧ محرم ١٤٠٨هـ/ ٢٩ ـ ٣١ اغسطس ١٩٨٧م) / ٢١٧ ـ ٢٣٤

- صادق ياسين محمد الحلو : الغزو البرتغالي للخليج العربي من خلال المصادر الفرنسية . المصدر نفسه / ٢٣٥ ـ ٢٥٤ ـ طارق نافع الحمداني . دراسة في الوثائق والمصادر المنشورة عن الغزو البرتغالي والسيطرة البرتغالية في الخليج العربي . المصدر نفسه / ٢٥٥ ـ ٢٧٢

(٨) المصدر نفسه / ٢٦٢ ـ ٢٦٦

(٩) المحبي : خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ٤٠ اجزاء . القاهرة ١٢٨٤هـ ج ٤/ ٤١ ترجمة محمد الشمس البابلي.

تمهيـــد

في ضوء تلك المقدمة الطويلة ، وبعد تتبع الاحداث في تلك الرقعة الشاسعة التي كان لها صلتها القريبة او البعيدة بالغزو البرتغالي للخليج العربي والبلاد العربية الاخرى والاسلامية ، وموقف الدولة العثمانية منه خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، رؤى انه يمكن تصنيف ذلك الموقف ، تسهيلا للبحث ، وايضاحا لتطوره ، الى اربع مراحل ، هي:

اولا ـ موقف الدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦ ـ ٩١٨هـ / ١٤٨١م ـ ١٥١٢ م) وهي تقابل بدايات الغزو البرتغالي . ويمكن ان توصف هذه المرحلة بأنها "مرحلة المواجهة العثمانية غير المباشرة لذلك الغزو."

ثانيا ـ موقف الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الاول (٩١٨ ـ ٩٢٦هـ/ ١٥١٢ ـ ١٥٢٠ م) ، وتوصف بانها "مرحلة الاستعداد للمواجهة المباشرة."

ثالثا ـ موقف الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ) / ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م) وهي مرحلة غنية بالاحداث وكانت مرحلة المجابهة المباشرة العسكرية ، والاقتصادية والسياسية، وقد تخللها بعض اتجاهات نحو الصلح والسلام . وعملت الدولة العثمانية خلالها على جبهات ست: المغرب الاقصى ، والبحر الاحمر ، والجنوب العربي ، والخليج العربي ، والهند، واخيرا جبهة الصليبية الاوربية في اوربة البلقانية والبحر المتوسط.

رابعا ـ موقف الدولة العثمانية مابعد السلطان سليمان القانوني (٩٧٤ هـ / ١٥٦٦م) وحتى اواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي . وهذه المرحلة تتصف هي الاخرى بالمجابهة العسكرية ، والاقتصادية لذلك الغزو، الا ان تلك المجابهة قد ضعفت ، لوهن الدولة العثمانية نفسها ، ولظهور قوى جديدة معادية للبرتغال عملت على الحلول محلها في

امبراطوريتها ، بعضها اوروبي كهولاندة وانكلترة ، وبعضها شرقي كبلاد فارس ، بل وتمكن العرب في النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي ان يطردوها من عمان وبلاد السواحل.

ومع ملاحقتي للمراحل الاربع، فستقتصر هذه الدراسة على المرحلتين الاولى والثانية وبعض ملاحظات سريعة حول المرحلتين الاخيرتين ، وذلك للاسباب التالية.

أ ـ لابد لاية دراسة ان تنطلق من البدايات ليتم ادراك الاواسط والنهايات.

ب ـ لان عرض المراحل الاربع يطيل البحث جدا بالنسبة لندوتنا هذه.

ج ـ لان عناصر كثيرة من المرحلتين الاخيرتين قد سلطت عيه الاضواء اكثر مما سلطت على المرحلتين الاولى والثانية ، بل قد يرى بعض الباحثين ان الدولة العثمانية لم تتخذ موقفا ذا بال قبل المرحلة الثالثة.

اولا ـ المرحلة الاولى : موقف الدولة العثمانية من الغزو البرتغالي للبلاد العربية في عهد السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦ ـ ٩١٨هـ / ١٤٨١ ـ ١٥١٢م

مسرح الاحداث

قبل الحديث عن موقف الدولة العثمانية خلال هذه المرحلة ، لابد لوضوح الرؤية ، من مسح لاحوال مجموع المسرح الذي جرت عليه الاحداث . واذا ماابتدأنا بالعالم العربي ، وهو المعنيّ الاول بالغزو البرتغالي ، وشرعنا بالمنطقة القريبة من البرتغال الخصم ، والتي عانت اولى عمليات الغزو ، الا

وهي المغرب الاقصى ، فانه يلاحظ انه كان في هذه المرحلة يعاني اضطرابا سياسيا ، وضعفا اقتصاديا ، بسبب الصراع على السلطة بين المرينيين الحاكمين والوطاسيين الراغبين في الوصول الى الحكم ، مما ادى الى طمع جيرانه الايبريين به ، الذين كانوا يكنون له عداء صليبيا مريراً فعملتا على الاستيلاء على بعض موانئه الهامة ، على البحر المتوسط والمحيط الاطلنطي . وكانت البادئة بذلك البرتغال: فالى جانب اشباع نقمتها على المسلمين الذين كانوا يوما على ارضها ، فإنها كانت ترى بأنها تقطع دابر غزاة البحر المغاربة الذين اسمتهم بـ "القراصنة" والذين كانوا يغيرون على سفنها وسواحلها . وفي الوقت ذاته فإنها تضمن وصول خيرات المغرب اليها ، ولاسيما القمح ، وتؤمن الملاحة على الشاطيء الغربي لافريقية ، حيث كانت ترسل البعثة تلو البعثة لاستكشافه عله يقودها الى طريق الهند ، والى مملكة القس يوحنا اي الحبشة النصرانية - ، الواقعة جنوبي مصر فتطوق العالم الاسلامي بتحالفها معها (١٠) وهكذا بعد ان استولت سنة ١٤١٥ م على ميناء سبتة اتبعته سنة ١٤٥٨ م بالقصر الصغير ، وفي سنة ١٤٦٣ م بـ أنفة وفي ١٤٦٤ م بـ طنجة ، وفي ١٤٧١ بـ اصيلة ، وفي ١٥٠٥ بـ اغادير وفي ١٥٠٨ بـ صافي. وكانت قد وصلت سنة ١٤٦٠ الى خليج غينية ، حيث وجدت الذهب والرقيق الاسود ، وبذلك حولت طريق الذهب الى المحيط الاطلنطي بعد ان كان يمر من السودان فالمغرب الاقصى ، فالبحر المتوسط.

والى الشرق من المغرب الاقصى لم تكن احوال الجزائر احسن حالا من جارتها ، فالدولة الزيانية كانت تعاني هي الاخرى صراعا على العرش في تلمسان ، وتصرف جهودا يائسة لتحافظ على وجودها بين الدولة المرينية في غربها والدولة الحفصية في تونس شرقها وهذا اثار لعاب اسبانية ، بعد ان كانت قد قضت على دولة غرناطة سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٢ م واخذت تعلن ان حدودها الجنوبية هي ساحل افريقية الشمالية فاستولت سنة ١٥٠٥م على المرسى الكبير واتبعته في ١٥٠٨م بـ وهران فبجاية

(١٠) ليلى الصباغ معالم تاريخ اوربا في العصر الحديث . دمشق ١٤٠١ - ١٤٠٢هـ / ١٩٨١ - ١٩٨٢م ص ٧٥- Jean Favier. De Marco Polo a Christophe Colomb(1250-1492) Paris 1968. P.P 335 - 337 - Halphen (L). L'essor de L' Europe XiC-XIII Sieicle. Paris 1940 PP.435-436.

سنة ١٥١٠ م ورضخت لها تنيس ودليس وشرشال ومستغانم ، وبنون الجزائر سنة ١٥١١م ، وبذلك غدت لها السيادة على الساحل الجزائري.

اما تونس : فاوضاعها كاوضاع جارتيها ، والصراع على العرش قائم بين افراد الاسرة الحفصية ، وكان بعضهم يلتجىء الى اسبانية لتقدم له العون لتثبيت عرشه . وقد تمكنت هذه الاخيرة من احتلال جزيرة جربة سنة ١٥١١م وكانت قبل ذلك قد وضعت نفسها في طربلس الغرب سنة ١٥١٠م.

وشرق طرابس الغرب تقوم مصر، مقر الخلافة العباسية الوهنة، والحكم المملوكي الذي كان بيد المماليك البرجية . وكان هؤلاء يسودون مصر وبلاد الشام والحجاز وكان لهم اهتمامهم الكبير بالتجارة مع الشرق الاقصى من ناحية ، ومع العالم الاوروبي المتوسطي من ناحية اخرى . فقد كانت تلك التجارة تدردخلا كبيرا على الخزينة المصرية ولذا سعوا لتحويلها الى الموانىء الواقعة تحت نفوذهم بدل تمركزها في موانىء اليمن ، ولاسيما عدن. ففتحوا امام تجار الشرق من عرب وهنود ميناء جدة ، فانتقلت معظم تجارة الهند اليها . وكانت السفن تربط هذا الميناء بميناء الطور والقلزم (السويس) في شمالي البحر الاحمر حيث كانت تدخل سلع الهند الى مصرعن طريقهما . ومنهما كانت تنقل على ظهور الابل الى القاهرة ، ثم منها على سفن نهرية الى الاسكندرية و رشيد ، ومنهما تحملهما مراكب البندقية وجنوة الى ايطالية وغربي البحر المتوسط ، حيث يتم توزيعها في انحاء اوربة . وكان لدولة المماليك هذه طريق اخرى تحمل بها سلع الهند الى ممتلكاتها ، وهي الطريق البحرية المنطلقة من الهند الي خليج عمان «ف» هرمز في مدخل الخليج العربي ، فالبصرة شماله فبلاد الشام الا ان سيطرتها على هذه الطريق ضعيفة ، لان منطقة الخليج العربي ، وجنوبي العراق لاسيادة لها عليهما . ومن ثم بقيت طريق جدة ـ مصر هي الطريق الرئيسة بالنسبة لها ، وان كانت الطريق الثانية هي الاهم لبلاد الشام.

ومع ان سيادة المماليك كانت تمتد الى **بلاد الحجاز** ، الا ان الحكم الفعلي في هذه الديار

كان بيد الاشراف ، وعلى الرغم من فقرها الاقتصادي الانتاجي ، فانها كانت تكفي نفسها عن طريق ماكان يأتيها من عائدات التجارة في جدة ، ومن الحج الاسلامي ، ومن الاوقاف والهبات.

وهكذا فإن دولة المماليك كانت هي القابضة على النصف الشمالي من حوض البحر الاحمر وتحت نفوذها الاماكن الاسلامية المقدسة ، والاماكن النصرانية المقدسة . الا ان هذه الدولة كانت هي الاخرى قد حطت قواها في اواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي لسوء سياستها الزراعية ، والصناعية والتجارية ، وللانحلال الذي اصاب النظام المملوكي العسكري ولتفاقم غزوات البدو والاوبئة التي كانت تجتاح البلاد بين حين وآخر وللصراع على السلطة (١١) .

وفي جنوب الحجاز ، وعلى الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الاحمر ، تقوم **بلاد اليمن** حيث كان الصراع لايتوقف بين جزئيها الساحلي السهلي ، والجبلي الداخلي . فقد كان على رأس القسم لاول الدولة الطاهرية ، السنية الشافعية ، ومن مدنها وموانئها الهامة زبيد وتعز ومخا وجزر كمران لقريبة من الساحل الا ان اهم موانئها هو ميناء عدن في جنوبها حيث يقع على الخليج المسمى باسمه، ، وعند مدخل باب المندب. وكانت عدن على الرغم من منافسة ميناء جدة لها في تجارة الهند ، لاتزال محطة كبيرة لهذه التجارة ، وللتجارة مع الحبشة ، وبلاد السواحل ، وكانت تتمتع بميناء ممتاز حصين . اما القسم الثاني من اليمن فقد كان يحكمه الاشراف الزيديون ، وعاصمته صنعاء.

وعلى الساحل الغربي للبحر الاحمر ، ومقابل الحجاز يقع ميناء **سواكن** وكان تابعا لمصر والى جنوبه تمتد المنطقة المسماة اليوم اريترية وفيها ميناء **مصوع** . وكانت الحبشة النصرانية تتصل بالبحر الاحمر عن طريقه ، وتمد نفوذها عليه. (١٢) اما جزر دهلك المقابلة لمصوع فكانت تارة تتبع

---

(١١) انظر ليلى الصباغ تاريخ العرب الحديث والمعاصر دمشق ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ م/٣٢ ـ ٣٤

(١٢) Kammerer (A), La Mer Rouge L'Abyssinie et L' Arabie,depuis l'Antiquite' 4 Vols Le Caire 1924-1935- Vol II. P.9.

الحبشة ، واخرى اليمن ، وثالثة تتحالف مع مصر (١٣).

والى الغرب من ذلك الشريط الساحلي تنتصب **الحبشة** التي تدين بالنصرانية على المذهب اليعقوبي . ويحكمها النجاشي او الحطي كما سماه المؤرخون العرب . وهي بلاد القس يوحنا التي كان الاوربيون يسعون للتحالف معها ضد المسلمين.

والى الجنوب من الحبشة وعلى ساحل افريقية الشرقي ، تمتد ماكان يسميه العرب بلاد **السواحل** . وقد ميز العرب فيها ثلاث مناطق من الشمال الى الجنوب : اولها منطق بلاد بربرة او سواحل خليج عدن ، وفيها زيلع ومقديشو . وفي هذه المنطقة وماخلفها في الداخل تقع الامارات الاسلامية السبع التي كانت تحف جنوب وجنوب شرقي الحبشة ، والمسماة بسلطنات الطراز الاسلامي، او كما اسماها المقريزي ممالك بلاد زيلع (١٤) . وكانت تسيطر على طريق التجارة الرئيسي بين البحر والداخل مما كان يقلق الحبشة باستمرار فتشن عليها الحرب بين الحين والحين ، وهي بالتالي كانت تتصدى للحبشة في حرب دينية - اقتصادية لتتخلص من تبعيتها . وقد اشتهر منها في هذه المرحلة دولة **عدل او زيلع** التي عملت خلال النصف الاول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي على فتح الحبشة ، بقيادة امامها احمد المجاهد، وكان للغزو البرتغالي اليد الطولى في اخفاقه في مهمته.

والمنطقة الثانية من بلاد السواحل هي الممتدة من مقديشو حتى شمالي سفالة في موزامبيق الحالية . وتتألف من مجموعة من دول المدن العربية الاسلامية ، مثل بتة ولامو وملندي ، وزنجبار ، وجدي ، وممبسة ، وكلوة ويحكمها سلاطين مسلمون.

والاقليم الثالث من بلاد السواحل : هو ارض سفالة ، وتمتد من جنوب كلوة الى نهاية

---

(١٣) Longrigg (S.H). Dahlak. dans l' Encyclopedie de l Islam (E.I) 2° ed V0l.2. PP.92 -93.

(١٤) الالهام باخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام . القاهرة ١٣١١هـ / ١٨٩٥م. ص ٥

موزامبيق (مسمبيج) . وكان الهنود البنيان يشاركون العرب في بلاد السواحل العمل التجاري بسلام واطمئنان . وكانت بلاد السواحل على صلات تجارية قوية مع الساحل الغربي للهند المالبيار ، ومع الجنوب العربي ، والخليج العربي وجزر الهند الشرقية.. فالتجار العرب والهنود كانوا يحملون الى الهند ، العاج ، والذهب ، والحديد ، والنحاس ، والعنبر الرمادي ، والعبيد ، والخشب ، والارز والجلود المتنوعة ، والصمغ ، والبخور ، والرقيق الاسود (١٥)

واذا انتقلنا الى **جنوبي شبه الجزيرة العربية** المطل على البحر العربي ، تطالعنا حضرموت . وكان على رأسها في هذه المرحلة آل كثير . وهم مجموعة قبلية اصلها من ظفار ، وقد جعلت الشحر ميناءها الرئيسي . وكانوا في تنافس مع قبائل مهرة في كشن شرقي الشحر . وكان النفوذ الحضرمي ، ولاسيما الديني السني الشافعي كبيرا في بلاد السواحل ، وفي بلاد الهند ، وبخاصة في كجرات (جوزرات)، وبيجا فور وكاليكوت (١٦)

والى شرقي شبه الجزيرة العربية ، تقع **عمان** وهي عتبة الخليج العربي . وساحل عمان يضم اكثر من ميناء تجاري له فعالياته في الاتجار مع الهند والشرق الاقصى من ناحية، ومع موانيء الخليج العربي ، والجنوب العربي ، وبلاد السواحل من ناحية اخرى ، مثل قلهات وصحار ومسقط وخورفكان . وفي هذه المرحلة التي نتحدث عنها ، كانت هذه الموانيء تابعة لملكة هرمز ، سيدة الخليج العربي انذاك . وكان حكامها يدفعون لها جزية سنوية وهؤلاء الحكام كانوا على مايبدو من "الجبريين" امراء الاحساء وكانوا قد فرضوا سيادتهم في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، على الاجزاء الغربية

---

(١٥) ليلى الصباغ . افريقية الشرقية في مطلع العصر الحديث . بحث قدم الى ملتقى الفكر الاسلامي الثالث عشر في تمنغست في الجزائر (٩ - ١٥) شوال ١٣٩٩هـ / ١ ـ ٧ سبتمبر ١٩٨٩م)

وانظر ايضا الشاطر بصيلي . تاريخ وحضارات السودان الشرقي والاوسط . القاهرة ١٩٧٢ ـ شوقي الجمل ـ تاريخ كشف افريقية واستعمارها .القاهرة١٩٧٢م

(١٦) Serjeant (R.B). The Portuguese of the South Arabian Coast. Hadrami Chronicles. Oxford. 1963 - P.8.

من الخليج العربي ، وعلى البحرين ، وسواحل عمان ، وكانوا في صراع مع مملكة هرمز (١٧) . وكانت هذه الموانيء ولاسيما مسقط ، سوقا هامة لتصدير التمور والخيول ، وهي في الوقت ذاته مستودع لسلع الهند وبلاد السواحل ، والخليج العربي (١٨).

وفي النهاية الشمالية لخليج عمان ، وفي باب الخليج العربي تقع **جزيرة هرمز** عند المضيق المسمى باسمها . وكانت تحكم منذ مطلع القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد من قبل آل قطب الدين العرب المسلمين . وقد مدت سلطانها الى ساحل عمان ، كما سادت البحرين والقطيف في الاحساء وبقيت سيدة الخليج العربي وساحل عمان حتى النصف الاول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، حيث نازعها الجبريون النفوذ. وكانت « **مملكة اللار** » الى شرقها ، وعلى الساحل الشرقي لجنوب الخليج العربي تدّعي سيادتها عليها، ولذا فانها كانت تدفع جزية لها . وكانت هرمز على الرغم من انها جزيرة قاحلة لاماء ولانبات فيها ، محطة تجارية لاغنى عنها ابدا للآتين من العراق ، وفارس وبلاد الخليج والمتجهين للهند والصين وبالعكس . وكانت السفن تخرج منها ، ومن موانيء عمان ، وهي محملة بسلع اسية الصغرى والوسطى وبلاد الشام واوربة والخليج العربي ، نحو موانيء ساحل المالبار في الهند وتعود ، شأنها شأن سفن جدة وعدن وهي مشحونة بسلع الهند وجزر الهند الشرقية ، والصين ، ولاسيما منها الفلفل والتوابل ، التي كانت اوربة لاتستغنى عنها في تطييب طعامها وحفظه ، وفي صناعتها الدوائية . وكانت توسق ايضا بلآلي سيلان ، وبالاحجار الكريمة والنيلج وخشب البرزيل ، والصبرة ومسك التيبت ، والحرير الصيني ، والذهب والنحاس والكافور ،

---

(١٧) عبد اللطيف ناصر الحميدان التاريخ السياسي لامارات الجبور في نجد وشرقي الجزيرة العربية (٨٢٠ ـ ٩٣١هـ/ ١٤١٧ ـ ١٥٢٥م) في مجلة كلية الآداب جامعة البصرة العدد (١٦) سنة ١٩٨٠ جمال زكريا قاسم الاوضاع السياسية في الخليج العربي ابان الغزو البرتغالي في كتاب ابحاث ندوة رأس الخيمة . مصدر سابق / ٢٥ ـ ٣٤ G Rentz. Djabrites. dans E.I. 2nd ed Supplement P.234. Milles (S.B) The Countries and Tribes of the Persian Gulf. London 1966 PP.143-144.153-156.

(١٨) Wilson (Sir Arnold). The Persian Gulf-London 1954 -P.115

ابن ماجد (شهاب الدين احمد) كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد تحقيق ابراهيم خوري وعزة حسن دمشق ١٩٧١ / ٢٨٢ ـ ٢٨٣

والخلنج ، وغيرها (١٩) وهرمز كانت دهليز الهند ومستودع جميع المنتوجات الجميلة العجيبة التي تأتيها من كل صقع (٢٠).\وفي الجنوب الغربي للخليج العربي هناك المنطقة المطلة على بحر البنات ، وفيها من الموانيء جلفار او رأس الخيمة ، مسقط رأس الملاح العربي الشهير احمد بن ماجد. وتعتمد حياة السكان على صيد الاسماك واستخراج اللؤلؤ بكميات وفيرة وتصدر الى الهند والى غيرها من المناطق ويبدو انها شأن موانيء عمان كانت تتبع اسميا لملك هرمز ، الا ان سكانها كانوا في حالة تمرد دائم. وكانت مأوى لقراصنة البحر ، والذين كانوا يمدون نشاطهم حتى جنوب الجزيرة العربية (٢١).

والى الشمال تقع جزير البحرين التي اشتهرت بمصائد اللؤلؤ ، وكانت تابعة للجبريين بعد ان كانت من ممتلكات هرمز . ومنها يصدر اللؤلؤ الى جميع انحاء العالم ، وهي الاخرى مركز من مراكز تجمع سلع الشرق (٢٢).

ويقابل جزر البحرين على ساحل شبه الجزيرة العربية **الحسا او الاحساء** . وهي مجموعة من الواحات ابرزها الهفوف في الداخل والقطيف على الساحل وتزرع النخيل ، وتصدر تمورها الى

---

(١٩) Heyd (W), Histoire du commerce du levant an Moyen Age, traduit en francais par Furcy Raymond- 2Vol - Amesterdam 1959 .Vol 1.P.165.

(٢٠) انظر حول هرمز ابن بطوطة الرحلة بيروت ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤
Faroughi (Abbas), Histoire du Royaume de Hermuz depuis son origine Jusqu'a' son incorporation dans l'empire des Séfévis en 1622. Bruxelles 1949 .— Heyd (W). loc cit Vol II PP. 133-140. Lockhart (L) Hurmuz, dans E.I 2 ed. Vol III, PP. 604-606 - Calmar (J), Lar et Laristan dans EI 2° ed. Vol V(670-681) P.677 — Yule (H),Cuthay and the Way Hither,revise par H Cordier, Londres 1913, P.112.

(٢١) Barbosa (Duarte), the book of Duarte Barbosa جمال زكريا قاسم ، المصدر نفسه ، ٢٧ . An Account of the Countries bordering on the Indian Ocean about the Year 1518. Translated from the Portuguese Text by Mausal Leng worth Dames London, Hakluyt Society,1918. Vol 1.PP.73-74.— Wilson, op,cit PP.199-200. —Rentz (G) . Al Kawasim, dans, E.I. 2° ed Vol. IV. PP. 809-810

(٢٢) Rentz (G) . Al-Bahrayan, dans.E I 2°ed Vol.1 PP 969-973.

الهند وفارس ، وعمان ، وغرب الجزيرة العربية . وكانت خلال هذه المرحلة تحت حكم الجبريين ، وكانت ميناؤها القطيف من اغنى مناطق الخليج العربي (٢٣).

وفي رأس الخليج العربي تطل العراق بجزئها الجنوبي ، وميناء البصرة فيه وكانت تحكمها في اواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي دولة الآق قوينلو (القطيع الابيض) ، التي وهن عظمها وقامت على انقاضها الدولة الصفوية الشيعية . وقد انطلقت هذه الدولة من طريقة صوفية شيعية حول اردبيل شمال غربي ايران الى دولة غازية ومبشرة بالمذهب الشيعي الاثنى عشري. وقد تمكن رأس هذه الطريقة اسماعيل خلال هذه المرحلة وبفضل جهود مريديه من القزل باش من القضاء على دولة الآق قوينلو سنة ٩٠٧هـ /١٥٠١م، وان يضم اذربيجان ، ويسيطر على تبريز ، حيث توج شاها على بلاد فارس وحيث اعلن عن سياسته في فرض التشيع بالقوة، ثم عمل على ضم ايران كلها والعراق ، ودخل بغداد سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م وتابع تقدمه شمالا بشرق ويبدو ان اهتماماته البرية كانت اقوى من البحرية ، فلم يكرس جهدا للتوسع في الخليج العربي ، بل ترك الامور فيه على حالها ، ولاسيما بعد ان قدم له ملك هرمز ، وامير اللار آيات الولاء والتبعية (٢٤).

اما بلاد **الهند** وهي قطب الجاذبية للبرتغاليين ، فقد كانت تعاني هي الاخرى اوضاعا سياسية مضطربة : فهي تضم مجموعة من الدول الاسلامية والهندوكية ، ولم تكن بعض الدول الاخيرة راضية عن السيادة الاسلامية ، وابرزها فيجايا ناغارا في اقصى جنوبي الدكن . واشهر الدول الاسلامية في الهند خلال هذه المرحلة ، والتي كان لها دورها تجاه الغزو البرتغالي دولة **كجرات** وعلى

(٢٣) انظر عبد الفتاح عليه العثمانيون وبنو خالد في الاحساء في المجلة التاريخية المغربية تونس العدد (٢٩ ـ ٣٠) تموز (يوليه) ١٩٨٣ ـ (٢٢ ـ ٤٦) ص ٢٧. Rentz (G). Katif . dans E. I 2° ed Vol IV PP. 794-796.

(٢٤) انظر حول اسماعيل الصفوي ـ هيوار اسماعيل الاول في دائرة المعارف الاسلامية المعربة ٠١٥ جزءا القاهرة د ت
- Toynbee (Arnold). A study of History.. Oxford University Press. 1945. Vol. I. PP. 347-402
- R. M. Savory & T. Gandjei. Ismail. 1er. Dans E. I. 2° ed Vol. IV PP. 194-196.
- Calmar. op. Cit. P. 677.

رأسها محمود شاه (٨٦٣ ـ ٩١٧هـ / ١٤٥٨ ـ ١٥١١م) (٢٥) ومن موانئها الناشطة تجاريا مع البلاد العربية المذكورة انفا جوجة وكمبية وسورت ودامان وديو وكان التجار يجدون في تلك الموانيء كل منتوجات البلاد الهندية والصينية والبلاد العربية والاوروبية .(٢٦) ومن الدول الاسلامية ايضا **بيجافور** ويحكمها آل عادل شاهي ، ومن موانئها الرئيسية غويا (كووه). وفي الواقع ان ساحل المالبيار كان يعج بالموانيء التجارية ، وكلها الى جانب اختصاص بعضها بسلع معينة ، كانت تتوافر فيها كل المنتوجات الهندية الاخرى ، وبخاصة الفلفل ، والتوابل بجميع انواعها، وجميع تلك الموانيء تتعامل بسلام وود مع العرب ، وتصدر الى بلادهم منتوجاتها المتنوعة . وابرز هذه المرافيء **كاليكوت** جنوبي المالبيار وقد كانت لتجارها مخازن لسلعهم في القاهرة والاسكندرية ، وحتى في فاس بالمغرب الاقصى . وكانت علاقة حاكمها السامري فـضحقغخج بالمسلمين علاقة متينة على الرغم من انه لم يكن مسلما . ولكن كان هناك صراع بينه وبين عاهلي كشي و كننور ، مما ساعد البرتغاليين على تثبيت قدمهم فيهما اول وفودهم الى الهند (٢٨). ومع اهتمام جميع موانيء المالبيار بارسال السفن الى عدن وجدة ، فانه ما من ميناء من كننور جنوبا الى كمبية شمالا الا وكانت تخرج منه سفن الى هرمز ، وتأتيه بالمقابل سفن منها وهي محملة بصفة خاصة باللالي والخيول ، وغيرها من منتجات الخليج والمشرق العربي والمغرب (٢٩)

وخلاصة القول ، على الرغم من انقسام الهند الى عدد من الوحدات السياسية ، فإن تجارتها وصلت الى مستوى عال من الفعالية في اواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي هذا في الوقت الذي كان فيه بابر التيموري بتأهب ليدخلها ويكون فيها الامبراطورية المغولية الاسلامية.

---

(٢٤) J. Burton-Page. Gudjarat. dans E. I. 2^o ed. Vo. II PP. 1149-1157.

(٢٥) Heyd. op. Cit. Vol II PP. 144. 500

(٢٦) A. S. Basmee Ansari. Bidjapur. Dans. E. I.2^o ed. Vol. I. P. 1238

P. Hardy. Adil-Shahs. dans Ibid. vol. I. P. 204.

(٢٧) بانيكار (ك م) اسيا والسيطرة الغربية تعريب عبد العزيز توفيق جاويد ومراجعة احمد خاكي القاهرة د ت ص ٣٦ ـ ٣١

(٢٨) Heyd. op. Cit. Vol II. P. 502.

الغزو البرتغالي في سواحل المحيط الهندي وتفرعاته

كانت تلك ساحة عالم العرب والهند ، اما الساحة الثانية فهي ساحة اوربة . وقد اشير في المقدمة الى ان الدول القومية الناشئة في اوروبا ، كفرنسة ، واسبانية وانكلترا والبرتغال اخذت تبحث في مطلع العصور الحديثة عن دعائم اقتصادية تمكن لوجودها القومي. وكان الهم الاول لهذه الدول ان تحقق السيادة في البحار ذات الاهمية التجارية (٣٠)، لتكسب ماكسبته البندقية خلال العصور الوسطى . واختلط في ذهنها المفهوم القومي بالمفهوم الديني الصليبي . وهكذا غامرت فرنسة خلال هذه المراحل في الحروب الايطالية (١٤٩٢ ـ ١٥١٩م) لتكون لها السيطرة على البحر المتوسط ، ولتحقق عبرها حلم السيادة على قبرص فالعالم الاسلامي بما فيه القدس ، فالقسطنطينية (٣١) . وبينما كانت فرنسة تخوض حربها في ايطالية ، كانت اسبانية والبرتغال ، تندفعان نحو المحيطات باحثتين، والوثبة الصليبية التي حركتهما ضد المسلمين اثناء حروب الاسترداد لاتزال تغلي فوارة في صدريهما ، عن طريق جديدة لتجارة الشرق غير طريق البحر المتوسط المعروفة التي يسيطر عليها المسلمون والبنادقة فتوصلت اسبانية لكشف القارة الامريكية سنة ١٤٩٢م، والتفت البرتغال حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧م ، وجاست في مدن «بلاد السواحل»، ومن ملندي انطلق رنيس بعثتها الاستكشافية فاسكودو غاما نحو الهند ووصل ميناء كاليكوت ميناء الافاوية الاول في الهند ، في ٥ شوال ٩٠٣هـ / ٢٧ ايار ١٤٩٨ .

وكانت هذه بداية الغزو البرتغالي لعالم المحيط الهندي ، بكل سواحله.

كانت رحلة فاسكود وغاما الاولى هذه رحلة استكشافية ، اتضح له منها بان العرب هم المسيطرون على التجارة في المحيط الهندي كله . ولن يتسنى للبرتغال ان تسود المحيط والتجارة فيه .

---

(٣٠) Pirenne (Jacques). Les Grands Courants de L' histoire Universelle. 4. vols. Paris 1950. Vol. II. PP. 339-340

(٣١) Hauser & Renaudet. Op. Cit. PP. 72-73

وتحتكر كل تلك الخيرات من توابل وعطور نادرة ، ولالى واحجار ثمينة التي تفيض بها موانىء الهند ، الا اذا ابعدت العرب عنها . وقد شجع الربح الذي جناه ملك البرتغال من بيع التوابل التي احضرها فاسكود غاما على قلتها ، على ارسال الحملة تلو الحملة الى الهند . فخلال هذه المرحلة التي نتحدث عنها ، ارسلت البرتغال ثلاث عشرة حملة . وكانت كل واحدة منها تضم عددا كبيرا من السفن الضخمة (الكارافيل) ، وحمولة بعضها تتراوح بين ألف والف وخمسمائة طن ، وكلها مسلحة تسليحا قويا ، ومحملة بالمدفعية والعديد من البحارة والجند (٣٢) . وقد اسهم في تمويل تلك الحملات ، الى جانب التاج البرتغالي ، شركة تجارية المانية - ايطالية من كبار الرأسماليين (٣٣) وهكذا صممت البرتغال ، منذ الرحلة الاولى لفاسكودوغاما ، ان تحتكر الطريق الجديدة وان تطرد منها بشتى الوسائل العرب القابضين عليها . وقد اتبعت لتحقيق ذلك الاساليب التالية:

اولا - الزام امراء الهند بالاقناع ، او بالقوة والتهديد ، او بالغزو لموانئهم ، بعدم التعامل مع التجار العرب ، وبطردهم من مرافئهم. وفرضت على من اعلن تبعيته لها ، تحت ضغط السلاح والتدمير بالا يسمحوا لاي تاجر مهما كانت جنسيته ان يغادر موانئهم دون ان يكون حاملا تصريحا بذلك من البرتغاليين . وكل من لايحمل تلك التذكرة او الورقة كما سماها احمد زين الدين المعبري (٣٤) معرض لعقوبة العبودية الدائمة او الموت (٣٥). وبذلك حرم التجار العرب من تلك التصاريح . ولاسيما اولئك الذين كانوا يقومون بالتجارة بين الهند. والبحر الاحمر.

ثانيا - بارهاب العرب ، عن طريق ملاحقة سفنهم بكل وسائل العنف والتدمير . اكانت تلك السفن تجارية ام محملة بالحجاج ، كالحرق ، والاغراق ، والاسر وقتل البحارة والركاب ، والتمثيل بهم او استعبادهم . وجميع المصادر العربية المتوافرة ، وجميع المصادر الغربية متفقة على ان البرتغال

---

(٣٢) Ibid. PP. 65-66

(٣٣) Ibid. P. 66- Heyd. op. Cit. II PP. 530-531

(٣٤) تحفة المجاهدين في احوال البرتغاليين . قدم له وحققه وعلق عليه محمد سعيد الطريحي . بيروت ١٤٠٥هـ , ١٩٨٥م . ص ٢٥٠

(٣٥) Stripling. The Ottoman Turks and the Arabs-Urbana 1942- P. 28.

ارتكبت من الاعمال اللا انسانية حيال العرب ماينذى له الجبين . وقد يكون ادق وصف لتلك الاعمال المشينة ماقدمه احمد زين الدين المعبري في كتابه تحفة المجاهدين (٣٦) وهو وهوزر ورنودة الفرنسيان في كتابهما مطالع العصر الحديث (٣٧).

ثالثا ـ بسعيهم لاحتلال مراكز على الارض الهندية ، والارض العربية كلها الممتدة على طول ، طريقهم التجارية الجديدة ، والقريبة منها ، او التي يمكن ان تنفذ منها تجارة الهند الى العرب ، ثم اقامة حصون ضخمة ، وقلاع منيعة فيها . وانشاء مثل هذه الحصون كان من التقنيات الحربية الاساسية التي كانت تستخدمها اوربة في حروبها آنذاك اذ بها تقوي ذاتها . وقد رأى البوكيرك مؤسس هذه الامبراطورية البرتغالية انه لاغنى عنها في مجابهة السكان الوطنيين والعرب اذ بها يحمي المحطات التجارية التي اغتصبها بالقوة ويدرعها . وكان يرافق انشاء تلك الحصون ايجاد شبكة من المراقبة والتجسس ، تتحسس الخطر قبل وقوعه فتتهيأ للدفا ع ورده، وبذلك تضمن الامان لمواقعها تجاه اي رد فعل معاد (٣٨).

رابعا ـ باقامة اساطيل حراسة ، ومراقبة ، ومطاردة وبعضها اتت به البرتغال جاهزا من بلادها وبعضها كانت تنشئه في المراكز المختلفة التي احتلتها ، وعلى ايدي عمال حملتهم على الاسطول او محليين. وزودت تلك الاساطيل بالمدافع الثقيلة ، وجميع انوا ع الاسلحة النارية الحديثة. (٣٩)

وفي ضوء تلك الاساليب ، نشطت البرتغال خلال هذه المرحلة عسكريا على جميع الجبهات وفي آن واحد ، بما فيها جبهة المغرب الاقصى التي اشرنا اليها سابقا . وساعدها تفوقها في انشاء السفن المحيطية الكبيرة المتطورة ، وافانين تسليحها القوي لها ، والتفكك الذي تعيشه الاقاليم العربية

---

(٣٦) المصدر السابق نفسه / ٢٦٢ ـ ٢٦٣

(٣٧) Op.. Cit. P.60

(٣٨) Braudel. Op. Cit. PP. 671-672

(٣٩) Hauser & Ranaudet Op. Cit. P.66 ٦٦

والهند والصراعات الداخلية فيها ، وعدم وجود قوى بحرية عسكرية ذات شأن تحرس تلك السواحل الطويلة ، والعون الذي قدمته لها الاطراف المتصارعة ، وبعض دول الهند غير المسلمة مثل فيجايا ناغارة على تحقيق ماكانت تهدف اله ، ولاسيما انها كانت تغري المتصارعين بالاسلحة الجديدة التي كانت تموتهم بها .

ففي جبهة الهند وهي من اولى الجبهات التي بدأت العمل بها في المحيط الهندي بصفتها منبع التوابل ، والمحطة الكبرى للتجارة العربية ، تمكنت من اجتذاب كشي وكننور اليها ، مستفيدة من صراعهما مع "سامري كاليكوت" فسمح لها باقامة قلعة في الميناء الاول سنة ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م وبنشر رجال دينها المبشرين بالنصرانية فيها اما كاليكوت فظلت تقاوم البرتغال حتى اواخر القرن السادس عشر ولما رأى البوكيرك عناد سامريها ، التجأ الى غويا وتمكن من الاستيلاء عليها سنة ٩١٦هـ /١٥١٠م، وجعلها عاصمة لامبراطوريته ، وقاعدة لاسطوله الحربي الكبير والمحطة التجارية الاولى في الهند ، وبنى فيهاقلاعا عديدة منيعة (٤٠). ومن غويا انتقل الى ملقا المزود الاول لتجارة الشرق بالتوابل ، ومفتاح المحيط الهادي ، وهمزة الوصل بين الصين والاقطار المجاورة (٤١) . ولاسيما ان العرب الذين سدت امامهم موانيء الهند ، شرعوا ينتقلون اليها مباشرة ، ملتفين حول جنوب سيلان ، ليتفادوا مطاردة الاساطيل البرتغالية . وتم له الاستيلاء عليها سنة ٩١٧هـ / ١٥١١ . واقام فيها ايضا قلعة حصينة ، وانشأ اخرى في ميناء كولم (٤٢).

والجبهة الثانية التي سعت البرتغال لفرض سيادتها عليها ، ومن حواف المحيط الهندي ، كانت الجبهة المقابلة للهند ، اي **بلاد السواحل** فمنذ ٩٠٨هـ/١٥٠٢م أجبرت . كلوة على دفع الجزية ، و أتبعتها بـ زنجبار سنة ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م والمدن الاخرى، وتمكن ألمايدا باسطوله الكبير ، من اقامة حصون عسكرية منيعة في كلوة وممبسة وسفالة سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م ، وفي ٩١٢هـ / ١٥٠٦م تم

---

(٤٠) احمد زين الدين المعبري المصدر نفسه / ٢٦١

(٤١) بانيكار المصدر نفسه / ٤٧

(٤٢) زين الدين المعبري- المصدر نفسه / ٢٦١

الامر ذاته في باراوة ، وفي ٩١٣هـ / ١٥٠٧م في مسمبيج (موزامبيق) ، وذلك بعد تدمير تلك المدن واحراقها ، لمقاومتها لهم (٤٣) وكأنهم كانوا يقصدون تدمير الحضارة العربية الاسلامية كلها.

الا ان السيطرة على الجبهتين لاتكفي لسد منافذ تجارة الهند الى البلاد العربية في الخليج العربي ، وجنوب الجزيرة العربية ، والبحر الاحمر . وهنا تصدى البوكيرك لهذا الامر ففي **جبهة الجنوب العربي** استولى سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧ م على جزيرة سقطرة القريبة من باب المندب ومدخل البحر الاحمر ، وبني حصنا فيها ، ظنا منه انه يمكنه منها ان يمنع العرب من دخول خليج عدن والبحر الاحمر والخروج منهما ، وبذلك يضرب تجارة المسلمين في مصر والحجاز ضربة قاصمة ، ومعها بالتالي تجارة البندقية التي تتغذى منها . وانتقل من هذه الجبهة الى **جبهة الخليج العربي** ، حيث رأى ان يسيطر على عتبته الممثلة بموانيء عمان . وبالفعل فقد فرض في العام نفسه اي سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٧ م سيادته على قلهات والقريات ومسقط وصحار وخورفكان ، وألزمها على الاعتراف بتبعيتها لملك البرتغال ، واتبع مع الموانيء التي قاومته مااتبع في مدن بلاد السواحل ، اي قصفها بالمدفعية ونهبها ، واحرقها بمراكبها الراسية ، وترساناتها ، وهدم مساجدها ، وقتل سكانها ومثل فيهم بقطع انوفهم واذانهم واستعبد بعضهم (٤٤)، ثم ابحر الى هرمز ، وكانت قد قررت المقاومة ، فحاصرها ، وضربها بالمدفعية . ولما رأى ملكها الا قبل له على بالمقاومة ، فانه قبل التبعية والجزية ، والتعهد بعدم استقبال اية سفينة تجارية في مينانه اذا لم تكن تحمل تصريحا برتغاليا ، وباعفاء سلع البرتغال من الرسوم ، وبالسماح بانشاء حصن في الجزيرة . ولكن ثورة جنده عليه دفعته الى مغادرة هرمز قبل انهاء الحصن على امل العودة اليها قريبا (٤٥).

وفي **جبهة البحر الاحمر** فانه لم يفت السفن البرتغالية دخوله ، والقرصنة فيه بدليل قول

---

(٤٣) Kammerer. Op. Cit. II. P.113

(٤٤) Serjeant. Op. Cit. P 15 Wilson. Op. Cit. P. 115.

(٤٥) Wilson. Loc. Cit. P. 116

ابن اياس في اخبار سنة ٩١٢هـ / ١٥٠٦م بان "ضرر الفرنج (ويقصدر البرتغاليين) قد تزايد ، وترادفت مراكبهم ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركبا . وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ، ويقطعون عليهم الطريق في الاماكن المخيفة ويأخذون ما معهم من البضائع ، حتى عز وجود الشاشات والازر" (٤٦).

وهكذا سدت منافذ تجارة الهند امام العرب ، وظهرت نتائج ذلك واضحة ، لابفقدان الشاشات والازر فحسب ، كما قال ابن اياس ، وانما في تضاؤل كمية التوابل في الاسواق العربية، ولاسيما اسواق الاسكندرية ، ودمشق ، وحلب وطرابلس ، وارتفاع اسعارها ارتفاعا فاحشا ، مما جعل منافستها لتوابل البرتغال امرا شبه مستحيل. فبينما كان يباع قنطار التوابل في الاسكندرية بسعر يتراوح بين (٧٥ - ١٠٠) دوقية ، كان سعره في لشبونة لايزيد عن (٤٠) اربعين دوقية، وانخفض سنة ١٥٠٥ م الى عشرين دوقية فقط (٤٧).

وهزت تلك الاحداث المسلمين جميعا ، والعرب منهم بالذات واحسوا بالخطر الكبير الذي احدق بهم ، والذي لم يكن يهدد اقتصادهم وحده ، وانما وجودهم كله وشاركتهم البندقية مخاوفهم لاصابة مصالحها التجارية هي الاخرى في الصميم فحرضت السلطان قانصوه الغوري سلطان المماليك انذاك على التحرك بسرعة لان اقتصاد دولته وشعبه مهدد بالانهيار التام . ونصحته بعدة حلول ، ومنها ارسال اسطول حربي الى الهند ليطرد اساطيل البرتغال من المحيط الهندي ويعيد الامور الى نصابها .(٤٨) وجاءت استغاثات ملك كجرات محمود شاه ، وسامري كاليكوت ، وامير عدن وكلها تطلب منه تزويد اصحابها بالسفن والمدفعية ، لتقنعه بهذا الحل.

وفي الواقع لم يكن لدى المماليك اسطول حربي قوى ودائم ويبدو من تاريخهم ان اهتماماتهم

---

(٤٦) بدائع الزهور في وقائع الدهور اجزاء القاهرة ٤٠٢ ١هـ / ١٩٨٢ ج ٤، ١٠٩

(٤٧) Kammerer. Op. cit. II. 141 – Heyd. Op . cit. 11 PP. 519-529

(٤٨) Heyd. Loc. Cit. P. 523

البحرية الحربية كانت قليلة ، والمواد اللازمة لانشاء اسطول ، كالخشب والحديد غير متوافرة ، ومن ثم فالبحارة الماهرون مفتقدون والمدفعية الثقيلة ، والاسلحة النارية التي زودت بها البرتغال اسطولها لاوجود لها عندهم الا بقدر. وكانوا لاينشئون الاسطول الا للرد على هجوم تعرضوا له من سفن الاوروبيين أوقراصنتهم. واذا ما بنوا اسطولا جديدا يكون الاسطول السابق قد زال (٤٩). اي ان الدولة المملوكية لم تكن لتملك القوة البحرية التي يمكنها بها ان تقارع البحرية البرتغالية المتطورة تقنيا ، والمدججة بالسلاح . ومع ذلك فقد قرر قانصوه الغوري ان يشن الحرب البحرية على البرتغاليين. وهذا يعني ان عليه ان يبني الاسطول اللازم، وقد طلب العون في هذا المضمار من البندقية ، وهي التي كانت تملك اكبر اسطول في البحر المتوسط والمتمرسة بحرب البحار. واتهمتها بعض الدول الاروبية بأنها فعلت ، ولكن لاشيء يثبت ذلك (٥٠). ويظهر بانها اوصت السلطان باللجوء الى الدولة العثمانية (٥١) ولاسيما ان مصر كانت تستورد الاخشاب في العادة من جنوبي اسية الصغرى ، ومن منطقة كيليكية بالذات (٥٢) وهذا مافعله .

ماذا كان موقف العثمانيين من طلب المماليك ، ومن الغزو البرتغالي المجتاح للبلاد العربية وحواف المحيط الهندية المختلفة ؟ لانعرف في الحقيقة الكثير عن علاقات البرتغال مع الدولة العثمانية خلال هذه المرحلة، او بتعبير ادق عن تلك العلاقات منذ ان اخذت البرتغال بغزوديار المسلمين على ساحل المغرب الاقصى أو باضطهادهم على ارضها (٥٣). فقد تكون هناك نداءات استغاثة وجهت اليها منهم ، كما حدث في اسبانية بعد سقوط غرناطة (٥٤) ، وهي الدولة الاسلامية القوية آنذاك . الا ان

---

(٤٩) D. Ayalon. Bahryya (La marine Mamluke). dans E. I. 2^{O} ed. Vol. I. PP. 974-976

(٥٠) Heyd. Loc. Cit. II. PP. 536-537

(٥١) Ibid. P. 538.

(٥٢) Ibid. P.355

(٥٣) اصدر ملك البرتغال سنة ١٤٩٦م امرا بمغادرة المسلمين لمملكته ، اذا لم يتنصروا ، في غضون سنة من تاريخه ، تحت طائلة الموت والمصادرة وقد تم تنصير عدد كبير منهم قسرا وكان يقبض على الفتيان ويعمدون بالقوة ، ثم يوزعون اشتاتا في مختلف المدن وقد قتل عدد من الاباء المسلمين انفسهم ، او قتلوا اولادهم لان السفر من لشبونة كان جد عسير عليهم انذاك

(٥٤) انظر المقري ازهار الرياض في اخبار عياض جزءان القاهرة ١٩٣٩م ج ١/١٠٩ ـ ١١٠

البرتغال كانت كغيرها من الدول الاوروبية تعرف الكثير عن الدولة العثمانية وتوسعها على حساب الدولة البيزنطية والدول البلقانية ، وعن فتحها للقسطنطينية . حتى انه عندما اعلن البابا الحرب الصليبية على العثمانيين اثر سقوط القسطنطينية ، فان ملك البرتغال الفونسو الخامس هيأ جيشا واسطولا للاسهام في تلك الحرب . ولما لم يكن متحمسا جدا لحملة بعيدة عن ارضه فانه حولها الى حملة على الثغور المغربية على ساحل المحيط الاطلنطي (٥٥) كما بين سابقا.

واذا كانت الدولة العثمانية لم ترد بعمل حاسم وسريع على طلب ملك غرناطة المساعدة ضد الاسبان (٥٦) ، وعلى نداءات سكانها بعد سقوطها ، فانه من المعروف انها اوعزت الى قيادة اسطولها المتمثلة بـ كمال ريس بالتوجه (٥٧) الى سواحل اسبانية ومهاجمتها . وبالفعل فانه توجه في سنة ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م اي قبل سقوط غرناطة (٥٨) ، كما ذهب الى تلك السواحل ثانية سنة ٩٠٦هـ / ١٥٠١م وغزاها وغزا جزر الباليار وسردينية وعاد بغنائم كثيرة والف سير (٥٩) . ولايعرف اذا كان قد لامس سواحل البرتغال.

وكانت الدولة العثمانية في هذه المرحلة من تاريخها ، وعلى رأسها السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦ـ٩١٨هـ / ١٤٨١ ـ ١٥١٢م) تتابع سياسة السلطان محمد الفاتح في تقوية الاسطول ودعمه بالمدفعية البعيدة المرمى (٦٠) ، على الرغم مما عرف عن ميول السلطان السلمية ، وانصرافه الى العلم والتصوف وانشغاله بقضية اخيه جمْ وحروبه مع دولة المماليك (٨٩٠ـ ٨٩٦هـ/ ١٤٨٥ ـ ١٤٩١م ومع

---

(٥٥) Julien (ch Andre) Histoire de l' Afrique du Nord. 2 vol. Paris 1966-Vol. II. PP. 192-199

(٥٦) Aziz Samih Ilter. Shimali Afrikada Turkler. Istambul 1973., I. P. 52.

(٥٧) انظر حوله ابن اياس ج ٤/١١٩ ـ و - Goyung (Najat). Kemal Reis. dans. E. I.2° ed. Vol. IV. PP. 914 - 915

(٥٨) انظر مادة كمال ريس في دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الاولى وقد اشار حاجي خليفه حاجي خليفه الى هذه الغزوة في كتابه تقويم التواريخ . ولم يذكرها في تحفة الكبار

(٥٩) Goyung (Najat). Loc Cit. P. 914

(٦٠) Parry (V. J.) Bayazid II. dans E. I. 2° ed Vol. I. PP 1153-1154 Fisher. The Foreign Relations of Turkey (1481-1512) Urbana 1948. PP. 44, 49, 72-Goyung. op. cit. P. 915

بولونية ، ومع البندقية في البحر المتوسط . وقد يكون اهتمامه الكبير بالبحرية ناجمامن الصراع بين الدولة العثمانية والبندقية او من خشيتها من ان تهاجم بصليبية جديدة وقد رأت كيف ان سفن الاسطول الاسباني ، والبرتغالي ، والفرنسي ، قد اشتركت كلها الى جانب البندقية ضدها ، اثناء حرب ١٤٩٩م (٦١). او قد يكون وراء ذلك الاهتمام الاستعداد لحرب بحرية طويلة ، يكون هدفها سيادة البحر المتوسط ، كما كان هدف السلطان محمد الفاتح . مهما يكن ليس لدينا مايثبت او ينفي ان يكون وراء هذا الاستعداد البحري الحربي ، رغبة الدولة العثمانية في الامتداد الى غرب البحر المتوسط لتنفيذ المسلمين من براثن اسبانية والبرتغال ان على الارض الايبرية ، او في المغرب العربي كله ، او في مناطق الغزو البرتغالي الاخرى ، التي قد يكون سكانها من المسلمين قد استنجدوا وابها كما استنجدوا بالمماليك . ولكن من المؤكد ان الدولة العثمانية كانت معروفة ومرحبا بها في بلاد السواحل (٦٢) ، وفي الهند ، حتى ان البوكيرك اظهر غيظه وقلقه من الاشاعات التي كان يتداولها المسلمون في الهند ، بان الاروام - وهم الاتراك العثمانيون - آتون لامحالة لانقاذهم . ولذا رأى بانه لابد من الذهاب الى البحر الاحمر ليطمئن هؤلاء السكان - بحسب ظنه - بانه لاوجود لهؤلاء الاروام (٦٣) .

واذا كان من المؤكد بان الدولة العثمانية كانت معروفة في اوساط الهند ، واملا للمسلمين فيها ، فان السلطان العثماني . بايزيد الثاني وحكومته لم يكونا غافلين عن ابعاد الغزو البرتغالي للهند والبلاد العربية ، على الرغم من ان تلك المناطق تبدو مبدنيا بعيدة عن حدود امبراطوريته . فمع اننا لانملك وثائق تنير لنا الطريق في هذا المجال ، الا ان منطق السياسة يفرض بأنه كان يعرف ان الغزو البرتغالي للمغرب الاقصى ولسواحل افريقية الغربية قد قطع طريق الذهب الذي كان يتمون منه حوض البحر المتوسط والعالم الاسلامي حوله ، بل ان استيلاء اسبانية على قسم كبير من موانيء المغرب

---

(٦١) Fisher, Loc. Cit. P. 79.

(٦٢) ليلى الصباغ افريقية الشرقية مصدر سابق Strong (Arthur). The History of Kilwa dans J.R.A.S. Avril 1895 (385-430)

(٦٣) Wilson, op. Cit. P.118

العربي ، ومنها طرابلس الغرب ، التي عرفت بانها المدينة الغنية بالذهب (٦٤) لانتهاء احد فروع طريق الذهب السوداني فيها، قد احكم الرتاج على وصول ذلك المعدن الثمين الى البحر المتوسط ، مما تسبب في ازمة نقدية امتدت من (١٤٧٠ ـ ١٥٥١م) (٦٥)، وبالتالي نزفا في احتياطي الذهب في الشرق الادنى (٦٦) ، ومنه الدولة العثمانية.

كما انه من منطق السياسة ان يكون داريا بان سيطرة البرتغاليين على طريق الهند وحرمان العرب من تجارتهم السابقة ، يصيب مصالح العثمانيين بالضرر ، لان سلع الهند التي كانت تحمل الى القسطنطينية وموانيء آسية الصغرى ، كانت تأتيها اما بحرا من مصر ، اوبرا من حلب بروصة (٦٧) او من تبريز البحر الاسود ، او من تبريز بورصة (٦٨) . فهي مهددة اذا بانقطاع تلك السلع عنها اذا ما احكمت البرتغال قبضتها على منابعها وطرقها المعتادة.

كما انه كان من المنطق السياسي ان يدرك ان سيادة البرتغاليين في الخليج العربي بالذات معناه تهديد طريق الحرير الفارسي . ذلك الحرير الذي كان يحمل من بلاد الفرس الى بروصة بالقوافل البرية مارا بتبريز . وكانت هناك صناعة حريرية ناهضة في بروصة تعتمد عليه . وكان التجار الفرس يحضرونه بانفسهم الى هذه المدينة ، والى حلب ليبيعوه الى البنادقة والجنويين ، الذين كانوا يتنافسون على شرائه . وكانت الدولة العثمانية ترى ان هذه السلعة هامة لانها تدر على الخزينة دخولا كبيرة . هذا بالاضافة الى ان طلب السراي والاثرياء لها شديد ، حتى كان ينظر الى اقتناء مادة الحرير والحرائر الفاخرة على انه وسيلة من وسائل جمع الثروة واكتنازها . وكانت الدولة تاخذ عليه رسوما باهظة . ويقدرون ان مقاطعة الحرير قد وصلت قيمتها سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م الى (٠٠٠ر٢٥٠ ٧) اقجة .

---

(٦٤) Braudel, op. Cit, P. 366.

(٦٥) Ibid, PP. 177, 377, Le meme auteur, de L or du Soudan a' l'argent d'Amerique, dans Annalis I. 1946 (9-22)

(٦٦) Ehrenkreutz (A. S), Dhahab, dans E.I. 2° ed. Vol. II, PP. 220-221

(٦٧) Heyd, op. cit. II PP. 532 355-I. PP. 544-549 - Braudel, Loc. Cit. P. 80.

(٦٨) Heyd, op. Cit, II, P. 507

وكانت صناعة الحرير التي ازدهرت في عهد السلطان بايزيد الثاني ترفد الخزينة بسبعين الف ذهب سنويا (٦٩). فالحفاظ على طريق الحرير اذا وضمان أمنه هو من اسس سياسة الدولة ، وقد كان عاملا من عوامل الحرب بين العثمانيين والصفويين، بل وسلاحا في يد الطرفين (٧٠). والدليل أن على الدولة العثمانية قد تكون محقة في تخوفها على طريق الحرير هذا ، ومايمكن ان يصيبه من اذى اذا ماتحكمت البرتغال في الخليج العربي وتحالفت مع فارس، تلك الشروط التي وضعها ملك اسبانية ـ البرتغال سنة ١٦١٧ م لتحالفه مع الشاه عباس من اجل ضرب الدولة العثمانية. وهي الزام التجار الفرس ، سواء كانوا من المسلمين ام من النصارى ، على نقل كل مايصدرونه من حرير الى هرمز او غويا. واذا مانقلوا تلك السلعة الى مكان آخر فسوف تتخذ الاجراءات الضرورية لمنعهم (٧١) . ولم يكن التحالف البرتغالي ـ الصفوي مستبعدا في ذلك الحين ، لان الصفويين كانوا قد مدوا نفوذهم على كل بلاد الفرس والعراق ، واخذوا ينشرون المذهب الشيعي بكل الوسائل ، لا في ممتلكاتهم فحسب وانما بين القبائل التركمانية في بلاد الاناضول من الدولة العثمانية ايضا. هذا بالاضافة الى ان الشاه اسماعيل كان يتبادل مع البندقية المبعوثين لاقامة حلف معها ضد الدولة العثمانية ، تمده بموجبه بالمدفعية اللازمة (٧٢) ، كما فعل جده اوزون حسن من قبل ، تجاه السلطان محمد الفاتح . وكان السلطان بايزيد الثاني على علم بالتحركات الصفوية ، مما جعله يتقرب من المماليك ليكونْ معهم حلفا ضد الصفويين (٧٣). ويبدو ان مرور مبعوثي الشاه اسماعيل من بلاد الشام في طريقهم الى البندقية قد عكر صفو تلك العلاقات ، على الرغم من ان قانصوه الغوري عندما وصله النبأ ، انزل عقابه بقنصلي البندقية في دمشق والاسكندرية (٧٤).

---

(٦٩) H. Inalcik. Halil. dans E. I. 2º ed Vol. III. PP. 217-218

(٧٠) Ibid

(٧١) صلاح العقاد دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج دراسة مقارنة في حصاد الدراسات العمانية Wilson. Op. Cit. P.132

(٧٢) Fisher. Op. Cit. P. 92,94,97- Heyd. Op. Cit. PP. 538-539

(٧٣) Fisher Loc. Cit. P. 95

(٧٤) ابن اياس المصدر نفسه ج ١٩٦/٤ ص ٢٠٠ Heyd. Op. Cit. II. P. 538-539

واذا تلك الامور الاقتصادية والسياسية قد تكون شغلت ذهن السلطان بايزيد الثاني تجاه الغزو البرتغالي ، فمن المؤكد ان تهديد البرتغاليين للا ماكن المقدسة في الحجاز كان يقض مضجعه . فمن المعروف عنه تقاه وتبجيله الكبير لتلك الاماكن ، حتى انه خصص للحرمين الشريفين اوقافا هامة في الاناضول وشبه جزيرة البلقان (٧٥) ، بل واشترط بعد انتهاء حربه مع المماليك ، ان تكون اضنة وطرسوس اوقافا على الحرمين (٧٦) . وقام قبطانه كمال ريس بنفسه بنقل وارداتهما الى الاسكندرية سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٦م (٧٧) . هذا ويجب الا ينسى الاساس الجهادي في بنية الدولة العثمانية ونشأتها ، فالسلطان يجب ان يكون غازيا في سبيل الاسلام ومقدساته ، وذابا عن حماه.

والى جانب تلك العوامل التي يفرض منطق السياسة العثمانية ان تكون قد تمثلت في فكر السلطان وحكومته حول ابعاد الغزو البرتغالي ، فان الدولة العثمانية لم تكن جاهلة بوجود مفاوضات بين البندقية والبرتغال نفسها ، لاعداد حملة مشتركة ضد العثمانيين ، وكان سفير البندقية دومنيكو بيزانو هو الذي يجري مثل تلك المفاوضات مع ملك البرتغال (٧٨).

وتجاه كل تلك العوامل ، قد يكون السلطان بايزيد الثاني قد حزم امره على الاستجابة لطلب قانصوه الغوري بالمساعدة ، ولاسيما انه ليس بمقدور الدولة العثمانية ان تتدخل بصورة مباشرة ، لبعدها عن مواقع البتغاليين في المحيط الهندي ، وعدم وجود منافذ لها توصلها اليهم . ولانعرف بالدقة العون الذي قدمه السلطان بايزيد الثاني لاول مرة . ولكن واقع الحملة المملوكية الاولى سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٧ م يؤكد وجود بحارة من العثمانيين فيها كرنيسها حسين المشرف او الكردي . كما ان الاخبار تشير الى ان كمال ريس رئيس الاسطول العثماني آنذاك ، قد ارسل الى الاسكندرية سنة ٩١٢هـ

---

(٧٥) Hammer Purgstall (Joseph. Von). Histoire de L'empire Ottoman, depuis Son Origine Jusqu'a nos jours. Tradute de l'allemand par J.J. Helert-18 Vols. Paris 1835-1843 vol. IV P. 65.

(٧٦) Fisher Op. Cit. P.42

(٧٧) Goyung (Najati). Op. Cit. P. 915

(٧٨) Heyd. Op. Cit. II. PP. 515-516

/١٥٠٦ بكميات كبيرة من النحاس مع الصناع لصنع قطع المدفعية ، وان كان الهدف من ذلك ، كما ذكرت المصادر ، هو مساعدة المماليك على تقوية انفسهم في حلفهم مع العثمانيين تجاه الصفويين (٧٩) . ولاتذكر المصادر العربية وبصفة خاصة ابن اياس الذي كان يسجل كل شاردة وواردة ، شيئا عن الاعداد لهذه الحملة ، كما فعل في اخبار الاعداد للحملة الثانية . وكل ماذكره عنها بان السلطان "ارسل تجريده الى الهند بسبب تعبث الفرنج بسواحل الهند ، فعين في ذلك اليوم جماعة كثيرة من العسكر .. وفي جمادى الآخرة نفق عليهم .. وكان العسكر الذي خرج في هذه التجريدة ملفقا ، مابين اولاد ناس ، وبعض مماليك سلطانية والغالب فيهم مغاربة ، وعبيد. سود رماة ، وتراكمه ، وغير ذلك .. وفي يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة سنة ٩١١هـ / ٤ نوفبمر ١٥٠٥ م خرجت تلك التجريدة المعينة الى بلاد الهند . وكان لها يوم مشهود . فكان باش المماليك الذين توجهوا في المراكب الى جدة ، والتركمان والعبيد الذين بها حسين المشرف وباش المغاربة الذين بها الخواجة نور الدين على المسلاتي المغربي. فلما خرجوا توجهوا الى نحو السويس ونزلوا من هناك مراكب الى جدة . وقد جهز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح وغير ذلك" (٨٠) واذا كانت المصادر العربية لاتشير الى اعداد الحملة ولالعون الدولة العثمانية ، فان المصادر البندقية تؤكد ذلك العون دون ان توضح هي الاخرى نوعيته، وان كانت تشير دوما الى الاخشاب والمدفعية والمدفعيين (٨١) . ومهما يكن نوع المساعدة فانه يبدو ان الحملة التي ارسلها قانصوه الغوري الى الهند ، ووصلتها سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م كان للدولة العثمانية يد في اعدادها وفيها ، وان قسما من جندها وبحارتها كان من العثمانيين وهم الذين اسماهم ابن اياس بالتراكمة ، بل ان رئيسها حسين المشرف كان منهم.

ولن نتعرض في عرضنا السريع هذا الى اخبار الحملة . لان المصادر مختلفة حول خط سيرها الا انها متفقة في نتيجتها ونكتفي بما ذكره عنها احمد زين الدين المعبري بايجاز وتركيز ،

(٧٩) Fisher. Op. Cit. P. 95

(٨٠) ابن اياس المصدر ج / ٤/ ٨٢، ٨٤ :٨

(٨١) Heyd. Op. cit. II. P. 536

حين قال : واما سلطان مصر قانصوه الغوري فقد ارسل من امرائه الامير حسينا مع بعض العساكر في ثلاثة عشر غرابا ، فوصل الى بندر ديو كجرات ، ثم خرج منها الى بندر شيول ومعه مالك بن اياس نائب ديو بغربانه فلقي بعض مراكب الافرنج ، ووقع الحرب ، فاخذ غرابا كبيرا لهم وحصل النصر . ورجع بما معه من الغربان الى ديو ، واقام فيها شهورا في ايام المطر .

ثم وصل اليه بأمر السامري نحو اربعين غرابا كلها صغارا من بلاد السامري وغيرها . واما الافرنج قاتلهم الله - فلما سمعوا باستقراره في ديو استعدوا وخرجوا في نحو عشرين مركبا ووصلوا الى ديو فجأة ، فلما بلغ الى ديو نبأ وصولهم اخرج الامير حسين الغربان التي كانت معه من غير استعداد والمليباريون غربانهم ، ومالك بن اياس غربانه ، والافرنج لعنهم الله لما التقوا ، ماقصدوا والا غربان الامير حسين ، فاخذوا بعض غربانه وطاح البواقي ورجع الملاعين بتقدير الله تعالى وحكمه الى كشي غالبين . ولكن سلم الامير حسين نفسه وبعض ماكان معه ، وغربان مالك بن اياس والمليباريين .. ثم ان الامير المذكور رجع الى مصر (٨٢).

ويظهر من تطور الاحداث بعد ذلك بان السلطان قانصوه الغوري كان قد قرر ان يتسلح باسطول قوي آكان ذلك لارسال حملة جديدة ضد البرتغاليين في الهند (٨٣) او ليهيىء نفسه لمقاومة اي غزو برتغالي في البحر الاحمر يستهدف مصر او الديار الحجازية ولاسيما انه لابد قد وصل علمه ماقاله ملك البرتغال للبابا سنة ١٥٠٥ م عندما ارسل هو بعثته التهديدية للبابا بانه يفكر في مشروعه لمهاجمة مكة وضربها . لان اساطيله قوية جدا وقادرة على ان تفتح طريقها اليها بسهولة (٨٤) .هذا بالاضافة الى ان حلفاءه. من امراء الهند كانوا لاينفكون عن مطالبته بالعون (٨٥). وهو بالمقابل كان

---

(٨٢) تحفة المجاهدين / ٢٠١ - ٢٠٢ هناك انباء متفرقة عن سير الحملة انظرها في ابن اياس المصدر نفسه ج ٤: ٩٥، ٩٦، ١٠٩، ١١٦، ١٣١، ١٤٢، ١٥٦.

(٨٣) المصدر نفسه ج ٤ / ١٨٥

(٨٤) Heyd. Op. Cit. II. P. 522

(٨٥) Heyd. Op. Cit. II. P. 536

على صلة معهم. (٨٦)

ومرة اخرى لجأ الى الدولة العثمانية لاحضار الاخشاب لعمارة المراكب (٨٧) ولتزويده بالمدفعية وقباطنة السفن ، وكان ذلك في سنة ٩١٦هـ / ١٥١٠م . ولانعرف في الواقع ماذا كانت ردود فعل الدولة العثمانية تجاه اخفاق الحملة السابقة ، التي اسهمت فيها بطريقة غير مباشرة . ولكن نعرف ان الدولة العثمانية استجابت للطلب وارسلت العون المطلوب برفقة مبعوث السلطان قانصوه الغوري ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٩١٦هـ / سبتمبر ١٥١٠م. وتذكر الانباء بانه كان معه ثمانية عشر مركبا مشحونة بالسلاح والة الحرب ، وانه كان في طريقه الى خليج اياس (اسكندرونة) شمالي بلاد الشام ، ليحمل الاخشاب المعدة للشحن ، عندما هاجمه فرسان القديس يوحنا بقيادة البرتغالي اندره دامارال وفاجأه بظهوره . وبعد معركة دامت عدة ساعات ، تمكن فرسان القديس يوحنا من الاستيلاء على السفن وحمولتها وعلى الاخشاب المهيأة على الشاطىء للشحن (٨٨).

ولم يصب قانصوه الغوري باليأس اذ عاد فكرر الطلب الى الدولة العثمانية وبسرعة. ففي رجب سنة ٩١٦هـ / اكتوبر ١٥١٠م ارسل من يشتري له الاخشاب ، والحديد والبارود . الا ان السلطان بايزيد الثاني رد له المال ، وقال له : "انا اجهز من عندي زرد خاناه للسلطان". وفي شوال ٩١٦هـ/ كانون الثاني (يناير) ١٥١١م وصلت عدة مراكب من عند ابن عثمان ملك الروم فيها زرد خاناه للسلطان . فوصلت الى بولاق عند الرصيف ، وشرعوا يحولون مافيها الى القلعة . فكان من جملة ذلك مكاحل سبقيات ، العدة ثلاثمائة، ونشاب ثلاثين الف سهم وبارود مطيب اربعون قنطارا ، ومقانيف خشب العدة الفي مقذاف ، وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل وحبال وسلب (٨٩) . وارسل السلطان العثماني قاصده ليطمئن على وصولها . ويبدو من الاخبار كأن كمال الريس كان مرافقا لها ، ولكن سفينته قد

---

(٨٦) ابن اياس المصدر نفسه ج ٤/ ١٨٥

(٨٧) المصدر نفسه . الصفحة ذاتها

(٨٨) المصدر نفسه / ١٩٢ Ibid. P. 538 Kammerer Op. Cit. P. 146

(٨٩) المصدر نفسه / ٢٠١

تكون غرقت في طريقها ، لانه ورد في النبأ نفسه بأن القاصد اعلم السلطان قانصوه الغوري بانه قد غرق ولايعلم له خبر (٩٠). كما تشير الاخبار ايضا انه في رمضان ٩١٨هـ / تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥١٢م عاد الى مصر حامد المغربي ، وكان السلطان قد ارسله الى بلاد ابن عثمان ليشتري اخشاب ومكاحل نحاس فلما بلغ ابن عثمان مجيئه اكرمه وارسل صحبته الى السلطان عدة مكاحل نحاس ، وحديد ، واخشاب وحبال وغير ذلك اشياء كثيرة في مراكب موسوقة (٩١) ويبدو ان العون لم يقتصر على الة الحرب والسفن فحسب، بل مده بالرجال ، بدليل قول ابن اياس عند حديثه عن الاعداد للحملة ، بأنه اهتم - اي قانصوه الغوري - بعمارة مراكب في السويس نحو عشرين مركبا ، واوسقهم بالسلاح والمكاحل والمدافع وغير ذلك من الة الحرب ، وجعل سلمان العثماني رئيسا لتلك المراكب وتحت يده جماعة من العثمانية والمغاربة البحارة نحو الفي انسان وقيل اكثر من ذلك (٩٢) وقد كان قانصوه الغوري في الحقيقة بحاجة ماسة الى اولئك الرجال ، ولاسيما البحارة منهم والمحاربين ، لان المماليك كانوا لايرغبون بالمشاركة في هذه الحملة البعيدة ، واظهروا عدة مرات تمردهم (٩٣) ولذا فانه لم يكتب من عسكر مصر سوى (٦٠٠) ستمائة ، وكان الباقي من التراكمة والبحارة والمقاتلين والمغاربة وعدتهم خمسة آلاف وثلاثمائة واربعة واربعين (٩٤).

ومما ذكر انفا يتضح ان الدولة العثمانية، والغزو البرتغالي لايزال في بداياته، قد قدمت الكثير لدعم موقف مصر العسكري في وجه المجابهة البرتغالية . على الرغم من الصراع الذي كان قد قام بينهما سابقا . ولم تقف موقفا سلبيا من ذلك الغزو للبلاد العربية وعالم الهند الاسلامي ، ومن تهديده للبحر الاحمر والديار المقدسة . فقد شعرت منذ البدء بان ماكان يجري يخصها كما يخص البلاد العربية ، ودولة المماليك ، على الرغم من بعدها النسبي عن مسرح الاحداث . بل ونظرت الى ماتقوم به

(٩٠) المصدر نفسه / ٢٠٢ - تذكر المصادر التركية ان غرقه كان عام ٩١٧هـ / ١١ـ١٥١م Goyung . Op. Cit. P. 915

(٩١) المصدر نفسه / ٢٨٥

(٩٢) المصدر نفسه / ٣٦٥ ووردت معلومة مماثلة في الصفحة ٢٦٦ و ٤٠٨

(٩٣) ابن اياس المصدر نفسه ج ٤/ ٢٢١، ٢٣١، ٤٨٣

(٩٤) المصدر نفسه / ٤٦١

البرتغال على انه جزء من الصليبية الاوربية التي كانت تسعى على الارض الاوربية الشرقية ، وفي البحر المتوسط ، الى تحطيم العالم الاسلامي وابتلاعه ، ولذا فانها لم تتلكأ البتة في تقديم ذلك العون العسكري الكبير للماليك الذين يسمح لهم موقعهم الجغرافي النافذ الى اماكن الغزو البرتغالي ، من مجابهتهم حربيا ، حتى بدت الحملة المملوكية الاولى الى الديو - اذا كان قد قدم لها سرا ماقدم للحملة الثانية - وكذلك الحملة الثانية ، وكانها من عملها برجالها ومعداتها الحربية وبحارتها وسفنها ، وبخاصة ان قسما كبيرا من ذلك العون كان دون مقابل مالي . ناهيك عن حرب الدولة العثمانية خلال هذه المرحلة لبولونية والبندقية ، تلك القوى الصليبية المتحالفة ضمنا مع البرتغال ولو بعواطفها الدينية على الاقل.

وتغلق هذه المرحلة بابعـاد السلطان سليم الاول اباه عن العـرش سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢ م ، وتسلمه الحكم مكانه ، مؤيدا من الجيش الانكشاري.

المرحلة الثانية من موقف الدولة العثمانية من الغزو البرتغالي للبلاد العربية ٩١٨ - ٩٢٦هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠م) اي في عهد السلطان سليم الاول

وحتى يدرك الموقف في هذه المرحلة ، لابد من تتبع سريع للاحداث والتطورات على مختلف الجبهات . ففي جبهة المغرب الاقصى تابع البرتغاليون شد قبضتهم على الساحل الغربي . ففي سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣ استولوا على ميناء ازمور. وفي سنة ٩٢٦ه / ١٥٢٠ كانوا قد احكموا سيطرتهم على جميع الموانىء ، واصبح بإمكانهم شراء مايحتاجون اليه من الحبوب والخيول والاصواف من الداخل ، وكان لهم عملاؤهم وقناصلهم في فاس، بل انهم تقدموا في سنة ٩٢١هـ/١٥١٥حتى ابواب مراكش نفسها(٩٥)

---

(٩٥) Julien. Op. Cit. II. PP. 201 - 202

اما في **الجزائر** فقد اخذ عروج وخير الدين ، وهما من غزاة البحر العثمانيين ينشطان على سواحلها . وتمكن عروج من السيطرة على جيجل سنة ٩٢٠هـ ١٥١٤ ثم ضم مليانه ، والمدية ، وتنس وطلبت تلمسان نجدته ضده مليكها من بني زيان الذي قبل التبعية الاسبانية. ونجح عروج سنة ٩٢٤هـ/١٥١٨م في السيطرة على تلمسان الا ان اسبانية ارسلت حملة حاصرته ، وانتهى امره بالقتل ، فخلفه اخوه خير الدين بربروسا (٩٦).

وفي **تونس** كانت الدولة الحفصية تتابع سيرها المتدهور . وفي **طرابلس الغرب** ظل الاسبان فيها. اما **مصر** فكانت الاحوال الاقتصادية تسوء: فتجارتها مع الشرق تضاءل امرها نتيجة سيادة البرتغاليين في الهند ، وقرصنتهم في المحيط الهندي والبحر الاحمر ، ومن ثم فتجارتها مع البندقية ، وهي اساس من اسس اقتصادها ، قد تقلص حجمها . فقلت السفن الواردة منها الى الاسكندرية بمقدار النصف . وكانت السفن تخلف عند رحيلها ، في مخازن البلد سلعا قيمتها (٣٠٠,٠٠٠) ثلاثمائة الف دوقية ،ومالا نقديا في ايدي التجار بما يعادل تلك القيمة تقريبا ، مما يساعد على بقاء حركة البيع والشراء فعالة طيلة العام . اما الان فانها لم تعد تترك وراءها الا ماقيمته (٨٠,٠٠٠) ثمانون الف دوقية على الاكثر من السلع ، وعشرين الف (٢٠,٠٠٠) دوقية من المال النقدي (٩٧). ويذكر ابن اياس في اخبار ٩٢٢هـ / ١٥١٦م بان "بندر الاسكندرية خراب ، ولم تدخل اليه البضائع في السنة الخالية . وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار في بحر الهند ، ولم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جدة نحوا من ست سنين ، وكذلك جهة دمياط" (٩٨). ناهيك عن تناقص كمية التوابل في اسواق بلاد الشام وارتفاع اسعارها للسبب نفسه . ويضاف الى كل ذلك انتشار الطاعون في مصر ، وعلى نطاق واسع (٩٩).

---

(٩٦) Julien. Op. Cit. II. PP. 255-256

(٩٧) Heyd. Op. Cit. II. P. 544

(٩٨) المصدر نفسه ج ٤/ ٣٥٩ ـ ج ٥ / ٩٠

(٩٩) المصدر نفسه ج ٤ / ٣٠٦ ـ ٣٠٨

وفي **بلاد الهند** كان سامري كاليكوت قد ضطر تحت الضغط العسكري ان يسمح للبرتغاليين سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م. "ببناء قلعة شريطة ان يمكنوا رعاياه من تسفير اربعة مراكب الى برّ العرب بالفلفل والزنجبيل ، والسفر الى جوزرات (كجرات) باوراقهم كغيرهم . الا انهم بعد بنائهم القلعة لم يفوا بالشروط ، ولم يسطع السامري ان يفعل شيئا سوى مكاتبة سلاطين المسلمين خفية في الحث على التجهيز لمحاربتهم" (١٠٠).

اما في الجبهات الاخرى ، فان تحركات البرتغاليين في المحيط الهندي لمنع اية سفينة عربية من المرور كانت تدعو للقلق الشديد ، ولاسيما عند ماتواترت الانباء بان البوكيرك لن يهنأ له بال حتى يستولي على جدة والاماكن المقدسة ، ويحكم اغلاق البحر الاحمر على التجار العرب. وبالفعل فانه حزم امره على الاستيلاء على عدن التي تحرس مدخله ، وتسيطر فعلا على باب المندب ، وبذلك يقطع شريان التجارة بين مصر والهند نهائيا ، ويقترب من الحبشة ، ويعقد معها الحلف الذي كان يراود اذهان البرتغاليين منذ زمن بعيد ، وفي الوقت نفسه يدمر الاماكن الاسلامية المقدسة ، ويحطم اية تجهيزات بحرية تعدها مصر في السويس . وتقدم بحملة كبيرة سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م نحو عدن . ولكن اميرها مرجان الظافري التابع لآل طاهر ، تمكن من صد الهجوم ورد البوكيرك مدحورا . الا ان الهزيمة لم تثن البوكيرك عن دخول البحر الاحمر والاتجاه نحو جدة ، ولكن العاصفة مزقت سفنه وشتتتها ، فعاد الى غويا خائبا (١٠١) وفي الواقع كان السلطان قانصوه الغوري قد ثبت حسين الكردي رأس الحملة المملوكية الاولى نائبا له على جدة ، وانجده بعدد من الجند ، واوصى بترقب حركة البرتغاليين

---

(١٠٠) احمد زين الدين المعبري المصدر نفسه / ٢٦٤ ـ ٢٦٥

(١٠١) انظر تفصيلات هذه الحملة في

ـ فالح حنظل الاطماع البرتغالية في المقدسات الاسلامية والمعجزة الربانية في صدهم . كما وردت في الوثائق البرتغالية بحث في كتاب ابحاث ندوة رأس الخيمة ١ ج الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي مصدر سابق ص ١٣١ ـ ١٣٥

ـ بافقيه الشحري تاريخ حوادث السنين ووفاة العلما العاملين والسادة المربين والاولياء والصالحين من سنة تسع مائة الى التي هي للالف موقبه مخطوط في اربع نسخ . في حوزة المؤرخ الانكليزي (ر ب سرجنت) وقد نشر مقتطفات منه مترجمة الى الانكليزية في كتابه المذكور انفا بعنوان البرتغاليون في جنوب الجزيرة العربية . ووردت انبا ـ الحملة في ورقة (٣٥ب) وفي كتاب سرجنت ص ٤٧ ـ ٤٨

وفي هذا الوقت كانت الساحة البرية المشرقية تشهد احداثا خطيرة: فالسلطان العثماني سليم الاول اتجه بعد توطيد مركزه داخل بلاده ، نحو القيام بأكبر انعطاف سياسي وعسكري في حياة الدولة العثمانية ، وذلك بان اخرجها من خط فتوحاتها التقليدي نحو اوربة ، ودفعها نحو الشرق الاسلامي ، وكانت ساحة العمل الاولى في ذلك الانعطاف بلاد فارس المتاخمة لحدوده الشرقية.

قد يكون الدافع للسلطان سليم في خطوته الخطيرة هذه ، الصراع المذهبي بين السنة الذين كانت تمثلهم الدولة العثمانية وهو على رأسها ، والشيعة الذين تمثلهم الدولة الصفوية ، وفي قمتها الشاه اسماعيل . وهذا ماذهب ، ويذهب اليه معظم المؤرخين ، ولاسيما ان السنة في البلاد التي استولى عليها الشاه اسماعيل ، اخذوا يستنجدون بالدولة العثمانية من سياسته في التشييع القسري، ويهاجرون باعداد غفيرة اليها هربا . ولكن يجب الا تغفل البتة العوامل التي ذكرت انفا حول طرق التجارة ، وبصورة خاصة طريق الحرير ، تلك العوامل التي دفعت الدولة العثمانية الى اتخاذ موقف ايجابي من الغزو البرتغالي للبلاد العربية . فالمنطقة الآن غدت اكثر تبلبلا ، والخطر البرتغالي اشد استفحالا . فهناك هجوم البوكيرك على عدن ، ودخوله الى البحر الاحمر واقترابه من الديار المقدسة، والشاه اسماعيل شرع يعقد مباحثات مع العدو البرتغالي في الهند، اذ ارسل سفيره الى البوكيرك اثر عودة هذا الاخير من عدن لعقد حلف ضد الدولة العثمانية (١٠٣).

وهناك **بلاد فارس** التي غدت الآن دولة قوية ومعادية سياسيا ودينيا ، وتنتصب بكتلتها الضخمة لتفصل بين الدولة العثمانية والشرق الاقصى والقادرة بتحالفها مع البرتغال ، او حتى دونها ، أن تحجب تلك السلع الواردة من الهند اليها عبر الخليج العربي ، او عبر القوافل البرية التي انتعشت بعد ان سيطر البرتغاليون على الطريق البحرية للهند ، والتي كانت تتحكم فيها الدولة الصفوية . تلك القوافل التي كانت خلال هذه المرحلة ، والمراحل التي تليها عاملا هاما من عوامل النهضة الاقتصادية

---

(١٠٢) ابن اياس المصدر نفسه ج ٤/ ٢٠١

(١٠٣) Wilson. Op. Cit. P. 119

الفارسية (١٠٤)، ناهيك عن ان هذه الدولة الفارسية الفتية الجديدة ، وقفت حاجزا في وجه الاتصال المباشر بين الدولة العثمانية والبرتغاليين (١٠٥).

وقامت الحرب بين الدولتين ، والتقتا في معركة حاسمة في جلد يران على ارض اذربيجان في ٢ رجب ٩٢٠هـ/ ٢٣ ا ب ١٥١٤ ، وكان النصر فيها للعثمانيين . وفي اقل من اسبوعين ، كان السلطان سليم في مدينة تبريز ، والعالم الايراني كله تحت قدميه، فلو تابع سيره شرقا فانه لم يكن ليلقى مقاومة ما ، ولو اندفع بعدها الى بلاد ماوراء النهر ولامس شمالي الهند ، لا ستقبل في تلك المناطق بالترحاب ، لانه جمع في شخصه الاصل التركي والمذهب السني ، والثقافة الاسلامية المتينة ، والمقدرة الحربية . لعله كان يفكر في هذا المنحى ولاسيما انه كان يتمثل في نفسه الاسكندر المقدوني، وعندئذ تقع في قبضته جميع منافذ الطرق البرية المنطلقة من الهند والصين ، والمتجهة غربا ، ويلامس عالم البرتغاليين في الهند وحواف المحيط الهندي . ولكن جيشه رفض ان يطيعه في هذه المسيرة الطويلة ، فكر سليم راجعا بعد ان عمل على ضم منطقة دياربكر اليه ، وبذلك سيطر على طريق الحرير تبريز - حلب وتبريز - بروصة ، ووقف عائقا في وجه تجارة العبيد الجراكسة ، الذين كان يؤتي بهم من قفقاسية ، وكانوا عماد البنية العسكرية والادارية لدولة المماليك الجراكسة (١٠٦) ، وانصب في خزينة الدولة وارادت منطقة دياربكر التي قدرت سنة ٩٣٤هـ/ ١٥٢٨م بخمسة وعشرين مليون افجة اي ثمن واردات البلقان كلها(١٠٧).

لم يكن البوكيرك غافلا عما يجري على الساحة البرية في بلاد فارس ، فقد استقبل مبعوثا من شاه فارس عند عودته من عدن ، ويبدو انه قد جاء يطلب تزويده بالمدفعية اللازمة كي يعرقل تقدم

---

(١٠٤) Pirenne. Op. cit. ii. P. 315

(١٠٥) Ibid

(١٠٦) H. Inalcik. Rise of the Ottoman Empire in the Cambridge History of Islam. 2 Vol. Cambridge University Press 1970. Vol. II (295-323). P. 317

(١٠٧) Ibid

العثمانيين صوب المياه العربية والهندية ، ويضعف قواهم ، بدليل طلب البوكيرك من مليكة السماح له بتقديم تلك المدفعية للاسباب المذكورة (١٠٨)، وذلك مقابل مساعدة متبادلة يتقاسمان فيها النفوذ في الخليج العربي ، وموانيء اخرى في البلاد العربية . ويستشف هذا مما حمله سفير البوكيرك روي غوميز الى الشاه في رسالة خاصة ، تبدو وكأنها جواب على سفارته ، وتقول انني اقدر لك احترامك للنصارى في بلادك ، واعرض عليك الاسطول والجند والاسلحة .. واذا اردت ان تنقض على بلاد العرب، ، وان تهاجم مكة ، فستجدني بجانبك في البحر الاحمر ، امام جدة ، او في عدن ، او في البحرين ، اوفي القطيف او في البصرة او على امتداد الساحل الفارسي ، وسانفذ لك كل ماتريد (١٠٩).

ويظهر ان تلك الاحداث التي جرت على الساحة البرية بين العثمانيين والصفويين سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤ م والنصر الذي احرزته الدولة العثمانية في جلديران قد قوت من معنويات اهل الخليج العربي ، وهرمز بالذات ، حيث كان البرتغاليون يضايقون السكان بشتى وسائل القرصنة . فقامت حركة ثورية فيها سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥ م . وكان البوكيرك قد خرج. في منتصف ذي الحجة سنة ٩٢١هـ / شباط (فبراير) سنة ١٥١٥م لمهاجمة عدن ثانية، ولما علم بثورة هرمز فانه اتجه باسطوله المؤلف من ستة وعشرين سفينة والفين ومائتي مقاتل اليها . وتمكن عن طريق مفاوضات طويلة مع قائد الثورة المسمى (الريس حامد) الذي لايعرف عنه شيء نوبال ، ان يستلم الحصن الذي كان البرتغاليون قد ابتدأوا ببنائه سنة ١٥٠٧م ، ورفع العلم البرتغالي عليه ، واعاد الملك الذي كان الثوار قد ابعدوه عن العرش. وهكذا قبضت البرتغال نهائيا على هرمز . وعلى اثر ذلك وصل مبعوث من الشاه اسماعيل اليه . لاليحتج على ماجرى ، اذ كانت هرمز مبدنيا تابعة للارستان ، وهذه بدورها تابعة للشاه ، وانما ليتم

(١٠٨) Hess (A.C) The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of the Oceanic Discoveries (1453-1525) in the American Historical Review Vol.L XXV N. 7. 1970. P. 1910.

(١٠٩) صلاح العقاد التيارات السياسية في الخليج العربي . القاهرة ١٩٦١ : ٢١٣

عقد تحالفه مع البوكيرك. وبالفعل فقد عقد اتفاق بين الطرفين على ان يعترف الشاه اسماعيل بان ملك هرمز يدين بالولاء لملك البرتغال ، اي انه تنازل نهائيا عن هرمز له وبالمقابل يقدم الاسطول البرتغالي مساعدته للشاه في السيطرة على البحرين ، والقطيف ، وفي قمع الثورة في مكران ، ويكونان يدا واحدة تجاه الاتراك العثمانيين (١١٠) وغادر البوكيرك هرمز الي غويا حيث توفى مباشرة في ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٥١٥ م .

وبأحكام سيطرة البرتغاليين على هرمز فان الجزء من منتوجات الهند الذي كان لايزال يتدفق من الخليج العربي ليصل الى البصرة فبلاد الشام قد ضعف. هذا بالاضافة الى ان سيطرتهم على هرمز ، وتحالفهم مع شاه فارس مكنهم من حمل منتوجات اسية الوسطى التي تنقل الى هرمز بالقوافل البرية ، وكذلك منتوجات الخليج نفسه ، ولاسيما اللآلي والخيول العربية الى غويا بحيث اصبحت المخزن المصدر الوحيد لتلك المنتوجات الى الهند (١١١). وتبدت بوادر التحالف البرتغالي ـ الصفوي عندما قام البرتغاليون بمحاصرة المنامة عاصمة البحرين ، واخضعوها سلما (١١٢) ،الا انها بقيت بايدي حكامها من الجبريين.

وفي هذا الوقت الذي كانت تجري فيه هذه التطورات في الخليج العربي ، كان المماليك يبعثون بحملتهم التي اعدوا لها طويلا في السويس . وخرجت من القاهرة في رجب ٩٢١هـ ايلول ١٥١٥ م ووجهتها السويس اولا (١١٣) ومنها اتجهت في ذي القعدة من العام نفسه الى جدة ، ومنها الى بلاد اليمن ، وتوقفت هناك ، حيث استولت على زبيد من ايدي الطاهريين في ١٩ جمادى الاولى سنة ١٢١هـ / ٢١ حزيران ١٥١٦ م وحاصرت عدن لكنها لم تفلح في اخذها (١١٤) . ويرى عديد من المؤرخين ان

---

(١١٠) Wilson. Op. cit. PP. 120-121

(١١١) Heyd. Op. Cit. 11. PP. 549-550

(١١٢) Milles. Op. Cit. PP. 153-154

(١١٣) ابن اياس المصدر نفسه ج ٤/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧

(١١٤) انظر حول ذلك قطب الدين النهروالي البرق اليماني في الفتح العثماني تحقيق حمد الجاسر الرياض ١٩٦١م/ ٢٠ ـ ٢٥

هدف هذه الحملة كان بلاد الهند كما كان هدف الحملة الاولى ، الا انها انحرفت عن غايتها . ولكن مجرى الاحداث يفرض في الواقع ان يكون هدفها اليمن وعدن اولا ، ثم الهند . لان هجوم البوكيرك على عدن سنة ١٥١٣ م ودخوله البحر الاحمر الى جدة ، لابد انه نبه المماليك الى القيمة الاستراتيجية لمدخل باب المندب ، وان سيادتهم على اليمن وعدن ، وماينجم عنها من حماية لانفسهم في مصر ودرء للخطر الذي يهدد الاماكن المقدسة ، لها الاولوية على تقديم المساعدة العسكرية للكجراتيين في بلاد الهند البعيدة . وقد يكون رئيس الحملة قد فكر في الانطلاق الى الهند بعد ان يكون قد انجز المهمة الاولى في اليمن (١١٥) ، ولكن تطور الاحداث بين العثمانيين والمماليك دعا الامير حسين الكردي رئيس الحملة الى تعيين المملوك الجركسي برسباي مكانه في زبيد والعودة الى جدة (١١٦).

وفي الحقيقة ان تطور الاحداث بين المماليك والعثمانيين الى صراع عسكري لم يكن بعيدا عن تطورها في الخليج العربي: فاسراع البرتغاليين نحو تثبيت اقدامهم في هرمز سنة ١٥١٥ ، ومحاولتهم في البحرين ، وتحالفهم مع الصفويين، ليست كلها سوى رد فعل مباشر على معركة جلديران . وموقف معاد للعثمانيين ، يظهر خشية البرتغاليين من وصول العثمانيين الى الخليج العربي . والاقتراب من الهند، . وكان تحرك العثمانيين بالمقابل نحو مجابهة المماليك موقفا يهيء لصراع مباشر معهم.

تذكر المصادر بان السلطان سليم بعد معركة جلديران امر اميراله بيري باشا ببناء اسطول جديد وقوي مؤلف من مائة وخمسين سفينة باحجام مختلفة الى جانب مائة سفينة صغيرة (١١٧). وامر بنقل ترسانة السفن من غاليبولي الى القسطنطينية حيث كان بالامكان انشاء سفن اكبر من اية سفن سابقة (١١٨). ويذكرون قصة هذا الامر بان السلطان سليم بعد ليلة من القلق احضر بيري باشا وقال

(١١٥) النهروالي المصدر نفسه / ٢٣ ـ ابن اياس المصدر نفسه ج ٥/ ٨٣ هذا مع العلم ان ابن اياس ينظر الى جزر كمران وبلاد اليمن على انها من بلاد الهند.

(١١٦) النهروالى المصدر نفسه / ٢٤

(١١٧) Hammer. Op. Cit. Vol. IV P. 218

(١١٨) Gibb & Bowen. Islamic Society and the West . 2 Parts Oxford University Press. 1957. P.I. P. 92

له اذا كان هؤلاء الافاعي (ويقصدر الفرنج) يملؤون البحر سفينا ، واذ اكانت سفن البندقية ، والبابا ، وملوك الفرنجة ، هي المسيطرة على البحر الاحمر ، فذلك يرجع الى كسلك وتهاونك ، والى تسامحي . اريد اسطولا قويا وعديد السفن (١١٩) . ولكن هل كان يريده قويا وعديد السفن في البحر المتوسط فحسب ، ام كان يدور بخلده المحيط الهندي وتفرعاته؟ على اي حال ، لقد اقلق تنفيذ اوامره تلك الدولة المملوكية وظنت ان وجهة تلك السفن ستكون مصر (١٢٠) . وفي واقع الامر لم تكن دولة المماليك بعيدة عن فكره ، اذ يبدو انه قد صمم على ان يكون له قصب السبق في احتوائها في امبراطوريته قبل ان يقدم اسماعيل شاه الصفوي على ذلك. ويرى المؤرخ ـ الفيلسوف توينبي بان هجوم السلطان سليم على دولة المماليك كان الجولة الثانية في لعبة الشطرنج التي كان يلعبها العاهلان . فاما ان يسرع الصفويون فيمتدون الى شواطيء البحر المتوسط ، ويحصرون العثمايين في الاناضول ، كما حاصر العرب المسلمون الامبراطورية البيزنطية سابقا ، او ان تسرع الدولة العثمانية فتتوسع في بلاد الشام ومصر وتحجز الصفويين ماوراء الفرات ، كما فعل الرومان والامبراطورية البيزنطية مع الاطراف الساسانية .فضم السلطان سليم لبلاد الشام ومصر الى دولته ـ بحسب توينبي ـ كان ترجيحا لكفته في نزاعه مع الصفويين ، الذي لم تحسمه معركة جلديران لتوازن القوتين آنذاك ، وفي الوقت ذاته ايقافا لتبشير شاههم بالمذهب الشيعي في العالم الاسلامي غربي الحدود الايرانية ومنعا لاغلاقه شرقي البحر المتوسط وجنوبه في وجه الدولة العثمانية (١٢١).

ان مما لاشك فيه ان من أسباب انسياح السلطان سليم على بلاد الشام ومصر وابتلاعه دولة المماليك هو ماذكره توينبي، ولكن تبقى الرؤية ناقصة، فأسباب الضم في واقعها ذات ساحة اوسع من منطقة الشرق الادنى التي حددها توينبي فيها ، وترتبط بالاحداث الدولية التي كانت تجري في تلك المرحلة في اوربة ، وفي عالم البحر المتوسط وعالم المحيط الهندي ، ولاسيما ان الدولة العثمانية

(١١٩) Hammer. Loc. Cit. Vol. IV. P. 218

(١٢٠) ابن اياس المصدر نفسه ج ٤/ ٤٤٦

(١٢١) Op. Cit. Vol. I. P. 387

عديدة في ان واحد ، وكلها لاغنى عنها لقوة الدوله العثمانيه ورفعتها ، وغاياتها الجهاديه . فبالاضافه الى ماتدره بلاد الشام ومصر من موارد للدولة . اذ قدر ماقدمته للخزينة العثمانية سنة ٩٣٤هـ / ١٥٢٨م بمائة مليون اقجة سنويا ، اي مايعادل خمس واردات الامبراطورية (١٢٢). وبالاضافة الى ماستستفيده الدولة من الذهب الآتي من السودان الشرقي والحبشة عبر مصر (١٢٣) ، فان هناك اهدافا اوسع مدى كان يتوخاها السلطان سليم ، ويمكن تلخيصها بما يلي:

اولا - بسط سيطرة الدولة العثمانية على الحوض الشرقي للبحر المتوسط كجزء من سياسة الدولة البحرية ، التي تبناها ورسم خطوطها السلطان محمد الفاتح ، وتابعها ابنه بايزيد الثاني ، وسعى سليم الاول لملاحقتها . فببسط السلطان سليم نفوذه على بلاد الشام ومصر ، يكون قد تمكن في شرقي البحر المتوسط ، وابعد عنه النفوذ الشيعي ، والتوسع الفارسي ، وامكان الامتداد البرتغالي ، واوقف الانطلاقة الاسبانية المشار اليها سابقا ، والمشروعات الصليبية التي كانت لاتزال تراود اذهان البابا وبعض ملوك اوربة ، ويكون ايضا قد نحّى هيمنة البنادقة ، وعبث قراصنة البحر الاوربيين ، وبصفة خاصة فرسان القديس يوحنا ، وامن مواصلات الدولة العثمانية وتجارتها . وليتم سيادته على شرقي البحر المتوسط فانه جهز حملة سنة ٩٢٥هـ ، ١٥١٩م لمهاجمة رودس (١٢٤)، الا ان المنية عاجلته فانجز المهمة من بعده ابنه السلطان سليمان.

ثانيا : الاقتراب من اماكن النشاط البرتغالي في المحيط الهندي والبحر الاحمر ، ومواجهة البرتغاليين مباشرة ، وحماية الاماكن الاسلامية المقدسة منهم ومن الصفويين معا ، بعد ان ثبت له عدم قدرة المماليك على ذلك . ولابد من الاشارة هنا الى ان سلاطين بني عثمان بصفتهم ورثة مفهوم الجهاد والغزو المقدس ، الذي قامت عليه دولتهم ، كانوا يشعرون بأن هذا واجب اساسي من واجباتهم. ومثلما كان بايزيد الثاني قد وقف على الحرمين الشريفين اوقافا كثيرة ، فان السلطان سليم حرص على

---

(١٢٢) H. Inalcik. Rise of the Ottoman Empire. Op. Cit. P. 319

(١٢٣) Braudel. Op. Cit. P. 514

(١٢٤) Article (Selim I.) dans. E.I. 1er. ed.

ارسال تلك الاوقاف كل عام حتى قبل فتحه لمصر (١٢٥).

وعدّ المجلس الذي عقده السلطان سليم لاستشارته في امر محاربة مماليك مصر ان نيل السلطان حق حماية المدينتين المقدستين، شرفاومجدا كبيرين (١٢٦). وكان لقب خادم الحرمين الشريفين الذي اغدقه عليه خطيب جامع الاطروش في حلب، بعد دخوله اليها اثر معركة مرج دابق، لقبا عزيزا على نفسه. بل ان تسيير الحجيج وامنه كان من الامور التي شغلت فكره ويتبين هذا في الرسالة التي بعث بها الى شاه شروان يعلمه فيها بنبأ انتصاره على المماليك، حيث يقول ان المماليك كانوا غير قادرين حتى على حماية طريق الحج الى الحجاز من هجمات العربان. وان الله قد اوكل اليه مهمة اعادة النظام، وتطبيق الشريعة الاسلامية وتسيير المحمل (١٢٧). ويظهر ان شريف مكة كان على اتصال معه قبل ضم بلاد الشام ومصر بدليل البعثة التي ارسلها له سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م طالبا النجدة تجاه البرتغاليين، ولكن المماليك لم يسمحوا لها بالوصول الى اصطنبول (١٢٨).

ومن ثم فانه لما دخل السلطان سليم مصر، فقد ارسل شريف مكة ابنه له مع مفاتيح الحرمين الشريفين، وفروض الطاعة والولاء والتهانيء بالنصر، فكتب له السلطان بالتصرف في امر مكة قاطبة (١٢٩) وبذلك غدا السلطان سليم هو المنافح الفعلي عن الديار المقدسة ووقع على كاهله وكواهل سلاطين بني عثمان حماية الحجيج المسلم اينما كان. وقد عين السلطان سليم على جدة، حسين الرومي، بعد ان كان قد نفذ حكم الاعدام بحسين الكردي الذي اساء التصرف اثناء ولايته (١٣٠).

ثالثا - مد النفوذ العثماني الى بلاد المغرب العربي، وابعاد مطامح الصليبية الاوروبية عن تلك

---

(١٢٥) محمد بن ابي السرور البكري الصديقي المنح الرحمانية في الدولة العثمانية مخطوط في المكتبة الوطنية في الجزائر تحت الرقم (١٦١٥ مخطوطات) ورقة ٢٣ أ

(١٢٦) Hammer. Op. Cit. IV P. 262

(١٢٧) H. Inalcik. Loc. Cit. P. 321

(١٢٨) Ibid

(١٢٩) ابن اياس المصدر نفسه ج ٥ / ١٩٠

(١٣٠) النهروالي البرق اليماني / ٢٥ - ٢٧، ٣٤ - وانظر حول مقتل حسين الكردي ايضا ابن اياس المصدر نفسه ج ٥/ ١٩٠. ٢٠٣

الرقعة الاسلامية ، واعادة الدولة العربية الاسلامية ، بامتدادها ووحدتها اللذين كانت عليهما في اوائل العصر العباسي، والاحتفاظ بصفاء سنيتها عن طريق حجب التسلط الشيعي عنها. وبهذا الامتداد يمكن للدولة العثمانية ان تطول اسبانية والبرتغال معا ، ونجد المسلمين المستصرخين بها فيهما، وربما ضرب البرتغال العابثة في حواف المحيط الهندي الاسلامية والمضطهدة للمسلمين فيها ، في عقر دارها

. ومتابعة لهذا الهدف ، فانه امد خير الدين بربروسا في الجزائر بحامية من الانكشارية والمتطوعة عند ماطلب منه ذلك سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م. وبذلك انضوت الجزائر تحت الراية العثمانية ، واتخذتها الدولة العثمانية قاعدة لعملياتها البحرية غرب البحر المتوسط ضد اسبانية والصليبية الاوربية، ومنطلقا لعملياتها البرية في اتمام سيادتها على المغرب العربي كله ، بما فيه تونس والمغرب الاقصى.

رابعا ـ حماية طريق البحر الاحمر والتجارة فيه ، والحفاظ عليها في ايدي المسلمين ، وابعاد البرتغاليين عنها ، وصدهم عن تهديد العالم العربي ، وربما تهديد الدولة العثمانية نفسها ، اذا ما نجحوا في تحالفهم مع الصفويين ، والاحباش ، ودعموا صلتهم بالصليبية الاوروبية . وكان يدرك ان تحقيق هذا الهدف يتطلب سيادة حوض البحر الاحمر كله والسيطرة على منافذه الجنوبية . ولذلك ، فعندما تقدمت القوات المملوكية التي سيطرت على اليمن الساحلية في الحملة المملوكية الاخيرة ـ وقد يكون معظمها من لوند (١٣١) الدولة العثمانية ـ بمظاهر الولاء والتبعية له، رحب بها (١٣٢) . وقد زار الاسكندرية ، وتفقد الاسطول التركي فيها بقيادة بيري باشا . ويعزى الى سلمان ريّس بانه قدم له مذكرة توصي بانشاء محطة لاسطول حربي دائم في السويس ، يسهر على مراقبة اي تحرك برتغالي

---

(١٣١) النهروالي المصدر نفسه / ١٩، ٢٨ . اللوند اصل التسمية ايطالي . وهو من كلمة Levantines ويقصد بها الشرقيون وقد اطلقها البنادقة على الجنود الذين كانوا يجمعونهم من ممتلكاتهم الشرقية ، كاليونان والدالماشيين . والالبان وقد اطلق العثمانيون التسمية نفسها في بادئ الامر على فرقة من الجند كان يعمل افرادها في البحرية مجدفين . ومشاة بحريين . وعاملين على ظهر السفن . وحراسا الا انه وجدت مع الزمن فرقة من اللوند لاصلة لها بالبحر وكان اللوند البحارة يعيشون في اول امرهم على حصتهم من اسلاب الغزوات البحرية ثم قررت الدولة لهم اجورا

(١٣٢) H. Inalcik, op.cit. P.331

جدة ، مستفيدة مما يمكن ان يكون قد ولده سقوط دولة المماليك من ارتباك وتبلبل في احوال المسلمين ، في مصر والديار المقدسة . واخبار الحملة مضطربة ، الا انه من المؤكد انها لم تنجح في تحقيق الهدفين . اي لم تستطع ان تنزل المبعوث البرتغالي في مصوع لمراقبة السفن الاسلامية للمنطقة ، ولم تتمكن من ضرب جدة لان المدينة كانت محصنة ، ومستعدة للقاء البرتغاليين ، وقام المسلمون بضرب سفن الاعداء من الداخل ، فعادت ادراجها . ويبدو ان بعض السفن الاسلامية قد لحقت بها واسرت بعض افرادها ، وحملتهم الى جدة ، ومنها الى السلطان سليم (١٣٦) .

اما الامتحان الثاني ، فكان الحملة البرتغالية الثانية الى البحر الاحمر بقيادة دييغو لوبيز سكويرا سنة ٩٢٦هـ / ١٥٢٠ م وهذه الاخرى كانت تحمل مبعوث البرتغال الى الحبشة مع هدايا نفيسة . وفي هذه المرة تمكنت الحملة من انزال البعثة البرتغالية ، المؤلفة من رود ريغوليما والراهب الفاريز وماتيو الارمني ، في مصوع . واستطاعت هذه البعثة ايصال رسائل ملك البرتغال الى نجاشي الحبشة ، تلك الرسائل التي ظل النجاشي ينتظرها خمس سنوات (١٣٧) . وقد عجلت البرتغال هذه المرة بارسال البعثة لانها رأت ان تحالفها مع الحبشة بات امرا ضروريا لايحتمل التأجيل ، بعد ان سيطرت الدولة العثمانية القوية على الجزء الاكبر من حوض البحر الاحمر . الا ان دييغو لوبيز سكويرا اراد هو الآخر ان يهاجم جدة لعله ينجح حيث لم ينجح سلفه . ويبدو ان الشريف بركات كان قد استنجد بوالي مصر خايربك فارسل له هذا الاخير نجدة من ثلاثمائة مقاتل (١٣٨) فلما اقرب سكويرا

---

(١٣٤) Ibid

(١٣٥) Kammerer. op. -cit.II. P.66

(١٣٦) انظر اخبار الحملة في زين الدين المعبري المصدر نفسه / ٢٦٦ عبد القادرالعيد روس تاريخ النور السافر من اخبار القرن العاشر تصحيح محمد رشيد الصفار ، بغداد ١٩٣٤م ص ١٣٢ ـ حسن صالح شهاب البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الاحمر والخليج العربي بحث قدم لندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية (١٠ ـ ١٢ ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ/ ١٩ ـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٨ (البحث مرقون على الآلة الكاتبة ، وهو من ٢٤ صفحة) ص ١٠ Wilson. Op. cit PP. 122-123 - Serjeant. Op. Cit. P.171 Kammerer. Op. Cit. II. P.66.

(١٣٧) Ibid.PP.8.66

(١٣٨) ابن اياس ، المصدر نفسه ج / ٢٦٢ ، ٢١٢ ـ ٢١٣ ، ٢١٨

من الميناء رأى من مظاهر الاستعداد العسكري ماصرفه عن الهجوم عليها ، فعاد ادراجه. (١٣٩).

وفي الوقت الذي كانت فيه البرتغال ترد على وصول العثمانيين الى البحر الاحمر بارسال تينك الحملتين اليه ، اللتين لم تكونا في الواقع سوى جس للنبض ، واختبار مبدئي لقوة الدولة الجديدة . ومدى تصميمها على منازلتها ، فانها كانت تدعم موقفها في الخليج العربي ، وتمتن تحالفها مع شاه فارس . فقد ارسلت سنة ١٥٢٠م انطونيو تينريرو وهو يهودي برتغالي الى البلاط الفارسي ، تشكو بعض حالات التعدي التي تتعرض لها التجارة البرتغالية في هرمز. وبقي في هرمز خمس سنوات او ست عند عودته ، ولعله كان يراقب احوال الخليج عن كثب الى جانب حاكمها . وقد ارسل من قبل الاخير سنة ١٥٢٨ برسائل هامة الى ملك البرتغال(١٤٠) .

ولم تمهل المنية السلطان سليم لتحقيق اهدافه وافته بعد ثلاث سنوات فقط من دخوله مصر ، ووصوله الى البحر الاحمر اي في ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م وفي الحقيقة يمكن تفسير تحركاته الكبيرة تلك ، وكما اشرنا سابقا على انها مواقف رئيسة لمجابهة البرتغاليين ، ولو انها لاتزال غير مباشرة . فحربة مع الصفويين ، وضمه لبلاد الشام ومصر ، وبلاد الحجاز . واليمن ، وسواكن . بل والامتداد الى الجزائر ، كانت كلها مواقف ايجابية فعالة للدولة العثمانية تجاه الامتداد البرتغالي على البلاد العربية لانها في الواقع تمهيد للمجابهة الفعلية ، وتهديد في الوقت ذاته للوجود البرتغالي في تلك البقاع ، دون اغفال بالطبع للعوامل الاخرى الحافزة للدولة للقيام بتلك الخطوات . ولادل على ذلك من ردود الفعل البرتغالية اكان في الخليج العربي حيث شددت قبضتها على هرمز سنة ١٥١٥م ، وهاجمت البحرين ، وعقدت حلفا مع الصفويين ، ام في البحر الاحمر حيث ارسلت حملتيها الى جدة ، وشرعت في التحالف مع الحبشة ، بل وحرقت في حملتها الثانية زيلع مقر دولة عدل الاسلامية التي كانت في جهاد

---

(١٣٩) انظر اخبار الحملة في بافقيه الشحري المصدر نفسه ، ورقة ٥٢أ -

- حسن صالح شهاب المصدر نفسه ١١ -١٢. Serjeant, Op. cit. P. 52.

(١٤٠) Hugh Huray, Historical Account of Diesoveries and Travels, Edinbourgh 1829 Vol. I. P. 379 Grant (ch. Ph). The Syrian Desert, Caravans, Travels & Exploration. London 1937. P. 83

مع الحبشة النصرانية انتقاما من المسلمين عامة ، وردا على ماشيع بانها قدمت العون والمؤن وربما البحارة للحملة المصرية الثانية التي حطت في اليمن سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦ م . (١٤١) ويمكن ان نصف موقف الدولة العثمانية خلال هذه المرحلة بانه الاستعداد للمجابهة المباشرة مع البرتغاليين . فبدل ان تعمل على المجابهة عبر وسيط ، كما فعلت عن طريق مساعدتها للمماليك في حملتيهم الاولى والثانية ، فانها وضعت نفسها الآن وجها لوجه معهم ، بعد ازالتها الوسيط او الحاجز الذي كان يمنعها عنهم ، لان العمليات العسكرية عن طريق وسيط لن تكون بالقوة والفعالية والسرعة . التي هي عليه لو قبضت عليها سلطة واحدة ، يكون بيدها التخطيط والتنفيذ معا . كما يبدو انها وضعت نصب عينيها خلال هذه المرحلة القصيرة الامد ان تعمل على السيادة على مالم يتملكه البرتغاليون بعد والتحصن فيه ، وسد المنافذ التي يمكن ان يتسربوا منها اليه ، بدل ان تنزع من يدهم ما اخذوه من مراكز وبذلك كانت هذه المرحلة مرحلة اعداد هامة للمرحلة الثالثة ، التي سيكون فيها على العرش العثماني السلطان سليمان القانوني.

بعض ملاحظات على مواقف الدولة العثمانية خلال المرحلتين الثالثة والرابعة :

لقد اشرت في مطلع هذه الدراسة الى انني ساقتصر على عرض النقاط الاساسية من مواقف الدولة العثمانية خلال المرحلتين الاولى والثانية فقط ، هذا مع علمي بأن المرحلتين الثالثة والرابعة هما في الواقع مرحلتا المجابهة الحربية الفعلية بين البرتغال والدولة العثمانية ، على معظم الجبهات ، وهما المرحلتان الاكثر غنى بالاحداث. فخلال المرحلة الثالثة اتخذت الدولة العثمانية موقفا حاسما آخر ، مماثلا لموقف السلطان سليم عندما ضم بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن الى امبراطوريته ، وهو فتح السلطان سليمان بلاد العراق سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م، وبذلك اطل على الخليج العربي، المنفذ الهام الثاني لتجارة بلاد الهند الى البلاد العربية، وغدت الدولة في مواجهة مباشرة مع البرتغال في جبهتين رئيسيتين. ولما كانت هاتان المرحلتان هما مرحلتي المجابهة الحربية المباشرة بين

(١٤١) Serjeant. Op. Cit. PP. 17-18. 170n (H) - Kammerer. Op. Cit. II. P. 16.

الدولتين ، فقد استحوذتا على اهتمام معظم البحوث التي تدور حول موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي. فقد جرى التركيز بصفة خاصة على ذلك الصراع الحربي ـ البحري ، وذلك بدراسة تلك الحملات البحرية التي بعثت بها الدولة العثمانية الى مختلف الجبهات : اكان الى جبهة الهند لنجدة كجرات المسلمة ومدينة ديو فيها ، وكانت حملتين : حملة مصطفى بيرم سنة ٩٣٦هـ / ١٥٢٠ م وحملة سليمان باشا الخادم سنة ٩٤٥هـ / ١٥٢٨م، وبعض حملة لايعرف عنها الكثير ارسل فيها بعض الجند الى ديو سنة ٩٥٣هـ / ١٥٤٦ م (١٤٢) . ام كان الى جبهة الخليج العربي ، ويعددها المؤرخون باربع حملات حملة بيري ريس سنة ٩٥٨ هـ / ١٥٥١م حملة مراد بك سنة ٩٥٩هـ/١٥٥٢م. وحملة علي شلبي سنة ٩٦٠ أو ٩٦١هـ او ٩٦١هـ / ١٥٥٣ ـ ١٥٥٤م ، وحملة المير علي سنة ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م. ولو انه يلاحظ بانها لم تكن في الواقع سوى حملتين هما الاولى والاخيرة اما الحملتان مابينهما فكانتا لاسترداد بقايا الحملة الاولى من السفن والرجال.

او كانت تلك الحملات الى جبهة بلاد السواحل وعدتها حملتان حملة المير علي سنة ٩٩٢هـ / ١٥٨٥م وحملته سنة ٩٩٦هـ / ١٥٨٨ م . (١٤٣) وتدرس تلك البحوث ايضا ماقابل تلك الحملات من حملات وردود فعل برتغالية . كما تركز على حرب التحالف العثماني ـ العدلي في الحبشة مقابل التحالف الحبشي البرتغالي فيها . وفي الواقع ان تلك الدراسات تكشف عن خفايا كثيرة ، ولكن يلاحظ ان هناك بعض امور لم تحظ بعد بالاهتمام الكافي ، كما هناك بعض تساؤلات حول بعض المواقف لايجد الباحث جوابا شافيا عليها ، ويمكن ان تجمل تلك الامور والتساولات بالنقاط الآتية:

اولا في نطاق المجابهات الحربية ، وضمن الحديث عن تلك الحملات ، هناك تساؤل ملح ، وهو لماذا كانت الدولة العثمانية فيما اسمي بحملتيها الثانية والثالثة في الخليج العربي غير راغبة في

---

(١٤٢) Kammerer, Op. Cit, II, PP. 88-89

(١٤٣) انظر تفصيلات هذه الحملات كلها في حسن صالح شهاب المصدر نفسه وفي فالح حنظل معارك البحرية العثمانية ضد البحرية البرتغالية في الخليج العربي بحث قدم الى ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية (١٠ ـ ١٢ ربيع الثاني ١٤٠٩هـ) ١٩ ـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٨

التعرض للقواعد العسكرية البرتغالية في الخليج ، او الاصطدام بالاسطول البرتغالي وانما كان همها فقط احضار السفن الخمس عشرة المتبقية من الحملة الاولى والراسية في البصرة الى السويس (١٤٤)؟ او لماذا كانت حريصة على احضار تلك السفن عبر طريق طويلة ومهددة بالاخطار بدلا من ابقائها في البصرة ، وهي ميناء عثماني قادر على حمايتها ؟ هل هو الرغبة في دعم اسطولها في السويس، وهو جواب غير شاف، لان بناء مثل تلك السفن اسهل واقل تكاليف من اعادتها عبر تلك الطريق الشاقة ؟ ثم لم اعتذرت لحاكم البحرين الفارسي عن هجوم والي الاحساء على البحرين سنة ٩٦٦هـ / ١٥٥٩م دون اذن منها ؟ هل هو رغبتها في عدم تعريض سكان الخليج لردود الفعل البرتغالية المؤذية فحسب ، كما ورد في كتاب الاعتذار(١٤٥). ام هناك اتفاقات سرية حول هذا الموضوع؟.

وكذلك في اطار المجابهات الحربية، قليلا ماكان يشار الى المواجهات العسكرية التي قامت بها الدولة العثمانية خلال هاتين المرحلتين تجاه الصليبية الاوروبية في اوربة البلقانية وفي البحر المتوسط ، مع انها كانت ذوات صلة وثيقة مع تلك المجابهات في المحيط الهندي.

ثانيا ـ عدم تركيز على محاولات الدولة العثمانية في شن حرب تجارية خفية على البرتغال، عن طريق اضعاف قيمة الطريق البرتغالية عبر رأس الرجاء الصالح ، بانعاشها طرق التجارة البرية ، وتشجيع الدول الاوروبية على المتاجرة في اراضيها ، واراضي البلاد العربية التي هدد الغزو البرتغالي اقتصادها بخطر كبير. علما بأن طرق القوافل البرية المنبعثة من شمالي الهند الى بلاد فارس فاسية الصغرى او الى بلاد فارس فالعراق فبلاد الشام غدت نشيطة ، بعد احتكار البرتغال لطرق الهند البحرية . وكان تشجيعها للدول الاوروبية على التجارة بعقد اتفاقات تجارية معها خلال هاتين المرحلتين، كتأكيد اتفاقها مع البندقية سنة ١٥٢٨م وفرنسة سنة ١٥٣٥ م وانكلترا سنة ١٥٨٠ ، وهو لاندة سنة

(١٤٤) فالح حنظل المصدر نفسه / ١٢

(١٤٥) انظر الوثيقة العثمانية الموجهة الى مرادشاه حاكم البحرين في ٢٨ ذي الحجة ٩٦٦هـ اول تشرين الاول ١٥٥٩م في مجلة الوثيقة البحرينية العدد (١) السنة الاولى يوليو ١٩٨٢ / ١٤٩

١٦١٢م، تلك الاتفاقيات التي اطلق عليها فيما بعد اسم "الامتيازات" (١٤٦).

وفي هذا المجال يمكن ادخال سعيها لفتح قناة تصل بين السويس والبحر المتوسط وذلك منذ سنة ١٥٢٩م. ولكن يبدو ان هذا الامر لم يأخذ خطوته الفعالة الا سنة ٩٧٥هـ / ١٥٦٩م. ومع اننا لانملك من الاخبار مايؤيد بأن والي مصر الذي امر بذلك قد قام بتنفيذ ما اوكل اليه، الا ان المصادر الغربية تشير الى ان الرحالة خهەزسخشضا قد ثبت مثل هذه القناة على خريطته، التي صدرت في روما سنة ١٥٩١ م وهي تمتد من السويس الى البحر المتوسط، وتصل حتى بحيرة المنزلة الحالية. ويذكر ان الهدف من هذه القناة لم يكن تجاريا فحسب، وانما كان حربيا بالدرجة الاولى، حتى تتمكن الدولة العثمانية من ارسال اسطولها كاملا ومجهزا بالمدفعية الثقيلة من البحر المتوسط الى البحر الاحمر، لاكما كان عليه الامر في السابق، حيث كان يعد في ترسانة السويس الضيقة وبحجوم محددة، وصعوبات كبيرة ويذكر بأن السلطان اصدر امره هذا بتحريض من القائد العثماني الشهير سنان باشا فاتح اليمن وحلق الواد في تو نس (١٤٧).

وفي هذا المجال ايضا يدخل مشروعها الكبير سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م، في فتح قناة تصل بين نهري الدون والفولغا لتنتقل السفن من البحر الاسود الى بحر قزوين مباشرة، ويكون في هذا البحر اسطول دائم. وبذلك تحقق مأربا سياسيا هاما، وهو تطويق الدولة الصفوية من الشمال، وتحقق مكاسب اقتصادية وتضرب طريق البرتغال الجديدة. اذ يمكنها عبر هذه الطريق ان تصل الى اواسط اسية والى تركستان، فبلاد الهند والصين. وتحول الطرق البرية الاسيوية التي ستنعش الحياة

---

(١٤٦) انظر حول الامتيازات. ليلى الصباغ الجاليات الاوروبية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر رسالة دكتوراة من جامعة القاهرة ١٩٦٦ (في طريق النشر) / ٤٣ـ ١٤٥

(١٤٧) هناك امر صادر من السلطان الى والي مصر بذلك بتاريخ ١٢ رجب ٩٧٥هـ / ١٢ كانون الثاني سنة ١٥٦٨م مهمة دفتري رقم ٢٥٨/٧ تصدير جاهد بلطجي صراع الدولتين العثمانية والبرتغالية في الخليج العربي (البصرة والحجاز) بحث قدم الى ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية (١٠ـ ١٢ ربيع الثاني ١٤٠٩هـ / ١٩ ـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٨ م). وتشير المصادر البندقية بانه كان سنة ١٥٢٩ م مايزيد عن عشرين الف عامل في السويس يعملون على اصلاح القناة القديمة التي كانت تصل السويس بالبحر المتوسط. ولكن يبدو ان تلك الانباء لم تكن صحيحة Kammerer, op - Ct. it, P. 142-143

وبالفعل فانها بعد استعدادات هامة قامت بارسال اسطول في نهر الدون وارسلت جيشها الى اقرب نقطة بين نهري الدون والفولغا وبدىء بفتح القناة في الفاتح من ربيع الاول ٩٧٧هـ / ١٢ آب ١٥٦٩م الا ان المشروع اخفق ، وان كانت نتيجة صلحها مع روسية قد اخذت فيها حق بقاء الطريق الى استراخان مفتوحا لها. (١٤٩) وهذا الطريق الذي سعت اليه الدولة العثمانية ، كان في الواقع هو الذي بحثت عنه التجارة الانكليزية الساعية لمنافسة البرتغال في تجارة الشرق الاقصى عن طريق مفاوضاتها مع موسكو وبلاد الفرس (١٥٠) وبقيت تقوم بالتجارة عبره من ١٥٦١ ـ ١٥٨٢ م (١٥١) وهي الطريق نفسها التي كانت تفكر بها انكلترة عند ماجرت مفاوضات بينها وبين الدولة العثمانية سنة ١٥٨٢م لتحويل تجارة التوابل عبر بحر قزوين والبحر الاسود ، ومركزتها في القسطنطينية (١٥٢) وهي كذلك الطريق التي كانت في ذهن الاب جوزيف الكبوشي الفرنسي سنة ١٦٣٠م لضرب الاتراك العثمانيين وحرمانهم من امتيازاتهم التجارية فيه ، وذلك بتحويله نحو البرزخ الروسي (١٥٣). بل ان تلك الطرق الآسيوية البرية هي التي كانت سببا في انتشار التجار الارمن وغيرهم خلال هذا القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي في المحطات التجارية على تلك الطرق ، والتي تمتد من بلاد الهند شرقا الى دانزيغ غربا (١٥٤).

ثالثا ـ عدم التعرض الى محاولات الصلح بين العثمانيين والبرتغاليين خلال سنة ١٥٤٢ م

---

(١٤٨) Braudel, Op. Cit, P. 1010 - Pirenne, Op. Cit, II P. 316

(١٤٩) انظر اخبار هذه القناة في Charriere, Negociations de la France dans le Levant, 4 vols. Paris 1848-1860. vol. III, PP. 57-61 (Lettres, 4 Mars 1569, 16 Mars 1569) H. Inalcik, The Heyday and Decline of the Ottoman Empire dans. The Cambridge History of Islam. Cambridge 1970 Vol. II (324-353) PP. 335-336 - Braudel, Op. Cit, P. 148.

(١٥٠) Hurewitz (J.C), Diplomacy in the Near and Middle East A Documentary Record (1535-1914). Princeton 1946. P. 6 – Langer (W.L), An Encyclovedia of World History New-York 1948, P. 526- Braudel, op. cit, PP. 146-147

(١٥١) Ibid

(١٥٢) Braudel, op. cit, P. 148

(١٥٣) انظر كتاب Charliat, trois siécles d'economie Francaise. Paris 1931

(١٥٤) Braudel, op. cit, P 1017

(١٥٥) و ١٥٦٣م (١٥٦) ، وبالنسبة للخليج العربي بالذات سنة ١٥٤٧م. (١٥٧) م والعوامل وراءها

رابعا ـ اغفاله جبهة المغرب الاقصى ، التي سعت الدولة العثمانية عن طريق وجودها في الجزائر ان تمد نفوذها اليها بكل الطرق الممكنة . وكان من اهدافها في سيادتها عليها ، ان تفتح جبهة مواجهة ثالثه لها مع البرتغال واسبانية معا. ولعلها بذلك تساعد الغرباء في البلدين ، وتصيب البرتغال في عقر دارها فتضعف قواها في المحيط الهندي ، وكذلك اسبانية والامبراطورية الجرمنية المقدسة . عد وتيها اللدودتين . وكانت في حالة عدم نجاحها في فرض نفوذها على المغرب فانها كانت تسعى للتحالف مع سلاطينها ليكونا يدا واحدة ضد الكفار(وتقصد البرتغال واسبانية). وقد اقلقت مساعي الدولة العثمانية في هذا المجال كلا من الدولتين ، ولاسيما ان الاسطول الجزائري العثماني بدأ منذ سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٣ م يتردد على ميناء العرائش في المغرب ، ويتخذه محطة يشن منها غاراته على سواحلهما . وقد ابدى العثمانيون تعاونهم مع الوطاسيين حتى انه كان في جيش هؤلاء الاخيرين سنة ٩٥٢هـ / ١٥٤٥م (٤٠٠) اربعمائة جندي تركي (١٥٨). وفي ٩٣٥هـ / ١٥٢٩م وجد اتراك عثمانيون في صفوف السعديين المناوئين للوطاسيين. وشاركوا في حصار ميناء اغادير ضد البرتغاليين سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١م (١٥٩). ولما ونجح الاتراك العثمانيون في صد هجوم شارلكان البحري على الجزائر في العام نفسه ، ازدادت مخاوف البرتغاليين وبخاصة بعد ان رأوا تزايد قوة السعديين بالمساعدات التركية

---

(١٥٥) انظر رسالة السلطان الى ملك البرتغال حنا الثالث في ٢٢ ايار ١٥٤٢م. Corpo Chronologico di lo Torre do Tombo Lisbonne G. Shurhammer No. 964 - Kammerer, Op. Cit, II P. 83.

(١٥٦) انظر Braudel, op. cit, P. 431-432

ورسالة السلطان سليمان الى ملك البرتغال سيبستيان التي تبدو انها رسالة جوابية وهي بتاريخ ربيع الآخر ٩٧٢هـ تشرين الثاني ١٥٦٤ م طوب قوبي سراي . مهمة دفتري ٦/٦٦ تصيير جاهد بلطجي المصدر نفسه / ٥

(١٥٧) انظر رسالة دوم مانويل دوليما حاكم هرمز الى دوم جواودو كاسترو حاكم الهند في ٢٣ حزيران ١٥٤٧ م تصد يرصالح اوزبران الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي (١٥٣٤ ـ ١٥٨١) ترجمة عبد الجبار ناجي نشر مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة بغداد ١٩٧٩ الملحق الاول

(١٥٨) Torres (Diego de). Relation de l'origine et Succes des cherifs. Paris 1636, P. 151.

(١٥٩) Sources Inedites de l'historie du Moroc 27 Vols. editées par. H. de Castries & de Cenival & Ricard (Portugal Vol. 3 PP. 56,391) [S.I.H.M]

العثمانية وبوجود اتراك في صفوفهم ، كمدفعيين ومدربين ، وقيل ان عددهم كان في سنة ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م نحو (٧٠٠) سبعمائة من حملة البنادق ، (١٦١) وارتفع هذا العدد سنة ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩ م الى نحو الف تركي معظمهم من البحارة والمدربين ، ويعملون في الجيش ، وفي مصانع الاسلحة والسفن (١٦٢).

وعلى الرغم من تذبذب العلاقات العثمانية - السعدية بين حرب وسلام ، خلال هاتين المرحلتين ، فان الدولة العثمانية ماانفكت عن سعيها للوصول الى المغرب الاقصى ، ولاسيما بعد اندلاع ثورة الغرباء في غرناطة (١٥٦٨ - ١٥٧٠م) واستغاثتهم بها . وقد تواترت الانباء عبر المراسلات الغربية بانها كانت تستعد فعلا لحملة كبيرة، ولكن لاسباب لاتعرف تماما ، انحرفت تلك الحملة عن مسيرتها المخطط لها لتهاجم قبرص سنة ١٥٧٠ م وتنتزعها من يد البنادقة (١٦٣) . ومع ذلك فقد نجحت في تنصيب عبد الملك السعدي الموالي لها ، على عرش المغرب سنة ٩٨٣هـ / ١٥٧٦م. وترددت الانباء ان مجيء العثمانيين الى غرب البحر المتوسط مؤكد ، بل وهددت بعض سفينات العثمانية في الجزائر ، اسبانية والبرتغال ، بعرقلة ملاحتيهما الى الهند ومراقبتها عن كثب (١٦٤). وقد تكون حملة سيبستيان ملك البرتغال سنة ٩٨٥/ ١٥٧٨ م على المغرب ، هي رد فعل على التدخل العثماني السافر في شؤون المغرب ، مع عدم اغفال الحافز الديني الصليبي . تلك الحملة التي انتهت في معركة وادي المخازن الشهيرة والتي اندحرت فيها البرتغال ، وقتل فيها مليكها . وظل مشروع التعاون العثماني المغربي ضد اسبانية والبرتغال يراود ذهن سلاطين بني عثمان حتى مطلع القرن الحادي عشر / السابع عشر للميلاد ، ولاسيما بعد طرد الملك الاسباني - البرتغالي فيليب الثالث للغرباء من ارضه سنة (١٦٠٩ -

---

(١٦٠) Ibid, P. 166

(١٦١) Ibid, P. 56 – Marmol (L. De Caravajal), description generale de l'Afrique (tra. Perrot d'Ablancourt) 2 tomes. Paris 1667 T. 2 P. 69

(١٦٢) S.I.H.M. espagne Vol. I. PP. 337-340

(١٦٣) انظر ليلى الصباغ ثورة مسلمي غرناطة . مصدر سابق

(١٦٤) S.I.H.M. (Espagne) Vol. 3. P. 332

١٦١١) . وفي هذه المرة كان السلطان السعدي زيدان بن احمد المنصور هو الذي طلب العون من السلطان العثماني ، وفي الوقت ذاته الح عليه بقطع طريق الهند على البرتغاليين لانه هو مصدر قوتهم وقد اجابه السلطان احمد برسالة مطولة في اواخر صفر ١٠٢٦ هـ اوائل آذار ١٦١٧ م وعده فيها بقطع ذلك الطريق ، وقال له فيها : فنحن باذنه سبحانه وتعالى نتقيد بادانه ونرسل الاوامر الشريفة الى امرائنا المحافظين في حدود البصرة ونامرهم بالفتوة والنصرة ... ولايشغلنا عن الامداد ..انشغالنا بما نحن عليه من اعداد لوازم الجهاد ، لاستئصال اهل الرفض والالحاد، وخرق شوكة اهل الضلال والفساد وتجهيز العمارتين المعظمتين الى البحرين المسجورين بعساكرنا المنصورة حفظهم الله (١٦٥).

ومع انه لم ينجم من الجبهة المغربية ، ومساعي الدولة العثمانية فيها نتائج ذات بال بالنسبة للغزو البرتغالي في المحيط الهندي ، الا انها تبقى موقفا للدولة العثمانية في هذا المجال ، وسوط ارهاب كان يقلق البرتغال واسبانية باستمرار ، وتتحسب له الدولتان.

الخـــاتمـــة:

وهكذا يتضح من ذلك العرض السريع لمواقف الدولةالعثمانية من الغزو البرتغالي للبلاد العربية، خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، ان الدولة العثمانية قد تصدت لذلك الغزو منذ بداياته . بطريق مباشر وغير مباشر ، وشنت على البرتغال حربا عسكرية ، تمثلت بعدد من الحملات البحرية ، وعلى معظم جبهات المحيط الهندي ، كجبهة الهند والخليج العربي ، وبلاد السواحل . وقد يكون من ابرز تلك الجبهات حربها مع الصليبية الاوروبية في البلقان ، والبحر المتوسط ، بل وتصدت لحلفانها الفرس والاحباش. من الصحيح ان حملاتها البحرية على جبهات المحيط الهندي قد باءت بالاخفاق ، الا انها

(١٦٥) انظر عمار بن خروف العلاقات بين الجزائر والمغرب (٩٢٣ ـ ١٠٦٩هـ / ١٥١٧ ـ ١٦٥٩م رسالة ماجستير من قسم التاريخ كلية الآداب . جامعة دمشق ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م. باشراف د. ليلى الصباغ (لما تنشر بعد) ص ٢٥٨ ـ ٢٦٣ وانظر رسالة السلطان احمد الاول الى زيدان السعدي الملحق الثالث في الرسالة (٤١٢ ـ ٤١٣).

اقلقت البرتغال ، فكانت تضطر لان تحشد لها سفنها ورجالها ، وتعيش باستمرار وهي مترقبة لها تخشاها اكان على حواف المحيط الهندي ، ام في اقصى البحر المتوسط الغربي . كما انها في حملاتها تلك افقدتها جزءا من اسطولها وبحارتها ، ورجالها ، ولاسيما انها الدولة الصغيرة ، القليلة السكان.

ومن الصحيح ايضا ان الدولة العثمانية لم تستطع ان توازن البرتغال بتقنيتها البحرية في المحيط الهندي ، وكان هذا اعاملا في اخفاق حملاتها ، ولكن هذا لايعني بالطبع بانها لم تكن تملك بحرية قوية . فمن المعروف بانه كان لها اسطولها الكبير في البحر المتوسط حتى بعد معركة ليبانتو سنة ١٥٧١م التي افتقدت فيها معظمه ، ذلك الاسطول الذي ضرب الصليبية الاوربية ضربات موجعة ، الا انها لم تتمكن من ادخال ذاك الاسطول الى المحيط الهندي. ، فاضطرت الى انشاء اسطول خاص في السويس شمالي البحر الاحمر ، او في البصرة شمالي الخليج العربي ، والبحران ضيقان ولهما تضاريسهما الخاصة . فظلت السفن التي انشأتها لاتتناسب مع سفن الكارافيل البرتغالية الكبيرة ، ومع ماتتطلبه حرب المحيط الهندي، وبقى الصراع غير متكافىء بحريا ، لانه صراع بين تقنيتين غير متكافئتين .

ولم تلجأ الدولة العثمانية في مجابهتها للغزو البرتغالي الى الحرب البحرية فحسب وانما عملت في الميدان السياسي لايجاد تحالفات تساعدها في حربها العسكرية ، كسعيها في المغرب العربي ، ومع امامة عدل في الحبشة ، ومع كجرات و كاليكوت في الهند، واشي في صومطرة. كما انها لاحقتها بحرب تجارية خفية لتضعف من قيمة طرقها التجارية الجديدة ، فسعت كي تعيد للطرق التجارية القديمة حيويتها ونشاطها ، واوجدت سفن حراسة لبعض القوافل التجارية الوافدة من الهند وصومطرة ، وشجعت الدول الاوروبية على المتاجرة في ممتلكاتها . وسعت في الوقت ذاته لتحويل طرق القوافل البرية المنبعثة من شمالي الهند والمارة بوسط اسية اليها ففكرت بانشاء قناة الدون الفولغا ، ودخلت في

حرب مع فارس وروسية، وكذلك فكرت بانشاء قناة تصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط ، بل لم تتورع في مجابهتها للبرتغال من ان تسعى للسلام ، لتخفف من اذى البرتغال المدمر للمسلمين في كل الاصقاع ، ولتعيد لهم وسائل رزقهم . وفي كل الجهود التي بذلتها في جميع تلك الاتجاهات ، كانت مدفوعة في الحقيقة بعوامل دينية جهادية ، لنصرة المسلمين والدفاع عن مصالحهم ، وبعوامل اقتصادية وسياسية ، تحافظ فيها على مقوماتها الاقتصادية ، وقواها حية وفعالة ، وعلى وجودها السياسي مدعما ومهابا .

قد لاتكون الدولة العثمانية قد استطاعت ان تستعيد من خلال مختلف مواقفها ، المراكز التي مكنت البرتغال لنفسها فيها على حواف المحيط الهندي ، اكان في الهند او في الخليج العربي ، او في بلاد السواحل ، الا ان البرتغال فقدت على جبهة المغرب ، وبجهود حكامها السعديين ، وببعض عون من العثمانيين معظم مراكزها . وكذلك خسرت اسبانية ، وفرسان القديس يوحنا حليفيها الضمنيين ، معظم مراكزهم على ساحل المغرب العربي المتوسطي ، وامنت الدولة العثمانية حدودها في الجبهة البلقانية ، والجبهة الصفوية . كما تمكنت بسيطرتها على مالم تكن البرتغال قد استخلصته من يد العرب بعد ، كجنوب شبه الجزيرة العربية واليمن وعدن ، وحوض البحر الاحمر كله (بعد تكوينها ولاية الحبش) ، واعالي الخليج العربي (الاحساء والبصرة) ، ان تكون لنفسها مراكز استراتيجية تراقب منها تحركات البرتغال ، وتذب منها عن الديار المقدسة ، وعن التجارة العربية - الهندية نفسها . وفي الوقت ذاته تولد خشية دائمة في نفوس البرتغاليين والفرس، وتبث بعض امل في نفوس المسلمين في اطراف المحيط الهندي كلها . وفي الواقع خرجت الدولة العثمانية من صراعها مع البرتغال ، وقد جعلت البحر الاحمر بحرا إسلاميا صرفا ، واصبح لها سيادتها في جنوب الجزيرة العربية . وفي شمال الخليج العربي وبعض نفوذ في المغرب الاقصى . وكان لها يد في الاحياء الفعلي لطرق التجارة الهندية المتوسطية فالاف الوثائق تثبت ان تلك الطرق قد رجعت لها حيويتها منذ سنة ١٥٣٠ م على الاقل وبقيت نشيطة كالسابق قبل كشف رأس الرجاء الصالح وحتى اواخر القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ،

على الرغم من بعض الازمات القصيرة الامد التي كانت تتعرض لها (١٦٦) .

فقد عاد البحر المتوسط ليقبض على كمية كبيرة من الفلفل والبهارات الشرق ا قصوية : فهناك قوافل عديدة كانت تشق طريقها في المشرق العربي ، بعضها آت من الخليج العربي ، والآخر من البحر الاحمر وتنتهي في القاهرة الاسكندرية ، وحلب وطرابلس الشام ، والاسكندرونة . وعاد البنادقة اسيادا لتلك التجارة ، وان بدا ينافسهم الفرنسيون والانكليز . واذ اكانت الحرب العثمانية الصفوية ، او الحرب البرتغالية العثمانية في الخليج ، قد اضعفت لفترة محدودة ، الوارد من الخليج ، فان طريق البحر الاحمر لم تتوقف . ويقدرون على سبيل المثال ، انه كان يحمل سنويا عبر هذا الطريق بين ١٥٥٤ ـ ١٥٦٤ م بين عشرين الف كنتال واربعين الفا من الفلفل والتوابل، وكانت البندقية تأخذ نصفها تقريبا ، وان مشتريات البندقية وحدها بين (١٥٦٠ ـ ١٥٦٤) كانت اثنى عشر الف كنتال ، وهذا يعادل ماكانت تشتريه قبل كشف رأس الرجاء الصالح (١٦٧) . وفي ايار ١٥٦٥ م ، تحدث قنصل البندقية في القاهرة عن وصول عشرين الف كنتال من الفلفل والتوابل الى جدة ، وكان التجار لايزالون ينتظرون قوافل كجرات وكاليكوت. اي ان ماكان يصل الى الاسكندرية وحدها ، كان يفوق ماكان يصل الى لشبونة في هذه المرحلة من الزمن (١٦٨) ، حتى ان السفير البرتغالي في روما استنتج سنة ١٥٦٠ بانه يجب الا يدهش المرء امام هذه الكمية الكبيرة من التوابل التي حطت في الاسكندرية ، اذا لم يصل شيء منها الى لشبونة (١٦٩).

وقد تكون عودة النشاط الى طرق التجارة العربية ـ الهندية ، وقصرها ،هما وراء طلب البرتغال سنة ١٥٦٣ الصلح مع الدولة العثمانية ، ومفاوضتها لتسمح لها بمرور توابلها عبر البحر الاحمر بدل طريقها الطويلة ، التي غدت معرضة اكثر فاكثر للقرصنة الاوروبية ان في المحيط الهندي او في

---

(١٦٦) Braudel, op. cit, P. 425

(١٦٧) Ibid, P. 428

(١٦٨) Ibid, P. 429

(١٦٩) Ibid, PP. 430-431

الاطلنطي (١٧٠). وتشير الوثائق الفرنسية سنة ١٥٧٨ م الى مشتريات من جوز الطيب من بلاد الشام (١٧١)، كما تذكر الوثائق البندقية سنة ١٥٧٩م وصول قافلة الى حلب وقد وسقت بمائتي حمل من الحرير ومائتين وخمسين حملا من التوابل (١٧٢) . وفي ١٥٨٣ يبين جون الدرد رزجرعظيمك التاجر الانكليزي الوافد مع بعثة تجارية انكليزية الى بلاد الشام والعراق والهند ، بأنه شاهد في البصرة (٢٥) خمسة وعشرين مركبا تركيا ، وانه في كل شهر ترسو فيها مراكب عديدة قادمة من هرمز وتتراوح حمولتها بين (٤٠ ـ ٦٠) طنا ، وهي مشحونة بسلع الهند ، والتوابل والعقاقير والصباغات ومنسوجات كاليكوت وعند ماعاد الى حلب في صيف سنة ١٥٨٤م رافق قافلة من اربعة الآف جمل ، محملة بالتوابل وغيرها من السلع الثمينة (١٧٣) وتوضح الوثائق ايضا ان ايراد جمرك مكة سنة ١٥٨٦م كان (١٥٠,٠٠٠) مائة وخمسين الف اوقية، ويرسو فيها سنويا بين (٤٠ ـ ٥٠) سفينة كبيرة محملة بالتوابل (١٧٤) ونحو سنة (١٥٩٠ ـ ١٥٩١) قدم احد رجال الدين وهو الاخ او غستينو دازيفيدو

تقريرا الى الملك فيليب الثاني وفيه يصف هرمز بانها مدينة مفتوحة لجميع الهجرات ، والتجارات وانواع التهريب .. وفيها بنادقة وارمن ، وفرس واتراك وبرتغاليون صابئون (اي دانوا بالاسلام) وقد ادهشه اتجاههم نحو تركيه التي كانت تستفيد من خبراتهم بالهند والتجارة فيها ومن معرفتهم بسلعها كالتوابل واللالي والراوند وخشب الصندل، كما كانت تستفيد من خبرتهم في تهريب الاسلحة والذخائر .. وأكد في تقريره ان هرمز كانت مستعدة للدخول في علاقات حسنة مع الاتراك ومع الانكليز المهرطقين .. وقد شاهد في صحراء بلاد الشام قافلة من ستة آلاف جمل ، محملة بكنوز الشرق ،

---

(١٧٠) انظر هامش (١٥٦) ـو Ibid, 432

(١٧١) Fonds d' Auvergne, No. III, 23 Juillet 1578

(١٧٢) منقولا عن Braudel, op. cit, 442

(١٧٣) Voyages and Travels, mainly during the 16th and 17th centuries- Westminster 1903, PP. 296-301

(١٧٤) Braudel, op. cit, P. 443

ووجهتها الاسكندرونة ، وهي تملأ خمس سفن بندقية (١٧٥) . وكانت البندقية تتاجر في سنة ١٥٩٦م في بلاد الشام بما قيمته مليونا ذهب (١٧٦) وان بيوتاتها التجارية الستة عشر في حلب كانت لاتزال تعمل بنشاط سنة ١٥٩٩م (١٧٧).

لم تتمكن البرتغال اذن على الرغم من كل محاولاتها العسكرية ، ونجاحاتها البحرية وسوطها الارهابي القاسي على السكان ، والسفن وتصاريحها الورقية، ان تحقق مأربها الكبير في القضاء التام والنهائي على التجارة العربية - الهندية . فقد ظلت تلك التجارة تتبع طرقها السابقة ، وتنفذ الى العالم العربي بوسائل شتى ، ساعد عليها التفسخ الاخلاقي في الهيئة البرتغالية الحاكمة نفسها ، في موانيء الهند والموانيء الاخرى . كما انها على الرغم من تفوقها البحري في المحيط الهندي ، فانها لم تستطع ان تلغي الوجود العثماني فيه ، اذ ظل يلاحقها طيلة القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . وفي الوقت ذاته لم تتمكن ابدا من اقتلاع الاسلام منه ، بل ولا حتى اضعافه ، مع كل الاساليب اللا انسانية التي تعاملت بها مع المسلمين - من قتل ، وحرق ، وتدمير ، ومع كل الوسائل التي لجأت اليها في عمليات التنصير القسري.بل يبدو ان تحديها ذاك للمسلمين ، قد ادى الى يقظة اسلامية في نفوس الشعوب المسلمة فاخذت تتنادى للجهاد كما حدث في الهند في عدة مناسبات ، وقام بعض الفقهاء بالحث على سلوك هذا السبيل الاسلامي (١٧٨). وكانت الثورات على حكمها لاتتوقف ، ان في الهند او بلاد السواحل ، او الخليج العربي. وفي الهند ، كان سكان البلاد يتركون الموانيء التي يقيم فيها البرتغاليون ، ويبشرون فيها بالقوة باعتناق الدين النصراني ، وكانوا ينسحبون نحو الداخل مخلفين تلك الموانيء دون صناعة ، ودون يد عاملة ، ويستنكفون حتى وهم في الداخل عن التعامل معها

---

(١٧٥) كشف هذا التقرير الباحث بيريس دوسليفا M.Pires de Silva. واعلم به المؤرخ بروديل المؤرخ البرتغالي غودينهو M. Godinho واشار اليه بروديل في كتابه المشار اليه سابقا في الصفحة (٤٤٤)

(١٧٦) Braudel, op. cit, P. 447

(١٧٧) A.D.S. Venise Cinque Savei, Basta 26, 21 Avril; 1600

(١٧٨) انظر أحمد زين الدين المعبري المصدر نفسه / ٢٠٥ - ٢٢١ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩١

ولذلك عاشت تلك الموانيء المحصنة بالقلاع والمدججة بالآت الحرب ، منعزلة عن الداخل (١٧٩).

واخيرا، اذا كانت الدولة العثمانية في مواقفها تلك قد خرجت ولم تنجز ماكانت تأمل ، او ماكان يؤمل منها ان تنجز فان البرتغال قد خرجت في اواخر القرن السادس عشر والانهيار باد في امبراطوريتها الهندية ، وفي بلادها ذاتها . ولم يطل الامد على تلك الامبراطورية ، اذ لم يلبث ان تهاوى قسمها الاكبر: فقد نجح العرب اليعاربة حيث لم تنجح الدولة العثمانية ، في طرد البرتغال في النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، من ساحل عمان وبلاد السواحل . وتمكن الهولانديون والانكليز ان يحلوا محل البرتغال في الهند ، وجزر الهند الشرقية ، ومواقع من افريقية ،وقبض الفرس على هرمز . اما البرتغال ذاتها ، فكانت قد اتبعت منذ سنة ١٥٨٠ م للتاج الاسباني.

دمشق ١٢ جمادى الاولى ١٤١٠هـ

الموافق : ١٠/ ١٢/١٩٨٩م

ا.د. ليلى الصباغ

استاذة تاريخ العرب الحديث

جامعة دمشق

* * * * * * * * * * * *

---

(١٧٩) Pirenne, op. cit, II P. 353

ابن ماجد
الملاح الاديب الشاعر

الدكتور / علي أحمد الزبيدي

الاستاذ في كلية الآداب

رئيس قيم الدراسات الادبية

معهد البحوث والدراسات

العربية - بغداد

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

ابن ماجد الملاح الاديب الشاعر

اكتشف المستشرق الفرنسي كابرييل فران كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد وهو كتاب منشور مطعم بالاشعار يتضمن تسعة عشر بابا أو فصلا يحمل كل منها اسم فائدة والحق به المستشرق ارجوزة الحاوية وهي اكثر من الف بيت . وتسبق الكتاب وفصوله مقدما وتتخللها ابيات وقطع وقصائد من نظمه تتناثر بينها ملاحظات وشروح لغوية وادبية تستعين بشواهد من الشعر القديم كما يفعل شراح الشعر . وقد طبع فران الكتاب بين سنتي ١٩٢١ ـ ١٩٢٣ م وصدره بتمهيد موجز جدا باللغة الفرنسية اشاد فيه بابن ماجد وغزارة علمه بأحوال البحار وفنون الملاحة وأكد انه اعظم الربابنة العلماء في الشرق والغرب حتي نهاية القرون الوسطى (١) وكرر ذلك وفصل الكلام فيه في المقالات والبحوث التي نشرها بعد طبع الفوائد وغيره من علوم البحار والملاحة (٢).

وكان المستشرق الروسي الشهير كراتشوفسكي قد اكتشف بعد فران بمدة قصيرة جدا كتابا آخر لابن ماجد الملاح فيه ثلاثة اراجيز تعليمية طويلة فاعلن اكتشاتفه واتصل بفران وشاوره في الامر وامتدح جهوده ، كما ذكر في بعض مقالاته المنشورة وفي كتابه (مع المخطوطات العربية) وكتابه الشهير الآخر (تاريخ الادب الجغرافي العربي (٣) وبعد سنين قام تلميذه شوموفسكي بنشر الاراجيز الثلاث بعنوانها ثلاث لاهمانجات مجهولة سنة ١٩٥٧ مصورة عن المخطوطة وقدم لها ببحث قيم عن ابن ماجد وسيرته ومنزلته العلمية ومؤلفاته .. الخ (٤).

واعترف المستشرقون الثلاثة والذي اهتموا بعدهم بعلوم البحار والملاحة والادب الجغرافي العربي امثال دي غويه الهولندي ، وسوسير السويسري ، وبلاشير الفرنسي، وغيرهم كثير بفضل العرب في هذا المجال وأكدوا أن لابن ماجد النصيب الاكبر في هذا الفصل، وخاصة على البرتغاليين والاسبان لانه شهد بداية الغزو البرتغالي في المحيط الهندي . والخليج العربي ، في اواخر القرن

الخامس عشر واوئل السادس عشر . ولان مؤلفاته كانت معروفة شائعة الاستعمال الا ان المستشرقين عامة تمسكوا بالزعم القائل أن فاسكو دي غاما اتخذ ابن ماجد مرشدا مكنه من الوصول للهند والسواحل العربية ، وتلك مزيه لاتصمد امام البحث التاريخي الرصين ، كما اكد معظم الباحثين (٥) وكانت علوم البحار والملاحة والجغرافيا قد تطورت وتقدمت تقدما عظيما عند العرب خلال العصر العباسي اي قبل عصر ابن ماجد بعدة قرون . كما اشار هو نفسه مرارا وتكرارا ولكن اكثر ماالفه العلماء السابقون قد ضاع . ويفخر ابن ماجد بما اضافه مما توصل اليه واخترعه بفضل علمه وخبرته الطويلة في قيادة السفن والتجوال في البحار . وله الحق في هذا الافتخار. غير ان اغلب مؤلفاته هو نفسه قد فقدت ايضاوالقليل الذي وصل الينا تداوله النساخ من الربابنة والمحترفين وغيرهم فنشأ فيه التحريف والتصحيف والخطأ والخلط وغير ذلك مما يعتور المخطوطاتات والمنسوخوة عن الاصل بعد عصر اصحابها . وكانت هذه المؤلفات معتمد الملاحين والربابنة العرب والمسلمين في حياة ابن ماجد وبعد موته وحتى القرن الثامن عشر ومن اشهر هؤلاء من القادة العثمانيين بيري ريس الذي قاد اسطولا عثمانيا سنة ١٥٥١م لاسترداد مسقط وهرمز من الغزاة البرتغاليين ، وقد الف باللغة التركية كتابا سماه (بحرية) ثم الاميرال العثماني الشهير على ريس حسين المعروف بكاتب روحي وكان شاعرا وهو الذي قاد اسطولا آخر سنة ١٥٥٤ لطرد البرتغاليين من الخليج والف هو ايضا كتابا علميا بحريا كبيرا بعنوان (محيط) اعترف في مقدمته بانه افاد من التراث العلمي العربي ثم قال انه لم يترك فرصة تمر دون ان ينتفع مما كتبه البحارة المعاصرون له.

ولاسيما احمد بن ماجد وسليمان المهربي ثم ذكر كتبهما مثل كتاب الفوائد والحاوية وتحفة الفحول وقلادة الشموس وغيرها . ويؤكد فران ان جميع المعلومات البحرية والملاحية في كتاب (محيط) وكتاب (بحرية) ليست الا ترجمة تركية ركيكة لما جاء في كتاب الفوائد. وقد ايد المستشرقون والباحثون العرب امثال انور عبد العليم وحسين فوزي وحوراني ومحمد منير مرسي وغيرهم ملاحظة فران المتشرق الفرنسي واضافوا تفاصيل وادلة اخرى (٦) ولانود الخوض في هذا الموضوع فقد بحث

واعيد بحثه مرارا وتكرارا . وليس من شأننا ايضا العودة الى سيرة ابن ماجد الملاح ومراحلها واحداثها المهمة وغير المهمة للسبب نفسه ولان موضوع بحثنا هذا دراسة ماوصلنا من رجز ابن ماجد وقصيده ونثره فابن ماجد العالم البحار معروف للقاصي والداني ، وعلم من اعلام التراث العربي ولعله اشهر شخصية علمية خليجية عرفها الشرق والغرب قديما وحديثا . اما ابن ماجد الاديب والشاعر الذي خلف نتاجا منظوما ومنثورا ليس بالقليل فلم يكن موضوع دراسة ادبية حتى اليوم.

اما مقال حسن كامل الصيرفي: الملاح الشاعر المنشور في مجلة المجلة سنة ١٩٥٧ فهو تعريف مقتضب وليس بدراسة جادة وسيأتي ذكره تفصيلا في هذا البحث (٧).

وأعمال الذين ذكرناهم والابحاث والمقالات الكثيرة التي تناولت ابن ماجد اقتصرت اذا استثنينا بعض الملاحظات العابرة على الجانب العلمي الخاص بعلوم البحر وفنونه الملاحية واهمل الجانب الادبي أو كاد كما اشرنا فلم يحظ ببحث مجمل أو مفصل . صحيح أن ماقيل عن اسلوبه ولغته قليل لايتعدى الاشارة الى مافي اراجيزه خاصة من اخطاء نحوية ولغوية وعروضية ولكنها لاتصلح للخروج بحكم سلبي عام عن ادبه وشعره لاسباب كثيرة سيأتي ذكرها . ومن جهة اخرى ادرك الذين درسوه الاهمية اللغوية والقيمة الكبيرة لمئات المصطلحات العلمية والملاحية التي يزخر بها كتاب الفوائد وكتاب ثلاثة ازهار في علم البحار واراجيزه الاخرى. والحق انها ثورة لغوية يمكن ان تمدنا بعجم كبير خاص بلعوم البحار والملاحة وهندسة السفن القديمة والجغرافية الطبيعية والبحرية والمناخية والفكلية والتاريخية التي تعني بالاقاليم والبلدان القديمة (٨) ومن شأن هذا المعجم تمهيد السبل لدراسات لغوية ذات فوائد جليلة للمشتغلين بتعريب العلوم ومصطلحاتها . وللمعنيين بدراسة اللغة العلمية العربية وتأثيرها في الاساليب الادبية وتأثرها بها ، وللمهتمين باللهجات الدراجة في اقطار الخلية العربي والجزيرة الوسطى والجنوبية ، وللمختصين بعلم اللغة المقارن والادب المقارن المشتغلين بمعرفة تأثير اللغة العربية في اللغات والآداب الاجنبية المجاورة للخليج العربي والقريب منه ومدى تأثرها بتلك اللغات

وآدابها . ولعل من اهم موضوعات النوع الاخير من الدراسات الكشف عن تأثير اللغة العربية في اللغة السواحلية واللغات واللهجات الاخرى في افريقيا الشرقية وجزر المحيط الهندي الجنوبية.

والحق ان الملاحظات والاقوال القليلة التي تخص اسلوب ابن ماجد ولغته وشعره ونثره وثقافته الادبية لاتغري مؤرخي الادب بالاهتمام بهذا الجانب لان اغلبها ان لم تقل كلها آراء عابرة واحكام فضفاضة يسودها التعميم تقطع بضعف اسلوبه في جميع شعره ونثره ، وبفقر لغته هكذا دفعة واحدة ، محتجة بوجود مجموعة من الاخطاء النحوية والصرفية والعلل العروضية (٩) ولسنا بحاجة الى القول بأن احكاما عامة كهذه لاتنطبق على كل ارجوزة وكل قصيدة نظمها الملاح الشاعر فبينها اشعار وقطع جيدة من حيث الشكل والمضمون ، وصفحات من النثر غير العلمي لايخلو اسلوبها من خصائص فنية جيدة ، وخاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان ابن ماجد عاش في القرن التاسع للهجرة .\

اي في عصر تدهور الشعر والنثر والثقافة ، وتغشي الضعف واللحن في نتاج الشعراء بصورة عامة . اعن ان احكامنا ولنقل تقيمنا لادب ابن ماجد سيتغيراذا وضعناه في مواقعه الزمانية والمكانية وحددنا موضعه في لوحة الشعر والنثر الباهتة في القرن التاسع للهجرة وقسنا مكانته وقيمته وعيوننا لاتغفل عن اجزاء اللوحة الاخرى وعن جمهورة شعراء العصر على الاخص.

ولاننسى ان الحياة الثقافية والادبية في الخليج العربي والجزيرة لم تحظ بعناية مؤرخي الادب والفكر الا قبل سنوات معدودة ، فساد الاعتقاد بأن آدابها وعلومها فقيرة مجدبة وذلك خطأ تاريخي سببه الوهم وقلة الاطلاع على ماذكرته المصادر القديمة ولاسيما الخليجية (١٠) والابحاث والدراسات الحديثة التي اهتمت بالتراث الادبي والفكر في المنطقة (١٢) ولولا ماتحفنا به الدكتور شوقي ضيف في كتابه عصر الدول والامارات (١٢) لبقيت معارفنا عن الادب والثقافة في اقطار الخليج والجزيرة العربية مشوشة ضحلة ، ولاستمر الاعتقاد والوهم بأن الوقوف على شعرائها ودابائها وقفات طوية مضيعة للوقت والجهد فما قولك - والامر كما ترى - بمن يهتم بادب ابن ماجد الملاح المشهور بعلمه الفاتن في

فنون الملاحة وعلوم البحر لابأبده او شعره ؟ وماقيمة هذا الشعر او النظم التعليمي اذا قورن بنتاج الشعراء المجيدين؟ ولو فرضنا ان له بعض الخصائص والمزايا الفنية فأين هي مؤلفاته النثرية والعقائدية والاراجيز الكثيرة التي لم يصل منها الاكتاب الفوائد وبضعة اراجيز وقصائد وفقد الباقي الذي بلغ كما قال الباحثون نحو اربعين مصنفا؟ وها هو شوقي ضيف الذي عنى بادب الجزيرة والخليج العربي لم يشر بكلمة واحدة الى مزية واحدة لشعر ابن ماجد كما فعل مؤرخو الادب العربي الآخرون؟ واكتفى بالكلام عنه في باب صغير كرسه لعلوم الملاحة (١٣) . اما علي عبد الخالق علي الذي كتب اطروحة جامعية عن الشعر العماني فتح في فصلها الاول بابا عن ملامح الادب واتجاهاته في عصر بني نبهان (١١٤٥ ـ ١٤٠٦م) وآخر عن الشعر في عصر اليعاربة (١٦٢٢ ـ ١٧٤١م) لم يذكر فيهما اسم ابن ماجد لابصفته احد اقطاب العلوم والثقافة ولابصفته رائد الشعر العلمي التعلمي على اقل تقدير (١٤) ان الذي يؤرخ الاداب بالمفهوم العام الذي يعني تاريخ الثقافة كما فعل بروكلمان وعمر فروخ وغيرهما لايمكن ان يهمل ابن ماجد لانه اكبر شخصية علمية في علوم البحار والملاحة والجغرافية . والذي يؤرخ للادب العربي بمفهومه الخاص الدال على النتاج المقسم بالجمال الفني لايستبعد او يطرح اقساما من الادب التاريخي والادب الجغرافي والادب الفلسفي وضروبا من النثر العلمي او غير الادبي لانها لاتخلو من قدر من خصائص الجمال الفني من حيث الاسلوب واحيانا من حيث الموضوعات وطرق معالجتها ووصفها . وفي تاريخنا عدد كبير من المصنفين والمؤلفين الذي جمعوا بين العلم والادب وامتازوا بجمال الاسلوب . وفي الادب الجغرافي وهو مايهمنا هنا نفر من اولئك العلماء الادباء كالمسعودي والمقدسي وابن الفقيه وابن حوقل والادريسي وياقوت ناهيك عن اصحاب الرحلات كابن جبير وابن بطوطة وغيرهما(١٥) لاريب في أننا لانريد ان نضع ابن ماجد مع كبار شعراء العصر ولابمن اقل منهم اجادة ـ وهم قلة في هذا العصر ـ ولكننا لاننكر انه شاعر من طراز فريد لايخلو الوقوف على شعره من الاثارة كما يقول الصحفيون . وانه اديب واسع الثقافة والاطلاع على التراث الادبي يكتب نثرا فصيحا مرسلا سليما من التكلف والتصنع والتولع بالمحسنات البديعية مما اغرق فيه

كتاب عصره. ويحسن ان لايفوتنا ان ابن ماجد ينظم اراجيزه العلمية التعلمية للربابنة والملاحين من اشباه الاميين. ومع ذلك فهو لايستعمل اللغة الدارجة ولايهمل كل الاهمال قواعد النحو والصرف والعروض ولايكثر من اللجؤ الى الضرورات الشعرية على الرغم من أن مثل هذا الموضوع ومثل هذا الجمهور المحتاج الى هذه الاراجيز يضطره الى ذلك في ايحان كثيرة . ومع ذلك فان في اراجيزه وفي صفحات كتاب الفوائد اشعار وقطع وقصائد في اغراض الشعر الاخرى كالغزل ووصف الخمر ووصف الشباب والشيب والزهد ووصف النجوم والافلاك ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم. كثرة، اضف الى هذا الشروح اللغوية والاستطرادات الادبية المدعمة بشواهد من التراث الشعري الجاهلي والاسلامي والعباسي المزينة او المطعمة بطرف واخبار ادبية كثيرة.

اذا لاحظنا هذا كله ايقنا ان الجانب الادبي من هذه الشخصية الفذة جديد بأن تقف عليه وان نشخص ملامحه وسماته وان نعرف ماله وماعليه ، فليس بين رجال البحر في العصور السابقة من يضارعه في علمه وثقافته العامة وفي ثقافته الادبية ، وفي حبه للشعر وكلفه به وصبره الطويل على نظم آلاف الابيات في الشعر التعليمي لايقتصر على بحر الرجز بل يتجاوزه الى القصيد على الابحر العروضية الاخرى، وهذا يدل على انه له ملكة او سليقة ترقي الى مستوى الموهبة في احايين كثيرة . حتي يبدو لنا شاعرا حقا اذا تذكرنا جدب الشعر وجفافه في العصور المتأخرة وقارنا ابن ماجد بسواد الشعراء في القرن التاسع للهجرة . ولا ابالغ اذا قلت ان عددا من قطعة وابياته تثير الاعجاب واسيما ذات الطابع (البحري) الذي تتمثل فيه صفات الملاحة المتجول والعالم المتأمل والبحار الادبية الخبير باحوال الدنيا وطبائع البشر وغير ذلك من الخصائص التي يدركها المعنيون بما يسميه بعض الباحثين (ادب البحر) (١٦).

والحق ان ثقافة ابن ماجد الادبية لم تخف على المستشرقين الذين اكتشفوا ا شعره وبعض مؤلفاته المنثورة منذ اوائل هذا القرن ثم اكدها ورددها الذين كتوبا عنه من علماء العرب وادبائهم

المعاصرين في غير تفصيل.

قال الاستاذ كراتشوفسكي وابن ماجد قاريء مطلع في مجال الادب . لايقتصرمحيط قراءته على اهل الجغرافية الملاحين.. ومعرفة ابن ماجد بالادب الجغرافي بعامة ليست اقل من معرفته بالادب الملاحي .. ومن ناحية اخرى تقابلنا لديه اسماء ابن حوقل وابن سعيد وياقوت ، اصف الى هذا انه لا يهمل مصنفات ادبية صرفه ، كما يستشهد بابيات لعدد من الشعراء ابتداء من العصر الجاهلي الى القرن الخامس عشر .. وقد يلاحظ احيانا لدى ابن ماجد رغم اطلاعه الواسع في محيط الادب وجود بعض الالفاظ العامية والخروج على الفصيح ، بيد أن هذه ظاهرة عادية بالنسبة للعصر والوسط الذي عاش فيه .. اولى بنا ان نعجب لارتفاع مستوى اسلوبه في الكتابة (١٧).

هذا ماقله كراتشوفسكي بعد الحرب العالمية الاولى عن ثقافة ابن ماجد ومع ان تلميذه شوموفسكي يحكم على شعر ابن ماجد ونثره بالضعف لانصباب اهتمامه على الاراجيز الثلاث . الا انه ايد ماقاله استاذه عن سعة ثقافة ابن ماجد واضاف اسماء مصنفات علمية وادبية اخري افاد منها ابن ماجد فوائد كثيرة كما اضاف اسماء شعراء مشاهير استشهد بشعرهم ابن ماج لم يذكرهم كراتشوفسكي . ومما قاله شوموفسكي في هذا الصدد.

ونتبين من تحليل الموضوعات أن ابن ماجد كان الى جانب انجذابه الى البحث العمل ذا معرفة واطلاع واسع في ميادين غير تخصصية . وكانت معرفته العامة و اسعة جدا . وكان يقف في (على) المستوى التقليدي المطلوب من المتعلم العربي وعن هذا تتكلم الاسماء والمؤلفات التي يسيطر عليها . ففي احد الفصول يذكر خمسة عشر شاعرا معروفا في عصر ماقبل وبعد الاسلام من بينهم امريء القئس ومهلهل ابن ربيعة وعنترة بن شداد وعمر بن ابي ربيعة المخزومي والحسن بن هاني (ابونواس) .. وعبد الله بن المعتز.

ويعتمد على كتاب ، جمهرة الامثال لابي هلال العسكري (١٠٠٥م) وكتاب المشترك لشهاب

الدين الياقوتي .. الخ (يقصد ياقوت) ولك هذا يوضح المطالب العالية التي وضعها ابن ماجد لنفسه كانسان خرج بعيدا عن الاطار الضيق لمطالب مهنته (١٨) هذا نص كلام شوموفسكي وقد اسقطنا منه تفاصيل تتضمن اسماء مصنفات علمية سبق ان اشرنا الى عدد منها . وكان المستشرق الفرنسي فران قد سبق كراتشوفسكي وتلميذه في ملاحظة سعة ثقافة ابن ماجد العامة والادبية وهو اول من اشار الى علائم الضعف في شعره وقد ثبت شوموفسكي بهذا القول وسحبه على كل شعره ونثره ، مفصلا الكلام في ذلك بعض التفصيل وبالغ مبالغة واضحة لانه لم يلق نظرة فاحصة على عامة شعره ولم يفط الى مواطق الاجادة ومواظعها . والقول بضعف شعره شاعرا استنادا الى مواضع الاخطاء النحوية واللغوية والعروضية وغيرها لايبرر اهمال المواطن التي يجيد فيها اجادة واضحة . وهي في الاعم الاغلب ، اعني مواطن الاجادة تقع خارة اطار الشعر التعليمي ، لاسيما الاراجيز المنظمومة في علوم البحار والملاحة الخاضعة لضغوط فنية وثقافية ولغوية واجتماعية بحكم اعدادها لرجال مهنيين من اشباه الاميين هدفهم الحفظ والتعلم لا التثقيف والتأدب وطلب الفصاحة والبلاغة والابداع.

ولكن المستشرق الروسي انصف ابن ماجد عندما توسع ايضا في تبيان مزايا لغة ابن ماجد التي اشار اليها المستشرق الفرنسي ايضا بقوله ان اشعاره تزخر بمصطلحات علمية فلكية وبحرية وملاحية جغرافيا . وقد افاد د. انور عبد العليم من ملاحظات اولئك وهؤلاء وخاصة المستشرق الروسي تشوموفسكي واجملها بقوله:

وبهذه المناسبة يرى بعض المستشرقين ان كتابات ابن ماجد صعبة شاقة كالرموز تحتاج الى مفاتيح لحلها . وهم يعنون بذلك اراجيزه التي ضمنها قياساته الفلكية وتعبيراته الملاحية على نحو مافعل ابن مالك في الالفية ، ولهم عذرهم في ذلك .

والوقع ان دراسة ابن ماجد دراسة مجدية تحتاة الى المام بكثير من فنون البحر والملاحة مما لايتيسر للكثير من طلاب الدراسات الانسانية كما انها لتحتاج في نفس الوقت الى معرفة باصول

الكلمات والمصطلحات الملاحية التي استعملها ابن ماجد وسليمان المهربي وامثالهما من ملاحي المحيط الهندي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد . وبعض هذه الكلمات يرجع الى لغات فارسية او هندية او سواحلية او جاوية وقد يسر هذا الامر الاخير للباحثين بعض التيسير تلك الدراسات التي اجراها جابربيل فران المستشرق الفرنسي في مطلع هذا القرن.. ثم ان دراسة ابن ماجد لتحتاج الى تحقيق ايضا لمواقع الامكنة والبلدان التي ورد ذكرها في كتاباته وفي مرشداته الملاحية. واخيرا فلا تتم هذه الدراسة الا بمعرفة ادوات الملاحة وآلاتها التي كانت مستعملة عند العرب في ذلك الوقت وكذلك معرفة اسماء النجوم والكواكب التي رصدها ومدلولاتها الحديثة.

وثمة سبب آخر نراه جديرا بالذكر في معرض صعوبة المادة العلمية لابن ماجد ويتلخص في أن بعض الكلمات الاصلية للمؤلف قد اصابها التصحيف على ايدي من نقلوا مخطوطاته ممن قد لايكون له كبير دراية بالمادة المنقولة ولا ادل على ذلك من ان النسخة التي بين ايدينا من كتاب الفوائد قد كتبت بعد نحو قرن من تاريخ كتابه المخطوط الاصلي للمؤلف.

على أن عدم تقيد ابن ماجد بالوزن والقافية في شعره (اي قسم من شعره) او بقواعد الاعراب لايعني من ناحية اخرى انه كان قليل الحظ من الثقافة (الادبية) وتدل كتاباته على اطلاع واسع والمام بكتب وآثار من سبقوه ليس فقط بالنسبة لمؤلفات الجغرافيا الفلكية والجغرافيا الرياضية ، بل ايضا بالنسبة لكتب الادب والاشعار فهو يستشهد في كتاب الفوائد مثلا بابيات من معلقة امرىء القيس ومعلقة عمرو بن كلثوم وشعر المهلهل من شعراء العصر الجاهلي وكذلك بابيات من عمر بن ابي ربيعة وابي نواس والطغرائي وغيرهم .. الخ (١٩)

وقد سبق ان اشرنا الى هذا كله ونعيد ماكدناه حول ماشاعه نساخ المخطوطات الماجدية التي وصلت الينا ونضيف الى انهم كانوا ممن ينسخون كتب العلوم او ممن يشتغلون بها من غير المتخصصين المتبحرين فيها ، ويشبههم في هذا الى حد ما الذين كتبوا عن ابن ماجد من المستشرقين

الذين يصعب عليهم ادراك ما في النص من جمال فني او تذوق مافيه من حلاوة التعبير وبراعة التصوير . واذا كان بينهم من له حظ من هذا فشلغله الشاغل دراسة الجانب العلمي لا الادبي . والاشعار التي ترقى الى مستويات شعرية اعلى من مستوى النظم في معظم اراجيزه ، التعليمية كثيرة جدا ومعظمها يرد في التعليقات والشروح والاستطرادات الادبية . ونصيب كتاب الفوائد منها اكثر من غيره لانه منثور يتوزع على فصول مختلفة ويتناول موضوعات تتيح لمؤلفها فرص الشرح والتفسير والاستطراد والاستشهاد بشعره وشعر غيره.

اقرأ معي قوله وهو يذكر نجم العو القريب من السماكين وينسب اليه النحس كيف يخرج هذا المعنى بمعاني الخمر والعزل ويصف الابيات بانها من احسن ماقاله:

حضر المدام منيتي والماء	فلحا العذول وعذله اغراء
اين الملام من المدام وشربها	بمهفهف ، ماذا وذاك سواء
بالماء يحيا كل غصن ناضر	وكذا الملاح حياتهن الماء
اني وفيت لمن الام به ولو	قيل الغواني مالهن وفاء
لاغرو ان ملك الحبيب مقاودي	هذا السماك تقوده العواء (٢٠)

ثم عقب قائلا : وقال فيه عنترة في لاميته :

ان كنت من عدد العبيد فهمتي	فوق الثريا والسماك الاعزل

وقال الطغرائي في لاميه العجم :

وان علاتي من دوني فلا عجب	لي اسوة بانحطاط الشمس عن زحل

واستطرد قائلا : يتمثل فيمن علاه وهو دونه حتى تمثل بالمشس وزحل لأنه فوقها وهي انور

منه ، واظهر وكذلك العواء والسماك ، والعرب يتمثلون بكل شيء يدخل في اماثيلهم بالمساك بالرفعة.
ويتمثلون في العز بالعنقاء فقالوا اعز من العنقاء ، واضخم من فيل ، واسمع من فرس في ظلماء وغلس ، وانوم من فهد ، وايقظ من ذيب لانه ينام بعين واحدة حتى يشبع نوما فيطلقها ويغمض الاخري وينام بها فيستريح بالنائمة ويحترس باليقظانه وهو على ذلك وقيل فيه نظما حسنا:

ونمت كنوم الذيب في ذي خفيضة — أكلت طعاما دونه وهو جائع

ينام باحدى مقلتيه ويتقي — بأخرى الاعادي فهو يقظان هاجع

وقالوا فلاك اكرم من ديك ، واعلم من نمل واشرب من رمل واحذر من غراب..

ويمضي في ذكر طائفة من الامثال الاخرى يستخرجها من جمهرة الامثال للعسكري كما قال.
وقد يتوقف لينقل حكاية تفسر بعضها. ثم يعود بعدها ليقول: ومن نظم مصنف الكتاب في السماكين قوله من قصيدة طويلة :

تقدمت عند العافيين ومن يكن — اخا الحزم في ليل الدياجي تقدما

اذا كنت في السنجار فالكل يهتدي — ونور علومي كالسماكين في السما

وينكر علمي جاهل غير عالم — والا حسودا مبغضا او به عمى

وبعد ان يأتي بقطعة اخرى من شعره ينتقد بها نحويا متشاعرا يشرح معنى السماك الاعزل والسماك الرامح ويستشهد ببيتين مشهورين للمعري :

لاتطلمن بغير حظ رتبة — قلم البليغ بغير خط مغزل

سكن السماكان السماء كلاهما — هذا له رمح وهذا اعزل (٢١)

وبعد ان يبسط مايجب معرفته عن النجوم والاستهداء بها يعود الى ماتوحي به دلالاتها

الشائعة للشعراء والادباء ، فيقول:

وكثير من النجوم ممزوجات بين سعد ونحس ، وكذلك بعض الاشياء يصلحها المزج خصوصا في الراح كما قال مصنف الكتاب في اشعاره الفائقة الرايقة في الراح في عصر الشبيبة ، من قوله ذلك البيتان :

صـــفـــراء ســـاطعـــة كـــالنار لم ارهـا فـي الكـأس الا نـفـت هـمـي واحـــــزاني

أصلحـــتـــهـــا قـــراح الماء من حـــذري وكـــــيف تصلح امـــــواه لنيـــــران؟

ثم يذكر بيتين آخرين في وصف الخمرة ومزجها ويشبهها بكوكب عطارد ذاكرة انها توصف بالمزبان ويتوقف ليشرح معنى الزبن والصبن فيقول:

والزبن والصبن بمعنى واحد هو الرفع ، وسمي الصابون صابونا لانه يصبن الوسخ من الثوب اي يرفعه وقال عمرو بن كلثوم في معلقته :

صـــبنت الكأس عني ام عـــمـــرو وكـــان الكاس مـــجـــراها اليـــمـــينا

ومـــاشـــر الثـــلاثة ام عـــمـــرو لصـــاحـــبك الذي لاتصـــبـحـــينا

ويسوق الحكايات التي تناقلها الرواة عن سبب قول عمرو بن كلثوم هذين البيتين وليس هنا مكان سردها (٢٢) ولا يترك طريقته في عرض معارفه عن النجوم مازجا مباحث الفلك بموضوعات الادب . فبعد ورقات قليلة يذكر نجمين من نجوم المجرة هما الصادر والوارد ، قائلا انهما :

لايثبت لها قياس يفعل به الانسان ثم يندرس بعد موته يقول: وبهما نضرب الامثال واحس ماقيل فيهما قول المصنف لنسفه شعرا :

لقـــد كنت قـــبل اليـــوم مملوك شـــهـــوة وقـــد ســـرت حـــرا والهـــوى صـــار خـــادمي

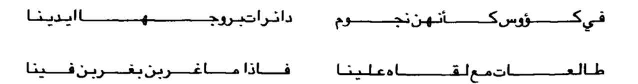
كتابي جليسي والجميلة متجري   وعقلي مشيري والفتاكة صارميوقائل بهتان

ولست ابالي حاسدا او مهاجرا   نعتهكارمي

فقولا لمن لايعرف الناس انني   قرين رجال لاقرين البهائم

الم تر سير النيرات مخالفا   لشهرتها سيرا لها والنعايم (٢٣)

يعني بالجميلة الفعل الجميل وبالمهاجر في البيت الثالث قائل الهجر اي الشتم الفاحش والنعايم او النعائم نجوم يستهدي بها كما ذكر ابن ماجد قبل استشهاده بهذا الشعر من نظمه . والنيرات هي النجوم السبع السيارة والسها والنعايم هي الثوابت (غير السيارة) والقطعة كلها في الحكمة او الموعظة الشعرية ولغتها سهلة الا انها فصيحة وطابع العصر اللغوي واضح في استعماله الفاظا عصرية شائعة حينذاك كالملوك والخادم في البيت الاول ، وعبارة (مملوك شهوة) والهوى صار خادمي ، لايخلوان ، من طرافة ونصيب من الذوق الفني وطابع البيت الاخير العلمي - الادبي يشير الى ابن ماجد الشاعر العالم بالافلاك والنجوم العارف بوسائل الاستفادة الفنية من صفاتها الحقيقة والمتخيلة ومن دلالاتها الصحيحة والوهمية ولاينكر ان صاحبنا لاتهيء له مهنته ومشاغلها واعباؤها ، وفي ظروف عصره المتأخر للوصول الى شرفات الجنائن الشعرية المعلقة التي صعد اليها الشعراء المبدعون القادرون على رسم الصور الرائعة التي توحي بها نجوم السماء على نحو قول ابي نواس الشهير :



في كؤوس كأنهن نجوم   دائرات بروجها ايدينا

طالعات مع السقاه علينا   فاذا ماغربن يغربن فينا

الا ان عجز ابن ماجد ، وشعراء عصره عن الارتقاء الى القمم والسفوح العالية لايبرر نفيه من بابل الشعر والحكم عليه او على شعره بالاقامة الجبرية المؤبدة في مدرسة الشعر التعليمي.

ومما لفت انظارنا في شعره انه لايكتفي اولا يقنع بمزج صفات النجوم ودلالاتها بوصف

الخمر وبمعاني الغزل وصورة وخيالاته فنجده ينجرف بموجة الغزل المذكر التي اشتدت في العصور المتأخرة فيعرض علينا نمطا آخر من صور هذا المزج اذا دعت المنابة فعند كلامه العلمي عن العيوق قال : والعيوق نجم دري من القدر الاول يسمى باري الثريا واحسن ماقيل فيه قول المصنف (يعني نفسه) شعرا :

شـــحن اليـــراع بأن خط عـــذاره | يخـــفي لبـــدر الليل ثم نهـــاره
وارى على وجـــه الحـــبـــيب كـــتـــابه | كـــدبيب نمل ســـال فـــوق عـــذراة
هـــذا دلـــيـــل انـــه نـــور المـــلا | و(النيـــريين) خـــســـفن من انواره
تصـــبـــو القلوب اذا تمايس مـــقـــبـــلا | فـــرحـــا به وتهـــيم في ادباره
دان تلاحظه العـــيـــون ونيله | في البـــعـــد كـــالنجم الشـــهـــير وباره

فالنجم هو الثريا ، والبار هو العيوق ويسمى باسماء كثيرة.. الخ (٢٤).

ويحسن ان ندرج هنا ايضا من شعره هذه الابيات استشهد به عند ذكر الناجد قال : واما في الناجد البراق بين التير والجوزاء وهو من المرازم الاربعة اللواتي حوالي الجوزاء ، وهو نجم ابيضا كبير خفاق للغاية فقد قلنا فيه بعض الاقول في معاتباتنا في ايام الشباب شعرا :

مـــاقـــاطعـــوك عن العـــتـــاب ورسله | الا وليـــس لـــهـــم بـــوصـــلـــك بـــاقـــي
بثـــوا الغـــرام على دون عـــتـــابهم | ان العـــتـــاب حـــدائق العـــشـــاق
واذا العـــذول وشـــا واطرق ذكـــرهـــم | مـــلامـــة طربوا على الاطراق
خـــفـــقـــان قلبي عند ذكـــر احـــبـــتي | وضـــيـــاؤه كـــالناجـــد البـــراق (٢٥)

وعند ذكر عطارد وبعض النجوم السيارة كالمشتري والزهرة والمريخ يقول : فقلنا فيهم نظما من قصيدة نظمناها في عصر الشباب :

عـــذولي لام فـــيك فـــمـــا اجنه	فـــأعكس بالوصـــال قـــبـــيح ظنه
ودر كـــأس المدام علي صـــرفـــا	وغـن عليـــــه اصـــــواتا بغنـه
وغـــازلني وهات وخـــذ وكـــاشف	بما تخـــفي القلوب ومـــاتكنه
لتـــعلم كـــيف افـــعـــال الهـــوى بي	واشـــواق تجـــادبني الاعنه
فكم امـــضي الهـــوى بي للمـــواضي	وكم ســـره الهـــوي بي في الاسنة
فـــاســـجـــدني مع الابريق شـــوقـــا	لمن جـــمع الفـــتـــات بغـــيـــر منه
فـــمـــا الدنيـــا ســـواك وشـــمس راح	علي عـــصـــر الشـــبـــاب وعـــصـــر مكنه
عطاردها وزهـرتـهـــا الديـهـــا	عكوفـــا وهي تشـــرق بينهن (٢٦)

وفي موضع آخر يقول بعد أن يفخر بسعة علمه وتفوقه على غيره في معرفة النجوم وقد قلت على لسان الحال في النجوم شعرا :

هدى النجـوم اشـتكت مني لخـالقـهـا	تقـــول هذا جـــفـــانا في تنوخـــده
قـــد كـــان يوصلنا طول الزمـــان وقـــد	كـــانت منافـــعنا جـــمـــا على يده
وكـيف لايشـتكي من لم يجـد عـوضـا	بالشيء والشيء منسـوب لواجـده (٢٧)

ومما يحسن الاستشهاد به ايضا من شعره فخره بعلمه ، وهو كثير في اراجيزه نختار منه هذه الابيات الثلاثة لان افتخاره بها يشيد بما يتحلى بها من نظم ونثر (ادب) ومن علي بالبحار

وبالنجوم ، قال:

بفوتك غفلة نظمي ونثري ... وتزعم ان ليلك نونهار

فو الحرمين لم تظفر بعلم ... يسرك في البحار وفي الدراري

اذا ما الراميات رمتك فاعلق ... بتصنيفي وحكمي في المجاري (٢٨)

وهذه قطعة اخرى حلوة تصور احواله والحياة التي يحياه ، حياة الملاح القائد التي الفت اخطار البحر وعواصفه ويستهلها بالشكوى من الاقامة بين اصحاب لايعرفون فضله ولايسألون عنه (اليقتفون اثري) ويمزج فيها بين الشكوى من الاصدقاء وهو من اهم موضوعات مايسمى بادب الصداقة والصديق وبين ماتتميز به حياته وظروفها . قال :

اقامتي بين من لايقتفي اثرى ... امر من خطرات البحر في المطر

دعني بفلك اقاسيها على خطر ... فانها خير من صحب على خطر

طورا اجوز بها من بين مشكلة ... وتارة التهي بالانس والسهر

ان كان لابد من صحب علي سفر ... ومن ركوب فقد جينا على قدر

ذي أية الله مركوبي وصطحبي ... رب كريم ربيت الله من سفري

انفقت عمري على علم عرفت به ... فازددت بالعلم توقيري على كبر

لو لم اكن لهما اهلا لما عنيت ... بي الملوك وهذا غاية الوطر (٢٩)

فالاقامة بين اصحاب لايعجبونه او لاينسجم وايامهم لانهم لايعترفون بفضله ولايسألون عنه هي عنده اشد اضطراب البحر في مطر عاصف او عاصفة ممطرة ، وهي من اشد مايهدد السفن في

بالبحر . دعني اذن لهذا الخطر فهو خير من خطر صاحب لايؤتمن لانه اخطار البحر مكشوفة معروفة لاتنافق ولاتداجي ولا تفاجؤك بالخيانة والغدر . اما سفينتي فتارة اذلل بها مشكلة من المشكلات ويعني بها هنا شدائد البحر واخطاره طورا الهي نفسي بالانس والسهر ، واذا كان لابد من صاحب سفر فذاك قدر لاقدرة لنا على رده فلنحتمله ونصبر عليه ونتكل في مركبنا وتصحبنا على الرب الكريم رب البيت الذي اعتدنا السفر اليه . لقد قضيت عمري في طلب العلم فازددت به وقارا ولو اكن اهلا لهما لما اهتمت به الملوك فاكرمتني واي وطر او اية غاية من هذه الغاية ، غاية الحظوة عند الملوك؟

ولعل من الطريف ان نختم هذه المختارات من شعر ابن ماجد بقصيدة نونية عرض فيها مذهبه في مجابهة الزمان ، وهو مذهب الربان الذي عركته الحياة وعرف الناس وخبر لهم واقتنع بأن خير مايجابه به فساد الزمان والناس ان يتناسى الانسان ذلك وان ينصرف الى التمتع بذات جمال في الرابعة عشر من عمرها (وفت لها من بعد ست ثمان) وان يشرب الراح ويستمتع الى النغم ويستمتع بجمال الطبيعة متمثلا في تغريبد القمري على الاغصان والورد الذي يورد خدود الغلال والكرم المعرمن باوراقه وهو الذ ي اختاره الند ماء كانا للانس واستيفاء لذات الصبا باحتساء بنت الكرم والاحاديث الرائقة (ماء للسان وقطف رمان الصدور) للناعمات اللذان حتى نلت مالم ينله الفلاني الفلان واستمعت بشمة رائعة بعمرنا حسنها جميعا بمشاعر لذيذة طيبة ، اراه بارعة للجمال رشيقة كانها الفضة في بياضها والحي في شعرها كالعسجد البراق وحولنا بعيدا قمم الاشجار واغصانها يهزها النسيم فيذبذب اوراقها فكأنها تحقق خفوق قلب الجبان . الا تدل هذه الصور على نوع من الفلسفة او التفلسف الواقعي الذي يتجه اليه في الاعم من هم من طراز ابن ماجد الربان الذي يتقبل ظروف الزمان وتقلبات الحياة بتجاهلها وتناسيها والانصراف الى المتعة وليكن بعد ذلك مايكون.

قال والان قد تغير ذلك الاصطلاح وتلك المواسم ولايفي في التجار من يعرف ويسأل العارفين عند الضرورة لقلة الفوائد ، وقد خانهم الزمان كما قال المصنف شعرا:

بالبلة قد غار منها الزمان ... حيث تنادي بالامان الامان

قم بي على ما نشتهي امنا ... وبالذي تهوى على الضمان

اليك ذات الحسن مكمولة ... وفت لها من بعد ست ثمان

والراح والاوتار معتدة ... ولاح لي مجرى سعودي وبان

وغرد القمري على غصنه ... فماس مطروبا وحيا ولان

وورد الورد خدود الغلا ... وازهر الروض كزهر الجنان

وعرش الكرم بأوراقه ... وقالت الندمان: هذا المكان

فقمت استوفي لذيذ الصبا ... بماء كرم وبماء اللسان

واقطف الرمان من صدرها ... من شجرات ناعمات لدان

ومنتهي الاشجار تومي لنا ... خوافقا تشبه قلب الجبان

حتي أتي الفجر باصباحه ... واعلن الداعي بصوت الاذان

اصابنا سهم بتفريقنا ... واي شيء لم يصبه الزمان؟ (٣٠)

الا تدل هذه القطعة على نصيب من الموهبة الشعرية والحس افني وعلى معرفة درج عليها بالموضوعات والخواطر التي يدور عليها هذا النوع من الشعر ، وبالطرائق التي درج عليها في وصل هذا الموضوعات ببعضها والانتقال من موضوع الى آخر ومن صورة صورة؟ اجل .. ان ابن ماجد هنا

(*) في المخطوطة المصورة بكتاب الفوائد (ولاح عن فخري) وهي لاتناسب السياق والارجح ان ذلك تصحيف وقد اثبتنا ما رجحنا صحته.

شاعر متابع او مقلد لامبتكر ، وليس في لغته الشعرية وفي معانيه وصوره شعر الابداع والاصالة والاثارة الفنية ولكن الم يكن معظم شعراء عصره من المتابعين والمقلدين؟ صحيح ان اسلوبه هنا في منتهى السهوة واللين حتى انه يلامس اللغة الدراجة في بعض جمله وعباراته كقوله - حتى تنادي بالامان الامان - البيت الاول . وقوله - وبالذي تهوى على الضمان - في البيت الثاني ولعلها في تأثير لغة التجارة والتجار لكثرة او طول مخالطته لهم بحكم مهنته ، وقوله واعلن الداعي بصوت الاذان - في البيت الثاني عشر . الا ان هذه الجمل والعبارات صحيحة وان كانت من الفصيح المفرط في السهولة لامن العامي المتبذل او المزود .

اما الابيات الاخري ففيها تعبير شعري اجمل لغة شعرية اورقي لان ابن ماجد ستعين ببعض فنون المجاز في غير تكلف ويرسم صورا جميلة تتراءى في سياق لا يخلو من سلامة الذوق ورهافة الحس وباسلوب بعيد عن موجة التصنع البديعي والزركشة اللفظية التي جرفت الشعر والنثر في العصور المتأخرة . والحق اننا لانجد في نظمه التعلمي وغير التعليمي ميلا الى استعمال الصيغ البديعية الكثيرة الشائعة ، ويعرض من جهة اخري لايهبط الى العامية كما قلنا ولكنه لايأنف من الاقتراب منها . فهو يبيح لاسلوبه حرية تصرف واسعة تجره الى التورط في اخطاء نحوية وصرفية والى اللجؤ احيانا الى الضرورات الشعرية المستقبحة قلة الاكتراث به لعلل العروضية . وليس كل هذا ما فعل النساخ ، ولا هو ناجم عن جهل ابن ماجد بقواعد النحو اللغة والعروش ، لان اخطاءه قليلة وغير مكررة في القطعة الواحدة ، ولافي عموم شعره ، هي اكثر من الاراجيز التعليمية ، بينما نجد قسما كبيرا من شعره غير التعلمي تندر فيه الاخطاء فان وجد بعضها فالراجح انها من عمل النساخ وحفاظ شعره . ولا ارتاب في ان غير قليل منها تقع تبعته على الشاعر نفسه لانه من باب التساهل في لغة الشعر ولاسيما التعلمي منه كما قلت . فهو اذن يصدر عن موقف فني لغوي معين - يجعل الغاية والفائدة العلمية والاستعمال ومستوى المستفيدين من شعره مبررا لقبول الاخطاء قصدا وعمدا وخاصة في القوافي ، وهذا الموقف ازاء لغة الشعر يتبناه ابن ماجد عن وعي وادراك بدليل رده على احد النحاة

الذين انقدوه في ابيات يقول فيها :

عن نحـوكم قـدمي ذا غـيـر منصـرف	والنحـو في حكمـة الاقـدام ينصـرف!
ان كـان اوزان فـعلي ثم مـعـرفـتي	قـد اوجب المنع .. منع الكسـر لي شـرف
اسـمي كـشـمس الضـحى او دعـتـه دررا	فـي النـظـم تحـكي نـظـام الـدر يـأتـلـف
الشـعـر مـاشـاع في شـام وفي يمن	مـورخ مـالـه حـدولا طـرف
اذا اتاني الفـتى بالنظم مـفـتـخـرا	نظـمـه هـو ذلك الزائر الـعـرف (٣١)

وجملة القول ا الشواهد الكثيرة التي اخترناها من شعره الذي وصل الينا وكثرة اراجيزه العلمية ، وسعة ثقافته الادبية تدل على انه شاعر جدير بأن يوضع بين الشعراء القرن التاسع للهجرة . لا نريد ان نرفعه الى طبقة المجيدين المبدعين وهم عمله نادرة جدا في زمانه ، ولا ان نهبط به نحشره مع شعراء العامية ، ولا ان نصر على ابقاذه بين العلماء اصحاب الشعر التعليمي ليس غير كل مانريده هو انصافه ووضعه .

بين امثاله من الشعراء الثانويين ، والاعتراف بانه شاعر جدير بالدراسة اضافة الى انه عالم قدير بل علم من اعلام. ولا اعدو الحقيقة اذا قلت ان شعره التعلمي يمتاز عن اكثر انوا ع هذا الشعر بالطرافة والجاذبية والتشويق بغرابة موضوعاته وتنوعها واتصالها بعناصر الطبيعة كالنجوم والاهتداء بها ، والرياح والاستعانة بها والبحار وصفاتها واخطارها وغرائبها والجزر والسواحل واحوالها وسكانها وحيوانها ونباتها والسفن وانواها والملاحة والملاحين والتجارة والتجار .. الخ ، ولكن طبيعة الموضعات وجوها لاتكفي للاجادة في وصفها والافادة العلمية وغير العلمية منها اذا لم تكن للناظم

(*) من الشطر الثاني مضطرب وقد اثبتناه اجتهادا .

مواهب فنية وذخائر لغوية وادبية ودربة ومران على النظم وهذا ماكان عند ابن ماجد . فقاريء اراجيزه يلتذ بقرائتها ويستأنس بما فيها من مواد علمية طريفة وصور واوصاف متنوعة جذابة . وكل هذا لانجده في اراجيز النحو والفقه والفلسفة ويارها من العلوم المجردة الجافة . ومع انه التزم بالاعراف والسنن التقليدية في هذا الشعر كافتتاحه بحمد الله والصلاة والسام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختتامها بذلك اثضا الا انه كان يطيل احيانا وحسنا يفعل حمد ، وسلامة وامتداحه للرسول الكريم صلى الله اليه وسلم ويقرن ذلك ويمزجه بالحكم والوصايا في كثير من الاحيا . وقد يترك ذلك يفتتحها بالغزل التقليدي ولاسيما اذا كان الشعر المنظوم من القضية لا من الاراجيز.

ولعل هذه المزايا في شعر ابن ماجد التعليمية هي التي اثارت انتباه الاستاذ حسن كامل الصيرفي ودفعته الى كتاب مثال بعنون الملاح الشاعر لم يذكر فيه من شعره الا مطالع اراجيزه التي نشرها فران .، ولم يقل عن وشاعريته سوى جملة او عبارة واحدة وهي ان لابن ماجد شعرا رقيقا . وقد اعاد انور عبد العليم النصوص القليلة اعني قواتح قسم من الاراجيز التي ذكرها الصيرفي في مقاله ولم يضيف الى ذلك شيئا يستحق الذكر من نصوص شعره. واليك قول الصيرفي في مقاله سالف الذكر :

وهو الى ذلك شاعر استغل موهبته في نظم القصائد والاراجيز التي ضمنها كل اختبارته . وشعره رقيق ولكنه يضعف حين الاصطلاحات الفنية (يعني العلمية) ويختل وزنه احيانا او يضطر الى الوقوع في اخطاء صرفية ولكنه مع ذلك لون جديد في الادب العربي.

وتتلو هذه الرسالة ارجوزته المسماه حاوي الاختصار في اصول علم البحار وقد رتبها على احد عشر فصلا في بيان مايجب على البحارة معرفته عن المنازل والاخنان قواعد الباشات والنيروز العربي والسلطاني ومعرفة السنين العربية والقبطية والرومية والفارسية ودانرة بر العرب. ومجموع ابياتها ١٠٢٥ يبدأها بقوله:

الحـــــمـــــد للخـــــالق ذي الجـــلال   القـــــاهر الفـــــرد بلا مـــــثـــــال

ثم ارجوزته المعربة التي عربت الخليج البربري وصححت قياسه وهي من رأس حافوني الى باب المندم (المندم) واشتقاق ديرة المضالقة لبر العرب وصفات مجاري يلع . اولها :

ياســـــائلي عن صـــــفـــــة المجـــاري   ثـم قـــــيـــــاس الانجـم الـدراري

وعدد ابياتها ١٧٧

ثم قبله الاسلام في جميع الدنيا قال في مقدمتها : لما رأيت الناس يميلون عن معرفة القبلة ومساجدهم مائلة عن قصد القبلة وليس لهم اصل علم يعرفونه به القبلة خصوصا في المدن اللواتي بقرب البحر وجزره التي يمر بها المسافر ، نظمت هذه الارجوزة ، واقمتها بأوضح الادلة واسهلها..

وقد بدأها بقوله :

باسم الاله المســـتـــعـــان ابتـــدي   مـــصليـــا على النبي احـــمـــد

يســـــهل التـــشـــديد من مـــرامي   فـي نظـم در قـلـبـــــه الاســـــلام

وابياتها ٢٩٥

وتليها ارجوزة بر العرب في خليج فارس ، وهي ٢٥٣ بيتا استهلها بقوله

ياطالعـــــا من آخـــــر الفـــــرات   والبـــصـــرة الفـــيـــحـــاء خـــذ وصـــاي

ثم ارجوزته في قسمة الجمة على انجم بنات نعش عدتها ٦٨ بيتا بين فيها كيف يستدل رجال البحر (او النواتية) وغيرهم على مسالك السير في البحار ومطلعها :

ياقـــــســـــام الارزاق لم ينس احـــــد   فـــرد عـــيـــاث المســـتـــغـــيـــثين احـــد

وبعدها قصيدة سماها كنز المعالمة وذخيرتهم في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج واسمائها واقطابها ، وعدد ابياتها ٧١ ، ومطلعها

يا أيها الناس ماذا شئتموا قولوا الارض معلومة والبحر مجهول

ثم ارجوزة في التنخات لبر الهند وبر العرب. وقد جعل مطعلها :

ياطالب النتخة بالحقائق من كل بر بقياس فائق

وهي في ٢٢٥ بيتا :

فقصيدته المسماه ميمية الابدال وعدتها بيتا ، أولها

سهاد حكت عيني عمارة عندم وكل نجوم الليل تسأل عن دمي

وكل نجوم الليل تسأل عن دمي

ثم المخمسة وهي ٥١ بيتا نظمها عام ٩٠٦ ذكر فيها الكواكب التي يهتدي بها الملاحون ، وتليها قصيدة نظمها في عدة الاشهر الرومية ، وعدد ابياتها ١٣ بيتا.

ثم القصيدة المسماه ضريبة الضرائب وابياتها ١٩٢،

شباب برأسي اعجب الناس من امري اتاني عقيب الشيب في اخر العمر

تليها ارجوزة منسوبة لعلي بن ابي طالب في معرفة المنازل وحقيقتها في السماء وأشكالها وعددها وهي مؤلفة من ٤٨ بيتا.

ثم القصيدة المكية التي وصف فيها الطريق من مكة لجدة الى فرتك لقاليقوط والدبيل وكنكن وجزرات لاطواح وهرمز ، وابياتها ١٧٢ ، مطلعها:

فـؤادي أسـيـر الحي من شـعـب عـامـر   احـوم عليـهـا بالدجى والهـواجـر

فالقصيدة المسماه نادرة الابدال في الوقع وذبان يسوق ، وهي ٥٦ بيتا.

وتتلوها قصيدته البائية المسماه الذهبية وابياتها ١٩ ، اولها:

بـبـسـم الله ربـي وخـالقـي   ومـسـتـخلفي في جـيـرتـي واقـاربي

\فقصيدته المسماة الفائقة في قياس الضفدع

سمي فم الحوت اليماني ، ويسمى ساكب الماء ويسمى فم الفرد، ويسمى النهر وقيده سهيل

،هي ٥٧ بيتا.

ثم قصيدته البليغة في قياس السهيل والرامح : وابياتها ٦٥ بيتا.

وقد ختمت هذه المجموعة بثمانية فصول نثرية زاخرة المصطلحات الملاحية.

هذا ولابن ماجد ارجوزة اسمها السبعية في ذكر سبعة علوم من علوم البحار ، ابياتها ٢٠٥

ومطلعها:

تـبـارك الـرب الـذي هـدانـا   في بحـره المسـجـور اذ انجـانـا

ثم الهادية في علم البحر. وعدد ابياتها ١٥٥ مطلعها :

الحـمـد لله الحـسـيب الهـادي   فـي بره والبـحـر للرشـاد

وقصيدة في علم البحر وابياتها ٣٢ ومطلعها :

خليلي هيـا واسـمـعـا در منطقي   فـلا عـاش من يخـفـي العلوم ولابقى

وهذه القصائد الثلاثة الاخرى محفوظة بمكتبة باريس برقم ٢٥٥٩ ولها صورة شمسية في دار

الكتب المصرية برقم ٣٩٥ جغرافيا.

وقد ذكر بروكلمان في ملحق الجزء الثاني من كتابه تاريخ الآداب العربية ص ٢٣٠ ان المستشرق الروسي اغنا طيوس كراتشوفسكي نشر في لينجراد سنة ١٩٣٧ ارجوزة لابن ماجد. وقد اطلعنا في الجزء الاول من الكتاب الذي صدر عن اعمال كراتشوفسكي سنة ١٩٥٥ على صورة بالفوتغرافية للورقة الاولى من هذه الارجوزة التي يذكر ناظمها في مقدمتها انها المسماة بالسفالية ومعناها يقتضي معرفة المجاري والقياسات من مليبار وكنكن والزنج وسفالة (وهي المعرفة بسفالة الزنج) والقمر وجزره ونوادر علوم جميع مافي تلك النواحي الى آخر الارض من الجنوب .. الخ.

ويستهلها بقوله:

الحمد لله الذي انشأ الملا　　　من عدم جل تعالى وعلا

له رسالة موجودة في الموصل اسمها الميل وفي فينا رسالة عنوانها فكرة الهموم والغمنوم والعطر المشموم في العلم المبارك المقسوم في العلامات والمسافات والنجوم.

واوضح ان الصيرفي يسوق مطالع هذه الاراجيز للدلالة على تمكن ابن ماجد من النظم الجيد وان كان هذا النظم تعليميا غير أنه لم يشر الى ذلك صراحة. ولو قرأ كل ارجوزة بامعان لوجد أن خواتم كثير منها افضل من مطالعها، وان بين ابيات كل ارجوزة تقريبا ابيات جميلة فيها من جمال التعبير والتصوير مايجعلها ترتفع عن مستوى الشعر التعلمي الساكن او الراكن الى مستوى او صعيد اعلى يتسم بشيء من الحركة والجمال الفني. مهما تيكن فمقال الصيرفي، وشواهده يمكن ان تعد أول اعتراف يدلي به ناقد عربي بشاعرية ابن ماجد، ولكنه اكتفى بالاشارة ولم يسمح له وقته او صفحات المجلة بالذهاب الى ابعد مما ذهب اليه.

اما انور عبد العليم فقد اعاد ماذكره الصيرفي كما اشرنا واضاف بيتا او بيتين الى البيت

الاول من بعض الاراجيز كما اورد تفواتح الاراجيز التي اغلفها الصيرفي فارجوزة كنز المعالمة ومطلعها:

يأيها الناس مهما شئمتوا قولوا	الارض معلومة والبحر مجهول

اتبعه عبد العليم بالبيت الثاني وهو:

وراكب البحر مفقود ومخبول	وراكب البحر مفقود ومخبول

وذكر ايضا اول الارجوزة المخمسة التي اكتفى الصيرفي بالاشارة اليها ومطلعها:

تأمل وشاوره واسهر الليل واغرم	وحقق ودقق واحفظ السر واكتم
واصبر واجمل ماسمعت فتسلم	لتبقى رئيسا في الرجال مقدم

تأمل وشاور واسهر الليل واغرم (٣٣)

وخواتم اراجيزه اجمل من مطالع بعضها في احيان غير قليلة ، فهو يقول في خاتمة قصيدته العلمية (الفاتقة) كما سماه :

ان جاءكم احمق قد عزه مزن	له لسان منظمي نو اللسانين!
هذي النجوم وهذا البحر فاخترعوا	مثلي والا فذا لمزن الي أين
وردت هدايتها اقوالنا قدهم	كما يرد جدال بالصحيحين
اثقلت نفسك يامن ذمها سفها	وصرت اشغل بها من ذات نحيين

*ضرورة مستقبحة

**ضرورة شعرية يختلف فيها العروضيون فمنهم من يجيزها ومنهم من لايجيز كسر المبنى على الفتح.

*** يقصد صحيح مسلم وصحيح البخاري.

****ضرورة اخري فاعرب اشغل يوجب النصب.

شـــاب الذراع فـــقـــالوا لم فـــعلت لهم شـــيب نراعي من رقـــبـــا الذراعين

يمضي الشـــهـــاب ولم تمضي مـــآثره مـــادامت الفلك تجـــري في الجـــديدين

ســمــيـتــهــا الاســود البــحــر فــايقــه تهــدي الســبــيل ينحــمين عــجــيــبين

فـــصل ياقـــايس النجم الغـــريب على مـــحـــمـــد مـــاترامي الفلك جنبين (٣٤)

والمزن هنا الغزور والادعاء والزهو (وذات النحبين) قصتها معروفة كتابه عمن يشغل نفسه طيلة الوقت بلا فائدة و (الذراعين) في البيت الرابع هما النجمان المعروفان و (الشباب) الشاعر نفسه ابن ماجد فهو شهاب الدين احمد بن ماجد ترا من الفلك جنين اهتزازه المستمر في البحر الى اليمين والي اليسار . وقلما نجد وصفا كهذا في مدح النبي صلى الله عليه وسلم فابن ماجد يستعير كثيرا من الفاظا وصور شعره من البيئة البحرية وقد اجاد في مطلع قصيدته (القافية في معرفة المجهولات..) وفي خاتمتها وقد مر بنا البيت الاول وخاتمة القصيدة اربعة ابيات يهم نكرها هذا البحث لدلالتها على ثقافة ابن ماجد الادبية وسماحته وسعة افقه العلمي:

خليلي هيـــا واســـمـــعـــا در منطقي فـــلا عـــاش من يخـــفي العلوم ولابقى

فـــــعندي في علم النجـــــوم دراية لغـــيـــلان اعين حـــصـــرها والفـــرزدق

يصـــدقني فـــيـــهـــا نوو الرصـــيـــد الالى تقـــصـــوا على امـــلاك غـــرب ومـــشـــرق

وبجـــــهل قـــــولي بل يشك ويمتـــــري به كل قـــدم في البـــرية احـــمق (٣٥)

وفي خاتمتها يقول:

اليكم اســـود البـــحـــر مني يتـــيـــمـــة قـــد اســـتـــخـــرجت من بحـــري المتـــدفق

فـــمـــا قـــالهـــا غـــيـــري بعـــصـــري ولااهتـــدي لهـــــا ابن ســــــرايا في زمـــــان ابن ارتق

اذا حلهـا شـخص من الناس فاعملوا	لهبالكمال الظاهر المتألق
وان جاز معناها امرؤ في زمانه	فذاك بحل من قريف ملفق

فالبيت الاول في خاتمة القصيدة لاتخفي جودته وحلاوة اسلوبه وحسن استعماله لصيغتي النداء والخطاب والانتقال الى الدعاء على الذي يخفي التلوم ولا ينفع الناس بها بالموت بالفناء وتلك النظرة علمية انسانية جديرة بالاحترام والاجلال تذكرنا بابي العلاء ببيتيه الشهرين.

لو اني حبيت الخلد فردا	لما احببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت علي ولا بأرضي	سحائب ليس تنتظم البلادا

اما البيت الثاني الذي يفخر فيه بدرايته في علم النجوم فيذكر في الشطر الثاني الشاعرين ذا الرمة والفرزدق اللذين يعجزان كما قال عن حصر علمه الواسع على الرغم من قدرتهما الفائقة في نظم الشعر واحاطتهما بلغته وهذا يؤكد ماقلناه عن سعة ثقافته العلمية والادبية.

اما في الخاتمة تبدو أن ابن سرايا من مشاهير البحارة الذين عاشوا في القرن الثامن لان ابن ماجد يشير الى ابن ارتق وزمانه والاراتقة هم الذين حكموا الجزيرة وشمالها في القرن الثامن الهجري وكانت عاصمتهم مدينة ماردين. وهم الذين امتدحهم وعاش في اكنافهم الشاعر المشهور صفي الدين الحلي الذي يوصف بانه آخر عمالقة الشعر العربي القديم . وتلي الابيات المذكورة ثلاثة ابيات يختم ثالثها القصيدة بالسلام والصلاة على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

واعدادها اعداد شهر وعشرة	كذلك جاءت كالعروس المقرطق
مهذبة من كل عيب يشينها	نتيجة فكر ذات حسن ورونق
وصل على مختار ربي كلما	تناوح طير من حمام مطوق (٣٦)

ولا حاجة للاشارة الى مافي الابيات في المقدمة والخاتمة من موهبة شعرية واضحة وتعبير متدفق ينبض بالحركة وتصوير فني جميل والعروس المقرطق التي ترتدي القرطق وهو لباس فتن به شعراء العصر العباسي وخاصة ابو نواس وابن المعتز وتردد ذكره في وصف الخمر والغزل.

ومن افضل خواتم قصائده واطولها خاتمة (الذهبية) وهي قصيدة بائية طويلة اميل الى ادراجها هنا مادام البحث قد اتسع واضطرتنا طبيته وكثرة مواده الى الاطالة . قال ابن ماجد يختم الذهبية :

لقد صدقت في وصفها ذهبية	كنسج دلاص لا كنسج العناكب
فلو نطقت قالت الايام صنفي	بلغت المنى بار ابن الجدود الاطايب
ستعرفني الفرسان في كل موكب	ولم احمد الخطى فوق الكتايب
ولو سحر الافلاك غيري بحكمتي	لكانت مشاهير النجوم حبايبي
كشفت شكوك المسلمين بقبلة	يصلي بها في مشرق ومغارب
هديتكم والرأي الا تسافروا	على البحر ان البحر شر المراكب
ولا تأمنوا المكروه فيه لانه	يواصل مكروهات كل المصائب
كفت احمد السعدي شفاعة احمد	اذا مارس يوم الوعيد بصايب
عليه صلاة الله مني ماجرى	على الفلك جار في ضيا وغياهب
وماسار مابين الفرنج وصينها	على البحر شفار بفلك وقارب (٣٧).

وطابع الملاح والبحار واضح في هذه الابيات وهو اوضح في خاتمتها التي باركها بذكر النبي صلى الله عليه وسلم ومدحه والسلام والصلاة عليه ماجرت السفن والنهار والليل وماسافر الناس بفلك وقارب بين الصين وبلاد الافرنج . واحسب اننا لانحتاج الى مزيد من الملاحظات والاقوال والاحكام والشواهد للدلالة على شاعرية هذا القائد البحار الذي لاندري كيف كان يختلس الاوقات للقراء والتفكير

ونظم الشعر وتنسيق المعارف والمعلومات النظرية والتطبيقية في الاراجيز والقصائد الطويلة وتطعيم ذلك كله بقطع وقصائد واشعار مناسبة للموضوعات المدونة المنظومة والمنثورة ، ولاننكر ان قسما غير قليل من منظوماته العلمية والفنية قد انجزت خلال اقامته في البر بين رحلة واخرى ، وان قسما آخر قد نظم بعد ان ترك الملاحة لتقدمه في السن ولكن الذي لاريب فيه كما تدل على ذلك اراجيزه واشعاره ان قسما كبيرا منها كان يضعها خلال رحلاته الطويلة التي استغرقت حياته كلها تقريبا . وما ذكرناه يؤهله لان يكون له مكان بين شعراء عصره ، وان وضع في المكان الارفع بين من كان له ادب وكان له شعر بين رجال البحر من العرب وغير العرب في عصور الادب العربي المتعاقبة التي لم تنجب فيما اعلم بحارا او ملاحا شاعرا مثل ابن ماجد وخلال القرون الاوربية الوسطى لم يبرز فيها بحار اديب شاعر من هذا التطراز.

ولانود ان نترك هذا الملاح الشاعر والبحار الاديب قبل أن نتحدث عن نثره وان كان المنثور الذي وصلنا قليلا لايتعدى ماجاء هنا وهناك في كتاب الفوائد على الاخص . وفي مقدمات بعض الاراجيز وبين ابياتها وقد اشرنا الى بعض ماتضمنته استطراداته وشروحه من معارف واحكام ادبية عند تطرقنا الى الكلام عن ثقافته الادبية والشعرية.

وقد امعنا النظر في ماستطعنا الرجوع اليه من كتاباته النثرية القليلة فوجدنا انها في ثلاثة انواع : نثر علمي خالص لم يصل منه غير كتاب الفوائد في الفصول الخاصة بعلوم البحار وفنون الملاحة ونثر ادبي وصفي يتمثل في شروحه لبعض اشعاره واشعار الشعراء السابقين وفيما اقترن بذلك من اخبار وقصص وحكايات صاغها ابن ماجد باسلوبه او تصرف في متونها عندما اقتبسها من كتب الادب القديم فزاد او انقص واسهب هنا واوجز هناك . ونثر ادبي خالص له نجده في مقدمة كتاب الفوائد وفي المقدمات النثرية لبعض اراجيزه المهمة كالحاوية . وهذا النثر نوعان : نثر مرسل يخلو او يكاد من السجع والمحسنات البديعية ونوع يكثر فيه السجع الازدواج ويكاد يخلو من استعمال

المحسنات البديعية الاخرى التي جرفت موجتها العارمة ابرز واشهر كتاب العصر المتأخرة ومؤلفيها . ولن اتوقف على نثره العلمي فخصائصه وانواعه معروفة لاموجب للاشتغال بها هنا . وقبل ان نقول شيئا عن نثره الادبي الخالص ونثره الادبي الوصفي لابد من تقديم النماذج التي تستحق ان نستشهد بها ليتسنى لنا فحصها والخروج ببعض الاحكام والاراء والملاحظات المناسبة ، وتحديد مايمكن تحديده ، من الخصائص والقيم وبيان مالها وماعليها . ففي مقدمة كتاب الفوائد يقول المؤلف بعد البسملة (٣٨).

الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلم وبعد فاني رأيت العلوم في الدنيا اسمى مفخرا واجل مرتبة واشرف منقبة لقوله صلى الله عليه وسلم وتحريض ساير الانبياء على طلب العلم حتى قيل ما من علم قبيح الا والجهل به اقبح منه فكيف وهذا علم لم تعرف قبلة الاسلام الا به ولا اصح منه والدليل على صحته اني اقول وافعل به فيا طالما قد اتينا بالمراكب من الهند والشام والزنج وفارس والحجاز واليمن وغيرهم بقصد لايميل عن جهة البلد المطلوبة بأموال وارواح وهذا دليل مؤكد ان هذا العلم يدل على القبلة فيحتاجون اليه اهل الفرايض . وقد قرأ علينا فيه كثير من علمائهم وقضاتهم لمعرفة القبلة واستحسنوه وعملوا به دون غيره من العلوم التقريبيات كنصب الدايرة وركز العود فيها ومعرفة طول مكة وعرضها وطول البلد الذي انت فيه وعرضه ثم طول وعرض جميع البلدان والجزر الجنوبية في البحر ومايحتاجون فيه من علم ، وعلمنا يحكم على جميع ذلك لان البحر اكثر من البر فرتبنا الكتاب ليرتقى الانسان به فان امكنه المعرفة بعلم الدايرة والاطوال والعروض ومعرفة جهات الكعبة والارياح الاربعة وهي شمال ودبور وجنوب وصبا وهذه الارياح الاربعة الشهيرة في الدنيا ..

فان قدر الانسان ان يفعل شيئا غير معرفة البحر وحسابه فليفعل واذا عجز عن قبلة المدن والجزر اللاتي في البحر المحيط فليعمل بعلمنا فاجتهدوا فيه فانه علم نفيس ولا يتم الا بتمام العمر ومالا يدرك كله لا يترك جله .. وينبغي ان لايتكبر فيه الانسان كما قال المصنف في حاويته شعرا :

وينبـــغي البـــعـــد عن الخـــيـــلاء عندكـــمـــــال العلم والنهـــــاء

وينبغي لعارف هذا العلم ان يسهر الليل ويجتهد فيه غاية الاجتهاد ويسأل

عن اهله وعن حزبه حتى يحصل مراده لانه علم عقلي وكثرة السؤال فيه ترقية لباقيه فيعلم مالا يعلمه فتتم به رياسته لان من ادعى الرياسة بغير كمال اسبابها وادواتها فقد اخطأ ، كما قيل شعرا:

رياســـات الرجـــال بغـــيـــر علم ولاتقـــوى الاله هي الخـــســـاســـة

واعلم ايها الطالب ان كل علم يحتمل ان يشتغل به طالبه من المهد الى اللحد كلما تفنن فيه وادمن عليه ظهر له منه شيء لم يكن عند غيره حتى يكون مصنفا فان اتقنت هذا العلم لمعرفة القبلة كان خيرا لك من ان تغفل به فان ركبت البحر تكون عارفا به مطمئن القلب ولو كنت تاجرا فانت مطمئن القلب لم تحتج الى اموال وان احتجت اليه لجمع المال والجأك اليه الزمان فافعل به (ولا) تكن ذا غفلة فان الخطأ فيه مضل وادعى لتلف الارواح والاموال وهو اصعب شيء بعد خدمة الملوك . وساير العلوم خطاؤها لفظي يمهلك وهذا لم يمهلك والعلم فحل لم يعطك بعضه حتى تعطيه كلك وقال علي رضي الله عنه قيمة كل امرء ما يحسنه وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يطاع بالعلم وشر الدنيا والاخرة مع الجهل واجود ماقيل في ذلك نظما (شعرا) فيه قولنا:

العلم لايعـــرف مقـــدارة الا ذوي الاحـــســـان عند الكمـــال

فهأنا ذا اختصرت منه مايليق لاهل زماني في هذا الكتاب المسمى بكتاب الفوائد في اصول البحر والقواعد الفته وصنفته لركاب البحر ورؤسائه وفيه ماشتبه من الحاوية وغيرها على الطالبين وبالله التوفيق وقد سميناه كتاب الفوائد وهو مشتمل على فوائد كثيرة غوامض وظواهر اثنى عشر فائدة (كذا) وهي : (الفائدة الاولى .. الخ) ويختتم المؤلف هذا الكتاب بقوله:

وختمنا هذا الكتاب في عام خمس وتسعين وثمانماية على الاختصار بقولي اوصيكم بتقوى الله وقله الكلام وقله المنام وقلة الطعام ونستغفر الله من التقصير والزيادة والنقصان ويضيف الناسخ بعد ذلك قوله(ثم الكتاب بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه ، وهو الكتاب المسمى بكتاب الفوائد في اصول علم البحر القواعد ، وذلك في يوم الاحد المبارك سابع عشر من ربيع الثاني من سنة اربعة وثمانين وتسعمائة (٩٨٤ هـ) احسن الله عاقبتنا وبالله التوفيق). (٣٩).

وواضح أن هذه المقدمة تدل على امتلاك ناصية الكتاب النثرية والقدرة على التعبير عن الغاية المقصودة من تأليف الكتاب والافادة من الذخائر الادبية والدينية باسلوب يحسن وضع الاقتباسات في مواضعها المناسبة وتجنب الاستطراد المخل والاطالة التي تبعد الكاتب والقاريء عن ادراك الغرض الذي يرمي الكاتب اليه ويذير الكلام عنه بايجاز خفيف يجتذب التعقيد والغموض والتواء الجمل والعبارات التي يتعرض اليها الذين ينحون الى الايجاز الشديد مع التمسك بالمحسنات البديعية وتعمد استعمال اللفظ الغريب الذي يدفع اليه هذا الاتجاه الذي تولع به الكتاب في عصر ابن ماجد اي تولع.

والمقدمة غنية بالافكار العميقة والحرص على التوجيه العلمي باسلوب ادبي مرسل لاتجد فيه اكثر من سجعتين او ثلاث لافكار تحس بها كقوله في مستهلها بعد الحمد لله والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم . فاني رأيت العلوم في الدنيا اسمى مفخرا وأجل مرتبة واشرف منقبة على حتى قيل ما من يحلم تبيح الاداء لجهل به اقبح منه . وهو لا يغفل عن تطعيم منشوره ببعض اشعاره التي تناسب الموضوع ونأتي في الموضع الذي يجمل ان يستشهد بها فيه دون ان تقطع تسلسل الكلام او تبدو مفحمة او نابية وهذا يؤكد سلامة ذوقه وقدرته على ادارة الحديث ادارة بارعة تحفظ له الوضوح والانسجام والتسلسل وكل مايضمن سرعة الافهام او التعميم واستيعاب الاغراض العلمية والقيم الخلقية التي تفرضها هذه الاغراض على المشتغلين بالعلم . واذا كانت مقدمة كتاب الفوائد كما رأينا من النثر المرسل الذي يجيز لنا ان نعده من النثر الادبي بصرف النظر عن مادته او غرضه العلمي للاسباب التي

عرضناه فان مقدمة ارجوزته الكبيرة (الحاوية) نوع آخر من هذا النثر ايضا ولكنه يستعمل فيها السجع والازدواج وبعض فنون المجاز وسنشير الى ذلك بعد قراءة النص قال : (٢٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبـــه نستعــــين

الحمد لله على حسن توفيقه والهام الحق بتحقيقه والهداية لاسباب الخير وطريقه ونصره في تغريب الفلك وتشريقه احمده على معرفة الهمناها وامدها لسلسبيل البحر ورحيقه وفصاحة تدهش بليغ اللفظ ووجيزه والصلاة والسلام على النبي الامي وعلى آله وصحبه وفريقه

اما بعد :

خذ التواضع (؟) ورقيق اللفظ وجزله فان التصنيف لمثل هذه الارجوزة زكاة الافهام وتحديد سر دراسة الليالي والايام . اقبلت بي اليها طاعة ملك الاملاك ومدبر العالم والافلاك لقوله كل من قائل (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) فتحققت ظنوني وشاهد قلبي وعيوني ان فيها وبها بعد الله تعالى الهداية ومما حل به على نظمها خشيتي ايقاع الجهل على البرية واندراس العلم ونزوله بساحة من ليس له فيه اهلية . فوضعت فيها من الالفاظ الغريبة والحكمة الربانية بمشيئة الله تعالى مارجو به انشراح صدور ذوي الالباب عندما يدهمهم من شدة ومصاب ، صفيتها مما سلك في عصري من الاراجيز المصنفة والرهمانجات الواسعة المؤلفة كثيرة التردد والتكرار مستحسنة لكافة الجمهور وهي (المهموم) اقالة وحضور وكان قصدي الاختصار واسقاط الحشو من هوش الاكثار لئلا يتسطليها الملول ولا يتفرغ لقرايتها المشغول فرحم الله من تصفح مايجده من الزلل ويصلح مافيها من خطأ وخلل. وهي الارجوزة

المسماة بحاوية الاختصار في اصول علم البحار مشتملة على احد عشر فصلا تصنيف العبد الفقير بالعجز والتقصير اقل عباد الله واحوجهم الى رحملة ربه العلي الكبير بقية السلف وعمدة الخلف المعلم الشهير احمد بن ماجد بن عمرو بن فضل بن دويك بن ابي الركايب النجدي عفا الله عنهم وعن جميع المسلمين آمين . ياكافي ياشافي ياهدي يامعين.

ولعلك قد لاحظت ان التزام السجع يجعلها تختلف عن المقدمة السابقة ويقربها من الاساليب السائدة في عصرها ولاسيما في مقدمات الكتب والمصنفات التي يسميها الغوماء خطبة الكتاب . ومع ذلك فلم يكن سجع ابن ماجد معقدا ولاثقيلا لقصر الجمل والعبارات وتواليها بلا فواصل طويلة او استطرادات بعيدة ، ولم ينس اقتباس الاية الكريمة (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) كما لم يغفل الاشارة الى المصنفات والاراجيز الاخرى السابقة وانصافها حين وصفها بقوله انها كثيرة التردد والتكرار مستحسنة لكافة الجمهور وهي للمهمو م اقالة وحصور .. ولاحظ ان مبدأ مقدمته موصيا او ناصما باستعمال رقيق اللفظ وجزله مقدما الرقيق على الجزل دون ان يشعر بأنه يقصد ترك هذا الجزل فهو ضروري في موضعه . ولا اود ان اكرر هنا ماقلته قبل قليل من ان ابن ماجد يبدو مسيطرا على موضوعه واثقا من قدرته على التعبير موقنا بأنه يمتلك الادوات واللوازم والذخائر الثقافية والادبية التي تدفعه الى كتابة المنثور وهو مطمئن النفس متفتح الفكر يدير قلمه بلا تكلف او تردد او تعثر يضطر الى المعاظلة او الالتواء أو الحشو والخلل وغير ذلك من العيوب التي تجدها احيانا في نظمه التعليمي بخاصة.

وفي الختام اود ان اؤكد انني لا ازعم ان ابن ماجد من كتاب العصر الذين يشار اليهم بالبنان وان كان عمره ضنينا او عاجزا عن انجاب امثال تلك القمم السابقة في فن الكتابة التي تفخر بها عصور الازدهار في العصر العباسي* ولكنه على كل حال واحد من الذين حظوا بمواهب ومؤهلات

* نعني بذلك كبار الكتاب في العصر العباسي كالجاحظ وابن المقفع وابن قتيبة وابي حيان التوحيدي ومن هم من طبقتهم او ادنى.

مكنته من ان يكون شاعرا وكاتبا وعالما وملاحا قديرا بحق له ان يذكر بين شعراء زمانه بصرف النظر عن مقارنته بكبار الشعراء وانه يعد من القادرين على الكتابة الى حد يحيز لنا ان نشهد له بامتلاك اداتها وان نعده من القادرين على المضي فيها والصعود الى مستوى اعلى لو تسنى له التفرغ اليها وان مؤرخ الادب الذي يعني بتاريخه ورجاله وانواعه الشعرية والنثرية خلال الحقبة الممتدة بين سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م وقيام الدولة العثمانية واحتلالها لبغداد سنة ٩٤١هـ . وهي الحقبة التي تضمنت عصر المغول الايلخانيين وعصر الملاتربين وعصر التركمان في العراق وعصر المماليك في مصر والشام (٤١)

د. علي احمد الزبيدي
الاستاذ في كلية الآداب بجامعة بغداد
رئيس قسم البحوث والدراسات الادبية
معهد البحوث والدراسات العربية
المنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم

* * * * * * * *

المصادر الأساسية

١ ـ ابن ماجد الملاح

الفوائد في اصول علم البحر القواعد ، طبع مصور ، نشر جابرييل فران باريس ١٩٢١ ـ ١٩٢٣
رمزها في الهوامش : الفوائد

٢ ـ ابن ماجد الملاح

ثلاث ازهار في معرفة البحار ، طبع مصور نشر تبوردر نشوموفسكي، مع مقدمة قيمة باللغة الروسية ،
موسكو ١٩٥٧ رمزها في الهوامش ثلاثة ازهار . ط . ر (الطبعة الروسية)

٣ ـ ابن ماجد الملاح

ثلاث ازهار في معرفة البحار ، نشر وترجمة وتعليق د. محمد منير مرسي مع ترجمة مقدمة المستشرق الروسي تشوموفسكي . القاهرة ١٩٦٩ . رمزها في الهوامش : ثلاث ازهار ط م. (الطبعة المصرية)

٤ ـ الشعر الملاحي عند احمد بن ماجد ، القسم الثاني ، القصائد . تحقيق ابراهيم خوري ، مع مقدمة باللغة الفرنسية وتقديم مقتضب باللغة العربية.

في مجلة المعهد الفرنسي في دمشق:

Bulletin d etudes Orientales Tome XXXVII - XXXVIII 1985-1986.Damas 1988

العدد ٣٧ ـ ٣٨ لسنة ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦ دمشق ١٩٨٨ ورمزها في الهوامش خوري : القصائد.

الهوامش

(١) الفوائد . مقدمة فرآن ، بالفرنسية ص I-III

(٢) ج. فران .Ferrand G. Introduction a d astronomie nautique Arabe Paris 1928

(٣) كراتشوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٥٧ انظر الفصل العشرون) ٥٦٢٠ ـ ٥٨١ ص ٥٦٢ ، ٥٦٨، ٥٧٥ ـ ٥٧٨

(٤) تشوموفسكي . ط ر . انظر المصادر الاساسية

(٥) انظر : د. انور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، الفصل الثلاث ص ٤٦ ـ ٦٢ القاهرة ١٩٦٦ . د. صبري فارس الهيتي

الشيخ شهاب الدين احمد بن ماجد / ص ١٧ ـ ٢٣ بغداد ١٩٨٩ ويؤيد الهيتي رأي المستشرقين بان ابن ماجد كان مرشد فاسكودي جاما ود. عدنان اسماعيل الياسين . احمد بن ماجد مجلة كلية التربية بجامعة بغداد العدد الاول ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ ص ٥٥ ـ ٩٢ و ص ٥٥ ـ ٥٧ حسن صالح شهاب : اضواء على تاريخ اليمن البحري . بيروت ١٩٨١ وعلوم العرب البحرية من ابن ماجد الى القطامي . منشورات مجلة دراسة الخليج والجزيرة العربية ، الكويت ١٩٨٤ :وخالد سالم محمد ربانه الخليج العربي ومصنفاتهم الملاحية ، الكويت ١٩٨٤ ومحمد ياسين الحموي ، الملاح العربي احمد بن ماجد دمشق ١٩٤٧

(٦) انظر تفاصيل ذلك في : انور عبد العليم : ابن ماجد الملاح . الفصل الثالث ٥٧ . ٦٠ وفي مواضع اخرى متفرقة.

(٧) حسن كامل الصيرفي : الملاح الشاعر مقال مجلة المجلة القاهرية العدد السادس . ١٩٥٧

(٨) الصيرفي م. س اول من ادرك ذلك او اشار اليه واقترح على المجمع العلمي الاهتمام بهذه المصطلحات. وكرر الباحثون العرب ٠انظر الهامش (٥) هذه الملاحظة في مواضع كثيرة لاحاجة الى ذكرها هنا.

(٩) ذهب الى ذلك فران. مقدمة كتاب الفوائد ، وشومسوفومسكي في مقدمته الطبع الروسية لكتاب ثلاثة ازهار دار القلم ابراهيم خوري، ومال الى هذا الرأي د. انور عبد العليم في غير تصريح دقيق انظر هامشنا رقم ٥ ، ولاسيما مقدمات منشورات المستشرقين ومقدمة نشرة ابراهيم خوري. وانظر ابن ماجد لانور عبد العليم ٢٣.

(١٠) انظر على سبيل المثال كتاب تحفة الاعيان للسالمي والفتح المبين لابن رزيق

(١١) هي كثيرة الآن نذكر منها: الشعر العماني د. علي عبد الخالق علي القاهرة ١٩٨٤ مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية

(١٢) انظر . د. شوقي ضيف . عصر الدول والامارات

(١٣) شوقي ضيف م. س

(١٤) الشعر العماني . انظر الهامش (١١) القاهرة ١٩٨٤ . دار المعارف

(١٥) لاترى موجبا لاقفال الهوامش بمؤلفات هؤلاء المؤرخين كالمسعودي والجغرافيين كابن الفقيه وابن حوقل والادريسي وياقوت ولا الرحالة العرب كابن بطوطة وابن جبير مؤلفاتهم معروفة شائعة وفيها فصول كتبت باساليب ادبية جميلة.

(١٦) انظر ادب البحر . عدد خاص من مجلة الهلال

(١٧) كراتشوفسكي تاريخ الادب الجغرافي العربي ٢/٥٧٧، ٥٨٠.

(١٨) ثلاث ازهار ط ر/ص ١٠٠

(١٩) عبد العليم . م . س ٢٢

(٢٠) الفوائد ، الورقة ١٧

(٢١)الفوائد ، الورقة ١٨

(٢٢) الفوائد ، الورقة ١٩

(٢٣) الفوائد ، الورقة ٢٣

(٢٤) الفوائد ، الورقة ٣٤

(٢٥) الفوائد ، الرقة ٤٣

(٢٦) الفوائد ، الورقة ٤٥

(٢٧) الفوائد ، الورقة ٤٦

(٢٨) الفوائد ، الورقة ٤٨

(٢٩) الفوائد ، الورقة ٥٨

(٣٠) الفوائد ، الورقة ٧٧

(٣١)

(٣٢) الصيرفي ، الملاح الشاعر مجلة المجلة القاهرة العدد السادس ١٩٥٧

(٣٣) عبد العليم ابن ماجد الملاح ٩٠ ـ ٩٧

(٣٤) خوري : القصائد ٢٣٠ وهي من القصيدة الفائقة

(٣٥) خوري القصائد ٢٢٥ – ٢٢٢

(٣٦) خوري . م. ت

(٣٧) خوري القصائد ٢٦٢

(٣٨) الفوائد ـ المقدمة الورقة ١ ـ ٢ واكتفينا بما اقتبسه منها د. انور عبد العليم ابن ماجد الملاح ٦٥ ـ ٦٦

(٣٩) م . ن

(٤٠) م س ٨٣ ـ ٥٤ والفوائد الورقة ٨٨ ـ ٨٩

(٤١) للاطلاع على احوال الشعر والشعراء والكتابة والكتاب في العصور المشار اليها ، انظر فيما يخص العراق : د. علي الزبيدي : الادب في العصر المغولي والعثماني ، في كتاب حضارة العراق ج ١١ بغداد ١٩٨٥ ومراجعه . والدكتور شوقي ضيف : عصر الدول والامارات. وقد مر ذكره في الهوامش . وعن مصر راجع : محمد زغلول سلام الادب في العصر المملوكي جزآن ، القاهرة ١٩٧١ومراجعه.



الخليج العربي في مواجهة البرتغاليين في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي

للاستاذ الدكتور

جمال زكريا قاسم

استاذ التاريخ الحديث ورئيس قسم التاريخ

بكلية الآداب - جامعة عين شمس

يعد الغزو البرتغالي للخليج العربي في السنوات الاولى من القرن السادس عشر الميلادي بداية لتلك المرحلة الاستعمارية الطويلة التي عانى منها الخليج العربي بصفة خاصة ، والعالم العربي بصفة عامة لعدة قرون تالية . كما يعد في الوقت نفسه امتدادا طبيعيا للحروب الصليبية في العصور الوسطى ، وذلك عن طريق توجيه ضربة مباشرة للعالم الاسلامي بالسيطرة على اطرافه ومنافذه البحرية.

ويمكن تحديد علاقة البرتغاليين بالخليج العربي منذ بداية وصولهم الى مداخله الجنوبية في مسقط ١٥٠٧ وهرمز ١٥٠٨ ، حتى تم لابناء الخليج اسقاط القلاع البرتغالية والتحرر من الاستعمار البرتغالي في عام ١٦٥٠.

وليس هدفنا في هذه الدراسة تتبع مراحل الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي في تلك الفترة الزمنية الطويلة التي دامت مايقرب من قرن ونصف قرن من الزمان ، وانما سنقتصر في دراستنا هذه على المرحلة الاولى من مراحل الغزو البرتغالي لمنطقة الخليج العربي خلال النصف الاول

من القرن السادس عشر الميلادي.

ومما يسترعى الانتباه أن المصادر البرتغالية هي التي تشكل العمود الفقري لدراسة تاريخ الغزو والسيطرة البرتغالية على الخليج العربي ، اذ انه في الوقت الذي لزمت فيه المصادر المحلية الصمت ، حفلت المصادر البرتغالية بمعلومات كثيرة عن المرحلة الاولى من مراحل الغزو البرتغالي لمنطقة الخليج العربي . وتأتي على قمة هذه المصادر تعليقات القائد البرتغالي أفونسودي البوكيرك (١). بالاضافة الى سجلات الرحالة البرتغاليين ومن بينهم دورات باربرسا (٢) وفاريا سوسا (٣) وكاستنهيدا وبدور تكيرا (٤) وغيرهم كثيرون . ومع ذلك فانه على الرغم من أن الباحث يجد كثيرا من المعلومات المتوافرة عن الغزو البرتغالي للخليج العربي في تلك المصادر ، فانه يلاحظ في الوقت نفسه أنها حملت روح المبالغة وعمدت في كثير من الاحيان الى اظهار (فضل البرتغاليين) واشادت (بالانتصارات) التي حققوها والدور الهام الذي قاموا به في بحار الشرق . كما يظهر في تلك المصادر بغضا شديدا وروحا حاقدة ضد المسلمين ، وتصوير عمليات العنف والتعذيب التي قام بها القادة البرتغاليون ضد البحارة العرب والمسلمين باعتبارها من اعمال البطولة ، وتحدثت عن اولئك القادة باعتبارهم من (الفاتحين العظام) (٥) وجدير بالذكر ان المصادر الاسلامية لم تهتم في بداية الامر بوصول البرتغاليين الى بحار الشرق ، اذ انها لم تبدأ الاشارة اليهم الا في حوليات متأخرة ، بعد ان استفحل امرهم واصبحوا يشكلون خطرا مباشرا على حركة التجارة الاسلامية ويتضح ذلك من كتابات المؤرخ المصري ابن اياس الذي بدأ اشارته الى البرتغاليين في ثنايا حوادث شهر ربيع الاخر ٩١١هـ الموافق ١٥٠٥، اي بعد سبع سنوات من صولهم الى سواحل الهند الغربية (٦) وفضلا عن ذلك فان المصادر المحلية بخاصة المصادر العمانية التي كان من المؤمل ان تمدنا بمعلومات عن اوضاع الخليج في الفترة الاولى من عمليات الغزو البرتغالي ، جاءت بدورها مخيبة لامال الباحثين ، اذ انها تجاهلت وبشكل يكاد يكون متعمدا المرحلة الاولى من مراحل الغزو البرتغالي ، ويرجع ذلك الى سببين رئيسين : اولهما ان تلك المصادر خاصة المصادر العمانية ، ركزت في الدرجة الاولى على المسائل الدينية ، وبالتالي فان

المؤرخين العمانيين لم يكونوا يعنون بالاحداث الجارية في حد ذاتها ، وانما كانت تلك الاحداث تأتي عرضا في تاريخهم لسير الائمة الاباضين او عند مناقشتهم لبعض القضايا الفقهية ، وثانيهما ان المصادر المحلية عموما قد اعرضت عن تسجيل احداث الغزو البرتغالي باعتباره يشكل خدشا للكرامة العربية والاسلامية . ولعل مايؤكد صحة مانذهب اليه ان تلك المصادر قد سجلت بكثير من الحماس المراحل الاخيرة لطرد البرتغاليين من الخليج العربي وتتبع ابناء الخليج لهم في قواعدهم المنيعة وسواحل الهند وشرق افريقيا .

ويصدد ذلك يذهب بعض الباحثين الى القول ان الهزائم الشديدة التي انزلها البرتغاليون بالقوى العربية والاسلامية في المراحل الاولى من عمليات الغزو والتسلط قد شمل المواهب فسكتت وكأنها تنتظر نصرا كبيرا ينفس عن مشاعرها المكونة ويطلق الالسنة من حبوسها (٧) وسوف يظهر ذلك واضحا في سيرة الامام ناصر بن مرشد لخفان بن قيصر ، وفي الاجزاء الخاصة بتاريخ عمان من كتاب كشف الغمة لسرحان بن سيعد الاركوي بالاضافة الى ماسجله ابن زريق في كتابه الفتح المبين في سيرة الائمة والسادة البوسعيدين ، والامام نور الدين السالمي في الجزء الاول من كتابه تحفة الاعيان بسيرة آل عمان ، حيث سجلت تلك المصادر جميعها مواجهة ابناء الخليج للاستعمار البرتغالي في مراحله الاخيرة بشيء كبير من الحماس (٨) وذلك على الرغم من أن تلك المصادر ذاتها لاتفسر لنا الطريقة التي جاء بها البرتغاليون الى الخليج ، وبالتالي فانه لاتوجد لدينا مادة تاريخية محلية يمكن أن يقارب بها الروايات البرتغالية خاصة في المرحلة الاولى من مراحل الغزو البرتغالي للخليج العربي (٩).

ولعل المشكلة التي يواجهها الباحث عند دراسته لمواجهة الخليج العربي للبرتغاليين في السنوات الاولى من القرن السادس عشر الميلادي ، أنه يجد نفسه مضطرا للاعتماد على المصادر البرتغالية ، ومثل هذه المصادر قد اغفلت بطبيعة الحال مقاومة أبناء الخليج للسيطرة البرتغالية ، وان كانت القراءة المتأنية لتلك المصادر يمكن أن تكشف لنا ، وان كان ذلك بطريق غير مباشر ، جانبا من

تلك المقاومة ومـايزيد الموقف صـعوبة أن المصـادر الاجنبيـة الاخرى قد اغفلت بدورهـا مواجهة القوى المحلية للبرتغاليين وركزت بصفة خاصة على العلاقات الفارسية أو على العمليات البحرية التي دارت في مياه الخليج بين البرتغاليين والعثمانيين وعلى الرغم من اشارة تلك المصادر الى دور اليعاربة في مواجهة البرتـغاليين خـلال النصف الاول من القرن السـابع عشـر الميلادي ، فـانها أرجـعت أسـبـاب نجـاح تلك المقاومـة الى ماأصاب البرتغاليين من ضعف نتيجة خضـوع البرتغال للسيطرة الاسبانية على عهد الملك فيليب الثاني خـلال الفترة من ١٥٨٠ حتى ١٦٤٠ ، والى سقوط مركز البرتغاليين الحصين في هرمز على ايدي الانجليز والفرس في عام ١٦٢٢ والى مـاتعرض له البرتغـاليون من ضـربات من قبل القوى الاوروبية الاخرى وخـاصة بريطانيـا لكسر سياسـتهم الاحتكارية التي فرضـوهـا على تعاملهم في تجـارة الشرق(١٠)

ولما كانت معظم المصـادر الاجنبية تقرن نجـاح اليعاربة في التصدي للبرتـغاليين بالضعف الذي طرأ على الامبراطورية البرتغالية في الشرق منذ السنوات الاولى من القرن السابع عشر الميلادي ، فقد حاولنا من خـلال هذه الدراسة التركيز على امرين هـامين اولهما ان مواجهة القوى المحلية للبرتغاليين لم تقتصر على مرحلة الضعـف التي المت بالامبراطورية البرتـغالية وانما قـاوم ابناء الخليج البرتغـاليين في فـتـرة تفوقـهم البحـري والعسكري في السنوات الاولى من القـرن السـادس عـشـر الميـلادي . وثانيـهـمـا الكشف عن العوامل والاسبـاب التي اثرت علّى موقف القوى المحلية بصـفة خـاصـة والاسـلاميـة بصـفـة عامة وادت الى الاخفاق في التصدي للبرتغاليين مما اتاح لهم فرصة تثبيت نفوذهم في الخليج العربي.

وفي تقديرنا أن مقاومة القوى المحليـة للبرتغـاليين فِي بداية تسلطهم العسكري قد اعتمدت في الدرجة الاولى على العامل الديني الذي ظهر واضحـا فـي ردود الفعل ضد البـرتغـاليين الذين سيطرت عليهم الروح الصليبية سيما وأن كثيرا من القادة البرتغالين الذين ظهروا في السنوات الاولى من القرن السـادس عشر الميلادي قد نشـأوا في وقت كان الصرا ع يدور اعنف مـايكون بين المسلمين والمسيحين

في شبه الجزيرة الايبرية وبذلك اشربوا في قلوبهم الرغبة العنيفة في الانتقام من المسلمين اينما صادفوهم ، ولذلك فقد كان من الطبيعي أن تصطبغ المقاومة الخليجية للبرتغاليين بالطابع الديني ، وكانت في الوقت نفسه امتداد لحركة الجهاد التي قام بها المسلمون في بحار الهند والتي عبر عنها خير تعبير الشيخ زين الدين المليباري في كتابه تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين. (١١).

وبالاضافة الى العامل الديني فقد ارتبطت مقاومة ابناء الخليج للبرتغاليين بالعامل الاقتصادي اذ كانت التجارة البحرية بين الهند والبصرة تمر عبر الخليج ، وكان ابناء الخليج هم الذين يقومون بعمليات النقل والتجارة وبالتالي فقد كان من الطبيعي أن يقاوم هؤلاء تدخل البرتغاليين في مياههم لأنهم كانوا الضحية الاولى لتلك الضربة القاتلة التي بدأ البرتغاليون يسددونها ضد مصالحهم التجارية بل وضد موارد رزقهم ووسائل حياتهم (١٢) وخاصة بعد أن دلت الاحداث التي تعاقبت منذ وصول البرتغاليين الى سواحل الهند وسواحل الخليج والجزيرة العربية على أنهم استهدفوا القضاء على دعامة رئيسية يستند اليها اقتصاد الخليج العربي وغيره من البلدان الاسلامية الاخرى التي كانت تجارة الشرق تمر عبر مياهها واراضيها وبالتالي حرمانها من انشطتها التجارية والملاحية ومن الرسوم الجمركية التي كانت تتقاضاها مما يؤدي الى اصابتها بحالة من الشلل والانهيار الكامل (١٣). في الوقت الذي اضفي فيه اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح الهيبة على البرتغال ورفع من شأنها حتى أطلق ملوكها على انفسهم سادة الفتح والملاحة والتجارة وبارك لهم البابا هذا اللقب (١٤).

وتشير بعض المصادر أن تجار الخليج وسواحل الجزيرة العربية كانوا أول من أدرك خطورة وصول البرتغاليين الى سواحل الهند ، حيث يذكر مايلز بصدد ذلك أنه ماكاد يصل فاسكودي جاما الى كاليكوت حتى قام هؤلاء بابلاغ نبأ وصوله الى حكام مصر من المماليك طالبين ابلاغ السلطان العثماني باحتمال التدخل البرتغالي في الخليج العربي وسواحل الجزيرة العربية حتى تكون الدولة العثمانية على بينه من ذلك الامر (١٥).

ونظرأ للعلاقات التجارية الوثيقة والمصالح المشتركة التي كانت قائمة بين اولئك التجار العرب والامارات الاسلامية الواقعة على سواحل الهند الغربية ومن بينها امارة كاليكوت وسلطنة كجرات فقد شاركوا في عمليات المقاومة التي قامت بها تلك الامارات ضد البرتغالين. (١٦) وقد بادر فرانسيكودي الميدا الذي عين نائبا لملك البرتغال في الهند في عام ١٥٠٦ الى الاستنجاد بحكومته حيث وصلته نجدة كبيرة بقيادة الفونسو البوكيرك (١٧) الذي تلقى تعليمات سرية من الملك عمانويل بتعيينه نائبا له في الهند بدلا من دالميدا عند انتهاء مدة خدمته في عام ١٥٠٩ (١٨) ولذلك اعد البوكيرك منذ وصوله الى بحار الشرق في عام ١٥٠٦ مشروعا ضخما للابحار والتجارة والغزو ، كما وضع نصب عينيه السيطرة على المنافذ البحرية الواقعة في جنوب البحر الاحمر والخليج العربي والانطلاق منها للسيطرة على المواني الاخري ، واتبع في تنفيذ خطته هذه اقصى انواع العنف والتعذيب ضد التجار والبحارة العرب والمسلمين . (١٩) وفضلا عن ذلك فقد وجه البوكيرك اهتماماته باقامة التحصينات والقلاع العسكرية في كل ميناء يوجد للبرتغاليين فيه مركز تجاري ، ولم يكن الهدف من ذلك حماية التجارة البرتغالية في حد ذاتها وانما تدعيم نفوذ البرتغاليين في تلك المواني واخضاع حكامها وملاحيها لسيطرتهم الاستعمارية الاحتكارية.(٢٠).

وخلال تسع سنوات قضاها البوكيرك قائدا للقوات البرتغالية في الشرق ١٥٠٦ ـ ١٥٠٩ ثم نائبا للملك في الهند ١٥٠٩ ـ ١٥١٥ كانت السيطرة البرتغالية قد أحكمت حلقاتها على موانيء الخليج العربي ومنافذه الجنوبية.

وعلى الرغم من أن الغزو البرتغالي لبحار الشرق قد عاصر العديد من الدول الاسلامية الا ان تلك الدول كانت متنافرة فيما بينها وعلى سبيل المثال كان الصراع محتدما بين الدولتين العثمانية والصفوية ولم يلبث ذلك الصراع أن افضى الى نشوب حرب فيما بينهما ادت الى اضعاف الدولتين معا وعرضتهما لسطوة التجارة الاوروبية (٢١) وجدير بالذكر ان الخلافات المذهبية كانت تمثل الجانب الاكبر

من اهتمام هاتين الدولتين الاسلاميتين حتى جاء الوقت الذي بدأ فيه الصفويون يتحالفون مع البرتغاليين ضد الدولة العثمانية او أن تخرج الدولة العثمانية عن سياستها التقليدية وتذهب الى مهادنة البرتغاليين حتى تتفرغ لمواجهة التهديدات الفارسية لها في البصرة والاحساء أو في بعض المناطق الاخرى في الخليج العربي (٢٢) وقد أضيف الى الصراع بين الدولتين الصفوية والعثمانية صراع آخر حين توترت العلاقات العثمانية المملوكية وادت الى سقوط دولة المماليك على ايدي العثمانين . ومما لاشك فيه ان الحروب التي قامت بين تلك الدول الثلاث قد اسفرت عن تغييرات جذرية في الاوضاع السياسية في المشرق الاسلامي وادت في الوقت نفسه الى التفوق الذي احرزه البرتغاليون في بحار الشرق (٢٣).

وتجدر الاشارة في هذا المقام الى أن دولة المماليك كانت أول الدول الاسلامية ادراكا لخطورة وصول البرتغاليين الى الهند من حيث الاضرار بالمصالح الاقتصادية للعالم الاسلامي ومع ذلك فان مواجهة المماليك للبرتغاليين قد تأخرت لعدة سنوات ، ويرجع السبب في ذلك الى أن البرتغاليين بدأوا يدعمون مركزهم في سواحل شرق افريقيا وسواحل الهند الغربي قبل أن يواجهوا القوى العربية ، كما يرجع السبب ايضا في تأخر هذه المواجهة الى عدم الاستقرار الناتج عن الخلافات والمنازعات بين طوائف المماليك وانتشار الاوبئة والقحط بالاضافة الى ماكان يتطلب الامر من توافر اسطول قوى لايقل من حيث الاعداد والتجهيز عن الاسطول البرتغالي وهو مالم تكن دولة المماليك تملكه وقتذاك . وفيما يبدو أن المماليك ركزوا جهودهم في بداية الامر على تحسين ميناء جدة لحماية المقدسات الاسلامية في الدرجة الاولى . ولاشك ان تأخر المواجهة قد افاد البرتغاليين في ارسال اساطيلهم الى مياه الهند حتى بلغت من الكثرة بحيث امكن استخدامها ليس فقط في القيام بأعمال هجومية ضد السفن العربية وانما في اغلاق المنافذ الجنوبية للبحر الاحمر والخليج العربي (٢٤).

وقدر للسلطان قنصوه الغوري ١٥٠٠ ـ ١٥١٦ أن يتحمل عبء المواجهة ضد البرتغاليين حيث

قام بتحركات سياسية واسعة النطاق مع شتى الكيانات السياسية الاسلامية في الهند ومع الدول المسيحية في اوروبا التي اراد ان يتخذ منها اداة للضغط على البرتغاليين، وبالتعاون مع البندقية التي اضيرت هي الاخري في تجارتها ، هدد الفاتيكان والبرتغال باعتقال الرعايا المسيحين الموجودين في بلاد ه واغلاق كنيسة القيامة ومنع الحجاج المسيحين من دخول بيت المقدس ان لم يكف البرتغاليون عن التقدم في تجارة الشرق (٢٥) اما فيما يتعلق بالتحرك العسكري المباشر فقد وجه حملة بحرية كبيرة ضد البرتغاليين ابحرت من ميناء السويس متجهة الى المحيط الهندي . وكان بعض الامراء المسلمين في الهند من امثال مظفر شاه سلطان كجرات والسامري حاكم كاليكوت بالاضافة ال عامر بن عبد الوهاب الطاهري سلطان عدن قد استنجدوا به ليساعدهم في مواجهة الخطر البرتغالي . وعندما وصلت الحملة المملوكية الى سواحل الهند في عام ١٥٠٨ تمكنت من احراز نصر جزئي على الاسطول البرتغالي في ميناء شول ،ولكنها لم تلبث أن تعرضت بعد ذلك لهزيمة ساحقة على ايدي البرتغاليين في ديو ١٥٠٩ أهم مواني سلطنة كجرات . وبهزيمة الاسطول المملوكي في ديو وضعت نهاية للتفوق البحري المملوكي (٢٦).

ولعل مما يلفت الانتباه أن الحملة المملوكية لم تتجه الى الخليج العربي ، ويرجع السبب في ذلك الى أن البرتغاليين وقت تحرك الحملة من السويس لم يكونوا قد انشروا بعد على سواحله ، وعلى الرغم من أنهم استطاعوا قبل وصول الحملة الى الهند أن يتسللوا الى بعض موانئه فانه لم يكن هناك من سبيل لتغيير استراتيجية الحملة التي استهدفت طرد البرتغاليين من الهند وتدمير مواكزهم الرئيسية فيها وفيما يبدو أنه قد استقر في ذهن المماليك أنهم اذا نجحوا في تحطيم تلك المراكز فان السيطرة البرتغالية سوف تنهار حتما في المناطق الاخرى.

وكان من الطبيعي أن يتجه البرتغاليون بعد هزيمتهم للقوى العربية والاسلامية في ديو الى مواصلة التقدم في بحار الشرق ، واستغلال التمزق في الجبهة الاسلامية من أجل تعزيز سيطرتهم

الاحتكارية والعسكرية على المنافذ البحرية والعربية. ومما لاشك فيه أن النجاح الذي حققه البرتغاليون في فرض سيطرتهم على هرمز في عام ١٥١٣ كان يرتبط الى حد كبير بالخلافات التي كانت قائمة بين الدول الاسلامية آنذاك . ومن المؤكد أن تلك الخلافات قد شغلت تلك الدول عما كان يتربص بها من اخطار حتى أ ن حاكم هرمز لم ينجح في الحصول على مساعدة من الصفويين أو من المماليك اذ كانت كل دولة مشغولة بأمورها . فالصفويون كانوا قد بدأوا صراعاتهم العسكرية ضد العثمانيين كما كانت الدولة المملوكية تعيش صراعا سياسيا داخليا فضلا عن مناوشات الحدود التي قامت بينها وبين الدولة العثمانية ، كما أنها بعد أن فقدت زعامتها البحرية وتحطم أسطولها في ديو لم تكن قادرة بطبيعة الحال على مواصلة تحديها البحري ضد البرتغالين. (٢٧)

أما عن الدولة العثمانية التى لم تدرك أهمية وضع أسس سياسية للتعاون مع الدول الاسلامية الاخرى في مواجهة البرتغاليين ، فقد كان عليها بعد أن قضت على الدولة المملوكية وحصرت الدولة الصفوية داخل حدودها أن تتحمل مسؤولية المواجهة ضد البرتغاليين سوآء من أجل حماية الاراضي المقدسة الحجازية أو من أجل اعادة التجارة الشرقية الى سابق عهدها . (٢٨).

ومما لاشك فيه أن الامل قد راود القوى المحلية في الخليج العربي في ان تتابع الدولة العثمانية خطى الدولة التي ورثتها وهي دولة المماليك وتجعل المضي في قتال البرتغاليين على رأس برنامجها العسكري وان تكون أوفر حظا من المماليك في الصرا ع ضد البرتغاليين. غير أن الدولة العثمانية أتخذت موقفا دفاعيا اكثر منه موقفا هجوميا واستمر الوضع على ذلك النحو حتى العقد الرابع من القرن السادس عشر ، ومع ذلك فلا يمكننا تفسير هذا الموقف بأنه كان استخفافا من الدولة العثمانية بقوة البرتغالين وانما كان يرجع الى أن العثمانيين جعلوا الاولوية في برامجهم العسكرية للجبهة الاوروبية وفضلا عن ذلك فان بداية المواجهة العثمانية للبرتغاليين في عام ١٥٣٨ (حملة سليمان باشا الخادم) قد اقترنت بزيادة التمزق في القوى الاسلامية والعربية في جنوب الجزيرة العربية

وسواحل الهند بسبب السياسة غير الذكية التي اتبعها قائد تلك الحملة في تعامله مع الامراء العرب والمسلمين.(٢٩).

ومما هو جدير بالذكر أن البرتغاليين أفادوا فائدة كبيرة من التفكك الذي كان ناشبا في الجبهة وبصفة خاصة من الصراع بين العثمانيين والصفويين حيث عملوا على استغلال ذلك الصراع لصالحهم . فعلى اثر هزيمة الصوفيين في معركة جالديران ١٥١٤ عمل افونسودي البوكيرك الذي كان في ذلك الوقت نائبا للملك في الهند على عقد تحالف بين البرتغال والدولة الصفوية كان من بين اهدافه تضييق الخناق على الدولة العثمانية بعد انتصارها على الصفويين ، كما عمل في الوقت نفسه على ايجاد تحالف مع الامارات الهندوكية ضد الممالك الاسلامية في الهند.

ويستدل من المصادر التاريخية أن الفونسودي البوكيرك حينما علم باندحار الصفويين امام العثمانيين في جالديران كتب الى الملك عمانويل ملك البرتغال طالبا السماح له بتجهيز فارس بالمدفعية الثقيلة لكي تتمكن من التصدي للعثمانيين والوقوف ضد تقدمهم صوب المياه العربية والهندية (٣٠) ولما كان الشاه اسماعيل الصفوي يريد الانتقام من العثمانيين بأي ثمن حتى ولو تم ذلك على حساب القضية العامة ، فقد وجد فرصته بالتحالف مع البرتغاليين بهدف اثارة المزيد من المشكلات أمام العثمانيين ، وشجعه على ذلك ماأدركه من قوة البرتغاليين الصاعدة خاصة بعد سيطرتهم على هرمز وماترتب على ذلك من وقف الجزية السنوية التي كان يدفعها ملوكها له في بعض الاحيان.

وطبقا لما اورده لوريمر انه على اثر خضوع هرمز للبرتغالين وصل مبعوث من قبل الشاه يحمل عدة مطالب اجيب الى بعضها فقد اقترح ضمن اقتراحات كثيرة أن تقدم البرتغال بعض سفنها لفارس كي تتمكن من السيطرة على البحرين والقطيف ، وان يساعد البرتغاليون الشاه على قمع حركة تمرد نشبت ضده في مكران وأ ن يقوم تحالف بين الطرفين ضد الدولة العثمانية (٣١) وكان من الطبيعي أن تجد تلك العروض استجابة سريعة من البوكيرك الذي بادر بارسال مبعوث من قبله الى

الشاه حاملا معه رسالة من قبله يبدي فيها البوكيرك .. تقديره للشاه بسبب احترامه للمسيحيين في بلاده ، ويعرض عليه الاسطول والجند والاسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند وانه اذا اراد الانقضاض على بلاد العرب او يهاجم مكة فسيجده الى جانبه أمام جده او في عدن او البحرين او القطيف أو البصرة أو على امتداد السواحل الفارسية وسينفذ له كل مايريد (٣٢).

ولعل مايثير الانتباه في هذا المقام امرين هامين اولهما ان الشاه اسماعيل الصفوي قد اعترف ضمنا بخضوع هرمز للسيطرة البرتغالية . وثانيهما ان التقارب الذي حدث بين الشاه والبرتغاليين كان يعد اضرارا بالغا ليس بالدولة العثمانية فحسب وانما بسلامة الدولة الصفوية ذاتها اذ انه كان يدعم من نفوذ دولة اجنبية صليبية ضد القوى العربية والاسلامية (٣٣).

وعلى الرغم من أن الشاه اسماعيل الصفوي قد اخطأ خطأ فادحا بتقاربه مع البرتغاليين وقبوله مبدأ التحالف معهم ، فانه لايمكن من ناحية أخرى ان نغض الطرف عن مسئولية العثمانيين الذين اسهموا بقضائهم على دولة المماليك في عام ١٥١٧ في اتاحة الفرصة للبرتغالين لتثبيت وجودهم اذ انهم لم يقوموا بعمل حاسم وسريع ضدهم . وفيما يبدوا أن العثمانيين الذين بدأوا يتصدون لزعامة العالم الاسلامي لم يقدروا النتائج التي سوف تترتب على ذلك العالم بل وعلى مستقبل دولتهم ذاتها مع واقع التغيرات التي طرأت على خطوط التجارة العالمية وماترتب عليها من آثار على الاقتصاد العالمي وموازين القوى الدولية آنذاك.

وبالاضافة الى التمزق في الجبهة الاسلامية العامة كانت الجبهة المحلية في الخليج العربي وهي الجبهة التي كانت مسرحا للاحداث ـ تعاني بدورها قدرا كبيرا من التفكك والانشقاق.

ومما لاشك فيه أن البرتغاليين استغلوا جملة الظروف المحيطة بالقوى المحلية وسيلة لتحقيق اهدافهم ، خاصة وأنه لم يكن بوسعهم بسط نفوذهم العسكري أو احتلالهم اقطار الخليج العربي بامكاناتهم الذاتية التي كانت بكل المقاييس امكانات متواضعة . اذ ان البرتغال كما هو معروف بلد

محدود المساحة والسكان وذلك بصرف النظر عن انها كانت في ذلك الوقت رائدة الامم البحرية وتشكل قوة بحرية كبيرة بحكم الامتداد الكبير الذي كانت تمتد اليه من سواحل لشبونة الى سواحل كاليكوت . ومن ثم كان على البرتغاليين أن يعمدوا الى اسغلال التفكك في القوى المحلية وتعميق الفرقة فيما بينها تنفيذا لاغراضهم . وهكذا وجد البرتغاليون في تمزق الجبهة الداخلية عونا لهم كما وجدوا ذلك العون في الانشقاق الذي كان حادثا في الدول الاسلامية على نحو ماسلفت الاشارة اليه.

وعلى الرغم ردود الفعل الايجابية التي قامت بها القوى المحلية في الخليج في مواجهتها للبرتغاليين في بداية تسلطهم العسكري ، فانها لم تلبث أن بدت مترنحة وغير قادرة على الاستمرار في المواجهة فلا هي تجمعت في قوة وارادة واحدة ولاهي ارتفعت عن مستوى الفرقة المحلية وبالتالي سمحت للقوة الغازية في أن تصبح عنصرا أساسيا في التعامل معها ولم يكن ذلك التعامل بطبيعة الحال في صالحها (٣٤).

وقد يكون من المفيد أن نتعرف على أوضاع القوي المحلية في الخليج العربي فترة الغزو البرتغالي وذلك على النحو التالي (٣٥).

أولا : مملكة هرمز

كانت مملكة هرمز من أعظم الدول المحلية التي شهدتها منطقة الخليج العربي ثراءا وأكثرها ازدهارا واوفرها سكانا ويرجع ازدهارها الى اتساع دائرة النشاط التجاري بها اذ كانت حلقة هامة من حلقات نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب . وقد ضمت هذه المملكة اليها سواحل فارس الجنوبية والسواحل العربية بدءا من السواحل العمانية حتى سواحل الاحساء والقطيف شمالا كما دخلت جزر البحرين في حوزتها (٣٦).

غير أنه مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي أخذ الضعف يدب في كيان تلك المملكة بسبب

تفاقم الصراع بين أفراد اسرتها الحاكمة بالاضافة الى أن الامتداد الكبير الذي بلغته هرمز كان عاملا آخر من عوامل تفسخها . اذ كان من الطبيعي أن يؤدي ذلك الاتساع الكبير الى افساح المجال لظهور مجموعة من القوى السياسية المحلية التي اخذت تنازع هرمز سيادتها.

وقد برز من تلك القوى المحلية بنوجبر (٣٧) الذين تمكنوا من انتزاع الاحساء والقطيف وما كاد ينتصف القرن الخامس عشر حتى نجحوا في السيطرة على البحرين وامتدوا الى بعض اقاليم نجد وتمكنوا من تسيير دفة امورهم مستقلين تماما عن مملكة هرمز وأصبح شيخهم يلقب نفسه بسلطان البحرين والقطيف والاحساء ورئيس أهل نجد. ولم يقتصر نفوذ الجبور على تلك المناطق وانما امتدوا بنفوذهم الى كثير من الاقاليم والمقاطعات العمانية واشتهر من شيوخهم السلطان اجود بن زامل الذي اتسع نفوذ الجبور على عهده اتساعا كبيرا حتى كانوا يأخذون الجزية من بعض حكام الفرس المجاورين لهم.

وادى هذا التعاظم في النفوذ الذي بلغه بنو جبر الى احتدام الصراع بينهم وبين ملوك هرمز (٣٨) وكان من سوء الطالع أن يتواكب ذلك الصراع مع بداية وصول البرتغاليين الى سواحل الخليج العربي ، وبدلا من أن تتصدى مملكة هرمز لحماية الخليج باعتبارها هي القوة المسؤولة عن حمايته فانها كانت تعمل على سحق النفوذ المتصاعد الذي وصل اليه بنو جبر (٣٩) ومما لاشك فيه أن البرتغاليين قد عملوا على استغلال ذلك الصراع لمصلحتهم اذ ماكانوا يسيطرون على هرمز حتى اعتبروا انفسهم متحالفين معها لاستعادة سيطرتها على المناطق التي فقدتها في الخليج العربي وباسم ممكلة هرمز خاض البرتغاليون صراعا عنيفا ضد بني جبر وهو صراع ادى في النهاية القضاء على نفوذهم ونفوذ مملكة هرمز معا ومكن للسيطرة البرتغالية في الخليج العربي

ثانيا : القوى المحلية في عمان

كانت السواحل العمانية اولى السواحل العربية في الخليج العربي التي تعرضت للعمليات

العسكرية البرتغالية في السنوات الاولى من القرن السادس عشر الميلادي . ويرتبط نجاح البرتغاليين في السيطرة على تلك السواحل والموانيء العمانية الى ماكانت تعاني منه البلاد من تمزق في اوضاعها السياسية وتفرقها بين رؤساء متعددين (٤٠) فقد سيطرت على المقاطعات العمانية مجموعة من القوى المحلية المتنافسة بل والمتصارعة فيما بينها ومن بينها الملوك النباهنة في بهلا والائمة الاباضيون في مراكزهم الداخلية في نزوي بالاضافة الى امتداد نفوذ بني جبر من قواعدهم الرئيسية في الاحساء الى بعض الاقاليم الداخليج في عمان . وكان الصراع لايهدأ بين تلك القوى ولم يلبث أن أضيف اليه الصراع بين بني جبر وملوك هرمز.

ويستدل من المصادر العمانية المحلية ان عمان كانت تعيش فترة مضطربة في بداية الغزو البرتغالي فالحروب كانت قامة بين الملوك النباهنة وبين الاباضيين المتحمسين لبعض الامامة الاباضية ولم يتمكن الاباضيون من بعث امامتهم واستقرارها الا بفضل تحالفهم مع بني جبر حيث عقدت الامامة لمحمد بن اسماعيل ١٥٠٠ ـ ١٥٣٥ وترتب على ذلك ان أصبح بنو جبر يسيطرون بنفوذهم على كثير من المقاطعات العمانية خاصة الداخل (٤١).

وماهو جدير بالذكر أن الامامة الاباضية نظرا لطبيعة تجمعها في داخلية عمان لم تشعر بالغزو البرتغالي اذ اننا لانجد في المصادر المحلية التي عنيت بتاريخ الامامة أية اشارة الى التقدم البرتغالي في تلك الفترة . اما النباهنة فقد انشغلوا عن مواجهة الغزو البرتغالي بمحاولات يائسة لاستعادة نفوذهم من بني جبر والامامة الاباضية معا .

ثالثا : بنو جبر وبداية المواجهة ضد البرتغاليين

تشير المصادر البرتغالية الى أن بني جبر كانوا هم القوة العربية الاولى التي واجهت البرتغاليين في تسهيل عملياتهم العسكرية في الخليج العربي ، وان نفوذهم كان يمتد جنوبا الى عدن وشمالا الى الاحساء كما كان يمتد في الداخل الى نجد والحجاز.

وعلى الرغم مما جاء في المصادر البرتغالية من وصف العمليات العسكرية بالضراوة والعنف فانها لم تخل من مقاومة محلية (٤٤) ولعل ميناء قلهات كان أول ميناء عماني يتعرض للغزو البرتغالي حين وصل البوكيرك الى ذلك الميناء في عام ١٥٠٦ بسبع سفن واربعمائة وستين محاربا ثم اتجه بعد ذلك الى قريات حيث تعرض الاسطول البرتغالي لمقاومة عنيفة من الاهالي ولكن البوكيرك نجح في اقتحام المدينة وامر بحرقها وحرق جميع السفن الراسية في مينائها.

وحين توجه البرتغاليون الى مسقط فوجئوا بقوة وسائل دفاعها فضلا عن اعداد كبيرة من المحاربين الذين توافدوا اليها من جميع الجهات بعد سماعهم بالتدمير الذي حل بقريات وقد تعرض الاسطول البرتغالي لضربات شديدة ، خاصة حين جاءت نجدة من هرمز كانت تتألف من اكثر من الفي مقاتل بالاضافة الى نجدة كبيرة من الداخل كانت تتكون من عشرة آلاف مقاتل (٤٣) ولذلك اسرع البوكيرك حين أحس بأن عرب مسقط أخذوا يستعدون لتنظيم صفوفهم بقصف الميناء ، وفرض غرامة حربية على الاهالي قدرت بشرة الاف زرافين على أن يصل اليه المبلغ في اليوم التالي. وعندما عجز الاهالي عن تدبير تلك الغرامة الكبيرة اصدر البوكيرك أوامره في عام ١٥٠٧ باشعال النار في المدينة بما في ذلك السفن الراسية في مينائها . وانتهى الامر باحتلال البرتغاليين لمسقط بعد أن قاومت مقاومة باسلة انتهت بتخريب بيوتها وهدم جامعها الذي كان تحفه فنية واثرية رائعة واطلق البوكيرك العنان لجنوده ليذبحوا كل من يصادفونه ولم يسلم من ذلك سوى بعض الشيوخ والنساء الذين امر البوكيرك بجدع أذانهم وانوفهم (٤٤) ومضى الاسطول البرتغالي بعد ذلك في طريقه حيث حاصر ميناء صحار ونجح البرتغاليون في قمع حركات المقاومة رغم النجدات الكبيرة التي وصلت الى ذلك الميناء من شيوخ بني جبر في الداخل ثم اتجه البرتغاليون بعد ذلك الى خورفكان وفيها ارتكبوا مجزرة بشرية بشعة كما لاقت المدينة قدرا كبيرا من النهب والتدمير والحرق (٤٥).

ومضى البرتغاليون في غزواتهم معتمدين على مدفعيتهم الثقيلة واسلحتهم الحديثة في تديمر

المدن واحراق السفن واسر الرجال والفتك بالسكان مستهدفين بعملياتهم هذه اشاعة الرعب في النفوس وذلك قبل أن يتقدموا الى هدفهم الرئيسي وهو السيطرة على هرمز. (٤٦)

وفي هرمز تصدى لاسطول البوكيرك اكثر من اربعمائة سفينة منها ستون سفينة كبيرة الحجم في الوقت الذي لم يكن البوكيرك يملك فيه اكثر من سبعة سفن حربية لم يتجاوز عدد بحارتها اكثر من اربعمائة وستون مقاتلا . ولكن البوكيرك لم يجد في قلة عدد سفنه وجنوده مايمنعه من نيل مأربة في الاستيلاء على هرمز معتمدا في ذلك على قوة تسليحه . وقد ابدى البرتغاليون استماته في القتال حين أكد لهم البوكيرك أ نه لاخيار لهم بين أمرين اما الانتصار أو أن يقطع المسلمون رؤوسهم واعناقهم ويحملونها ضمن غنائمهم!.

وهناك الكثير من التفصيلات عن أخبار معركة هرمز ١٥٠٨ التي تعد من اقوى المعارك التي خاضها البرتغاليون في الخليج العربي . حيث يذكر لنا الرحالة البرتغالي فارياسوسا انه عند وصول البوكيرك الى هرمز كان يحكمها الامير سيف الدين وهو فتى صغير وكان يرأس مجلس البلاد ويدير امور الدولة خوجة عطاء وكان رجلا شجاعا حاذقا بدأ استعداده للقتال عندما سمع بما فعله البوكيرك في البلدان والموانيء التي مر بها والتي كانت تابعة لملكة هرمز (٤٧) ولذلك بادر بالاستيلاء على جميع السفن الموجود في الميناء واستأجر بعض المقاتلين من بلوخستان وعندما وصل البوكيرك الى هرمز كان قد احتشد في مينائها مالايقل عن ثلاثين الف مقاتل كما كان في الميناء مايقرب من اربعمائة سفينة مسلحة الى جانب عدد لايحصى من زوارق الشاطيء التي كان يستقلها مقاتلون خبراء في رمي الرماح والسهام(٤٨).

ولجأ خوجة عطاء الى طلب العون من الشاه اسماعيل الصفوي الذي كان في بداية سنوات حكمة وبالتالي فلم يكن في وضع يسمح له بمساعدة هرمز خاصة وقد طغت عليه الدعوة الدينية لنشر المذهب الشيعي الذي قامت عليه دولته . وفيما يبدو انه لم يعر حملة البوكيرك اهتماما كبيرا الامر الذي

اضطر هرمز الى خوض المعركة معتمدة على نفسها ولم تكن في صالحها بطبيعة الحال نظرا لتفوق البرتغاليين في المدفعية الثقيلة التي وجدت فرصتها في تكديس المقاتلين في منطقة صغيرة المساحة ، وانتهى الامر باقتحام البرتغاليين للميناء وتدمير واحراق السفن التي ابيدت عن آخرها (٤٩) وقبلت هرمز دفع غرامة حربية للبرتغالين قدرت بخمسة عشر الف زرافين واصدر البرتغاليون اوامرهم بمنع اية سفينة من الملاحة قبل حصولها على ترخيص من السلطات البرتغالية وبهذه الطريقة كتب البرتغاليون السطر الاول من تاريخ سيطرتهم البحرية والعسكرية والتجارية على الخليج العربي (٥٠).

وعلى اثر سيطرة البوكيرك على هرمز بدأ يعمل على تشييد حصن كبير بها اطلق عليه حصن النصر Visa Senhora da Victoria كان الاول في سلسلة كبيرة من القلاع والحصون العسكرية التي شيدها البرتغاليون في الخليج العربي خاصة في البحرين ومسقط حيث تم تشييد حصنين كبيرين بها هما الجلالي والميزاني ، ومن تلك القواعد والحصون العسكرية ارتكزت السيطرة البرتغالية على الخليج طيلة فترة استعمارهم التي استمرت مايقرب من قرن ونصف قرن من الزمان (٥١)

وعلى الرغم من الانتصار الذي حققه البوكيرك في هرمز فانه لم يلبث ان اضطر الى وقف عملياته العسكرية في الخليج ويرجع السبب الى اضطرار البرتغاليين لتحويل اسطولهم المرابط في الخليج الى سواحل الهند لمنازلة المماليك ، هذا بالاضافة الى أن البوكيرك بدأ يواجه حركات عصيان من بحارته ولذلك بادر بفك الحصار عن هرمز بناء على تعليمات تلقاها من فرانسيسكودي الميدا نائب الملك في الهند.

غير أنه لم يلبث أن شهد عام ١٥٠٩ حدثين هامين كان لهما اثر كبير في تاريخ السيطرة البرتغالية على بحار الشرق بصفة عامة والخليج العربي بصفة خاصة ويرتبط الحدث الاول بهزيمة الاسطول المملوكي في ديو أما الحدث الثاني فقد ارتبط بعزل فرانسيسكودي الميدا وتوليه افونسودي البوكيرك في منصب نائب الملك في الهند ، والذي ماكاد يصل الى منصبه هذا حتى قام بنقل مركز

البرتغاليين في الهند الى جوا وكان ذلك مؤشرا واضحا على تكثيف عملياته العسكرية في الخليج العربي والجزء الغربي من المحيط الهندي بصفة عامة . ولم تكد تمضي عدة سنوات حتى استطاع البوكيرك اعادة السيطرة على هرمز ١٥١٣ ووافق شيوخها على الخضوع للحماية البرتغالية مقابل الابقاء على الحكم الوطني كما اشترط البوكيرك على شيوخ هرمز دفع غرامة حربية وجزية سنوية وتقديم الخامات والعمال اللازمين لبناء القلعة العسكرية الكبيرة التي كان البوكيرك قد وضع أساسها خلال حصاره لهرمز قبل ذلك بعدة سنوات.

وعلى أثر وفاة البوكيرك في عام ١٥١٥ تم تعيين لويوسـواريز ئزجخقإ خلفا له في منصب نائب الملك في الهند . وعل عهده تغيرت معالم السياسة البرتغالية في بحار الشرق حيث انغمس البرتغاليون في التجارة واتجهوا الى اطلاق المجال للنشاطات التجارية التقليدية بشرط أن تتم لصالحهم وفائدتهم وتمكنوا بفضل تلك السياسة تحقيق العديد من المكاسب المادية وذلك بالاستفادة من الانماط التجارية القديمة حيث بدأت بالفعل كميات كبيرة من بضائع الشرق تتدفق على البحر الاحمر والخليج العربي ويتأكد لنا ذلك مما ذكره الرحالة البرتغالي بدروتيكيرا من ان هرمز وغيرها من موانيء الخليج لم تفقد مكانتها التجارية حيث لاحظ كثرة الرسوم الجمركية التي كان يتقاضاها البرتغاليون في هرمز (٥٢) ولعل ماذكره تكيرا يخالف ماجاء في كثير من المصادر من ان البرتغاليين نجحوا تماما في تحويل تجارة الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح (٥٣) اذ لم تكد تمض اكثر من خمسة عشر عاما من وصول البرتغاليين الى الهند حتى عاد النشاط التجاري الى الطرق البرية والبحرية القديمة . ومع ذلك فان السياسة المرنة التي اتبعها سواريز لم تخفف في الوقت نفسه من الاضرار الاقتصادية الفادحة التي عانى منها التجار العرب والمسلمون والتي كانت تتمثل في عبء الضرائب والرسوم التي كانت تفرض عليهم من قبل السلطات البرتغالية ، وبالتالي فلم يجد عرب الخليج في السياسة الاقتصادية الجديدة التي اتبعها البرتغاليون الا زيادة في التحكم وامعانا في السيطرة والاحتكار.

وازاء التعسف في فرض الضرائب بالاضافة الى التسلط العسكري ازدادت كراهية الاهلي للبرتغاليين ، ولم يقتصر الامر على هرمز وحدها وانما امتدت عوامل الاستياء والكراهية الى غير ذلك من مواني الخليج وخاصة حينما اتجه البرتغاليون بحكم حمياتهم لملكة هرمز الى السيطرة من خلالها على الاحساء والقطيف والبحرين وغيرها من المناطق التي كانت تابعة لها . حيث خاض البرتغاليون باسم ملوك هرمز ـ صراعا عنيفا ضد بني جبر . وفيما يرجح لدينا ان ملوك هرمز اضطروا الى هذا الصراع بعد ان الزمهم البرتغاليون بدفع جزية كبيرة لم يكن في استطاعتهم دفعها الا باعادة سيطرتهم على تلك المناطق.

وتشير بعض المصادر بصدد ذلك أن ملك هرمز طورانشاه ـ الذي خلف سيف الدين ـ اظهر للبرتغاليين عجزة الكامل عن دفع المبالغ التي الزموه بها وعلل ذلك بأن مقرن بن زامل حاكم البحرين من بني جبر امتنع عن دفع الاموال التي كانت مقررة عليه سنويا وانه بدأ ينتهج سياسة استهدف بها الانفصال عن مملكة هرمز منتهزا فرصة خضوعها للحماية البرتغالية ، ومن ثم توحدت مصالح البرتغاليين مع مصلحة طورانشاه في قيام تحالف بينهما للقضاء على نفوذ بني جبر.

ومن ناحية أخرى فان بني جبر في مناطق تجمعهم في الاحساء والبحرين والقطيف وبعض المناطق الاخرى في عمان اخذوا يستاءون استياءا بالغا من الاسلوب الاحتكاري ومن مغالاة البرتغاليين في فرض الغرامات والضرائب فضلا عن القسوة والعنف التي كان يتسم بها القادة البرتغاليون وتعنتهم في فرض الانظمة العسكرية والاحتكارية على المناطق التي خضعت لهم . ولم يلبث أن توترت العلاقات بين بني جبر في البحرين وتوابعها وبين البرتغاليين في هرمز الامر الذي دفع البرتغاليين الى تدبير هجوم مسلح على البحرين في عام ١٥٢٠ (٥٤) مستغلين في ذلك فرصة تغيب سلطانها مقرن بن زامل الجبري حيث كان قد سافر الى مكة لتأدية فريضة الحج وتولى اعباء المقاومة الشيخ حميد ، وهو قريب له كان قد انابه عنه في حكم البحرين وكانت القوات التي اعدها البرتغاليون تتكون من عدد كبير

من القاتلين بقيادة انطونيا دي موريا الذي وصفته المصادر البرتغالية ببطل البحرين!.

وعندما عاد السلطان مقرن بن زامل الى بلاده بادر بتجميع قواته وتعزيز استحكاماته في البحرين والقطيف في الوقت الذي عاود فيه البرتغاليون هجومهم وتمكنوا من النزول على مقربة من المنامة في الجزيرة الكبرى . وعلى الرغم من ضروب البسالة والشجاعة التي قام بها السلطان مقرن في محاولة منه لصد الهجوم البرتغالي الهرمزي المشترك لا انه لم يلبث أن وقع اسيرا في ايدي البرتغاليين الذين بادروا باعدامه مما ادى الى انهيار معنويات اتباعه الذين انسحبوا الى القطيف . وقد خلد السلطان مقرن اسمه باعتباره اول حاكم في شرق العالم الاسلامي يلقي حتفه في معركة ضد المستعمرين البرتغاليين(٥٥).

وجدير بالذكر اننا نجد اشارة الى تلك الاحداث فيما رواه لنا المؤرخ المصري ابن اياس في كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور مما يؤكد ان مصرع السلطان مقرن وخضوع البحرين للسيطرة البرتغالية كانت لهما اصداء كبيرة في انحاء العالم الاسلامي حيث ذكر ابن اياس في حوادث العام ٩٢٨هـ (١٥٢٠م) ، واشيع قتل الامير مقرن امير عرب بني جبر متملك جزيرة البحرين الى بلاد هرمز الاعلى ، وكان اميرا جليل القدر معظما مبجلا في سعة من المال مالكي المذهب سيد عربان الشرق على الاطلاق . ويضيف ابن اياس في تسجيله لتلك الاحداث ان الفرنج قد لاقته في الطريق وتحاربت معه فانكسر وقبضوا عليه باليد واسروه فسألهم ان يشتري نفسه منهم بالف الف دينار فأبو الفرنج ذلك وقتلوه بين ايديهم ولم يغن عنه ماله شيئا وملكوا قلعتها التي هناك واستولوا على اموال الامير مقرن وبلاده وكان ذلك من اشد الحوادث في الاسلام واعظمها، وقد تزايد شر الفرنج على شواطئ المحيط الهندي والامر لله تعالى (٥٦).

وعلى الرغم من انتقاد ابن اياس للامير مقرن واتهامه بالتخاذل وانه عرض اموالا كثيرة على البرتغاليين ليطلقوا سراحه فان المصادر البرتغالية وكتابها كانوا قريبين من ارض المعركة قد اختلفوا

عما جاء في رواية ابن اياس اذ وصفت تلك المصادر (٥٧) السلطان مقرن بالصمود وانه مات متأثرا بجراحه . كما أشارت الى أن البرتغاليين لم يجرؤا بعد سيطرتهم على البحرين على التقدم الى الاحساء والقطيف خوفا من أن يزج بهم العرب الى داخل الجزيرة العربية . واكتفوا بتعيين حاكم على البحرين مستندا الى الحماية البرتغالية وبناء قلعة كبيرة في الساحل الشمالي للجزيرة الكبرى لاتزال اطلالها قائمة حتى يومنا هذا (٥٨).

وفي تقديرنا أن سقوط البحرين في ايدي البرتغاليين كان نقطة تحول هامة في شدة مواجهة ابناء الخليج للبرتغاليين في السنوات التالية . وقد حدث ذلك التحول نتيجة مجموعة من العوامل يمكن نستخلص من بينها ردود الفعل العنيفة التي صاحبت مقتل السلطان مقرن وسيطرة البرتغاليين على موارد البحرين . بالاضافة الى ما اقترن بذلك من ازدياد تعسف البرتغاليين وسطوتهم وتفاقم الاوضاع الاقتصادية نتيجة التداخلات المستمرة من قبل البرتغاليين في هرمز وغطرسة ضباطهم وموظفيهم واخيرا نشوب النزاع بين البرتغاليين وملوك هرمز الذين بدأ يتضح لهم أن البرتغاليين قد اخضعوا هرمز لمصلحتهم دون ان يترتب على ذلك فائدة تذكر . واصبح على هرمز ، التي بدت في هذه الفترة بعد انهيار نفوذ بني جبر ، القوة المحلية الرئيسية التي ينبغي ان تستمر في حمل لواء المقاومة ضد البرتغاليين.

وقد تصدى لهذه المواجهة طورا نشاه الذي ماكادت تصله انباء مايواجهه البرتغاليون في الهند من صعاب وانهم بدأوا يسحبون جانبا كبيرا من قواتهم في الخليج حتى بادر باصدار اوامره الى كل الرؤساء والشيوخ التابعين له في الاحساء والبحرين والقطيف بالانقضاض على البرتغاليين . وتمكن عرب الخليج بالفعل أن يقضوا على عدد كبير من الضباط والجنود البرتغاليين خاصة في البحرين حيث انتقم سكانها انتقاما عنيفا من البرتغاليين لمقتل اميرهم مقرن.

وتتفق معظم المصادر على بدء احداث تلك الحركة في ٣٠ نوفمبر ١٥٢٠ وذلك بعد ان وضع

طورانشاه خطة سرية ومحكمة لاخطار كافة حكام المدن الساحلية بمقاومة البرتغاليين في وقت محدد ، وكان يستهدف من خطته السرية هذه حرمان البرتغاليين من الحصول على امدادات من الموانيء الخاضعة لسيطرتهم (٥٩).

ومما يثير الانتباه اكثر مما يبعث على الدهشة ان يتوصل ابناء الخليج في ذلك الوقت الى خطة لتنظيم حركة المقاومة ومهاجمة القلاع البرتغالية في الخليج في آن واحد الامر الذي ادى الى ايقاع خسائر فادحة بالبرتغاليين ولعلنا لانغالي في القول اذا ماذكرنا ان تلك المواجهة كادت تقضي على الوجود البرتغالي برمته.

غير انه لم تلبث تلك الحركة ان فشلت في تحقيق اهدافها ويرجع ذلك في تقديرنا الى الخلافات التي كانت قائمة بين ملوك هرمز وفرع الجبور في عمان وبالتالي فقد وجد البرتغاليون في تلك الخلافات فرصتهم حيث عملوا على توثيق صلتهم بالشيخ حسن بن سعيد حاكم مسقط من بني جبر حيث اغروه بكثير من الوعود وعن طريقه وصلت الامدادات الكثيرة للبرتغاليين.

ويثير موقف بني جبر التساؤل وخاصة انهم كانوا من اشد القبائل العربية مقاومة للبرتغاليين في بداية تسلطهم العسكري . ويمكننا ان نذهب في تعليلنا لذلك الموقف الى ان طبيعتهم البدوية طغت على نفوسهم حيث استبدت بهم الرغبة للانتقام من ملك هرمز الذي تحالف مع البرتغاليين من قبل مما كان سببا في القضاء على زعيمهم الكبير مقرن بن زامل . ومما يؤكد صحة ماننذهب اليه ان الملك طورانشاه قد اغتيل بالفعل على ايدي بني جبر بعد فشل حركته ولجوئه الى جزيرة قشم حيث تتبعه الى هناك احد شيوخهم وبذلك نجح بنو جبر في تصفية حسابهم معه (٦٠).

ومما تجد الاشارة اليه في هذا المقام ان كثيرا من الباحثين الايرانيين قد ركزوا على تعاون بني جبر في عمان مع البرتغاليين واعتبروا ذلك بمثابة موقف متخاذل من قبل العرب غير انهم يناقضون انفسهم بطبيعة الحال حيث يتغاضون عن التحالف الذي كان قائما بين الدولة الصفوية

والبرتغاليين باعتباره العامل الاساسي الذي مكن للسيطرة البرتغالية على الخليج العربي.

وقد ترتب على فشل حركة ١٥٢٠ اسراف البرتغاليين في التنكيل بالاهالي وتدمير كثير من المدن والموانيء ولعل ميناء صحار كان من اكثر المدن تعرضا للتخريب والدمار وبنجاح البرتغاليين في قمع حركات المقاومة قاموا بالغاء الحكم الذاتي الذي كانت تتمتع به هرمز وظهر ذلك واضحا في معاهدة ميناب ١٥٢٣ التي ابرمت بين البرتغاليين وشيخ هرمز الجديد التي نصت على انهاء ذلك الحكم وذلك باقرارها مجموعة من التنظيمات الادارية والعسكرية التي استهدف بها البرتغاليون تعزيز مكانتهم والسيطرة على الحركة التجارية في ميناء هرمز بما في ذلك تحصيل الرسوم الجمركية وزيادة قيمة الجزية التي يدفعها شيوخ هرمز للبرتغاليين حتى وصلت الى ٦٠٫٠٠٠ زرافين ولم يعد لاولئك الشيوخ اي اثر في توجيه سياسة الحكم حيث اصبحت مملكة هرمز تحت السيطرة البرتغالية الكاملة (٦١).

وعلى الرغم من نجاح البرتغاليين في السيطرة على الموقف في هرمز فقد استمرت المواجهة العربية قائمة مستهدفة التخلص من السيطرة البرتغالية ، اذ لم تكد تمضي سنوات قليلة على عقد معاهدة ميناب حتى نشبت حركة مقاومة عنيفة قامت في مسقط عام ١٥٢٦ ولم تلبث ان امتدت الى الموانيء المجاورة لها خاصة ميناء قلهات وكان الدافع لهذه الحركة ماعانته الموانيء العمانية من الضرائب الفادحة (٦٢) وفي عام ١٥٢٩ تعرض البرتغاليون لتحد آخر من قبل البحرين حيث امتنع شيوخها عن دفع الجزية لهم ، وفشل قائد الحامية البرتغالية في البحرين في قمع تلك الحركة بسبب نقص الاسلحة وانتشار الاوبئة والامراض بين جنوده مما اجبره على الانسحاب الى هرمز غير ان البرتغاليين مالبثوا ان عاودوا احتلال البحرين بعد ان وصلتهم الامدادات العسكرية من قاعدتهم الرئيسية في جوا . وقد بادر البرتغاليون على اثر ذلك بخلع شيخ البحرين من اسرة الجبور وولوا بدلا منه حاكما فارسيا سنيا ولعلهم استهدفوا بذلك ان يختلف الحاكم في جنسه عن سكان البحرين ومعظمهم من العرب كما يختلف في مذهبه مع عدد كبير من سكانها الشيعة وبذلك يضمن البرتغاليون

عدم انضمام حاكم البحرين الى اية حركة تقوم ضدهم . وعلى الرغم من تلك الاجراءات فقد استمرت السيطرة البرتغالية على البحرين تتسم بالاضطراب وعدم الاستقرار. (٦٣)

واذا كان البرتغاليون قد نجحوا في قمع الكثير من حركات المقاومة التي قامت ضدهم فانه لم يلبث ان تجدد الامل في نفوس ابناء الخليج حين بدأت الدولة العثمانية توجه استراتيجيتها الى شرق الجزيرة العربية وذلك بعد نجاحها في ضم البصرة واتخاذها قاعدة بحرية ، الى جانب السويس ، لتهيئة الحملات ضد البرتغاليين . ويمكننا اعتبار عام ١٥٤٦ بداية مواجهة العثمانيين للبرتغاليين في الخليج العربي حيث شهد ذلك العام وصول بعض قطع الاسطول العثماني من السويس الى ظفار ومسقط (٦٤) في الوقت الذي تقدمت فيه سفن عمانية اخري من البصرة الى الاحساء والقطيف . ومما لاشك فيه ان العثمانيين وجدوا تجاوبا كبيرا من عرب الخليج للاحتماء بزعامتهم الاسلامية.

غير ان نجاح العثمانيين في فرض سيطرتهم على الاحساء قد افزع البرتغاليين خاصة بعد ان وقع الحصن البرتغالي في القطيف في ايدي العثمانيين في عام ١٥٤٧ وكان البرتغاليون يعتمدون على ذلك الحصن ، بالاضافة الى القلعة التي اقاموها في البحرين ، في السيطرة على السواحل الشمالية من الخليج . ومن ثم عاود البرتغاليون السيطرة على القطيف وفيها دارت معركة عنيفة بين البرتغاليين والعثمانيين اضطر العثمانيون على اثرها الى الاستسلام بعد ان تبين لهم استحالة التصدي للبرتغاليين في معركة بحرية نظامية ، في الوقت الذي تمادى فيه البرتغاليون في الزحف شمالا حتى قاربوا البصرة ، وان فشلوا في السيطرة عليها . (٦٥) وسوف يشهد النصف الثاني من القرن السادس عشر تغيرا واضحا في خطط الدولة العثمانية حين عمدت الى اتباع اسلوب جديد من الحرب البحرية غير النظامية بعد ادراكها ماتفتقد اليه من قوة بحرية وقواعد بحرية وقواعد عسكرية اذا ماقيست بما كان عليه الحال بالنسبة للبرتغاليين.

واستطاع العثمانيون بهذا الاسلوب توجيه الكثير من المعارك البحرية المفاجئة ضد البرتغاليين

ونجحوا في الحاق اضرار كبيرة بالاسطول البرتغالي وببعض القواعد البرتغالية . وبرز من القباطنة العثمانيين بيري بيك وسيد علي رئيس وعلى جلبي وغيرهم كثيرون . غير ان محصلة الصراع لم تكن في نهاية الامر في صالح العثمانيين.

وبخروج العثمانيين من ساحة الصراع في اواخر القرن السادس عشر اصبح المجال مفتوحا في السنوات الاولى من القرن السابع عشر لقوة عربية ناشئة هي قوة اليعاربة في عمان لكي تنهض بالتعاون مع القوى العربية الاخرى من اجل تحرير الخليج من السيطرة البرتغالية ، حيث تبدأ مرحلة جديدة من مراحل المواجهة العربية ضد الوجود البرتغالي وهي المرحلة التي تمكن فيها عرب الخليج من احراز النصر على البرتغاليين الذين وهنت امبراطوريتهم في الشرق نتيجة الظروف الداخلية والخارجية التي اثرت عليها ، وساعد ذلك على الوقوف منها موقف التحدي وشكل عرب الخليج بذلك ، وبفضل وحدتهم ، عاملا من العوامل التي ادت الى انهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي.



حواش الدراسة

١ ـ نشرت هذه التعليقات البرتغالية في أربعة أجزاء وقام G.Birch بترجمتها الى اللغة الانجليزية في عام ١٨٨١ بعنوان The Commentaries of Great Affonoso Dalboquerque : Hakluyt Society. London 1881

٢ ـ Barbosa (durate) : The Book of Durate Barbosa. edited by M. Dames 2 Vols. London 1918.

٣ ـ c.f.. John Steven (translator) Manuel de Faria and Sousa. The Portugese Asia. 2 Vols London 1695

٤ ـ The Travels of Pedro Texiera with His Kings of Hormuz and extracted from His Kings of Persia Translated by William F Sinclair Haklyt Society 1902

٥ ـ طارق الحمداني : دراسة في الوثائق والمصادر المنظورة عن الغزو البرتغالي والسيطرة البرتغالية في الخليج العربي ـ من أعمال ندوة الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي والعلاقة بين الخليج العربي وشرق افريقيا ، معهد البحوث والدراسات العربية ومركز وثائق رأس الخيمة ٢٩ ـ ٣١ أغسطس ١٩٨٧ جـ ا ص ص ٢٦٠ ـ ٢٦١

٦ ـ ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، نشر فوانز شتاينر فيسبادن تحقيق محمد مصطفى ج ٤ القاهرة ١٩٦٠ و ١٩٦١ ص ٨٢ . انظر ايضا محمد العال : البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه ، الاسكندرية ١٩٨٠ ص ٧٠

٧ ـ على أحمد الزبيدي ، اصداء الغزو البرتغالي في أدب الخليج العربي ، من اعمال ندوة الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي والعلاقة بين الخليج العربي وشرق افريقيا ج ـ١ ص ٢٨٢

٨ ـ مايلز (س . ب) : الخليج بلدانه وقبائله ، ترجمة محمد أمين عبد الله ونشر وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦ ص ١٤٩ وكذلك جمال زكريا قاسم : تاريخ عمان بين المصادر الاجنبية والمحلية ، بحث القي في المنتدى الادبي بسلطنة عمان اكتوبر ١٩٨٩

٩ ـ بكنجهام (س) بعض الملاحظات من البرتغاليين في عمان ، من حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ٦ نوفمبر ١٩٨٠ ص ص ١٨٤ ـ ١٨٥

١٠ ـ Kassim G.Z. Oman : Portuguese Conflict in the 17th Century Bulletin of the Arab Research and Studies Institute Cairo. 1980.

١١ ـ الشيخ زين الدين : تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين ترجمة ونشر جمعية لشبونة الجغرافية ١٨٩٨ ص ٤٥

١٢ ـ مايلز : مصدر سبق ذكره ص ١٤٦

١٣ ـ عبد العزيز الشناوي : المراحل الاولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية ، من اعمال ندوة تاريخ شرق الجزيرة العربية الدوحة ١٩٧٧ ـ المجلد الثاني ص ٦١٦

١٤ ـ ولسن (أرنولد) : تاريخ الخليج ، ترجمة محمد أمين عبّد اله ونشر وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان ، ١٩٨١ ص ٦٣

١٥ ـ مايلز : مصدر سبق ذكره ص ١٤٦

١٦ ـ فالح حنظل: المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة ، اصدار لجنة التراث والتاريخ دولة الامارات العربية المتحدة الجزء الاول ص ٤٧

١٧ ـ ج . ج لوريمر : دليل الخليج : القسم التاريخي ، الطبعة المنقحة الدوحة ١٩٨٣ ج ١ ص ١١ ـ ١٢

١٨ ـ ويلسن (أرنولد) : مصدر سبق ذكره ص ٦٥

١٩ ـ مايلز : مصدر سبق ذكره ص ١٤٩ انظر ايضا يوسف الثقفي : موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي ، من اعمال ندوة الاستعمار البرتغالي والعلاقة بين الخليج العربي وشرق افريقيا ج ـ ١ ص ١٤٨

٢٠ ـ ويلسن : مصدر سبق ذكره ص ٦٤

٢١ ـ جون كيرك : موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٨٨

٢٢ ـ فاروق أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، القاهرة ١٩٧٦ ص ص ٣٨ ـ ٣٩

٢٣ ـ R.B. Sergeant. The Portuguese of the south Arabian Coast Oxford 1963 p 2 see also Wendel Philips Oman A History London 1967 p. 29

٢٤ ـ ابن اياس : مصدر سبق ذكره ج ٣ ص ٢٨٧ انظر أيضا محمد عبد العال احمد مرجع سبق ذكره ص ص ٧٦ ـ ٧٩

٢٥ ـ ابن ياس : مصدر سبق ذكره ، حوادث شهر رجب ٩١٦ هـ الجزء الرابع ص ١٩٥

٢٦ ـ فاروق اباظة ، مرجع سبق ذكره ص ٣٩ انظر ايضا Wendel Philips. OP. Cit, P.36.

٢٧ ـ يوسف بن علي الثقفي : موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي ص ١٥٠

(٢٨) نفسه ص ١٦٦.

٢٩ ـ جمال زكريا قاسم : الخليج العربي دراسة لتاريخ ٢٨ ـ نفسه ص ١٦٦ الامارات العربية في عصر التوسع الاوروبي الاول ١٥٠٧ ـ ١٨٤٠ القاهرة ١٩٨٥ ص ص ٨٣/٨٤ أنظر ايظا عبد العزيز

الشناوي المراحل الاولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية ، ج ٢ ص ص ٦٨٢ ـ ٦٨٧

٣٠ ـ عبد الوهاب الغبيسي : المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية ، من اعمال ندو ة الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي والعلاقة بين الخليج العربي وشرق افريقيا ج ١ ص ١٦٨

٣١ ـ ج .ج لوريمر : مصدر سبق ذكره ج ٢ ص ١٤

٣٢ ـ جمال زكريا قاسم : مرجع سبق ذكره ص ١٢

٣٣ ـ حامد ربيع : النظام الدولي الاقليمي في منطقة الخليج خلال فترة الاستعمار البرتغالي من اعمال ندوة الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي والعلاقة بين الخليج العربي وشرق افريقيا ح ١ ص ٦٠

٣٤ ـ نفسه ص ٦٠

٣٥ ـ لمزيد من التفصيل عن الاوضاع السياسية في الخليج العربي ابان الغزو البرتغالي ، ارجع الي دراستنا حول هذا الموضوع في ندوة الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي والعلاقة بين الخليج العربي وشرق افريقيا ط ١ ١٩٨٧

٣٦ ـ من أهم الدراسات التي كتبت عن مملكة هرمز وامرائها بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر الدراسة التي وضعها جان اوبان Jean Aubin Les princes d ormuz du XIII au XVE siecles - cf Journal Asitique CDXLI 1953

٣٧ ـ عبد اللطيف الحميدان : التاريخ السياسي لامارة الجبور في نجد شرق الجزيرة العربي ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة البصرة ١٩٨٠

٣٨ ـ Fredoun Adamyiat. Bahrein Islands A legal and Diplomatic British Iranian Controversy New York 1954 p 14

٣٩ ـ علي عبد الرحمن ابا حسين : من تاريخ البحرين خلال المخطوطات والوثائق ، من بحوث الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية ابوظبي نوفمبر ١٩٧٩ ص ٢٤٦

٤٠ ـ سالم بن حمود السيابي : عمان عبر التاريخ ج ٣ نشر وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان ، ١٩٨٦ ص ١٣٩ وما بعدها

٤١ ـ راجع بصدد ذلك مخطوطه المعولي : قصص واخبار جرت في عمان المصورة عن مكتبة المتحف البريطاني or 6568 ورقة رقم ٤٤ ومابعدها وكذلك ابن رزيق الفتح المبين ص ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ والسيابي : عمان عبر التاريخ ج ٣ ص ١٣٩ ومابعدها .

٤٢ ـ cf Commentaries of the Great Affonso Dalbouquerque vol. I.p. 75 see also manuel de Faria and Sousa vol. I Part II p. 126 Ff

٤٣ ـ Wendel Philips op. cit. p 38

٤٤ ـ مايلز : مصدر سبق ذكره ص ص ١٥٤ ـ ١٥٥

٤٥ ـ فالح حنظل : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٤٧

٤٦ ـ عبد العزيز الشناوي : دراسة سبق ذكرها ص ٦٢٦ ندوة تاريخ شرق الجزيرة العربية المجلد الثاني الدوحة ١٩٧٧

٤٧ ـ cf Manuel de Faria and Sousa vol. II p. 250

٤٨ ـ ويلسن : مصدر سبق ذكره ص ص ٦٩ ـ ٧٠

٤٩ ـ نفسه ص ٧١

٥٠ ـ عن خضوع هرمز للبرتغاليين انظر The book of Durate barbosa edited : by Mausil Dames vol I

pp 10 : 103 London 1918

٥١ ـ دونالد هولي : عمان ونهضتها الحديثة فؤاد حداد وعادل صلاحي ، ونشر مؤسسة ستايس الدولية (بدون تاريخ) ص ٢٩ ، انظر ايضا صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسي ، ترجمة احمد كمال حلمي وتحقيق بدر الدين عباس ، طبعة اولية الكويت ١٩٧٢ ص ص ٦١ ـ ٦٢

٥٢ ـ Travels of Pedro Teixiera with His Kings of Hormuz Trans by William Sinclair. Hakluyt Society 1902 pp. 265-266

٥٣ ـ جون كلي : بريطانيا والخليج ١٧٩٥ ـ ١٨٧٠ ، ترجمة محمد أمين عبد الله ونشر وزارة التراث القومي ، سلطنة عمان ١٩٧٩ ط ١

٥٤ ـ بكنجهام : بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان ، من حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ٦ ص١٩٢

٥٥ ـ عبد اللطيف الحميدان : انظر التاريخي السياسي لامارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية مجلة كلية الآداب ـ جامعة البصرة ١٩٨٠ ص

٥٦ ـ ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، انظر حوادث شهر محرم ٩٢٨هـ

٥٧ ـ Commentaries of the great Affonso Dalbouquerque vol. IV pp 165-174 192

٥٨ ـ ج ج لوريمر : دليل الخليج ـ القسم التاريخي ج ٣ الدوحة ٩١٦ ص ٢٦٧

٥٩ ـ صادق نشأت ، مرجع سبق ذكره ص ٦١ ، وكذلك ويلسن مصدر سبق ذكره ص ص ٧٩ ـ ٨٠

٦٠ ـ جمال زكريا قاسم : مرجع سبق ذكره ص ٧٩

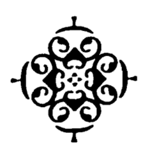
٦١ ـ ج ج لوريمر : مصدر سبق ذكره ج ١ ص ٩

٦٢ ـ Wendel Philips op. cit. p. 39 انظر ايضاما يلز مصدر سبق ذكره ص ١٨٦

٦٣ ـ احمد محمود صبحي : البحرين ودعوى ايران ، الاسكندرية ١٩٦٢ ص ٦٦ ـ ٦٧

٦٤ ـ حامد ربيع : النظام الدولي الاقليمي في منطقة الخليج العربي خلال فترة الاستعمار البرتغالي ص -٧

٦٥ ـ صالح اوزبران : البرتغاليون والاتراك العثمانيون في الخليج العربي ترجمة عبد الجبارناجي جامعة البصرة ١٩٧٩ ص ٣٣ ومابعدها .



شاعر اصيل من عصر النباهنة في عمان
سليمان بن سليمان النبهاني

الاستاذ الدكتور / علي جواد الطاهـــــــر

استاذ متقاعد

كلية الآداب - جامعة بغداد

المقدمـــة:

بقيت عمان مجهولة لأمد طويل من العصر الحديث بسبب مباشر من سياسة سلاطينها ، وعزلة ملحوظة على اهلها عن سائر الأقطار العربية فضلا عن أقطار العالم كله . أقول : ملحوظة ، لأنك لا تعدم دلائل على الصلة ان في الأدب وان في الحركة السياسية . وكانت " الثورة " علامة بارزة لذلك ، وعاملا من العوامل .

ولا غرو أن عد عام ١٩٧٠ بدء العصر الحديث فيها .

وفي هذا العصر الحديث دخلت معالم " المدينة " الى البلاد ، وزاد اتصال اهلها بالخارج ، وشرع العالم يعرف شيئا عما في الداخل ، كما شرع القطر ينبه لنفسه ، وفي التنبيه للنفس يبرز التراث المكتوب ، واذا غلب على هذا التراث الفقه وتاريخ الأئمة فللأدب حظ منه .

واختصت عمان بوزارة لا نظير لها في الوطن العربي ، هى وزارة التراث القومي والثقافة " لما زخرت به من مخطوطات متناثرة هنا وهناك وعند هذا وذاك وكأنها ضائعة ، فوجب حصرها وجمعها في مكان واحد (قدر الامكان) والعمل الجاد على تحقيقها ونشرها وقد عملت الوزارة واجادت .

وقامت الوزارات الأخرى بواجبها ، ومن تلك الوزارات ، وزارة الاعلام . أجل . ولعمان تاريخ حافل ، وأدب جم ، وتطور عمراني لا شك فيه وان جاء متأخرا . ولكننا بقينا – لسبب وآخر – بعيدين عن العلم به ، أو الالمام بما ندعي معه العالم ونجرؤ على الحديث عنه.

ولا بد من سبب جاد يدفع إلى هذا العلم أو الالمام . وقد وقع لي هذا السبب – واذا سمحت لنفسي بالحديث عن فرد – يوم عزمت مجلة " عالم الكتب " التي تصدر في " الرياض " على اصدار عدد خاص بـ " الكتاب الخليجي " ، رأى رئيس تحريرها الدكتور يحيى محمود ساعاتي أن " يستشيرني" الى الاسهام فيه منطلقا من قرب لي بـ " الكتاب السعودي " فاعتذرت متهيبا ، حريصا

على الوقت والحقيقة . فألحّ ، وقد أحسن لي بشفعته هذه بي . فكان أن كتبت " بحثا مطولا عن " الكتاب الخليجي" نشرته المجلة في عددين هما الرابع من المجلد الثالث (ربيع الآخر ١٤٠٣/ يناير ١٩٨٣) والأول من المجلد الرابع (رجب ١٤٠٣/ ابريل ١٩٨٣) وفي هذا العدد ورد الحديث عن " كتاب عمان " ، وقد كشف لي عن " كنز " ظل مجهولا لدينا ، وكان مفاجأة لم تمض دون لوم النفس مسؤولة كانت أم غير مسؤولة – على هذه الغفلة .

وربما خفف من درجة هذا اللوم ، اني حاولت أن ابقى قدر الامكان – غير بعيد عن الكتاب الخليجي . وكان لى في ذلك أن صدر لي " معجم المطبوعات العربية / السعودية " في جزئين (بغداد ١٩٨٥) مع نية صادقة على الاستمرار في " بحث " الكتاب الخليجي بغية التوسع في " مادة " عالم الكتب " لاصدارها في كتاب مستقل . وهذا يعني الاستمرار على تسقط أخبار الكتاب الخليجي فيما يصدر منه أو يكتب عنه . ورأيت من اخواننا المصريين الدكتور علي عبد الخالق علي أن نفذ الى عمان فوقف على ادبها واصدر كتابا بعنوان " الشعر العماني ... " – القاهرة – دار المعارف ، ١٩٨٤ ، ٢٤٤ ص . وقد اطلعت على الكتاب وافدت منه .

وتبقى النية الصادقة بانتظار التنفيذ ، والدوافع على التنفيذ وها هو ذاالدافع الأول يحصل بقرار " اتحاد الكتاب العرب " تخصيص ندوة للأدب في الخليج العربي تقام في " أبوظبي " بالتعاون مع اتحاد الكتاب والأدباء في الامارات العربية المتحدة ووزارة الاعلام والثقافة .

ويتفضل رئيس " اتحاد الكتاب العرب "(الاستاذ حميد سعيد) فيدعوني الى الاسهام ، ويكون الجواب الطبيعي للدعوة : بحث " الكتاب الادبي في الخليج العربي " وتجري الندوة يناير ١/١٠– ١/١٤/ ١٩٨٨م ويطلع المنتدون على البحث فيلقى صدى حسنا لم يلبث أن ازداد بعد سماع " موجزه " والمناقشة فيه واعلان أسفي الشديد على عزوف من يهمهم الأمر في وزارات الثقافة والاعلام لدول الخليج عن الاجابة عن أسئلتي .

ولا بأس .

فقد كان من حسنات الندوة الالتقاء بأفاضل الأدباء ، وبفاضل عماني من هؤلاء الفضلاء هو الاستاذ هلال محمد العامري ، وبفاضل قطري هو الدكتور / عبد الرحيم قافود (كافود) .

وقد رجوت الفاضل العماني – خصوصا – أن ينبهني على ما في مطلب " عمان من خطأ أو نقص . واذا كان الخطأ قليلا ، فقد يكون النقص غير قليل .

وانتهت " الندوة " على خير ما يكون وعدت الى بغداد . وقلت : لا بأس في اصدار البحث كتيبا منفردا ، ينفع وينبه ويستثير . وهكذا رحب به الاستاذ موسى كريدي رئيس تحرير سلسلة " الموسوعة الصغيرة " بدار الشؤون الثقافية العامة وقدمه الى المطبعة .

وحدث خلال ذلك أمران مهمان أولهما ما تفضل به الاستاذ هلال العامري من الاتصال بوزارة التراث القومي والثقافة لتهدي الي مجموعة قيمة من مطبوعاتها الأدبية والتاريخية . وثانيهما دعوة من رئاسة جامعة قطر للاسهام بموسمها الثقافي لعام ١٩٨٩م (بتوقيع الدكتور عبد الله جمعة الكبيسي مدير الجامعة بالنيابة) وورد في خلال المراسلات (مع الدكتورمحمد عبد الرحيم قافود عميد النشاط الطلابي ، والدكتور يحيى الجبوري الاستاذ العراقي في جامعة قطر) اشارات توحي بأن المفضل في الموضوع المختار للموسم الثقافي أن يأتي في مادة خليجية . فكان الجواب " الكتاب القطرى " وتم ذلك في الاسبوع الاول من آذار ، فكانت فرصة افدت فيها من " المكتبة القطرية " ، والتقيت خلالها بالدكتور علي عبد الخالق علي فأهداني – فيما أهداني – كتابا له عن الشاعر العماني : " الستالي – القاهرة ، توزيع دار المعارف ١٩٨٤ – ٢٤٤ ص .

وحاولت أن أفيد من الأمرين في تعديلات اجريها على كتاب " الموسوعة الصغيرة " فلم استطع ، وحاولت أن أشرف على تصحيح " تجربته " فلم استطع كذلك . وقد صدر الكتيب عام ١٩٨٩ بالرقم

(٢٠١) من السلسلة . ولا بأس فقد يعاد طبعه ، وقد يوسع ، وقد وقد .....

وها هي ذي فرصة لم تكن ضمن الذي كان في البال عندما وردت الـ " لا بأس . فقد تفضلت عمادة كلية الآداب بجامعة الامارات العربية المتحدة بالعين ، فدعت (بتوقيع الدكتور محمد ابراهيم حور) الى ندوتها الثانية : " مكانة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي - منذ سقوط بغداد الى الاستعمار البرتغالي (٦٥٦ - ١٠٦٤هـ ١٢٥٨ - ١٦٥٠م) " وكان الجواب الطبيعي العاجل لدى اختيار الموضوع أن يكون " الشعر العماني في عصر النباهنة " وبين يدي للموضوع ثلاثة دواوين للستالي والنبهاني والكيذاوي . ومضيت في الاعداد - بين شدة ورخاء - والصفحات تتزايد والحديث يتشعب حتى قارب المعدّ يعدل كتابا (أو كتيبا في الأقل) يخرج بحجمه عن مألوف بحوث الندوة . ومعنى هذا أن لا بد من أحد أمرين لدى الاختصار : الأول : ايجاز المجموع ، الثاني : التفصيل في مادة واحدة . واستقر التفضيل على الأمر الثاني ، واستقر تفضيل الأمر الثاني على " سليمان بن سليمان النبهاني " لاسباب اقلها انه أشعر الثلاثة ، وان لديه من الاصالة ما يخرج به عن نطاق المحلية العمانية .

وهكذا كان .

وتبقى " الخطة وما تفرضه - بعد المقدمة - من تمهيد يوجز تاريخ عمان وتاريخ النباهنة منه خصوصا " تفرضه طبيعة البحث وقل طبيعة العنوان بعد الذي عرفنا من عزلة طويلة الامد اكتنفت عمان في العصر الحديث ، حتى كادت تخفي معالمها على المثقفين . فضلا عن عامة القراء .

يلي ذلك فصول تفرضها مادة الديوان لتكون هكذا : حياة النبهاني في " التاريخ " حياته في ديوانه ، مفاخرة في مونية ، راية ، الفن الشعري ، خاتمة - ولا بد من عناية بالنصوص لجدة الموضوع وندرة الديوان : ولجمال في نصوص ترفع صاحبها الى درجات من الاصالة ، والى أن يبدوا " فريد عصره " في الوطن العربي كله ، ولا يبالغ من يلحقه بعصور الابدا ع طاويا ما بين القرنين التاسع والرابع من انحدار وفتوروافتعال ، عابرا - بعد ذلك - القرون اللاحقة بزمانه ليلتقي بالنهضة في

العصر الحديث ...

وهاهي ذي فرصة لم تكن ضمن الذي كان في البال عندما ماوردت الـ لابأس فقد تضلت عمادة كلية الآداب بجامعة الامارات العربية المتحدة بالعين ، فدعت (بتوقيع الدكتور محمد ابراهيم حور) الى ندوتها الثانية : مكانة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي - منذ سقوط بغداد الى الاستعمار البرتغالي (٦٥٦ - ١٠٦٤هـ / ٢٥٨ - ١٦٥٠م) وكان الجواب الطبيعي العاجل لدى اختيار الموضوع ان يكون الشعر العماني في عصر النباهنة وبين يدي الموضوع ثلاثة دواوين للستالي والنبهاني والكيداوي . ومضيت في الاعداد بين شدة ورخاء - والصفحات تتزايد والحديث يتشعب حتى قارب المعد يعدل كتابا (او كتيبا في الاقل) يخرج بحجمه عن مألوف بحوث الندوة . ومعنى هذا ان لابد من احد امرين لدى الاختصار : الاول : ايجاز المجموع الثاني التفصيل في مادة واحدة واستقر التفضيل على الامر الثاني ، واستقر تفضيل الامر الثاني على سليمان بن سليمان النبهاني لاسباب اقلها انه اشعر الثلاثة ، وان لديه من الاصالة مايخرج به عن نطاق المحلية العمانية وهكذا كان.

وتبقى الخطة وماتفرضه - بعد المقدمة - من تمهيد يوجز تاريخ عمان وتاريخ النباهنة منه خصوصا تفرضه طبيعة البحث وقل طبيعة العنوان بعد الذي عرفنا من عزلة طيولة منه خصوصا تفرضه طبيعة البحث وقل طبيعة العنوان بعد الذي عرفنا من عزلة طويلة الامد اكتنفت عمان في العصر الحديث ، حتى كادت تخفي معالمها على المثقفين . فضلا عن عامة القراء.

يلي ذلك فصول تفرضها مادة الديوان لتكون هكذا : حياة النبهاني في التاريخ حياته في ديوانه ، مفاخرة في موذية ، راية ، الفن الشعري . خاتمة ولابد من عناية خاصة بالنصوص لجدة الموضوع وندرة الديوان : ولحمال في نصوص ترفع صاحبها الى درجات الاصالة الى ان يبدو فريد عصره في الوطن العربي كله ، ولايبالغ من يلحقه بعصور الابدا ع طاويا مابين القرنين التاسع والرابع من انحدار وفتور وافتعال ، عابرا - بعد ذلك - القرون اللاحقة بزمانه ليلتقي بالنهضة في العصر

الحديث

وهنا ، يستميح مؤلف هذه الصفحات العذر حين يرى نفسه مكتشفا ، وأن يحس في هذه النفس ما يخالج المكتشفين من نشوة ومايحتويهم من بهجة .

٩ جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ

٦ كانون الثاني ١٩٩٠م

علي جواد الطاهر

أستاذ متقاعد

كلية الآداب - جامعة بغداد



التمهيـــد (١)

سكن العرب عمان مبكرا . واذا لم نقف عند التاريخ القديم جدا للمنطقة كلها منذ ما عرفنا عن السومريين ، رأينا اكثر المؤرخين العرب يشيرون الى العرب في المنطقة ، وأن اكثر الاخبار تتحدث عن هجرة يمانية (يمنية) حصلت لدى انهيار سد مأرب ، وأن مالك بن فهم الأزدي سار بقومه حتى دخل عمان وانتصر في معركة على جيش فارس تصدى له . ومن المؤرخين من يرد ذلك الى عام ٦٣٥ ق . م ، ومنهم من يرده الى عام ٤٠٠ ق . م ومضى العدد العربي - بعد ذلك - يزداد ، ونسل مالك بن فهم يتعاقب على الحكم والبقعة الجغرافية لنفوذهم تتسع

وحين انقضى ملك أولاد مالك ، انتقل الحكم الى آل الجلندي بن المستكبر من أولاد معولة بن شمس . وفي عهد الجلندي أو عهد ابنيه (عبد وجيفر) دخل الاسلام الى عمان مبكرا في عهد " الرسالة " .

وجاء البلاد - مبكرا كذلك - رجلان احدهما عبد الله بن أباض - ينشران مبدأ " المحكمة " الذي اقترن بابن اباض ونسب اليه فعرف بالاباضية ، واذا كانت الاباضية من الخوارج ، فانها تريد بكلمة " المحكمة " أن تتميز من الفرق الأخرى من ازارقة وصفرية ، أو تبتعد عنها ، أو عن التطرف في الأقل وكثرت الاباضية في البلاد وبقي الحكم في آل الجلندي وكادت البلاد تبدو منأى عن الحكم المركزي (الأموي) حتى قيام عبد اللملك بن مروان ، وكان الحجاج - والي العراق - يتابع ارسال

الجيوش الى عمان حتى قضى على آل الجلندي وجعل عمان ولاية تابعه له.

وظلت عمان تتربص الفرص حتى اذا ضعفت الخلافة وازداد الاباضيون قوة ثاروا وانتخبوا سنة ١٣٢ أول امام لهم : الجلندى بن مسعود بن جيفر الاسدى – وهو آحد أبناء الجلندى بن المستكبر – حكم سنتين وشهرا واحدا فقد قتل فى حرب شنها عليه العباسيون بقيادة خازم بن خزيمة، وانقطعت بقتله الامامة وبقيت البلاد تابعة لبنى العباس حتى عام ١٧٧.

وعاد الأئمة يتتابعون – فى عاصمتهم نزوى – بعد عام ١٧٧ : محمد بن أبى عفان الأزدى، والوارث بن كعب الخروصي، وغسان بن عبدالله، وعبدالملك بن حميد الازدى، والمهنا بن جيفر اليحمدي الخروصي، والصلت بن مالك الخروصي، وراشد اليحمدي الخروصي.

وفى عهد راشد اليحمدي الخروصي (٢٧٣ – ٢٧٧) ثارت العصبية القبلية بين القحطانية (واليها يرجع الازد، واليحمد. – والائمة، واكثر السكان والنزارية ثم اشتدت فى عهد عزان بن تميم الخروصي (٢٧٧ – ٢٨٠) وحاول المضريون (من نزار) خلع الامام الخروصى، فسير الامام اليهم جيشا واشتد عليهم، فاستنجدوا بالعامل العباسى (محمد بن بور) فانتصر هذا، وجعل على عمان عاملا اسمه احمد بن هلال نقل العاصمة من نزوى الى بهلا (بهلى).

وفى عام ٣١٧ جاء قرامطة من البحرين بقيادة أبى طاهر القرمطى فغلبوا على عمان، الى أن حكم بنو مكرم.

وتتابع الائمة خلال ذلك ، ويمكن ان نعد منهم اثني عشر اماما

وتنقطع الامامة عام ٣٢٢ بموت راشد بن الوليد.

وبقيت البلاد خاضعة للولاة مدة خمسة وستين عاما انتخب – بعدها – عام (٤٠٧) الخليل بن شاذان الخروصى اماما. وتوالى بعده أئمة يمكن آن نعد منهم تسعة منهم (الخليل بن عبدالله بن عمر

بن محمد بن الخليل بن شاذان) من أعاد العاصمة الى نزوى، وقهر الرستاق ونخل وجميع مدن الباطنة.

وفي عهد الامام الخليل بن عبدالله هذا، شرعت أسرة، عشيرة في نزوى تنتسب من الازد الى نبهان، تدل على وجودها، وتعرب عن مطامحها في الحكم فقاتلها الامام في نزوى وغلبها.

ولكن الامامة لم تبق على قوتها، وشرعت تضعف، وندخل القرن السادس مع أربعة أئمة من الرستاق ضعاف لايذكرهم التاريخ بشيء، وقد دبت الفوضى وتفرق الناس في عهدهم شيعا برزت بينهم (في عمان) طائفتان متنازعتان متخاصمتان.. فتهيأ بذلك جو مناسب للطامحين الطامعين في الحكم، ولم يكن في البلاد آنذاك مؤهلين لاهتبال الفرصة غير أولئك الذين سبق أن اعلنوا عن نفسهم وغرضهم في عهد الامام الخليل بن عبدالله فلم تواتهم الفرصة آنذاك، اما الآن فهي لهم وحدهم، لآل نبهان الذين سيطوحون بالامامة ويحكمون سادة أو ملوكا أو سلاطين حكما دنيويا يقع على الطرف الأبعد من الامامة (٢) والائمة.

وهكذا تم لهم الامر منذ أواسط القرن السادس ولم ينته الا في القرن الحادي عشر. وآل نبهان، أو النبهانيون، أو النباهنة من العتيك من الازد فهم شأن الغالب الطاغي على أهل عمان ينتهون - في نسبهم - الى يعرب بن قحطان.

ويصعب - أو يستحيل - على مؤرخ أن يدعي القدرة على كتابة تاريخ متصل الحلقات واضح المعالم لدولة النبهانة. يعترف بذلك المؤرخون أنفسهم، وفي مقدمتهم مؤرخ عمان الكبير العلامة الشيخ نور الدين ابو محمد عبد الله بن حميد السالمي صاحب كتاب «وهو الذي تهيأت له أمهات المصادر على تنوعها بين الادب والتاريخ والفقه... وقد استوقفته الحال فقال معللا اياها بأنه» وحيث كانت دولة هؤلاء مبنية على الاستبداد وقهر الناس بالجبرية لم نجد لدولتهم تاريخا.. « (٣) فهو يعزو الامر الى ماكانوا عليه من ظلم للرعية، وعداء صريح للائمة (ضمنا) والسالمي امام ميله - كما يجب - الى الائمة. ولكن ظلم الحاكم لا يمنع المؤرخين من كتابة تاريخه في زمانه أو بعده. له ان لم يكن عليه.

ويزيد الشيخ عبدالله السالمي ويقول : «وأهل عمان لا يعتنون بالتاريخ فلذلك غابت عنا أكثر اخبار الائمة فكيف بأخبار غيرهم».

وهذا قول رجل ثقة، ولكنه لا يمنع التعليق عليه لاننا نرى أهل عمان يعتنون بالتاريخ، ويكفي من ذلك مـاذكره الشيخ السالمى نفـه من مصادر، ومـا وصل الينا من هذه المصادر ومـا ورد منه فى «السير»... ان اخبار الائمة الكبار محفوظة فى اكثرها، والذي غابت عنا اخبارهم الائمة الضعاف خصوصا فمن لم يكن لهم شأن أو وجدوا فى زمن غلب فيه الحاكم «المدني».

ان الذى ذكره التاريخ من اخبار النباهنة نتف قليلة متقطعة محدودة لا تغني الباحث فتيلا. وربما كان الشيخ عبدالله السالمي اول من وقف حائرا وهو يؤلف كتابه «تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان» وانتهى فى تعليله كما على الوجه الذى رأيناه، بعد ان علل غلبتهم بأنها « ارادة الله تعالى من انفاذ أمره فى اهل عمان فانهم لما افترقوا فرقتين وصاروا طائفتين نزع الله دولتهم من أيديهم وسلط عليهم قوما من انفسهم يسومونهم سوء العذاب » فقدم بذلك التعليل الدينى الصرف لقيامهم عقوبة لتفرق اهل عمان وتناحرهم.. ثم زاد :

«قال فى كشف الغمة» : ولعل ملكهم كان يزيد على خمسمائة سنة. قال الا انه كان فيما بعد هذه السنين يعقدون للائمة والنباهنة ملوك فى شيىء من البلدان والائمة فى بلدان آخر، والله اعلم. واذا استقريت التواريخ اخبرك الحال أن بني نبهان ملكوا مرتين... (٥)

وقوله مرتين يعنى وقوع فاصل ما، أو فتور خلال حكمهم ما بين أواسط القرن السادس والعاشر. وهذا ما أكده مؤرخ آخر هو محمد السالمي حين رأى أن «حكم نبهان» جرى (٠٠٠) عل «دفعتين» كان بينهما فاصل غير قوي «(٦) يعلو فيه خصوصا حكم الائمة...

ولا يخلو تحديد الدفعتين أو المرحلتين مز صعوبة، ولكن الممكن أن يقال ان المرحلة الاولى بدأت

فى القرن السادس واستمرت طوال القرن السابع لتجدها امامة الحوارى بن مالك سنة ٨٠٩ فيتضح مقام الامامة طويلا فى القرن التاسع.

وهذا الطول من القرن التاسع يعني الفتور النبهاني بن مظفر، واذا كان سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني قد دفع الفتور بعنفوان خاص خلال مدة اذا صعب تحديدها فهى تتراوح بين عشر سنوات وربع قرن لا ختلاف المؤرخين فى تاريخ وفاته، وربما ذكروا لذلك العامين الآتيين ٩١٠، ٩١٥. ليعود بعده الفتور الى ما كان والى ما هو اشد مقابل تعاظم سلطان الامام.

ويدب الخلاف بين الائمة ويعتور قوتهم الضعف ايام الامام بركات بن محمد بن اسماعيل، وقد «بقى بركات عند المرتضين له حتى سنة ٩٦٤ اربع وستين وتسعمائة. وفى هذا الآوان عادت السلطة النبهانية الى سيرتها الاولى» (٧) بشخص سلطان بن محسن سليمان بن نبهان» وقد اتخذ مقره فى نزوى، وتوزع اخوته وانصاره... يحكمون ينقل والظاهرة وبهلى وصحار وسمائل والرستاق والفنيات. وتولت البرتغال الساحل (وفي الساحل : مسكد (مسقط) وصحار وجلفار وقريات) (٨).

وهذا عام ٩٦٤ يمثل بدء المرحلة الثانية من سلطنة النباهنة، وهذا سلطان ابن محسن يمثل أول ملوكها.

ومضت الامور بين رخاء وشدة، ووئام وخصام... واذا كان شأن الائمة فى شتات فلابد من يوم ينتبهون فيه لا نفسهم، ويظهر بينهم شخص قوى حكيم يوم ينحدر السلطان النبهانى فى الخلافات والضعف - وهذا هو الذي حصل حين ظهر فى الرستاق الامام ناصر بن مرشد «حفيد مالك بن أبي العرب الذى كان له الرستاق ايام النباهنة، وكأنه حكومة مستقلة، وقد عقدت له الامامة عام ١٠٢٤ (اربعة وعشرين بعد الالف) فكان مسكنه قصرى محلة من الرستاق (٩). ومضى يتوسع، ويفتح البلاد وبظهور الامام ناصر يلتقي فى الحاكم مجددا الامامة والسلطان. وهكذا ينتهي العهد النبهان على يده فى الربع

الاول من القرن الحادى عشر لينهض عهد جديد اسسه الامام ناصر بن مرشد باسم : العهد اليعربي، أو اليعاربة (١٠).

ونعود الى ماكنا فيه من أمر «النباهنة»... واذا كنا قد رأينا فى مصادر تأريخهم غيابا يكاد يكون تاما... فان مصادر أدبهم ليست فى حالها أحسن كثيرا واذا قال قائل : «وقد ازدهر الأدب والفن فى عهد النباهنة وشجعوا الشعر» (١١)

أرجعنا قوله الى التعميم، وطالبناه بالدليل، بعد طرح المدلول الحديث لكلمة «الفن». أما ماكان من مؤلفات فى الفقه – قد يتخللها شيىء من الادب – فهى من عمل الفقهاء – بعيدا عن السلطان الدنيوى، نذكر منها : (١٢)

«للكندي (أبوبكر احمد بن عبدالله بن موسى) – المصنف في ٢٤ مجلدا أو ٤١، والكفاية فى ٥١ مجلدا – وقيل ٧٠،

وللاصم (عثمان بن ابي عبد الله) – التاج فى ٥١ مجلدا، والبصيرة (بصيرة الايمان)، والنور (كتاب النور) ولولده عبدالله – الابانة والصكوك الكتابية، والرقاع فى احكام الرضاع ولحفيده (احمد بن سليمان بن عبدالله) – ابن النظر) – سلك الجمان فى سيرة أهل عمان (اربعة مجلدات)، ابو حميد فى التقليد (مجلدان) مرمى البصر فى جمع مختلف الاثر (اربعة مجلدات). وكان لابن النظر هذا ديوان يغلب عليه الغزل مزقه وعوضه بمنظومات فى الشريعة.

ومن هذه الكتب ما فقد مع الزمن، ولم يصل الينا الا اسمه أو وصفه. ومنها ما وصل ولكنه بقي سجين المكتبات الخاصة، ومنها ما حصلت عليه «وزارة التراث القومي والثقافة» وشرعت تصدره أجزاء متوالية كما هو الشأن مع المصنف «والتاج».

وتسـأل عن الشعر، والجواب ان الذى وصل منه قليل، ورد شيء منه متناثرا فى طوايا كتب

الفقه او التاريخ، ولايدل الذى وقفنا عليه منه على شاعرية تذكر. ويبقى - بعد ذلك - ثلاثة دواوين للستالي وسليمان بن سليمان النبهانى، والكيذاوي. الستالي للمرحلة الاولى من تاريخ النباهنة، والكيذاوي للمرحلة الثانية، والنبهاني لما بينهما مما عرفناه بالفتورين المرحلتين. واذا كان الشيخ السالمي قد قال وهو يتكلم على بني نبهان : « ... لم نجد لدولتهم تأريخا ولا لملوكهم ذكرا الا من ذكره الستالي منهم فى ديوانه...» فألمح بذلك الى ما فى الديوان من مادة يمكن ان ينتفع بها المؤرخون (١٣)، فان ذلك يصح على الديوانين الآخرين. وسنرى شيئا من هذا فى دراستنا هذه عن سليمان بن سليمان النبهانى، فضلا عما نرى فى الديوان من مادة لتأريخ الادب، وأمثلة على اصالة ظلت طويلا بعيدة عن الانظار، وقد حان الاعلان عنها.

المصـــادر

(١) أهم المصادر والمراجع فى كتابة هذا التمهيد = «تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان» للامام نور الدين عبدالله بن حميد السالمي. الجزء الأول. قام بطبعه وتصحيحه والتعليق عليه أبو اسحاق ابراهيم اطفيش الجزائري الميزابي، الطبعة الثانية، مطبعة الشباب، القاهرة ١٣٥٠. وقد تكرر طبعه بعد ذلك.

يليه كتابا ولده محمد – أبو بشير محمد شيبة بن نور الدين عبدالله بن محمد السالمي – «نهضة الأعيان بحرية عمان». القاهرة، مطابع دار الكاتب العربى د. ت

– عمان تاريخ يتكلم (بالاشتراك مع ناجي عساف)، دمشق المطبعة العمومية ١٩٦٣.

وكتابا السيّابى – الفقيه الشيخ سالم بن حمود بن شامس السيابي – «عمان عبر التاريخ»، الجزء الثالث، الطبعة الثانية ١٤٠٧/١٩٨٦، طبع فى القاهرة، مطابع سجل العرب.

– اسعاف الاعيان فى أنساب أهل عمان. دمشق – بيروت، منشورات المكتب الاسلامى ١٣٨٥/١٩٦٥

وكتاب مجهول المؤلف – عنوانه : تاريخ اهل عمان. تحقيق وشرح دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ط ٢، ١٤٠٦/١٩٨٦، القاهرة.

أمون للتجليد والطباعة. (وزارة التراث القومى والثقافة – عمان)

ولم يركاتب البحث ضرورة لاثقال الهامش بالاحالات، لما هو فى طبيعة كتابه "التمهيد" ولأن المادة التى نقلها فى هذا التمهيد مقررة لدى المؤلفين كلهم متفق عليها ويكاد يكون مصدرهم كلهم كتاب

«تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان» فهم يفيدون منه وينصون عليه وقد يشرحون ويوضحون..

ويزيد أنه رجع الى الاعلام – خير الدين الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٧٩ للالمام بالأعلام، والى معجم البلدان – ياقوت الحموي، بيروت، دار صادر.. للالمام بالبلدان زيادة على ما ثبته عز الدين التنوخي لدى شرحه الديوان وتحقيقه.

ووردت اشارات الى مراجع أخرى فى «المقدمة» منها بحث للكاتب نفسه فى مجلة «عالم الكتب» وفى كتيب بعنوان «عن الكتاب الأدبي فى الخليج العربي» وكتابا الدكتور على عبدالخالق علي «الشعر العماني» و «الستالي» ومنها دواوين الشعراء الثلاثة (الستالي، النبهاني، الكيذاوي).

وينظر كتاب شقائق النعمان ١٧٩/٢ ـ ١٩٧

واذا كانت هذه مصادر للتمهيد ومراجع، فهى المهم فى مصادر البحث (بعد ديوان الشاعر) ومراجعه في معنى ما تلقيه من أضواء على الشاعر وشعره لتزيد وضوحا وتفسر غامضا وتردم ثغرة وتهيىء جوا.

(٢) تحفة الأعيان – باب «انتقال الدولة الى بني نبهان » ٣٠٣/١ – ٣٤٩.

(٣) نفسه

(٤) نفسه ٣٠٤/١.

(٥) نفسه ٣٠٣/١. «وكشف الغمة» من مصادر الشيخ السالمي المهمة، واسمه الكامل «كشف الغمة لجامع الاخبار الانمة» لسرحان بن سعيد الشرجي الأزكوي (؟) (من عهد اليعاربة، بعد العهد النبهاني). والكتاب ضخم استل منه الاستاذ عبد المجيد القيسي جزءا «صغيرا» نشره بعنوان «تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الانمة»، جاء فى «مقدمته» لما في الطبعة الثانية ١٤٠٦/١٩٨٤، القاهرة. مطابع سجل العرب (عمان – وزارة التراث القومي

والثقافة) ان المؤلف مجهول لدينا، وأنه أراد بكتابه الدعوة الى عقيدته الاباضية. اما الذى استله المحقق من الكتاب فهو «الجزء الخاص بتاريخ عمان... فقط» «وهو وان يكن جزءا صغيرا منه الا انه من الوجهة التاريخية الصرفة أهم ما فى الكتاب» - جاء الجزء فى أكثر من (١٥٠) صفحة.

ونذكر - هنا - من مصادر عمان ومصادر السالمي ما أشار اليه المحقق وهو كتاب «قصص وأخبار جرت فى عمان» تحقيق عبد المنعم عامر، ط ٢، ١٤٠٣/١٩٨٣، القاهرة، مطابع سجل العرب (عمان - وزارة التراث القومي والثقافة) ويرى محققه أنه من تأليف أبي سليمان ابن محمد بن عامر بن راشد المعولي. وقد أفدنا من الكتابين.

(٦) عمان... تاريخ يتكلم، ٩٤

(٧) عمان عبر التاريخ ٣/١٣٥ - ١٤١.

(٨) ينظر تحفة الأعيان ١/٢٤٩، عمان عبر التاريخ ٣/١٦٥

(٩) عمان عبر التاريخ ٣/١٨٠ - ١٨٢، وتنظر التفصيلات فى "تحفة الاعيان"

(١٠) تنظر المصادر والمراجع المذكورة فى (١) من هذه الهوامش. و «سيرة الامام ناصر بن مرشد» بقلم عبد الله بن خلفان بن قيصر، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي، الطبعة الثانية ١٤٠٣/١٩٨٣، القاهرة، مطابع سجل العرب (عمان - وزارة التراث القومي والثقافة)

وكتاب قائم عليهم هو : «دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا (١٦٢٤ - ١٧٤١) تأليف عائشة السيار، بيروت، دار القدس ١٩٧٣.

(١١) عمان... تاريخ يتكلم ١٥٠.

(١٢) عن الكتاب الادبى فى الخليج العربى ص. ١١ - ١١١ عن تحفة الاعيان

(١٣) تحفة الاعيان : «لم نجد لدولتهم تاريخا ولا لملوكهم ذكرا الا ماذكره الستالي منهم فى ديوانه...»
١/٣٠٢ - ٣٠٤ ويزيد عددهم فى الديوان على ماذكره الشيخ السالمي هنا...



١ - حياته في التاريخ

اذا كان «التاريخ» قد أهمل تأريخ النباهنة وهم في قوتهم في الدفعتين الأولى والثانية، فالاولى أن يهملهم فيما بين الدفعتين من فتور. واذا كان سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني قد برز علما ناهضا خلال الفتور (١)، فان موقفه الجاد من الائمة كفيل بطمس معالمه واغفال ذكره، وربما كان كفيلا بذكر السيء من أفعاله أو تجسيم هذا السيىء أو تصديق ماقد يكون غير صحيح.

واذا كان مؤرخ علامة هو الشيخ نور الدين ابو محمد عبدالله بن حميد السالمي صاحب «تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان» ينص على ضيا ع أخبار النبهانة، ويزيد بالنص على إهمال تاريخ الائمة أنفسهم (٢)... فالاولى أن يضيع تاريخ سليمان بن سليمان، واستحال أن نعرف تاريخا لميلاده. أجل، وقد بحث «الزركلي» فعجز، ولكن كاتب مقدمة ديوانه في طبعته الثانية يرى الميلاد «في النصف الاول من القرن التاسع الهجرى (الرابع عشر للميلاد)...» (٣) ولم يذكر مصدره، ولا تدل الرؤية على أكثر من الرؤية، لأن المصادر (والمراجع) لا ترينا سليمان بن سليمان الا وهو فتى، شاب أو اكبر من شاب، منتقض شررا من تحت رماد فتور اسرته (٤) وقد دفعها الى زاوية النسيان سلطان الأئمة، ومضى هذا السلطان الامامي مع النباهنة الى درجة «تغريق» أموالهم واستعادتها لترجع الى أهلها واصحاب الحق فيها على أساس من ان السلطان النبهاني كان قد اغتصبها ظلما وعد وانا وطغيانا على ما يخالف الشرع. و «التغريق» مصطلح هذا معناه. وقد وقع الحكم هذا به ختاما اكيدا للدفعة الاولى من السلطان النبهاني وفي عهد امام قوى هو «عمر بن الخطاب بن محمد بن احمد بن شاذان بن صلت بن مالك الخروصي» بويع له في سنة خمس وثمانين وثمانمائة» (٦)

وتفصيل هذه الحال يبدأ من عنفوان السلطان النبهاني وتوارى الامامة، بل مما بين النباهنة والائمة من كروفر «فتارة ترتفع راية الامامة، وتارة تقوم الملكية، ولها كبكبة» واستمرت الغلبة للنباهنة

طويلا، واذا تنفس امام فمقدار ما يمكن تعليله بالمهادنة كما جرى للاماء !لحواري بن مالك وقد «بويع (٠٠٠) فى العهد النبهانى فى سنة ٨٠٩ تسع وثمانمائة (٠٠٠) فقام بواجب الشرع (٠٠) وأقام فى امامته ثلاثا وعشرين سنة (٠٠٠) ولم أجد شقاقا بينه وبين بني نبهان ولا ذكروا له حروبا، وهذا الوقت وقتهم، ولعلهم تهادنوا واياه، فان الائمة فى غالب عهد بني نبهان يكونون فى بلد، والسلطان النبهاني فى آخر» (٧)

ولانعرف شيئا عن سليمان بن سليمان بن مظفر في هذا التاريخ ولاعن عمره أو ميلاده فيه، ولكننا نعرف جيدا ان الزمام مازال بيد النباهنة يقدمون ويؤخرون ويتولى خلال ذلك أئمة لا أثر لهم ولا يكاد يعرف لهم تاريخ، فحين توفي الامام الحواريي سنة ٨٣٢ عقد اهل الفضل الامامة لا بنه مالك بنزوى ولم تطل امامته فقد توفي عام ٨٣٣، «ولم يعرف تحقيقا بعد موت مالك الحوارى ماذا صار حتى بويع الامام ابو الحسن – بن خميس بن عامر – فى شهر رمضان ٨٣٩ "(٨).

وربما جاءت امامة احمد بن محمد الزنجي فى الفاصل الزمنى بين الامامين (٩).

وتوفى الامام ابو الحسن بن خميس بن عامر فى سنة ٨٤٦ والامور فى يد بني نبهان (١٠).

وأقل ما فى القول : ان الا مور بيد نبهان، دلالته على قوتهم، وان السلطان لهم، وان الناشىء منهم ينشأ على هذا الذى يراه من «عز» أسرته وسلطانها.

أما معناه لدى المؤرخ الديني فاطلاق صفة «الجبابرة» (١١) على هؤلاء السلاطين، او الاستمرار على اطلاق هذه الصفة. وهو تطلق للذم والدلالة على عسفهم وظلمهم، أجل فـ :

«لما توفي الامام أبو الحسن بن خميس بن عامر فى سنة ٨٤٦، بقيت الامور فى يد بني نبهان يتلاعبون بها كيفما شاءوا، ويفعلون فى الامة كما تهوى أنفسهم، ورأوا ذلك هو العز والشرف. آغمارغلب عليهم الجهل واستمروا (١٢) للباطل، وكانت عقولهم مقصورة على كلمة السيد أو السلطان او

الملك، ولم يرفعوا رؤسهم الى أعلى من ذلك المستوى، فهوت المملكة العمانية وتحطمت أركانها، واصبحت تتناقص اطرافها، ويتقلص ظلها، وينضب معينها، وهم فى تيههم عاكفون على الشهوات، يتظالمون فيما بينهم، ويظلمون الرعية، ويمتصون الثروة أين وجدوها، ويستصفون أموال العباد ولا يبالون» (١٣)

لا بد من ان يكون فى هذه السطور غير قليل من الصحة، حتى لو تجاوزنا الحماسة الدينية للامامة فيها. واذا كانت هذه السنوات الاخيرة (من دفعتهم الاولى) تمثل مجدهم وبؤسهم، وانها يمكن أن تورث الناشىء فيهم معنى «المجد» بعيدا عن «البؤس» او المعنى العشائري فى أقل تقدير، اذا كانت كذلك، فان الذى يمكن ان يفسر جانب السلب فيها ماجاء بعدها – أو بسببها – من أحداث والناشىء الفتى الشاب او من تعدى طور الشباب يشهد عنفوان الحاكمين من أسرته وفيهم أبوه وجده، ويشهد مايؤول اليه هذا العنفوان من بؤس. وليكن هذا الفتى – الكهل سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني، ،ليكن بانتظار السلطنة أو فيها...

وها نحن أولاء فى سنة خمس وثمانين وثمانمائة وتعقد البيعة بالامامة لعمر بن الخطاب بن محمد بن احمد بن شاذان بن صلت بن مالك الخروصي «ف» فى سنة ٨٨٥ ضاق المسلمون بهم ذرعا، فاجتمعوا فيما بينهم وتشاوروا فى أمرهم، فاعتمدوا على مبايعة عمر بن الخطاب، فقام بالامر»

قام بالامر ومازال فى بني نبهان بقية من بقية، ويكفي ان يكون فيهم سليمان بن سليمان بن مظفر الذى يستكبر علو الامامة على أسرته ويستكثر ان يخرج مايراه حقه من يده، ويقضه زوال ملك بني نبهان الذى هو ملكه، فاذا الامام هو الاصل بعد ان كان الفرع، واذا الملك هو «الخارج» اذا انتقض على الامامة بعد ان كان «الامام» هو الذي يخرج على السلطنة. ان فى سليمان بن سليمان بن مظفر طموحا وحماسة وجرأة... حتى لولم يكن السلطان عند قيام الامام عمر بن الخطاب على تلك الصيغة من الحال واسبابها، فكيف وفي الروايات ما ينص على انه هو هو نفسه كان السلطان النبهاني على عمان يوم بيعة الامام عمر بن الخطاب أجل، وهذا ما حصل

بويع للامام عمر بن الخطاب سنة ٨٨٥ «فأقام سنة. وخرج عليه سلمان بن سليمان النبهاني فتواقعوا بحممت من وادى سمائل فانهزم الامام وعسكره».

أجل «فى سنة ٨٨٥ ... مبايعة عمر بن الخطاب... وكان السلطان اذ ذاك سليمان بن سليمان صعب الديوان الحماسي، فثار بجيشه، وخرج الامام برجاله. وكان الالتقاء ببلد حممت من وادى بنى رواحة، وهى التي تعرف الآن بالجناة – وكان اكثر انصار السلطان فى هذه البادرة هم بنو رواحة، وهم القوام بأمره، فانهزم الامام وعسكره...» (١٧)

واذا كان النباهنة على مارأينا من «جبروت» جرى نحو «الضعف» مقابل ضيق الناس بالحكم ونشاط الائمة... فالمنتظر الا يتمتع سليمان بن سليمان بنصره طويلا، وقد وقع المنتظر وما هو اكثر من المنتظر.

فقد «جدد» انصاز الامام عمر بن الخطاب «له البيعة مرة ثانية. فصال على النباهنة صولة الاسد الصائل، فمكنه الله تعالى منهم واورثه ارضهم وديارهم وقضى على اموالهم بالتغريق عشية الاربعاء لسبع خلون من جمادي الاخرى سنة سبع وثمانين وثمانمائة» (١٨) (٨٨٧)

ان انصار الامام حين انتصر عليهم سليمان بن سليمان اول مرة وانهزموا «رأوا انهم وقعوا فى كبيرة أمر، فلزمهم ان يتوبوا ويتراجعوا. ولعلهم كانوا استخفوا بالامر، فعوقبوا عليه، فجددوا البيعة له مرة ثانية فصال على النباهنة صولة، الاسد الباسل، فهزمهم هزيمة اتت على سحق قوتهم، واباد شملهم.

ولكن لم يذكر التاريخ اين وقعت الوقعة بينهم، ولاذكروا من قتل فيهم، فانه لابد أن تكون وقعت عليهم وقعة أو وقعات، أوجبت خضوعهم فانهم لا يخضعون بالهوينا ولا يكفي من المؤرخين مثل هذا التعبير. فان الذكر الذى يعتمد عليه ينبغي أن يكون واضحا، فانهم قد اشادوا بذكر نصر الامام

وانتصاره عليهم اجمالا.

وهذا الامام السالمي المؤرخ الكبير يقول :

وفى بني اليحمد من أسد الشرى	امام صدق كان يدعى عمرا
وقد قضى على بني نبهانا	جبابرا كانوا على عمانا...

لكن المؤرخين العمانيين يجازفون الحقائق غالبا...»

«والحال تدل على أن السلطنة النبهانية هنا وهت، ولم تعد تستطيع القيام فى وجه الامام لمعارضة حكمه القاضي بتغريق اموالهم، وتمزيق شملهم، وتمكن المسلمون من تنفيذ أحكام الشرع تمكنا تاما صحيحا لا هواده فيه..« (٢٠)

وها نحن اولاء نصل الى «التغريق» فى ظرفه التاريخي وقد اتضح معناه – للمرة الثانية – فهو يعنى حكم الشرع – الذى يمثله الامام المتمكن – فى أموال الحاكمين الظالمين الذين ابتزوا واحتازوا وملكوا وسلبوا ببطشهم وجبروتهم حقوق العامة لضعفهم، تستعاد هذه الاموال وكل ما غصب الحاكم الطاغية ليتوزعها أهلها المظلومون ويسترجعونها حلالهم لا نهم اصحابها الشرعيون الحقيقيون. اما مالا يعرف صاحبه من هذه الاموال، فهي للفقراء أو «لعزدولة المسلمين» الذين يتولاه الامام.

كان هذا فى جمادي الاخرة من سنة ٨٨٧ فى عهد الامام عمر بن الخطاب من بيعته الثانية. وقد اقام الامام للبت الشرعي بالحال وكيلين، ابا عبدالله محمد بن سليمان بن احمد بن مفرج كيلا «لمن ظلمه آل نبهان من المسلمين من اهل عمان، واحمد بن عمر بن مفرج وكيلا لملوك آل نبهان. فأفتى وكيل آل نبهان بأنه : « ... قد صح عندي وثبت لدي ان جميع الاموال والاملاك التي خلفها السيد المظفر بن سليمان بن نبهان على ولده سليمان وشركانه ثم خلفها سليمان كلها قد استهلكت بضمانات الديون التى جناها من مظالم الناس المجهول منهم والمعلوم. . «وقد أيد وكيل المظلومين الفتوى وشهد بذلك الشهود

وأيدها الامام فنفذت، وأعيدت الاموال الى مستحقيها، وأجل الباقي منها للامام...

ولنلاحظ ماورد من تفصيل فى احدى روايات التوكيل عمن «ظلم من المسلمين من اهل عمان الذين ظلمهم السادة الملوك من آل نبهان من لذن السلطان المظفر ابن سليمان بن المظفر بن نبهان الى آخر من ظلم من نسله وولد ولده الملكين سليمان بن سليمان وحسام بن سليمان » ففى ذلك ما قد يعنى أن سليمان بن سليمان كان ملكا ايام بيعة الامام عمر بن الخطاب، ومع سليمان فى الحكم أخوه الملك حسام بن سليمان (٢١) وقد يسند امكان الاستنتاج أن كلمة «ملك» أيام النباهنة ترادف كلمة «سلطان» فالسلطان ملك، والملك سلطان. ومثلهما كلمة «السيد» وملاحظة أخرى هي ان التغريق صعد الى جد سليمان بن سليمان وهو «المظفر».

ان كل شيء فى الجو يشير ويدل على نهاية السلطان النبهانى نهاية تامة لا رجعة اليه. فها هوذا سليمان مغلوب مكسور، لامال له ولآله كلهم ولا جاه، مذمومون مدحورون، وها هي ذي الامامة متمثلة بعمر بن الخطاب ومن حوله لها الدين والدنيا، تذكر جيدا ماعانت ايام الجبابرة من تشتت وهوان وتشرد وانقطاع أو ما يشبه الانقطاع حتى كان يداخلها اليأس من العودةثم انها مسؤولة عن الرعية والعدل فى الرعية...

ولم تكن مدة امامة عمر بن الخطاب قصيرة، ولئن اختلف في أمدها فقد قدرها مؤرخ ثقة هو الامام نور الدين عبد الله السالمي بـ «تسع سنوات تقريبا» (٢٢).

واذا تذكرنا قول الامام المؤرخ السالمي ان «اهل عمان لا يعتنون بالتاريخ فلذلك غابت هنا اكثر اخبار الائمة...» وجدنا الشاهد له هنا، حين مات امام كبير خطير هو عمر بن الخطاب ولم يسجل له تاريخ وفاة، وأقصى ما وصل اليه الشيخ السالمي ان قال. «... ثم مات عمر بن الخطاب وقبره بنزوى، ولم أجد تاريخا لموته الا ما قالوه فى ذكر الامام الذي بعده فان كانت بيعة هذا بعد موت هذا حالا فان امامة عمر تكون تسع سنين تقريبا والله اعلم. وفى سنة آربع وتسعين وثمانمائة بايعوا لمحمد

بن سليمان بن احمد بن مفرج القاضي البهلوي وكأنه عزل او اعتزل «(٢٣).

ويمكن ان يكون «لعزل او اعتزل» معنى، وقد يكون في هذا المعنى «وجود» لآل نبهان وأتباعهم فماكان حكم «التغريق» بالذي يمر دون احقاد وثارات وتربص بالفرص على مر السنين ومن يدري فلعل هذا الوجود» كان في تزايد، ولعل تزايده كان على حساب الامامة ممثلة بعمر بن الخطاب، والتزايد فى جانب الدنيا تناقص في جانب الدين. وقد يفسر - تزايد الدنيا ضياع تاريخ وفاة الامام عمر بن الخطاب قد. ومن المؤرخين (سالم بن حمود السيابي) من المح الى «وجود» النباهنة خطرا بعد التغريق، وخطرا منتظرا مخيفا : «لما انتهت الامور النبهانية، وتقرر حكم تغريق اموالهم، و... توفي الامام عمر بن الخطاب، وبقي في نفوس اهل الباطل من السؤ مابقي (...) بايع المسلمون محمد بن سليمان بن احمد بن مفرج القاضي البهلوي. ولم يطل عهده فانه من المحتمل انه رأى الامور تنظر اليه شزرا تبق من آبائه تغريق اموال الملوك النباهنة، والملوك مرهوبون من قبل سواد الامة فاعتزل عن الامامة او انهم عزلوه للاحوال التي يلاحظ وميض نارها. وما كل مجتهد مصيب، فان من الناس من لا تواطئهم الاحوال ولا تثبت لهم بحال، ولاسيما اذا اختلفت آراء الانصار، فان الامام بانصاره. اما وحده فلا يقدر على فعل تشترك فيه الامة. وهناك احوال تتلاعب فيها الاهواء... » (٢٤)

اشارة هذا المؤرخ الى «وجود» نبهاني اكثر من اشارة وهو يؤكد هنا ما قاله فى مرة سابقة جاء فيها » ... وخمدت الشرارة النبهانية، الا انها بقيت وميضا تحت الرماد » (٢٥)

وطبيعي اذ يكون شرر، فانما هو سليمان بن سليمان بن مظفر وقد رأينا طموحه وعناده و «ثوراته»، وليس سهلا عليه ان يستلم ويقطع الامل وترهبه الامامة وهو يعلم ما وراءه من انصار تضرروا بالتغريق، وان في انصار الامامة من يمكن ان يخشى العواقب، وان الامامة نفسها يمكن ان تضعف، وقد بدأت تضعف بالفعل. وما عزل - او اعتزال - محمد بن سليمان الا مما أمكن عزوه للحال.

وها هم اولا الائمة معه وبعده... يتضاءلون يوما حتى لا تكاد ترى لهم تاريخا أو تعلم عنهم

شيئا ذا بال فهذا الامام عمر الشريف اقام سنة – فى نزوى – وخرج الى بهلا (بهلى) فلما خرج من نزوى بايع اهل نزوى اماما بعده فقد عادوا الى محمد بن سليمان ثانية، ثم – ولا ندرى كم مكث محمد بن سليمان هذه المرة – بايعوا من بعده لا حمد بن عمر محمد (...) البهلوي ثم مات وقبره بنزوى ثم بايعوا لابي الحسن بن عبد السلام النزوى (٢٦)

وأقل ما تدل هذه الحال عليه هو اضطراب الامامة وارتباكها، وتشتت الرأى لدى أنصارها وتغلغل الفوضى بينهم وقد يضاف الى ذلك صراع بين نزوى وبهلى.. وتتحول هذه الاحوال – من ثم – لمصلحة المتربصين بالامامة، ولم يكن فى البلاد متربص اقوى من آل نبهان او غير آل نبهان، ولم يكن فى النباهنة اقوى و«اعند» من سليمان بن سليمان بن مظفر. وهاهوذا لايدع فرصة يستتب بها أمر الامام الجديد (ابي الحسن بن عبد السلام النزوي) فما كادت تمضى «سنة واحدة» بل «دون السنة» حتى «خرج عليه» (٢٧)

ويعود الشيخ السيابي ثالثة الى «الوميض النبهاني» فيقول – ضمن منطلقه الدينى –: «هنا – عند خروج سليمان على ابي الحسن بن عبد السلام – يتبين ما توخيناه من عزل الامام محمد بن سليمان وعمر الشريف ومن بعدهما، فان الوميض النبهاني يلمع تحت الرماد باتقاد، وله من اهل البغى أعضاد، ومن الجهلة والعوام أنصار واجناد، ولم يبينوا عنه شيئا «(٢٨)

ويحاول السيابي أن يزيد في شرح الحال فلم يكن لديه اكثر من أن «الذي يفهم من الاحوال ان السلطان عادت له قوة طرد بها ابن عبد السلام. وتولى الامر واستأسد. ولم تقم لا بن عبد السلام قائمة».

وكان من انصار سليمان في هذه المدة بنو رواح كما كانوا في المرة السابقة.

ولم يرد تاريخ لعودة القوة الى السلطان أو لثورته على الامام ابن عبد السلام ولكن «تسارع»

توالي الأئمة بعد موت عمر بن الخطاب ومنذ بيعة محمد بن سليمان سنة ٨٩٤. هذا التسارع يمكن ان يجعلنا نقرب مدة هؤلاء الائمة كلهم (خمستهم) بنحو من خمس سنوات ونجعل «ثورة» سليمان حوالي عام ٩٠٠

ونجهل ما كان من امر سليمان سلطانا بعد «ثورته» فعلا، ومدة وأقصى مالدينا ما قاله الشيخ نور الدين السالمي : «... بايعوا لابي الحسن بن عبد السلام النزوي. واقام دون السنة وخرج عليه سليمان بن سليمان النبهاني – وهو صاحب الديوان الغزلي الحماسي أنبأ فيه عن فصاحته وابان فيه عن بلاغته (٠٠) وبقي سليمان بن سليمان أياما ملكا بالقهر والجبرية متغلبا على من تحته بالسلطة والقهر ينسب اليه من الافعال ماليس بالجميل. ولم تطل أيامه... » (٢٩) وزاد السيابي أنه» لم يعتبر بالحال الذي صار عليه، ولم يتعظ بما وقع من الامام عمر بن الخطاب (٣٠) من امر غلبته وامر «التغريق».

واذا لم يكن لدينا ما ينفي هذه الاحكام، فليس لدينا ما يثبت العكس... وتزيد المصادر – وكلها دينية امامية – فى سوء سيرة سليمان بن سليمان وفسادها أو فساده حين تروى عنه صورة من ابشع الصور للفساد والحماقة والنزق:

«ان سليمان بن سليمان هجم على امرأة تغسل بفلج الغنتق، فخرجت من الفلج هاربة عنه عريانه. فجعل يعدو فى أثرها حتى وصل حارة الوادى فرآها محمد بن اسماعيل، فخرج اليه وقبضه عنها وصرعه على الارض حتى مضت المرأة ودخلت العقر فخلى سبيله. فعند ذلك فرح به المسلمون لما رأوا من قوته فى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فنصبوه اماما وذلك سنة ست وتسعمائة» (٣١) – ونسبة محمد بن اسماعيل : الحاضري وهو رجل من قضاعة بن مالك بن حمير...

أتصح هذه الرواية؟ ليس لدينا من الاخبار ما ينفيها حتى حين يشك بها المنطق آو يرفضها ولا تجري امور التاريخ كلها على المنطق. ولا مفر – بعد ذلك – لمن يريد ان يستقصي سيرة سليمان بن

سليمان بالمتسير من الاخبار الا ان يرويها دون تعليق بانتظار ما يستثير المناقشة من بطون كتب التاريخ.

ويعود السؤال عما آل اليه امر سليمان بن سليمان وامر النباهنة واعوانهم معه؟ ويقرب الجواب ماكان من شجاعة محمد بن اسماعيل - «والامامة من شرطها الشجاعة فلا امامة لجبان» (٣٢) ويأتي - مع ذلك - يقظة انصار الامامة وتنبههم لحالهم وما يجب ان يكونوا عليه في مواجهة السلطان.

وهذا ما حصل، ثم كان ان «ظهر امر المسلمين وأذل الله الجبابرة المعاندين» (٣٣)

قال الشيخ نور الدين السالمي ان الامام محمد بن اسماعيل الحاضري «قد حكم فى اموال بني رواحة الداخلين في الفتنة يوم قادوا سليمان بن سليمان ويوم قادوا مظفر بن سليمان. حكم بأن الذى اجترحه سليمان وولده صار ضمانة على من قادهم. وذلك الحكم فى يوم الاحد لثلاث ليال خلون من شهر شعبان سنة تسع وتسعمائة (٩٠٩) فاثبت العلماء حكمه (...).» (٣٤) - أي بعد ثلاث سنوات من بيعته اماما.

وقال الشيخ سالم السيابي : «لما تمكن قدم امامة محمد بن اسماعيل نظر فى احوال الجبابرة واعمالهم. وكان قد عرف عمل الامام عمر بن الخطاب (..) (٣٥) بالتغريق السابق. واذا كان الامام عمر بن الخطاب نظر الى الجبابرة من نبهان ولم ينظر الى من كانوا لهم اعوانا، فان الامام محمد بن اسماعيل الحاضري التفت (..) الى الاعوان، ومن بينهم بنو رواحة» فجاء يتمّم عملية عمر بن الخطاب» فيغرق اموال بني رواحة «فقد» قبضها (...) واضافها الى بيت المال واستغلها طيلة امامته، وكذا الائمة بعده» (٣٦). وهكذا شمل التغريق اموال النباهنة وأموال بني رواحة.

وتقف الاخبار عن سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني عند هذا التغريق الثانى الذى وقع فى شعبان ٩٠٩. ولم نعد نعرف امرا في كتب التاريخ سواها، كما لا نعرف نهايته وتاريخ وفاته.

وأقصى مالدينا من تاريخ وفاته ماذكره الزركلي : «نحو ٩١٠ هـ/ نحوه ١٥٠٥ م » (٣٧) ومصدره في التعريف به - مصدر وحيد - هو «تحفة الاعيان ٣٠٦/١ - ٣٠٨ » وليس فى «التحفة» ما ينص على تاريخ الوفاة او يقربها . وكان آخر ما رأيناه فيها خبر التغريق الثانى فى شعبان ٩٠٩.

وماذكرته مقدمة ديوان سليمان بن سليمان : «وتوفي سنة (٩١٥ هـ) (١٥١٠ م) » ولم تستند المقدمة التى وقعها « سليمان خلف الخروصي » الى اي مصدر .

ويبدو وان النباهنة بعد الهزيمة التى حلت بسليمان بن سليمان وبعد التغريق خمدت نارهم وزادت فترتهم عما كانت عليه قبل «هبات» سليمان حتى نسي ذكرهم ... دون ان يفقدوا الامل فى جولة جديدة. وقد تحقق لهم هذا الامل لدى خروج سلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان على الامام بركات من محمد بن اسماعيل الحاضري فتملك نزوى سنة ٩٦٤ اذا قصر التاريخ في تاريخ سليمان بن سليمان فقد يهيؤ لنا ديوانه ما لم يحفظه التاريخ.

المصــادر

١ – ينظر التمهيد – أعلاه

٢ – تحفة الاعيان ٣٠٣/١، ٣٠٤.

٣ – ديوان النبهاني ص ب ، والمقدمة بتوقيع سليمان خلف الخروصي.

٤ – عمان عبر التاريخ ١١٩/٣.

٥ – عمان عبر التاريخ ١٠٤/٣.

٦ – تاريخ عمان المقتبس.. ص ٧٣،

٧ – عمان عبر التاريخ ١٠٤/٣

٨ – عمان عبر التاريخ ١٠٦/٣

٩ – نفسه ١٠٦/٣

١٠ – نفسه ١٠٦/٣

١١ – تحفة الاعيان

١٢ – لعل الاصل : استمرأوا

١٣ – عمان عبر التاريخ ١٠٧/٣

١٤ – تاريخ عمان المقتبس ٧٢، قصص واخبار ٨٣، تاريخ اهل عمان ١٠١، تحفة الاعيان ٣٢١/١

١٥ – عمان عبر التاريخ ٣/١٠٧ « .. مبايعة عمر بن الخطاب.. وكان السلطان اذ ذاك سليمان بن سليمان صاحب الديوان الحماسي»

١٦ – تحفة الاعيان ١/٣٢١

١٧ – عمان عبر التاريخ ٣/١٠٧

وجاء في كتاب «قصص واخبار» ص ٨٤ «لما نصب (عمر بن الخطاب اماما) اقام سنة، وخرج عليه سليمان بن سليمان، فانكسر عمر. وعسكر بجهة من وادي سمايل، لعله وادي بني رواحه»

١٨ – التحفة ٣٢١. وقد وردت «التغريق» على : «التفريق»

١٩ – عمان عبر التاريخ ٣/١٠٧ – ١٠٨

٢٠ – نفسه ١٠٩

٢١ – تنظر تفصيلات «التغريق» في تاريخ عمان المقتبس ٧٢ – ٧٣ قصص واخبار ٨٣ – ٨٤، تحفة الاعيان ١/٣٢١ – ٣٢٥، عمان عبر التاريخ ٣/١١٠ – ١١٥

ولم يكن مستغربا على الحكم النبهاني قيام اخوين (او ثلاثة) بالملك في وقت واحد (يتقاسمون النفوذ...) وسنرى في الفصل القابل ما يجري بين الاخوين : سليمان وحسام.

٢٢ – تحفة الاعيان ١/٣٢٦

٢٣ – تحفة الاعيان ١/٣٢٥ – ٣٢٦ . وينظر تاريخ عمان المقتبس ٧٣، قصص واخبار ٨٤، تاريخ أهل عمان ١٠١.

٢٤ - عمان عبر العصور ٣/١١٦.

٢٥ - عمان عبر العصور ٣/١٠٩

٢٦ - ينظر تاريخ عمان المقتبس ٧٣، قصص واخبار ٨٤، تاريخ اهل عمان ١٠١، تحفة الاعيان ١/٣٢٦، عمان عبر العصور ٣/١١٥ - ١١٨ وتضطرب المصادر في نسب احمد بن عمر بن محمد، فيرد على الربحى او الزنجي او الزنجي ولابد من ان يكون مرد ذلك تصحيف النساخ.

٢٧ - نفسها وجاء فى كتاب «الفتح المبين فى سيرة السادة آلبوسعيديين» تأليف حميد بن محمد بن رزيق بن بخيت (١٢٧٤ هـ) ط ٢، تحقيق عبد المنعم عامرود. محمد مرسي عبدالله، القاهرة، آمون للتجليد والطباعة ١٤٠٤/١٩٨٤ (عمان - وزارة التراث القومي والثقافة) ٢٥٨ - ٢٥٩ : «عقد لابى الحسن بن عبدالسلام واقام في الامامة دون سنة/ فخرج عليه سليمان بن سليمان بن مظفر، فمات ابو الحسن عند خروج سليمان بن سليمان عليه»

٢٨ - عمان عبر التاريخ ٣/١١٩.

٢٩ - تحفة الاعيان ١/٣٢٦ ٣٢٨.

٣٠ عمان عبر التاريخ ٣/١١٩.

٣١ - تاريخ عمان المقتبس ٧٣ - ٧٤، تاريخ اهل عمان ١٠١، تحفة الاعيان ١/٣٢٨ وينظر قصص واخبار ٨٤ - ٨٥، وعمان عبر التاريخ ٣/ ١٢٠ والاصل واحد. وأورد ابن رزيق في «الفتح المبين...» ٢٥٩ رواية توحي بأن سليمان بن سليمان كان على خلل نفسي او عصبي وكأنه في طريقه الى ضرب من الجنون، قال : «ان سليمان بن سليمان بن مظفر

النبهاني لما كثر فساده في البلاد، وجوره في العباد، لم يزل يسمع هاتفا لايرى شخصه اذا خلا في غرفته التي هي بحصن بهلا، واذا تخلى من خاصته والعامة، يقول له : تمتعوا يابني نبهان اياما قليلة، فان ملككم سريع الزوال، فتأهبوا للارتحال أو مثل ماقال ذلك الهاتف له من المقال. فارتاع سليمان من ذلك وكثر حزنه، فقال له بعض خاصته الفساق، اراك ايها السلطان في ضيق فاوضح لي عن الحقيقة في هذه الطريقة (لعلها في هذه الطريق استقامة للسجع).

فلما اخبره بما يسمعه من الهاتف قال له : انها لوساوس، يوحي بها الشيطان على الجنان (؟)، فاذا اردت ان يذهب هذا الوسواس عنك، امض على حين غفلة من اهل بهلا الى نزوى، فان فيها ما يشتهيها قلبك وتقربه عينك. وفي حال ما قاله له صاحبه ذلك المقال ركب هو وصاحبه ناقتيهما الى نزوى، فد خلاها ليلا، فاقاما في بيت السلطنة الذى بناه فيها سليمان بن سليمان له خاصة.

فلما كان من صباح تلك الليلة، وقت صيام النهار، شهد سليمان امرأة تسعى الى فلج الغنتق، فترك صاحبه ،مضى اليها، في اثرها، وهي لا تشعربه، فهجم عليها قبل ان تخلع ثيابها للغسل، فهربت منه، فتبعها حتَّى اذا كانا دون حارة الوادي، وكان قد خرج محمد بن اسماعيل، فاستجارت به المرأة، وسألته ان يمنعه عنها. ققبض محمد بن اسماعيل على سليمان، ابن سليمان المذكور وصرعه الى الارض، ثم جرد خنجره على حنجرته فذبحه بها ودخلت المرأة الحجرة (الحجر) ودخل هو حلة العقر. فأخبر رجالها الخبر، فسرهم ما فعله في سليمان، وسر أهل الحواير (الحارات) وغيرهم ما فعله محمد في الفاسق الجائر، فنصبوه اماما...»

ويبد وعلى الرواية النهج القصصي في السرد وتوحي بالتزيد فضلا عما هو غير

صحيح ماجاء فيها من ذبح محمد بن اسماعيل لسليمان بن سليمان. وقد سبق ان كذب هذه النهاية الشيخ السيابي فى «عمان عبر التاريخ..» ٣/ ١٢٠.. «كما صحح لابن رزيق قوله عن محمد بن اسماعيل : «كان من أهل ازكى» بأن محمد بن اسماعيل «يسكن الحارة الغربية من سكة باب مرار» يقصد - من نزوى كما في تحفة الاعيان ١/ ٣٢٨.

٣٢ - عمان عبر التاريخ ٣/ ١٢٠

٣٣ - تحفة الاعيان ١/ ٣٢٨

٣٤ -تحفة الاعيان ١/ ٣٢٨ - ٣٢٩

٣٥ - عمان عبر التاريخ ٣/ ١٢١

٣٦ - عمان عبر التاريخ ٣/ ١٢٢

٣٧ - الاعلام للزركلى ط ٢٤، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٧٩، ٣/ ١٢٦ ومصدره تحفة الاعيان ١/ ٣٠٦ - ٣٠٨.

٢ - حياته في ديوانه

حفظ الديوان «١» أشياء من حياة صاحبه، وليس طبيعيا أن يحفظ الكثير الكثير، لأن الشعر في أساسه غير التاريخ، وانه يسجل اذ يسجل، صفحات روحية أو وجدانية – أن صح التعبير – وتمتد هذه الوجدانية لتلون ما هو وقائع تاريخية، تشير على طالب التاريخ منها الى أن ينظر اليها بهذا المنظار، وان يبقى هذا المنظار معه في صغيرها وكبيرها فضلا عن انها تؤرخ طرفا واحدا هو المتكلم أي الشاعر. وزاد في الأمر أن الأحداث – ولاسيما الخاصة التي عرضها الشعر – أي الشاعر – لم تعرضها كتب التاريخ، وفي هذه الظاهرة سلب وايجاب، أما السلب – وقد عرفناه – فهو في احادية المصدر وما يحتمل هذا المصدر من انحياز صاحبه لنفسه، وأما الايجاب فانها تزود الباحثين – وعلى أي حال – مادة لايجدونها في غير الديوان، وشيء خير من لاشيء، بانتظار مايجد من مخطوطات ونشر مخطوطات تؤيد أو تنفد.

لابد للباحث في الشعر عن التاريخ من هذا المنطلق، ولابد له – بعد ذلك – من استصفاء الأحداث التي تدل صدق في نفسها ونفس راويها، ويدخل في الاستصفاء دفع العنصر الخطابي عنها لتبقى مجردة أو كالمجردة...

وما كنا لنستعين بالديوان، أو لعرض ماجاء في الديوان مستقلا كما هو، لو عني التاريخ بسليمان بن سليمان النبهاني أميرا وسلطانا وشاعرا، وجاء فيه من الأخبار مايسد الثغرات. اننا – هنا نسد ثغرات التاريخ – قدر الامكان – بالشعر، على العكس مما كان ينتظر لوجاء من التاريخ شيء كثير وبلهجة الاعتدال والمنطق...

الخلاصة، وقد يكون هذا من العجيب، ان الذي ذكره الشاعر من أحداث حياته لم يقرب منها

التاريخ، وان الذي ذكره التاريخ لم يقرب منه الشاعر - ومن هنا تأتي محاولة البحث عن التكامل - في حدود الممكن، وفي هذه الحدود فوائد لاشك فيها.

نعرف عن عمان - من خارج الديوان ومن داخله - العلم والأدب والكتب. ونعرف عن الشاعر أنه من بيت الملك والسلطنة. وذهب التاريخ العماني - اولا - الى تعظيم شأن الأئمة والفقهاء ومادلت مؤلفاتهم على العلم والأدب والكتب، وذهب - ثانيا - الى الاستهانة بشأن النباهنة فهم أهل دنيا، وعداء للأئمة، وأهل ترف وفساد... ولانريد أن ننسب هذا الى المبالغة، ولكننا لانريد أن يفهم بعد النباهنة عن العلم والأدب والكتب بعدا تاما، ونريد - مستدلين في الأقل - بديوان واحد منهم، ولد ونشأ فيهم وهم فيب حالة ضعف وعهد فتور - أنهم لم يكونوا بعيدين عما نسميه اليوم مصادر الثقافة، ولم تكن قصورهم بغير خزائن للكتب تحتوي على الأساس من أمات التراث العربي، وفى رأس هذا التراث كتب التاريخ والأدب، وفي رأس كتب الأدب الدواوين.

وحين نقول هذا، نقول انه لابد من أن يفيد الناشىء في ظل هذه القصور من كنوز هذه الخزانات. ولم يأت قولنا هذا جزافا وانما هو ثمرة علمية لقراءة ديوان سليمان بن سليمان النبهاني تدل على عمق ماأفاده هذا الشاب، الأمير، المتأدب، الطامح الى الشعر لدى قراءاته واعجابه بما يقرأ، وحفظه بما يعجب به، والاستفادة من المحفوظ لدى الحديث والنظم.

ويمكن أن نحدد - في ضوء هذا - كتبا بأعيانها أو شعراء بأعيانهم نكتفي منهم - هنا - بامرىء القيس وطرفه وعمر بن أبي ربيعة وابن دريد والبحتري والمتنبي.

لم يشر الديوان الى تاريخ لميلاد الشاعر، واذا كنا نتمنى ذلك تمنيا فاننا نعرف أن ذلك لايدخل فى مهمة الشعر «٢». واذا كان «التاريخ» يشير الى أنه ولد في وقت من فتور السلطان النبهاني بازاء السلطان الامامي، وبخمود السلطان النبهاني وكأنه غير موجود حتى لو ورد هنا وهناك - ورودا عابرا - اسم سليمان أبو الشاعر، ومظفر جد الشاعر. ولا نريد أن نكذب التاريخ، ولكننا نستطيع أن

نستنبط أمرين – يعين عليهما الديوان – الأول أن الناشيء في بيت السلطنة هذه لايني يسمع مجد النباهنة الأول، ويغتذي المطالبة بالحق واستعادة المجد فيحتويه الطموح بانتظار الفرصة، أي فرصة. والثاني أن يتهيأ لهذا الناشيء الوقت – المناسب المسامح – للقراءة والاعجاب والحفظ، فهو طويل الاقامة في «قصره»، وفي القصر كتب مما يشاء ويحب، فليقرأ... ويحفظ، ويستعيد... ويتأثر، ويختزن حصيلة من المفردات يعينه على تركيبها مافقه قصدا – وبغير قصد – من تركيبات خوالد التراث.

وحين تأتي القراءة حبا وميلا... ونزهة فان الذي يثبت منها في النفس ماهو أقرب الى النفس وأدخل في مساربها. وفي النفس أمران السلطنة، ومع السلطنة الفخر، والشباب، ومع الشباب «الفراغ والجدة»... وهكذا نفذ المتنبي الى النفس يغذي طموحها، ونفذ امروء القيس وطرفة وعمر بن أبي ربيعه يملأون فراغها... ولابأس – مع ذلك – الشعر الجاهلي كله يتصدره زهير ولبيد ليريه أن ماحوله وما هو فيه من المرأة والطلل الناقة والفرس والصيد وبقر الوحش أجزاء لاتتجزأ من القصيدة العربية وتدخل هذه الأجزاء في بناء القصيدة ومسيرتها بما في ذلك: «دع ذا»... و «غريب» المفردات».

اما ابن دريد، في حكمه ونصائحه خاصة – فهو من «العائلة» عماني ابن عماني. ومع ابن دريد ما هو حوله من شعر يعاصره وشعراء يعاصرونه بمعانيهم ولغتهم تكرارا وتقليدا وصناعة ركة ولكنهم يبدون مثلا في عين الناشيء.

وأحس في نفسه ميلا الى النظم، فلينظم، ليبدأ، وتلك هي القاعدة، وشرع يقرزم.(٣) .. وكأنه ينطلق من شعر يعاصره تزيد فيه البدايات ركة وتكلفا.

وله قصائد ومقطوعات أخرى في غضون الديون يمكن لدارس أن يعيدها الى عهد «القرزمة» وأيام التدريب لركة فيها وخفاء فيما كان يجب ان يظهر ومجانية أحيانا.

من ذلك تلك المقطوعة التي مطلعها :

قف " بـوادي الـعـــــفـــــر " ثـم سـل	عـــن نوات الأعـــين الــــنـــجـــل
عن اصـــيـــحـــابي ومـــا فـــعلوا	يـــوم زمـــت لـــلـــنـــوى ابـــلـــي
فـــعـــسـى ألقى لـهـم خـــبـــرا	فـي رســـــوم الـدار والـطـلـل "٤"

ومنه القصيدة التي مطلعها (٥):

أرقت لســـجـع البكا والحـــمـــام	وحـــرمت طـيـب الـكرى فـي المنام

وقد جاء في حاشيتها « في النسخة الدغارية كتب الناسخ تحت هذه القصيدة انها مغلوطة كلها والله اعلم والصحيح ان من ابياتها ما هو غير موزون ولا واضح المعنى .

والقصيدة التي مطلعها (٦) :

يـا أيـهـــا الـغـــادي عـلـى	وجـنـاء تـامـكـة الـسـنـام

والمقطوعة ذات الابيات الاربعة :

كـم غـــداة الـقـــا	مـن طـفـلـة غـــفـلـة

قال المحقق : "هذه المقطوعة ليس لها في ابياتها الاربعة وزن ثابت .."

واذا اغفل الديوان تاريخ هذه القصائد ، واتبع طريق القوافي في التسلسل فزاد ذالك امر الباحث عن البدايات صعوبة فانه اخطأ مرة فقال " وقال..في البزاة والصيد والقنص في ايام صباه " (٧)

أطويت من دون الفـــتـــاة جناحـــا	اذ أزمـــعت عند الغـــداة رواحـــا
كـــلا ورب الراقـــصـــات الى منى	والسـاجـدين عـشـيـة وصـبـاحـا

مـــا أن جنحت لنســوة عن حـــبــهــا يـومـــا ولا جـــرت علينا جناحـــا

لوكنت ألقي للتـبـ ـصـ ـر منهـ ـجـا لم اعص فــيــهـا المشـفق النصـاحـا

بأبي ظعـــائن من ربيـــعـــة عـــامـــر يقـــرضن نعـــفى جـــردة فـــرمـــاحـــا

جـــاد الرباب من " الرباب " مـــعـــاهدا عـــريت وحـــالف رســـمـــهـــا الأرواحـــا

بيـضـاء يصـرعـهـا الصـبـا فـيـمـيـدها مـــشى النزيف ســـقي المدام الراحـــا

ولـع الأيانق والغـــراب ببـــينهـــا والبـــرق اذ نهض العـــشـــاء فـــلاحـــا

رضـــا لفـــيك لم انتـــعـــبت مـــبكرا تدعـــو الفـــريق الى الفـــراق صـــيـــاحـــا

ويـلـي عـلـيك أقـــال ربك قـل لـهـم ان الرحـــيل وان كـــرهت رواحـــا

ان كـــان ســـرك ياربـاب مـــحـــرمـــا ان كـــان ســـرك ياربـاب مـــحـــرمـــا

ولقـــد غـــدوت مـــســـومـنـا شـــوذانقـــا ولقـــد غـــدوت مـــســـومـــا شـــوذانقـــا

فـــترى القطاط لدى الغطاط مـــخـــافـــة ينـجـــون منه ولم يـجـــذب بداحـــا

فـــأصـــاب ثم ثمـــانيـــا وثمـــانيـــا فـــأصـــاب ثم ثمـــانيـــا وثمـــانيـــا

ثـم انـثـنـيـت الـى المدام منـادمـــا ثـم انـثـنـيـت الـى المدام منـادمـــا

وأنـــا ابـــن مـــن مـــلـــك الملـــوك ولـــم يـــدع وأنـــا ابـــن مـــن مـــلـــك الملـــوك ولـــم يـــدع

وأخي الذي خـضـعت له اسـد الشـرى وأخي الذي خـضـعت له اسـد الشـرى

وأنا مـحش الحـرب ان هى اخـمـدت وأنا مـحش الحـرب ان هى اخـمـدت

مـاسـدباب صنعـيـة الاغـدت مـاسـدباب صنعـيـة الاغـدت

وللقارىء او الدارس للقصيدة فائدتان : للتاريخ السياسي ، ولتاريخ شعر الشاعرفمن التاريخ السياسي يعلم ان الفتى في بحبوحة من العيش فهو بين نساء وخمر وصيد ولديه من المال ما يفيض به كرما

ولكن ما كان اسرته آنذاك من الحكم واكبر الظن انهم كانو بعيدين او مبعدين ـ عنه بدليل قوله

أرباب ان الدهر أهلك حـمـيـرا ولقـد يكون على الهـمـوم مـراحـا

والدهر يعـقب بؤسـه بنعـيـمـه ويعـيـد افـراح الورى اتراحـا

فهده اللهجة من يحتجن حزنا بـم ومن ينتضر نعيم الملك وهو في بؤس منه ويزير ما يوحي بأن ملك ابيه ـ على عظمة الاب صار فعلا ماضيا ومثله ملك اخيه :

وأنـا ابـن مـن مـلـك المـلـوك ولـم يـدع حـسـبـا لبـابا للملوك صـراحـا

وأنـا الـذي بـهـر المـلـوك أبـوه وفـتـوةومـرؤة وسـمـاحـا

وأخي الذي خـضـعت له اسـد الشـرى وعنت اليـه شـراسـة وكـفـاحـا

ونعرف ان أباه هو سليمان بن مظفر ، فمن أخوه المقصود فقد يكون له اخوة مر معنا في التاريخ منهم حسام

هذا مايقال بشان التاريخ السياسي ، اما ما توحيه القصيدة لمؤرخ شعر الشاعر فالبداية ، وشعر الصبا ـ كما نص الديوان ـ ولا يحتاج ذلك الى برهان حتى لو لم ينص الديوان ـويكفي قارئا

ما يرى من تكلف وركة .. ومحاولة النظم دون دلالة على تجربة معينة لان ربابُ من عرائس الشعر ومن صويحبات عمر بن ابي ربيعة في الاقل اما اذا كانت رمزا لفتاة بعينها فان الشعر لم يدل على صحة هذة الفتاة رمزا او حقيقة

وتوحي - كذلك - أنه متاثر - فيها بعصره ، ومن حوله من شعراء وليس فيهم الشاعر الشاعر وانما هم نظامون رصافون ولا يهم بعد ذلك ما يكتنف قولهم من ركة ، يزيدها ظهورا تكلف الجناس وما اكثره في القصيدة !

وحين تقع قصيدة ترجع الى عهد الصبي – الفتى قد قطع – قبلها – في التجريب وبما هو اقصر منها طولا واكثر تكلفا .. ولكن يكفيه - الآن - من هذه القصيدة دلالة على خطوة ثانية ولمحا الى ما ستكون عليه اغراض الشاعر مستمدة من حياته الخاصة.

ويسير في الطريق .

ولا أحسن – لدى التدريب من المعارضة ، او متابعة شاعر مشهور في قصيدة له ، زد على ان المعارضة من فنون العصر ، ولا حرج فيها ان لم تكن مدعاة فخر... فحاول وكرر وجرب المحاولة

ومن القريبين اليه نسبا وهو اليمني القحطاني وفخر وحماسة وهو الشجاع : عمر بن معد يكرب الزبيدي وقصيدته :

ليس الجمال بمئزر	فاعلم وان رديت بردا

فلينظم معارضا :

صرمت بالاعن سكي	نة هاجرا وسلوت هندا
لويت عن ام الربا	ب سوالفا بدلت صدا

اعـــــددتـلـلأضـــــيـــــافـده — مـــــا دفــــقـت لحـــــمـــــاوثـردا
عـــضـــبـــامـــتـى تـضـــرب بـه — فـــيـــقـل ليكـفـف قـــدك قـــدا

قـــد أرسـل الـعـــربـي امـــثـــا — لايـحـلـن لـدى عـــقـــدا
"لـيـس الجـــمـــال بـمـتـــزر — فــــاعـلـم وان رديـت بـردا
ان الجـــمـــال الـمـكـارم — ومــــآثـر أورثـن مـــجـــدا(٨)"

والركة بادية على القصيدة وحليبُ القرزمة يسيل على شفتيها . ولا نطيل فالامر طبيعي ، ولا بد من ان يزيد محصولة في القراءة والحفظ واللغة ، ويزيد قربه من فحول الشعراء العرب بد ءا بالجاهلين .. ثم يدفعه التجريب خطوة من الثقة فيخرج عن عصره ليعود- والعود احمد - الى الاصل .فهذا ما يمكن ان يستنبطه باحث عن البدايات حين يقع على قصائد تدل على ذلك ، ويأتي مع مواد الاستنباط ماعرف بعرائس الشعر مقترننا بمواقع من الجزيرة العربية (وليس من عمان) صارت عرائس كذلك فها هي ذي خولةٌ وُعالجُ

عـــرفـت لـعـــالـج فـــبـــبـطـن قـــو — رســـومــــا مـــثـل أسـطـار الـكـتـــاب
لخــــولـة وهـي بـهـكـنـة شـــمـــوع — يـؤود غـــصـنـهـــا خـــمـــر الـشـــبـــاب
فـــدع مــــالا انـتـــفـــاع بـه لـصـب — يـغــــرر فـي أدكــــار وانـتــــحــــال
وقـل يـارب خــــــــاويـــة نـــآة — كـظـهـــر الـتـــرس تـشـــرق بـالـســـراب
قـطـعـت بـأطـهـب الـعـــــثـنـون نـاج — نجـــيـب مـن أنـاعــــيـم نجـــاب
وقـــــد عـلـمـت مـلـوك الأرض أنـي — مـــقـــر الـفـخـــر والحـسـب الـلـبـــابُ ٩ُ

وفي هذه الابيات نجد مواقع من أطلال امرىء القيس ، وخولة طرفة البهكنة، ودعُ زهير ، وبيداء الجاهلين كلهم وفي البيداء الناقة ،وتجد وقد علم عمرو بن كلثوم ولو سرت لمحت عنترة في

وسيفي فيه حاجات الرقاب وبين هذا وهذا شيئ من ابن دريد واشياء من المتنبي ..

واذا كان في القصيدة ما يمكن ان يبعدها عن القرزمة ،فان التقليد – المباشر – يقلل من هذا البعد ، وما قيل فيها يمكن ان يقال في قصيدته :

أمـــــــــرتـبـع أم أنـت لـيـس بمـنـزل   أو شـــم بـــزنـــد أم وحـــى بـــجـــنـــدل

خليلي عـــوجـــا نمنح الربع ســـاعـــة   تحـيـة جـاز بالوفـا غـيـر مـؤتل [١٠]

فهي على البحر وروى لقصيدة امرىء القيس : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل – وكانت عروس الشعر فيها –هنا – : أسماء

ولهذه أمثال منها ما يذكر بالنابغة ومنها ما يذكر بغيره معارضة أو تأثرا ملحوظا ..يؤيد التقليد فيه ضمور شخصية الناظم وتردد عرائس الشعر وعرائس الواقع

وجل غرضنا من هذه الوقفة بيان ماكان الشاعر يشغل به الفصل الاول من حياته ،وانه حين يجد في الشعر سدا لفراغ ،فانه يجد فيه منفذا يطمئن وجوده بما يبثه من فخر بالأجداد والأباء ، ومايقيمه فيه من فخر وامل وطموح – هذا غير ما يدلنا عليه من فنون اللهو وفيها المرأة والصيد والخمر .ويبقى لدارس الشعر أن ينتضر ما تنبجس عنه هذه البدايات مما يمكن أن يكون اهلا للدراسة وستنبلج الملاحظة عند التقاء – أو امتزاج الخطوتين الاتيتين في الشعر وأحداث السلطنة وها هوذا يجمع ناسا من قومه حوله وينهض ثائرا وهو في أوج شبابه فيسود :

نـهـــــضـت بـعـبء الملك اذ أنـا نـاشـيء   وشـدت بيـوت المجـد فـوق النعـائم [١١]

وكلمة ناشء غير محدودة ولذا فسرناها بأوج الشباب لانه من غير الممكن للظروف الذي كان فيه أن ينهض ويثور ويسود وهو ناشيء ..وأوج الشباب التي اقترحناها تتعدى العشرين ولنا سند في ذلك قوله:

هـرقـت ولـم أبـلـغ ثـلاثـين حـــــجـــــة   نجـيـع الأعـادي في ظلام القـسـاطل [١٢]

وها هو ذا سلطان يتمكن من نزوى – أولا وله شمائل كذلك ، ويتخذها حاضرة له وهو لا يحدد لنا الاعادي أو بمعنى أدق الائمة بالنص ، ولم يذكر اسم عمر بن الخطاب بالاسم ويبقى –بعد ذلك – علمان هما عمان على وجه العموم ، واخوه حسام واتباعه على وجه الخصوص . ولانعرف توالي الاحداث ،ولكن المنطق يرجع البدء بحرب عُمانُ(وربما ربما، كان اخوه حسام آنذاك معه والى جواره يسنده ...) وان ترتبط عمان – اكثر ما ترتبط – بالائمة والفقهاء من اهل العقيدة والدين

والمنطق –مرة ثانية – آن يعاجله اعداؤه قبل ان يستقر حكمه ويطمئن أمره ويستشرى شره :

وعُمان اذ عتت واعصوصبت	قطعت كبرا وجهلا وحرق
وأتت تسحب مران القنا	فوق جرد سبق ضمر لحق
في الوف سبعة لو زاحمت	ركن " رضوى " انهد منه ما شهق
فتقدمت وتحتي سابق	لو يجاري لامع البرق سبق
ويكفي مشرفي باتر	مرهف الحدين مامس فلق
مستبدا لم أخف عاقبة	ليس خواض الوغى كالمرتفق
حين واري عثير الخيل السما	واستمر الطعن واستد القلق
ضاربا في جمعهم لم يغشني	في التقاء الجمع طيش ونزق
فابذعروا واشمعلوا هربا	رهبة من حد سيفي وسبق
كجراد عصف الريح به	فسعيد الحظ منهم من سبق
فتجاوزت بعفو عنهم	واذا ما ملك الحر عتق .... " (١٢)

والكلام – أقول ان الشعر فيه كالمعدوم –واضح فهو تقرير عن معركة يكتبه ملك خاض المعركة وانتصر وعفا.. ولم يسمِّ المعركة... ولكنه يتحدث في مكان اخر عن يوم الظفر :

.. ويوم الظفر اذ جاءت عمان تعالى فوق سابحة عراب

كتائب شرق والخضراء نقعا وتترك كل جيش في تباب

لقيتهم بعزم غير ناب وزند في الوقائع غير كاب

على ذي ميعة عبل جواد صريحي الأرومة والنصاب

وفي يمناي أبيض مشرفي طليق الحد ماض كالشهاب

فلا جيش للأعداء الا هزمته ولا قطر الا جست بالغزوات

ولو شئت كفاني وزير وخادم ولم الق نفسي في يد الهلكات

ولكن نفسي مرة ليس ترتضي سوى بيعها في الحمد والغمرات

براني رب العرش ذا خنزوانه شديدا على الأعداء ذا نقمات

أقول فلا أعيا بشيء أقوله اذا لم يف نو موعد بعدات

تناط حياة الدين والعلم والتقى وعز عمان كلها بحياتي "١٦"

وواضح ان حروبه ليست كلها مع ألائمة وحماة الدين فهو يحارب القبائل ، ويحارب الملوك حتى لو لانوا بالحصون"١٧" :

... فقل لأولي الحصون ألا رويدا سأمطركم غدا مطر العقاب

ويمضي في تهديده :

.. رويدا معشر الأملاك اني لمصبحكم بكاسات الحمام

ذروا سكنى الحصون وان تعالت ففاي بنائها للانهدام ...

ولا نعرف املاكا (ملوكا) في عمان – آنذاك – غير النباهنة والا يقصد بالأملاك ؟ اطلب ملك جدد ؟ ممكن . ولكنه يذكر – في أماكن اخرى أخاه شقيقه صنوه «أبا ناصر حساما» من طلاب الملك ، الاستقلال بالملك .

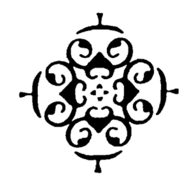
وهنا يفتح للتاريخ صفحة جديدة غابت عنه، وهي صفحة الصراع المسلح بين الاخوين الشقيقين ولدي سليمان بن مظفر النبهاني . وانه ليذكره بالاسم وبالكنية كذلك احيانامعترفا له بشجاعته .. (١٨)

ويبدو ان السبب المباشر كان في كلام قاس وجهه حسام لسليمان على اثر نميمة فآلمه ذلك ولكنه ابدى عقلا ومرونة في عتاب هادىء:

قـــولا لصنوي ذي العلى حـــســـام	رب الوغى ومـــخـــجل الغـــمـــام
والبطل الدعـــيس في الصـــدام	يابن الملوك الســـادة العظام
أجـلك اليـــوم عن الملام	مـــهـــلا لقـــد سـفـــهت لي أحـلامي
أوغـــرت قلبي منك بالكلام	ووقـــعـــه في القلب كـــالكلام
فـــقف ، هداك الله ، من همـــام	لقـــد أطبت أنفس الخـــصـــام
مـــا هكذا يا أفـــخـــر الكرام	جـــزاء صنو حـــافظ الذمـــام

ان متابعة سيرة هذا الشاعر السلطان ينتهي معه الى التعقل اوالعقل، فهذا هو ما يساوق أقواله وقد تقدم بالتجربة (ولايهمنا ان يدعي – بعد فوات الاوان –وهو في خضم التجربةالتي تفرض علية الحكمة– لايهمنا ان يدعي ان ذلك العقل له مذهو يافع)وهو لم ينكر ما كان له من لهو وطيش على مايشاء فتى ملك المال والجاه والجرأة والسلطان ، ولو انكره لالحنا على ازدواج الشخصية وعلى انه يقول في مكان شيئا ، ويفعل في مكان آخر اوفي المكان نفسه شيئا ضدا . انه الان في فسحة من الوقت يراجع فيها نفسه ويستعيد شريط حياته

وهنا ، هنا يسائل أينسجم ما آل اليه هذا الرجل الذي نهاه الشيب ووزعه عشر الاربعين بعد الحلو والمر الذي رآهما، والمرارة التي وقع فيها .. يسائل السائل اينسجم هذا وما رواه التاريخ من ان سليمان بن سليمان هجم على امرأة تغسل بفلج الغنتق ، فخرجت من الفلج هاربة منه عريانة ، فجعل يعدو في اثرها ... كل هذا والتاريخ يقول ان سليمان بن سليمان كان سلطانا آنذاك ؟



مر في شعره بأنه تحمل مسؤولية الملك ناشئا ، وانه مارس الحرب غالبا دون الثلاثين دونها كثيرا ثم حين قاربها ملك بنزوى وسمائل وانتهاء بعمان كلها ، ورأى من الناس خيرا وشرا ، ولقي في الحياة حلوا ومرا ، وخلال المرتسبه الى نفسه فرأى « الشيب » يدركه ينهيه عن التصابي – ولات حين تصاب ء

وها هو ذا في عمره عشر الاربعين مخبر ايانا خلاصة العمر فهو اللاهي العابث نساء وخمرة ، وهو الشجاع الكريم الفاضل وهوَ ابن ذى التاج المليك تبعَ .. يحدثنا طويلا وتفصيلا في قصيدة بلغت خمسة وسبعين بيتا ، حتى اذا بلغ مقطعها الاخير قال :

من كل ما نال الملوك نلته | وكل حي للحتوف والثوى
والمرء لا ينفعه من ماله | الا الذي قدم فى سبل الهدى

لقد تحدث طويلا وخاض موضوعات متنوعة ، ولكن الملاحظ ان الفعل الغالب هو الفعل الماضي حتى انه لم يقل ً انا ملكً أو ً انا الملكً

وللمرء ان يقول – مع احتياط لابد منه – ان سليمان بن سليمان لم يعد ملكا وهو في عشر الاربعين من عمره ، وانه في جو من اليأس أسلمه الى استرجاع الماضي ليخرج من بعظة لنفسه ولغيره :

ًمن خاض عشر الأربعين عمره | ولم يزغ عن غيه فقد غوى "

وللقارىءان يحسب هذا من منطق الحياة وطبيعة الاشياء ، فلا بد للطيش من عقل ، ولا بد للعبث من ان ينتهي الى جد ، والغرور الى تواضع والحماقة الى حكمة ، وللقارىء في ذلك سند من قصيدة اخرى بلغت ستين بيتا ولا تكاد تجد فيها غيرُ الحكمةً ثمرة لمارسة احداث الزمانً ً وتجاريب ًريبه وصرفهً

... واذا الكريم كبت به أيامه رفضته رفض الاجرب الاخوان
والناس أعوان القوي لذاته وهم عليه اذا هوى أعوان
لا تشتمن ردي قوم غالهم صرف الردى وما تدين تدان
لم تحو حقك بالمزاح قائما بالجد يحوى حقه الطعان ...
سأفجأ أجناد الطغاة بفيلق من العزم مجد مردفات كتائبه
يسير به النصر الذي هو حزبه وتنجده النصر الذي هو صاحبه
فلا ملك يرتاد ما أنا طالب ولا يركب الصعب الذي أنا راكبه
اذا الليث لم يقدم على الهول جاسرا وان جل لم تقدم عليه ثعالبه
ونحن بنو ماء السماء ومن يكن أباه فأى المالكين يناسبه
ملكنا الورى بالسيف حتى قضاعت أعاجمه ذلت لنا وأعاربه

فما هذا ؟ ولماذا ؟

القصيدة تجيب عن الاسئلة ولا تجيب : فالشاعر يقول : انه فارق قومه واسرته لادراك شاؤ هو طالبه ، وماذا يمكن ان يكون الشاو غير الملك (الذي فقده) وماذا يطلب منُ هر موزبفارسُ غير العون العسكري ، اقتداء بجده سيف بن ذي يزنُ حين طلب العون من كسرى (على الاحباش) فأعانه فصفت له اليمن (وعاد الفرس الى بلادهم)

انه يفعل فعل جده ، ولابد من ان يكون مضطرا جدا بحيث لم يكن له في عمان مكان من السلطة ، وأعوان على الملك ، فهي بيد غيره ، من هم أعداؤه ، ولم يعرج الشاعر على هذه الحال ، ولم يعين أعداءه ، ولابد من ان يكون فيهم قبائل كانت مناصرة للنباهنة ومنهم ، وقبائل كانت - اوصارت معادية ولا بد من ان يكون فيها المناوىء الطبيعي الدائم المناوءة الطالب للتفرد بالحكم وهم الائمة والفقهاء وحماة الدين ، وقد قوي شأنهم وجمعوا شملهم على حين ضعف الملك النبهاني ...

هذا هو المكن الذي يعين على ذكره التاريخ في لقاء له مع الحال التي تعكسها القصيدة ويرد سؤال آخر ، عن زمن هذه الحال ؟ وطبيعي ان يصعب تحديدها اهي في النهضة الاولى لسليمان بن سليمان ؟ أم الثانية ؟ أم الاخيرة وقد تألب عليه اللؤماء واقترن تألبهم بقوة دبت في الامامة ؟

اذا استعنا بحس النقد الادبي رأينا في متانة القصيدة ما يضعها في سن متأخرة من عمر الشاعر وتجربته ثم ان في الاماكن التي يحي اليها ما يدل على مجد له مضى ، والطبيعي ان يقترن ذلك المجد بسلطنته .

وسؤال آخر عما أدى اليه سفره ؟ ليظل بدون جواب فليس لدينا في الشعر والتاريخ ما يجيب عن السؤال ، هل حصل على المساعدة ؟ هل عاد بها الى الحرب فالانتصار فالسلطان ؟ هل عاد خائبا فلاذ بالصمت يستذكر أيامه ، ويستخلص العبرة ، وتمضي به التجارب

ألا هبلتك يا " صعب " الهبول	أصاح أنت أم سكر ثميل
جمعت " مويذما " و " أبا شريح	ووافاك " الشوالم " و " والنقول "
وجئت لتملكن بهم " عمانا "	ورأيك - والعلى - رأى ضليل

ولا ندري ما جرى بعد هذا التهديد الخانق المتعالي الذي يصعب ان يمر دون اثارة المتجمعين لحرب هذا الملك المتجبر في نفسه ، وبدون ان تقع الحرب ، وقد تعود بالتهديد الى ما بدأنا به قيام سليمان بن سليمان وتمكنه من نزوى و شمائل فجاءه من الجموع من يبغي حربه وكسره فما استطاع فغلب الجمع وانتصر سليمان في بهلى وأزكى واتسع سلطانه .

وقد تبدأ بالتهديد مرحلة جديدة انتهت الى معركة انتصر بها فازداد غرورا فاذا هو مليك العرب ومليك الاملاك و مليك العرب والاعجام واذا كان مجده من مجد الازد ، فانه صار مجدا لهم .

انا سيد الازد الذي خضعت له	رقاب صعاب من ملوك أعاجم

ترى كيف صار مليك الأعجام ؟ ومن هم ؟ الاعجام - انذاك - الفرس ، فهل التحم معهم في مكان ما من عمان أو خارجها ؟ أو انه يبالغ في " احلام اليقظة " أو يشير الى تاريخ لا يخلو من غموض يختلط فيه الذي كان بالذي يريده ان يكون ؟ بل ان مجموع الاحداث منذ اشتداد عداوة قومه عليه ، وتخلى من عاتبهم على تخليهم عنه في وقت الحاجة اليهم ثم قتله اخاه ، وقد زادهم قوة واتحادا وزاده ضعفا وندما .. ان مجموع الاحداث يدل على خسارته وفقدانه السلطان في الديوان "قال في سفرالى هرموز بفارس " وقد نظم القصيدة - كما يبدو - وهو في "القسم " - وهي جزيرة في الخليج العربي كانت تسمى قديما كلوان " استجابة لخاطر مربه وهوى طرقه فحن وتشوق الى عمان واهله في حصن العميري وعقر نزوى وشرع بهلى واكناف الحوية والصوى وحبوب واخاشب وبطحاء الفليج - الحتين شديد لاهله بعدما حال دونهم بحر زخار هائج ، وبعد الحرب " " قفر تعوي به الذئاب ، كأنه الذي بين الساحل ونزوى ومهلى . ثم يأتي شرح الحال من السفر :

فــان أك قــد فــارقت قــومي وأســرتي	لا دراك شــأوشــاسع أنا طالبــه
فــقــبلي " ســيف " رب غــسـاب طوحت	به نيــة اذ أنكر الضــيم جــانبــه
تغــرب فــردا يطلب العــز جــاهدا	وفــاء بمثل اليم جــاشت غــوا ربه
فظل بعــــز يلفظ الدر تــاجـــه	بغــمــران واحلولت اليــه مــشــاربه
وقنا خـــواطر كلهــا خطيـــة	فــيـــهــا سنان كــالمنارة يلمع
وســوابق قب البطون كــأنهــا	ان ثار عــثــرها الذئاب الهـــرع
شــرف الملوك على العــبــاد لأنهم	قــوم اباحــهم الممــالك تبع
قــومي بنو مــا: الســمــاء وبوحــتي	هــود الــنـبـي نجــارها والمنبـع

ولنا اذا ضن الغـــــمـــــام مـــواهب — مــحـــمـــود تشـــفي اللهـــاة وتنفع

رفع الاله على النجـــوم مـــحلنا — والله يخـــفض من يشـــاء ويرفع

وبعد ،

فما الذي جرى له مع بني اللؤماء ؟

ان تهديده شديد واهانته اياهم اشد ، ولا يبدو غيظهم ، في سير الاحداث الماضية ، ما يخبو ، وطمعهم مما يتوقف .

ثم ان سليمان في العنفوان في قوته وحقده وغيظه .

ويعين منطق الاحداث – والاخلاق – حينئذ – وقوع الصدام ، هكذا يعني ولكننا لا نملك السند الاكيد . فما وصل الينا من أولئك خبر او رأي ، واذا وصل الينا عن سليمان فخر متصل بانتصاراته على الاعداء فانه لم يشخص اولئك الاعداء ولم يربط انتصاره " باللؤماء " الذي التف حول أخيه .

وما فتىء سليمان يتحدث عن حروبه دفاعا عن نفسه او عن عمان كلها ، أو هجوما على آخرين من أجل ان يوسع ملكه وتستتب له عمان كلها . ولكن سليمان لا يربط ذلك بتاريخ ، وذلك مفهوم لانه ملك شاعر وليس مؤرخا ، ولابد من أن تكون هذه " الوقائع "جرت فعلا قبل يوم الحبيل الذي انتهى بقتله أخاه ، وقد المنا على تصورنا بشىء من تلك الوقائع ولا بد من ان تكون جرت بعد القتل . وحين يعوزنا تحديد الزمان والمكان لا يعوزنا ان نقف بالواقعة من حيث هي واقعة جرت – في مكان ما وزمن ما – بين سليمان وأعداء سليمان .

وفي الديوان يرد " مانع " وقد نسبناه الى ما قبل " يوم الحبيل "

ويرد " صعب " ، وقد تكون قيامته من قبل ، وقد تكون من بعد ، وهي تخلو من صلة بمانع "

فقد عمل صعب هذا – كما عمل مانع من قبل – من اجل ان يملك عمان فجمع جموعه وفيهم " موينع " وابو شريح " ولعلهما علمان لقبيلتين لانه يعطف عليهما . قبيلتين هما " الشوالم" و " النفول " ولا ندري الحرب أم لم تدر ، ولكن الواضح ان السلطان سليمان أنذرهم أشد الانذار ، وهددهم أشد التهديد – ومثله يقول ويفعل :

لا يبعدنك الله ربك راحلا   أضحى لنية ذاهب لا يرجع

ولعا بجدك من جواد عاثر   جد الزمان له عثور يظلع

لما اتاح لك الاله منية   فاذا المنية أقبلت لا تدفع

ولقد تقود الصافنات شوازبا   قبا تناقل في الشكيم وتمزع

ولقد تجود بما ملكت وما اغتدى   شاد بمدحك في المحافل يصدع

حسنت تأبين المصاقع مثل ما   حسنت مدحا فيك كان يرصع

أأخي اذلت مصون دمعي فانبرى   يطا الخدود اذا يجود ويهمع

اوحدتني وذهبت ثم تركتني   أبكي لفقدك كل قبر يوضع

كم ظللت على ضريحك باكيا   لو أن ذلك يا بان تبع ينفع

ولكم وقفت مسلما ومكلما   لو كان يعقل ميت أو يسمع

تفديك من حدث المنية أسرتي   يا ابن الملوك وكل مال أجمع

قد كان سيفك قبل يومك قاطعا   فغدا بيومك دابيا لا يقطع

احـــفظتني لفظا أتيح منيـــة ... خطرت ولم يك ثم عنهـا مــدفع

فـالله يجـزيك الجنان مـثـوبة ... منه وربك مهـو نعم المفــزع

فـلا بكينك مـا اسـتحن لالفـه ... الف ومـا غـدت الحـمـائم شـسـجع

أبلغ بني اللـؤمـاء ان مـهندى ... أمـضى السـيـوف وان عـزمي اقطع

هل فـيكم كـأخي لدى جـلالة ... وهو الذي أضـحى بسـيـفي مـصـرع

فـأنا النذير لكل قـوم بـعـدها ... مني بفـاقـرة تسح وتهـمـع

فـذروا التـعـاظم وواتقـوا مني فـتى ... كل الكمـاة لـه تذل وتخـضـع

لا فـرق بينكم وبين نسـائكم ... عـندي وهـن لدى منكم اشـجـع

وكـأنني بكم وقـد جـائتكم ... والبـيض تلمع والاسنة شـرع

كنعـاج توضع شـد فـيـها ضـيـغم ... فـغـدت نوافـر شـتـها لا يجـمع

أو كـالجـراد عـلا فـفـرق شـمله ... في ظل مـدجنة حـريق زعـزع

فـلا نقلن الى الطغـاة رحى ردى ... أبدا يدور به االزمـان المفـجع

ولا نشـئن غـمـائمـا من نقـمـة ... جـونا ووابلهـا الذعـاف المنقع

تهـمي فـأية لينة لم نتـقـعـر ... لـهـم وأية قـلـعـة لا تـقـلـع

كـيف التـذاذى بالرقـاد وهاهنا ... بيض مـعطشـة وطيـر جـوع

وفـوارس كـأسـود بيـشـة في الوغى ... لا تـنـثـنـي رهـبـا ولا تـتـكـعـكـع

هذه هي الحالة الباقية ولابد من علاجها ، ولا علاج بغير الاستصغار والاثارة والانذار ، ولابد من حربهم وهو المطمئن الى شجاعته والى شجاعة فوارسه بسيوفهم ورماحهم وخيولهم ..

اما بعد المصاب العظيم وانذارُ اللؤماءُ .. فالشعر ، فالقصيدة المعربة عن أرق عاطفة لا تتهم بثفاق وكأنها صادرة ام ثكلى ، وتمضي العاطفة الحزينة تسيل على الورق لفظا هو الدمع .. تذكرك بالحسناء تبكي أخاه صخرا دون أن تكون لها يد في نهايته ، وتذكرك – أكثر من ذلك – بالمهلهل يبكي أخاه كليبا ..

نبـــأ لـه تصلى القلوب وتخـــشع — وتفـيض بالعـبـر الجـفـون وتهـمع

نبــــأ تـكاد الأرض ترجـف عنده — وتكاد ثم جـبـــالهـــا تتـصـــدع

نبـــأ لـه طفق الملوك بغـــمـــه — حـيـــراء تلهف ليلهـــا وتفـــجع

احـســـام أو صب هم يومك خـــاطرى — والـهم يخطر بالقلوب فــــيلذع

أحـــســـام أوجـــعني رداك ولك أكن — قــدمـا ليـوجـعني مـصـاب مـوجع

أحـســـام عــز على فـقـــدك من أخ — عف الشـــمــــائل جــوده مـــا يقلع

لـلـه انت ربـيـب تـخـت اروعــــــا — قــــدمـــــا نماه ربيب تحت أروع

سـحـقـــا ليـومك كم اراق وكم شـجـــا — دمــعـــا وقـبـــلا قـــبله لا يـجـــزع

مـــا خلت ان الطود يحـــمل قـــبل ذا — حـــتى يمر على نـعـــشك يرفع

لا كـــــان يـومك يـا ابن ام فـــــانه — يوم أمـــر من الحـــمـــام وأفـــجع

لهـفي عليك كلهف جـيل اصـبـحـوا — تجـــتـــاحـــهم نوب الزمـــان وتقـــرع

لهفي عليك كلهف ضيف طارق ... ألفى مناخك وهو صفر بلقع

لهفي عليك كلهف راج اصبحت ... آماله بك؛ وهي حسرى ظلع

لهفي عليك كلهف حى لم يقم ... فيهم يضرك ما ذهب وينفع

لهفي عليك كلهف أم برة ... فقدت جنينا فهى ثكلى تنزع

لهفي عليك كلهف طفل قطعت ... منه العلائق فهو باك يفجع

لهفي عليك كلهف خيل اصبحت ... آذانها لمصابها بك تجدع

ضعضعتنا أسفا عليك ولم تكن ... لولا رداك لنكبة نتضعضع

ان أمس مأثوما بقتلك انني ... بك يا ابن سيد يعرب لمفجع

قطعت يدي عمدا يدي توهميتخليتم عنا ... من قبل ان يدا يدا لا تقطع

فطالت يدالعدى ... علينا وثار المستنيم المخاصم

أخيفوا قلوب القوم تخضع رقابهم ... لكم أبدا فالقوم صم صلادم

اميتوا نفوس الأمر منهم بصولة ... خويخية تنفض منها الحيازم

أريقوا عليهم وابلا من عقابكم ... عسى يقعد البغى الذى هو قائم

وان انتم لم تذعروهم بسطوة ... فما الأمر مسموع ولا الخوف لازم

اذا المرء لم يبدأ بهضم عدوه ... فلا بد يوما أن ترى وهو نادم

فكونوا كظنى فيكم ان لي بكم ... لظنا جميلا عهده متقادم

بقيتم ولا زال الآله مساعدا ... وظهرا لكم والله بروراحم

ولابد مما ليس منه بد . ان حساما يستعد ويستعدي وملح في طلب الحرب كأن لابد للماساة ان تجري الى نهايتهافقد نفد صبر سليمان ، وحول هذا وهذا طامحون طامعون وتقع الواقعة ، وتشتبك القنا وتتضارب السيوف ، ولا شك في شجاعة حسام وكرمه وجلال منزلته ، فها هو ذا اخوه عدوه يشهد له بذلك ويفوق في شهادته ما على ان يقوله حسام نفسه في نفسه .

ولكن بعد فوات الاوان .

فقد قتل حسام في المعركة .

قتله اخوه سليمان نفسه ، بسيفه

واعترف باثمه في ذلك .

واذا كان عذره في ذلك ان اخاه " احفظه لفظا " وانه لم يكن دفع المنية وهي مقدرة .. فان الموقف اصعب مما تحتمله نفس شاعرة عارفة لشأن الاخوة ، صحت على هول الحادث ، ولم يبق لها الا البكاء والتوجع ، وتمجيد محامد الفقيد واستعظام رؤية نعشه يمر عليه ، فاذا اللهفة تتبع اللهفة والشعور بالخسارة يزداد، ولايخلو الشعور بالخسارة في الندم ولات حين ندامة ولايجدي الدمع فتيلا، ولا يجد بكاء على ضريح او تسليم عليه وكلام معه ، واستعداد للعذاء.

المصيبة عظيمة والخطب جلل ..

ولم يبق الا ان يفزع الى الله يدعوه ان يجزى اخاه " الجنات مثوبة " فاذا جف الدمع واذا عاد الاخ المفجوع الى الحال بعد فقد أخيه ، ازداد حقدا للمبغضين الذين هاجوه عليه ودفعوه الى الحرب ، وجاءوا معه ينصرونه ، حتى اذا دارت رحى الحرب ، وبان نصر سليمان تركوا حساما مضرجا بدمه ، ولاذوا بالفرار .

نجيعا كأكباد الركاب رمت به ... شفاء الموافى والرماح اللهاذد

فجاؤا مجيء البحر عب عبابه ... وجئتنا كما يأتي الآتي المزاحم

فلما ترآى الفيلقان وازمعا ... قتالا وعنان الحمام حوائم

وكنا وبيت الله في العد دونهم ... رجالا وخيلا حين حم التصادم

فلما اطلخم الأمر قمت مجنبا ... لجفلة اذ لا غير ذي العرش عاصم

وظلت ادير الطرف في خيلي التي ... جمعت فلن انجح بما أنا شائم

فاصلت سيفي واتقاني توكلي ... على الله بالله هو حاكم

وايقنت اني لم امت قبل ساعتي ... وأني اذا لم أحم لم يحم حاجم

ومن لم يمت في العز مات مذمما ... ذليلا ولم تحسن عليه المآتم

فأقبلتهم وجهي وقد مال جمعهم ... على وعزمي لم تمته العظائم

أنشرهم فوق الحبيل ودونه ... كما انتثرت من صرتيها الدراهم

بضرب يبين الهام عن مستقرها ... وتنأى عن الأكتاف منه المعاصم

وطعن كأفواه المزاد تحللت ... وقد اترعت بالماء منها المحازم

وأشرعت رمحي طاعنا المدجج ... فأخليت منه سرجه وهو راغم

ونشئت كميا ثانيا متدرعا ... فخر صريعا وهو للأرض لاثم

وعارضت قرنا ثالثا فصرعته ... على رغمه وهو الشجاع المقاوم

وبادرت عكلي ابن عزيز بضربة ... فخر صريعا لم يقم فيه قائم

وطاغ قضاعي اطرت قذاله ... بسيفي ولم تحفظه مني التمائم

فظل عفيرا ناضحا بنجيعه ... تناهبه تحت العجاج القشاعم

فكلوا وملوا وابذعروا وأوجفوا ... فرارا كما فرت لعمري النعائم

وحاد حسام عن حسامي مهللا ... يروح ويغدوا وهو للنفس لائم

وأبت بسيفي قد تثلم حده ... وجفلة فيها الكلام مجاجم

وبي ما بها من طعنهم غير انني ... جليد اذا كلت هناك العزائم

فما يهدم الأعداء ما الله رافع ... ولا يرفعون الدهر ما الله هادم

واني وان سلمتم أو نصرتم ... لخلو فيي بالمودة دائم

اراكم بعين الود غيبا ومشهدا ... واسمو بكم والله بالغيب عالم

اعادي معاديكم وأهوى محبكم ... ولم يثنني عنكم عنول ولائم

فلم تخذلوني عند كل عظيمة ... وكفى بكم يا ال المروءة لازم

دعاك الهوى واستجهلتك المعالم ... وكيف تصابى المرء والشيب لازم

وقفت بربع الدار قد غير البلى ... معارفه والمدجنات السواجم

أسائله عن أهله ما دهاهم ... وهل يرجع التسآل سفع جواثم

ورسم قديم العهد بالكانه ... بقيات وحي نمقته الأعاجم

سقى منحا سبعا فبهلى فأختها ... فأزكى غيث داق من الغيث راهم

منازل نحميهن بالبيض والقنا ... وكل هذبد تتقيه الضراغم

اذا خشيت جارات قوم اهانة ... فجاراتنا فيهن عز كرائم

ويارب دوقد قطعت ومنهل ... وردت وجون الليل اسفع قاتم

ورب خميس قد هزمت ومائل ... اقمت وخصم دستة وهو راغم

اراكبها وجناء من سر شدقم ... ترضى الحصى اخفافها والمناسم

امون السرى راد الملاطين جسره ... ترامى بها افيافها والمخارم

ترف بجنى الشمائل مقدم ... على الهوى لا يخشى اذاه المسالم

اذا جئت بعد العشر قوما اعاظما ... تدين لهم فى الخافقين الاعاظم

كماة حماة لا يضام نزيلهم ... ولا يدعي ما يدعيه المراغم

صناديد ضرابين للهام في الوغى ... اذا صافحت بيض السيوف الجماجم

بهاليل جبريين شادت علاهم ... ظباه المواضحا والرماح اللهاذم

ابا سند قرم الملوك ابن زامل ... ومن يتقيه في المكر المصادم

وسيفا يروي كل سيف ودابل ... اذا احجمت خوف الحمام المقادم

وزامل رب الفضل والباس والوفا ... ومن قصرت عنه الملوك الأكارم

هم القوم سادوا كل حي وشيدوا ... مراتب لم تبلغ مداها النعائم

ليــــوث صناديد غـــيـــوث هواطل	جـبـــال منيـــفـــات بحـــار خـــضـــارم
هـم الأســـــد الا انـهـم فـي نـزالـهـم	تذل لهم اسـد العـــرين الضـــراغم
بحــور طوام غـــيـــر ان اكـــفـــهـم	اذا نخـــرت غـــاض البـــحـــور القـــمـــاقم
فـــمن شـــانهم حــوز المـــالك والعلى	ومن طبـــعـــهم بذل الندى والمكارم
ســاخـبـركم ياعـصـبـة الخـيـر بالذي	جرى بقضاء الله والليجر خميسا بحره متلاطم
اتانا حـــســـام مـــصلتـــا الحـــســـامـــه	يجـــر خـــمـــيـــســـا بحـــره مـــتـــلاطم
يؤمل ان يحـــوي عـــمـــانا بجـــمـــعـــه	ولـلـه حـكـم فـي البـــريـة قـــائـم
بيـــوم على حـــبل الحـــديد غـــدت به	تريق الظبـــا مـــالا تريق الغـــمـــائم

تفصيلاتها . وعرفنا – فيما عرفنا أنَّ عكليا ً اسم (لاحد أنصار حسام) وانه ابن عزيز . اما القضاعي فقد ورد ذكره مورد على ُقضاعي ً دون تفصيل ..

٥– وأرسل الى القوم ، وهم في مساكنهم الشرح مع من ائتمنه من جماعته على ذلك .

٦ – ونسأل عن السبب في هذا كله ؟ ونفهم من الكلام الذي حمله سليمان رسوله

أ – ما مر معنا ، من انهم لم يرتضوا وقوع المعركة ، ولعلهم عتبوا عليه ، وابتعدوا عنه على حين أنهم معددون من انصاره ، أو انه يعدهم كذلك .

ب – انه استعان بهم ، على أمر ودعاهم الى نصرته في هذا الامر ، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته وخذلوه وتخلوا عنه . فأضعف ذلك جانبه وأطمع الاعداء به فثار منهم من ثار عليه .

جـ – وهاهو ذا يدعوهم الى أن يكونوا الى جانبه مثنيا على مجدهم محاولا ازالة ما كان

السبب في صدهم عنه .

القصيدة محكمة من شتى جهاته شعرا وتاريخا ومنطقا – وهي ترينا سليمان غير ما أرانيه التاريخ . ويكفي من حكمته أن " يتنازل " فيترضى القوم ، ولو كان طائشا " راكبا رأسه " لركبه الحمق ، وخاطبهم خطاب الجاهل .

ونحن اذ ننقلها لانها ضرب من وثيقة تاريخية لا نملك غيرها ، وقد غلب الجانب السردي فيها على ما يطلبه الشعر من أناقة وتهذيب . فهي صفحة من النثر ، من التاريخ جاءت نظما . وجاء فوائدها ان عرفنا من شأن " العكلي " عزيز ، وان كنية سليمان بن سليمان : ابوعلي.

ان " يوم الحبيل " مجد لسليمان ، مازال يذكره ويذكر به ويزيد من تفصيلاته ، ولهجته توحي بالتصديق حتى حين تصدر من طرف واحد ، فكلامه تاريخ – حتى يرد العكس ، او يرد ما يناقشه – واذا كان لابد من الاحتياط ، فطرح مايرجع منه الى الحماسة والفخر الزائد ، لتبقى بعد ذلك الأحداث وحدها مجردة – وهي غير قليلة في تاريخ سليمان بن سليمان ، وتاريخ النباهنة وتاريخ عمان . ويكفي انها مما أهمله التاريخ .

يوم الحبيل " – أو يوم حبل الحديد ، كما يرد أحيانا – ليس حدثا طارئا ، وهو واقع ، ومن ادلة ذلك أن صاحبه ، سلطانه ، بطله ، شاعره يعيده على أسماع قوم من كبار قومه – حتى بعيدا عن حسام – في معرض يطلب الاعادة يشرحه – في هذه المرة – بهدوء المنطلق ، وعناية الشاعر ، وقد نضيف ثمرة العمر واملاء الشيب ، فهو يبدأ قصيدته هكذا :

دعاك الهوى واستجهلتك المعالم وكيف تصابى المرء والشيب لازم (٢٤)

فمن هؤلاء القوم الذي شرح لهم حاله مع أخيه حسام ؟ ولماذا ؟

ان القصيدة تقوم على الجواب ، وربما خفف " الشعر " من وضوح هذا الجواب ، واذا

غمضت بعض التفصيلات ، فلا يصعب المعنى الاجمالي لها ، وهذه نقاط المعنى الاجمالي – في حدود الممكن :

١ – جرى " يوم الحبيل " ووقع فيه ما وقع ..

٢ – فلم يرتض ذلك قوم من خيار الناس وكرامهم وشجعانهم .

بهاليل جبريين " – فهل تعني " جبريين " نسبة الى جبرين ؟ فهم من أهلها

أم تعني الذي ذهب اليه محقق الديوان " اهل جبروت بنت معاليهم السيوف المواضي والاسنة القواطع " ؟

اني أميل الى المعنى الاول .

٣ – وفي هؤلاء القوم أسماء معينة لها موقع الصدارة هي : زامل ، وأبو سند ابن زامل ، وسيف .

٤ – فرأى السلطان سليمان بن سليمان أن يشرح لهم الحال وأن يبين لهم الادلة التي دعته الى الحرب ، وهكذا مضى يسرد أحداث المعركة سردا " شعريا " هذه المرة مستوفيا .

والشوس تهتف بالرجال حماسة والجوم درع بنقع شاحن

في صارخ حرج كأن قتامه والبيض فيه هب ذى كواكب داجن

فسقيت أولهم بكأس مرة من حر موت في سناني كامن

فصرعته وشرعت رمحي خالجا لمجج لذوي الشجاعة غابن

فطعنت ، فهوى لحر جبينه مسربلا بنجيع جوف ساخن

فشككت آخره فجلجل رابعا مهوى ، وريه مصلت كالحاقن

وفتى عزيز قد هتكت بضربة / جلبت له قدر الثم انثنى عني بشأن شائن

وافي الي بشأن شأن جاسر / ثم انثنى عني بشأن شائن

وأخا قضاعة قد أطرت فراخه / بالقرن حتى خر أهون هائن

فربحت حمد الجحفلين بنجدتي / ان المحامد خير ربح الثامن

فتضعضعت عني الفوارس اذا رأت / حملات حيدر في غزاة هوازن

ورجعت بالقرن الخشيب مثلما / ودم على ثوبي هام هاتن

فغدا يقول شريفهم ووضيعهم / قولا يهيج كل ثاون كامن:

لله در أبي علي انه / احيا الندى وأمات كل مشاحن

بذل الطريف وصان عرضا طاهرا / والله يكسو الخزى وجه الخائن

لو كان غير أخي المحاول عثرتي / لسقيته كأس الحمام الآسن

اذ كنت اعلم ما معاد ومقلح / عما يحاول كالمعادي العادن

أبلغ حساما والحوادث جمة / من ذي حشى يغلي بنار ضغائن

ما بال دولتك التي أملتها / حادت ولم تقدم حياد الحارن

طارت بعقلك في قتالي عصبة / لم يأس اذ يمشي بجدو واهن

لازلت تدعوني نزال مجاهد / دعوى امرىء لدهاء غير الحاقن

حتى اذا ما الحرب شب لهيبها / وعلت كرهت مطاعني ومعايني

فعليك نفسك ألزمنها رشدها	وأقم مقام العاقل المتطامن
اني انا الموت لابد من	لقيانه والموت ليس بباتن
قسما لان لجانبي لمواثب	لاعاد ربك أي ثاو ماكن
والنصر من عند الاله قضى به	لي في الوقائع في قضاة الكائن(٢٣)

واضح أن سليمان يريد بهذه التفصيلات أن يبلي المعاذير كلها ، فلا يترك من يلومه اذا شبت الحرب ثانية وفعل فيها مافعل .

فقل لحسام راجع السلم تسلمن	ودع عنك تذكار الوغي والطوائل
فان طريق الحرب وعر مظلة	تؤول بباغيها الى غير طائل
فلا تطع اللاحين في السلم انما	قصارى انبعاث الحرب قطع المفاصل
ففي الحرب تفريق لكل بني اب	وحتف النفوس بالقنا والمناصل
أبادت بني ذبيان في لطم داحس	بعبس أضحوا من قتيل وقاتل
فلاتك بالحرب الكريهة جاهلا	فليس أخوك الندب فيها بجاهل
وما ابن أبيك الخير يوما بضارع	بحروب ولا نائي العزيمة ثاكل
ولست بوجاب الجنان اذا التقت	مغاوير فرسان الهياج الامائل
فلا تلجئني للقتال فانني	غيور وسمي مسرع في المقاتل
وكائن قتلت من شجاع مدجج	رفيع بناء المجد أروع باسل

ولم ينفع اللين ولم يجد النصح ، ولم يؤد الانذار الى ماصدر من أجله ، فحسام هو هو يستعد وينذر ، وحوله اللاحون المبغضون الطامعون . وعلى سليمان – ويبدو أنه الاخ الاكبر ، والاقوى الواثق من نفسه ثقة مشروعة – الا أن يتريث ، ويعود الى اللين والنصح والتحذير ، لان المسألة في ميزان العقل أعظم من ان يتهور فيها ويطيش صوابه لها ، على أن ترتفع اللهجة شدة وتزداد الرسالة تفصيلا وكأن ليس له الا ذاك أو انه سيضطر أخيرا الى ارتكاب مايلوم نفسه عليه قبل لوم الآخرين ، ولوم المؤرخ من خلال دونه .

وها هو ذا يبلغ أخاه موقفه في جلاء وكأنه الانذار الاخير الذي يستدعي اعادة مجرى " يوم الحبيل " بتفصيل جديد فيه دلالة وعبرة :

أنا سيد الاملاك غير مدافع — وحمام كل ممارس ومطاعن

كتب الاله على ذباب مهندى — أنت الحمام وفيك حين الحائن

اذا جاء منتضيا حساما كاسمه — غضبا ، ملامس حده لم يأمن

يهدي أزب كذى عباب زاخر — متكاثف ، مترادف ، متراطن

بصوارم مغربية ، ولها ذم — بدرية ، وصوافن فصوافن

وفوارس كأسود بيش فيهم — ضرب يبلد بالشجاع الدافن

فلبست لامتي المفاضة واثقا — بالظاهر المحيى المميت الباطن

وركبت جفلة والرماح شوارع — والخيل بين تضارب وتطاعن

فمن مبلغ عني حساما ألوكة — تبلغ معطاها لاهدي المذاهب

أبا ناصـــر لا تجـــهل الحـــروب انهـــا	لتـــقطيع أسـبـــاب الاخـــا والمناسب
أبا ناصــــر ان الحــــروب لصــــعـــبـــة	علـى راكب لـم يـلـق قــــدمـــا لـراكب
ألـم تـنـهك الحـــــرب التي سلـفت لنـا	بحـــبل الحـــديد ياكـــريم المناسب
ألـم أترك القـــرن الكمي مـــعـــفــرا	بجـــذيه مـــأمـــور اغـبـــار السلاهب
ألـم أنـهل القــــرن الخــشــيب غــراره	جـــيـــعـــا اذا خـــامت كـمـــاة اللواعب
ولـم البس الدرع الدلاص مـــخـــافـــة	وان لم تكن جـــربت حـــربي فـــحـــارب
ولـم أركب الشـــقـــاء كي اتقي بهـــا	ولكن لي في وثبـــهـــا بالتـــضـــارب
سل الحـــرب بي والخـــيل والليل والقنا	ولاجـــازع من مـــينة ، غـــيـــر هائب
فـفي السلم اطعـام العـفـاة سـجـيـتي	وبـيـض المـواضـي والايـادي الـرواتـب
ورأيك في حـــرب امــرىء غـــيـــر طائش	وفي الحـرب اطعـام النسـور السـواغب
لعـــمـــرك مـــا تلقى المكاره جـــاهلا	يصـــعـــد لتـــهـــيـــيج الهـــزبر المواثب
وخـيل كـأسـراب القطا قـد وزعـتـهـا	بأســـمـــر خطي وابيض قـــاضب

كلام سليمان واضح ومعقول .

ولكن أخاه حساما لا يستجيب ولا يقبل المنطق ولا يرجع عما عزم عليه ، وقد تكون له أسبابه التي لا نعرفها ، لاننا نتابع أقوال أحد الطرفين ونراها حكيمة ونكاد نرى فيها صدق اللهجة .

المهم – في التاريخ – أن حساما مضى يستعد ويهدد ، فيبلغ ذلك سليمان فيمضي في تحذيره ودعوته الى السلام ، ودعوته ليست عن ضعف ولكن عن قوة وتعقل ونظر في العواقب وحرص على وحدة

البيت النبهاني ، والا فسليمان شجاع مجرب ، عرفته الحروب مبكرا في فتاء العمر فكيف وهو الآن على أبواب الثلاثين :

هرقت ، ولم أبلغ ثلاثين حجة	نجيع الاعادي في ظلام القساطل
فكيف اذا قاربتها أو بلغتها	وصرت صليب الباع ضخم الكواهل
وغادرت ' عكليا ' تحن نساؤه	عليه حنين الفاقدات التواكل
وظل ' القضاعي ' المشوم مجدلا	فريسا لعقبان الوغي والفراعل
فلو أنني عاصرت عمرا وعامرا	لبلدت أقواما بتلك الاوائل
فظل القضاعي تحت العجاج	وللنجع نضح بأقرابه

فيامن يجاذبني في الفخار	فاني وذي العرش أولى به
أرح ويك نفسك مما رجوت	وخل العظيم لركابه(٢٠)

لقد انتصر في المعركة ، ويلاحظ أنه لم يذكر أخاه بالاسم . أترى ذلك رعاية له ؟ ولكننا عرفناه بـ ' المليك ' الذي فر ... أكان بامكان سليمان أن يقتل حساماولكنه لم يفعل. فسمح له بالفرا ر ؟ لقد كان ، ولكن ليس هذا وقت اعلانه . اما أشد الانتقام قولا وفعلا فقد صبه على المبغضين من انصار أخيه ممثلين بـ ' العكلى ' و ' القضاعى ' واكتفى من ذكرهما بنسبيهما الى قبيلتهما دون ذكر اسميهما نصا .

ان بالحدث التاريخي حاجة الى اعادة سرد وتفصيل ، وسيحصل هذا عند أول مناسبة جديدة والمناسبة حاصلة ولا شك ، لان حساما أخاه شقيقه لن يقعد عن سعيه الى الملك وعمله على الاطاحة

بأخيه وللاخذ بثأر استجد في الاقل ، واستجابة لوسائل التحريض وحكايات المبغضين .

وها هو ذا حسام يستعد ويهدد ويستعدي و " يزيد ويرعد " ويعد العدة لمعركة جديدة يلتف حوله انصاركثيرون طامعون ، وينتظر وينتظرون الانتصار فالملك فما هو يمنحهم اياه الملك من جاه ومال وكب العدو وغيظ الحسود واسترجاع الاسم ...

ويبلغ ذلك سليمان وليس صعبا ان يبلغه فهو الملك وهو الغالب نو الاعوان والانصار والخدم والحاشية . وكان بامكانه ان يفاجيء أخاه بجيشه وان يدهمه قبل ان يستكمل أمره ، ولكنه لم يفعل ، فيحقق لنفسه بذلك التأني من قاريء شعره مالم يحققه قاريء التأريخ فهو في التأريخ أحمق ، سفيه وهو هنا حكيم ، رصين ، ينظر في العواقب يبدأ بالتي هي أحسن ، فلعل الاحسن يبعد الويل ، فان أبعده فذلك الخير ، والا فهو معذور عما سيقع . وهذا المنهج الحميد المحمود ليس بدعا في تأريخ المعارك العربية مقابل مافي ذلك التأريخ من تسرع ، ونخوة في غير محلها ، وحروب لا معنى لها ، ثم اذا وجد من اثنى على التسرع أوفخر به ، فقد وجد من اثنى على " التريث " وفخر به .

وهاهو ذا سليمان بن سليمان يكتب الى أخيه حسام مخاطبا اياه بما يحب العرب أن يخاطبوا به من التكنية " أبا ناصر " ويذكره بالاخوة بمساويء الحرب بل يذكره بما جرت عليه المعركة السابقة في " يوم الحبيل " وليس ذلك عن ضعف فيه ، فهو الشجاع ، وقد شهدت المعركة نفسها له بهذه الشجاعة، ولا عن قلة في الاعوان :

وأنت عين الحاذق الهمام	ومنبع المعروف والأنعام
لازلت لي ظهرا مدى الايام	ولادهاك الدهر بالحمام
فقد لقيت العز عن ملامي	ولا تطع ذا البغض في اخترامي

فأنت عضب ليس بالكهام وسابق لم يكب في قتام

مني عليك أفضل السلام ونبي الله أولى بالسلام " ١٩ "

ان القاريء بازاء هذه الابيات وقل بازاء هذا الموقف .. يرى في سليمان بن سليمان شخصا جديدا على خلاف تام مما رواه عنه التاريخ ، وخلاف حتي مايعكسه غالب شعره. إنه عاقل حكيم أريب، مسامح ، مدار ، حريص على الاخوة ، معترف لاخيه بفضائل الشجاعة والهمة ، داعية الى تدبر الحال والترفع عن سماع مايختلفه المبغضون.

ولكن اللعين لم ينفع، وكان حسام قد املأ غيظا، ولعله كان ممتلئا طموحا ..

وكان الذين حوله ممتلئين حقدا وطمعا.

ولم يبق بد من الحرب. واذا كان لابد ، فما كان سليمان بالقاصر الذي تعوزه الشجاعة، أو الذي يتسهل مع الطامعين المؤلبين . وهذه هي المعركة في (يوم الحبيل):

ألا ليت صولة يوم الحبيل وقد كشر الموت عن نابه

وقد صاحت الحرب بالمعلمين ونادى الهياج بأصحابه

وقد جاش بالخيل بحر يموج فيرمي القروم بعبابه

وقد فر عن نارها المائقون وكل تكشف عن عابه

يشاهدني والقنا شرع وكل يكني بألقابه

رددت بسيفي خميس الكماة على أثريه وأعقابه

ومما شفاني عند اللقاء	فرار المليك وأنسابه
تناولت عكليهم في الهياج	فالثوسلحاب أثوابه

سقيتهم به كأس المنايا	وللأشقين جدر بالعقاب
وأبت وقد تفلل شفرتاه	وقد خضبت بنجيعهم ثيابي (١٤)..

ويتكرر يوم الظفر في قصيدة اخرى بتفصيلات جديدة قد كان من الشدة بحيث فر عن سليمان انصاره وتركوه فردا يجابه الاعداء:

ويو الظفر وهو أشد يوم	به عرف الكرام من اللئام
وقد جاءت عمان تقود جيشا	الى حربي كملتطم اللهام
واحجمت الفوارس من نزار	وقحطان وهم أسد الضرام
فجئت مجردا اذ ذاك سيفي	أنادي أين ذو البأس المحامي
فلما عاين الاعداء شخصي	وقد دب الردى بشبا حسامي
على نهد أقب ازج شهم	ظليمي الشظا ملء الحزام
رأوا موتا يلوح بكف موت	على قدر اوتيح على الانام
ولما موتا يلوح بكف موت	على قدر أوتيح على الأنام
ولما لم تجد الا حماما	او الهرب الامر من الحمام

تولت تتقي بالفر بأسي ... كما فرت مذعرة النعام

ولما آض عز القوم ذلا ... وأصلد زندهم بعد اضطرام

عفوت وكان مني العفو خلفا ... وذلك خلق مفضال همام(١٥)

ويوم الظفر هذا يوم من أيام أخري يعددها فيقول:

.. ألا سائل ألاقوام بالخيل هل نبا ... حسامي أم هل قصرت حملاتي

ضربت جموع القوم حتى تركتها ... أيادي سبا ممنوة بسبات

فما منهم الا قتيل مجندل ... تهادى شواه انؤب الفلوات

وآخر لايألوا كما فر فرزل ... نجا بجواد حين نجاة

فسلهم غدا \ الحشر يوم دهتهم ... بمجر لهام باسل وكماة

فلما ابذعروا والسيوف تنوشهم ... تغمدتهم بالصفح والحسنات

وبالعقر قد صالقت عامر صلقة ... تذاكرها السداوون في الندوات

وسل عن ضرامي يوم ازكى حاسرا ... بسيفي وقد فرت جميع حماتي

وبالمقيع المعروف طاعنت عامرا ... لدى الطعن حتي عار متن قناتي

لقيتهم وحدي وقد فر مانع ... وأصحابه كالأتن النعرات

طللت أنود القوم بالرمح مستح ... من الله أن أمضي عن الخفرات

وكم وقعة مشهورة قد شهدتها ... يقصر فيها المرء عن فعلاتي

الحـــــواشـــــي :

١ ـ صدر الديوان في طبعة اولى في دمشق ، المطبعة العمومية ، سنة ١٩٦٥ م بتحقيق عز الدين التنوخي . على النسخ الدغارية، والحمدية ، والمنذرية والسلمية والكندية وقد بذل الرجل جهدا مخلصا في المقابلة ، وزاد عليها شروحا نافعة جدا لقاريء الديوان وضح فيها المفردات الصعبة ، والتركيبات الغريبة ، ومايعنى ان يكون خاصا بأهل عمان من شؤون اللغة ، كما اشار الى مايمكن ان يعد خطأ وماهو من مستدق علم العروض ايجابا وسلبا .. وعرف بالمواقع معتمدا غالبا على معجم البلدان لياقوت، واستطاع ان يحدد – قدر الامكان ـ اما كن عمانية خاصة وردت لدى الشاعر العماني هذا .

ولابد من أن يكون الذين هيأوا للتنوخى النسخ واستعانوا به على التحقيق قوم من عمان نفسها، ومن غير الجهات الرسمية آنذاك.

ثم لابد من ان يكون هؤلاء قد ساعدوا التنوخي في تقريب الجو التاريخي وتحديد المواقع الجغرافية لان الرجل سوري من المجمع العلمى العربى بدمشق وهو لغوى اولا ..

لقد ادى القوم لشاعرهم خدمة ، وادى التنوخي لهم وللشاعر ولنا خدمة اخرى لابد من ذكرها ونشرها .

ثم ان وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان رأت ضرورة لاعادة طبع الديوان ـ وحسنا فعلت ، مشكورة فصدر عنها سنة ١٤٠٤ /١٩٨٤ (مصورا فيما ارى) في القاهرة ، امون للتجليد والطباعة ، رقم الايداع (في مصر) ٨٤/١٧٣٨

وقد رفع عنها اسم المحقق ـ ولا احسب هذا صحيحا ـ عن هذه الطبعة فجاءت غفلا عن المحقق ، تصدرتها مقدمه ـ بست صفحات اكثرها نصوص فى شعر الشاعر كتبها سليمان خلف

الخروصي (حرر في اليوم ٣ ربيع ١٤٠١/١هـ الموافق ١٠ يناير ١٩٨١ م).

ولم يرد اسم عز الدين التنوخيالا فى الفقرة الاخيرة من المقدمة ، ولم يرد على انه المحقق الذي حقق وبذلك فاستحق الذكر والشكر وانما ، وانما ورد هكذا وقد ذكر عز الدين التنوخي فقال: ان شعره يمتاز بجزالته (٠٠٠) انتهى كلام عز الذين التنوخى وهي لعمرى شهادة من علامة كبير يعرف تقييم الشعر ومستواه ونقده وكم كان مناسبا لو قرنت هذه الشهادة بالنص الصريح على فضله في التحقيق.

ثم ان المسألة ليست مسألة فضل على فاضل ، وانما هي مسألة علم ، والا فان الحديث مثلا ـ على النسخ المعتمد عليها في التحقيق ومن شرح المفردات وعرف المواقع والاعلام...؟

٢ ـ قال سليمان خلف الخروصي وهو يقدم للطبعة الثانية في الديوان (ص .ب) : ولد شاعرنا النبهاني في النصف الاول من القرن التاسع الهجري (الرابع عشر للميلاد.. وهذا اقصى مايقال عند غياب النص على التحديد بالعام ، ولايمنع باحثا آخر قد يرى الولادة في منتصف القرن، أو في النصف الثاني ـ والمسألة مسألة اجتهاد او تقدير غابت عن صاحبه الحقائق.

٣ ـ القرزمة ، قول الشعر رديئا.. وهو يقرزم.

٤ ـ الديوان ٢٣٥ ـ وادى العقر ، من أودية عمان..

٥ ـ الديوان ٣٠٩

٦ ـ الديوان ٢٩٨

٧ ـ الديوان ٦٨ ـ ٧٤ ـ والمواقع الواردة في القصيدة تقليدية في الشعر.

٨ ـ الديوان ٨٩ ـ ٩٢ ـ وينظر لقصيدة عمر بن معد يكرب حماسة ابي تمام .. شرح ديوان الحماسة ..

للمرزوقي وفي تحقيق احمد امين وعبد السلام هارون القاهرة ١٣٧١ /١٩٥١، ١/١٧٤ ـ ١٨٢

٩ ـ الديوان ١٣ ـ ١٦ ـ والمواقع من جزيرة العرب.

١٠ ـ الديوان ٢٠٤ ـ ٢٠٨

١١ ـ الديوان ٢٦٩

١٢ ـ الديوان ٢١٢ ـ ٢١٤ ـ يذكر اسم جغلة وسيتكرر ص ٢١٦. ونزوى ـ عاصمة عمان

١٣ ـ الديوان ١٧١ ـ ١٧٢

١٤ ـ الديوان ١٣ ـ ١٦ ـ يوم الظفر وقعة له بهذا الموضع غربي اللواء ، والضفر حديقة بنزوي ـ هـ . ص ٢٥٤

١٥ ـ الديوان ٢٤٩ ـ ٢٥٥

١٦ ـ الديوان ٤٦ ـ ٥٣ ـ العقر محلة بهلي ، وازكى : مدينة من اعمال الجبل الاخضر (ص ٢٩٢) أقدم بلد بعمان نزل بها من العرب بنو عدنان وقحطان. وبها الى اليوم حارتان يقال لاحدهما حارة اليمن يسكنها القحطانيون ، والاخرى حارة النزار يسكنها النزاريون العدنانيون ، وهدمت بريطانيا بناءها سنة ١٩٥٦ م ـ ص ٥٢) الميقع: موضوع بعمان . وبهلى وقد ترسم بهلا مدينة من اعمال الجبل الاخضر (ص ٢٩٢)

١٧ ـ الديوان ١٢ ، ٢٥٣

١٨ ـ اسمه حسام ، وكنيته أبو ناصر

١٩ ـ الديوان ٢٤٨ ـ ٢٤٩

٢٠ ـ الديوان ٣٠ ـ ٣٢ يوم الحبيل ، او الحبيل او حبل الحديد: مرتفع بين منح وبلدا العوامر ملح شرقي نزوى. بها وقعت معركة بين الاخوين وجاء في حاشية المنذرية أن الحبيل موضع فلج قديم شرقي المليك الوارد في القصيدة اخوه حسام عكلي والقضاعي سيتكران ، وهما من انصار حسام.. وفي حاشيه ص ٢١١ على عكلي انه منسوب الى قبيلة عكل ولعله من انصار حسام . ولاموجب لنسبته الى قبيلة عكل، لأنه يرد باسم : عكل ويرد اسم عكلي على أنه ـ عكلي بن عزيز (ص ٢٩٦) وفتى عزيز (ص ٣١٦) وقد قتله سليمان كما يرد عزيز كذلك في أنصار حسام.

وفي حاشية ص ٢١٢ القضاعي : المنسوب الى قضاعة من قبائل عمان ويرد ص ٢١٧ أخو قضاعة وقد قتله سليمان.

٢١ ـ الديوان ٢٨ ـ ٢٩ الشقاء : من شق الفرس اذا امال في جربه الى شبق فهو أشق وهي شقاء والشقاء ـ هنا ـ صفة لفرس سليمان بن سليمان وسبق ان اسمها : جفلة.

٢٢ ـ الديوان ٢١٢ ـ ٢١٣

٢٣ الديوان ٢١٤ ـ ٢٠٨ ـ ابو على هو سليمان بن سليمان.

٢٤ ـ ٢٩١ ـ ٢٩٨ ،ننقلها كاملة لدلالتها ، فهي نص تاريخي ـ أدبي ـ منح : مدينة جنوبي مدينة بركة الموز.

جاء في حاشية ٢٩٢ جبرين : أي آهل جبروت بنت معاليهم السيوف المواضي والاسنة القواطع وأحسب أن المقصود نسبتهم الى جبرين (التي ترد أحيانا يبرين على لغة من يقلب الجيم ياء) ولا يبعد أن يكون الاصل: جبرينين.

وفي الحاشية آبا سند اب زامل : آبا مفعول به لجنت . ويظهر أن آبا سندوسيفا وقومهما كانوا من أعوانه على أخيه حسام لذا اثنى عليهم كل الثناء

والذي يبدو لي يمكن ان يخالف ذلك ، فهم غير راضين عن سليمان (لامرما) وقد يكون هذا الامر حربه أخاه ، وهو يثني عليهم لا لأنهم أعانوه على أخيه ، وانما لأنهم غير راضين عنهم فأرسل اليهم يسترضيهم، وفي الاسترضاء الثناي

وتنظر ٣٣١ ـ ٣٣٤

٢٥ ـ الديوان ٤٨ ١ ـ ١٥٣ ، ننقلها كاملة لدلالتها التاريخية ـ النفسية ـ الادبية ـ ويرد فيها (بنو اللؤماء) ص ١٥٢ وينظر شرح الحماسة ١/٢٠١، ١/٢٠٢، ١/٢٠٧ (خصوصا)

٢٦ ـ الديوان ٥٢ ـ ٥٤

٢٧ ـ الديوان ٢٨٧ ـ ١٩٠

٢٨ ـ الديوان ٥٢ ـ ٥٣

٢٩ ـ الديوان ٢٧١

٣٠ ـ الديوان ٣٧ ـ ٣٨

٣١ ـ الديوان ٣١٨ ـ ٣٢٤

٣٢ ـ الديوان ٣٢٠

٣٣ ـ ينظر آخر الفصل السابق.

٣ ـ المفـــــاخـــــــر

مقدمـــــــة :

الفخر غرض بارز جدا في الشعر العربي ، ولابد من أن يكون مقبولا ، وان يقبل منه مايدخل في المبالغة أحيانا، وللظاهرة أسبابها بالطبع . ومنها الاجتماعي الصرف حين يفخر الشاعر بقومه ، ونسبه اعلاء لمجد قبيلته وقومه أو مقابلة لمفاخر آخر من قبيلة أخرى، أو دفعا لسبة أو اختلاق أو مزاحمة . والشاعر حين يفخر بقومه فكأنه يفخر بنفسه يرفع من شأنها ويعلن قوتها، ولكنه يفخر بنفسه كذلك فردا للاسباب التي تقع اجتماعية وحين يشعر بظلم أو حين يبلغ من رأيه بنفسه شأوا بعيدا في العظمة ولابد من أن يلتقي الفخران فيما بعد ـ في أغلب الاحيان.

وماهذه المقدمة الا من وحي فخر سليمان بن سليمان النبهاني حتى لك ألا تعدها مقدمة والا ماذا تطلب ـ أو تنتظر ضمن طبيعة الاشياء ـ من شاعر شاعر سلطان سلطان يحكم بواقع قبيلي صرف عمانا كلها في القرن التاسع ـ العاشر الهجري، بل يحكم على حين فتر النباهنة ونبغ فيهم نبوغا استعاد به لهم الحكم وخاض المعارك واضغف

أقوى مناوىء في البلاد للنباهنة كلهم وهم الائمة والفقهاء الذين لايريدون الحكم في عمان الا لهم ، ولمن يجمع السلطتين ليحكم بمقتضى الشريعة فهم والنباهنة في كروفر ، وظهور وتربص..

فاذا اضفت الى ذلك كونه شابا ورث من المال والجاه ماورث ومن الفرا غ والجدة مايبطر..

لمحت مفاخر أخرى ، يدخل فيها أي خلق يتخلق به ، وأي فعل يصدر عنه بما في ذلك ماقد لايرتضيه مجتمع ينشد التقوى والتواضع والامتنا ع عن المحرمات...

وهكذا جاء الفخر ابرز مافي الديوان، ولو حسبت الاغراض الأخرى فروعا منه وامتداد له ومعاني لكونه سلطان بن سلطان.. لأمكن ان تعد الديوان كله فخرا بما في ذلك الغزل والصيد والخمر ..

والحكمة.

وقد أدركنا كثيرا من هذا ونحن نقرأ شعره الذي يؤرخ - على غير قصيدة لنفسه ، فما كان ذلك في جملته الا صورة الفخر . واذا لاحظنا أنه هناك لم يتعرض صراحة للأئمة وللفخر عليهم مقابل مايضمرون - ويعلنون - له ولاسرته كلها من كره ونكران شرعية .. فاننا نلاحظ ذلك هنا ، ملاحظة فقط لندخل في الموضوعات الغالبة على الفخر غرضا .



١ ـ النسب

والنسب عند العربي ، القبيلي خاصة ، وموضوع أساس ، وشيء كبير لاغنى عنه في حياته ووجوده ، فكيف اذا كان سلطانا لعمان وهي مهما تبلغ من التحضر ومهما يكن الحكم السائد في تاريخها للائمة والفقهاء وحماة الدين والمذهب .. تبقى بطابعها العام قبيلة، وقبيلة جدا في كثير من الاحيان . حتى لتدخل هذه القبيلة في موضوع الامام المنتخب نفسه.

ولسليمان بن سليمان بن مظفر مايشاء من الفخر بنسبه القريب او البعيد حتى لكأنه ـ أحيانا يرسم شجرة ـ وقد عرفنا أن اسرته النبهانية يمنية الاصل جاءت ـ فيما يروي التاريخ ـ الى أرض عمان بعد خراب سد مأرب ، ومعنى اليمنية الانتساب الى يعرب بن قحطان بن عابر مقابل الحجازية ـ النجدية في نسبتها الى نزار بن معد بن عدنان.

وحين يكون هذا الفصل ملاصقا للفصل السابق في موضوع التاريخ، نبدأ هنا ـ في النسب ـ من أبعد أعلام التاريخ والمواقع .

وهاهي ذي اليمن والفخر باليمن ـ ولاسيما اذا اتجه به صاحبه مقابل العدنانين ـ يعني الملك ـ والملكة . وللشاعر بعد ذلك ان يصعد بهذا النظام الى مايشاؤه له خياله:

لنا تنمي التيجان وقد علمت به	معد ومرهوب الجناب الممنع
ونحن ملوك الارض من عهد آدم	فخارا لعمر الله غير مدفع
أولو كل معروف وملك معظم	وتخت يمان وتاج مرصع ـ ص ١٤٨

فهو سليل أولئك الملوك ، وأولئك الملوك حاضرون أحياء لديه فهم ـ في أقل تقدير في أسرته.

مازال ينحلنا الملك من يمن	وللمكارم جبار فجبار ـ ص ١١١

وجبـار هذه تذكر بمعرض الاعزاز ، على حين رأي الائمة وحماة الدين في اطلاقها على النباهنة الحط من قدرهم والاعلان عن أهم عيوبهم فهم لايكادون يذكرونهم ذما ـ الا بالجبابرة.(٢)

وليكن ، والمرء يفخر بما هو فخر لدى أنصاره ، وبما هو قوة له ، ويمضي يذكر هذا الجد البعيد أو ذلك ـ منفردا او مع أمثاله ـ في مناسبات لاتكاد تنتهي فهذا عابر.(٣)

ويكثر ـ على وجه يلفت النظر ـ الفخر بهود(٤) ، فهو في جرثومة هودية ، وهود لديه ابن عابر وأبو أبي الخير قحطان.

أنا ابن نبي الله هو بن عابر   فيالك عيصا لايشاب بادخال ـ ٢٠٢

فهو ونبي الله جدي وابنه   أبو الخير قحطان امان مروع ـ ١٤٨

وأكثر مايتبجح به لدى ذكره هودا ، أنه بني الله وربما كان في ذلك مقابلة للشق الثاني من النسب العربي وفخره بالنبي محمد . ربما ، واذا لم يكن شعورا ، فلا يبعد أن يأتي من اللاشعور ويذهب حينا الى أن يقول أنا .. سليل النبي.... ويسكت ، ومعنى ذلك أنه يقصد هودا

وهذا قحطان ، وهو العلم الذي لابد من ذكره

أنا سيد الاملاك غير مدافع   وخلاصة الاقيال من قحطان ـ ٣٢٩

اني لمن معشر ماضم جارهم   يوما ولانقضوا عهدا ولاغدروا

بنى لهم جدهم قحطان بيت على   تنحط عن ذروتيه الانجم الزهر ـ ١٢٥

ويلد قحطان يعرب (٥) وليعرب مكانه البارز لدى النسب والفخر بالنسب.

وسليمان سليل ملوك من عرانين يعرب   وزعيم ملوك من عرانين يعرب ـ ١٧٧

هل الناس الا نحن ابناء يعرب   وهل سيد الا لنا هو تابع ـ ١٥٧

ويكررها:

هل الناس إلا نحن أبناء يعرب فسل تعلمن عن فعلنا في الاقالم - ٢٧٢

ويشجب بن يعرب (٩٦)

أنا ملك الاملاك من آل يشجب وسيدها والشمري المناسع - ١٥٧

وسبأ بن يشجب:

سبأ جدي نساء معاشر وسمي بن ، فاقني حياءك واعذري - ١١٥

هذا هو الملك ، ثم هذه المدينة

لنا سبأ والجذتان بمأرب (٧)

ومن سبأ الملك حميرا (٨)

فمن يك عنا ايها الناس سائلا فانا ملوك الناس من آل حمير - ١٣١

ويذكر كهلان ، وهو يفخر به على أنه نجل حمير

وأخصنا ذو التاج حمير تاجه دون الملاك ونجله كهلان (٩)

ويذكر آخرين وآخرين على وضوح من تسلسل النسب على غير وضوح ، ويحفل خصوصا

من اجداده بتبع (١٠) وتبع ملك متوج.

أبي الله الا أننا آل تبع ملوك ملوك الارض من عهد عابر ١٣٣

نحن التبابعة المغز الألى بذخوا ومهدت بمغزيها الاقاليم - ٢٩١

وتبع جدي ، وانا ابن العرانين من تبع ، بل أنا التبع:

انا التبع المسعود قد تعرفونه اذا ذكرت عند الفخار التبابع - ١٥٦

أنا التبع المسعود والسيد الذي يذل ضياغيم الاسود الضياغم - ٢٦٩

وهو متنبه - وربما كان هذا بأسباب من التفاخر القبيلي والمحاجة - لما يرد في القرآن مما يمت لكسب الحجاج:

لنا أنزل الله المديح قوله : أهم اهل الارض أم قوم تبع - ١٤٨

وفي القرآن الكريم، في سورة الحجرات ٣٧/٤٤: اهم خير أم قوم تبع من قبلهم.

ومعروف أن التبابعة من ملوك حمير.

ويرد من اعلام التاريخ اليمني ذو نواس ، وذو رعين ، وذ ويزن ، وذ وحدون ، وسيف ابن ذي يزنوالكيكرب(١١)

ويرد عمر عامر ومالك ومازن وحارثة البطريق ، وغسان ، وبنو مساء السماء، والمنذران ، وجذيمة الوضاح ،وأسعد الخير(١٢).

ويرد في مخافرة من الاجداد فلان وفلان.

وأبرهة رب المنار ونجله أخو التاج رامي كل حي بمذعر - ١١٥

وليس صحيحا أو معقولا أن يقصد ابرهة الحبشي صاحب الفيل ، ففي ملوك اليمن في الجاهلية تقف عند حد ، تذكيها الروح القبيلة ، ولكن الذي يمكن ان يرى جديدا عند سليمان أنه قل أن يقابل بين قحطان وعدنان ، وانما يقابل بين قحطان ونزار (بن معد بن عدنان) ولعل السبب في ذلك يرجع الى أن العدنانيين الذين في عمان (وفي ازكى خاصة) يعرفون بنزار والنزارية اكثر مما يعرفون

بعدنان والعدنانية.

ثم أن الشاعر حين يرى النزاريين يمكن ان يغلبوا في الحجاج ـ والحجاج قائم لأن الروح القبلية قائمة بالاسلام أي برسول الله (ص) الذي هو منهم من قريش ، لايدع الحجة تفلت من يده ، وفي يده أن قريشا أذت الرسول (ص) وحملته على الهجرة من مكة الى يثرب ، وأن أهل يثرب (وهم من قحطان) آووه وذا دوا عنه ونصروه فانتصر بهم الاسلام . وهكذا يستحيل الحجاج قضية ، وتستحيل القضية ، قضية الانصار (قحطان) ونزار.

اني لمن معشر ماضيم جارهم	يوما ولانقضوا عهدا ولاغدروا
بنى لهم جدهم قحطان بيت على	تنحط عن ذروتيه الانجم الزهر
دانت لنا تغلب الغلباء وانخضعت	بكر بن وائل وانقادت لنا مضر
ابلغ نزار وخير القول اصدقه	والقول ينفذ مالا تنفذ الابر.
ان تفخروا برسول الله ان لنا	به كأضعاف ما أشياخكم فخروا
طردتموه فآويناه وانبعثت	منكم كتائب تبغي حربه جور
فصدكم عنه منا معشر أنف	بيض فلامس مهما حاربوا ظفروا
اتطردون نبيا بين اظهركم	ببعثه جاءت الآيات والسور
ساورتموه وسمر الخط مشرعه	والبيض ترفض من اطرافها الشرر
ذدناكم عنه بالاسياف مصلته	حتى استمرت له في يثرب مرر
حتى آتى مدحمنا في الذكر مشتهرا	واي مدح كذا في الذكر مشتهر

كم بين من حاربوه اوله طردوا　　　وبين قوم هم آووه او نصروا (١٤)

أجل ، همه ، كما يظهر ، النزاريون ، وقد يكون السبب المباشر مارأينا من جودهم في عمان نفسها ، ثم لابد من المناظرة او المعايرة وتفخر نزار بابنها رسول الله لتسد الطريق على قحطان ، وتجد قحطان مفخرها بالانصار (من الاوس والخزرج في يثرب) .. وقد يعزي ابعاد ذكر عدنان البعد في الزمن وفي المناظرة ـ زد على انه أخ لقحطان.

وقد بدأ الفخر عاطفيا فزادت نسبة الشعر فيه ثم نزل الى المحاجة العقلية وافترب من النثر اليومي

واذا كان هذا موقفه لدى المبالغة بأجداده ، ومبالغتة بنفسه ، فالطبيعي جدا أن يستصغر العدنانين (او النزاريين بمعنى أرق) وأن يعلى عليهم قوم القحطانيين .

وأنه يعدد انتصارات اجداداه (البعيدين) على اجداد عدنانين أو نزاريين ان شئت وشاء : تميم ، وتيم ، وسليم ليقول :

ورب ملوك في نزار اعزة　　　هشمناهم هشم الثريد المكسر

ونحن سقينا يوم بدر رماحنا　　　نجيع قريش واليهود بخيبر

تركنا سباع الجو يقضمن منهم　　　معاصم لم يبسطن ذلا لمجترى

ويوم حنين ايد الله دينه　　　بنا اذ دلفنا بالقنا والسنور

وطئناهم بالاعوجية وطأة　　　بخيل المذاكي والقنا المتكسر

همطنا عديا همطة يمنية　　　خلطنا بها منهاضهم بالمجبر (١٥)

ولاشك في أنه يبالغ بعزو النصر في هذه المعارك الى الانصار اليمنيين وحدهم ـ اذا حاكمناهم

منطقيا وتاريخيا ، فما كان الانصار في هذه المعارك وحدهم ، فقد كان للمهاجرين ثقلهم وأبطالهم .. ولكن الرجل يفخر عاطفيا مقابل قوم يباهونه ، فيوغل

ويتناسى التاريخ ويكاد يتناسى الدين نفسه ، فليس هذا الذي قاله من الدين في شيء وان جاءه باسم الدين لأن مناظريه ينطلقون من الدين ، ولأن لقومه (الانصار)

ضلعا لاينكر في النصرة.

وهاهوذا يقول:

برد الاله بنا فانزل مدحنا بالنص في آي الكتاب المنزل - ٢٣٢

ويفخر قومه على انهم:

في الجاهلية سادوا العالمين فهم لأحمد ولدين الله أنصار - ١١١

وله تعريض خاص يلمح به الى غلبة آل قحطان على آل عدنان ، كأن يعدد أمجاد قومه وأمجاده ويستشهد بهم للجواب، موجها السؤال اليه على وجه من التعالي والاحراج

أنا ابن السابقين الى المعالي فسل عن سبقنا قدما نزار - ١٠٣

وهنا يرد قيدر حين يلتبس علي القاريء في قوله يصف وقعه شديدة تفرد

بالنصر فيها:

وأحجمت الصيد من يعرب وهللت الشوس من قيدر - ٩٨

جاء في هامش الصفحة : وقيدر : لعله اراد قدار وهو رئيس ربيعة بن عمرو بن ضبيعة

وقد جاء ذلك في القاموس المحيط قدار كهمام ابن سالف عاقر الناقة وابن عمرو ابن ضبيعة

رئيس ربيعة "

وقال :

ونحن نبـــاة المجـــد فـــاســـأل بمجـــدنا　　بني قـــيـذر تخـبـــرك أبناد قـــيـذر - ١١٨

وجاء في حاشية الصفحة : " بني قيذر : قيذر أو قيذار هو اسماعيل ابو الرب العدنانيين "

وفي القاموس المحيط : " وقيذار بن اسماعيل ابو العرب " (١٦)

ومهما يكن فهو شرح يؤيد ما الشاعر عليه من اسلوب له يوجه به السؤال مستشهدا بمجده ، ويعلو هذا المجد اذا جاء في جواب الاعداء - واعداؤه ، او مناظروه نزاريون من عدنان.

ونترك هؤلاء الاجداد البعيدين فى الزمن الى من هم اقرب اليه ، والمقصود بالاقرب اليه النباهنة كلهم ، ملوك النباهنة الذين سبقوه منذ عهد التأسيس . ولكن هذا لم يحصل وانما اكتفى - أساسا - بثلاثة اسماء للنسب فالقبيلة الام هي: الازد ، والقبيلة بالفرع هي : العتيك ، ومن العتيك نبهان الجد - يذكر هؤلاء فخرا ورث عنهم المجد، ويتجاوز اكثر ملوك المرحلة الاولى من الحكم النبهانى.

ويتشبث باسمه واسم ابيه (سليمان) وجده (مظفر)، وقد يصعد الى سليمان جد ابيه واخيه ابي المعال كهلان ابني نبهان من العتيك من الازد.

فـــهـــو ابن مليك الازد غـــســـان (١٧)　　وهـــو مـــلـــك ازدي ، واعـــلـــى مـــلـــوك الازد

أنـا أعـلـى مـلـوك الازد قـــــــــدرا　　واعظمـــهـــا وأجـــزلهـــا فـــخـــارا - ١٠٤

أنا ســـيـــد الازد الذي خـــضـــعـت له　　رقـــاب صـــعـــاب من ملوك اعـــاجـم - ٢٧٠

أنا الملك الازدي عن الضـــيـف مـــبطيء　　وليس سـوى جـودي لدى الحـاج شـافع(١٨)

ترى متى كان الازد ملوكا؟ ومتى خضعت رقاب الاعاجم لسليمان بن سليمان؟

يمكن أن نفهم ملوك الازد ملوك النباهنة السابقين ، أو ابناء غسان ، ولكن كيف نجيب عن السؤال الثاني؟

ويكثر من ذكر نبهان (١٩) انا ابن نبهان المتوج من بني هود البني

انا ابن نبهان وجدي تبع، انا ابن نبهان غطريف الملوك انا ابن نبهان بن كيكرب "

انا ابن نبـــهـــان بن نبـــهـــان الذي ملك الملوك وفي يديه زمـــامـــهـــا ٢٨٦

وحين يكون نبهان جد ابيه ، يكون كذلك جده فجدى نبهان الهمام - ١٣٢

اما جده الحقيقي (المباشر) فهو مظفر (٢٠)

أنا ابن سليـــمـــان سليل مظفـــر سليمان يا أبن المضاهى المضارع - ١٥٧

انا ســـيـــد الامـــلاك بعـــد مظفـــر جـدى وبعـد ابي الهـمـام الامـجـد - ٨٧

ولايفوته ان يذكر اسمه:

سليـــمـــان اســـمي وهـو اسم لوالدي واسم جـدى وهو ذو الشرف العـالى - ٢٠٢

وانـاسـلـيـــــمـــــان المـعـظ م فـي مـلـوكـــــهـم الاطـاول - ٢٨٢

ولايفوته أن يذكر كنيته ، فهو أبو علي

أنـــا المـــكـــنـــى أبـــو عـــلـــي اذا تـوارى الـفـــــتـى الـكـريم - ٢٠٨

وهو فعلا أبو علي

الالــــلـــــــه در ابـــــي عــــلـــــي	لقــد جــاز الفــصــاحــة والفــخـــارا
اجـل مـلـوك أرض الـلـه قــــــــــدرا	وافـــخــــرهـم واطـهـــرهـم نجـــار (٢١)

ولكننا لانعرف له ولدا ، ولايشترط أن يكون له ولد اسمه علي

ليكنى بأبي على (٢٢) ونعود لفخره بأبيه ونسبه:

حـــاز الفـــخـــار أبي وشـــيـــد في العلي	بيـــتـــا يشق على الســمـــاك الاعـــزل
فــــسلكت في طلب العي منهـــاجــــه	بـتـكـريـم وتـعـــــمــــم وتـفـــــضـل
وأنـا ابن مـن ســـــاد الملوك بـأســـــرهـا	من عـــهـــد غـــســـان المليك الافـــضـل ـ ٢٣١

ويقف الانسان حائرا وغير حائر بازاء هذا الفخر البعيد المدى الذي يدخل في المبالغة ، ومن مصادر الحيرة انك لاتجد في التاريخ مايجلو الملوك الملوك الذي يفخربهم على الدرجة التي يعلو بها بهم لاعلى مايقرب من هذه الدرجة ، فكيف من لم يكن ملكا في التاريخ ، واذا كان فلا يزيد عن جد لقبيلة أوشيخ لقبيلة.

أما أبوه سليمان وجده مظفر وجد ابيه سليمان فيكفي الايرد لهم ذكر في التاريخ ، وانهم لايزيدون - في خير ماهم عليه - عن اسماء صغيرة مغمورة ربما لايعدو سلطانهم اسمهم وبيتهم في زمن عدد في التاريخ النبهاني مرحلة فتور بين مرحلتين.

ولم يتبق الا ان ننظر اليه بتحفُّظ شديد، ونقلبه غرضا من أغراض الشعر، فيه حماسة الشاعر ، وهواه ، واندفاعه مما يمنحه حياة قوة حتى يكاد المرء يمنح الشاعر شيئا من صفة الصدق فيما يعتقده هو في نفسه وتصوره.

وهو يتصور عظمة هؤلاء الملوك الاجداد ليزداد عظمة بهم. وكثيرا ماجمع عدة ملوك في قصيدة

واحدة أو أبيات ملاحقة أو في بيت واحد :

لنا سبأ والجنتان بمأرب ... ونزوى وما حازته جنبا سمائل

ومنا سليمان الهمام وظافر ... ونبهان مولى كل حاف وناعل

وحارثه البطريق منا وعامر ... وعمروا ابن ماء المزن كهف الارامل

وقحطان رب التاج والملك يشجب ... وغوث الانام الغوث الجحافل

وكهلان والعنقاء عنقاء يعرب ... وهود نبي الله افضل فاضل

فيالك عيصا لايشاب وسؤددا ... تبزخ في فرع العلي والفواضل

سخانا يغيض الغاديات وشكرنا ... يغني به الركبان فوق الرواحل

أنا الملك المغني المنيل الذي له ... تضعضع سادات الملوك الافاضل

ترفع عن هام السماكين منصبي ... وأزرت بغياض الغمام أناملي

واني لعب ، مانقوم به العدى ... وان هي قامت بالجبال الاطاول(٢٣)



٢ ـ فخره بنفسه

وهو حين يعظم الملوك من اجداده على مر التاريخ يعظم نفسه ، بل يزيد بالتصريح أنه اعظمهم كلهم مجتمعين أو متفردين ، بل انهم اذا كانوا مفخرا له ، فانه هو نفسه مفخر لهم ، وكأنه لايحتاج اليهم ، فأنا ، وأنا ، وأني..

... وانبي وان كنت ابن سلطان يعرب	ودعيها في الملقط المتلاحم
فما البستني يعرب ثوب مفخر	أبي ذاك لي رب العلا ومكارمي
ولكنني اشفي صداها وأبتني	علاها واغشى من سناها بصارمي
وفخر ملوك الازدبي لابهم غدا	فخاري وإن كانوا كراما اكارم
بهرت اولى البأس المحامين نجدة	واخجلت في جودي ثقال الغمائم
فما عامر ان صلت يوما بعامر	ولاحاتم اما بذلت بحاتم
أجود بما أحرزت كي أحرز الثنا	ولم يستثنني في الجود لومة لائم
فكم قدت من طرف جواد لشاعر	وكم قدت من جيش ازب لغاشم
تريق الدما من قبل سيفي مهابتي	ويسبق سيفي الموت نحو الغلاصم
أمر من الموت الزوأم توعدي	وأنفذ من شهب النجوم عزائمي
وأحلى من الشهد المصفى خلائقي	فسل ، تذب اما كنت لست بعالم
لنا سبأ والجنتان بمأرب	ونزوى وما حازته جنبا سمائل
ومنا سليمان الهمام وظافر	ونبهات مولى كل حاف وناعل
وحارثه البطريق منا وعامر	وعمروا ابن ماء المزن كهف الارامل
وقحطان رب التاج والملك يشجب	وغوث الانام الغوث الجحافل

وكهلان والعنقاء عنقاء يعرب ... وهود نبي الله افضل فاضل

فيالك عيصا لايشاب وسؤددا ... تبزخ في فرع العلي والفواضل

سخانا يغيض الغاديات وشكرنا ... يغني به الركبان فوق الرواحل

أنا الملك المغني المنيل الذي له ... تضعضع سادات الملوك الافاضل

ترفع عن هام السماكين منصبي ... وأزرت بغياض الغمام أناملي

واني لعب ، مانقوم به العدى ... وان هي قامت بالجبال الاطاول(٢٣)

وقد أدهم الاعداء قسرا بصيلم ... يمشي الجياد الجردفوق الحماجم

على متن محبوك السراة مجنب ... طويل عماد الصدر ، اسوق ، ساهم

سليم الشظا عاري النسا متمطر ... اقب رحيب الصدر على

وفي راحتي القرن الخشيب الذي به ... اجر واردى كل وابلج ظالم

سل الصيد من أملاك غسان كلها ... ومن ساد منها في بلاد الاعاجم

أهل لهم معشار جودي ونائلي ... وهل احرزوا مانلتم من مكارم

أنا سيد الازد الذي خضعت له ... رقاب صعاب من ملوك اعاجم

أجل اخي تخت واشرف مالك ... وأكرم ذي جود واعدل حاكم

هل الناس الا نحن ابناء يعرب ... فسل تعلمن عن فعلنا في الاقالم

وسائل بناحيتي معد ومازن ... وسائل بنا فخذي نمير ودارم

لنحن احق الناس بالحمد والثنا ... واولاهم بالملك صرمة ولازم

ونحن الاسود الغلب والناس غيرنا ... صباغ اتحكي اضبع بضراغم

ونحن البزاة الشهب والناس كلهم ... حمام فياذلا لها من حمائم

لنا الملك والتيجان والتخت والعلى ... على كيد ذى ختر ورغم مراغم (٢٤)

ولاينسى يفخر بنفسه ، ولايعجز أو يكل ، ولايجد حرجا او خجلا . وهو هنا ، كما كان هناك يعيد ويبدي ويمزج فخرا بفخر وحاضرا متصورا او قائما بماض متصور اوقائم.

ولكنه يزيد في تحديد الصفات او التفصيل في معانيها ، وهي قائمة أساسا على أمرين هما:

الشجاعة والكرم ، وهي القاسم المشترك للفخر العربي (للمدح كذلك..) ولكنه يزيد ـ كما زاد فخره بالنسب ـ على من سواه حتي لايبلغه في ذلك أحد فكأنه عشرة من أمثال عمروا بن كلثوم مضافا اليه كونه ملكا يتحدث عن نفسه ولايقصر حديثه عن قومه.

وتعجب لتفتيقه المعاني الجزئية خلال الموضوعين الكبيرين ، واعادة المعنى الواحد بصور متعددةمختلفة.

ولايعزى ذلك الى أنه شاعر ملك فقط ، فقد سبق في الزمن من هو شاعر ملك ، او شاعر أمير ولكن هؤلاء ، ولنذكر ابن المعتز والمعتمدين عباد وأبا فراس الحمداني لم يغالوا مغالاته ، وانهم ذكروا احداثا بعينها أكثر من الانتفاح بالتعميمات.

ولابد ـ اذا ـ من بحث السب فيخا هو ملازم لديه من الشعر والملك ، اقصد الروح القبلية ، فكأن عمان التي هو فها مازالت قبائل ، وللفخر منها مكانه الأول ، المقبول ـ وربما ـ المطلوب من الشاعر ومن الناس الذين حوله.

واذا كان الجانب الذي يفترض فيه أن يكون أقل قبيلية (وأكثر حضارة) هو جانب الائمة والفقهاء ، فأن أهل هذا الجانب كانوا خصومه اللد ، وحين يكون الامر كذلك يصير الفخر لدى الملك (الدنيوي) مظهرا في المناقشة ـ حتي لولم يذكرهم بالاسم ـ مستندا واستعلاء.

وهكذا برز سليمان بن سليمان المتنبي ولكن في ثوب ملكي قبيلي.

ثم لابد من ملاحظة أخرى ، تدخل في علم النفس اذ يقع علي الرجل الفخار، فلا تعدم ـ

حينئذ - من يعزو الظاهرة الى شعور بعقدة من عقد النقص في مجتمع لم يعد يرى للنباهنة مقاما؟ وبازاء ائمة لايكتفون بالفخر بالنسب وبالنفس ، أو الى شعور بالكمال يفقد معه صاحبه حسه بالاخرين ويفقد به آخر قطرة من التواضع الحقيق فيسجل ضربا من الطيش والحمق والسفاهة.

ولكننا لسنا في هذا ، لأننا بازاء شاعر ملك في مجتمع تقبيلي يقبل الفخر ويطلبه فلنبق في مواجهة الفخر كما هو - وكما هو غرض سائد ، وكما هو غرض جود فيه سليمان بن سليمان وأبدع.

ونكرر انه يجمع - دائما - في القصيدة الواحدة بنفسه والفخر بنسبة لأن الاثنين متكاملان تلديه اذا لم يكن الفخر بالاجداد صيغة أخري للفخر بالنفس.

ولا أدل على أنه لم يأت - تفاخره - في مجتمعه شيئاً اداء من أننا رأينا شعراء من العصر النبهاني يفخرون مع أنهم مداحون متكسبون ، فما أولى شاعر نبهاني ملك بأن يزيد ويزيد في الفخر(٢٥).

ثم دليل آخر ، قوامه شهاة يدلي بها امام علامة جاد بعد سليمان بحوالي خمسة قرون ليقص تاريخ عمان ، وهواه وعقيدته واهتمامه كلها مع الائمة ، وسخطه على سليمان ، ولكن - مع هذا - وقف من الفخرين بالنسب والنفس موقف المعجب المقدر لسليمان فصاحته وبلاغته ذلك الامام العلامة هو محمد نور الدين عبد الله ابن حميد السالمي مؤلف تحفة الاعيان بسيرة عمان الذي قال:

... ثم بايعوا (بالامامة) لأبي الحسن بن عبد السلام النزوي ، وأقام دون السنة وخرج عليه سليمان بن سليمان النبهاني - وهو صاحب الديوان الغزلي الخماسي ، انبأ فيه عن فصاحته وأبان فيه عن بلاغته ، ومن ذلك قوله:

.... أنا أجل ملوك الأرض مرتبة نعم وأكثر أملاك الورى همما

منا قبى كنجوم الأفق في عدد ونائلي لو فودي يفضح الديما

كالليث بأسا اذا الليث الهموس سطا البحر جودا اذا البحر الخصم طما

أنا ابن نبهان غطريف الملوك فهل مفاخر لهام اللمساء سما

قدت الجيوش ، وهجنت الملوك واعطيت الخيول ، وسدت العرب والعجما

سل عامرا وبني عمروا وكعب وسل شبانه وعزيزا من لها صدما

وجابرا ويزيدا والعباد وسل فضاعة ليس نو جهل كمن علما

يخبرك من شئت منهم أنني ملك أعطي الجزيل وأجلو ظلم من ظلما

لو صور الموت لي قرنا وبادرني اذا لجندلته ملقا أو انهزما

اعدمت بالسيف موجود الطغاة كما أوجدت بالجود والاحسان من عدما

اذا انطقت بضلي قال حاسده أصدق به ولسان الحمد لاجرما

وأكثر ديوانه على هذا بالنحو، وله رائيه ذكر فيها مفاخر اجداداه تزاحم المعلقات السع بلاغة وتزيد عليها عنوبة ورشاقة قال في أولها:

اللدار من أكتاف قو فعرعر فخبت النقابطن الصفاف المشقر

(...) (ثم فخر بنفسه) ثم ذكر مفاخر ملوك اليمن من سبأ ومن بعده

(...) ولولا خية الاكثار لذكرنا القصيدة بطولها.

هذه شهادة عالم علامة في بلاده ومذهبه وفيها ذليل على أن سليمان حين فخر وبالغ في الفخر لم يأت شيئز ادا، خارج منطوق مجتمعه وقومه وعصره...

وقد قلنا ان ديوانه يكاد يقوم علي الفخر. وقد رأينا في الامثلة السابقة (هنا) غير قليل من شؤون فخره بنفسه خلال فخره بأجداده البعيدين والقريبين ، ورأينا فخره الخاص بموضوعين اساسين الشجاعة والكرم ، وللشجاعة في الشعر اسم خاص هو الحماسة وسليمان من شعراء الحماسة وهو منها في درجة متقدمة.

واذا كانت الشجاعة التي تحدث عنها - هنا - عامة ، فقد رأيناه من قبل (٢٦) خاصة في معارك بعينها تكون المادة الاساس من الفصل الذي تتبعنا فيها تاريخه من ديوانه لدزن تحروبه مع عمان ، ومع أخيه ، وأنصار عليه من هناك وهناك.



٣ ـ مفاخر أخرى

واذا كانت الشجاعة والكرم ابرز موضوعين ، فمعنى ذلك أنك لاتعدم لدى سليمان مفاخر أخري - حتى لوجاءت على قلة وندرة ضائعة في خضم النسب والشجاعة والكرم.

ومن ذلك العفو ، والحلم ، والصدق ، والفصل ، وكبر العقل ، وطلب الحمد بأسبابه ، وهنا تلتقي أكثر من صفة ، حتي لو كانت هذه الصفات مشتقة من الكرم ومنبثقة عن الشجاعة ، والجامع في الامر هو الطموح الى أن يكون البطل في مفهوم مجتمعه وفي خلاصة النظر في التاريخ وعناصر البقاء والذكر:

... ولوشئ كفاني وزير وخادم	ولم ألق نفسي في يد الهلكات
ولكن نفسي مرة ليس ترتضى	سوى بيعها في الحمد والغمرات
براني رب العرش ذا خنزوانه	شديد على الاعداد ذا نقمات
اقول فلا اعيا بشيء اقوله	اذا لم يقف نو موعد بعدات
تناط حياة الدين توالعلم والتقى	وعز عمان كلها بحياتي - ٦٢

أما السعي الى الملك والظفر به فقد مرا معنا ومعهما ومنهما عزة النفس والمغامرة وكأنها طبع فيه وخلقه والا فما كان أعناه عن هذه المتاعب وهو الغني الثري الذي يستطيع ان يقعد ويجد مايتمنى وحوله من يخدمه وهو في اية حال قول وفعل واذا وعد وفى.

وربما كان أهم جديد في هذه الابيات ، ومايبعد على قارىء الديوان أن ينتظره فهو شعوره الذي يمكن أن نسميه الوطني ، أي شعوره بالمسؤولية عن عمان كلها ، وعن عزها ، وهذا العز منوط بحياته . وكان يريد أن يقول : ومن هنا كانت معاركي وحروبي ، ومجابهة الاعداء من كل نوع.

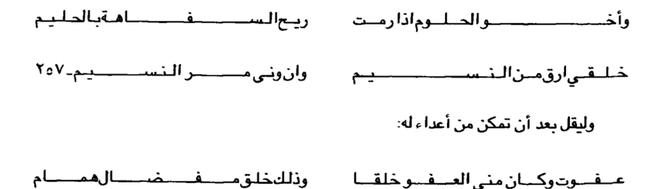
ويمكن أن يكون هذا مفهوما ، ولكن الجديد جدا شعوره بالمسؤولية الدينية ، وأن حياة الدين والعلم التقى منوطه بحياته، وكأنه يجابه بهذا حجج الجانب المناويء المعادي الذي لايعرف بالنباهنة أو بسليمان نفسه لأنهم جبابرة ولأنه جبار، فهم يصرون على أنه غير شرعي، وان الشرعي هو الذي يبايعونه دينيا .

ولكننا لم نر في ديوان سليمان فضلا عما في كتب التاريخ مايشرح لنا مقولته ، أو يؤيدها في الاقل(٢٧)

وهو بعد هذا قد يعتز باله وبرسوله وهو يعتز بنفسه أو يقبل على حرب او ينتصر في حرب . وهذا غير هذا .

ويتذكر الدين مرة انية فلا يكاد يعتز تبهوز الا ويقرن به صفة النبي ، حتى اذا ثار جدال وحجاج مع النزاريين أعلن فضل الانصار من قومه القحطانيين. .. وهذه كذلك غير مقولة حياة الدين والعلم والتقى بحياته.

ومع هذا ، فليس من حقنا الشك المطلق في حسن نيته في الاقل ، أو أن ننسى مايفرضه التاريخ والتأمل والمجتمع من اجالة الرأي والتزام مايجمع عليه الاكثرون ، فليفخر بالشجاعة والكرم، وليفخر كذلك بما يزينه معهما فاذا قال: وانا اخو الكرم فليقل :



وأخو الحلوم اذا رمت ريح السفاهة بالحليم

خلقي ارق من النسيم وان وني مر النسيم-٢٥٧

وليقل بعد أن تمكن من أعداء له:

عفوت وكان مني العفو خلقا وذلك خلق مفضال الهمام

أنا ابن السابقين الى المعالي	وأعيان تالافاضل والكرام
أبيد المال كي أحوي ثناء	وأشرف كل فج بالقتام
وأعطي الخيل والأدم المهادي	ولم اجنح هناك للملام
وقد أيقنت أن الحمد يبقى	ولكن لابقاء للحطام
ولاكال الشكر يحويه جواد	مال لايخلد بالدوام- ٢٥٥

فهذه صفات مكملة للمثل المطلوب ، وليس في لهجة صاحبها من يشى بكذبة في مطمحه الها أو مايشير الى انه يقولها نفاقا ، ومنعساه ينافق وهو السيد الغالب!

ان الابيات تكتنز اريحية وعقلا يرفعان من شأن صاحبها.

وعجيب أن يصل بعد ذلك الفخر بأجداده ، الى أن يقول:

وهذا منتظر مفهوم اذا علمنا أنه يعارض مقصورة ابن دريد ، وأنه خبر شد الدينا وهو عشر الاربعين من عمره.

وكان الرجل حين يقول الشعر - وقد قاله جميلا أصيلا - لم يكن ليتعالى لعيها وانما عده مفخرا ، ومع الشعر الخطابة:

لي في الفصاحة حكمة وبيان	وبلاغة لم يحوها لقمان(٢٨)
فاذا قرضت فمازهير وطرفة ،	واذا نطقت فما الفتى سحبان
ولقد جرين على لساني وثبا	جري الأتي رمت به الاقران- ٣٢٠

واذا البـــديع من القـــريض تغلقت أبوباب مـــجـــدله على الاذهان

ودعـــوته ألقي المفـــاتح طائعـــا طوع الذليل الى عظيم الشـــأن - ٣٣٩

وحسنا فعل ابو على فقد حفظ بشعره تاريخ على حين ضاع - أو أضيع - تاريخ الآخرين ، وأضاع التاريخ الشاعر نفسه ، وتاريخ الشعراء المعاصرين له. فليس من المنطق أن تخلو عمان لأمد غير قصير من الشعراء . وليست المسألة مسألة منطق فقط، بعد أن كان لنا الدليل المصدق في فخر سليمان بن سليمان بما كان يغدقه على الشعراء وهو السلطان الممدح ، وحين يكون على تلك الدرجة من الكرم عموما ومن رعاية الشعراء خصوصا بسد حاجاتهم ومايزيد على حاجاتهم ، فلا بد من أن يكونوا فالسلطان الشاعران يفخر بشجاعة وكرمه فهو من يسعر الحرب ، ومن.

ومن يهب الخـــيل مـــجنوبه لـهـــادي المديح الابوابه - ٣٢

والمجنوبة هي الخيل المقرونة بالابل

وهاهم اولاء الشعراء يغدون ويروحون عله وعنه

أنا منهل الشـــعـــراء هذا باكـــر غـــاد على وذلك عني رائح - ٦٤

وقد نفقت لديه سوق شعرهم:

بضـــائع أهل الشـــعـــر عندي نوافق اذا كسدت في الخافقين البضائع - ١٥٤

وهو يهديهم مع الخيل والجمال أثوابا

وكم شـــاعـــر أهدى الى قـــريضـــة فـــفـــاء بأثواب وخـــيل وجـــامل - ٢١٤

وكم هذه تفيد التكثير كما هو معروف ، فاذا سليمان كعبة الشعراء (٢٩) ومقصدهم ، واذا منازله منازل المهدي المديح(٣٠).

كلام لايشك امرؤ في صدقه ، ولكن أين ذلك الشعر؟ واولئك الشعراء ؟ تبحث ولاتجد ولولا فخر السلطان الشعر باكرامهم لضاع الاثر.

كل ماوصل الينا قطعة جاءت في ديوان سليمان نفسه، ولم يذكر معها اسم صاحبها ، وقد رأينا مطلعها.

ألا الـــلــــــه در أبـــــي عـــلـــــى	لقـــد جـــاز الفــصــاحـــة والفـــخـــارا
أجـل مـلـوك أرض الـلـه قـــــــــدرا	وأفـــخـــرهـم واطهـــرهـم نجـــارا ـ ١٣٢

جاء في الديوان : وقال صاحب هذه الابيات ، وأظنها لغيره والله أعلم

وقال محقق الديوان : هذه القطعة لرجل يمدح الشاعر النبهاني كما يدل عليه مبناها ومعناها ولكني لااستبعد أن تكون القطعة للشاعر سليمان النباني نفسه ، صاحب الديوان ، وفي نفسها مايدل عليه ، وهي صورة من اعجابه بنفسه...

وبعـــــــــد

فلسليمان بن سليمان ماليقف عند حد، أو ماللا يحد بغرض واحد اسمه الفخر وقد سبق القول أن ديوانه يقول على الفخر ، وان مابدا ـ أو يبد ـ خارج هذا الغرض ، انما هو منه أو اليه . وحسبك أنه يفخر بشرب الخمر وبالصيد وبالخيل، وبالنساء...

ومن هذه ماهو وجه ثان لمفاخرة بالنسب الشجاعة والكرم ، ومنها ماهو منها برآيه في الاقل ، فضلا عن مفاخرة بالحلم والفصاحة والحكمة.

(١) يكاد الديوان يكون ـ كما هو طبيعي ـ المصدر الوحيد او الرئيس في دراسة الشعر والوقفات

الطويلة عند أغراضه عند أغراضه ، ولذا رأيت المفضل في الاحالة اليه - أو عليه تذييل الابيات - أو بيت احيانا - برقم الصفحة في المتن نفسه عند آخر الابيات المستشهد بها لنتجنب العودة الى ذيل الصفحة او الفصل بما يمكن الاستغناء عنه اذا كان الغرض العلمي هو التوثق والتوثيق.

وربما وقع شنوذ عن هذه القاعدة لدى ضرورة ، وفي هذه الضرورات أن يصحب الاحالة شرح أو تعليق ، أو مصدر آخر.

(٢) حفة الاعيان ١/٣٠٢، ز ٣٠٥، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٤...

عمان تاريخ يتكلم ١٥٢

(٣) الديوان ١٣٣ ، ٢٠٢

(٤) ١٠٩ ، ١٣٢ ، ٢٣٤ ، ١٥٣ ، ١٤٨ ، ٩٧ ، ١٣٩ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٧٨ ، ٢٨٦.

(٥) ١٧٧ ، ١٣٠ ، ١١٤ ، ٢١٧ ، ٢٤١ ، ٢٧١.

(٦) ٩٦ ، ١١٩ ، ٢١٦.

(٧) ٢١٥ ١١٨

(٨) ١١٤ ٢٣٤ ٣٢٤

(٩) ٣٢٤ في هامش الصفحة من الديوان حمير بن سبأ بن يشجب ملك العرب وكهلان بن سبأ بن يشجب أخو حمير وعلى هذا فكهلان بن سبأ وهو آخو حمير.

ويؤكد ذلك الشجرة المثبتة ص ٨ من الوسيط في الادب العربي تأليف الشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مصطفي عناني ، ط ١٦ ، القاهرة ، دار المعارف د. ت (ط ١ في ذي القعدة ١٣٣٤ /

اغسطس ١٩١٦.

ويرد كهلان في الديوان ١٦ .٢١٨

(١٠) ٢٢٢١٣٩ . ٧٠ . ١٧٩ . ٣٢٩.

(١١) ٢٣١ . ١١٩٣٢٢ . ٢٢٣ . ٢٢٨

(١٢) ١١٥، ١١٩، ١٩٠، ١٤٧، ٢٥٣، ٢٤١، ٢١١، ٣٨، ٧٠.

جاء في حاشية الصفحة ١٥ من الديوان : ليس ابرهة في سلسلة نسب الشاعر ، فلعله يريد ابرهة بن الحرف الرائش الذي يقال له ذو المنار وجاء في أعلام الزركلي بيروت ، ط ٤ - ١٩٧٩ م دار العلم للملايين ٩٢/١ : ابرهة بن الصباح الحميري : من ملوك اليمن في الجاهلية ولي بعد حسان بن عمرو ، واستمر ٧٣ سنة ، وكان علما جواد ، وهو غير ابرهة صاحب الفيل (....) فذلك حبشي لاصله له بالعرب.

(١٤) ١٢٥ ـ ١٢٦ ، ووردت في الديوان : تغلب العلباء وفي هامش ص ١٢٦ مدحنا : أي مندح الانصار الازديون جاد في الذكر في سورة الانفال ٧٢/٨ والذين آووا ونصروا أولئ بعضهم اولياء عض وهم الانصار ووردت عدنان مرة ص ٣٢٤

(١٥) ١١٦ ـ وقد وردت ص ١١٦ تميم و تيم وسليم في ثلاثة ابيات سابقة على هذه الابيات.

(١٦) القاموس المحيط للفيروز أبادي : قدر ، قدر

(١٧) ١٣٢

(١٨) ١٥٧ وفي حاشية الصفحة : انا الملك : بحذف همزة الاستفهام الانكاري اي اكون مبطئا من الضيف وأنا الملك الازدي

(١٩) الصفحات في الديوان على التوالي : ٦٤، ٢٣٢، ٢٦٠، ٣٢٣

ويقول ص ٣١١: أنا ابن نبهان مساء السماء سلالة هود عليه السلام

فنقرأ في حاشية الصفحة : ليس نبهان هو ماء السماء وانما هو عامر أبو عمرو مزيقيا

ونقول قد يقصد بماء السماء عموم الكلمة ، اي انه غيث أي انه كريم...

(٢٠) والمظفر لديه سلطان اسماو فعلا ، على حين المفروض ان يأتي في الاقل تاريخيا ضئيل الشأن ، فهو من ايام الفترة . وتنظر ص ٣٢٨ وتنتظر لسليمان ١٣٢ . ٢٣١

(٢١) من أبيات وردت في الديوان ص ١٣٣ مضطربة النسبة له أو لغيره.

(٢٢) ولانعرف من ولده في التاريخ ، فالتاريخ يترك فجوة بعد تفريقه حتي تبدأ المرحلة الثانية من حكم النباهنة ، ويتصدرها: سلطان بن محسن بن سليمان ابن نبهان ثم فلاح بن محسن.. ولأستطيع الجزم بـ سليمان الوارد هنا فلعله سليمان بن سليمان ، ولعله سليمان الحد الابعد.



اهـداف وخصـائص
دور العثمـانيينن في الخليـج العـربي
بالمقـارنة مع القـوى الخارجية الاخرى

الدكتور / عبدالله أبو عزة

بسم الله الرحمن الرحيم

أهداف وخصائص دور العثمانيين

في الخليج العربية بالمقارنة مع القوى الخارجية الأخرى

نتناول في هذا البحث خصائص الدور العثماني في الخليج العربي مقارنا بأدوار القوى الخارجية الاخرى التي جاءت الى هذه المنطقة منذ اوائل القرن السادس عشر الميلادي . ومن المعروف أن القوى الخارجية التي دخلت منطقة الخليج وقامت بدور مؤثر وملموس فيها تمثلت في البرتغاليين والبريطانيين والهولنديين والفرنسيين، فضلا عن العثمانيين . وقد ابتدأ وصول هذه القوى الى المنطقة بوصول البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر ، بينما انتهى الوجود العثماني باندلاع الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ ، وانتهي الوجود البريطاني رسميا في ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧١م.

وسنركز في هذه الورقة على خصائص وأهداف الدور العثماني مع المقارنة بخصائص واهداف كل من البرتغاليين والبريطانيين دون غيرهم من القوى الاوروبية لـ ، حتى نظل في اطار الفترة الزمنية التي حددت لهذه الندوة (١٢٥٨م- ١٦٥٠م) وقد كانت هناك دراسات تفصيلية كثيرة ، تعرفونها، تناولت ادوار عدد من القوى الخارجية التي كان لها في منطقتنا هذه حضور بارز ومؤثر . وجاء اهتمامنا بالدور العثماني لتفرده بسمات خاصة ، ولكثرة مادار ويدور حوله من لغط وجدل.

لـ على الرغم من ان الهولنديين وصلوا الى الخليج العربي بعيد وصول الانكليز بقليل الا ان الدور الهولندي لم يتميز باهدافه وخصائصه عن الدور الانكليزي ، سيما في الفترة التي يشملها الاطار الزمني لهذه الندوة.

وسنحاول ان نعطي فكرة موجزة عن حالة الخليج العربي السياسية قبل وصول القوى الخارجية الى مياهه وشطآنه ، ولننتقل بعدها الى رسم مسار كل قوة من القوى الخارجية ، بتحديد معالمه ومراحله الرئيسية ، وبذلك ننهي الجزء التمهيدي لمعالجة موضوعنا .

فاذا دخلنا في صلب الموضوع اذا ذاك نعمد الى تحري أهداف كل من القوى الخارجية من وراء مجيئها الى الخليج العربي ، ونتتبع تطور هذه الاهداف ، كما نستطلع طبيعة الممارسات والانشطة ، وماذا كانت تؤكد صحة فهمنا للأهداف المفترضة . ونأمل ان نصل من خلال المقارنة الى التعرف على خصائص دور واحدة او اكثر من القوى الآخرى . ونستخلص النتائج في نهاية المطاف.

الفراغ السياسي والعسكري يجذب القوى الخارجية:

كان الخليج العربي جزءا من اراضي دولة الخلافة منذ عهد الراشدين ، واستمر كذلك في العهد الأموي وشطرا من العهد العباسي . ثم زحف التفكك والانحلال السياسي فحدث تمزق وفراغ في الفكر والمفاهيم السياسية ، واخذ الولاء للخلافة - وبالتالي للكيان السياسي الواحد - يتلاشى ، خاصة بعد ان فقدت الخلافة قوتها العسكرية ، على اثر تغلب قادة الجند على شئون الحكم في العاصمة ، وتغلب ولاة الاقاليم والمغامرين على الاقاليم البعيدة . وزاد ظهور البويهيين ومن بعدهم السلاجقة في تعميق هذا التمزق الى ان اقبلت جحافل المغول بقيادة هولاكو واجتاحت بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م. وازالت خلافة بني العباس ، فكانت القاضية.

واذا كان المغول قد شكلوا قوة عسكرية وسياسية رهيبة فرضت طاعتها واحترامها على كل الحكام الصغار في العراق وايران ومنطقة الخليج العربي هذه فان امبراطوريتهم مالبثت ان عانت من التفكك وحلت محلها قوى جديدة . فبعد سقوط بغداد ظل العراق وبلاد فارس تحت حكم المغول

الايلخانيين من اسرة هولاكو حتى عام ١٣٤٩ م . وقد تحول المغول الى الاسلام سريعا حيث اعتنق احمد بن هولاكو الاسلام وصار الخليفة الثاني لهولاكو ، بعد اخيه اباقا ، وحكم ثلاث سنوات قبل ان يتغلب عليه ارغون ابن اخيه ويتولى الحكم سنة ٦٩٠ / ١٢٩١ م . وبعد اربع سنوات يتولى الحكم امير مسلم آخر هو غازان محمود بن ارغون ، ويستقر الاسلام ويثبت في الاسرة منذئذ .

وعندما أخذ الضعف يدب في كيان المغول الايلخانيين ظهرت الاسرة المظفرية التي كان مؤسسوها قادة اداريين لدى المغول . وقد حكمت هذه الاسرة فارس وكرمان حتي مجيء الموجة المغولية التيمورية أو اخر القرن الرابع عشر الميلادي.

وفي سنة ٩٠٧/١٥٠٢ تمكن اسماعيل الصفوي من هزيمة التركمان المعروفين بالخروف الابيض الذين كانوا يحكمون أذربيجان وديار بكر والعراق ، وجعل تبريز عاصمة له وشرع يمد سيطرته بقوة السلاح على ايران والعراق حيث تمكن في سنوات قليلة من القضاء على حكام الاقاليم المنتسبين لخلفاء تيمورلنك ، وغيرهم من امراء المقاطعات ويصل بسلطته الى سواحل الخليج العربي ، كما انه استولى على بغداد سنة ١٥٠٨م . واصبح في مواجهة الدولة العثمانية في جبهة آسيا الصغرى ، واشتبك معها في حرب ضروس ، بلغت ذروتها في معركة جالديران المشهوردة سنة ١٥١٤م التي اعقبها استيلاء السلطان سليم الاول على تبريز (عاصمة الشاه اسماعيل).

مملكة هـــــرمــــــــز :

لقد أتاحت حالة الفراغ السياسي والعسكري التي اعقبت سقوط بغداد في يد المغول وبعد تفكك الامبراطورية المغولية ، الفرصة امام قوة محلية صغيرة ان تنمو وتفرض سلطانها على سواحل الخليج العربي ، وتنشيء مملكة انطلقت من هرمز ، وظلت لها السيطرة حتى اعتراها التفكك نتيجة للصراع الداخلي، ومالبثت ان داهمتها سفن الاسطول البرتغالي . وتفيد وثيقة برتغالية كتبت في القرن السابع عشر الميلادي ان مملكة هرمز نشأت سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١ م عند انتقال حاكم هرمز القديمة ،

التي كانت تقع على الساحل الفارسي ، الى جزيرة جيرون ، حيث اتخذها مستقرا لحكمه واطلق عليها اسم هرمز(١).

وليس مما يهمنا في هذه المعالجة ان نحاول سرد تاريخ هرمز او تتبع تفاصيله ، فذلك يخرج بنا عن موضوعنا ، لكننا نكتفي هنا بالقول بأن هذه المملكة الصغيرة سيطرت على سواحل الخليج ، خاصة المراكز المهمة منها ، مثل صحار وخورفكان وجلفار والبحرين(٢) ، وبلغت درجة عالية من الثروة والازدهار ، نقل أخبارها الرحالة حتى صارت اسطورة(٣).

بنو جبـــــــــــــر :

وكانوا بنو جبر ، او الجبور ، قد سيطروا على منطقة الاحساء والبحرين منذ النصف الاول من القرن الخامس عشر ، مستغلين ضعف الاسرة الحاكمة في هرمز وماعانته من انشقاق وصراع . بل ان هذا الوضع اتاح للجبور ان يمدوا سيطرتهم الى عمان الداخلية نفسها (٤). وعندما وصل البرتغاليون الى السواحل العمانية التابعة لهرمز انفردوا بالساحل الذي لم يجد مساندة تذكر من الداخل.

وصول البرتغاليـــــن:

جاء وصول البرتغاليين الى مياه الخليج ثمرة لجهودهم المضنية التي لم تعرف اليأس والتراجع، منذ بدأها الامير هنري الملاح (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠) بالاستيلاء على سبتة في الحادي والعشرين من آب (اغسطس) ١٤١٥م . والقصة معروفة ، وهي خارج حدود موضوعنا .

لقد بدأ البوكيرك حملته على الخليج العربي بالاستيلاء على قلهات ثم قريات واتبعها بمسقط وصحار وخورفكان(٥) ، وكانت كلها من ممتلكات هرمز ، وتوج مهمته بهزيمة هرمز واجبار ملكها سيف الدين على توقيع معاهدة يعترف فيها بتبعيته لملك البرتغال ، ويتعهد بدفع ضريبة سنوية وذلك في ايلول (سبتمبر) ١٥٠٧م (٦) وقد استعاد البوكيرك هرمز سنة ١٥١٥م بعد ان كان البرتغاليون اخلوها عـ

اثر تمرد ضباط الاسطول ثم تعيين البوكيرك نفسه نائبا لملك البرتغال في الهند (٧). كما واجه البرتغاليون عدة ثورات في مختلف المراكز الخليجية تمكنوا من القضاء عليها ، وارسلوا اول حملة لهم الي البصرة سنة ١٥٢٩ وتصدوا بنجاح لعدد من الحملات العثمانية وظلوا القوة الاولى في الخليج العربي حتى اوائل القرن السابع عشر . وقد انتهت السيطرة البرتغالية الكاملة ـ كما هو معروف ـ عندما تمكن الايرانيون سنة ١٦٢٢م بالتحالف مع الانكليز من طردهم من هرمز نهائيا .

ومنذئذ صاروا يتعرضون لمنافسة قوية من قبل البريطانيين والهولنديين. ولم تلبث دولة اليعاربة ، بقيادة مؤسسها الامام ناصر بن مرشد اليعربي وخلفائه ، ان تمكنت من تحرير المدن العمانية الساحلية واحدة تلو الاخرى ، واتمت هذه المهمة سنة ١٦٥٠م . ثم اخذ العمانيون يطاردون السفن البرتغالية في البحر ويهاجمون المراكز البرتغالية على سواحل الهند وبعدها على ساحل افريقيا الشرقي.

وذلك هو المسار الرئيسي لوجود ونشاط البرتغاليين في الخليج العربي ، وهي قصة معروفة . لم ار حاجة لذكر تفاصيلها في هذا السياق.

البريطانيـــــــــون :

كان لنجاح البرتغاليين في السيطرة على تجارة الشرق وماجنوه من ارباح هائلة اثر كبير في اثارة غيرة وحسد قوى اخرى في شمال اوربا. لكن التجارة الشرقية كانت من حق البرتغال بموجب التفويض الالهي الذي اعطاه البابا نقولا الخامس لملك البرتغال سنة ١٤٥٤م وجرى تأكيده بمرسوم بابوي آخر بعد سنتين . ثم جاءت الاتفاقية المعقودة بين البرتغال واسبانيا لتقسيم البحار بين الدولتين سنة ١٤٩٤، والتي اعتمدها البابا ، لتزيد هذا الحق البرتغالي تأكيدا (٨) . غير ان انتشار البروتستانية خلال القرن السادس عشر اضعف الاساس الديني لهذا الاحتكار ، فأخذ البريطانيون والهولنديون يسعون لمنافسة البرتغاليين . وبلغت هذه التطلعات والمساعي ذروتها بتأسيس شركة الهند الشرقية

البريطانية في آخر يوم من سنة ١٦٠٠م لتتبعها بعد ذلك بوقت قصير شركة الهند الشرقية الهولندية(٩).

وجاء البريطانيون والهولنديون الى بحار الشرق واعتبروا البلدان المطلة على المحيطين الهندي والهادي ميدانا لنشاطهم ومخرت سفنهم عباب مياه الخليج وكان تركيزهم على ايران باعتبارها سوقا تستوعب كميات من البضائع المجلوبة كما ان لديها انتاجا يمكن تصديره بكميات تجارية . ومالبث ان دب التنافس بين الجانبين للاستئثار بمرابح التجارة مع المنطقة ، وسرعان ماتحول الى صدام مسلح في كثير من المواقف . وتؤكد جميع المصادر ان الهولنديين احرزوا قصب السبق في هذا التنافس الحاد وتمكنوا من فرض تفوقهم وسيطرتهم ابتداء من عشرينات القرن السابع عشر وحتى اواخر القرن نفسه (١٠).

والحقيقة ان الخليج العربي لم يمثل سوى زاوية صغيرة منعزلة من ميدان التنافس بين القوى الاوربية في الشرق ، ذلك الميدان الذي امتد من اليابان شرقا الى سواحل افريقيا غربا (١١). وفي الجوار القريب كانت الهند احدى المناطق الرئيسية لهذا الصراع(١٢).

العثمانيون:

لم يكن العثمانيون آخر القادمين الى منطقة الخليج ، وانما اخرنا الحديث عنهم تسهيلا لاعطاء صورة عن ترابط ادوار القوى الاوربية وتداخلها وتأثر بعضها بالبعض الآخر.

ولسنا نعرف - على وجه التحديد - متى دخل العثمانيون الخليج اول مرة ولكننا نعرف ان حملة بحرية عثمانية جاءت من مصر سنة ١٥٢٨م ووصلت الى سواحل الهند ولم تتمكن من احتلال ديو من البرتغاليين (١٣) ونقرأ في اخبار سنة ١٥٥٠م ان اهل القطيف اعلنوا اسقاط ولائهم لحاكم هرمز الخاضع للبرتغاليين ووضعوا انفسهم تحت الحماية العثمانية . وكان يقود العثمانيين القائد مراد بك ،

الذي نعرفه قائدا بحريا . وقد نجحت قوات البرتغاليين في السيطرة على القطيف واجلاء العثمانيين عنها . ثم تأتي حملة عثمانية بحرية كبيرة ، بقيادة بيري بك فتستولى على مسقط ، وتهاجم هرمز وتقوم بجولة استعراضية في الخليج ثم يستعيد البرتغاليون مسقط.

ويتكرر ارسال الحملات البحرية العثمانية سنة ١٥٥١ و ١٥٥٢ لكنها تعجز عن فرض سيطرتها البحرية(١٤).

وفي سنة ١٥٥٥م يرسل العثمانيون حملة برية بقيادة محمد فروخ باشا ـ جاءت من العراق على الارجح ـ فتستولى على الاحساء التي تظل تحت السيطرة العثمانية ، مع منطقتها ، حتى سنة ١٦٦٦م حين يثور آل حميد ويطرودون الحامية العثمانية من الاحساء (١٥).

أهداف القوى الخارجية في الخليج العربي :

اولا : البرتغاليـــــــــــون:

ما الذي جاء بالبرتغاليين الى منطقة الخليج العربي ؟

وماالذي سعوا الى تحقيقه؟

جاء وصول البرتغاليين الى الخليج العربي ثمرة للجهود التي بداها الامير البرتغالي هنري الملاح D. Henrique (1393 - 1460) ابن ملك البرتغال والذي جمع في نفسه روح العصور الوسطى من ناحية وبوادر النهضة والعصر الحديث من ناحية اخرى(١٦).

في العصور الوسطى كان الاوربيون يعتقدون ان اوربا هي منطقة النور الوحيدة في العالم ، حيث تسودها الديانة الحقة ، اما ماعدا ذلك فموطن الكفر والظلام والشرور . ومن خلال الاتصال بالشرق عن طريق الصليبيين الذين استقروا في بلاد الشام تغيرت هذه الصورة قليلا ، وتراءت لهم حكاية ملك مسيحي في الشرق اسمه Prester John . ولم يتاكدوا من موقع بلاده ، اذ ظنوها في

الصين او هضاب منغوليا ، او الهند ، او جبال فارس . ولكن ما ان حل القرن الرابع عشر حتى توصلوا الى اقتناع بأنها تقوم في افريقيا ، وذلك من خلال ماسمعوه من الحجاج الاثيوبيين الذين زاروا القدس في اواخر عهد الصليبيين بها ، ومع ذلك ظلت تثير فضولهم الحكاية . وعندما اتسعت المعارف الجغرافية بدأ الرجال يبحثون عن حقيقتها (١٧) . وهنا يجيء دور هنري الملاح.

عاصر هنري الملاح جزءا من المرحلة الاخيرة من الصراع الذي كان محتدما في الاندلس المجاورة لطرد العرب والمسلمين من آخر معاقلهم ، بينما شمال افريقيا تقع على مرمى النظر من شاطيء البرتغال الجنوبي . وتاقت نفس الشاب هنري لأن يكون بطل المسيحية ، فتطلع اول ماتطلع الى الاستيلاء على مدينة سبتة ، وبعد اعداد طويل نجح في احتلالها سنة ١٤١٥م . وشهد بأم عينه تحويل جامعها الى كنسية ، وهذا النجاح شجعه ودفعه لتحقيق انتصارات اكبر من اجل الصليب . "اليس من الواجب على المحاربين من اجل المسيح ان يلاحقوا الطائفة المحمدية المقرفة ، في كل انحاء العالم ، وينتزعوها من قواعدها كما ينتزعون الشر ؟ ان سبتة يجب ان تكون البداية .. كم اتساع الاراضي التي يسيطر عليها الاسلام .. فيما وراء سبتة القريبة ؟ هل لافريقيا من نهاية ام تراها تمتد من القطب الى القطب؟

واين تقع مملكة Prester John بطل المسيحية الذي تفصله عنا آماد بعيدة ، والذي سيرحب - بكل تأكيد - بأي مساعدة نقدمها له ضد العدو المشترك . لو ان برسترجون يستطيع التحالف مع مسيحي الغرب الا يستطيعون عند ذلك تدمير الاسلام . واين هي بلاد برسترجون ؟ هل هي على طريق الهند(١٨)"؟

لقد كانت هاتان القضيتان يشغلان هنري الملاح وتورقانه ومن اجلهما خصص كل جهوده وكل حياته . وبعد موت هنري تبني الفكرة الملك افونسو الخامس ، وحملها بعده ابنه دون جوان الثاني الذي كان مصمما على متابعة اكتشاف ساحل غينيا - الذي بدأ اسلافه باكتشافه - اذ بدأ له انه عن طريق

ذلك الساحل سوف يصل الى بلاد برسترجون التي سمع تقارير عنها . ومن خلال ذلك الطريق يمكن ان يصل الى الهند غير انه لم يكتف بتوجيه كل جهوده على امتداد غرب افريقيا ، بل انه ارسل مبعوثين الى مصر لجمع المعلومات عن الطريق الى الهند ، ومحاولة الوصول الى اثيوبيا وتوصيل رسالة منه الى برسترجون (١٩).

وتابع الجهود بعد ذلك هو وقادته حتي تمكن احد مبعوثيه من الوصول الى ملك اثيوبيا سنة ١٤٩٤م ، اي بعد اربع وثلاثين سنة من موت هنري الملاح.

هكذا كانت البداية التي ارتبطت بثلاثة اهداف واضحة :

١ – هدف ديني يرمي نصرة المسيحية وتكتيل قواها ونشر عقيدتها .

٢ – ويرتبط بالهدف الديني ايضا ويتشعب منه رغبة جامحة في تدمير المسلمين وبادتهم واستعمار اوطانهم وسلبهم تجارتهم.

٣ – هدف تجاري استعماري يرمي الى الحصول على ارباح التجارة الشرقية واحتكارها من خلال الوصول الى الهند بالدوران حول افريقيا.

ولكن اذا كانت هذه الاهداف موجوة في البداية ، ايام هنري الملاح فهد استمرت في المراحل التالية ـ اثناء الوجود البرتغالي في الخليج العربي؟.

هل استمرت الاهداف على حالها ؟

اذا كانت هذه الأهداف الثلاثة قد شكلت الدوافع لحركة البرتغاليين ايام هنري الملاح فهل ظلت مؤثرة وموجهة للسياسة البرتغالية وللتحركات العسكرية البرتغالية بعد وصول البرتغاليين الى الخليج العربي اثناء سيطرتهم عليه ؟ لامراء في ان طريقنا لمعرفة الاجابة على هذا التساؤل لابد ان ينحصر في استقراء سياسة البرتغاليين وتحركاتهم العسكرية في الخليج العربي والبحار العربية عامة

بعد نجاحهم في الوصول الى الهند . وهذه هي الملاحظات التي تكونت لدى الباحث الحالي من خلال المصادر:

اولا: لقد استمر اهتمام البرتغاليين بالتحالف مع اثيوبيا حتي بعد ان اكتشفوا ان شخصية Prester John كانت شخصية وهمية اقرب ما تكون الى الخرافة ووجدوا المملكة الحبشية واسرتها الحاكمة في غاية الضعف وفي مستوى متدن من البدائية.

فبعد وصول المبعوث البرتغالي الى اثيوبيا (الحبشة) سنة ١٤٩٤م كما ذكرنا استمر تبادل الرسائل بين الجانبين ووصلت قوة عسكرية برتغالية الى السواحل الاثيوبية واشتركت في حرب ضد مسلمي الساحل الافريقي في جانب الاثيوبيين مساندة لهم.

ومن الجانب الحبشي بعثت الملكة هللينا ـ الوصية على عرش اثيوبيا رسالة الى ملك البرتغال ، حملها سفير يدعى ماثيو ، حيث حذرت الملكة البرتغال من ان السلطان المملوكي في مصر يبني اسطولا لمهاجمة وتدمير السفن البرتغالية . وتوجه السفير المذكور الى الهند ليستقل سفينة برتغالية من هناك تحمله الى لشبونه. وفي الهند استقبله البوكيرك باحتفاء كبير (٢٠).

وكان البوكيرك يخشى من تعاون بين العثمانيين والمماليك . ولذا فقد رأى من الضروري للبرتغال ان تسيطر على ـ البحر الاحمر ، وكتب الى ملكية برجاء مشدد كي يسمح له بقيادة حملة بحرية الى البحر الاحمر عبر باب المندب في تلك السنة . ولم ينس البوكيرك ان يذكر في الرسالة ماكان من اثر لقدوم السفير الاثيوبي (ماثيو) وقال ان الحملة المقترحة . ينبغي ان تكون البداية لتدمير بيت مكة (يقصد الكعبة) وان ذلك سوف يملأ قلب السيد المسيح بالفرح والسرور(٢١).

وعندما وصل السفير الاثيوبي الى لشبونة استقبله الملك (دون مانويل) بفرحة غامرة : واخيرا برستر جون ! وركع ليتسلم الصليب الذي حمله السفير هدية له ، وعينا الملك تفيضان بالدموع ،

وشكر الله انعم عليه بهذه الهدية ، وبخطابات وسفير من لدن ملك عظيم . وفي الحال كتب دون مانويل خطابا الى روما ليخبر البابا بهذا الوصول السعيد (٢٢).

وتبين لنا الوثائق والمصادر البرتغالية انه بمجرد نجاح البرتغاليين في الوصول الى الهند سنة ١٤٩٨م كان الهدف الديني اهم اهدافهم.

ثانيا : ففي الرحلة الثانية التي قام بها فاسكو داغاما الى الهند سنة ١٥٠٠ م نجده يصطحب معه ثمانية من الرهبان الفرنسسكان ليتولوا مهمة نشر المسيحية بين الهنود ة؛ وكان هولاء الثمانية اول جماعة تبشيرية برتغالية تصل الى الهند . وقد صار احدهم - فيما بعد - اسقفا ورئيسا لمحكمة التفتيش في ممتلكات البرتغال في الهند ، وبعد ذلك ارتقى الى مرتبة رئيس اساقفة Archbish-op.(٢٣).

وليس مما يعنينا في هذا البحث ان نروي قصص المذابح والقساوات التي ارتكبها البرتغاليون ضد المدن والسلطنات والقرى الاسلامية في ساحل افريقيا الشرقي ، فهذا يخرج بنا عن موضوعنا ، لكننا سننقل بعض ماروته المصادر عن هذا اللون من الحرب الطافحة بالتعصب الديني الحاقد في البحار العربية.

ثالثا : ففي سنة ١٥٠٢م بينما كان فاسكو داغاما يمخر عباب بحر العرب (شمال المحيط الهندي) متجها من ساحل افريقيا الى الهند في شهر تموز (يوليو) من تلك السنة نجده يأمر رجاله باعتراض سفينة عائدة من مكة المكرمة وهي تحمل حجاجا مسلمين عائدين الى بلدهم كاليكوت - على الساحل الغربي للهند - بعد اداء فريضة الحج. وبعد الاستيلاء على السفينة امر رجاله بابادة جميع ركابها (٢٤).

رابعا : وتوضح المصادر ان البرتغاليين رتبوا تحركات اسطولهم - منذئذ لتكون قادرة على اعتراض

جميع السفن العربية الاسلامية القادمة من الهند او من افريقيا متجهة الى شواطيء الحجاز او الخليج او الشواطيء الجنوبية اليمن وعمان ، وكذلك اعتراض جميع السفن الخارجة من موانيء هذه السواحل ذاهبة الى الهند او شرق افريقيا . والهدف الرئيسي من وراء كل ذلك فرض الحصار على الموانيء الاسلامية والقضاء على النشاط التجاري الاسلامي المستقل (٢٥).

خامسا : وعندما هاجم البرتغاليون سوقطرة للاستيلاء على حصنها سنة ١٥٠٧م كانت لديهم اوامر من ملكهم دون مانويل ان ينشروا اسم المسيح في جميع ارجاء البلاد التي فتحها . وعندما رفضت الحامية الصغيرة في حصن سوقطرة طلب الاستسلام ، ودعا قائد الحملة البرتغالية تريستان داكونها (Tristao da Cunha) ضباطه للاجتماع من اجل اتخاذ القرار نجدهم يتفقون جميعا على ضرورة مهاجمة القلعة ، مؤكدين ان المسيح سيساعدهم ويذل كبرياء المسلمين ، اذ ان القلعة - وان بدت قوية من الخارج - فقد كانت صغيرة جدا بحيث لاتتسع الا الى عدد قليل من المدافعين لايمكن ان يصمدوا لقوة الاسطول . وبمجرد ان تمكن المهاجمون من اقتحام القلعة والالتحام في قتال شرس مع حاميتها الصغيرة التي ابيدت بكاملها باستثناء مقاتل واحد سقط في الاسر نجدهم يتوجهون الى مسجد سوقطرة فيقيمون فيه احتفالا ويحولونه الى كنيسة يطلقون عليها اسم (Our Lady of the victory) ويقيم احد الرهبان المرافق للحملة قداسا حيث اغرورقت عيون الجنود بالدموع تأثرا بهذا الموقف ، وباقامة هذا القداس في مكان يبعد كل هذا البعد عن ارض البرتغال" باسم سيدنا يسوع المسيح ، وفي هذا البيت (يقصد المسجد) موطن الكفر والقذارة"(٢٦).

سادسا : وعندما اجتاح الفونسو دالبوكيرك بلدة قريات على ساحل عمان سنة ١٥٠٧م امر بقتل جميع سكانها من الرجال والنساء والاطفال ، ليثير فيها الرعب والفزع ، وعندما تم له ذلك امر بجمع كل مايمكن العثور عليه من المواد التموينية واي نوع من الامدادات التي يمكن الاستفادة

منها ونقل رجاله الى السفن كل ماستطاعوا حمله ، ثم امر باحراق ماتبقى حتى لايأتي احد من المسلمين ويستفيد منه ، ثم انه امر باشعال النار في البلد كلها ، لم يستثن بيتا ، حتى المسجد ، الذي قال عنه هو نفسه ، انه كان واحدا من اجمل المباني التي رأتها عيناه.(٢٧).

وفي قلهات يفعل البوكيرك الشيء نفسه تقريبا ، ويعود الى سفنه فيشكر سيدنا المسيح الذي منحه كل هذا الفضل ، واعطاه هذه المدينة (٢٨) . وفي مسقط يتكرر نفس ماحدث في قريات ، فيقتل جميع السكان بما فيهم النساء والاطفال وتحرق المدينة بعد نهب كل ما استحسنه الغزاة وبعد ذلك ينتقل الموكب الى صحار وخورفكان حيث تكررت العملية في خورفكان(٢٩).

وفي رسالة كتبها الفونسو البوكيرك الى الشاه اسماعيل الصفوي وارسلها مع مبعوث خاص قال البوكيرك ان لديه اوامر من سيده ملك البرتغال بتدمير اي سفينة من سفن السلطان يمكن ان تدخل مياه الهند ، ويتحدث للشاه متفاخرا عن انتصاره في ديو . ثم يدعوه الى التعاون والتحالف مع ملك البرتغال ، فاذا تم هذا التحالف ، فانه يدعوه الى الزحف على القاهرة والاستيلاء على اراضي السلطان الاعظم وفي هذه الاثناء فان ملك البرتغال سوف يزحف على القدس ويستولى عليها وعلى كل الاراض الواقعة في تلك الجهات(٣٠).

واوصى البوكيرك مبعوثه بأن يقول للشاه انه عندما ينهض ويهاجم مكة ليستولى عليها فانني سوف ادخل البحر الاحمر واشق طريقي الى ميناء جده ومعي الاسطول ، وسأفعل الشيء نفسه عندما تكون لديه الرغبة في مهاجمة ارض الجزيرة العربية وعدن (٣١).

ولم تكن هذه الروح الصليبية عند البوكيرك وحده ولاعند فاسكو داغاما وحده بل انها سيطرت على سلوك البرتغاليين منذ فاسكو داغاما والى ان تم خروجهم من المنطقة ، بل اننا نقرأ في وثيقة برتغالية هي عبارة عن خطاب موجه الى ملك البرتغال صادر في ١/١١/١٥١٠م كتبه (Joao Brandao) ان الامبراطور (ماكسمليان الاول هابسبورغ ١٤٩٣ - ١٥١٩م) كتب الى

زوجته بأن البابا نقل اليه اخبارا تفيد ان الاسطول البرتغالي في الهند قد توجه الى مكة وفتحها واحرق المسلمين فيها وغنم غنائم جزيلة ، وتقول الرسالة ان قصر الامبرطور غمره الفرح بهذه الاخبار ، وقد افترض (Joao Brandao) ان هذه الاخبار مرسلة من الاسكندرية (من بعض الجواسيس) ولذا فهو يعتبرها صحيحة بشكل عام(٣٢).

ويبدو ان هذه الاشاعة الكاذبة انتشرت وارتفعت الى هذا المستوى على اثر حملة البوكيرك على البحر الاحمر ومكثه هناك قرابة شهرين دون ان يتمكن من تجاوز جزيرة قمران شمالا بمسافة كبيرة وقد فشلت حملته تلك كما فشل في هجومه على ميناء عدن وارتد خائبا(٣٣).

تاسعا : وعلى ضوء ماذكره البوكيرك في احدى رسائله نعرف ان حملته على البحر الاحمر كانت بناء على امر من ملك البرتغال . غير ان البوكيرك كان شديد الحماس للحملة ، حيث عرف عنه انه كان مصمما على انجاز عملين : احدهما ان يحول مجرى النيل الى البحر الاحمر ليمنعه من المرور في ارض مصر ، وبذلك يحولها الى صحراء قاحلة اما العمل الثاني فقد كان يريد ان ينبش قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٤).

عاشرا : وفي سنة ١٥٥٠م نجد جورج كابرال ، حاكم الهند البرتغالي يكتب رسالة الى ملك هرمز بتاريخ ٢٥ اذار (مارس) من نفس السنة يحثه فيها على اعتناق الديانة المسيحية ، وينصحه بان يأخذ المشورة من الاب (الكاهن) مستر غاسبر (Mestre Gaspar) الذي كان يعيش في هرمز ، ويطمئن كابرال الملك بالايخشى شيئا على مملكته في حال تحوله الى المسيحية ، لان مركزه سيقوى(٣٥).

حادي عشر : وفي رسالة اخرى كتبت في مسقط في ١٤/٩/١٥٥٠م نجد بيرو لوباتو (Pero Lo-bato) الذي كان رئيس الوكالة البرتغالية في مسقط يخاطب القس مستر غاسبر ويخبره انه ابدى لاعيان مسقط وسادتها شوقه لان يعتنقوا المسيحية ، وانه يرغب في بناء كنيسة في المدينة ، وقد

ابدى اهل عمان رغبتهم في اعتناق المسيحية (ذلك ماقالته الرسالة) وانهم ينتظرون وصول مبشر ، ويطلب لوياتو من الاب غاسبر ان ينتقل الى مسقط ويترك الكنائس التي في هرمز في رعاية كاهن آخر(٣٦).

ثاني عشر : وحتى اواخر العهد البرتغالي في الخليج نجد ملك البرتغال يكتب الى نائبه في الهند طالبا اتخاذ اجراءات ضد مسلمي الجزيرة العربية الذين يذهبون للتجارة مع مدغشقر . وتشترط رسالة الملك عدم الاضرار بالخزينة الملكية . وقد كتبت الرسالة في لشبونة في ١٦٤٦/٣/٢٦ (٣٧).

وفي رسالة اخري يوصي دون جوان الرابع ملك البرتغال ، بتمييز المسحيين ومحاباتهم بكل وسيلة ممكنة (٣٨).

ثالث عشر : ومن ناحية اخرى مارس البرتغاليون عمليات نهب واستغلال شنيعة لشعوب المناطق التي استعمروها ، وفاقوا في ذلك غيرهم من المستعمرين . ولعل المعاملة التي لقيتها هرمز تعطي مثلا واضحا على مدى هذا الاستغلال . كانت هرمز جزيرة صغيرة لا ماء فيها ولا شجر وزرع اجتاح البرتغاليون ممتلكاتها على ساحل عمان ودمروها تدميرا ، ثم جاء دور هرمز نفسها . وعندما تمكنوا منها كانوا بحاجة الى ان يظل فيها اهلها وحكومتها ليوفرا المال للوجود البرتغالي عبر التجارة التقليدية التي اعتادوها . ولولا ذلك لاصبحت الاقامة فيها مكلفة جدا للبرتغاليين.

رابع عشر : لقد افترضوا ان هرمز وممتلكاتها صارت ملكا لملك البرتغال ، وان ملك البرتغال ولى حكمها ملكها المهزوم لقاء الضرائب والاتاوات الباهظة . وفي اول اتفاقية بين البوكيرك ووزير هرمز فرض البوكيرك اتاوة سنوية مقدارها خمسة عشر الف (شرافين (٣٩) Xerafin) لكن اتفاقيات اخرى فرضت فيما بعد خاصة في عهد الحاكم البرتغالي د. دوارتي دي منزيس حيث اصبح المبلغ ستين الفا . وكان البرتغاليون القادمون الى هرمز لايدفعون جمارك على مايحملونه من متاجر ، بينما كان العرب والمسلمون ـ حتي تجارهم القادمون على سفن برتغالية ـ يدفعون الرسوم

الجمركية . هذا في حين ان اي سفينة غير برتغالية لم يكن يسمح لها بالابحار الا بتصريح برتغالي مدفوع الثمن (٤٠).

وهكذا يتضح من خلال هذا الاستعراض السريع لبعض نماذج الوثائق وبعض انماط السلوك البرتغالي ان اهداف البرتغاليين ظلت كما هي ، نصرة المسيحية ونشرها كلما امكن ذلك ، وحرب المسلمين وابادتهم والسيطرة على بلادهم بكل ما اوتى البرتغاليون من قوة ، وبكل ما اوتوه من حيلة لتحريض القوى الاسلامية بعضها ضد البعض الآخر ، هذا فضلا عن هدف السيطرة التجارية ، والتوسع والسيطرة الاستعمارية.

البريطانيـــــــــون :

لقد بدأ البريطانيون تطلعهم الى الشرق في اطار تجاري من ناحية ثم في اطار الاندفاع نحو الاكتشافات الجغرافية والتوسع الاستعماري ، تلك الحركة التي بدأتها البرتغال واسبانيا كما هو معروف . ولقد سار الفرنسيون والهولنديون على نفس خطا بريطانيا . ولقد كنا اشرنا من قبل الى الاجراء الذي اتخذه البابا حين قسم العالم غير الاوروبي بين اسبانيا والبرتغال بخط وهمي امتد من القطب الى القطب (٤١). ثم جاءت الثورة اللوثرية ، وتراكمت مشاعر الغيرة والحسد بفعل ماجناه البرتغاليون والاسبان ، وتحرك البرتغاليون والهولنديون نحو الشرق . لقد كان التحرك تجاريا في خطواته الاولى . وليس ادل على ذلك من ان التجار والمغامرين التجاريين هم الذي سعوا بالحاح للحصول على قرار ملكي بتأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية . وعندما نشأت الشركة بشكل قانوني يوم ١٢/٣١ سنة ١٦٠٠م سميت باسم حاكم وجماعة تجار لندن المتاجرون مع جزر الهند الشرقية.- The Governor and Company of Merchants of London, Trading to the East Indies."

وقد خول مرسوم انشاء الشركة اصحابها ومستخدميها شراء الاراضي وبيعها والتصرف بها

، ونقل البضائع والمتاجرة بها مع الهند الشرقية ، وقد قصد بهذه العبارة جميع الاراضي الواقعة بين رأس الرجاء الصالح ومضيق ماجلان.(٤٢)

قوى اوربية اخـــــــرى :

ومن نفس المنطلقات التجارية والاقتصادية انطلق الهولنديون مدفوعين بضيق اراضي وطنهم وبرغبتهم في مغانم التجارة والتوسع الاستعماري . لقد اشتغلوا طوال القرن السادس عشر بنقل التجارة بين مواني وبلدان اوربا الغربية . وكانوا يشترون بضائع الشرق من تجار ميناء لشبونة . ثم جاء توحيد البرتغال واسبانيا وثورة الاراضي المنخفضة لتدفعهم الى البحث عن طرق وميادين جديدة لانشطتهم . لقد اغلق ميناء لشبونة في وجههم سنة ١٥٩٤ . وبدلا من ان يستسلموا ويندبوا حظهم نجدهم يسيرون اول رحلة بحرية لهم الى الهند في السنة التالية (٤٣) . وفي سنة ١٠٦٢م انشأوا شركة الهند الشرقية الهولندية The Duch East India Company لتمارس التجارة في المنطقة الممتدة بين رأس الرجاء الصالح ومضيق ماجلان . وسرعان ما انفجرت غيرتهم المكبوتة من البرتغاليين ، فقبل نهاية عام ١٦٠٢م سنة انشاء الشركة ، كانت خمسا وستين سفينة هولندية قد زارت الهند . وقد ثبت الهولنديون اقدامهم في اندونيسيا ، وانتزعوا من البرتغاليين كثيرا من مراكزهم التجارية ، بل انهم استولوا خلال ثلاث عشرة سنة (١٦٠٢ ـ ١٦١٥م) على ٥٤٥ سفينة برتغالية واسبانية . كما انهم وجدوا لهم موطيء قدم في امريكا الشمالية حيث انشاوا مستمرة سموها هولندا الجديدةNe Netherlands وسموا عاصمتها امستردام الجديدة ، وهي التي اعاد الانكليز تسميتها بنيويورك (٤٤).

وقد رأى المؤرخ الكبير ارنولد توينبي في هذه الحركة الاوروبية للسيطرة على المحيطات عملية تندرج في اطار الصراع بين اوروبا والعالم الاسلامي غرضها تطويق البلاد العربية والاسلامية . وباتمام هذه العملية فان الغرب قد القى وهقا حول عنق الاسلام بفضل فتحه للمحيطات لكنه ـ اي الغرب ـ لم يتجرأ على ان يشد الحبل ليضغط على عنق فريسته الا عند حلول القرن التاسع عشر

الميلادي (٤٥) Indeed, before the end of the sixteenth century, The West,thanks to its. conquest of the Ocean, had succeeded in throwing a lasso round Islam's neck; it was not till the nineteenth century that the West ventured to pull the rope tight. "

ويمكن ان نقول باختصار انه اذا كان البرتغاليون قد وضعوا الهدف الديني التبشيري ، ومحاربة المسلمين في مقدمة اهدافهم فان البريطانيين والقوى الاوربية الاخرى اعطت اولوية للسيطرة التجارية والسيطرة الاستعمارية وانشاء المستعمرات .

ونتيجة للتنافس الشديد بين هذه القوى الاوروبية ، ذلك التنافس الذي تحول الى صراع عسكري سافر ، فقد اصبح استبعاد القوى الاوربية الاخرى هدفا رئيسيا لكل منها . وقد تأكد هذا الهدف بالنسبة لبريطانيا بعد ان تمت لها السيطرة على الهند ، كما ذكرنا .

وقد زعم ممثلو بريطانيا في المرحلة الاخيرة التي بدأت منذ اواخر القرن الثامن عشر ، بأن اهداف وجودهم في الخليج تنحصر في منع القرصنة ، ومنع تجارة السلاح ، ومنع تجارة الرقيق وفرض السلم العام وحرية الملاحة (٤٦) غير ان هذا الادعاء لم يكن في حقيقة سوى ذريعة لتقديم مبرر انساني وقانوني يتفق - مع القيم والمثاليات المقبولة دوليا ، ومن ناحية اخرى كان يخفي او يراد له ان يخفي - كون الوجود البريطاني في الخليج يشكل طليعة متقدمة ترد اي خطر عسكري وسياسي قد يهدد الوجود البريطاني في الهند . ويمكن ان نضيف الى هذا انه كان يشكل حلقة في الطوق الذي اراد الغرب الاوروبي ان يفرضه حول العالم الاسلامي ، حسب تأكيد المؤرخ والفيلسوف البريطاني الراحل ارنولد توينبي (٤٧).

اهداف العثمانيين وخصائص الدور العثماني:

ماذا كانت اهداف العثمانيين من وراء قدومهم الى منطقة الخليج العربي؟

اذا كان من اهداف البرتغاليين نصرة المسيحية وتغليبها ونشر عقيدتها واذا كان من اهدافهم مهاجمة المسلمين وتدمير مقدساتهم ، فان هذه الاهداف لايمكن ان تكون من ضمن اهداف العثمانيين . وهذه بديهية لاتحتاج الى دليل . وهكذا تتحدد اول مغايرة ، واول اختلاف.

ولكن البرتغاليين والقوى الغربية الاخرى جاءوا لانتزاع التجارة من ايدي المسلمين وتحويل طرقها عن بلادهم لتكون تحت سيطرة هذه القوى الغربية . ثم تنافست هذه القوى الغربية بحكم وجودها معا وسعيها للسيطرة على شيء واحد فارادت كل منها ان تستأثر بمغانم وارباح التجارة منفردة . فهل كانت للعثمانيين اهداف تجارية؟ وهل كانوا يريدون ان يدخلوا ميدان المنافسة ليستأثروا بالفريسة دون غيرهم؟

ان الواقع التاريخي يثبت غير هذا ، فالمعروف عن العثمانيين انهم بدأوا شعبا بدويا محاربا ، وقد ظل اهتمامهم الرئيسي منصبا على الحرب والفتوح وتنظيم الجيوش والحكم . ولا مراء في ان البلاد التي دخلت تحت سلطانهم والشعوب التي اصبحت ضمن رعاياهم ضمت اناسا وفئات من التجار ذوي التقاليد العريقة في حقل التجارة سواء في ذلك البلاد العربية مثل مصر والشام العراق وشمال افريقيا او بلاد اوربا الشرقية .

لكن لم يعرف عن الدولة العثمانية انها عنيت بتجارة شعبها من حيث حمايتها من المنافسة الاجنبية . بل المعروف عكس ذلك تماما اذ اعطى العثمانيون الحرية الكاملة للتجار الاجانب وقدموا لهم التسهيلات والتشجيع . ولم يكن هذا التساهل او التسهيل خضوعا للقوى الاوروبية ـ كما قد يظن بعض الناس ـ بل انه حدث في اوج عصر القوة والثروة والتفوق . وهذا الذي اقوله ليس من قبل المديح او الثناء على الدولة العثمانية ، بل ربما كان الافضل لو ان تلك الدولة وفرت قدرا من الحماية من المنافسة لرعاياها من التجار ، ولكنني اقوله من قبيل ابراز الحقيقة . وهو بعد شهادة من مصدر اوروبي غربي وليس من مصدر اسلامي متعاطف مع العثمانيين : يقول الاستاذ كريسي.

ومهما كان حكم علماء الاقتصاد السياسي في عصرنا على تشريعات سليمان القانوني المتعلقة بالاجور والصناعات وتجارة القطاعي ، فان ثناءهم الارفع ينبثق وينصب على المبدأ التحرري المستنير الذي قوبل التاجر الاجنبي على اساسه وكان موضع ترحيب في اراضي الامبراطورية . لقد منح سليمان اول امتيازات تكفل للتاجر الاجنبي حماية كاملة لشخصه ، وممتلكاته ، وممارسته لشعائر الدينية ، وحماية احتكامه للقوانين الخاصة المطبقة في بلده . هذه الامتيازات كلها منحها لفرنسا سنة ١٥٣٥ . وكل مافرض على البضائع الاجنبية كان رسما جرمكيا بالغ الضآلة . اما نظام الرسوم الرامية الى الحظر والحماية فلم يكن معروفا لدى العثمانيين على الاطلاق (٤٨).

ولم يعرف عن الدولة العثمانية لافي عصر قوتها ولا في عصر ضعفها اي طموح للمشاركة في التجارة الدولية او مساندة رعاياها الذين قد يمارسون التجارة مع الخارج ، استيرادا او تصديرا والحقيقة انني وجدت من بين وثائق الارشيف العثماني او امر من استنبول الى والى بغداد لتسهيل تسيير سفن تجارية انكليزية في نهر الفرات تشجيعا للتجارة (٤٩).

اذا لم يكن الهدف هذا ولا ذاك فلماذا جاء العثمانيون الى منطقة الخليج العربي اذن؟

هل بدافع الاستعمار ، اسوة بالدولة الغربية التي سبقتهم ؟

لقد جاء العمثانيون بعد سنوات من مجيء البرتغاليون ، لم يجيئوا لتجارة ولا لنشر دين او مذهب . ومن المعروف بداهة حتي لانصاف المتعلمين ان قيام الدول الاستعمارية بفرض سيطرتها على بلد معين ، او شعب معين انما كان يهدف لتحقيق مكاسب اقتصادية واضحة ومباشرة ، او تحقيق مكاسب غير مباشرة ، كالمكسب الاستراتيجي مثلا . وهذان الهدفان غير واردين بالنسبة للعثمانيين في منطقة الخليج العربي ، اذ لم يسيطروا على مناطق كان يمكن ان تنفعهم اقتصاديا ، وكا وجودهم كله تضحيات وخسائر ، بينما لم تكن لهم خطوط مواصلات دولية مع الشرق الاقصى ولم تكن لهم مستعمرات في الهند واندونيسيا ليحافظوا عليها . ومن المهم ان ننظر بشيء من التأني لكيفية مجيء

العثمانيين الى الخليج العربي.

كان توجه العثمانيين كله منصبا نحو التوسع والاستقرار في شرق اوربا . ولم يقدموا الى العالم العربي ولم يحاولوا دخوله الا بعد وصول البرتغاليين الى الشواطيء العربية في المحيط الهندي والخليج العربي بحوالي خمسة عشر عاما . هذه الاعوام الخمسة عشر حملت في طياتها الاحداث التي شدت العثمانيين الى المنطقة العربية والاحداث كلها معروفة ، ولسنا نحتاج كثيرا من الشرح ، بل نكتفي بمجرد التذكير.

(١) فقد حدث في هذه الفترة القصيرة مجيء البرتغاليين الى الخليج وحصارهم للبحر الاحمر على النحو الذي ذكرناه في الصفحات السابقة ، فضلا عن محاولتهم غزو الحجاز ، وتدمير المراكز الاسلامية على الساحل الافريقي ومهاجمتهم لسفن الحجاج وابادة ركابها . زياة على مهاجمتهم للسفن التجارية.

(٢) وفي الفترة نفسها ظهر الشاه اسماعيل الصفوي ، كما اوجزنا في الصفحات السابقة ايضا ، لكن ظهور الشاه لم ينحصر في ايران ومنطقة الخليج ، لقد كانت اطماعه تشمل اراضي الدولة العثمانية في آسيا الصغرى وتشمل اراضي سلطنة المماليك الممتدة الى شمالي بلاد الشام بجانب حرصه على الاستيلاء على العراق. وهذه الاطماع لم تكن مجرد تهديد وهمي ، بل انها دخلت مرحلة التنفيذ الفعلي وكان اسماعيل الصفوي قد تحول من كونه رجل علم ودين الى قائد عسكري وسياسي سنة ١٤٩٧م، اي قبل سنة واحدة من وصول البرتغاليين الى الهند ، وفي تلك السنة استولى على باكو وشماخة ، وفي سنة ١٤٩٩ استولى على شروان ، ومالبث بعد ذلك ان هزم التركمان في معركة نخشوند ، وهبط على تبريز ، ثم طارد الواند ـ حاكم المقاطعة الشمالية من دولة الخروف الابيض ـ الى ارزنجان ، فبغداد ، فدياربكر . وخلال سنة واحدة سيطر على غرب فارس حتى شواطيء الخليج العربي . وبعد سنتين آخريين انتشرت قواته الى عمق آسيا الصغرى . وعندها توجه

السلطان مراد ، رئيس دولة (الخروف الابيض) التركمانية الى العثمانيين يطلب مساعدتهم وعاجله الشاه اسماعيل بالهجوم فانهزم مراد وفر ملتجئا الى بلاد السلطان العثماني سنة ١٥٠٧م(٥) بينما كان البوكيرك يجتاح سواحل عمان ومملكة هرمز ويدمرها ويخضعها لسلطانه . وفي العام التالي ارسل الشاه احد قادته ـ ويدعى لا لاحسين ـ فاستولى على بغداد ، ثم اتبعها بالموصل . وما أن احل عام ١٥١٠ حتى غدا سيد ايران والعراق تماما(٥١).

وعندما تم للشاه احتلال بغداد اقدم على هدم اضرحة مشاهير علماء السنة ، مثل مشهد الامام ابي حنيفة وغيره ، كما امر بقتل كبار علماء السنة . ووصلت اخبار هذه المذابح الى العثمانيين فاثارت فيهم الحنق والفزع (٥٢) وقد اكد مؤرخ من كبار المتخصصين في تاريخ العراق انه لولا تدخل العثمانيين لظل العراق فارسيا الى الآن (٥٣) ولامراء في ان جميع الحقائق التاريخية المتوافرة تؤيد هذا الرأي الذي قاله هذا المؤرخ .

ولم يتوقف تهديد المد الشيعي الفارسي على العراق والاناضول ، بل ان نواقيسه دقت في القاهرة منذ ان وصلت طلائع قوات الشاه الى ملطية في قلب آسيا الصغرى . ولم تلبث الا قليلا حتي اشتبكت مع القوات المملوكية في معركة كان النصر فيها حليف المماليك . ووصلت كل هذه الانباء الي القاهرة فاقلقت سلطانها قانصوه الغوري(٥٤).

وفي الشرق اشتبك الشاه اسماعيل مع مملكة الاوزبك الاسلامية السنية التي كانت متحالفة مع العثمانيين ضد التوسع الروسي ، فوقعت بين الضغط الصفوي الروسي ونعرف من خبر نقله ابن اياس ان الشاه اسماعيل انتصر على اوزبك خان وقطع رأسه ووضعه في صندوق وارسله الى السلطان قانصوه الغوري في القاهرة على سبيل التهديد (٥٥).

(٣) وفي الوقت نفسه كان الاسبان الذين خرجوا منتصرين بقضائهم على مملكة غرناطة قبل تلك الاحداث بعشرين سنة فقط ، كانوا يهاجمون سواحل شمال افريقيا ويجدون في المتهافتين على

كراسي الحكم من افراد الاسرة الحفصية في تونس من يتحالف معهم . لكن الخطر الاسباني لم يقف عند هذا الحد ، بل كانت الشواطيء المصرية نفسها والاسكندرية بالذات ، تتعرض لتهديدات الاسطول الاسباني حيث جرى اكثر من اشتباك مع المماليك قبالة شواطئها (٥٦).

في اطار هذه الاحداث مجتمعة جاء العثمانيون الى الخليج العربي، بعد ان ورثوا دولة المماليك في مصر والشام ، وبعد ان انضم اليهم الحجاز بمبادرة من شريف مكة تطوعا ، وبعد ان انضم اليهم شمال افريقيا على نفس الاساس.

رابعا : وفي اطار هذه الظروف مجتمعة تطلع العثمانيون الى زعامة وقيادة العالم الاسلامي حيث كانوا في واقع الامر اقوى دولة اسلامية من حيث مقومات القوة العسكرية والسياسية والمادية . وكانت كل خطوة تقود الى خطوات جديدة وتضيف عناصر ومقومات جديدة . فالخطر الصفوي الشيعي على آسيا الصغرى والعراق حرك العثمانيين للرد عسكريا للحفاظ على امنهم ومذهبيا لمناصرة عقيدة شعبهم وعقيدتهم . والشكوك والمخاوف التي شابت علاقاتهم مع المماليك ، وظهور التطلع العثماني للزعامة ، مع المواجهة الحدودية ، كل ذلك حملهم على اجتياح سوريا ومصر وانهاء وجود الدولة المملوكية . وهذه الخطوة خلقت حقائق اخرى مؤثرة ودافعة ، فحتي وقت حدوث الصدام بين الدولتين كانت السلطنة المملوكية تحمل لواء الزعامة في العالم الاسلامي خاصة وانها حرصت على احياء الخلافة العباسية بعد سقوطها في بغداد على يد هولاكو ، واحتضنت الخلفاء وجعلت مقرهم القاهرة . ورغم تفاهة هذه الخلافة وافتقارها لادنى مظاهر القوة والسلطة فقد كان لها اثر معنوي ملموس . فنحن نعرف ـ مثلا ـ ان امراء الدويلات الاسلامية في السواحل الغربية لشبه القارة الهندية كانوا يحرصون على الحصول على تأييد شرعي لسلطتهم من لدن الخليفة العباسي الموجود في القاهرة (٥٧) . وهذا يعني اعطاء مكانة خاصة للسلطان المملوكي المسيطر على الخليفة . فاذا انضاف الى ذلك قوة سلطنة المماليك السياسية والعسكرية ، والصلات التجارية

- خاصة في فترة قوة السلطنة المملوكية - فان الروابط تصبح قوية جدا .

وعندما ضم العثمانيون اراضي السلطنة المملوكية الى امبراطوريتهم فقد ورثوا كل هذه المقومات خاصة وان السلطان سليم الاول حرص على حمل الخليفة العباسي الى استنبول وجعله يستقر فيها (٥٨) . وبغض النظر عن صحة او عدم صحة تنازل الخليفة فيما بعد عن حقه وحق اسرته في الخلافة لصالح العثمانيين فان نقل مقر الخليفة الى استنبول نقل هذا الارتباط المعنوي بين الدويلات الاسلامية وبين الخلافة - على شكليتها - من القاهرة الى استنبول وعضد هذا المعنى وزاد من قوته اعلان شريف مكة انضمام الحجاز الى العثمانيين بكل ماتضمنه من جذب عقائدي ديني بسبب وجود الحرمين الشريفين ومايلحق بهذا الوجود من تاريخ وولاء وعواطف . ولامراء في ان انضمام شمال افريقيا للدولة العثمانية قد اكمل للعثمانيين كل مقومات الزعامة والقيادة وتحمل المسئولية ، سيما وان الدولة العثمانية كانت - في تلك المرحلة - اقوى دولة في العالم ، بكل المقاييس (٥٩).

خامسا : وكانت الدولة المملوكية قد شرعت في التصدي للبرتغاليين في المحيط الهندي بعد سنوات قليلة من وصولهم ، حيث بلغ ذلك التصدي ذروته في معركة ديو البحرية التي منى فيها الاسطول المملوكي بهزيمة ساحقة . ونتبين من المصادر ان السلطان المملوكي ارسل بعض القوات للتمركز في اراضي بعض الدويلات الهندية الساحلية ، وان هذه القوات شاركت في القتال البري ضد الهجمات البرتغالية(٦٠).

واهمية ذلك بالنسبة لموضوعنا تتمثل في ان العثمانيين ورثوا هذا التوجه فيما ورثوه عن المماليك اذ اصبح لزاما عليهم ان يواصلوا التصدي لما فشل فيه المماليك ، بحكم اخذهم القيادة ، ونقلهم الخلافة الى استنبول .

سادسا : روت لنا بعض المصادر ان امراء الدويلات الاسلامية الهندية اوفدوا رسلا الى السلطان

العثماني يطلبون منه العون ضد البرتغاليين (٦١).

في ضوء كل هذا لايجد الباحث اي تعليل لمجيء العثمانيين الى منطقة الخليج سوى الاهدف التالية :

أ ـ حماية الاماكن المقدسة ، اعني الحرمين الشريفين

ب ـ حماية الحجاج وطرق الحج البحرية خاصة.

جـ ـ مديد العون للقوى والمناطق الاسلامية التي تعرضت للهجمات والعسف من جانب البرتغاليين.

د ـ تأكيد الزعامة والقيادة العثمانية للعالم الاسلامي من خلال تحقيق الاهداف الثلاثة السابقة.

ان بعض الباحثين المتصدين للكتابة في تاريخ هذه الحقبة يحاولون ـ عن وعي وقصد او عن غفلة ـ تطبيق مفاهيم او اخر القرن العشرين على تلك القوى والمجتمعات التي عاشت منذ اربعة قرون . وهذا خطأ منهجي دون شك ، ذلك اننا اذا اردنا ان نكتب عن جماعة من الناس ونصدر احكاما على تصرفاتهم يصبح من اهم مايلزمنا ان نعرف عقليتهم وطريقة تفكيرهم ومفاهيمهم العامة والقيم التي يحفلون بها وتدرج هذه القيم في سلم الاولويات . فحتي اواخر القرن التاسع عشر الميلادي كانت مفاهيم الناس السياسية النظرية منبثقة من العقيدة الدينية ، مستندة اليها . ولم تكن المفاهيم القومية التي بدأت تظهر في اوروبا في العصر الحديث قد انتقلت الى العالم العربي والاسلامي بعد.

ولسنا ندعي ان العوامل الاخرى غير الدينية لم تكن موجودة او كانت عديمة الاثر ، كلا ، كان عامل اللغة موجودا لكنه كان ضعيف التأثير بالنسبة للمفهوم الاسلامي الذي يحد القومية في اطار وحدود العقيدة الدينية ، وكذلك كان يحدد الانتماد والولاء السياسي.

ولقد كانت جميع التحركات والثورات المحلية التي حدثت قبل القرن التاسع عشر خاصة تحمل طابعا قبليا ، او تنضوي تحت لواء زعامة شخصية طموحة ، او في اطار محلي ضيق . ولم يحدث ابدا

ان ظهرت حركة ذات توجه وافق قومي بالمفهوم الاوروبي الحديث والمعاصر قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وانطلاقا من هذه الحقائق تطلع العثمانيون الى زعامة العالم الاسلامي ، واختطفوا الخلافة - التي كانت شكلية ومن غير اي مقومات - ليؤكدوا هذه الزعامة ويعطوها سندا شرعيا . وكان رعاياهم من المسلمين ، من العرب وغير العرب يقبلون هذا المنطق. وكان الايمان بمفهوم الامة الاسلامية الواحدة تحت لواء الخلافة الواحدة يطغي على الفروق اللغوية والعرقية ، من الناحية النظرية على الاقل.

ولعل من المناسب ان نلفت النظر هنا الي ان العثمانيين لم تتوافر لهم مقومات المجتمع القومي الواحد - حسب المفهوم الغربي الحديث - حتى في داخل آسيا الصغرى قبل توسعهم في البلاد العربية . صحيح ان نواة تأسيس الدولة كانت تركية ، لكن العناصر الاخرى سرعان ماطغت على بنيتها ، خاصة حينما لجأ السلاطين الى اخذ اعداد من ابناء الشعوب المسيحية التي حكموها ليدخلوهم معسكرات خاصة يدربونهم فيها ويعلمونهم ويغرسون فيهم الولاء للسلطان ، فاذا اتموا تدريبهم انتقلوا الى الحياة العملية ليصبحوا عماد الجيش والدولة والادارة . ولقد تتابعت اجيال من هؤلاء واصبحوا يشكلون نسبة كبيرة . وفي مصر والشام لم تكن هناك دولة عربية ، كانت دولة مملوكية عمادها الجند المماليك وادارتها في ايديهم . اما في العراق فقد كان احتلال ايراني استمر من ١٥٠٨م الى ١٥٣٤م.

وفي اطار هذه المفاهيم لم يكن العربي يشعر او يعتقد - وهو تحت الحكم العثماني - بأن دولة اجنبية تحكمه ولم يكن يرى في جندها وحكام الاقاليم المعينين من قبلها جند احتلال . بل كان يشعر ان الدولة دولته لانها تنضوي تحت راية عقيدته ، وتعمل على نصرتها وتقويتها - سواء كان العمل نظريا او عمليا - وتدافع عن البلاد ضد الاطماع الاجنبية . ومع وجود الفرق اللغوي فان الاجتماع في المساجد ومعرفة الاتراك لشيء من العربية ، وتأثير اللغة التركية بالعربية حروفا وكلمات قد تزيد عن سبعين في

المائة ، وكذلك معرفة العلماء والادباء والاتراك بالعربية ووضعهم كثيرا من مؤلفاتهم بها ، هذا بالاضافة الى عامل المفاهيم الاسلامية الاساسية المشتركة ، كل ذلك اضعف من اثر الشعور بالفروق اللغوية.

ومن ناحية اخرى لم يكن الحكام والاداريون والجند الاتراك الذين تمركزوا في البلاد العربية يرون انهم يحكمون شعوبا اجنبية عنهم يسعون لتحيقق المنافع لبلدهم الاصلي على حسابها ، بل كانوا يشعرون انها جزء من شعبهم . لقد استند التمييز في ذلك العصر على اساس العقيدة فقط ، فأعطى اصحاب العقائد الرئيسية الثلاث : الاسلام والمسيحية ، واليهودية شخصية مميزة في اطار الدولة والوحدة العثمانية . ولذا فاننا نجد اليوم - وبعد سبعين سنة من زوال الدولة العثمانية - في معظم العواصم والمدن الكبرى في البلاد العربية مئات العائلات ذات الاصول التركية (٦٢) . وهناك عائلات مازالت على صلة باقاربها في تركيا . وهنا في منطقة الخليج العربي لم يتيسر للعثمانيين اقامة طويلة ومكثفة سوى في العراق ولذا نجد في المدن العراقية شأن كثير من المدن العربية ، عشرات الاسر ذات الاصول التركية ، وعلى الرغم من قصر مدة اقامة القوات العثمانية في الاحساء نسبيا ، فاننا نجد بعض الاسر ذات الاصول التركية ، جاء الجد الاول لها مع الحملة العثمانية التي جاءت الى تلك المنطقة في منصف القرن السادس عشر (٦٣).

ويبدو لي اننا نستطيع الآن استخلاص خصائص الدور العثماني وان نحددها بما يلي :

١ - لم يكن العثمانيون معادين لأهل مناطق الخليج العربي كما كان الحال بالنسبة للقوى الخارجية الاخرى.

٢ - كان العثمانيون يشعرون بوجود علاقة انتماء متبادلة ، بدرجة او اخرى شعب وبين شعب الخليج على عكس موقف القوى الاخرى التي لم تشعر بأي انتماء او رباط مشترك مع اهل الخليج العربي.

٣ - كان العثمانيون يشعرون بواجب الالتزام بالدفاع عن المنطقة واهلها .

٤ – كان العثمانيون يرون ان من حقهم التدخل في الشؤون الداخلية وبأن هذا التدخل لمصلحة المسلمين عامة ولمصلحة اهل البلد ـ دون تقيد بالمصالح الضيقة للحكام المحليين من الناحية الشخصية ـ ولمصلحة الدولة العثمانية . ومن هنا كان اقدام العثمانيين على عزل بعض الحكام في بعض المناطق العربية غير الخليجية ، كما حدث في جنوب اليمن.

٥ – عانى العثمانيون من ضعف قوتهم البحرية التي لم تكن ندا للقوى البحرية الاوروبية في الخليج العربي ، بينما كان البرتغاليون والبريطانيون والهولنديون متفوقين في هذا الميدان.

٦ – وحيث افتقر العثمانيون الى قوة بحرية متفوقة او مساوية، والى قواعد برية قريبة من ميدان المواجهة ، وحيث انهم معنيون بالدفاع عن الارض ضد سيطرة قوى بحرية فقد كانوا بحاجة الى اقامة قواعد وحاميات في المناطق المأهولة والتي يتوفر فيها الماء وحد ادنى من متطلبات الحياة . وهذا ما اوجد اسبابا للاحتكاك بينهم وبين القوى المحلية ، احتكاكا كان ايجابيا في بعض جوانبه وسلبيا في جوانب اخرى . ومن ذلك الاصطدام بالحكام والقوى المتطلعة الى السلطة.

أما من جانب القوى الاوروبية فلم تكن اهدافهم تسلتزم اقامة قواعد برية للدفاع عن البلاد والسكان ، بل كان ما اقاموه من مراكز يهدف الى السيطرة على التجارة وعلى الممرات البحرية . ومع ذلك فقد قادهم ذلك الى الصدام مع القوى المحلية كما حدث في مسقط ، وفي مسعى ايران لطرد البرتغاليين من هرمز.

ضرورة الدراسة الموضوعية :

ان اظهار حقيقة اهداف الدور العثماني والخصائص التي تميز بها لاتعني ان نسمح لانفسنا بالتحيز للعثمانيين ، فالدراسة الموضوعية شرطها التزام الحياد او ـ على الاقل ـ بذل اقصى الجهد للتقيد بالروح الحيادية . ومهما يكن من امر فان العثمانيين انتهو الى غير رجعة منذ عشرينات هذا

القرن ، وليس ثمة احتمال لعودتهم . ولسنا نرى قبول تمجيد الخلافة العثمانية وقرع الطبول لبطولاتها .

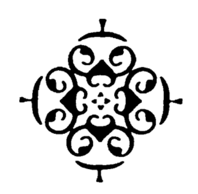
ومن ناحية اخرى فان التساهل في الانسياق مع سيل الدعايات المضادة للعثمانيين- تلك الدعاية التي اطلقها الغربيون ومن تهافوا على الغربيين او قبلوا ان يكونوا ادوات ايديهم او اخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين- لم يخدم اهداف العرب ولا اهداف المسلمين ، بل خدم اهداف الحركة الصهيونية واهداف الاستعمار الانكلو فرنسي.

لامراء في ان الحكم العثماني كان فاسدا في القرون الثلاثة الاخيرة على الاقل حتى اصبح مهترئا ، ولامراء في ان دعوات الاصلاح والتغيير كانت دعوات حق . ومما لاشك فيه ان الحركة القومية التركية التي تمثلت في الاتحاد والترقي ، تبنت سياسة عنصرية معادية للعرب، ولكنها كانت ايضا معادية للعثمانيين ، ليس للاسرة فقط وانما للتوجه والتاريخ ، وكانت هذه الحركة القومية التركية الطورانية مدفوعة بصلات بعض رموزها بالحركة الصهيونية والماسونية ، اي ان اعمالها ومواقفها لايمكن ان تحسب على الدولة العثمانية في اي دراسة حيادية.

ومن نافلة القول ان اشير الى ان ميدان البحث في هذا الموضوع لم يشهد مايستحقه من جهود علمية صادقة وحيادية وجادة . ولعل السنين القادمة تيسر دراسة الوثائق العثمانية وتبعث جيلا من الباحثين الذين يعيدون التوازن الى فهمنا لهذه القضية . ان حاجتنا الى مثل هذه الدراسات لاتنبع من الضرورات العلمية وحدها ، بل انها تنبع ايضا من الحاجات الحياتية من النواحي الاقتصادية والسياسية والامنية ، فتركيا الحديثة واحدة من اكبر واهم واقوى دول منطقتنا التي سماها الغربيون الشرق الاوسط . واقل مانحتاجه نحن العرب وتحتاجه تركيا ايضا هو حسن الجوار المبني على الفهم المتبادل والاحترام المتبادل . صحيح ان اتجاه السياسة التركية كان مناقضا لتوجهات الحركة العربية طوال العقود الستة الاولى من هذا القرن على الاقل ، ومازالت تركيا حريصة على ربط هويتها بأوربا الغربية وليس بالحضارة الاسلامية . ولكن هذا كله لاينبغي ان يصرفنا عن الموضوعية في الدراسة ،

وعن الموضوعية في العلاقة ، وعن النظر في سبل الوصول الى فهم وموقف يحفظ مصلحتنا ويحترم المصالح الموضوعية الحقيقية لتركيا.

وآخيرا فان كثرة منا تنظر الى ماضي العلاقات مع تركيا وحاضرها في اطار اوسع هو اطار الاخوة الاسلامية ، والتاريخ المشترك ، والثقافة المشتركة والمصلحة والمستقبل المشترك ، ولا مراء في ان هذه الكثرة حريصة ايضا على مصلحة بلادنا العربية ، وليس ثمة ماهو انسب واجدى من الدراسة العلمية الموضوعية والحيادية لجمعنا على الموقف والفهم السليم ، باذن الله وتوفيقه...



الحواشي

١ – تقرير مختصر عن هرمز محفوظ في الارشيف البرتغالي ARQIVO NACIONAL DA TORRE DO TOMBO (A.N.T.T.), Coleccao S. Vicente, L^2 15, T^2 II. fls.-29 – 20

وسنختصر اسم الارشيف البرتغالي في المرات القادمة هكذا A.N.T.T.

٢ – S. Vincente, Livro 15, t^2 11, f. 19 – 20

٣ – انظر على سبيل المثال ماكتبه ونقله ; Arnold T. Wilson, The Persian Gulf, p. 101

وانظر ابو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي ، المشهور بابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة (بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٩٦٤) ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٦.

٤ – محمد بن عبد الله بن عبد المحسن آل عبد القادر الانصاري الاحسائي، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد ، القسم الثاني ، بعناية محمد زهير الشاويش (دمشق : منشورات المكتب الاسلامي ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣م) ، ص ١٢٠ ، وانظر د. عبد اللطيف الحميدان "التاريخ السياسي لامارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية" ، مجلة كلية الآداب ، جامعة البصرة ، العدد ١٦ ، ١٩٨٠ ، ص ٣١ ـ ١٠٩.

٥ – Afonso Dalboquerque, The Commentaries of the Great Afonso Dalbo-querque,translated from the Portuguese ed. of 1774 by Walter de Gray Birch

(New Yok : Burt Franklin, reprinted from 1884 ed.), Vol. I, pp. 83 – 84.

٦ – المصدر نفسه ، ص ١٢٤ ـ ١٣١ ، وانظر كذلك مقدمة المجلد الثاني من الكتاب نفسه ص xlv

lii–والمقدمة من عمل المترجم والمحرر Walter de Gray Birch وليست من عمل مؤلف الكتاب

٧ – المصدر نفسه ، المجلد الرابع ، ص ١٣٢ ـ ١٧٤.

٨ – انظر : Rafael Altamira, 'Spain 1412 –1516'The Cambridge medieval History (Cambridge : 1969) vol. VIII, pp. 492–3 ; Edgar Prestage, 'Portugal in the Middle Ages', The Cambridge med. History, Vol. VIII, pp. 524 – 4.

وانظر كذلك

٩ – John bruce, Annals of the Honourable East India Company, (London : 1810), Vol. I, pp. 136 and 229 ; Wilson, p. 159.

١٠ – Bruce, I, pp. 30–29; Wilson, 161–8 ; Lorimer, Gazetteer of the Persian Gulf, I, 69–71,102, 111–112, also pp. 78–9;

وانظر كذلك : د. عبد الامير محمد امين ، المصالح البريطانية في الخليج العربي ، البصرة : مركز دراسات الخليج العربي) ، ص ٢٠.

١١ – Bruce, I, pp. 232–3, 245–9, 263, 267

١٢ – وقدتمكنت بريطانيا من فرض سيطرتها الكاملة على شبه القارة الهندية بعد معركتي Plassey(١٧٥٧) و Bruxar (١٧٦٤) والتي تمكنت من خلالها من انهاء الوجود الفعلي لامبراطورية المغول ، على الرغم من ان الوجود الاسمي استمر حتى سنة ١٨٥٧م . وقبل ان

تطمئن بريطانيا الى استقرار سيطرتها في الهند كان وجودها في الخليج العربي واحدا بين متنافسين على التجارة . ولكن بعد ان سيطرت على الهند اصبح لهذه المنطقة اهمية خاصة باعتبارها طريقا الى الهند ، فضلا عن كونها طريقا تجاريا . وعندما اغلقت هولندا وكالتها في خرج سنة ١٧٦٤م اصبح البريطانيون القوة الاوروبية الوحيدة في المنطقة تقريبا . وهكذا بدأت الفترة التمهيدية لمرحلة الانفراد البريطاني بالسيطرة على هذه المنطقة الحيوية حسب ماهو معروف . وقد كان للتطلعات الفرنسية صوب الخليج اثر حاسم في تسريع استكمال السيطرة البريطانية.

٢١ - A.N.T.T., c.c. III, 14-44.

١٤ - الاحسائي ، تحفة المستفيد ، القسم الثاني ، ص ١٢١ ـ ١٢٣ ، وانظر كذلك لوريمر ، دليل الخليج (الدوحة : الطبعة المعدلة) القسم التاريخي ، مجلد ١ ، ص ١٤ ـ ١٨، رسالة من كوشن في الهند بتاريخ ٢٥/١/١٥٥١م موجهة لملك البرتغال في A.N.T.T., C.C. I – 86 –12

١٥ - الاحسائي ، القسم الثاني ، ١٢٢ ـ ٣

١٦ — E. Sanceau, Portugal in Quest of Prester John (London : Hutchinson & Co., n.d.), pp. 8 – 12.

١٧ - المصدر نفسه ، ص ٧ ـ ٨

١٨ - المصدر نفسه ، ص ٩ ـ ١٠

١٩ - المصدر نفسه ، ص ١٢ ـ ١٦

٢٠ - المصدر نفسه ، ص ١٨ ـ ٢٢ ـ و ٤٥ ـ ٤٧ و ٥٠ ـ ٥٥ وانظر ايضا Elaine sanceau, Indies Adventure (London : Blackie & Son Ltd.), pp. 209 – 210.

٢١ – Sanceau, Portugal in Quest, p. 22

٢٢ – المصدر نفسه ، ص ٢٥.

٢٣ – Walter de Gray Birch, The Commentaries of the Great Afonso Dalboquerque, Vol. II, Introduction, p. xix.

٢٤ – المصدر نفسه ، ص .xix

٢٥ – Afonso Dalboquerque, II, pp. 217–218, 228–231.

وانظر كذلك صورة من رسالة سليمان باشا قائد الاسطول العثماني ، موجهة لملك (كنباية) في الهند A.N.T.T. m CC III – 14 – 44.

٢٦ – Afonso Dalboquerque, Commentaries, Vol. I, pp. 45–52.

٢٧ – المصدر نفسه ، ص ٦٨ ـ ٧١

٢٨ – المصدر نفسه ، ص ٢١٧ ـ ٢٢١

٢٩ – المصدر نفسه ، ص ٧٦ ـ ١٠٤

٣٠ – المصدر نفسه ، مجلد ٢ ، ص ١١١ ـ ١١٤

٣١ – المصدر نفسه ، ص ١١٤ ـ ١١٨

٣٢ – رسالة من Anvers بتاريخ ١ نوفمبر ١٥١٠ م بعث بها Joao Brandao الوكيل في الفلاندرز A.N.T.T., C III – 4 – 40.

٣٣ – للاطلاع على تفاصيل حملة البوكيرك على الحجاز وفشله في احتلال عدن وفي الاقتراب من جدة

، يراجع ماكتبه ابنه الذي تسمى بنفس اسم ابيه في :.Afonso Dalboquerque, Vol. IV, pp. 7–53

وانظر كذلك E. Sanceau, Portugal in Quest, pp. 26–27

٣٤ – E. Sanceau, Indies Adventure, pp. 208, 210–212; Afonso Dalboquerque, I, p. 234, IV pp. 2–3 ; see also the introduction to vol. I of the same, p. xli.

٣٥ – A.NT.T., Biblioteca da Ajuda, MS. 49 – IV – 49 – Jesuitas na Asia. Cartas (1541 – 56) n.46, fls. 100 – 100 v. and Cartas 1541/56 n. 47, fls. 100v.

٣٦ – A.N.TT. , Biblioteca da Ajuda, MS. 49 – IV–49, Jesuitas na Asia. Cartas – 1541/56 n. 48, fls. 101.

٣٧ – A.N.T.T., Manuscitos da Livraria, 1116, d. 54 pp. 601-601.

وتاريخ الرسالة ١٧/٢/١٦٢٤م.

٣٨ – A.N.T.T., Livros das Macoes, no. 57, f^2 21. v. 2^2 via e duplicado com data de 3 Abril 1648.

٣٩ – اعتقد ان الكلمة تحريف لكلمة اشرفي اي الدينار المنسوب الى الاشرف وقد حمل لقب الاشرف غير واحد من سلاطين المماليك آخرهم قانصوه الغوري.

وقد ذكر R.S. Whiteway نوعين من العملة باسم اشرفي:

(1) The Ashrafi of Aden and Madives, (2) the Ashrafi of Hormuz, Cochin and Cylon; (See R.S. Whiteway, The Rise of Portuguese Power in India 1497–1550 (London : Susil Gupta, n.d.), p. 69.

٤٠ – وثيقة عبارة عن عقد بين حاكم الهند البرتغالي د. دوارتي دي منزس وملك هرمز محمد شاه ووزيره الريس شرف الدين . كتبت في هرمز بتاريخ ١٥/٧/١٥٢٣، واشارت مقدمتها الى تفاصيل الاتفاق السابق مع افونسو دا لبوكيرك .A.N.T.T., Corpo Cronologico, II – 109 – 13

٤١ – انظر ص ٥ من هذا البحث ، وانظر حاشية رقم ٨ اعلاه.

٤٢ – Bruce, vol. I, p. 136.

٤٣ – Carlton J.H. Hayes, A Political and Social History of Modern Europe (Shanghai : Special China Ed., the Macmillan Co., 1930), pp. 58 – 59.

٤٤ – Sir Alfred Lyall, The Rise and Expansion of the British Dominion in India (New Delhi : Munshiram manoharlal, a reprint from the 1891 ed. by John Murray of London), pp. 14 – 15; see also : Bruce, I, pp. 26 – 28 ; Hayes, p. 59.

٤٥ – Arnold Toynbee, Civilization on Trial and the World and the West (Cleveland, Ohio : the World Publishing Co., 1965), p. 248.

٤٦ – Arnold Wilson, The Persian Gulf (London : George Allen and Unwin Ltd., 1959), pp. 192 – 230, 269 – 271.

٤٧ – انظر حاشية ٤٥ اعلاه.

٤٨ – Edward S. Creasy, History of the Ottoman Turks (Beirut : Khayat's Reprints, 1968), p. 248.

وانظر ايضا ما قاله Stanford J. Shaw عن عدم مشاركة التجار العثمانيين في التجارة الدولية Stanford J. Shaw, Between Old and New (Cambridge, Massachusetts, 1971), p.5

٤٩ – ارشيف رئاسة مجلس الوزراء ، استنبول ، دفتر مهمة رقم ٢٥١ ، ص ١٠٢ ، تاريخ الوثيقة او اخر شعبان ١٢٥٠هـ (اواخر ديسمبر ١٨٣٤م) ، وهي عبارة عن امر موجه الى علي رضا باشا ، والي بغداد والبصرة بشأن عمل سفينتين بريطانيتين تجاريتين في نهر الفرات بناء على طلب السفارة البريطانية في استنبول ، وذلك لتسهيل التجارة في الولاية . وللدقة اؤكد ان ماطلعت عليه ترجمة مختصرة جدا محفوظة لدى مركز الوثائق والدراسات في ابوظبي وهناك وثيقة اخري من ارشيف رئاسة مجلس الوزراء العثماني ايضا تتناول نفس الموضوع ، وهي ضمن : دفتر مهمة رقم ٢٥٤ وتاريخها اوائل رجب ١٢٥٢هـ (اكتوبر ١٨٣٦م) بشأن قيام الدولة البريطانية بتسيير سفينتين على نهر الفرات لتسهيل التجارة.

٥٠ – محمد بن احمد بن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مجلد ٤ ، ص ١٤٣ . وانظر Stephen Hemsley Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq (Beirut; Librairie Du Liban, an authorized Reprint from Oxford University Press ed.), pp. 17 – 19.

٥١ – Longrigg p. 18 – 19.

٥٢ – المصدر نفسه ، ص ١٨ ـ ١٩

٥٣ – المصدر نفسه ، ص ١٨ .

٥٤ – ابن اياس ، مجلد ٤ ، ص ١٨ـ ١١٩و ٢١و ١٢٣

٥٥ – المصدر نفسه ، مجلد ٤ ، ص ٢٠٧ ، ٢١٩ ، ٢٢١.

٥٦ – المصدر نفسه ، مجلد ٤ ، ص ٩١ و ١٢٩ و ١٤٦ و ١٦٣ و ـ ٤ و ١٨٥ و ١٩٣ ـ ٤ و ٢٠١ و ٢١٨ ـ ٢٢٠.

٥٧ – المصدر نفسه ، مجلد ٤ ص ٢٨٧

٥٨ – ابن اياس ، مجلد ٥ ، ص ١٨٣ ـ ١٨٥

٥٩ – L. S. Starvianos and O.G, Busbecq, republished in John H. Sanunders (editor), The muslim world in the Eve of Europe's Expansion (Englewood Cliffs, N.J. : 1966), pp. 15 – 22.

٦٠ – Afonso Dalboquerque, vol. II, pp. 119. 165 – 7.

ابن اياس ، مجلد ٤ ص ٨٢ و ٨٥ و ١٠٩ و ١٣١ و ١٨٢ ـ ١٨٣ و ١٨٥ و ٣٨١ و ٤٣٦.

٦١ – محمد بن خليفة النبهاني ، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية (القاهرة : المطبعة المحمودية ، ط ثانية ١٣٤٢هـ) ، ص ١٠٥.

٦٢ – محمد المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر (بيروت : دار صادر د.ت) مجلد ٤ ، ص ٤٧٥ ـ ٦ . وانظر المجلد من نفس الكتاب ، ص ١٨ ـ ١٩ و ٩٠ ـ ٩٢ وقارن مع ماكتبه الاحسائي في تحفة المستفيد ، القسم الثاني ص ١٢٢ عن مجيء جد آل الملا مع الحملة العثمانية سنة ١٥٥٥م ، وعن اندماج المحافظ وابنائه في حياة مجتمع الجزيرة العربية.



الجُملة النحوية من خلال ديوان الشاعر العُماني سليمان النبهاني

د. عبد الكريم جواد الزبيدي

الحمد لله الذي خلق الانسان ناطقا ، وجعل لسانه بالاصوات منطلقا ، وهداه الى تأليفها في كلمات ، والى وضعها دالة على المسميات ، ثم جعل فيه القدرة على التأليف بينها في تركيبات مفيدة ، هي الكلام الذي فضله الله به على سائر المخلوقات ، واصلي واسلم على النبي الناطق بالإعرب ، والمخصوص بفضل الخطاب ، والمفضل بتلاوة الكتاب ، محمد وعلى آله الأطياب ، وأصحابه الميامين الانجاب ، وبعد،،،

فقد قرأت ديوان الشاعر العُماني سليمان النبهاني ، فوجدت صاحبه شاعرا مقدما ، ووجدت شعره يطاول شعر الاقدمين فخامة وجزالة ، حتي يخيل الى قارئه احيانا انه يقرأ في ديوان امرىء القيس ، أو أبي فراس ، وهو الى امرىء القيس أقرب من الوقوف على أطلال الاحبة النازحين ، ووصف المحبوبات اللاتي تعلقن به ، فكانت لكل واحدة منهن قصة غرام وردت في قصائده ، وهو إلى أبي فراس أقرب من الفخر ، والغلوفي ذلك أحيانا.

وقد دفعني الإعجاب بشعره إلى دراسة الجملة في ديوانه ، وفق منهج ارتضيته فجاءت الدراسة في كتاب ، انتخبت منه هذا البحث المتواضع ، المقدم الى هذه الندوة الموقرة ، ولعلي بذلك اكون قد اسهمت في بناء منهج جديد في دراسة الجملة في الشعر أو النثر العربي.

وشاعرنا سليمان بن سليمان بن مظفر النبهان عاش في اواخر القرن التاسع واوائل القرن العاشر من الهجرة النبوية ، إذ توفى سنة ٩١٥هـ ، وقيل سنة ٩١٠هـ ، وكان ملكا شاعرا من ملوك بني نبهان بعمان ، خرج على الامام أبي الحسن بن عبد السلام النزوي ، واستولى على عمان (بعد ذهاب دولة آبائه النبهانيين) وحكمها مدة ثم خلعه اهل عمان بإمامة محمد بن اسماعيل.. *

لذلك كان من المناسب أن أقدم هذا البحث الصغير عن شعره إلى (ندوة مكانة الخليج العربي في التاريخ الاسلامي) ، لأن الشاعر خليجي المنشأ ، عاش ضمن الفترة الزمنية التي حددتها الندوة

* الاعلام ، خير الدين الزركلي ، ١٨٨/٣ ، ومعجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة : ٢٦٤/٤ ، ومقدمة ديوانه ، نشر وزارة التراث القومي والثقافة ـ عمان.

المذكورة.

د. عبد الكريم الزبيدي

الجملة النحوية من خلال ديوان الشاعر العُماني سليمان النبهاني

بقلم د. عبد الكريم جواد الزبيدي

ألفصـــــل الاول :

مفهوم الجملة عند النحـــوييـــن

قال سيبويه : «واعلم أنّ (قلت) إنما وقعت في كلام العرب على أن يحكى بها ، وإنما تحكى بعد القول ماكان كلاما لا قولا ، نحو قلت : زيد منطلق ، لانه يحسن ان تقول : زيد منطلق ، ولا تدخل (قلت) .. »(١)

وقد فهم النحويون القدامى ، والدارسون المعاصرون ، من عبارة سيبويه حد الكلام ، وأنه يفترق عن القول ، فهذا ابن جني (ت ٣٩٣ هـ) كان قد جعل الباب الاول من خصائصه في (الفصل بين الكلام والقول) ، فقال : « ... فأما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ، وهو الذي يسميه النحويون الجمل ، نحو زيد اخوك ، وقام محمد ، وضرب سعيد ، وفي الدار ابوك ، وصه ، ومه ، ورويد .. فكل لفظ استقل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه ، فهو كلام.

واما القول فأصله أنه كل لفظ مذل به اللسان ، تاما كان أو ناقصا ، فالتام هو المفيد ، اعني

الجملة ، وماكان في معناها ، من نحوصه ، ومه ، وإية . والناقص ماكان بضد ذلك ، نحو : زيد ، ومحمد ، وإن ، وكان اخوك .. فكل كلام قول ، وليس كل قول كلاما .»..(٢).

والذي يدلك على ان قول ابن جني السابق مؤسس على عبارة سيبويه المتقدمة قوله في موضع آخر : «قال سيبويه : واعلم ان (قلت) في كلام العرب انما وقعت على ان يحكى بها ، وانما تحكي بعد القول ماكان كلاما قولا» ففرق بين الكلام والقول كما ترى .. ثم قال في التمثيل : (نحو قلت : زيد منطلق ، لا ترى انه يحسن (٣) ان تقول : زيد منطلق» فتمثيله بهذا يعلم منه ان الكلام عنده ماكان من الالفاظ قائما برأسه مستقلا بمعناه ، وان القول عنده بخلاف ذلك (٤) .

فابن جني ، كما ترى يفرق بين الكلام والقول ، ويضع حدا للكلام بأنه «ما كان من الالفاظ قائما برأسه مستقبلا بمعناه» ، وهذا الحد مستنبط من عبارة سيبويه وتمثيله ب (زيد منطلق) بعد (قلت) ف (زيد منطلق) كلام قائم برأسه مستقبل بمعناه ، وهو جملة ، كما يرى ابن جني مفسرا عبارة سيبويه السابقة ، اذ قال بعد ذلك : «اذ لو كانت حال القول عنده - يعني سيبويه - حال الكلام ، لما قدم الفصل بينهما ، ولما اراك فيه ان الكلام هو الجمل المستقلة بأنفسها الغانية عن غيرها .» (٥).

و (زيد) و (منطلق) وفق نظام لغوي ، اسماه النحويون بـ (الاسناد) ، بحيث تصبح احداهما مسندا ، والاخرى مسندا اليه فهذا الائتلاف الاسنادي بين الكلمات هو سر الكلام التام الذي يحصل به التفاهم بين المتكلمين.

وقد اشار ابن جني الى هذا بقوله : «الا ترى انك اذ قلت: (قام) واخليته من ضمير فإنه لايتم معناه الذي وضع في الكلام عليه وله؛ لأنه انما وضع على أن يفاد معناه مقترنا بما يسند اليه من الفاعل ....» (٦).

****

ويفهم من كلام ابن جني في هذا البال أن الكلام قد يكون جملة مؤلفة من مسند إليه ومسند ، مثل (زيد منطلق) أو مسند ومسند إليه ، مثل (قام زيد) ، وهو اقل مايبني عليه الكلام ، وقد يكون مؤلفا من جمل كثيرة ، كقصيدة الشاعر ، او خطبه الخطيب ، او مقالة الناثر ، فالجملة الواحدة التي ائتلفت كلماتها وفق نظام الإسناد كلام ، وهي لبنة من البناء العام للكلام.

فالكلام عند ابن جنّي جنس للجمل كما أن الإنسان من قول الله سبحانه : «إن الانسان لفي خسر » جنس للناس ، فكذلك الكلام جنس للجمل ، فاذا قال : قام محمد ، فهو كلام ، واذا قال : قام محمد ، واخوك جعفر ، فهو ايضا كلام ، كما كان لما وقع على الجملة الواحدة كلاما ، واذا قال : قام محمد ، واخوك جعفر ، وفي الدار سعيد ، فهو ايضا كلام ، كما كان لما وقع على الجملتين كلاما » ... .(٧)

****

وكما فهم ابن جني حد الكلام من عبارة سيبويه السابقة ، فهم غيره من النحويين المتقدمين عليه والمتأخرين بعده منها ان الكلام ماائتلف من الكلمات وفق نظام الإسناد ، وافاد معنى مستقلا قائما بذاته ، او افاد معنى يحسن السكوت عليه ، كما جاءت بذلك عبارات بعضهم . فهذا المبرد (ت ٢٨٥ هـ) قد قال : (هذا باب الفاعل ، وهو رفع . وذلك قولك : قام عبد الله ، وجلس زيد . وإنما كان الفاعل رفعا ، لأنه هو والفعل جملة يحسن عليها السكوت ، وتجب بها الفائدة للمخاطب . فالفاعل والفعل بمنزلة الابتداء والخبر ، اذا قلت: قام زيد ، فهو بمنزلة قولك : القائم زيد» (٨).

ويشير بقوله : (وانما كان الفاعل رفعا) الى ائتلاف الفعل مع الاسم وفق نظام الإسناد المقتضي رفع المسند اليه ، وبالاسناد صار الاسم «والفعل جملة يحسن عليها السكوت ، وتجب بها الفائدةللمخاطب».

وقال ابوبكر ابن السراج (ت ٣١٦هـ) : «الكلام يأتلف من ثلاثة اشياء: اسم ، وفعل ، وحرف » (٩). وقال الصُّميري (من نحاة القرن الرابع الهجري):

«الكلام كله يأتلف من اسم وفعل وحرف جاء لمعنى .. والكلام على ضربين مفيد وغير مفيد ، فالمفيد مايتركب من اسمين ، نحو : زيد اخوك ، ومن فعل واسم ، نحو : قام زيد ، ومن حرف واسمين ، نحو : إن زيدا صديقك ، ومن حرف واسم وفعل ، نحو : ليت زيدا يقوم ، ومن فعل واسمين ، نحو : كان زيد اخاك ، وما اشبه هذا من التركيبات المفيدة ...» (١٠).

وقال ابو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) : «الكلام يأتلف من ثلاثة اشياء اسم وفعل وحرف ..» (١١) . ثم قال بعد ذلك : «باب ما اذا ائتلف من هذه الكلم الثلاث كان كلاما مستقلا ، فالاسم يأتلف مع الاسم ، فيكون كلاما مفيدا ، كقولنا عمرو اخوك ، وبشر صاحبك ، ويأتلف الفعل مع الاسم ، فيكون كذلك ، كقولنا : كتب عبد الله ، وسُرَّ بكر..»(١٢).

وقال ابن الخشاب (ت ٥٦٧ هـ) : «وجميع مايتخاطب به الناس من الجمل المفيدة التي سماها جمهور النحويين كلام ، الفاظ مؤلفة، وكل مؤلف فله مفردات منها ألف ، فالكلام مؤلف مفرداته هذه الكلم الثلاث ، فهو ينتظمها ، ومنها ينتظم » (١٣).

وقال في موضع آخر : «اعلم أن الكلم الثلاث اذا الف بعضها مع بعض ، حصل من ذلك ستة تآليف ، اثنان منها مفيدان إفادة مطردة ، وآخر منها مفيد إفادة مخصوصة بموضع واحد مقصور عليه، وثلاثة مطروحة ، لأنها لاتفيد.

والقسمان الاولان : الاسم مع الاسم ، كقولك : زيد منطلق ، والله إلهنا ، والفعل مع الاسم ، كقولك : قام زيد ، وانطلق بشر. والثالث المخصوص ، وهو الحرف مع الاسم ، في النداء خاصة ، كقولك : يازيد . والثلاثة المطروحة هي : الفعل مع الفعل ، والحرف مع الفعل ، والحرف مع الحرف .

فاذا وقعت الفائدة بالتآليف على ماذكرنا ، سمي ذلك المؤتلف كلاما » (١٤).

وانظر الى قولهم : (الكلام يأتلف) و (والكلام مؤلف) ، ففيه حقيقة الكلام ، وهو الائتلاف الحاصل بين انواع الكلم الثلاث الاسم والفعل والحرف ، وفق نظام الإسناد ، فقد يأتلف الاسم مع الاسم ، فيحصل بذلك كلام مستقل يفيد معنى يحسن السكوت عليه ، وقد يأتلف الفعل مع الاسم ، او الحرف مع الاسم ، فتحصل بهذا الائتلاف الفائدة . وقد فسر عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) الائتلاف الوارد في عبارات النحويين بـ (الافادة) . قال : «واعلم ان معنى الائتلاف : الإفادة ، وذلك لايكون الا بين الاسم والاسم ، كقولك : زيد اخوك ، فزيد : مبتدأ ، واخوك : خبره ، وكل واحد منهما اسم ، او بين الفعل والاسم كقولك : خرج زيد ، وسُرّ بكر وانطلق عبدالله ، فهذه افعال ، ومابعدها مخبر عنه .. » (١٥).

وفي اعتقادي أن حد الكلام ، الواقع على الجملة أو الجمل ، عند النحويين الذين تقدم ذكرهم مؤسس على عبارة سيبويه التي صدرت بها حديثي عن الجملة ، فمسألة الائتلاف بين الكلم الثلاث ، الذي يتحصل به فائدة يحسن السكوت عليها ، ومسألة الاسناد بين هذه الكلم ، كل ذلك قضية كلام سيبويه.

وقد تنبه الى هذه الحقيقة بعض النحويين ، فهذا ابن الخشاب يقول : «فإذا وقعت الفائدة بالتأليف على ماذكرنا ، سمى ذلك المؤتلف كلاما.

فالكلام اسم للمفيد من القول عند النحويين ، يدلك على ذلك من رأيهم قول سيبويه : «واعلم أنّ كلمة (قلت) إنما وقعت في كلام العرب على ان يحكى بها بعد القول ، ماكان كلاما لا قولا ، نحو : قلت : زيد منطلق» يريد بالكلام الجملة التامة التي قد عمل بعضها في بعض ، تقع بعد (قلت) ، محكية للفظ ، فيكون موضعها نصبا بقلت : كقولك : قلت : زيد قائم ، وقلت : انطلق زيد ، وقلت : هل زيد منطلق ، وقلت : قم يازيد . كل هذه جمل محكية بعد (قلت) ، مستقلة بأنفسها في الفائدة ، وهي التي تسمى

كلاما ».(١٦).

ونقل ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) عبارة سيبويه السابقة ، مستدلا بها على ان الكلام هو الجملة المفيدة ، او الجمل المفيدة ..... (١٧).

ولا فرق بين (الائتلاف الحاصل بين الكلم الثلاث) ، وبين (التركيب بين هذه الكلم وفق نظام الاسناد) ، كما ورد في عبارات بعض النحويين عند حدهم ، فالزمخشري (ت ٥٣٨هـ) يحده بقوله : «والكلام هو المركب من كلمتين أسندت احداهما الى الاخرى» .. (١٨) ويقول ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) شارحا عبارة الزمخشري : «وتركيب الإسناد ان تركب كلمة مع كلمة تنسب إحداهما الى الاخرى ، فعرفك بقوله : «اسندت احداهما الى الاخرى» انه لم يرد مطلق التركيب ، بل تركيب الكلمة مع الكلمة ، إذا كان لاحداهما تعلق بالاخرى على السبيل الذي به يحسن موقع الخبر ، وتمام الفائدة » (١٩).

ولم اجد احدا من النحويين الذين ذكرت يفرق بين الكلام والجملة ، فكل ما قالوه في الكلام موجود في الجملة ، فالكلام مائتلف او تركب من الكلم الثلاث ، وهذا حصل في الجملة ، اذ لا يتصور جملة دون ائتلاف او تركيب بين الاسم والفعل والحرف ، والكلام هو اللفظ والمفيد ، «والمراد بالمفيد مايفهم منه معنى يحسن السكوت عليه» (٢٠) . وهذا ايضا حاصل في الجملة ، فالجملة مافادت معنى يحسن السكوت عليه ، والكلام ماتضمن الإسناد ، سواء اكان الاسناد بين الاسم والاسم ، او بين الفعل والاسم ، والجملة كذلك ، لا تكون جملة إلا بالإسناد.

والكلام هو الجملة فيما فهمه النحويين من عبارة سيبويه ، قال ابن الخشاب عقب ايراده عبارة سيبويه :«يريد بالكلام الجملة التامة ..» (٢١) وكذلك فعل ابن مالك في شرح التسهيل (٢٢) وقال محمد الدلائي ، بعد ذكره عبارة سيبويه : «وقضية كلام سيبويه أن ليس حقيقة إلا في الجمل المفيدة».. (٢٣).

وهذا ماأكده المبرد من قبل بقوله: (وإنما كان الفاعل رفعا، لانه هو والفعل جملة يحسن عليها

السكوت ، وتجب الفائدة للمخاطب.» (٢٤).

وهو رأى ابن جني أيضا . وقال الجرجاني عقب شرحه معنى ائتلاف الكلم : «فالكلام لايخلو من جملتين : احدهما اسمية كقولك : زيد اخوك ، وتسمى جملة من المبتدأ والخبر . والثانية : فعلية ، كقولك : خرج زيد ، وتسمى جملة من فعل وفاعل » (٢٦) وجاء بعدهم الزمخشري فقال بعبارة صريحة بعد ان اورد حد الكلام : «ويسمى الجملة».

وقد فرق بعض النحويين دون تحقيق بين الكلام والجملة ، فزعموا ان الجملة اعم من الكلام ، فهذا ابن هشام (ت ٧٦١هـ) يقول : «الكلام هو القول المفيد بالقصد . والمراد بالمفيد مادل على معنى يحسن السكوت عليه ، والجملة عبارة عن الفعل وفاعله ، كقام زيد ، والمبتدأ وخبره ، كزيد قائم ، وما كان بمنزلة احدهما ، نحو : ضرب اللص ، واقائم الزيد ان ؟ وكان زيد قائما ، وظننته قائما .

وبهذا يظهر لك انهما ليسا مترادفين ، كما يتوهمه كثير من الناس ، وهو ظاهر قول صاحب المفصل ، فإنه بعد ان فرغ من حد الكلام قال : «ويسمى الجملة » والصواب انها اعم منه ، إذ شرطه الإفادة ، بخلافها ، ولهذا تسمعهم يقولون : جملة الشرط ، جملة الجواب ، جملة الصلة ، وكل ذلك ليس مفيدا فليس بكلام » ..(٢٧).

ومن الدراسات الحديثة الجادة في الجملة العربية ماقام به الدكتور خليل عمايرة ، رابطا بين النظرية التوليدية التحويلية لتشومسكي ، وبين التراث النحوي العربي ، وقدمها في كتابه الموسوم بـ (في نحو اللغة وتراكيبها) ، وهي دراسة اصيلة ، انطلق فيها من النظرية التوليدية التحويلية ، وابتعد فيها ايما ابتعاد عن الاجواء النفسية والاجتماعية والبيئية التي احاطت بتلك النظرية ، فأرسى بهذه الدراسة اسس مدرسة تقوم على النحو العربي القديم ، وتستمد مادتها منه ولكن الادوات والتقنيات التي استعان بها في إرساء اسس هذه المدرسة مستمدة من النظرية التوليدية التحويلية لتشومسكي.

وسأعرض هنا بإيجاز شديد لهذه الدراسة ، مستعينا بكتابة المذكور سابقا ، وبدون الإشارة الى ارقام الصفحات التي اعتمدت عليها في هذا العرض.

لجملة عنده هي الحد الادنى من الكلمات التي تحمل معنى يحسن السكوت عليه . ويسمى مثل هذه الجملة (الجملة التوليدية) ، وهي الجملة التي تتكون من عدد من الكلمات تمثل الابواب النحوية الرئيسة . والجملة التوليدية قسمان : توليدية اسمية ، وتخضع لقواعد الاطر الرئيسة التالية:

أ ـ اسم معرفة + اسم نكرة

ب ـ اسم استفهام + اسم معرفة

جـ ـ شبه جملة (ظرفية او جار ومجرور + اسم نكرة).

وجملة توليدية فعلية ، وتخضع للاطر التالية :

أ ـ فعل + اسم (او مايسد مسده ظاهرا او مستترا ، كما في فعل الامر).

ب ـ فعل + اسم (او اسم مقترن بحرف جر).

فهذه الاطر هي اطر الجملة التوليدية ، وفيها قواعد النحو التوليدي.

ويرى ان الجملة تأخذ اسمها في المرحلة التوليدية ، ويجعل الاساس في ذلك صدر الاصل.

وتدخل على هذه الاطر عناصر التحويل حسب إرادة المتكلم في نقل المعاني التي يقصدها ، وعناصر التحويل عنده هي :

١ ـ الترتيب ، وهو نقل مورفيم من موقع اصل له الى موقع جديد ، مغيرا بذلك نمط الجملة ، وناقلا معناها الى معنى جديد ، فمثلا الجملة اكرم خالد عليا ، هي جملة توليدية فعلية ، ولكن المتكلم اذا اراد ان ينقل الجملة الى السامع بتركيز على جزء من اجزائها قدمه للعناية والاهتمام به ، فاذا

قال : اكرم عليا خالد ، أو خالد اكرم عليّاً ، او عليا اكرم خالد ، فهذه جمل تحويلية . وكذلك جملة: الرسولُ محمدُ ، هي جملة تحويلية تقدم فيها الخبر على المبتدأ للتوكيد.

٢ ـ الزيادة : وهي كل مايضاف الى الجملة التوليدية من عناصر زائدة على الإطار الذي ينبغي ان تخضع له ، كالحال مثل : حضر محمد باسما، او الظرف او المفعول المطلق ، او المفعول لاجله ، ونحو ذلك . ويعد الفعل نواة الجملة الفعلية ، ومركزها أو بؤرتها . اما الجملة الاسمية فتدخل عليها عناصر التحويل مثل كان واخواتها ، وإن وأخواتها ، وظن واخواتها ، ويعد المبتدأ بورة الجملة الاسمية.

٣ ـ الحذف ، وهو عبارة عن نقص في الجملة النواة ، التوليدية الاسمية او الفعلية بشرط ان تبقى الجمل تحمل معنى يحسن السكوت عليه ، وتحمل اسمها الذي كان لها قبل ان يجري عليها التحويل ، وتجعل من ذلك حذف المبتدأ أو الخبر ، والمضاف ، وحذف الفاعل ، ونحو ذلك.

٤ ـ الحركة الاعرابية : ويجعل تغييرها محققا لما في نفس المتكلم من معنى يريد الابانة والافصاح عنه . ويضرب لذلك بعض الامثلة ، منها قولهم : الاسد فهي جملة تحويلية لجملة توليدية هي : هذا الاسد ثم جرى عليها تحويل بالحذف ، اعتماذا على الاشارة ، او على السياق الذي تقال فيه ، فبقيت كلمة (الاسد) في حالة الرفع لتشير الى جملة خبرية ، لا يقصد منها المتكلم غير الاخبار بما جاء فيها من معنى ، لكنه اذا اراد ان ينقل معنى الجملة من الاخبار الى التحذير ، غير الضمة الى الفتحة «فالفتحة هي العنصر الذي حول الجملة من باب ، الى باب ومن معنى الى معنى جديدة».

٥ ـ التنغيم ، وبه يستطيع المتكلم ان ينقل الجملة من كونها خبرية الى استفهامية مثلا ، عن طريق جعل النغمة صاعدة لا مستوية ، ويستشهد على ذلك بقول عمر بن ابي ربيعة:

قالوا : تحبها ، قلت : بهرا :: عدد النجم والحصى والتراب

ف (تحبها) هي جملة استفهامية ، مع عدم وجود اداة استفهام ، ولم يحصل ذلك الا بالاعتماد على قراءة (تحبها) بنغمة صاعدة ، فهي بهذه القراءة جملة تحويلية.

****

المنهج الذي أرتضيه في دراسة الجملة

سأرضى لنفسي منهجا اسيرعليه في دراسة الجملة ، وسأوظفه في دراسة الجملة في ديوان الشاعر العماني ، سليمان النبهاني ، وسأجتهد في ان يكون منهجي هذا مستقلا ، ولايعني هذا اني ارفض مناهج العلماء المحدثين من العرب وغيرهم ، او ارفض النحويين القدامى في الجملة ، بل ستسهم هذه المناهج ، وتلك الآراء في اخراج المنهج الذي ارتضيه في هذه الدراسة ، وآمل ان لايأتي باحث كريم فيقرأ هذه المحاولة ، ثم يتهمني بأني جمعت بين مناهج المحدثين ، فليس هذا ما ارتضيه لنفسي في جميع ماكتبته ، ولكني اعتمد في تكوين الرأي والنظرة بناء على المعلومات التي افدتها من ابحاث ومؤلفات العلماء المحدثين والقدامى ، واصوغها في قالب خاص يحمل شخصي ويعبر عن قلمي ، وهذا شأن الباحث المنصف.

وقل ان اتحدث عن منهجي الذي ارتضيه في دراستي هذه ، اود ان اشير الى النقاط التالية:

١ - ارى أن الكلام والجملة بمعنى واحد ، وليس الكلام اخص من الجملة ، وفي كلام ابن جني السابق الذي يسوى بين الكلام والجملة ، ثم يجعل الكلام جنسا ، ينطبق على الجملة الواحدة، والجمل الكثيرة ، شيء من الوجاهة ، ولكن هذا من حيث الصنعة النحوية ، اما من الناحية اللغوية ، فإنما سميت الجملة جملة ، لأنها مجتمعة من عدد من الالفاظ ، المؤتلفة وغير المؤتلفة . ومعنى الاجتماع موجود في مادة (جمل) . قال في اللسان : «الجمل - بتشديد الميم - يعني الحبال المجموعة ..

والجُمُل : الجماعة من الناس.. قال الازهري : كأنّ الحبل الغليظ ، سمى جمالة ، لأنها قوى كثيرة ، جمعت فأجملت جملة ولعل الجملة اشتقت من جملة الحبل .. وجمل الشيء : جمعه ، والجميل : الشحم يذاب ، ثم يجمل ، اي يجمع .. والجملة واحدة الجمل والجملة : جماعة الشيء . واجمل الشيء : جمعة عن تفرقة واجمل له الحساب كذلك . والجملة : جماعة كل شيء بكماله من الحساب وغيره . يقال اجملت له الحساب والكلام قال الله تعالى : (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة .) .. (٢٨) .... (٢٩).

والكلام كذلك جملة ، لأنه مؤلف من اجتماع الالفاظ ، على نحو يفيد معنى يحسن السكوت عليه ، وقوله تعالى : (جملة واحدة) يريد به ان المشركين قالوا : هلا انزل عليه القرآن مجموعا ، لا مفرقا ، اذ كان ينزل الآية والآيتين . فقولهم : (جملة) يريدون به كلام الله تعالى ينزل مجموعا، فلم يظهر لي فرق جلي بين الكلام والجملة .

ولو فاضلت بين اقوال النجاة في الكلام والجملة ، لكان قول ابن جني هو المختار.

٢ - اعني بالجملة هنا مجموع الالفاظ التي تركبت وافادت معنى يحسن السكوت عليه ، فاذا ائتلفت بعض الافاظ في تركيب يحقق جزءا من معنى الجملة فليس هذا التركيب بجملة ، ويدخل في هذا التركيب الواقع مبتدأ ، مثل (ان تصوموا خير لكم) او الواقع خبرا مثل : محمد رسالته خالدة ، او الواقع حالا ، جاء محمد وهو مبتسم ، او الواقع صفة ، مثل : جائني رجل يضحك، فهذه التراكيب الجزئية ليست جملا ، بل يكون مجموع الكلام جملة . ومثل هذا ينطبق على التركيب الواقع في موضع الشرط ، او موضع الجواب ، فهو ليس بجملة ، بل مجموع الشرط والجواب جملة . ولا اتفق مع بعض الدارسين الذين يطلقون على مثل هذا اسم : الجملة الجملية ... (٣٠).

٣ - الجملة التي اعنيها قد تتألف من مسند اليه ومسند ملفوظين ، مثل : محمد قادم ، وجاء محمد ، وقد تتألف من احدهما بعد أن يستغنى المتكلم عن الآخر لسبب معين ، فيكون المذكور الملفوظ دالا

على المعنى المتحقق من مجموعهما ، فقولك : (محمد) مثلا جملة ، إذا كان جوابا لمن سأل : من جاء ؟ لانك اردت معنى (جاء محمد) ، وقولك : (في الدار) جملة ، إذا كان جوابا لمن سأل : اين محمد ؟ ومثل هذا فعل الامر الدال على المخاطب ، مثل اكتب ، ونحوه فهو جملة.

٤ ـ قد تزيد الجملة على عنصري المسند اليه والمسند ، كما اذا قلت : محمد قادم الى الكلية عصرا ، جاء محمد إلى الكلية صباحا ، وأكرم محمد علياً ، واعطى محمد الفقير درهماً ، فما يزاد من الالفاظ على المسند اليه والمسند ، ويكون وجوده لازماً لإتمام المعنى ، فهو من اجزاء الجملة ايضاً.

٥ ـ قد يحذف المتكلم عنصري المسند اليه والمسند ، لسبب معين ، ويجعل الزائد عليهما محققا لمعناها ، فهذا الملفوظ به جملة ، وان كان في الاصل زائدا على عنصري الإسناد ، لأنه يحقق المعنى الذي تحققه الجملة فيما لوقيلت دون حذف ، ويدخل في هذا المصادر المنصوبة في الخبر والطلب ، مثل : حمدا لله ، شكرا لك ، حبا وكرامة ، وسقيا لك وتعسا لفلان ، و «ضرب الرقاب» ، ويدخل في هذا كذلك الاسماء المنتصبة ، مثل : اهلا وسهلا ، واسلوب التحذير والاغراء والاختصاص.

٦ ـ اوافق من يجعل الجمل نوعين : اسمية وفعلية والاسمية ماائتلفت من اسم واسم ، مثل : محمد قادم ، او من اسم ومركب اسمي ، مثل : محمد رسالته خالدة . والفعلية ماائتلفت من فعل واسم ، مثل : جاء محمد او من اسم مقدم ، وفعل مسند الى ذلك الاسم ، مثل : محمد جاء . اما الظرفية فإن كان الظرف له علاقة باسم ، ويأتلف معه في كلام مفيد ، مثل : عندك خالد ، فالمجموع جملة اسمية ، وإن كان له علاقة بفعل ، مثل : عندك جلس خالد ، فالمجموع جملة فعلية.

٧ ـ الحركات الاعرابية على الكلمات تتولد بسبب الائتلاف الحاصل بينها ، وتأخذ الكلمة حركتها من الباب النحوي الذي تحتله في التركيب ، فالمبتدأ رفع والخبر رفع ، والفاعل رفع ، والمفاعيل والحال والتمييز نصب ، والمضاف اليه جر . وهذه الحركات في الابواب المذكورة لم تكن اعتباطية ، كما تصور بعض الدارسين ، وانما خضعت في وضعها الاول لعلل عقلية دقيقة ، ثم جرت على

السنة المتكلمين سليقة بعد ذلك.

واما ركون النحويين القدامى الى قضية العامل في دراستهم النحوية ، فهذا كان من قبيل الوصول الى العلة التي جعلت الفاعل مرفوعا مثلا ، والمفعول به منصوبا و ... ولعل بعضهم كان مصيبا في ان وجود حرف الجر مثلا - قبل الاسم سبب في حصول الجر ، وادخال (لم) على الفعل المضارع سبب في حصول الجزم فيه ، ولكن تحكم نظريةالعامل في جميع الكلام لم يكن مصيبا .

فقد يحدث رفع أو نصب أو جر ، أو جزم لا بعامل ، بل بسبب آخر ، كنقل الاصل الى استعمال جديد ، وسأتحدث عن ذلك في موضعه ، او لأنه تابع لما قبله ، أو بسبب آخر.

والحق انني كلما فررت من قضية العامل وجدت نفسي محبوسا داخل اطرها في بعض الكلام ، وليس كله ، لذلك لا اجد مانعا من الاخذ بها في بعض المواضع من الكلام.

٨ - لا اجد فائدة في مسألة الاعراب المحلي او التقديري في دراسة الجملة لا في الدراسات المتخصصة ، ولا في الدراسات التعليمية ، فاذا وقع تركيب في موضع الخبر مثلا ، يكتفي بالاشارة الى ذلك بالقول : والتركيب الحاصل في موضع الخبر ، واذا وقع اسم بني على حركة ، في موضع المبتدأ مثلا ، يكتفي بالقول : اسم موصول ، او اسم اشارة ، أو ضمير ، أو .... في موضع المبتدأ.

وكذلك في مسألة الاعراب التقديري ، وهو في الغالب يؤتي به لغرض تعليمي يكتفي بإعطاء فكرة عن تعذر اصوات الضمة والفتحة والكسرة على صوت الالف ، لسبب صوتي معروف ، وعن ثقل اصوات بعض الحركات على صوت الياء او الواو ، لسبب صوتي ايضا ، ولا اجد فائدة في قول المعربين : (مرفوع بالضمة المقدرة على الالف منع من ظهورها التعذر).

٩ـ أرى أن الالفاظ إذا ائتلفت وفق النظام النحوي ، وأفادت معنى تاماً ، سواء أكان المعنى قد حقق فائدة يجهلها السامع ، مثل : محمد قادم ، ام حقق فائدة معلومة مسلما بها ، مثل : السماء فوق الارض ، فهذا كلام وهو جملة.

أما إذا ائتلفت الكلمات وفق النظام النحوي ، وكان الناتج تركيبا غير مفيد ، فليس هذا بكلام ، وكذلك إذا أفاد التركيب معني غير مقبول عقليا ، مثل حملت الجبل . هذا في الوضع العام للغة ، اما اذا تواطأ المتكلم والسامع على أنه اذا قال الاول : حملت الجبل ، فهم الثاني معنى خاصا متفقا عليه ، فهذا امر خاص ، والحكم للعام.

****

والمنهج الذي ارتضيته في دراسة الجملة هنا ، هو خلاصة دراستي لمناهج المحدثين والقدامى ، واراه يرتسم في الحدود التالية:

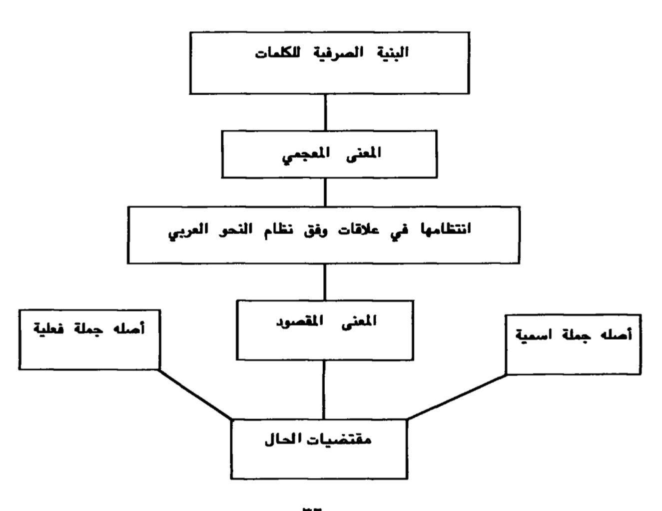
كل كلمة في اللغة العربية ذات بنية صرفية خاصة ، ترتبط بمعنى تواضع عليه اهل اللغة ، وهو المعنى المعجمي بالنسبة للدارسين.

وهذه الكلمات ذات البنية الصرفية الدالة على معنى معجمي تنتظم فيما بينها في علاقات خاصة ، وفق النظام النحوي للغة ، مكونة جملة ، او كلاما يحقق المعنى الذي يريد المتكلم ايصاله الى السامعين ، العارفين بالمعنى المعجمي لكل كلمة، وبالنظام النحوي للغتهم ، وهذا المعنى المقصود الذي يريده المتكلم يرتبط بمقتضيات الحال ، فقد يريد ان ينقل خبرا خاضعا للتصديق والتكذيب ، أو خبرا مؤكدا ، او يلفت السامع الى اهمية خاصة بعنصر الجملة ، فيقدمه او يحصره ، أو يستثنيه ، او يريد ان يستفهم او ينفي ، او يتعجب ، او يمدح او يحذر ، أو ينادي ، أو ... ، و من مقتضيات الحال : وضع المتكلم النفسي والانفعالي ، والمحيط ، والعادات ، وعقيدة المجتمع.

والجملة التي تحقق المعنى المقصود ، لها أصل قائم على أساس نظام النحو العربي .. (٣١) ، وهذا الاصل إما أن يتألف من الحد الادنى من الكلمات بحيث يحقق التركيب المؤتلف معنى يحسن السكوت عليه ، واما ان يزاد على هذا الحد من الكلمات ، او التراكيب مايكمل المعنى ، فالحد الادنى من الكلمات اصل والحد الادنى مع الزائد المكمل للمعنى اصل ايضا .

والمتكلم قد يأتي بالأصل مكتفياً به ، إذا اقتضى الحال ، وقد يتصرف بالاصل وفق مقتضيات الحال ، ليحقق المعنى المقصود ، فمقتضيات الحال تحيط بالمعنى المقصود ، وتوجه المتكلم الى التصرف بالأصل ، ليحقق ذلك.

والرسم التالي يوضح ماأردت بيانه :



والجملة الاصلية التي ينتج عنها المعنى المقصود وفق مقتضيات الحال نوعان : اسمية وفعلية.

١ ـ الجملة الاسمية ، وتأتي أصلية في الأطر التالية : ـ

أ ـ اسم مسند اليه (علم) } + اسم مسند (نكرة)
او كناية عنه

والامثلة : محمد قادم ، خالد رجل ، علي شجاع ، هو قادم ، هذا طالب، الذي احبه قادم.

ب ـ اسم مسند اليه معرفة | اسم مسند (معرفة)
او كناية عنه | أو كناية عنه

والامثلة : محمد العالم ، الله ربنا ، صديقك ، محمد اخوك ، هذا محمد ، هو أخوك ، هو الله ، هو هذا ، هو هو ، هو الذي جاء.

جـ ـ اسم مسند اليه (نكرة) اسم مسند (نكرة)

رجل قادم ، طالب حاضر ، رجل نحوي قادم ، كتاب طالب ممزق ، امر بمعروف خير من السكوت.

والابتداء بالنكرة من اصول الجملة ، وقد منعه النحويون القدامى ، بحجة أن النكرة مجهول ، فلا يجوز أن يحكم بشيء على مجهول ، الا انه جاء في كلام العرب ، بلا حدود ، ولما وجد النحاة ذلك في كلامهم ، تراجعوا عن المنع ، وقيدوا وقوع النكرة مبتدأ بقيود ، لا فائدة من ذكرها الآن . وقد عد ابن عقيل من مواضع الابتداء بالنكرة في كلام العرب أربعة وعشرين موضعا ، ثم قال : «وقد انهى بعض المتأخرين ذلك إلى نيف وثلاثين موضعاً »..(٣٢).

د ـ اسم مسند اليه (علم) او كناية عنه		ظرف او اسم يستفهم به عنه (مسند)

الامثلة : محمد في الدار ، فاطمة في البيت ، خالد عندك ، عمرو امام البيت ، بكر فوق الشجرة ، هو في الدار ، انت في المدرسة ، محمد أين ؟

هـ ـ اسم مسند إليه نكرة (مكان ، زمان ، جار ومجرور).

الامثلة : رجل في البيت ، امرأة في الدار ، ولد امام الدار ، عصفور فوق الشجرة ، قتال غدا .

ويؤرة الجملة الاسمية الخبر ، فهو الحكم الذي يحكم به على المبتدأ ، وفيه تمام المعنى ، وبه تحصل الفائدة.

٢ ـ الجملة الفعلية وتأتي اصلية في الاطر التالية:

أ ـ الاطار : فعل لازم فاعل ←— فعل لازم علامة تثنية او جمع تدل على الفاعل كناية عن الفاعل.

جئت ، خرجت ، جئنا ، خرجتم ، جاء الذي أُحبُّه

ب ـ الاطار : فعل لازم فاعل ثم تكملات

المثال : جاء محمد إلى الكلية عصراً

خرج خالد من البيت يوم الاربعاء طلباً للرزق

←— فعل لازم علامة تثنية أو جمع تدل على الفاعل فاعل تكملات . جاءوا الطلاب الى الكلية

عصرا .

—> فعل لازم كناية عن الفاعل تكملات

خرجت الى الكلية ماشيا ، جئنا الى المدرسة طلبا للعلم.

ج ـ الاطار : فعل متعد فاعل مفعود به (١) ، (٢) ، (٣)

أو كناية عنه　　　　أو كناية عنه

المثال : اكرم محمد عليا ، اكرمت عليا ، اكرمتك ، اعطى محمد عليا درهما ، اعطيت عليا درهما ، اعطيتكه . أنبأت محمدا خالدا قادما .

د ـ الاطار : فعل متعد ضمير فاعل

كناية عن المفعول او كناية عنه

المثال : أكرمني محمد ، اكرمه محمد ، اكرمني هذا ، اكرمني الذي أحبه.

هـ ـ الاطار : فعل متعد فاعل مفعول به تكملات

أو كناية عنه　　　　أو كناية عنه

المثال : أكرم محمد عليا إكراما حسنا ، اكرمت عليا يوم الجمعة ابتغاء وجه الله ،أكرمتك اليوم اكراما حسنا ابتغاء وجه الله .

وبؤرة الجملة الفعلية الفعل (٣٤) ، لان جميع المعاني الآتية بعده ، متعلقة به.

****

هذه الاطر السابقة تمثل اصول الجمل الاسمية والفعلية ، فقد يأتي المتكلم بالاصل وفق احد

هذه ، الاطر ويكتفي به في تحقيق المعنى المقصود ، وقد يتصرف بالاصل ليحقق معنى يناسب مقتضيات الحال ، هو المعنى المقصود وفق تلك المقتضيات.

ويسلك المتكلم إحدى الطرق التالية أو اكثر ليحقق المعنى الذي يناسب متقضيات الحال:

١ - نقل الاصل الى استعمال جديد ، ليحقق معنى جديداً يناسب مقتضيات الحال ، ويتم ذلك بما يلي:

أ - تغيير البنية لاحد عناصر الجملة.

ب - تغيير الحركة الاعرابية

ج - التقديم والتأخير

د - إقامة عنصر يرتبط بالمعنى الجديد مكان عنصر في جملة الاصل.

٢ - زيادة عنصر الى الاصل ، ليحقق معنى جديدا يناسب مقتضيات الحال.

٣ - الاستغناء عن ركن او اكثر من جملة الاصل ، ليحقق المعنى الذي يناسب مقتضيات الحال.

٤ - التنغيم ، ودوره يتحقق في دراسة الجملة التي تؤخذ مشافهة عن اناس جعلوا عيِّنةً للدراسة اللغوية ، اما دور التنغيم في دراسة الجملة في ديوان مكتوب ، او نثر مؤلف مكتوب ، فيتحقق في الجمل التي فيها معنى الاستفهام ، ولكن اداته قد استغنى عنها ، او الجمل التي فيها اداة استفهام ومعناها الخبر.

هذا وقد جعل الدكتور خليل عمايرة عناصر تحويل الجملة التوليدية الى جملة تحويلية خمسة ، وهي : الترتيب ، الزيادة ، الحذف ، الحركة الاعرابية ، التنغيم (٣٥).

وسيأتي تطبيق بعض ماذكرته في الفصل التالي ،وهو دراسة الجملة في ديوان الشاعر العماني سليمان النبهاني.

الفصل الثاني

الجملة في ديوان الشاعر العماني سليمان النبهاني

نماذج منتخبة من شعره

قال الشاعر:

انا ابنُ ذي التاج المليك تُبّع ... وَصفْوة المختار هود المصطفى

من دوحةٍ هُود النبيِّ أصلها ... وُها في شرفٍ ماءُ السما (٣٦)

وقال:

ونحنُ بناة المجد فاسأل بمجدنا ... بني قيذرٍ تُخْبرك أبناء قَيذرِ (٣٧)

وقال:

هو المُنزلُ الاعداءَ من بعد عزِّهم ... منازل لا يرضَى بها الضَبّ مجحرا

هو الملبسُ الليثَ المهابَ زئيرهُ ... نسيجين من ذل رداء ومنزرا

اولئك ارباب الخلافة والعلى ... واشرف من قد حاز امرا وأمّرا (٣٨)

وقال:

فجدي نبهانُ الهمامُ ووالدي ... سليمانُ مولى كل باد وحاضر

وقال:

فهودٌ نبيُّ الله جدي وابنُه ... ابو الخير قحطانٌ آمان مروعِ (٤٠)

وقال:

سليمانُ اسمي وهو اسمُ لوالدي ... واسمٌ لجدي وهو ذو الشرف العالي (٤١)

****

أتى الشاعر في الأبيات السابقة بجمل اسمية على الاصل . لانه قصد ان ينقل للسامع معنى

معروفا مسلما به ، ومقتضيات الحال التي وجهت الشاعر الى الاتيان بهذه الجمل هي حال الفخر بنفسه وبآبائه واجداده ، فقد اقتضت هذه الحال ان يأتي بالاصل دون ان يتصرف به ، فلو ادخل عنصر توكيد ، مثل (إنَّ) أو لام التوكيد ، أو قدم الخبر واخر المبتدأ ، لما ناسب المعنى الذي اراد الشاعر ان يقول : إنه امر مسلم به لايحتاج الى توكيد.

والاطار الذي جاءت عليه الجمل السابقة هو :

اسم مسند اليه (معرفة) او كناية عنه	اسم مسند (معرفة) او كناية عنه

والجمل هي : (أنا ابن ذي التاج) ، (هود النبي اصلها) ، (وفرعها في شرف ماء السماء) ، (نحن بناة المجد) ، هو المنزل الاعداء ...) ، هو الملبس الليث) (أولئك أرباب الخلافة) ، (فجدي نبهانُ) ، (والدي سليمانُ) ، (فهود نبيُّ الله جدي) (سليمان اسمي ..).

ويذهب فريق من النحاة القدامى في مثل هذه التراكيب التي يأتي فيها المبتدأ معرفة والخبر معرفة ، إلى ان المتقدم هو المبتدأ وجوبا ، والمتأخر هو الخبر وجوبا ، قال الزمخشري : « وقد يقع المبتدأ والخبر معرفتين معا، كقولك زيد المنطلق ، والله الهنا ، ومحمد نبينا .. ولا يجوز تقديم الخبر هنا ، بل ايهما قدمت فهو المبتدأ» وقال ابن يعيش شارحا كلام الزمخشري : «واذا كان الخبر معرفة كالمبتدأ ، لم يجز تقديم الخبر ، لانه مما يشكل ويلتبس ، اذ كل واحد منهما يجوزان يكون خبرا ، ومخبرا عنه فأيهما قدمت كان المبتدأ » (٤٢) وذهب الى هذا ابن مالك ، ولكنه اجاز تقديم الخبر إن امن اللبس ، كقولك : زيد الليث شدة ، يجوز أن تقول · الليث شدة زيد.. (٤٣) وقال بمثل ذلك ابن عقيل (٤٤) وابن الناظم (٤٥).

وقال ابن هشام : « يجب الحكم بابتدائيه المقدم من الاسمين في ثلاث مسائل:

إحداهما : ان يكونا معرفتين ، تساوت رتبتهما ، نحو : الله ربنا ، او اختلفت ، نحو : زيد

الفاضل ، والفاضل زيد ، هذا هو المشهور . وقيل : يجوز تقدير كل منهما مبتدأ وخبرا مطلقا . وقيل : المشتق خبر وان تقدم ، نحو : القائم زيد ، والتحقيق ان المبتدأ ماكان اعرف كزيد في المثال ، او كان هو المعلوم عند المخاطب ، كأن يقول : من القائم ؟ فتقول : زيد القائم ، فإن علمهما وجهل النسبة فالمقدم المبتدأ ...» (٤٦).

وانا ارى ان مقتضيات الحال تدعو الى جعل المتقدم هو المبتدأ وجوبا (٤٧) واقصد بمقتضيات الحال هنا : الحال التي جعلت المتكلم يقدم احداهما ويؤخر الآخر لمعنى يقصده ، فاذا قلت . زيد المنطلق ، فـ (المنطلق) خبر ، وافاد الكلام تحديد ، زيد بالانطلاق ، اذا ادرك المتكلم ان في الجمع زيودا ، منهم الوافق والجالس والمنطلق) لا الواقف ، ولا الجالس ، ولذلك يستحسن هنا ان يؤتي بضمير الفصل او العماد لتثبيت معنى الخبر عند السامع، ولإزالة اللبس الذي قد يحصل عند السامع يكون (المنطلق) صفة لزيد ، وليست خبرا عنه.

أو كما قال عبد القاهر الجرجاني في (زيد المنطلق) ، اذ قال : (واذا قلت زيد المنطلق) كان كلامك مع من عرف أن انطلاقا كان إما من زيد ، وإما من عمرو ، فأنت تعلمه أنه كان من زيد دون غيره » (٤٨) . اما اذا قلت : (المنطلق زيد) فـ (زيد) خبر ، وافاد الكلام ان المنطلق هو زيد ، لا عمرو ولابكر ، فالانطلاق حاصل ، ولكن لايعرف اهو من زيد ام من غيره ؟ فاذا قال : (زيد) تبين ان يكون من زيد ، لا من غيره.

فإذا جعلت (المنطلق) خبرا مقدما . و «زيد » مبتدأ مؤخرا ، كان معنى الكلام هو معناه نفسه في قولك . (زيد المنطلق) . والمتكلم لايريده . بل يريد المعنى الذي يقصده من (المنطلق زيد) على مابينته.

وهذا الامر يتحقق ايضا في قولك . زيد اخوك . فـ (اخوك) خبر ومعنى الكلام ان المتكلم ادرك ان المخاطب يعرف زيدا ، ولكن لايعرف انه اخوه لسبب من الاسباب . «فيقال له · زيد اخوك . اي

هذا الذي عرفته الآن هو الاخ الذي فارقك ، وإذا قلت : زيد اخي، فوجه الافادة فيه ان المخاطب يعرف ان لك اخا ، ويعرف زيدا بعينه ، فاذا قلت : زيد اخي ، افدته النسب بينك وبين زيد» ... (٤٩).

اما اذا قلت : (اخوك زيد) فـ (زيد) خبر ، ومعنى الكلام انك ادركت ان المخاطب يعلم ان له اخا ، ولكن لايعلم من هو ؟ لسبب من الاسباب ، فأخبرته بأن أخاه زيد دون غيره من الناس . فلو جعلت (اخوك) خبرا مقدما ، لكان المعنى غير هذا .

****

وقول الشاعر : (أنا ابن ذي التاج) ، قصد به ان يخبر السامعين بأنه ابن صاحب التاج ، الملك تبع ، لا ابن شخص عادي ، ولو عكس فقال : ابن ذي التاج انا ، لكان المعنى غير هذا ، ولفهم السامع انه يقصد انه دون غيره من الموجودين ابن ذي التاج ، فهناك من يدعى النسبة الى صاحب التاج ، المليك تبع ، فأراد ان يقول : بأنه وحده ابن صاحب التاج.

وقوله : (هود النبي اصلها ، وفرعها في شرف ماء السماء) ، فـ (هود) هنا مبتدأ (مسند اليه) ، واصلها خبر (مسند) ، وكذلك (فرعها) مبتدأ ، و (ماء السماء) خبر ، والمعنى الذي قصده الشاعر ، انه من شجرة ، هود نبي الله يكون اصلها ، لا فرعها وهذا يعني ان نسبه عريق ، ضارب في العرافة ، واما فرعها فهو عامر الملقب بماء السماء ، وليس شخصا غيره . ولو قال : اصلها هود النبي ، لكان المعنى أن لنسبه اصلا ، ولكن لايعلم السامع من هو ، فأثبت ان الاصل هود ، وهذا المعنى هو ما اراده في الجملة الاخرى ، فالسامع يعلم ان لشجرة نسبه فروعا ، ولكن لايعلم الفرع الذي ينحدر منه ، فأعلمه ان ماء السماء ، فلو قال : وماء السماء فرعها ، لما تحقق له المعنى المذكور.

ومثل هذا قوله : (ونحن بناة المجد) ، و (هو المنزل الاعداء) ، و (هو الملبس الليث ..) ، و (نحن) و (هو) كنايتان عن المبتدأ المعرفة.

وقوله : (فجدي نبهان الهمام ، ووالدي سليمان) ، ف (نبهان) خبر ، وكذلك (سليمان) ، وقصد الشاعر ان يفتخر بنبهان جدا له ، وبسليمان والداً له ، ولو قال : نبهان جدي ، وسليمان والدي ، لاراد ان يخبر عن نبهان الذي يعرفه الناس بأنه جده لا جدَّ أحد سواه ، وسليمانَ الذي يعرفه الناس هو والده ، وليس والد احد غيره ، وهذا ماارداه في قوله الآتي : (فهو نبي الله جدي) ، وإنه اراد ان يخبر الناس عن هود الذي يعرفونه بأنه جده.

وقوله : (سليمان اسمي ، يكون (اسمي) خبرا ، واراد بذلك ان يفتخر بكون سليمان الذي يعرفه الناس بالصفات الممدوحة اسمه ، ولو قال : اسمي سليمان ، لأراد ان يعرف الناس اسمه ، لانهم يجهلونه.

****

قال الشاعر:

يقول : الا هذا هو العيش لا الذي تغذى طوال الدهر بالرغوات (٥٠)

الجملة الاسمية : (هذا هو العيش) ، وقد جاءت على الاصل ، وفق الاطار التالي :

مسند اليه (معرفة) ثم مسند (معرفة).

فـ (هذا) كناية عن المشار اليه ، وهو مسند اليه ، و (العيش) مسند ، وقد اراد الشاعر ان ينقل قول الحسود ، لما يرى من النعيم الذي يغمر الشاعر ، فيقول : هذا الذي فيه هو العيش اللذيذ ، وماعدا فلا يعد عيشا ، ولا جل ان يثبت هذا المعنى عند السامع ، اتى بالضمير (هو) ، الذي يسميه البصريون ضمير الفصل ، ويسميه الكوفيون عمادا ... (٥١) اذ لو قال : هذا العيش ، لتوهم السامع ان (العيش) تابع لـ (هذا) فيبقى ينتظر مجيء الخبر ، فدور ضمير الفصل او العماد تثبيت المعنى واشعار السامع ان الكلام قد تم واليك الفرق بين الجملتين الآتيتين: –

هذا العيش لذيذ   هذا هو العيش

تبعية   تثبيت الخبر

اسناد   اسناد

قال الشاعر :

حـــيـــــاة للجُناةِ علـي عـــــفـــــواً   إذا خـضـعـوا ، ومـوتهم عـقـابي (٥٢)

قوله (حياة للجناة) جملة اسمية أتى بها على واحد من أطر اصول الجملة الاسمية وهو : مسند اليه (نكرة) ثم ظرف (جار ومجرور).

ومعنى الكلام : حياة بلا حدود للجناة ، وهذا عهد على الشاعر ، لأجل العفو عنهم بشرط خضوعهم له . فـ (حياة) مسند اليه (مبتدأ) ، و (للجناة) مسند (خبر) ولايكون معنى الكلام كما قال محقق الديوان وشارحه بما نصه : رأى هو حياة للجانين بعفوه عنهم».

وكذلك قوله :

ســـــلام ترفض الاحـــــشـــــاء منه   عليـهـا مـاحـدا حـاد وسـاقـا (٥٣)

والجملة الاسمية (سلام عليها) جاءت وفق الاطار السابق ، ومعنى الكلام : سلام له صفة خاصة ، وهي الحسرة الشديدة التي تمزق الاحشاء ، وهذا السلام على محبوبته ، التي فارقته وهو يرسله لها كلما حدا الحادون ، وساق السائقون ركائبهم اليها .

وتحليل الجملة كالاتي :

سلام ترفض   الاحشاء   منه   عليها

تخصيص   تلازم   تلازم

اسناد

إسناد

قال الشاعر :

فـــــفـي يمـيـنـي لـلـورى ويـســـــرتـي	بـحـــــران جـــــاشــــا منون ومـنـي
وفـي يمـيـنـي مـــــــــرهـف ذو رونـقٍ	ابيض كـالملحـة مـفـتـوق الشـبـا (٥٤)

اتى الشاعر بالجملة الاسمية في البيتين المذكورين على خلاف الاصل ، اذ تصرف بالاصل لمقتضيات الحال ، فقدم المسند على المسند اليه ، والاصل هو : ـ

مسند اليه (نكرة) مسند (ظرف ، جار ومجرور).

فأصل الجملة في البيت الاول : بحران في يمنـي ويسرتي للورى

واصل الجملة في البيت الثاني : مرهف ذو رونق فـي يمينـي

ورأي النحاة هنا أن الشاعر قدم الخبر وجوبا ، لأن المبتدأ نكرة ، ولايجوز الابتداء بالنكرة ، قال الجرجاني : «وتقول : عندي مال ، فيكون (مال) مبتدأ ، مع كونه نكرة لاجل حصول الاختصاص في الخبر ، اذ كل واحد لا يعلم ان عندك مالا ، ويلزم في هذا النحو تقدم الخبر على المبتدأ ، فلا يكاد يقال : مال عندي ، وإنما يجيء ذلك في حال قريبة من الاضطرار ، وذلك انهم لو قالوا : مال عندي ، لجاز أن يظن ان (عندي) صفة للمال ، وأن الخبر مقدر ، كقولك : مال عندي حسن وما اشبه ذلك ، فلما كان كذلك قدم الخبر تقديما بما يقرب من اللازم ، ليرتفع اللبس» (٥٥).

إن كلام النحاة في هذه المسألة مبني على كثرة استعمال تقديم الخبر على المبتدأ النكرة ، ولا يمنع هذا ان يكون الاصل ماذكرت ، ولكن العربي لما لاحظ ان حصول الاختصاص يكون في الخبر قدمه ، وهذا من جملة مقتضيات الحال ، ثم شاع هذا الاستعمال وكثر في كلامهم ، وليس في كلام الجرجاني الذي تقدم مايمنع ان يقول :

مال عندي ، وهذا موجود في كلام العرب قديما ، وفي لهجاتهم حديثا . يقول قائلهم: مال

عندي والحمد لله ، اولاد عندي والحمد لله.

وقال النمر بن تولب:

فيـــوم علينـــــا ، ويـــــوم لنـــــا ويـــوم نســـــاء ويوم نســـــــر (٥٦)

فإذا اراد المتكلم ان يؤكد حصول الخبر ، لأن الحال التي يقع فيها الكلام تقتضي ذلك قدمه على المبتدأ ، فيقول : عندي مال.

ونعود الى قول الشاعر : (ففي يميني للورى ويسرتي بحران) قدم المسند (الخبر) ، وهو (في يمني ويسرتي) واخر المسند اليه (المبتدأ) ، وهو (بحران) لان حال الكلام تقتضي ذلك ليصل الى المعنى المقصود ، وهو : انه متمكن من زمام الامور ورقاب الناس ، يستطيع ان ينفعهم ويضربهم ، وهذا المعني موجود في اليمين ، وهو دليل القوة ، وفي اليسار ، وهو دليل العطاء ، فلما اراد ان يؤكد تمكنه قدم الخبر ، وهو (في يميني ويسرتي) اذ فيه حصول التمكن من نفع الناس وضرهم ، فوصل الشاعر الى المعنى المقصود الذي يناسب مقتضيات الحال بالتقديم والتأخير . وكذلك القول في قوله : (وفي يميني مرهف..)

وقال ايضا :

ولـــــــي أبـــــــداً قدور راسيات تنـاصبهـــا جفان كالجوابـــي (٥٧)

الاصل في قوله (لي أبداً قدور ..) : قدور .. لي أبداً .. لو قال هذا الكلام لما كان مناسبا لموقف الفخر الذي وضع نفسه فيه ، لانه قدم ماهو شائع بين الناس ، فكل انسان له قدور ، ثم اخر نفسه ، وهذا لايناسب موقف الفخر الذي اقتضى ان يقدم نفسه ليكون مختصا بهذه القدور التي هي عنوان الكرم.

وقال ايضاً :

وممـــا شفانـــي عنـــد اللقـــاء فـــرار المليـــك وانســـابـــه (٥٨)

قدم الشاعر هنا المسند (الخبر) وهو (ما شفاني) ، واخر المسند إليه (المبتدأ) وهو (فرار المليك) ، ولم يقل على الاصل : فرار المليك ... مما شفاني ، لان الحال تقتضي هذا التقديم ، وهو توكيد حصول شفاء نفسه من الغل الذي حمله على (المليك) ، ويقصد اخاه حساما ، ثم اذا اكد هذا المعنى جاء بما كان سببا لهذا الشفاء ، وهو (فرار المليك) وهو امر معلوم للناس ، وحادثة وقعت وانتهت.

****

قال الشاعر:

أيَن ثمـــودُ ذهبتْ وعـــاد إيـه وأيـن ربـهـــا شـــداد

اين امـــرو القـــيس وابن المنذر وايـن كـــهـلان وايـن حـــمـــيـــر (٥٩)

(اين كهلان) ، (اين حمير) ، (اين ربها شداد) ، (اين امرو القيس..)، (اين كهلان) ، (اين حمير) جمل اسمية ، تقدم فيها الخبر ، وهو اسم استفهام ، (كناية يستفهم بها عن الظرف) . ويرى النحاة ان الخبر في هذه الجمل واجب التقديم على المبتدأ لانه من الالفاظ التي لها الصدارة ... (٦٠) وجعل الدكتور خليل عمايرة هذا النمط وهو (اسم استفهام ثم اسم معرفة) من الجمل التوليدية الاسمية (الاصل) التي يدخل عليها التحويل .. . (٦١).

والذي اميل اليه ان تكون الجمل الاسمية السابقة جاءت على خلاف الاصل ، حسب مقتضيات الحال ، والاصل يكون وفق الاطار التالي :

اسم علم (مسند اليه) ظرف او اسم يستفهم به عنه (مسند).

فيكون أصل الجمل السابقة : ثمود أين ؟ امرو القيس أين ؟ كهلان اين ؟ حمير اين؟ (أين)

اسم استفهام عن الظرف ، والمراد هنا الاستفهام عن الاستقرار (الظرف) الذي يحل فيه المسند إليه ، وهو هنا اسم علم ، ولما كان المسند اليه معروفا لدى المتكلم والسامع والاستقرار الذي يحل فيه مجهولا ، قدم العربي مايستفهم به عن هذا الاستقرار المجهول ثم جرى التقدم على السنتهم باعتبار ان الاستفهام موضوع لما هو مجهول وليس الاصل ان يتقدم اسم الاستفهام على المبتدأ ، لأن له صدارة الكلام كما يذهب الى ذلك النحويون . فقوله : (اين ثمود) جملة تصرف الشاعر في اصلها ، فقدم المسند على السند إليه ليصل الى المعنى المقصود ، والمعنى الذي يقصده هو حصر الاستفهام عن المحل الذي استقر فيه المسند اليه.

والدليل على ان الاصل هو : (ثمود اين ؟ ..) ، رجوع الشاعر الى هذا الاصل في البيتين التاليين:

نو يزن أين ؟ ونو رعين ومضرُط الصخر ونو اليومين (٦٢

ابرهة أين ؟ ، ونو المنار وأين من يدعى بذى الإذعار (٦٣)

فقال : نو يزن اين ؟ وابرهة اين ؟ وهذا رجوع الى الاصل لأن الشاعر يعرف ابرهة ونو يزن ويعرف المحل الذي استقرا فيه ، لكنه اراد ان يتسنطق السامعين بالقول : غير موجود.

****

قال الشاعر:

وفرسان تيم قد هتكنا عروشهم بفاقرة رقماء ام حبوكر .. (٦٤)

قوله (فرسان تيم قد هتكنا عروشهم) جملة اسمية في رأي النحاة ، وجاء خبرها جملة فعلية ، فعلها متعد ، و (فرسان تيم) مسند اليه (مبتدأ) و (وقد هتكنا عروشهم) مسند (خبر) وهو جملة فعلية.

وخبر المبتدأ عند النحويين قد يأتي جملة فعلية ، وقد يأتي جملة اسمية ، وقد يأتي شبه جملة من الظرف والجار والمجرور ، وقد يأتي مفردا (٦٥) ، فالجملة السابقة جملة اسمية في رأيهم . وهذا الرأي قائم على النظرة الى شكل الجملة ، اذ تقدم فيها اسم مرفوع على الابتداء ، ولم يهتم اصحابه بالمعنى الذي يقصده المتكلم من وراء هذا الشكل.

والرأي عندي ان تقدم اسم مرفوع لايعني ان الجملة اسمية ، اذ قد يكون هذا الاسم منقولا من أصل كان فيه منصوبا او مجروا ، ليحقق بهذا النقل معنى جديدا يناسب مقتضيات الحال . واما ارتفاعه في الاستعمال الجديد ، فلانه وقع في محل حقه الرفع حسب نظام النحو العربي.

فلو كانت الجملة (فرسان تيم قد هتكنا عروشهم) جملة اسمية من مبتدأ وخبر لكان المعنى ان يخبر الشاعر عن قضية ، وهي حصول هزيمة فرسان تيم بحرب شديدة فهل يقصد الشاعر هذا المعنى

والاجابة عن هذا السؤال تتضح في ارجاع الجملة الى اصلها الذي هو

(قد هتكنا عروش فرسان تيم بحرب شديدة).

و (فرسان تيم) في هذا الاصل مجرورة بالاضافة الى (عروش) ، والمعنى الحاصل من هذا الأصل هو المعنى نفسه الحاصل من جملة (وفرسان تيم قد هتكنا عروشهم ..) اذا اعتبرنا ان الجملة اسمية من مبتدأ وخبر ، اي الاخبار عن حصول هزيمة فرسان تيم بحرب شديدة . وهذا المعنى لم يقصده الشاعر ، بل اراد معنى آخر ، وهو ان يلفت الانتباه الى اظهار عظمة فرسان تيم واهميتهم بين قبائل العرب ، فإذا تحقق له ذلك ساق خبر هزيمتهم على يد قبيلته ، بحرب داهية ، قاتلة تكسر فقار الظهر ، فأظهر اولا عظمة عدوه وشدته واهميته ثم اخبر بأنه مع كل ذلك فقد هزمه قومه.

وهذا المعنى لايؤديه الاصل ، فعمد إلى (فرسان تيم) وقدمه ، مظهرا بذلك اهميتهم وعظمتهم

... (٦٦) ، و (فرسان) كانت مجرورة بالاضافة ، فلما تقدمت وصارت في محل حقه الرفع ارتفعت ، اما مكانها في الاصل فقد شغله بكناية عنهم ، وهو الضمير في عروشهم ، وفائدة هذا الضمير هي توكيد النقل من الاصل الى الاستعمال الجديد.

فالشاعر هنا وصل الى المعنى المقصود الذي يناسب مقتضيات الحال عن طريق نقل الاصل الذي اقتضى تغيير الحركة الاعرابية ، فالحركة هنا اقتضاها النقل ، وليس فيها معنى دلالي.

ولعل سؤالا يطرح هنا : هل يجوز اعتبار (فرسان) مبتدأ ، ام لا ؟ والجواب ان اصله من مكملات الجملة الفعلية (قد هتكنا ...) ، ولكنه ارتفع لانه تقدم وحل في موضع الابتداء تحقيقا للمعنى المقصود ، فمن حيث تيسير الاعراب على الدارسين يمكن اعتباره مبتدأ بالنظر الى شكل الجملة بعد حصول النقل دون النظر الى اصلها.

****

ومثل ذلك قوله يرثي اخاه حساما:

نبأ لـــه تصلـــى القلـــوب وتخشـــع وتفيض بالعبـــر الجفـــون وتهمـــع

الجملة هنا قوله (نبأ هنا تصلى القلوب له وتخشع) ، وهي اسمية عند النحاة والخبر فيها جملة فعلية ، والمبتدأ (نبأ) وهو نكرة ، فهي جملة اسمية على الرغم من انهم لايجيزون الابتداء بالنكرة.

ولم يرد الشاعر ان يأتي بجملة اسمية من مبتدأ وخبر ، اذ لم يقصد ان يخبر عن اشتغال القلوب لنبأ ، وخشوعها له ، فهذا يحققه لو قال : (تصلى القلوب لنبأ وتخشع) ، وهذا هو اصل الجملة ، فأصلها جملة فعلية ، و (نبأ) فيها من مكملات هذه الجملة وهو مجرور بحرف الجر (اللام).

ولما اقتضت الحال ان يظهر الشاعر اهمية هذا النبأ ، ومدى فداحته والمصيبة المترتبة عليه ، عمد الشاعر الى نقله ووضعه في الابتداء ، ف (نبأ) هنا في موضع الابتداء من حيث الشكل الحاصل

بعد النقل ، فأوجب هذا الموضع ان يكون مرفوعا وهو في الاصل مجرور باللام ، ولما نقله من الاصل شغل مكانه بكناية تدل عليه.

****

وقال :

وإذا الملوك تدنست اعراضها　　　لم يقد حن عرضي بذم قادح (٦٧)

قوله (واذا الملوك تدنست اعراضها) اختلف فيه النحويون ، اهو جملة اسمية ؟ ام هو جملة فعلية ؟ ذهب البصريون ماعدا الاخفش الى ان (اذا) التي فيها معنى الشرط تختص بالدخول على الجملة الفعلية ، فاذا جاء بعدها اسم مرفوع كقوله تعالى (اذا السماء انشقت) كان ذلك الاسم فاعلا لفعل محذوف يفسره المذكور ، والتقدير في الآية الكريمة : (اذا انشقت السماء انشقت) ، فيكون قول الشاعر :

(اذا الملوك تدنست اعراضها) جملة فعلية عند البصريين ، و (الملوك) فاعل لفعل محذوف يدل عليه المذكور ، والتقدير : (واذا دنست الملوك تدنست اعراضها) . وفي هذا من التكلف مالا يخفي على ذي لب.

اما الكوفيون والاخفش فقد اجازوا ان تدخل (اذا) على الجملة الاسمية واستشهدوا على ذلك بقول الفرزدق:

إذا بـــاهلـــي تحتـــه حنظليـــة　　　لـــه ولـــد منهـــا فـذاك المذرَّعُ (٦٨)

وعلى رأيهم يكون قول الشاعر : (واذا الملوك تدنست اعراضها ...) جملة اسمية المبتدأ فيها قوله : (الملوك) ، والخبر الجملة الفعلية (تدنست اعراضها).

والرأي عندي ان اصل الكلام : (واذا تدنست اعراض الملوك ...) ولكن مقتضيات الحال دعت الشاعر الى ان ينقل (الملوك) من اصلها الذي هو جر بالاضافة الى محل حقه الرفع لكي يصل الى المعنى المقصود ، وهو في تقديري : اظهار الاهتمام بالملوك او لفت الانظار اليهم ، باعتباره ملكا ، ثم رتب الشرط وجوابه على ذلك ، ليظهر نفسه ملكا لا كالملوك . وهذا المعنى لايتحقق الا اذا نقل (الملوك) الى محل الابتداء ثم جعل مكانهم كنايتهم . و (الملوك) مبتدأ في الشكل ، ولكنه في الاصل من مكملات الجملة الفعلية ، وليس لحركة الضمة هنا قيمة دلالية ، اذ حقق الشاعر المعنى المقصود بالنقل الذي اقتضى تلك الحركة.

****

ويحمل على هذا قوله :

واذا دياجـــــي الخطب استدل ثوبهـا   اطلعت فـجـرا منـــه ليـــس يران (٦٩)

يقدر البصريون فعلا محذوفا في قوله : (واذا دياجي الخطب..) وتقدير الكلام عندهم : (واذا اسدلت دياجي الخطب اسدل ثوبها) ، ويرى الكوفيون والاخفش ان جملة (دياجي الخطب اسدل ثوبها) جملة اسمية ارتبطت بـ (اذا) الشرطية الظرفية وفي المذهب الاول تكلف لا مبرر له ، وفي الثاني ابتعاد عن المعنى المقصود ، لان الكلام لو كان جملة اسمية اصلية لما ناسب حال الفخر الذي ادخل الشاعر نفسه فيها ، ولكنه اراد ان يلفت الانظار الى امر عظيم ذي اهمية كبيرة ، وهو اشتداد الامور وتفاقمها ، ثم ربط ذلك بالشرط ، فاذا اشتدت الامور واقبلت الى الناس كقطع الليل المظلم ، ترى الشاعر نفسه فيها ، ولكنه اراد ان يلفت الانظار الى امر عظيم ذي اهمية كبيرة ، وهو اشتداد الامور وتفاقمها ، ثم ربط ذلك بالشرط ، فاذا اشتدت الامور واقبلت الى الناس كقطع الليل المظلم ، ترى الشاعر يستطيع بقدراته الكيرة ان يستخرج منها فجرا لايحجب ضياؤه ، يشق الظلمات ويبدد دياجيها .

وهذا المعنى الذي يناسب الحال يقتضي ان يكون اصل الكلام جملة فعلية ، و (دياجي الخطب) تكون من مكملات هذه الجملة ، ثم نقلها الشاعر الى موضع الابتداء ليحقق المعنى الذي يناسب الحال والاصل:

واذا اسدل ثوب دياجي الخطب ...

ثم ——> واذا دياجي الخطب اسدل ثوبها ...

****

ومثل ذلك قوله :

واذا الكـــــريم كبت به ايـــامـــــه رفضته رفض الاجـــرب الاخـــوان (٧٠)

والأصل : وإذا كبت بالكريم ايامه .

****

وقال الشاعر :

والمرء لا ينفعــــــه مـــن مـــــالــه إلا الذي قـــدم فـــي سبل الهـــدى (٧١)

قوله : (والمرء لا ينفعه من ماله الا الذي ...) يضعه النحاة في باب الاشتغال .

وحقيقة الاشتغال عندهم ان يتقدم اسم ، ويتأخر عنه فعل ، قد اشتغل في ضمير ذلك الاسم ، او في سببيه ، فإذا قلت : خالد اكرمته ، او قلت : خالدا ضربه محمد او قلت : خالدا لقيت اخاه ، فقد تقدم في هذه الامثلة اسم ، وتأخر عنه فعل اشتغل في الضمير العائد على ذلك الاسم ، أو في سببيه ، وهو (اخاه) في المثال الاخير.

فاذا وجد الاسم والفعل على الهيئة المذكورة جاز للمتكلم ان ينصبه ، وجاز له ان يرفعه . فاذا انتصب الاسم المتقدم في الكلام ، فإن النحاة يقدرون له فعلا ناصبا يفسره الفعل المذكور في الكلام ، والتقدير عندهم في الامثلة المذكورة قبل قليل:

اكرمت خالدا اكرمته ، وضرب محمد خالدا ضربه ، ولقيت خالدا لقيت اخاه ، والفعل عندهم واجب الحذف . قال سيبويه : «وإن شئت قلت : زيدا ضربته ، وانما نصبه على اضمار فعل هذا يفسره ، كأنك قلت : ضربت زيدا ضربته ، الا انهم لا يظهرون هذا الفعل للاستغناء بتفسيره ..» (٧٢).

واما الرفع في هذا الاسلوب ، فعلى ان الكلام جملة اسمية من المبتدأ والخبر ، فاذا قلت : خالد اكرمته ، وخالد ضربه محمد ، وخالد لقيت اخاه ، ف (خالد) في الامثلة مبتدأ ، وخبره الجملة الفعلية بعده.

ويرى بعض النحاة ان الرفع اجود من النصب لسببين:

الاول : لا يحتاج الكلام في حالة الرفع الى اضمار فعل.

الثاني : لان النصب يتحقق اذا لم يكن الفعل مشتغلا بضمير الاسم المتقدم او بسببيه مثل : خالداً اكرمت ، فإذا اشتغل الفعل بضمير الاسم او بسببيه فالرفع اجود (٧٣).

وكلام الشاعر يدخل في باب الاشتغال ، فقد تقدم اسم ، وهو (المرء) ، وتأخر عنه فعل وهو (ينفعه) ، وقد اشتغل هذا الفعل بضمير ذلك الاسم ، وهو الهاء ، ولكن الشاعر اختار الرفع ، فالكلام عند النحاة جملة اسمية فيها (المرء) مسند اليه (مبتدأ) وقوله : (لاينفعه الا الذي ....) جملة فعلية في موضع الخبر.

والحقيقة عندي انه لا اشتغال هنا ولا مشغولا عنه ، ولا مشغولا به ، وإنما نقل المتكلم الاصل الى استعمال جديد ليناسب مقتضيات الحال ، والاصل في هذا الباب يدخل في الجملة الفعلية التي

تكون وفق الاطار التالي :

فعل متعد ثم فاعل ثم مفعول به

واذا كانت حال المتكلم تقتضي ان يظهر للسامع او المخاطب اهتمامه بالمفعول به ، وعنايته به ، لامر من الامور نقله الى موضع الابتداء ، ليحقق المعنى الذي يريده ، ولايحققه له الاصل ، ولما كان الموضع المنقول اليه المفعول به ، يقتضي الرفع ، فقد ارتفع اقتضاء للموضع حسب نظام النحو العربي ، وبعد النقل الى الاستعمال الجديد ، وضع المتكلم مكان المنقول كنايته الدالة عليه ، وليس لهذه الكناية (الضمير) وظيفة إعرابية ، بل فيها قيمة دلالية ، وهي توكيد نقل الاصل اى الاستعمال الجديد.

فالاصل : اكرمت خالدا ثم خالد أكرمته

فاعلية مفعولية كناية عن المفعول به

فاعلية

مفعولية

فالضمة في الاسم المتقدم ليس فيها قيمة دلالية ، وانما وصل المتكم للمعنى المقصود بالنقل .

ونعود الى كلام الشاعر : (والمرء لاينفعه من ماله الا الذي ...)

لا ينفع المرء من ماله الا الذي....

فيد تلازم حصر

مفعولية

فاعلية

وفي هذا الاصل حصر ، يظهر من إدخال (لا .. إلا) ، وتقديم المفعول به ، وتأخير الفاعل ، والمحصور هو الفاعل ، والمعنى : ينفع الانسان الذي يقدمه في سبيل الله فحسب ، ولا ينفعه مال

ولابنون ولا قصور و ... وفي هذا الكلام حقيقة أخبر بها الحكماء والعقلاء ، والاديان ، فهل ينقل الشاعر هذا الاصل ، ويأتي بهذه الحقيقة ؟ ام انه يتصرف بهذا الاصل ليحقق معنى مقصودا يناسب مقتضيات الحال ، نرى ذلك من إيراد البيت الذي يسبق البيت المذكور وهو قوله :

من كل مـــــانال الملـــوكُ نلتـــه وكـــلٌ حـــي للحُتـــوف والتـَّــوى

إنه يتحدث عن الانسان ، مطلق الانسان ، ملكا كان ام مملوكا ، سيدا أم مسوداً. ألا يناسب هذا المعنى ان يظهر الاهتمام بالانسان اولا ، ثم يأتي بالحقيقة المعلومة ، وتحقيقا لذلك قدم (المرء) وهو مفعول به ، ووضعه في الابتداء المقتضي لحركة الرفع ، ثم وضع مكانه كنايته الدالة عليه ، فقال :

فاعلية

والمرء لا ينفعه من ماله الا الذي

قيد

تلازم حصر

مفعولية كناية

ومثل الذي تقدم قوله :

شـــجـــاع لا يخـــامـــرني ارتعـــاد إذا المقـــدام خـــامـــره النكول

جـــواد لايميلـــني عـــــــــنول إذا الوهاب مـــيله العـــنول .. (٧٤)

فقوله: (اذا المقدام خامره النكول) ، اصله :

اذا خامر النكول المقدام

وقوله : (إذا الوهاب ميله العنول) ، اصله :

اذا ميل العذول الوهاب.

****

وقال أيضا:

وأخـــا قضـاعة قد اطـرت قـــذاله بالقـرن حتـــى خـرا هـــون هائن (٧٥)

قوله : (واخا قضاعة قد اطرت قذاله) يدخل في باب الاشتغال ، كما يرى النحويون اذا تقدم اسم ، وتأخر عنه فعل ، قد عمل في سببي ذلك الاسم ، وهو (قذاله) (٧٦)، وقد نصب الشاعر الاسم المتقدم ، والنصب عند النحويين على اضمار فعل يفسره المذكور ، والتقدير عندهم : (وقد اطرت اخا قضاعة اطرت قذاله).

وفي هذا التقرير تكلف ، وعدم اتساق في السياق ، فهل يكون مناسبا ان يقول : قد اطرت فلانا ؟ الا إذا قدروا فعلا مناسبا ، مثل : وقد قتلت اخا قضاعة اطرت قذاله ، وهذا فيه تكليف ايضا.

والرأي عندي ان يكون الاسم المتقدم المنصوب مفعولا به ، للفعل المتأخر ، واصله ان يكون مؤخرا ، ولكن الشاعر نقله من اصله ، لانه أراد أن يعظم أخا قضاعة ، ويظهر الاهتمام به ثم يخبر انه قد أطار رأسه عن جسده ، ليكون ذلك أبلغ في إظهار شجاعته للمخاطبين ، لأن الشجاع يتباهى بقتله الابطال والاقران ، وهذا المعنى لايحققه الاصل وهو : (وقد أطرت قذال أخي قضاعة).

ولتحقيق المعنى المقصود ، نقل (أخا قضاعة) إلى محل الابتداء ، وترك سببيه ، ثم وضع مكانه كنايته ، وهو الضمير ، وفائدته توكيد النقل ، وتخصيص السببي ، بدلا من ان يبقى مطلقا لا يخص أحداً ، فقال:

وأخا قضاعة قد اطرت قذاله....

وأما النصب فبوقوع الفعل المتأخر عليه ، اذ بين (قذاله) و (أخا قضاعة) معنى البدلية ، (بدل جزء من كل) ، كما لو قلت : ضربت اخي محمدا ، (فأخي) منصوب بالفعل ، وكذلك (محمدا).

****

وقال الشاعر :

وطـــــارق جشمـــه نيل المنـــى   جوب الديـــاميـم اذا الليل عســا (٧٧)

قوله : (وطارق جشمه نيل المنى ..) يرى النحويون أن قوله : (وطارق) مجرور

بـ (رب) الزائدة المحذوفة ، وفي هذا البيت وامثاله مما يدخل في باب الاشتغال ، يجوز ان يكون الاسم مجروا لفظا بـ (رب) المحذوفة ، لكنه مرفوع محلا ، مبتدأ ، وخبره الجملة الفعلية ، ويجوز ان يكون مجرورا لفظا ، منصوبا محلا مفعولا به لفعل محذوف يفسره المذكور.. (٧٧)

وعندي ان اصل الكلام : (جشم نيل المنى طارقا) ، و (طارق) ويريد به الضيف الذي يأتي ليلا مفعول به في الاصل ، ولو قال الشاعر ذلك على الاصل ، لكان ناقلا خبرا مفاده : كلف نيل المنى ضيفا قادما في الليل ، ان يجوب المفاوز البعيدة اذا اشتدت ظلمة الليل . وهذا المعنى لايناسب الحال التي فيها الشاعر ، وهي الفخر والتباهي بالكرم ، وبذل العطاء ، كما يتضح من البيتين اللذين يسبقان البيت المذكور وهما:

واغـــتـــدى بضــــرم ثيـــران القـــرى   فـــوق التـــلاع الشم ليــــلا والربى

وإن تمـتـى نورجـــــا امـنـيــــة   اعطيــــتــــه فـــوق رجـــاه والمنى

والحال التي فيها الشاعر تقتضي ان يظهر الاهتمام بالاضياف الذين يأتونه ليلا . وان يعلم السامعين انهم كثر ، ولاجل ان يحقق هذا المعنى قدم المفعول به في موضع الابتداء وهذا يحقق اظهار

الاهتمام بالاضياف ، ثم غير الحركة الاعرابية الى الجر من الرفع او النصب ليحقق معنى تكثير الاضياف ، وبالنقل من اصل الكلام ، وتغيير حركة الاعراب حقق المعنى المقصود ، فالحركة هنا لها قيمة دلالية ، وليست اعرابية ، وليس في الكلام (رب) محذوفة ولعل النحاة ربطوا بين معنى التكثير في مثل هذه الجمل ، وبين (رب) الجارة التي تفيد التكثير أو التقليل ، على خلاف بينهم ...(٧٩)

****

ومثل الذي تقدم قوله :

وخِدرٍ ذات دملـــج دخلتـــــه   علـــى شمـــوع رودة مثل الرشـــا (٨٠)

الاصل : ودخلت خدر ذات دملج..

****

قال الشاعر :

لنحن احق الناس بالحمد والثنا   واولاهم بالملك ضربة لازم (٨١)

قوله : (لنحن احق الناس بالحمد ...) جملة اسمية ، اصلها : (نحن احق الناس بالحمد) ، ولو قال الشاعر بالاصل ، لكان قد نقل خبرا مجردا ، وفيه مجال لورود الشك او الظن بما نقل ، وهذا لايناسب حال الفخر ، اذ يريد ان يظهر نفسه وقومه على سبيل التوكيد بأنهم احق الناس بالحمد والثناء ، فلا يبقى بعد ذلك شاك او متردد في هذا الامر.

ولكي يصل الى المعنى الجديد ادخل عنصرا جديدا على اصل الجملة ، وهو اللام ، التي استعملوها دالة على التوكيد . وهذه اللام سماها النحويون لام الابتداء واوجبوا دخولها على المبتدأ في الجملة الاسمية ، لأنها مما له الصدارة في الكلام ، ولم يجيزوا دخولها على الخبر ، الا شذوذا ، كما

قال :

(ام الحليس لعجوز شهرية) (٨٢).

ولهذه اللام قيمة دلالية ، وهي توكيد ماتدخل عليه ، واظهار اهميته ، ولكن الذي يحتاج اليها هو المبتدأ غالبا ، لانه قد يشترك في معنى الخبر اكثر من مبتدأ فاذا قلت : محمد شاعر ، قد يقال لك : علي شاعر ، وخالد كذلك ، فاذا اردت ان تعين محمدا وتخصه بالخبر دون غيره ، قلت : لمحمد شاعر.

ولما اراد الشاعر ان يخص نفسه وقومه بالحمد دون الناس ، ادخل اللام على المبتدأ، فقال : (لنحن احق الناس بالحمد ...) ووصل الى المعنى المقصود الذي تقتضيه حال الفخر عن طريق زيادة عنصر جديد على الاصل ، وهو اللام . وتحليل الجملة :

لنحن احق الناس بالحمد

ل (احق الناس بالحمد

عنصر توكيد اسناد قيد

تلازم اضافة تلازم

****

قال الشاعر :

وقلت اطمئني إن سيفي لصارم خشيب واني نو مقال وافعال (٨٣)

في هذا البيت جملتان اسميتان هما قوله : (ان سيفي لصارم) ، وقوله : (إني نو مقال وافعال) . والاصل في الجملة الاولى : (سيفي صارم) ، ولكن الشاعر زاد عليها عنصرين اقتضتهما حال الفخر ، فهو يريد ان يؤكد لصاحبته انه يملك سيفا ، ويؤكد لها ان سيفه قاطع فصال ، وهذا

يقتضي ان يدخل الى الاصل عنصرين يفيدان توكيد المبتدأ (سيفي) ، والخبر (صارم) ، وهذان العنصران هما : (إن) و (اللام) .

و(إن) عند النحاة حرف ناسخ يفيد التوكيد ، وهي تنسخ إعراب الجملة الاسمية اذا دخلت عليها ، فتنصب المبتدأ ، ويسميه النحاة اسمها ، وترفع الخبر ويسمى خبرها . هذا هو مذهب جمهور النحاة ، والكوفيون يذهبون الى انها عاملة في المبتدأ فحسب ، واما الخبر فهو مرفوع بما كان مرتفعا به قبل دخولها .. (٨٤)، وكذلك تعمل اخواتها (أن ، كأن ، ليت ، لعل ، لكن) في الجملة الاسمية مع اختلاف دلالة كل منها عن الاخرى ، ف (أن) للتوكيد ، و (كأن) للتشبيه ، و (ليت) للتمني و (لعل) للترجي ، و (لكن) للاستدراك.

واللام الداخلة على الخبر هي اللام المزحلقة عند النحاة ، وفائدتها التوكيد ويرون ان حقها ان تتصدر الكلام ، ولكن وجود (إن) ، وهي حرف ناسخ للتوكيد ، جعلهم يكرهون توالي حرفي توكيد في اول الجملة ، فزحلقوها الى الخبر ... (٨٥).

والحقيقة انك لو قلت : محمد قادم ، اخبرت عن قدوم محمد خبرا مجردا ، وهذا الخبر يمكن ان يرد عليه الشك في جزئية ، اذ يمكن ان يسأل السامع : امتأكد انت ان القادم هو محمد ؟ انت ان قدوم محمد واقع وحاصل ؟ ، فاذا اراد المتكلم ان يخبر ان القادم هو محمد لا زيد قال : إن محمدا قادم ، فأدخل على الاصل عنصر توكيد هو (إن) ، وقد اقترن دخول (إن) بتغيير حركة إعراب الاسم الذي تؤكده ليتحقق نقل الاصل الى الاستعمال الجديد ، وصار هذا نظاما نحويا في لغة العرب ، وبهذا تفسر بقاء حركة الخبر دون تغيير.

واذا وجد المتكلم ان الحال تقتضي ان يؤكد الخبر ، ادخل عليه اللام ، وهو عنصر توكيد في لغة العرب ، تؤكد مادخلت عليه ، ولا تغير حركة إعرابية ، فلم تزحلق هذه اللام من الابتداء الى الخبر ، كما يقول النحاة ، بل جيء بها لتوكيد الخبر نفسه.

ونعود الى قول الشاعر : (إن سيفي لصارم) فإنه اكد أن له سيفا ، بإدخال (إن) ثم اكد أن هذا السيف قاطع ، بإدخال اللام ، فحقق المعنى المقصود بزيادة العنصرين المذكورين على اصل الجملة.

****

قال الشاعر :

اعـاذل ان الجـود لايهلك الفتـى ولا يخلـد الامسـاك غيـر معمـر (٨٦)

قوله : (أن الجود لا يهلك الفتى) يراه النحويون جملة اسمية ، دخل عليها حرف ناسخ وهو (ان) ، فنصب المبتدأ ، وهو الجود ، والخبر جملة فعلية في محل رفع ، وهي قوله (لا يهلك الفتى).

وعندي أن الاصل جملة فعلية ، وهو : (لايهلك الجود الفتى) ، ولكن الشاعر اراد ان يبرز الجود ، ويظهر اهتمامه به ، فقدمه وهو فاعل ، فقال : (الجود لا يهلك الفتى) ــــ (فاعل + فعل + مفعول به) ، ثم وجد ان الحال تقتضي ان يؤكد (الفاعل فأدخل عليه عنصر التوكيد (أن) ، الذي اقتضى تغيير حركته الاعرابية الى النصب ، اذ صار ذلك نظاما نحويا كما تقدم . وتحليل الجملة كما يلي :

ان الجود لا يهلك الفتى ـــ عنصر توكيد (فاعل + فعل + مفعول به)

توكيد

فاعلية مفعولية

****

قال الشاعر:

كأن سطـــورا معجمـــات رسومهـــا   اذا لحـــن او هلهـــال برد محبـــــر (٨٧)

قوله : (كأن سطورا معجمات رسومها) جملة اسمية اطلها : (رسومها سطور معجمات) والهاء تعود الى الدار في البيت السابق :

اللدار من أكثـــاف قو فعــــر عــر   فخبت النقـــا بطـــن الصفـــا فالمشقَرِ

ف (رسومها) مسند اليه (مبتدأ) ، و (سطور) مسند (خبر) ، وفي الاصل اخبار عن آثار دار الاحبة بأنها سطور منقطة ، او ثوب رقيق منقش بال ، ولكن الشاعر لم يرد أن ينقل المعنى المذكور ، بل اراد ان يشبه تلك الاثار من ديار الاحبة بالسطور المنقطة ، او بالثوب المنقش الرقيق ، ثم وجد ان الحال تقتضي ان يبرز للسامع المشبه به ، وهو السطور المعجمة فقدمه على المشبه ، وقد اقتضى ذلك ان يتصرف بالاصل على النحو التالي:

الأصل : رسومها سطور معجمات ——> كأن رسومها سطور معجمات

ادخل عنصرا يحقق التشبيه ، وهو (كأن) ، التي اقتضت تغيير حركة الاسم الداخلة عليه ، اذ صار ذلك نظاما في عناصر تزاد على الجملة الاسمية لتحقيق معنى من المعاني الاتية :-

التوكيد ، التشبيه ، التمني ، الترجي ، الاستدراك ، وبقي المسند مرفوعا دون تغيير . ثم قدم الشاعر المسند ، لعنايته به ، او لمكانته في وجدانه واحاسيسه ، فقال :-

(كأن سطورا معجمات رسومها) ، ولما وقعت (كأن) على المتقدم غيرت حركته الاعرابية الى النصب ، اتباعا للنظام النحوي المذكور ، وتحليل الجملة كالتالي:-

تشبيه

كأن سطورا معجمات رسومها ←── عنصر تشبيه (خبر + مبتدأ)

تلام تبعية

إسناد

****

قال الشاعر :

درية الثغـــر منيـــر صلتهـــــا عذبة سلســـال الثغـــور واللمــى (٨٨)

في هذا البيت ثلاث جمل اسمية ، الاولى قوله (درية الثغر) ، والثانية قوله : (منير صلتها)، والثالثة قوله : (عذبة سلسال الثغور) . ويجمع الجملتين الاولى والثالثة رابط ، وهو حذف المبتدأ (المسند اليه).

والنحويون يرون انه يجوز للمتكلم ان يحذف المبتدأ او الخبر ، جوازا او وجوبا ، اما الجواز فيأتي في المواضع التي يوجد فيها دليل حالي او مقالي على المحذوف ، ولكنهم يتمسكون بتقدير المحذوف واظهاره ، قال ابن هشام : «فأما حذف المبتدأ جوازا فنحو (من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها ..» (٨٩) ، ويقال : كيف زيد ؟ فتقول : دنف ..» (٩٠) فيقدرون المحذوف ويظهرونه ، وهو امر مخل بالمعنى المقصود الذي اراد المتكلم ان يحققه بالحذف ، فالمتكلم يوجد بالحذف معنى جديدا ، ليس موجودا في الاصل ، ففي قوله درية الثغر عذبة سلسال الثغور ، الاصل : هي درية الثغر ، وهي عذبة سلسال اللمى ، وهذا ما يذكره النحويون عند التقدير ، ولكن الشاعر لم يرد ان ينقل خبرا مجردا ، بل اراد أن يلفت انتباه السامع الى صفة جديرة بالذكر لمحبوبته ، وهي ثغرها الذي يشبه اللؤلؤ في الانتظام والبياض ، ورضا بها العذب ، وسمرة شفتيها ، ولولا هذا الحذف لما وصل الشاعر الى هذا

المعنى. وفي تحليل الجملة التي يحذف المتكلم بعض أركانها يشار الى المحذوف بعلامة (O) دون أن يذكر تقديره حرصا على المحافظة على المعنى المقصود من وراء الحذف. وتحليل الجملتين:

درية الثغـــــــــــر	عذبة سلسال الثغور
تلازم	تلازم
إسناد	إسناد

****

قال الشاعر :

لخـــــولة وهـــي بهكنـــة شمـــــــوع يؤوِّد غصنهـــا خمـــر الشبـــابِ (٩١)

قال : (لخولة) فذكر الخبر ، ولم يذكر المبتدأ ، ولو قلت للنحوي اعرب قوله : (لخولة) لقال : خبر لمبتدأ محذوف تقديره : لخولة جمال ، أو قوام .. ، والحقيقة ان الشاعر لو اراد ذلك لأظهره ، ولكنه حقق بالحذف معنى جميلا ، لم يكن ليصل اليه بذكر المبتدأ والذي يظهر لي أنه أراد أن يجعل السامع في حيرة امام هذه المرأة ، فيتشوق الى معرفة المبتدأ ، ويبقى مشدودا الى الشاعر في ابياته الى ان يضع يده على المبتدأ الذي يبحث عنه ، فيزداد استمتاعه وتصل نشوته اقصاها عند مايعلم ان لخولة أردافا إذا مشت تهتز كماء البحر المرتج ، واليك الابيات التي تتلو هذا البيت :

كـــــأن رضـــــابهـــــا من بنت كـــــرم سـلاف زوجت بابن السـحـاب

مــهـفـهــة القــوام لهـا ابتـسـام كــــايماض البـــروق من الرباب

اذا ولت رأيت لهـــا ارتجـــاجـــا كـــمـــا يرتج ملتطم العبـاب

وتحليل الجلمة يكون كالتالي :

لخولة

إسناد

******

وقال أيضا :

ونحـــن بنـــو ماء السمـــاء ومـن يكن أبـــــاه فـــأي المالكيـــن ينـاسبـــه

الاصل في قوله (ومن يكون اباه ..) هو : (ومن يكن ماء السماء اباه) ، وهو معلوم من سياق الكلام ، وموقف النحويين في مثل هذه الجملة ، ان يقدروا اسم (كان) ضميرا محذوفا يعود على (ماء السماء) ، ولايزيدون على أن الحذف هنا جائز لتقدم مايدل على المحذوف .

والشاعر قصد بهذا الحذف معنى اقتضته الحال ، فنقل الأصل إلى استعمال جديد يناسب متقضيات حال الفخر ، فأتى اول الامر بجملة اسمية مؤلفة من مبتدأ وخبر ، ونقل بها الى السامع خبرا ، وهو كونه من بني ماء السماء ، ثم لما أراد أن يفخر بهذا الانتساب على الملوك ترك ذكر من ينتسب اليه ، وهو (ماء السماء عامر بن حارثة الغطريف) تعظيما لشأنه ، فأظهر التعظيم بهذا الحذف ، وهو امر جرى على السنتهم إذ قد يحذفون الاسم للتعظيم ، او للتحقير ، او نحو ذلك من المعاني .

وتحليل الجملة كالاتي :

يكن اباه = عنصر زمن (+ خبر)

عنصر زمن إسناد

****

قال الشاعر :

وناﺋـلـي يفـــضح جـــيـــحـــوَن ندىً   وسـطـوتـي تُذعـــــر آســـــادَ الَّرى
وعـــزمـــتي تُربي على الشُّهب مـــضـــا   وهِمـــتي تنطحُ عـــرنين السُّهـــا .. (٩٢)

الجمل الاتية : (ونائلي يفضح جيحون) و (سطوتي تذعر آساد الشرى)، و (عزمتي تربي على الشهب) ، و (همتي تنطح عرنين السها) ، وهي جمل اسمية عند النحاة ، الخبر فيها جملة فعلية ، وهو مؤخر وجوبا ، فهي عندهم من الجمل الاسمية التي يجب ان يكون الخبر فيها مؤخرا ، اذ لو تقدم الخبر لتحولت الجملة من الاسمية الى الفعلية ، ولصار المبتدأ فاعلا ، وهو ما لايجوز عندهم . قال ابن الناظم : (نحو : زيد قام ، وهند خرجت ، فهذا النوع لا يجوز فيه تقديم الخبر ، لعدم القرينة الدالة على إرادته ، فإنك لو قلت : قام زيد ، وخرجت هند ، كان من باب الفعل والفاعل ، لان اعتباره اقرب» (٩٣).

ولو سألتهم عن فاعل كل فعل في الجمل السابقة لقالوا : هو ضمير مستتر يعود على الاسم المتقدم ، فجعلوه ضميرا ، وجعلوه مستترا ، وحقيقة الضمير كونه كناية عن الاسم ، فهل يجوز ان نأتي بكناية عن اسم موجود ، يستقيم الكلام بوجوده ، ثم نجعل هذه الكناية مستترة ؟

ولو سألت اي عربي ، صغيراً كان ام كبيرا عن قولك : (محمد جاء) : من الذي قام بالمجيء ، لقيل لك : محمد ، ف (محمد) فاعل المجيء تقدم ام تأخر ، والسؤال الذي يفرض نفسه هنا : لم قدم الفاعل ؟ والجواب ان اقول : إن اصل الجملة الفعلية ان يتقدم الفعل ويتأخر الفاعل ، فالاصل : (جاء محمد) ، ولو قلت هذه الجملة كنت قد اخبرت عن مجيء محمد ، ولا يهمك امر محمد ، ولكن لو كان الحاضرون ينتظرون محمدا ، يتلهفون الى مجيئه دون غيره ، كما اذا توقف على مجيئه امر مهم فهذه أمرها يختلف عن الحال الاولى التي كنت قد نقلت خبراً مجرداً ، ودون إظهار الاهتمام بشخص محمد

، ولا يحقق المعنى الجديد الذي اقتضته الحال الجديدة الاصل ، فلا بد من نقل الأصل إلى استعمال جديد يحقق المعنى المقصود ، والاستعمال الجديد هو : (فاعل + فعل) .

وأعود إلى كلام الشاعر : (ونائلي يفضح جيحون) الاصل هو : (يفضح نائلي جيحون) هو خبر مفاده أن كرمه يزيد على نهر جيحون ، والشاعر هنا ليس في حال نقل خبر من الاخباربل هو في حال فخر بكرمه ، والاصل لايناسب هذه الحال ، فلا بد من التصرف بالأصل الذي جاء وفق الاطار (فعل + فاعل + مفعول به) ، الى استعمال جديد ، وهو (فاعل + فعل + مفعول به) ، فقدم مايفخر به وهو (نائلي) ، ليناسب الحال الذي وضع نفسه فيها.

وكذلك قوله: (وسطوتي تذعر اساد الشرى) أصلها (تذعر سطوتي آساد الشرى) ----- (فعل + فاعل + مفعول به) ، ولما اراد ان يفخر بشجاعته ، وسطوته التي تخيف اسودا مشهورة بالفتك في مأسرة الشرى ، نقل الاصل الى استعمال جديد وهو (فاعل + فعل + مفعول به) ، فقدم الفاعل وهو محل فخره . وتحليل الجملة كالاتي :-

وسطوتي تذعر آساد الشرى

تلازم إسناد مفعولية تلازم

وأيضا قوله : (وعزمتي تربي على الشهب) ، اصلها : (تربي عزمتي على الشهب) ـــــ(فعل لازم + فاعل + تكملة)، ومحل فخره هو الفاعل ، فقدمه قائلا : (وعزمتي..) والاستعمال الجديد هو : (فاعل + فعل لازم + تكملة).

وقوله : (وهمتي تنطح عرنين السها) ، يقال فيه ماقلت فيما سبقه.

******

قال الشاعر :

اذا اكتسبت ملوك الارض ذما فإن الحمد قسمي واكتسابي (٩٤)

ومن مثلي واي فتى كمثلي إذا ما الامر جل عن العتاب (٩٥)

في البيت الاول جملة فعلية ، جاءت على الاصل ، وهو قوله (إذا اكتسبت ملوك الارض ذما) ، والاطار الذي جاءت عليه هو (فعل + فاعل + مفعول به) ، ويظهر لنا الشاعر في هذه الجملة عدم اهتمامه بملوك الارض الذين اذا جنوا ذما بسبب عدم اهليتهم لكرسي الملك فإن الشاعر يجعل نفسه اهلا للحمد الذي يكتسبه بفعاله الحميدة التي تليق بالملك ، فلم يعط اي اهتمام للملوك ، لذلك جاء بهم على الاصل بعد الفعل .

ولكن قوله في البيت الثاني : (اذا ما الامر جل عن العتاب) اظهر اهتماما بالامر العظيم الذي يجل عن العتاب ، فنقل الاصل وهو (إذا ماجل الأمر عن العتاب) ـــ (اذا ما الامر جل عن العتاب) ليحقق المعنى المقصود بتقديم الفاعل على الفعل .

والنحاة يرون في هذه الجملة وامثالها ان الاسم الوارد بعد (اذا) هو فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور ، وهو تكلف في القول ، واجحاف بالمعنى .

******

قال الشاعر :

فظل بعز يلفظ ادر تاجه بغمدان واحلولت اليه مشاربه

قوله : (يلفظ الدر تاجُه) جملة فعلية منقولة عن أصل هو (يلفظ تاجه الدر) . والهاء في تاجه عائدة على سيف بن ذي يزن الذي تقدم في بيت سابق ، والاصل مجرد اخبار بكون تاج الملك سيف

يلقي بالدر بقصر غمدان ، والشاعر لايهمه هذا الخبر ، بل يريد ان يركز على الشيء الثمين في تاج الملك سيف ، وهو الدر ، وبه يفتخر الملوك اذا زينوا تيجانهم به ، فنقل الاصل وهو (فعل + فاعل + مفعول به) إلى استعمال جديد يحقق المعنى المقصود ، وهو (فعل + مفعول به + فاعل).

****

قال الشـــاعر :

رؤوســـاً حـاولت كبـــراً صعـــوداً فنـالتـــه علـى روس الصعـــاد (٩٦)

وقبلـــــه :

واوفينـا التنور غـداة خـــــامت وشطبنـــــا الجمـــاجم بالجلاد

قال ابن هشام : «وقد يحذف ناصبه ـ اي المفعول به ـ ان علم ، كقولك لمن سدد سهما : (القرطاس ، ولمن تأهب لسفر : (مكة) ولمن قال : من اضرب؟ (شر الناس) ، بإضمار : تصيب ، وتريد ، واضرب» (٩٧) . النحاة في مثل هذه الاسماء ، فاذا رأيت رجلا يسدد سهما المنصوبة يقدرون فعلا محذوفا يدل عليه الحال او السياق ، فاذا رأيت رجلا يسدد سهما نحو قرطاس وقلت له : القرطاس انتصب القرطاس على انه مفعول به لفعل دلت عليه حال الفاعل ، وتقديره ، تصيب ، او اصبت القرطاس ، وكذلك اذا رأيت رجلا قد تأهب لسفر ومعه لوازم الحج او العمرة ، قلت له : مكة ، اي تريد مكة ، فالمنصوب مفعول به لفعل محذوف دلت عليه حال الفاعل ، واذا قال لك شخص : من اضرب ؟ قلت له : شر الناس ، اي اضرب شر الناس ، فالمنصوب مفعول به لفعل محذوف دلت عليه (اضرب) المتقدمة في السؤال . وهذا من ناحية تركيب الجملة الفعلية في احد اطرها صحيح ، فالمفعول به يتقدمه فعل وفاعل ، ولكن تقدير الفعل وإظهاره يفسد المعنى ، اذ لو اراد المتكلم ان يظهر الفعل لفعل ، ولكنه حذفه ليحقق بالحذف معنى لايوجد بالاصل ، وهذا ما اغفله النحاة.

وقول الشاعر : (رؤوساء حاولت ...) انتصبت رؤوسا على المفعول به ، والاصل كما يدل عليه السياق : (قطعنا رؤوسا حاولت الصعود تكبراً) ولو قال كذلك لكان مجرد ناقل لهذا الخبر ولكنه يريد ان يجعل السامع ينبهر بأمر عظيم في غاية الاهمية ، وهو الرؤوس المتكبرة التي تحاول ان تصل الى المراتب العالية ، إنه يريد ان يصرف ذهن السامع الى هذا الامر ، لذلك تجاهل ذكر الفعل والفاعل ، واتى بالمفعول به رأسا ، وقد وصل بالحذف الى المعنى المقصود ، ويكون تحليل الجملة كالآتي:

فعل + فاعل + مفعول به

مفعولية

+ + مفعول ———> رؤوسا

إسناد

****

ومثل ذلك قوله :

سيفـــا يـــروقك جـــوهــــــرا إمـــا بصـــرت بـــه وحـــدا (٩٨)

الاصل هو : (اعددت سيفا يروقك ...) كما دل على ذلك البيت الذي قبله وهو :

اعددت للاضياف دهما دفقت لحما وثردا

ولكل ذي رغم الد : اذا اتى امرا وادا

والذي يهم الشاعر هو السيف ذو الجوهر الاصيل الذي يخطف الابصار . إنه يريد ان يبرزه ليخيف به كل عدو لدود ، وهذا المعنى لايحققه الاصل ، لذلك نقل الاصل الى الاستعمال الجديد الذي يحقق المعنى المقصود ، وذلك عن طريق الحذف.

****

قال الشاعر:

ومشـــــول يستـنُّ فـــــــــــــي آريـــــــــــــه سنن العجــــــاب (٩٩)

يرى النحويون في قوله : (ومشوّل ...) ان مشولا مجرور ب (رب) المحذوفة ، اي ورب مشول ، والمجرور لفظا إما ان يكون في محل رفع مبتدأ ، وخبره الجملة الفعلية ، او يكون متعلقا بالفعل الذي بعده ، وفي كلا التقديرين مجانبة للمعنى المقصود ، فلو اعدنا الجملة الى اصلها ، لوجدنا ان اصلها جملة فعلية من فعل وفاعل ، وهو : (يستن مشول في آريه سنن العجاب) ، والمعنى الذي حمله هذا الاصل : يدور أو يجري فرس ضامر نشيط في محبسه دورانا يدعو الى التعجب من كثرة نشاطه ، وهذا خبر لايناسب حال الفخر الذي وضع الشاعر نفسه فيها ، انه يريد ان يفخر بكثرة الافراس الضامرة النشيطة المحبوسة في آريها ، انتظارا لركوبها ، ان كثرة هذه الافراس هي محل فخره ، فكيف يصل الى المعنى الذي يناسب هذه الحال ؟ إنه قدم الفاعل اولا ، فقال:

ومشول يستن ——> فاعل + فعل

وبهذا التقديم اظهر بما يريد ان يفخر به ، ويشد السامعين به اليه ، ولكن هذا التقدم لايعطي معنى الكثرة ، فعمد الشاعر لبيان هذا المعنى الى تغيير الحركة الاعرابية الى الجر ، اذ جرى ذلك على السنتهم دليلا على الكثرة ، فالحركة هنا فيها قيمة دلالية وليست إعرابية ، وقد وصل الشاعر الى المعنى المقصود بالنقل وتغيير الحركة الاعرابية ، ويكون تحليل الجملة كالآتي :-

ومشول يستن في آرايه

إسناد تلازم

والى هنا اكتفى بما ذكرته دليلا على منهجي في دراسة الجملة في ديوان الشاعر العماني سليمان النبهاني ، وبما يناسب بحثا بسيطا ، يقدم الى ندوة مرموقة حافلة بكبار العلماء ، والله وليِّي ، وهو الغاية.

الهـــــــوامــش

(١) الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون : ١٢٢/١

(٢) الخصائص : ١٧/١

(٣) عبارة سيبويه في الكتاب ، ط . هارون: لانه يحسن ...)

(٤) الخصائص : ١٨/١ ـ ١٩

(٥) السابق : ١٩/١

(٦) نفسه : ٢٠/١

(٧) نفسه ٢٦/١ ـ ٢٧

(٨) المقتضب : ١٤٦/١

(٩) الاصول : ٣٨/١

(١٠) التبصرة : ٧٤/١ ـ ٧٥

(١١) الايضاح العضدي : ٦

(١٢) السابق : ٩

(١٣) المرتجل : ٥

(١٤) السابق : ٢٧

(١٥) المقتصد في شرح الايضاح : ٩٣/١

(١٦) المرتجل : ٢٧ ـ ٢٨

(١٧) شرح التسهيل : ٣/١

(١٨) شرح المفصل ، لابن يعيش : ٢٠/١

(١٩) السابق : ٢٠/١

(٢٠) شرح الكافية الشافية ، لابن مالك : ١٥٧/١

(٢١) المرتجل : ٢٨

(٢٢) ينظر : ٣/١

(٢٣) نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل: ١٤٦/١

(٢٤) المقتصب : ١٤٦/١

(٢٥) تقدمت الاشارة الى ان ابن جني يرى ان الكلام هو الجملة المفيدة ، او الجمل المفيدة.

(٢٦) المقتصد في شرح الايضاح : ٩٣/١

(٢٧) المغني : ٤٩٠

(٢٨) الفرقان : ٣٢

(٢٩) اللسان : (جمل : ١٢٣/١١ ـ ١٢٨)

(٣٠) ينظر : مدخل الى دراسة الجملة العربية ، للدكتور محمود نحلة : ١٣٧ ومابعدها

(٣١) وهي الجملة التوليدية ، او النواة كما أسماها المحدثون ، انظر في : نحو اللغة العربية وتراكيبها ،

للدكتور خليل عمايرة : ٨٧، ٩٨

(٣٢) شرح الفية ابن مالك: ١/٢١٦ ـ ٢٢٧

(٣٣) يرى الدكتور خليل عمايرة ، أن بؤرة الجملة الاسمية المبتدأ، انظر في نحو اللغة وتراكيبها ١٠٥

(٣٤) وهو مطابق لرأي الدكتور خليل عمايرة في بؤرة الجملة الفعلية : انظر : نحو اللغة وتراكيبها : ٩٨

(٣٥) السابق : ٨٨ ومابعدها .

(٣٦) الديوان : ٤ . ٥

(٣٧) الديوان : ١١٨ ، وقيذر ، او قيذار هو ابن اسماعيل ابو العرب : العدنانيين.

(٣٨) الديوان : ١٣٠ ـ ١٣١

(٣٩) الديوان : ١٣٢

(٤٠) الديوان : ١٤٨

(٤١) الديوان : ٢٠٢

(٤٢) شرح المفصل : ١/٩٨، ٩٩

(٤٣) شرح الكافية الشافية : ١/٣٦٦

(٤٤) المساعد على تسهيل الفوائد : ١/١٢١

(٤٥) شرح الالفية : ١١٤ ـ ١١٥

(٤٦) المغنى : ٥٥٨

(٤٧) للدكتور خليل عمايرة رأي اخر ، ينظر : في نحو اللغة وتراكيبها ٩٥

(٤٨) دلائل الاعجاز : ١١٧

(٤٩) المقصد في شرح الايضاح ، للجرجاني: ١ / ٣٠٦ ، وانظر : الاصول ، لابن السراج ١/٧٢ ، وشرح المفصل ابن يعيش :١/٩٨

(٥٠) الديوان : ٤٨

(٥١) شرح المفصل لابن يعيش : ٣/١١٠

(٥٢) الديوان : ١١

(٥٣) الديوان : ٦

(٥٤) الديوان : ٧

(٥٥) المقتصد في شرح الايضاح : ٣٠٨ ، وانظر في وجوب تقديم الخبر في هذه المسألة : شرح المفصل لابن يعيش : ١/٩٢ ـ ٩٣ ، وشرح الالفية ، لابن الناظم : ١١٧

(٥٦) انظر سيبويه : ١/٨٦ ، وشرح الالفية لابن الناظم : ١١٣

(٥٧) الديوان : ١٠

(٥٨) الديوان : ٣١

(٥٩) الديوان : ٣٣٧ ، ٣٣٨

(٦٠) ينظر : شرح المفصل : ١/٩٣

(٦١) في نحو اللغة وتراكيبها : ٨٧

(٦٢) الديوان : ٣٣٨ ، ذو يزن وذو رعين من ملوك اليمن واذوائهم ، ومضرط الصخر هو عمرو بن هند ، كان يلقب بمضرط الصخر لشدته وصرامته.

(٦٣) الديوان : ٣٣٨ ، وابرهة : يريد به ابراهة بن الحارث من التبابعة، وذو المنار هو ابرهة تبع بن الرائش وذو والاذعار : تبع ، لانه سبي قوما مخيفة اشكالهم ، فذعر الناس او لانه حمل النسناس الى اليمن فذعروا .

(٦٤) الديوان : ١١٦ ، ورقماء : مؤنث أرقم وهو أخبث الحيات . وأم حبوكر : كناية عن الداهية.

(٦٥) ينظر : الاصول : ١/٦٨ـ ٦٩ والمقتصد في شرح الايضاح: ١/٢٧٣ ـ ٢٨٠ . وشرح المفصل ١/٨٧ومابعدها .

(٦٦) قال سيبويه (الكتاب : ١/٣٤) : انما يقدمون الذي بيانه اهم لهم وهم ببيانه اعنى ..

(٦٧) الديوان : ٦٥

(٦٨) ينظر : مغنى اللبيب : ١٢٧، وشرح التصريح ، للشيخ خالد الازهري : ٢/٤٠

(٦٩) الديوان : ٢/٤٠

(٧٠) الديوان : ٣٢١

(٧١) الديوان : ٨

(٧٢) الكتاب : ١/٨١

(٧٣) ينظر : شرح التصريح على التوضيح : ١/٢٩٦ ـ ٢٩٧

(٧٤) الديوان : ١٩٠

(٧٥) الديوان : ٣١٧

(٧٦) القذال : جماع مؤخر الرأس من الانسان والفرس فوق القفا .

(٧٧) الديوان : ٦

(٧٨) مغنى اللبيب : ١٨٢

(٧٩) ينظر : الجني الداني ، للمرادي: ٤٣٩ وما بعدها

(٨٠) الديوان :٨

(٨١) الديوان : ٢٧٢

(٨٢) ينظر : شرح جمل الزجاجي ، لابن عصفور : ١/٤٣٠

(٨٣) الديوان : ١٩٨

(٨٤) الانصاف في مسائل الخلاف (مسألة ٢٢ . ١/ ١٧٦)

(٨٥) الجنى الداني : ١٢٨

(٨٦) الديوان : ١١٤

(٨٧) الديوان : ١١١

(٨٨) الديوان : ١

(٨٩) فصلت : ٤٢ ، والجاثية : ١٥

(٩٠)أوضح المسالك : ١/١٥٢

(٩١) الديوان : ١٣

(٩٢) الديوان : ٦

(٩٣) شرح الالفية : ١١٥

(٩٤) الديوان : ١٠

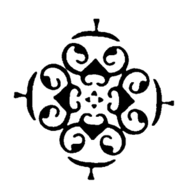
(٩٥) الديوان : ١٢

(٩٦) الديوان : ٨٢

(٩٧) أوضح السمالك : ٢/١٨٥ ، وشرح التصريح : ١/٢١٤ـ ٢١٥

(٩٨) الديوان : ٩٠ ـ ٩١

(٩٩) الديوان : ٣٤



مصادر البحث ومــــراجعـــه

١ ـ الاصول في النحو ، لابن السراج ، تحقيق د. عبد الحسين الفتلى ، طبع الجزء الاول بمطبعة النعمان ـ النجف ١٩٧٣م.

٢ ـ الاعلام ، لخير الدين الزركلي .

٣ ـ الانصاف في مسائل الخلاف ، لابي البركات بن الأنباري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار احياء التراث العربي.

٤ ـ اوضح المسالك الى الفية ابن مالك ، لابن هشام ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، (الطبعة السادسة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م).

٥ ـ الايضاح العضدي ، لابي علي الفارسي ، تحقيق د. حسن شاذلي فرهود ، الطبعة الاولى ١٣٨٩ ـ ١٩٦٩م.

٦ ـ التبصرة والتذكرة ، للصيمري ، تحقيق د. فتحي احمد مصطفى علي الدين، نشر جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ـ الطبعة الاولى ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

٧ ـ الجنى الداني في حروف المعاني ، للحسن بن قاسم المرادي ، تحقيق فخر الدين قباوة ، دار الافاق الجديدة ـ بيروت ـ ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣م.

٨ ـ الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، نشر دار الكتاب العربي بيروت.

٩ ـ دلائل الاعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ، ط . المراغي.

١٠ ـ ديوان النبهاني ، سليمان بن سليمان ، نشر وزارة التراث القومي والثقافة عمان ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤م.

١١ـ شرح الفية ابن مالك ، لابن الناظم ، تحقيق د. عبد الحميد السيد محمد ، دار الجيل ، بيروت .

١٢ ـ شرح التسهيل ، لابن مالك ، الجزء الاول ، تحقيق د. عبد الرحمن السيد ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٤م.

١٣ ـ شرح التصريح على التوضيح ، للشيخ خالد الازهري ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٤ ـ شرح جمل الزجاجي ، لابن عصفور ، تحقيق د. صاحب ابو جناح ، نشر وزارة الاوقاف والشئوون الدينية ، الجمهورية العراقية ، بغداد ١٩٨٢م ـ ١٤٠٢هـ .

١٥ ـ شرح الكافية الشافية ، لابن مالك ، تحقيق د. عبد المنعم احمد هريدي ، نشر جامعة ام القرى مكة المكرمة ـ الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

١٦ ـ شرح المفصل ، لابن يعيش ، عالم الكتب ـ بيروت.

١٧ ـ في نحو اللغة وتراكيبها ، للدكتور خليل عمايرة ، عالم المعرفة ، جدة ـ الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

١٨ ـ الكتاب ، لسبويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الجزء الاول ، دار القلم القاهرة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦م.

١٩ ـ لسان العرب ، لابن منظور ، دار صادر ـ بيروت.

٢٠ ـ مدخل الى دراسة الجملة العربية ، د. محمود احمد نحلة ، دار النهضة العربية بيروت ١٤٠٨ هـ

١٩٨٨م.

٢١ ـ المرتجل ، لابن الخشاب ، تحقيق علي حيدر ، دمشق ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م.

٢٢ ـ المساعد علي تسهيل الفوائد ، لابن عقيل ، تحقيق د. محمد كامل بركات، نشر جامعة الملك عبد العزيز ـ مطبعة دار الفكر ، دمشق ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م

٢٣ ـ معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة.

٢٤ ـ مغنى اللبيب ، لابن هشام ، تحقيق د. مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله ، دار الفكر ـ الطبعة الخامسة ـ بيروت ١٩٧٩ .

٢٥ ـ المقتصد في شرح الايضاح ، لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق. د. كاظم بحر المرجان دار الرشيد للنشر ـ بغداد ١٩٨٢م..

٢٦ ـ المقتصب للمبرد ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، طبعة المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ١٣٨٥هـ.

٢٧ ـ نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل ، للمرابط الدلائي ، تحقيق د. مصطفى الصادقي الرافعي ، مؤسسة الكتاب والتوزيع ـ ليبيا .



عمان الداخل من ١٥٠٧م الى ١٦٢٤م
التركيبة القبلية والسياسية

الدكتور/ حســـن محمد عبد الله النابودة

قسم التاريخ - كلية الآداب

جامعة الأمارات العربية المتحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

عمان الداخل من ١٥٠٧م إلى ١٦٢٤م

التركيبة القبلية والسياسية

توطئة :

أود في البداية أن أوكد أن هذه الدراسة المتواضعة والمقدمة لندوة **مكانة الخليج العربي في التاريخ الأسلامي** ليست شاملة للفترة التي تتطرق لها ، كما انها ليست أيضا استعراضا مفصلا لها ، لأن ذلك يتطلب وقتا طويلا وجهدا مضنيا لا بد للباحث أن يمر خلاله بمراحل صعبة تنقيبا وتدقيقا في الوثائق والمخطوطات والمصادر الأصلية التي أولت اهتماما - ايا كانت وفرته - بتاريخ المنطقة ولا سيما في هذه الحقبة الزمنية . كما انه يتعين على الباحث أيضا القيام بالموازنة والمقارنة بين ما يمكن الافادة منه في هذه المصادر على نحو مباشر أو غير مباشر وبين الاستكشافات الحديثة التي توصل اليها علماء الآثار والتنقيب في وقتنا الحاضر، فضلاً عن القيام برحلات علمية ميدانية لتلك الاستكشافات والمواطن التي سيتطرق لها الباحث في دراسته. لهذه الأسباب ولأسباب أخرى تكون قد غابت عن الذهن تجيء هذه المحاولة المتواضعة بداية على الطريق تكون منطلقا لدراسات مستقبلية أوسع وأشمل .

ولا يفوتني في هذا السياق أن أشير إلى أن هذه الفترة والتي تمتد من ١٥٠٧م وهي سنة وصول البرتغاليين إلى المنطقة و ١٦٢٤م : سنة قيام الدولة اليعربية - وحسب علمي الخاص - لم يتطرق اليها أحد ، ربما بسبب ندرة المعلومات من جهة ، ولغموض الروايات المحلية التي أرخت لها وتشابكها من جهة أخرى .

وقبل الشروع في عرض المحاور الرئيسية لهذه الدراسة وتفاصيلها ، نود أن نتطرق بصورة عابرة للمصادر الأولية التي تمت الأستعانة بها . خاصة العمانية منها. حيث يأتي على قائمة هذه المصادر كتاب ***سيرة الإمام العادل ناصر بن مرشد اليعربي*** ... لمؤلفه عبد الله بن خلفان بن قيصر بن سليمان الصحاري من أعيان القرن السابع عشر الميلادي / الحادي عشر الهجري . وتأتي أهمية هذا المصدر لكونه أقدم المصادر العمانية التي تطرقت لتاريخ المنطقة ، بالاضافة إلى أن المؤلف من معاصري نشأة الدولة اليعربية فهو يكتب عن فترة في غاية الأهمية من تاريخ عمان. يستهل ابن قيصر كتابه بتعريف لنسب ناصر بن مرشد اليعربي ثم يتطرق لبداية ظهوره ومبايعة أهل الرستاق له . بعد ذلك يبدأ المؤلف في سرد أخبار إبن مرشد وحروبه مع القبائل وتوحيده لعمان ، والانتصارات التي حققها على هذه القبائل . وفي خاتمته يورد معلومات مبعثرة تتخللها الأشعار والأراجيز ، وبعض الأبيات التي رثى بها الإمام ناصر بن مرشد .

وكما هو واضح من خلال قرائتنا لكتابه أرى أن مصادره شفوية بالدرجة الأولى ، مبنية على السماع والرؤية ومن المرجح انه اعتمد على الاسناد في نقل الرواية ، ولعل عدم ذكره له في كتابه كان بغية للأختصار . ولكن ابن قيصر على الرغم من إلمامه بأسماء القبائل ومعرفة انسابها ومناطق تواجدها إلى جانب معاصرته للأحداث التي رواها ، فإنه لم يعط تفصيلا لهذه الأنساب أو شرحا وافيا للأحداث التي اوردها في كتابه ، بجانب إهماله بقية الأحداث التي تخص تلك الفترة والتي كانت تحدث في عمان، وانما اقتصر على ذكر حروب ناصر بن مرشد فقط .

وكما هو الشأن في معظم المصادر العمانية لم يتطرق كتاب إبن قيصر كذلك للبرتغاليين ولفترة وصولهم إلى سواحل الجزيرة العربية رغم معاصرته لهم . إلا أنه بالرغم من هذه النواقص ، فإنه يظل اقدم مؤلف عماني يصلنا في مجال التاريخ المحلي، وكفاه أهمية أنه كان محور اعتماد المؤرخين العمانيين الذين جاءوا من بعده والذين لم يجدوا بداً من اتخاذه مصدراً أساسياً .

المصدر الثاني هو كتاب ***كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة*** والمنسوب إلى سرحان بن سعيد الأزكوي من أعيان مطلع القرن الثامن عشر الميلادي . ،هذا الكتاب هو الذي يُعد بحق أول مصدر شامل لتاريخ عمان ، يسرد فيه المؤلف أخبار المنطقة منذ انهيار سد مأرب وهجرة القبائل اليمنية إليها ، مرورا بفترة العصر الجاهلي ثم ينتقل إلى الفترة الإسلامية ويذكر كيف دخل الإسلام عمان ثم يسرد باختصار بقية الحوادث وذلك حتى سنة ١١٤١هـ /١٧٢٨م تقريبا . كما يولي المؤلف في أبواب أخرى من كتابه اهتماماً بتاريخ الإباضية سواء من كانوا في المغرب أو في عمان . ونجده بين الفينة والأخرى يؤكد على وجوب حفظ التراث الأباضي والدفا ع عنه وما هذا المُؤلَّفُ الذي كتبه الا تحقيق لهذه الغاية . فإنه ينطلق في التاريخ من رؤية مذهبية ترتكزالى أصول إباضية ، وقد اتبع هذا المنهج في تدوين الأحداث التاريخية ذات الصبغة الدينية في رأيه.

ورغم الفجوات التي يتصف بها كتاب ***كشف الغمة***، والتي ليس هنا مجال ذكرها، فإنه يظل أهم المصادر العمانية التي تطرقت للتاريخ الشمولي لعمان بصفة خاصة ولتاريخ الأباضية بصفة عامة[1].

أما المصدر الثالث فهو كتاب ***تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان*** لمؤلفه عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي (ت ١٩١٤م) الذي يعد من أكثر المصادر العمانية دقة ووضوحاً. حيث تميز مؤلف هذا الكتاب باطلاعاته الواسعة واستعانته بكتب ومصادر غير عمانية مثل ***الكامل*** لابن الأثير ***والعبر*** لابن خلدون، ومروج الذهب للمسعودي، ***وتحفة النظار*** لابن بطوطة وغيرها، إلى جانب بعض الكتب التي لم تصل الينا. ويشترك السالمي مع بقية المؤلفين العمانيين في اتباعه للأسلوب العقائدي في سرد الحوادث والأخبار. فالصبغة الأباضية تبدو واضحة في كتاباته. فهو يرى أن معرفة التاريخ تعين على الاقتداء بسيرة الأئمة الصالحين، والذين كانوا أكثر وجوداً في عمان من بعد الصحابة لاتباعهم المذهب السليم.

ويمتاز السالمي عن غيره من المؤرخين العمانيين بكثرة تعليقاته وآرائه حين يتطرق للخلافات والحروب الأهلية التي حدثت في عمان، متبعاً في ذلك الاسلوب العلمي في ابداء وجهات النظر والتعقيب عليها ودعمها بحجج وبراهين العلماء الأوائل. وكذلك فان ما يميزه عن غيره من المؤلفين أنه يتعرض لنشاطات اليعاربة والبوسعيدين في الخليج العربي والمحيط الهندي، واصطدامهم بالبرتغاليين والانجليز وغيرهم من القوى الاخرى، إلى جانب ذكره للتوسع الأباضي في شرق أفريقيا وفارس.

وكتاب السالمي هو تاريخ عام وشامل لعمان وأهلها، فهو يبدأ بفترة ما قبل الاسلام، فالفترة الاسلامية إلى القرن العشرين. ومصادره متنوعة وكثيرة، ولولا كتابه ***تحفة الأعيان*** لفقد كثير من الروايات التي نقلها لنا من مصادر لم تصل الينا. لذلك سيبقى تاريخه متميزاً بروايات جديدة لم تظهر في كتب المؤرخين الذين سبقوه كابن رزيق وصاحب كتاب ***كشف الغمة*** (٢).

أما عن المصادر غير العمانية فأهمها كتابات المستشرقين الذين أولوا اهتماماً خاصاً بتاريخ عمان وتراثها ويأتي في مقدمتها كتاب ***The Imamate Tradition of Oman*** لمؤلفه **John C. Wilkinson** والذي صدر حديثاً. فهو من أفضل ما كتب في التطور السياسي والعقائدي لتاريخ عمان. فالكاتب يبدأ دراسته باعطاء صورة واضحة للتركيبة الجغرافية لعمان، والأدوار أو الحقب التاريخية التي مرت بها. وهو يقسمها إلى منطقتين: مسقط وضواحيها، وهي عمان الساحل التى كانت تخضع دائما للغزو الاجنبي ، وعمان الداخل التى سيطر عليها الائمة منذ العهود الأولى للاسلام. ثم ينتقل إلى التركيبة القبلية لعمان ويتطرق إلى جذورها التاريخية ومدى علاقة كل قبيلة أو كل تحالف قبلي بالأراضي التي يسكنها.

ويقدم الكاتب دراسة تحليلية قيمة لتطور النظام القبلي في عمان والذي يتدرج من نظام القبيلة التي تسيطر على أجزاء معينة من الأراضي والتي تسيرها العادات والتقاليد القبلية، إلى نظام الدولة التي تستمد شرائعها وقوانينها من المذهب الأباضي للمحافظة على الامامة. بعد ذلك يستعرض

الكاتب الأدوار التاريخية للامامة الأباضية في عمان والأسس التي قامت عليها والصعوبات والعراقيل التي واجهتها، وذلك حتى وصول آل بوسعيد للحكم.

ثم يختم الكتاب بانتهاء الامامة في عمان وأثر الثورة الصناعية، وظهور البترول على المنطقة. والكتاب في مجمله دراسة تحليلية عميقة لتاريخ عمان والامامة الأباضية، اعتمد فيها الكاتب على كم هائل من المصادر الأولية والمراجع الحديثة، ومما يضفي قيمة أكثر للكتاب أن مؤلفه قام بزيارات عدة إلى مناطق متفرقة في عمان إلى جانب استعانته بالتقارير والبحوث الكثيرة التي تناولت بإسهاب تاريخ منطقة الخليج.

وبالاضافة إلى ما تقدم ذكره، هناك مصادر وبحوث اخرى تمت الاستعانة بها في هذه الدراسة، سيجدها القارئ في هوامش هذا البحث. وقبل أن نناقش أوضاع عمان الداخل وأهم التكتلات القبلية والسياسية فيها في القرن السادس عشر الميلادي، يهمنا أن نلقي الضوء على ما آل اليه الوضع في الخليج قبل مطلع هذا القرن وأثر ذلك على منطقة عمان.

الوضع السياسي في الخليج عند قدوم البرتغاليين

ارتبطت الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي بالتغيرات التي كانت تأخذ مجراها على الساحة الدولية في تلك الفترة. فقد شهد العالم في القرن الخامس عشر الميلادي أحداث هامة كانت بمثابة الفاصل بين حقبتين من الزمن في تاريخ البشرية. حيث اعتبر كثير من المؤرخين فترة الكشوف الجغرافية الكبرى والتي قام بها الأسبان والبرتغاليون بداية للعصور الأوروبية الحديثة، بينما اعتبر سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م بداية العصر الحديث في الشرق الاسلامي.

وكانت لهذه الأحداث انعكاساتها على منطقة الخليج مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي. حيث امتد النفوذ العثماني إلى العراق، بينما حط البرتغاليون رحالهم على الشواطئ الجنوبية لجزيرة

العرب. وفي الوقت نفسه، ظهرت قوة اقليمية في ايران بقيادة الصفويين سرعان ما إصطدمت مع العثمانيين في الشمال، وتعاونت مع البرتغاليين في الجنوب. وكان لهذه الأحداث والصرعات أثرها السئ على الأوضاع السياسية والاقتصادية في الخليج العربي. حيث قلت حركة التجارة وضعف الاقتصاد وانهارت القوى الصغيرة في المنطقة. وقبل أن ترسو سفن القائد البرتغالي Alfonso de Albuquerque سنة ١٥٠٧م / ٩١٣هـ على سواحل الخليج الجنوبية، كان جنوب الخليج خاضعاً لمملكة هرمز العريقة والتي كانت تعد الى ذلك الحين أقوى تنظيم سياسي واقتصادي في المنطقة.

ويعود تاريخ هذه المملكة إلى القرن الحادي عشر الميلادي، عندما أخذت تنافس بقية مدن الخليج على خطوط التجارة، ثم برزت كقوة اقليمية في القرن الثالث عشر بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد، وأخذت في فرض سيطرتها على طرق التجارة في الخليج ومنافسة مدينة قيس التجارية الواقعة على الساحل الشرقي للخليج، والتي حلت محل سيراف في الفترة بين القرن الثاني عشر إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي (٣).

واستمرت هرمز تحتل مكان الصدارة في الخليج حتى مجئ التتار الذين شنوا عليها غارات متتالية اجبرت حكامها وأهلها على الانتقال بعاصمتهم إلى جزيرة جرون (والتي تقع في مضيف هرمز) المقابلة لسواحل مملكتهم، والاستمرار في مزاولة نشاطهم التجاري والبحري، وبسط نفوذهم السياسي على السواحل الغربية للخليج، وكذلك سواحل عمان. وعرفت هذه الجزيرة بهرمز فيما بعد وأخذت في الانتعاش الاقتصادي، كما استطاعت أن تعيد مجد هرمز القديمة وأن تحل محلها.

وقدر لهذه المملكة الصغيرة أن تعيش بعد ذلك قرنين من الزمن، كانت خلالها أقوى كيان سياسي واقتصادي في المنطقة، امتدت سلطة حكامه السياسية حتى البصرة، وسيطرت على خطوط التجارة بين الشرق والغرب، وبلغت درجة عالية من التفوق والانتعاش التجاري والازدهار العمراني والحضاري، مما أغرى البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي ـ وكانوا حينئذ سادة البحار

والمحيطات - بغزو هذه المملكة وتسخير خيراتها وممتلكاتها في سبيل توسعهم الاستعماري ولخدمة العرش البرتغالي(٤).

ولقد ذكرت مملكة هرمز في كتب الرحالة والجغرافيين العرب وغيرهم، وهؤلاء أشادوا بنهضتها العمرانية والحضارية وبدورها الريادي في المنطقة، كما أسهبوا في وصف نفوذها الاقتصادي والتجاري. ويعد الرحالة العرب من أوائل المكتشفين الذين جابوا بلاداً عديدة في العالم بما فيها مملكة هرمز، ويأتي على رأس هؤلاء الرحالة ابن بطوطة الذي وصف هرمز بقوله : « وهرمز على ساحل البحر وتسمى ايضا مغستان وتقابلها في البحر هرمزالجديدة، وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ. ووصلنا إلى هرمز الجديدة وهي جزيرة، ومدينتها تسمى جرون، وهي مدينة حسنة كبيرة، لها أسواق حافلة، وهي مرسى الهند والسند، ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقين وفارس وخرسان.».. (٥).

وفي مطلع العصور الحديثة زار عدد من الرحالة الأوروبيين بلاد الشرق ووصفوها وصفاً دقيقاً وهاما. وقد وصلتنا بعض المعلومات الهامة عن طريق هؤلاء الرحالة لمملكة هرمز ويأتي وصف Varthe-ma في مقدمتها. فلقد زار هذا الرحالة مملكة هرمز سنة ١٥٠٢ وذلك قبل مجئ البرتغاليين اليها بفترة قليلة وفي هذا الصدد يقول :«.. .. ويرى بهرمز احيانا أكثر من ٣٠٠ سفينة راسية في مينائها من مختلف دول العالم، ويقيم بالمدينة بصفة دائمة أربعمائة تاجر ووكيل يعملون في نقل البضائع التي ترد إلى الجزيرة مثل الحرير واللؤلؤ والأحجار الكريمة والتوابل».. (٦).

وهكذا كانت هرمز في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، مدينة عريقة بلغت درجة عالية من التقدم والرقي، وكانت رمزاً حياً، لثراء الشرق الاسلامي وازدهاره في تلك المرحلة من التاريخ(٧). ولقد لفتت بذلك أنظار الطامعين والغزاة الذين انقضوا على خيراتها وعلى ممتلكاتها دون رأفة أو رحمة، مستغلين ضعف المملكة عسكرياً وسياسياً، فلم تستطع هرمز رغم استبسالها، ورغم كل الامدادات التي تلقتها من جيرانها، الصمود أمام الغزو البرتغالي فسقطت في سنة ١٥٠٧، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة من

مراحل التاريخ في منطقة الخليج ألا وهي بداية التاريخ الحديث.

إلى جانب مملكة هرمز كانت هناك قوة محلية اخرى أقل شأناً ومكانة من هرمز، ظهرت على السواحل الغربية للخليج ألا وهي دولة بني جبر، التي كانت وليدة الصراع الذي حدث بين ملوك وامراء هرمز سنة ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م. حيث استطاع عرب بنو جبر ـ الذين ينتمون إلى بني عقيل من عامر بن صعصعة خلال هذه الفترة كما سنرى فيما بعد ـ انتزاع السلطة في الأحساء من بني جروان(٨) واتخاذها قاعدة لنفوذهم وتوسعاتهم في المنطقة.

وبسبب الحروب الأهلية التي كانت تمر بها مملكة هرمز في تلك الفترة والتي كان لبني جبر يدٌ فيها، تمكن الشيخ زامل بن الحسين بن ناصر بن جبر فيما بين سنتي ١٤٣٩ ـ ١٤٦١ من توحيد القبائل العربية المتناثرة في بلاد نجد والأحساء وتسخيرهم لبناء دولة الجبور الناشئة. وبعد وفاته واصل أبناؤه المهمة التي بدأها والدهم، حيث استطاع أجود بن زامل في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي أن يوسع من سلطان الجبور وذلك بانتزاع منطقتي القطيف والبحرين من مملكة هرمز وأن ينشر سلطانه على المناطق المجاورة، مستغلاً في ذلك، الضعف الذي كانت تمر به تلك المملكة. ثم أخذ أجود في شن الهجمات على الموانئ العمانية الخاضعة للهرمزيين، كما تمكن من التغلغل داخل عمان بسبب الضعف النبهاني وانتزاع مناطق عديدة من هذا الاقليم المقسم كما سنرى(٩).

ومع مطلع القرن السادس عشر الميلادي اصبح أمير الجبور يلقب بسلطان البحرين والأحساء والقطيف وقد امتد نفوذه السياسي ليشمل شرقي الجزيرة العربية من البصرة إلى شمال عمان، وأصبحت دولة الجبور بذلك دولة قوية تتمتع بنفوذ واسع في أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية وكان رئيسها في تلك الفترة محمد بن أجود الذي خلف أباه في السلطة(١٠).

الا أن هذه القوة النامية ما لبثت أن تهاوت، اذا سرعان ما اصطدمت بالغزو البرتغالي والذي القت سفنه مراسيها على سواحل الخليج الجنوبية ، وتمكنم من فرض سلطانه على جميع سواحل

المنطقة بفضل التقدم العلمي والعسكري اللذين امتاز بهما البرتغاليون . كما شهدت الساحة الخليجية أيضا أحداثا أخرى تمثلت في الصراع بين القوى الكبرى المجاورة للخليج ، فقد دخل العثمانيون العراق والتحموا مع الدولة الصفوية في عدة معارك ترتب عليها انتصار ساحق للعثمانيين ، فمدوا سلطانهم الى الأحساء ، مما دعا الصفويين الى الاستعانة بالبرتغاليين لمواجهة الخطر العثماني . وشائت الأقدار أن تكون دولة بني جبر الناشئة ومملكة هرمز العريقة واقعتين عند حدود هذه القوى الثلاث المتصارعة ، وكان طبيعيا أن تستسلما للأقدار المحيطة بهما وبزوالهما تطوى آخر صفحة من صفحات تاريخ الخليج العربي في العصور الوسطى .

هذا وقد سيطر البرتغاليون على منطقة الساحل في عمان والتى كانت لسلطة الأمراء الهرموزيين ، بينما كانت المنطقة الداخلية واقعة تحت رحمة القبائل والأحلاف المتصارعة بسبب الضعف الذي كانت تمر به دولة بنى نبهان التى حكمت المنطقة لفترة طويلة .

الوضع القبلي والسياسي في عمان الداخل

خلال الغزو البرتغالى

تعد عمان وخاصة المناطق الداخلية من أكثر أجزاء الجزيرة العربية عزلة ، سواء كان ذلك من الناحية التاريخية أو السياسية أو الجغرافية (١١) . فحتى مجيء البرتغاليين إلى المنطقة كانت عمان الداخل منطقة شبه مجهولة ، ومعلوماتنا التاريخية عن فترة ما قبل البرتغاليين ضئيلة للغاية ولا تفى بالغرض المنشود لكتابة تاريخ سلاطين عمان وأئمتها ، خاصة النبهانيين منهم . ويعزي هذا النقص فى المعلومات إلى عدة أسباب أهمها الموقع الجغرافي لعمان ونظام الإمامة التى عزلت نفسها خشية الأخطار التي كانت تتهددها في العصور الوسطى الإسلامية .

ولقد لعب العامل الجغرافي دورا بارزا في عزل المنطقة عن العالم المحيط بها طوال هذه

الفترة . فلم يكن بمقدور كثير من الرحالة والجغرافيين المسلمين بسبب هذه العزلة زيارة المناطق الداخلية لعمان وبالتالي لإعطاء صورة كافية عن أحوالها السياسية والإجتماعية والاقتصادية . فعمان كما هو معروف محاطة بسلسلة من الجبال الشاهقة تمتد من الشمال الشرقي للبلاد إلى الجنوب ، بينما تحد أطرافها الجنوبية صحراء الربع الخالي والتي تعتبر من أكبر صحاري العالم ، لتفرض عليها عزلة عن بقية أجزاء الجزيرة العربية .

كذلك فقد كان النظام السياسي الديني الذي ارتضاه العمانيون لانفسهم والذي دافعوا عنه بكل ما يملكون من قوة طوال العصور العباسية – كان سببا في الحظر الذي فرض عليهم من قبل أصحاب السلطة في بغداد : الأمر الذي ترتب عليه إهمال المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين لهذا الصقع وعدم ذكر أخباره في الكتب التي تم تأليفها في تلك الفترة .

لقد إصطبغ التاريخ العام لإقليم عمان عبر العصور الوسطى بالإمامة التي كان لها الدور الأساسي في تسيير دفة الحكم بمختلف أشكاله وجوانبه . فمنذ ١٣٤هـ/٧٥١م كانت عمان تحكم من قبل إمام يتم انتخابه عن طريق "الأمة" وكان المذهب المتبع في هذا الحكم هو المذهب الأباضي ، لذا لم تخضع المنطقة وخاصة الداخلية منها لسلطة بغداد . وحتى قبل قيام الامامة الأباضية لم تخضع عمان بصورة كاملة للحكومة المركزية في دمشق . فقد حاول الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥هـ) – خلال حكمه العراق – ضم عمان إلى بقية اقاليم الدولة وعلى غرار ذلك جاءت محاولات أخرى للأمويين ، ولكنها جميعا لم تنجح بالصورة التي تجعل من عمان منطقة دائمة التبعية لسلطة بني أمية .

وعند تولى العباسيين دفة الحكم قامت إمامة مستقلة في عمان بقيادة الجلندى بن مسعود إلا أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد استطاعت جيوش أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني من دخول هذا الإقليم وقتل إمامه الجلندى . ولكن هذا الانتصار العباسي لم يستمر طويلا ، فسرعان ما ظهرت الإمامة من جديد سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م على يد الوارث بن كعب الخروصي اليحمدي ، وتتابع الأئمة من

بعده على حكم عمان . وكانت هناك بعض الفترات من تاريخ المنطقة التي خضعت فيها للحكم الأجنبي سواء من قبل الأمراء المسيطرين على بغداد أو القرامطة الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ولكنها كانت فترات متقطعة ولم تمتد طويلا .

وبصفة عامة فإن تاريخ عمان إرتبط كما أشرنا من قبل بالإمامة الأباضية وان فرص نجاح المحاولات الأجنبية كانت قصيرة المدى . وهكذا استطاعت عمان أن تحافظ على استقلالها السياسي في معظم العصور الاسلامية ، وساعدها على ذلك وضعها الجغرافي ، الذي سبق أن عرضنا له .

إتخذ العمانيون من عمان الداخل قاعدة لحكمهم الأباضي ، مبتعدين بذلك عن الأخطار الخارجية التي كانت تتهددهم ، وقد فرضوا على انفسهم عزلة عن العالم المحيط بهم . ولعل ما يبرر ذلك هو ما عاناه أهالي عمان على أيدي الأجانب من قهر وتسلط ، منذ عهد الحجاج بن يوسف الذي عرف بقسوته ، مرورا بالعصور العباسية ، وكذلك ما عانوه على أيدي القرامطة الذين كان حكمهم دمارا على المدن والأقاليم التى سيطروا عليها . وتعتبر فترة الأئمة النبهانيين – أو الملوك النبهانيين حسب ما تذكرهم مصادرنا المحلية – من أكثر فترات التاريخ العماني ظلمة وطولا على حد سواء .

ولم تصلنا عنهم الا شذرات قليلية من المعلومات التي تكاد تكون فائدتها التاريخية شبه معدومة . وها هو صاحب كشف الغمة – وهو كما أشرنا من أهم المصادر التي أرخت لعمان – يذكر بأنه لم يجد تاريخا لفترة ملوك بني نبهان ولا للأئمة الأباضيين الذين حكموا عمان في تلك الحقبة من الزمن (١٢) .

ويرى J.C. Wilkinson أنه لا بد وأن يكون قد ظهر في عصور النباهنة من أرخ لملوكهم أو أئمتهم مستدلا ببعض الروايات التي نقلها السالمي عن تلك الفترة المظلمة (١٣) . واعتقاد Wilkinson هذا قد يحمل كثيرا من الصحة ، فليس من المستبعد أن تكون هناك مصادر لم تكشف بعد تعود لفترة النبهانيين خاصة وأن هذه الفترة قد امتدت لأكثر من ثلثمائة سنة . كما لا يفوتنا هنا أن نذكر ما أورده صاحب ***كشف الغمة*** من أن كثيراً من كتب التراث العماني قد أحرقت في مطلع القرن الثامن عشر

ميلادي أثناء فترة الحروب الأهلية (١٤) . مما جعل المستشرق Beatrice de Cardi يرى في ذلك تفسيرا كافيا عن سبب ندرة معلوماتنا التاريخية عن الفترة النبهانية (١٥) . وحتى يتم الكشف عن مصادر جديدة سيظل تاريخ تلك الحقبة من الزمن غامضا ؛ الأمر الذي يشكل عائقا من الصعب اجتيازه من أجل كتابة التاريخ العماني الدقيق (١٦) .

عمان في عهد الملوك النبهانيين المتأخرين :

من خلال قراءاتنا التاريخ المحلي لعمان يمكن أن نستنتج أن فترة الملوك النبهانيين المتأخرين ليست إلا الصحوة التي سبقت مرحلة السقوط أو الزوال . فبحلول القرن السادس عشر الميلادي حدثت تطورات خطيرة على الساحة المحيطة بعمان ، كانت لها انعكاساتها السياسية والدينية على أهالي المنطقة . لقد أحدثت هذه التطورات ردة فعل قوية لدى سكان وقبائل عمان ، مما ترتب عليه إعلان الثورة على الحكم النبهاني ومحاولة أن يستبدلَ به حكم يتفق مع أصول المذهب الأباضي وقواعده فما كان من بني نبهان إلا التشبث بممتلكاتهم في عمان ومواجهة المناوئين لحكمهم ، ومحاولة إصلاح ما يمكن اصلاحه قبل استفحال الأمر . إلا أن هذه اليقظة جاءت متأخرة ؛ فالأوضاع قد ازدادت سوءاً ، والحروب الأهلية اتسعت دائرتها لتشمل جميع القبائل القوية بما فيها القبائل النبهانية.

أضف إلى ذلك كره أهل عمان للحكم النبهاني ، فهم يرون أن النبهانيين أصحاب جور وفساد ، وتجب ازاحتهم عن حكم عمان . ويتبين من خلال ما نقله لنا ابن رزيق حين قال " ولما اشتد فساد بني نبهان لعمان وصار منهم أهل عمان في امتهان ، اجتمع أكابر أهل عمان لازالة الجور والفساد والطغيان»(١٧) .

وهكذا دخلت عمان مرحلة جديدة شهدت خلالها المنطقة حروبا أهلية طاحنة استمرت قرابة قرن من الزمان . ففي سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م نجح عمر بن الخطاب اليحمدي الخروصي في انتزاع بعض ممتلكات بني نبهان وأخذ كثيرا من أموالهم ، وأمر بتقسيمها على الفقراء والمظلومين . ولكن

مصادرنا لا تذكر ما اذا كان عمر هذا - وهو الذي تم تنصيبه كامام على عمان - استطاع تقويض الحكم النبهاني بكامله أم لا ؟ وما مدى النجاح الذي حققه (١٨) .

فالسالمي يذكر انه بعد موت عمر بن الخطاب اليحمدي والذي لا نعرف سنة وفاته ، خرج سليمان بن سليمان النبهاني في نزوى وتمكن من استرجاع ملك النباهنة مرة أخرى في عمان، حتى تمت مبايعة محمد بن اسماعيل بن عبد الله الحاضري القضاعي الذي تمكن من قتل سليمان وكان ذلك سنة ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م . وكبقية المصادر المحلية ، لا يورد السالمي شيئا عن الأحداث التي صارت أيام إمامة محمد بن اسماعيل، والتي امتدت من ٩٠٦هـ الى ٩٤٢هـ /١٥٣٥م (١٩) . فهذه مدة طويلة من تاريخ عمان الحديث امتدت قرابة ٣٥ سنة لم يصلنا عنها شيء .

أما عن الفترة التي تلت إمامة محمد بن اسماعيل، فان مصادرنا المحلية تكاد تتفق على أن عمان الداخل وقعت في فتن واضطرابات، كان للعصبية القبلية دورا كبيرا فيها . فقد ظهر أكثر من إمام وأكثر من أمير أو حاكم وأصبحت عمان كما يصورها لنا السالمي" ... وبنصب الأئمة في وقت واحد تشتت الكلمة وتفرقت الجماعات وضعفت دولة المسلمين ووهنت قلوبهم وطمع فيهم من كان لا يطمع ، فصار الملك مفترقا في أيدى الرؤساء من النباهنة ، وآل عمير وآل هلال وهم رهط الجبور وصارت الشدة على أهل عمان ..(٢٠)". فقد تمكن سلطان بن محسن بن سليمان النبهاني من السيطرة على نزوى سنة ٩٦٤هـ/١٥٥٦م ، بينما بايع أهل بهلا الإمام بركات بن محمد سنة ٩٦٥هـ، إلا أنه طرد من قبل محمد بن جفير بن علي بن هلال الجبري الذي تنازل عن المنطقة لآل عمير سنة ٩٦٧هـ/١٥٥٩م مقابل مبلغ معين اتفقا عليه (٢١).

يتضح من هذا أن عمان دخلت مرحلة جديدة من تاريخها، بظهور التكتلات القبلية والسياسية والتي كانت تتصارع من أجل الوصول إلى السلطة . ومما يؤسف له هنا أن مصادرنا المحلية لم تزودنا بمعلومات كافية، كي يتمكن الباحث من اعطاء لمحة تاريخية واضحة عن تلك الفترة الزمنية . فهذة الفترة

وكما سبق أن أشرنا – تعد ضمن فترة الملوك النبهانية المتأخرين، والتي تبدأ في هذه المصادر بعهد سلطان بن محسن بن سليمان النبهاني، الذي ملك نزوى وخلفه على الحكم إبنه مظفر بن سلطان الذي توفي وترك ابنا صغيرا على الحكم هو سليمان بن مظفر، الا أن الأخير ازيح من قبل عم ابيه فلاح بن محسن بن سليمان الذي اتخذ من بهلا مقرا لحكمه. وبعد وفاته ملك سليمان بن مظفر .

وتؤكد المصادر انه تمكن من توحيد البلاد والقضاء على مناوئيه على السلطة وخاصة الجبور الذين كانوا تحت قيادة محمد بن جفير . وكذلك استطاع توحيد البيت النبهاني وبسط سلطته، وسلطة النبهانيين على جميع قرى ومدن عمان الداخل وامتد نفوذه أيضا إلى صحار على الساحل بعدما تمكن من هزيمة العجم (٢٢) .

وفي عهده ظهرت العصبية القبلية التي فجرت الوضع من جديد وأدخلت عمان في حرب أهلية طويلة أدت الى زوال الملك النبهاني . ويرجع جذور هذا الخلاف كما يتضح لنا من قرآءاتنا الروايات المحلية ، أن صداماً وقع بين قبلتين من أهل سيفم (تقع في وادي سيفم) إحداهما بنو معن والأخرى بنو النير وكلتاهما تنتمي الى مالك بن فهم من الأزد . وقد التجأت بنو معن ومن حالفهم من بني شكيل الى لسليمان بن مظفر بينما انحاز بنو النير الي بني هناءة : أقوى تجمع قبلي في عمان آنذاك، مما أدي إلي اثارة الفتن بين قبائل عمان ودخول المنطقة في صراع طويل قاده الهناوية ضد سليمان النبهاني ومن ناصره من القبائل الأخرى، وكانت الحروب سجالاً بين الطرفين، فلم يستطع سليمان بن مظفر بسبب قوة نفوذ بني هناءة كما سنرى فعل شيء إزاء هذا الوضع المتردي، وتوفي وعمان الداخل منقسمة على نفسها .

وخلفه على الحكم عرار بن فلاح بن محسن قائد جيوشه والذي لم تدم فترة حكمه طويلا، فمات سنة ١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م وتولى الأمر من بعده مظفر بن سليمان بن مظفر والذي فشل كذلك في تسوية الأوضاع المتردية . ثم جاء بعده مخزوم بن فلاح بن محسن، وفي عهده ازدادت الأحوال سوءاً

فقد انقسم النبهانيين على انفسهم وأخذت الأخطار تحيط بهم من كل حدب وصوب (٢٣).

ويلغ هذا الانقسام ذروته سنة ١٠٢٥هـ/١٦١٦م عندما تدخل البرتغاليون في الحروب الدائرة بين النبهانيين في صحار، الأمر الذي ترتب عليه مقتل محمد بن مهنا الهديفي النبهاني صاحب صحار على يد اتباع الأمير عمير بن حمير النبهاني الذي استعان بالبرتغاليين في قتال ابن عمه محمد بن مهنا هذا ومكنهم من الاستيلاء على المنطقة – كما تذكر مصادرنا المحلية – ثم اقفل راجعا الى سمائل (٢٤) .

وهكذا اضحت عمان كما تذكر لنا المصادر مقسمة على النحو التالي : آل عمير في سمائل ، والهناوية في بهلا ، واليعاربة في الرستاق ، بينما امتد نفوذ الجبور الذين استغلوا هذه الانقاسامات الى منطقة الظاهرة وشمال عمان في حين سيطر البرتغاليون على السواحل من صور حتى جلفار (٢٥) .

واذا استثنينا البرتغاليين ودورهم في المنطقة في تلك الفترة ، فإن أهم الأحلاف السياسية والقبلية في عمان – خاصة في المناطق الداخلية منها – في مطلع القرن السابع عشر الميلادي هي : بنو جبر ، بنو هناءة ، بنو عمير ، اليعاربة. وهذه الأحلاف هي التي نازعت الحكام النبهانيين على السلطة ، وكانت سببا في سقوط دولتهم سنة ١٦٢٤م . وفيما يلي نذكر الدور السياسي والقبلي التي لعبته هذه الأحلاف في تاريخ المنطقة .

بنــو جبر :

ينسب كثير من المؤرخين المعاصرين بني جبر إلى بني عقيل من عامر بن صعصعة ، واللذين قد علا شأنهم وقويت شوكتهم في القرن الخامس عشر الميلادي. فقد استطاعوا السيطرة على مدن وقرى الأحساء والقطيف والبحرين بسبب الضعف الذي كانت تمر به مملكة هرمز ، والتي كانت تسيطر

على معظم سواحل الخليج الغربية . كما شنوا عدة هجمات على السواحل العمانية خاصة الشمالية منها مستغلين في ذلك الوضع المتردي الذي كانت تمر به عمان الى جانب ضعف السيطرة الهرمزية على سواحل المنطقة . واستطاع الجبور بذلك ، السيطرة علي مناطق عديدة في عمان وعلى إرغام كثير من القبائل على دفع ضريبة سنوية لهم مقابل عدم التدخل في شئونهم القبلية ويؤكد هذا ما ذكره المؤرخ البرتغالي De Barros من أن الجبور كانوا أقوى كيان سياسي في جزيرة العرب مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (٢٧).

كذلك ذكر البرتغالي Alburquerque أن الجبور كانوا مسيطرين على المناطق الداخلية لعمان ، ووصف الحاكم الجبري بأنه يحكم جميع أرجاء الجزيرة العربية . ورغم المبالغة الواضحة في هذا الوصف فانه يحمل في ثناياه جزءا كبيرا من الحقيقة كما يرى الدكتور عبد اللطيف الناصر (٢٨) . ويبدو أن بني جبر ظلوا أقوياء في عمان طوال القرن السادس عشر الميلادي رغم سقوط دولتهم في الاحساء والبحرين ، الا أننا عاجزون عن اعطاء أي وصف لسلطتهم هذه بسبب ندرة المعلومات وقلتها حول هذا الموضوع (٢٩) . وتشير روايات ابن قيصر إلى أنه مع مطلع القرن السابع عشر الميلادي ، كان الجبريون متمركزين في المدن التالية : سمد الشأن ، أبرا ، حصن الغبي، ضنك ، مقنيات ، قرية بات ، ينقل ، لوى ، الجو.

كما تشير رواياته أيضا إلى أن سلطة الجبور كانت من أقوى السلطات في عمان في تلك الفترة ، وأن نفوذهم السياسي كان واسع الانتشار . فناصر بن مرشد مؤسس دولة اليعاربة كما يذكره ابن قيصر قضى معظم سنواته الأولى في تقليص النفوذ الجبري القوي وفي الحد من نشاطاتهم السياسية والعسكرية . هذا الأمر تطلب منه سنين عديدة للقوة التي كان يتمتع بها بني جبر ، الا أنه تمكن في نهاية الأمر من القضاء عليهم في عمان ، وبزوالهم يكون قد تخلص من أخطر مناوئيه وأكثرهم شراسة وبأسا .

بنـــو هنـــاءة :

هم بطن عظيم بعمان ينسبون إلى مالك بن فهم من الأزد ، ولقد كان لهم دور كبير في صدر الاسلام . ولقد شارك بنو هناءة – مثل بقية قبائل شرق الجزيرة العربية – في الفتوحات الاسلامية الأولى تحت قيادة عثمان بن أبي العاصي وأخيه الحكم بن أبي العاصي . واستوطن عدد كبير منهم البصرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان . وخلال فترة المد الاسلامي في مناطق خرسان وأواسط آسيا ، شارك كثير من قبائل ازد عمان في هذه الفتوحات وكان من ابرز هذه القبائل بنو هناءة الذين هاجروا بأعداد كبيرة إلى تلك المناطق واستوطنوا فيها .

ومن المعروف أن ازد عمان بما فيهم بنو هناءة كانوا أهم القبائل التي لعبت دورا بارزا في الأحداث السياسية في المشرق في عهد الدولة الأموية ، وكانوا سبيارئيسيا في النزا ع القبلي الذي اندلع في خرسان في أواخر عهد الدولة ، والذي أدى الى زوالها .

وفي عهد الدولة العباسية ، بدأت هذه القبائل تفقد رابطة الدم التي تجمع افراد القبيلة تحت راية واحدة ، وأخذ الانتماء يقوى نحو المدن التي استوطنوها . فترتب على ذلك انقطا ع صلاتها القبلية والعائلية باصولها في العراق وجزيرة العرب . لهذا السبب لم تعد للعصبية القبلية أهمية في عهد بني العباس في تلك المناطق البعيدة عن جزيرة العرب، وبمرور الزمن بدأ الطابع القبلي يفقد هويته شيئا فشيئا ، وانقطعت بذلك انساب هذه القبائل وأخبارها ، بما فيهم بنو هناءة الخرسانيون .

أما الذين استوطنوا البصرة فظلوا على علاقاتهم بأبناء عمومتهم في عمان فترة طويلة من الزمن ، إلا أن الطابع الاقليمي والمحلي غلب عليهم فيما بعد ، مثلهم في ذلك مثل بقية قبائل العرب التي استوطنت مدن العراق .

وبنو هناءة الذين بقوا في عمان استطاعوا أن يحافظوا على تكوينهم القبلي وعلى مكانتهم

السياسية في المنطقة . وساعدهم على ذلك كثرة اتباعهم واحلافهم . فبعد سقوط الدولة الأموية شارك بنو هناءة مشاركة فعالة في تسيير زمام الأمور في عمان وكانوا دائما الكفة التي ترجح فريقا على آخر في الصراع حول السلطة أو الامامة .

ومنذ السنوات الأولى لقيام الإمامة الأباضية في عمان في القرن الثاني الهجري ، حاول بنو هناءة واتباعهم السيطرة عليها . وذلك عندما ثار غسان بن سعد المحاربي الهنائي في نزوى واستطاع أن ينتزع بعض المناطق الداخلية ويستقل بها ، إلا أن محاولته فشلت فيما بعد (٣٠) . ورغم ذلك لم تضعف قوة بني هناءة بل حاولوا أكثر من مرة التدخل في شئون الإمامة ، وإعلان الثورة على الحاكم اذا لم يحقق لهم مطالبهم .

وهناك أمثلة عديدة في التاريخ العماني تبين مدى اتساع النفوذ الهناوى طوال العصور الاسلامية في عمان . فقد ثاروا على غسان بن عبد الله اليحمدي في أواخر القرن الثاني الهجري (٣١) . كما استطاعوا القضاء على الفضل بن الحوارى (من بنى سامة بن لؤي من قريش) (٣٢) الذي انتزع الإمامة من عزان بن تميم الخروصي في سنة ٢٧٨هـ ، وإرجاع الأمور إلى نصابها وتمكين عزان من السلطة في البلاد (٣٣) .

ويرجح أن تكون علاقتهم قوية مع حكام بني نبهان حتى قدوم البرتغاليين إلى المنطقة . ففي عهد سليمان بن مظفر النبهاني كان بنو هناءة أقرب الناس اليه ، وكانوا – كما تذكر مصادرنا المحلية – اكثرهم عددا وبأسا وعدة (٣٤) . ويشير السيابي إلى أن « بني هناءة ورؤساءهم كانوا مسموعي الكلام . واليهم الأمر في أيام سليمان بن مظفر النبهاني» (٣٥) . وكان زعيمهم في تلك الفترة سيف بن محمد بن أبي سعيد الذي اتخذ من دارست مركزا لبسط النفوذ الهناوي على المناطق التي ينتشرون فيها . إلا أن علاقتهم ساءت مع النبهانيين المتأخرين بسبب التعصب القبلي كما سبق أن ذكرنا .

فبنوا معن أحلاف النبهانية اعتدوا على بنى النير أحلاف الهنائية . فأراد بنو هناءة الانتقام

من بني معن ، إلا أن ذلك أوقعهم في صدام مع سليمان بن مظفر النبهاني . وبسبب اصرار الأخير على تأديب بني هناءة قام الهناوية بغزو بهلا مركز الحكم النبهاني مستغلين عدم وجود السلطان سليمان فيها وألحقوا بالنبهانية واتباعهم خسائر كبيرة . اجبر ذلك السلطان علي طلب الصلح معهم مقابل اعطائهم بعض الامتيازات وتلبية مطالبهم ، إلا أنهم رفضوا عرضه وتحالفوا مع أبناء عمه المناوئين له من أجل الإطاحة به .

وقد انضم بنو هناءة بقيادة سيف بن محمد مع الأمير عمير بن حمير النبهاني ملك سمائل ضد سليمان ، ودخلت بذلك عمان في صراع طويل أدى إلى تقسيم المنطقة والقضاء على وحدتها السياسية . وزاد الأوضاع سوءاً وصول البرتغاليين الذين استغلوا هذا الانقسام لتسيير مصالحهم الخاصة، وللسيطرة على السواحل العمانية بسهولة . ولم يستطع سليمان بن مظفر النبهاني ولا خلفاؤه من بعده القضاء على قوة بنى هناءة ومن ناصرهم ، واستمر الوضع على ذلك إلى أن ظهر ناصر بن مرشد اليعربي في العقد الثالث من القرن السابع عشر الميلادي (٣٦) . وتمكن هذا الإمام من إقامة دولة قوية في عمان وقضى على جميع مناوئيه بما فيهم بنو هنائة (٣٧) . قيل إنه حُجر على نشاطاتهم السياسية والعسكرية ومنع عنهم السلاح (٣٨) .

بنو عمير :

ينسب السيابي آل عمير إلى عامر بن صعصعة بن قيس عيلان وهم بذلك ينتمون إلى العرب المستعربة أو العدنانية (٣٩) . وتفسيرنا الوحيد لقوة آل عمير في عمان في تلك الفترة كونهم يشتركون مع بني جبر في نفس النسب . فالقبيلتان كما تؤكد الروايات التاريخية تنتميان إلى عامر بن صعصعة ، وقد نمت قوتهم وأصبحوا أصحاب نفوذ في شرقي جزيرة العرب زمن الحكم القرمطي . وقبل هذه المرحلة من التاريخ العربي الاسلامي كان بنو عامر أو بنو عقيل كما يعرفون عند البعض نسبةً إلى عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، يستوطنون سهول نجد وواحاتها .

ومع نمو الحركة القرمطية واستفحال امرها في أواخر القرن التاسع الميلادي ، الثالث الهجري تشير الروايات التاريخية إلى أن بني عامر هؤلاء تحالفوا مع القرامطة وساعدوهم في تكوين دولتهم في شرقي الجزيرة العربية . ولا يستبعد هذا الفعل لأن القرامطة كما هو معروف اعتمدوا اعتمادا قويا على عرب البحرين واليمامة في نشر نفوذهم السياسي والعقائدي ، وفي تقوية مركزهم في المناطق التي سيطروا عليها . وكان من هذه المناطق اقليم عمان المجاور للبحرين والذي لم يسلم من هجمات القرامطة وأنصارهم ، والذي وقع فترة من الزمن تحت السلطة القرمطية . وقد رافق هذا التوسع القرمطي في عمان هجرات من أواسط نجد والبحرين إلى المنطقة . وكانت بطون بني عقيل أو بني عامر ضمن هذه الهجرات ، فقد استوطنوا عمان بأعداد كبيرة .

وفي مرحلة ضعف الدولة القرمطية في القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري ، أخذ بنو عامر في التدخل في شئون الأقاليم الواقعة تحت حكام القرامطة والتصرف في أمورها الادارية والسياسية والاقتصادية . وكانت مساكنهم تمتد من جنوب العراق إلي شمال عمان آنذاك (٤٠) .

وعندما نجح العيونيون بقيادة عبد الله بن علي العيوني في القضاء على الحكم القرمطي في شرقي الجزيرة العربية بمعاونة السلاجقة ، اصطدموا مع بني عامر الذين كانوا السند القوي للجيوش القرمطية . فقد كان بنو عامر يتسلمون مبالغ مالية بالاضافة إلى جزء من حاصلات البحرين من القرامطة مقابل المساندة والدعم العسكري لهم . وعندما تولى العيونيون زمام الأمور ، أراد بنو عامر أن يكون لهم موضع قدم في السلطة وأن يشاركوا في حكم البلاد . إلا أن مطالبهم هذه رفضت من قبل حكام العيونيين ، الأمر الذي جعلهم يشهروا السيف ويعلنوا التمرد والعصيان على الحكم العيوني.

وبسبب تدخل اصحاب السلطة في بغداد في هذا الخلاف ودعمهم ومساندتهم للعيونيين لم يستطع بنو عامر تحقيق مآربهم الخاصة . الا أن نفوذهم ظل قويا بسبب كثرة بطونهم في المنطقة . وقد ساعدهم هذا فيما بعد على فرض نفوذهم من جديد بسبب الضعف الذي دب في حكم العيونيين

في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي حين تمكن بنو عامر من السيطرة على اقتصاد الدولة العيونية في أواخر عهدها ، وهذه السيطرة تبعتها فيما بعد سيطرة سياسية على المنطقة . حيث اتفق معظم أعيان الأحساء ووجوهها على تسليم السُلطة في البلاد إلى زعيم بني عامر عصفور بن راشد بن عمير في الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادي ليؤسس بذلك إمارة العصفوريين (٤١) .

وقد شملت هذه الامارة بلاد البحرين (الاحساء حاليا) وبعض أجزاء من نجد وعمان وتعددت بطون بني عامر وأفخاذها وانتشروا في هذه المناطق . وامتد الزمن بالعصفوريين إلى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي . وكان زوالهم بسبب الاضطرابات السياسية التي عمت منطقة الخليج في تلك المرحلة من التاريخ وذلك بظهور تيمور لنك . ولكن بني عامر سرعان ما استرجعوا سلطتهم مرة أخرى على يد فرع آخر وهم الجبور أو بنو جبر في حدود منتصف القرن الخامس عشر الميلادي (٤٢) .

وخلال فترة حكمهم للمنطقة والتي امتدت أكثر من قرن ونصف من الزمن ، امتد نفوذ بني جبر إلى مناطق أخرى مجاورة لاقليم البحرين منها اقليم عمان . وقد صاحب هذا المد السياسي هجرات واستيطان كثير من قبائل بني عامر إلى عمان الداخل وتكوين كيانات مستقلة بسبب الضعف النبهاني عندئذ . وقد عرفت هذه الكيانات فيما بعد بسلطة الجبور في عمان وهم الذين شاركوا في حكم البلاد كما أشرنا سابقا . وساعد على استقلالهم سقوط دولتهم في الأحساء في الربع الأول من القرن السادس عشر اليملادي والتي ضُمنت إلى ممتلكات الدولة العثمانية (٤٣) .

يتضح من هذا العرض الموجز لتاريخ بني عامر أن عمان كانت على صلة دائمة بما يحدث في اقليم الاحساء وأن هذه القبائل هاجرت باعداد كبيرة إلى المنطقة منذ عصور القرامطة ، وأن نفوذهم قوى إبان الحكم الجبري. وبسقوط بني جبر في الاحساد استقلت قبائلهم في عمان ، وانفردت بحكم كثير من المدن والقرى بسبب ضعف الحكم النبهاني .

وكان بنو عمير أحد أفخاذ قبيلة بني عامر مثل الجبور ، ولعل استيطانهم لعمان يعود إلى

فترة ما قبل الجبرين . واستغل آل عمير الوضع المتردي في عمان في االقرن السادس عشر الميلادي كبني عمومتهم واستقلوا بحكم بعض المدن والقرى . ويرد ذكرهم كقوة سياسية في المنطقة في عهد سلطان بن محسن بن سليمان النبهاني ، عندما اشتروا حصن بهلا من بني جبر في سنة ٩٦٧هـ (٤٤) .إلا انهم لم يتمكنوا من المحافظة على هذا الحصن حيث سقط في يد الإمام عبد الله بن محمد القرن من بني هناءة ، والذي بويع بالإماة من أجل القضاء على الحكم النبهاني في السنة نفسها (٤٥) .

وفي الوقت الذي استمر فيه الصراع على السلطة بين الملوك النبهانية المتأخرين ومناوئيهم وخاصة بني هناءة ، نجد أن آل عمير وبالتعاون مع بني عمهم ، بني جبر يحاولون إستغلال هذا الموقف لدعم نفوذهم السياسي في المنطقة ، حيث كانوا يتدخلون في هذا الصراع بصورة مباشرة لاضعاف نفوذ القبائل العمانية . وفي الوقت نفسه كانوا يحاولون تثبيت دعائم حكمهم في المناطق التي تنتشر فيها افخاذ بني عامر وبطونها .

ومع مطلع القرن السابع عشر الميلادي ، كان بنو عمير مسيطرون على منطقة سمائل والقرى المحيطة بها تحت زعامة مانع بن سنان ، بينما بسط بنو عمهم الجبريون نفوذهم على مناطق أخرى كما سبق لنا أن أشرنا (٤٦) . ولم يصطدم بنو عمير مثل الجبريين مع ناصر بن مرشد في بداية عهده بل إنهم فضلوا المسالمة هم وحلفاؤهم من بني رواحة ، ولعل السبب في ذلك انهم وجدوا انفسهم لا قبل لهم بجيوش ناصر بن مرشد وانصاره (٤٧) . الا أن هذا السلام بن الطرفين لم يستمر طويلا ، فقد أعلن مانع بن سنان العصيان على ناصر بن مرشد بعد ما تلقى العون والدعم من قبائل بنى هناءة ومن أبناء عمه بنى جبر . ولكن هذه الثورة لم يكتب لها النجاح ، لقوة عزيمة أهل عمان وإمامهم وتفانيهم في حماية الإمامة الجديدة وتوحيد البلاد . فتراجع مانع بن سنان واتباعه إلى شمال عمان وحاول إعادة الكرة مرة أخرى . إلا أنه لم يوفق فقد نصب له فخ من قبل والي صحاد اليعربي الذي بيت له أمراً واستطاع أن يقضي عليه قبل أن يعد عدة الهجوم ، وبموته تم القضاء على سلطة آل عمير في

عمان (٤٨) .

اليعاربــة :

ينسب ابن قيصر اليعاربة إلى نصر بن زهران أحد بطون الأزد والتي ينتسب اليها اهم قبائل عمان وهم بنو مالك بن فهم. ولم يذكر المؤلف ان كان اليعاربة هم فخذ من فخوذ نصر بن زهران أم انهم فرع من مالك بن فهم والذين هم من نصر بن زهران (٤٩) .

أما بقية مصادرنا المحلية فإنها تتجاهل شجرة نسب اليعاربة ، ما عدا السيابي الذي ينسبهم إلى نفس القبيلة التي ينتسب اليها بنو نبهان . فهم كما يرى من يعرب بن عمير بن نبهان بن محمد بن نبهان بن كهلان من العتيك من عمرو، مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن أمرؤ القيس بن ثعلبة بن غسان بن الأزد (٥٠). هكذا يخرج السيابي اليعاربة من نسب نصر بن زهران ويناقض بذلك مؤرخ ***سيرة ناصر بن مرشد*** ابن قيصر . واذا رجعنا قليلا إلى الوراء نجد أن سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني أحد السلاطين النباهنة المتأخرين ، والذي وصلنا كثير من أشعاره ، نجده يورد كلمة يعرب في ديوانه كثيرا (٥١) . فهو يفتخر بأن أباه وأجدادة ينتمون في نسبهم إلى يعرب هذا . وتكاد تتفق جميع الأسماء التي يرددها في شعره مع ما ذكره السيابي . فشاعرنا النبهاني ينسب نفسه وقبيلته إلى يعرب من نبهان بن كهلان من العتيك من عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء (٥٢) .

ولعل هذا النسب هو الراجح وليس ما ادعاه ابن قيصر . كذلك فان الاسم القبلي (يعرب) ليس مقتصرا على الفرع اليعربي آي فرع ناصر بن مرشد مؤسس دولة اليعاربة بل هو أعم وأشمل. فكما هو واضح من أشعار سليمان النبهاني فإن (يعرب) كان الاسم القبلي الشائع أيام حكم النبهانيين ويطلق على جميع بنى بنهان . وبعد سقوط دولتهم اصبح هذا الاسم يطلق على فرع واحد من فروع النبهانيين والذي منه ناصر بن مرشد وخلفاؤه ممن حكموا الدولة اليعربية .

نستنتج من ذلك أن اليعاربة ، أى ناصر بن مرشد وخلفاؤه ، ليسوا الا فخذا من فخوذ بني يعرب بن عمرو بن نبهان . ويعرب هذا هو الجد المشترك لجميع النبهانيين أو اليعربيين بما فيهم ناصر وخلفاؤه (٥٣) .

وتاريخ بني نبهان أو بني يعرب يعود في جذوره إلى قبيلة العتيك التي استوطنت عمان قبل ظهور الاسلام بفترة طويلة . ومن المعلوم أن هذه القبيلة وقفت ضد المد الاسلامي في المنطقة وانضمت إلى صفوف المرتدين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان لموقفهم هذا أثر سلبي على نفوذهم السياسي في عمان . فلم يستطع العتيك ولفترة طويلة من الزمن تعويض ما فقدوه من مكانة عالية ومرموقة بين صفوف القبائل العمانية .

فبعد سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ قامت الإمامة في عمان واستقلت عن السلطة في بغداد ، وكان معظم الأئمة الذين تعاقبوا على الإمامة من قبائل اليحمد . ومن المعروف أن هذه القبائل وحلفاؤهم هم من أوائل من دخلوا الاسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ودافعوا عنه بكل قوة ضد المرتدين من العتيك . كما انهم ابلوا بلاء حسناً في الفتوحات الاسلامية ونشر الاسلام في المناطق الشرقية للخلافة . لذا ليس غريبا أن نرى قبائل اليحمد وأتباعها هى التي تستأثر بالإمامة دون غيرها وتستتر في الحكم مدة طويلة من الزمن امتدت من منتصف القرن الثاني الهجري إلى منتصف القرن السادس الهجري.

وبعد هذا التاريخ ، نرى أن الأوضاع الداخلية لعمان تسوء بسبب الحروب الأهلية ، ولم تستطيع قبائل اليحمد السيطرة على الأمور ، مما نتج عنه ظهور قوة جديدة في المنطقة تعود أصولها إلى العتيك وهم بنو نبهان . فقدتمكنوا من فرض نفوذهم السياسي على قبائل عمان ، ومن حكم المنطقة ، حتى مطلع القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي . ويتضح لنا من ذلك أن قبائل العتيك والتي ينتمي إليها بنو نبهان ، وان كانوا قد ابعدوا عن السلطة فترة طويلة من الزمن

بسبب مواقفهم الأولى تجاه الإسلام ، إستطاعوا أن يفرضوا وجودهم من جديد إبان الحرب الأهلية في القرن السادس الهجري وتمكنوا من انتزاع السلطة من قبائل اليحمد وحكموا عمان حتى مطلع القرن السابع عشر الميلادي (٥٤) .

ولقد كان اليعاربة الذين اسسوا الدولة اليعربية في الربع الثاني من هذا القرن متمركزين في منطقة الرستاق ، تحت زعامة مالك بن أبي العرب اليعربي إبان حكم النباهنيين المتأخرين . وظهروا على مسرح الأحداث كقوة سياسية ذات نفوذ قوي في عهد سليمان بن مظفر النبهاني ، عندما تحالفوا مع عمير بن حمير النبهاني ضد سليمان هذا في أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي (٥٥) . حيث انقسم البيت النبهاني على نفسه في هذه المرحلة من تاريخ عمان كما أشرنا سابقا وخاض النبهانيون حروبا ضد بعضهم البعض .

وشاءت الأقداران يظهر من هذه الأسرة شخص استطاع أن يكسب رضى الكثير من العمانيين لورعه وتقواه ، واتباعه سيرة الأئمة الأوائل ، فتجمعت حوله القبائل وناصرته وأيدته . ذلكم هو ناصر بن مرشد اليعربي الذي بويع بالأمامة سنة ١٠٣٤هـ /١٦٢٤م بعد ما خلف مالك بن أبي العرب في حكم الرستاق. وبدأ ناصر في تعزيز موقفه عن طريق كسب ولاء القبائل المحيطة بالرستاق وكذلك كسب ولاء القبائل المناوئة للحكم النبهاني خاصة قبائل اليحمد القوية .

وكان ناصر سياسيا محنكا وجَدَ أن خلاص عمان من الوضع السيء التي هى فيه – يتمثل في جمع شتات القبائل تحت راية واحدة ، عن طريق نشر الدعوة الاصلاحية التي تستمد روحها من المذهب الأباضي ، وتذكير الناس بسيرة السلف الصالح والاقتداء بهم . ووجدت هذه الأفكار والمباديء الأصلاحية آذانا صاغية تتطلع شوقا للامام الذي سيخرجهم من هذا الوضع المتردي الذي هم فيه. وهكذا أخذ ناصر في ضم المدن والقرى الواحدة تلو الأخرى تحت رايته ، وفي القضاء على التكتلات القبلية المستقلة ، وقد كللت مساعيه بنجاح باهر وشهدت بعدها عمان عصرا جديدا ملؤه العزة والرخاء

والخلاصة أن هناك عاملين رئيسيين كانا وراء نجاح نصار بن مرشد مؤسس دولة اليعاربة دون غيره من الحكام النبهانيين . أولهما دعوته للاصلاح المعتمدة على احياء الإمامة الأباضية والاقتداء بسيرة الأئمة والعلماء الأوائل ، وهذا ما كان يتطلع اليه معظم قبائل عمان . وثانيهما دعم القبائل القوية له وخاصة اليحمد الكثيرة العدد ، والتي فقدت سلطتها السياسية في عمان منذ زمن بعيد ، وقد رأت في شخصية ناصر بن مرشد ضالتها . وهكذا استطاع ناصر بن مرشد بفضل حنكته وسياسته ، إلى جانب تمسكه بالدين وحرصه عليه ، أن يبني قواعد صلبة ومتينة للدولة الناشئة ، وأن يمهد لخلفائه الطريق نحو بناء امبراطورية عمانية عرفت في كتب التاريخ باسم دولة عمان الكبرى .

وختاما ، فقد نضيف إلى ما ذكرناه من آثار أفرزتها الأحداث المتلاحقة ان عمان مرت بمرحلة من أصعب مراحلها التاريخية ، في الفترة ما بين سنة ١٥٠٧م وهي سنة وصول البرتغاليين وحتى سنة ١٦٢٤م سنة إحياء الإمامة الأباضية على يد ناصر بن مرشد . وقد شهدت تلك المنطقة خلالها حروباً دامية ، دارت رحاها بين القبائل العمانية ، وكان للعصبية القبلية دور أساسي فيها . وقد سهلت هذه الحروب للمستعمرين مهمة السيطرة على سواحل عمان ، واستعمارها وتسخير خيراتها ومواردها لخدمة البلاط البرتغالي . وهذه الحالة من الفوضى والتي مرت بها عمان إبان الغزو البرتغالي يمكن اعتبارها مرحلة انتقال من فترة العصور الوسطى ، حيث هيمن عليها النبهانيون ، إلى فترة العصور الحديثة وهي التي تولى مسئولية حكم عمان فيها اليعاربة ، ومن بعدهم آل بوسعيد. ونأمل أن يكون في هذا العرض الموجز ما ينبه إلى أهمية المنطقة وتاريخها على حد سواء .

الهـوامـش

١- لمزيد من التفاصيل حول كتاب ***كشف الغمة*** ومؤلفه انظر ، ***كشف الغمة*** الجامع لأخبار الأمة ، تحقيق ودراسة وتعليق احمد عبيد لي ، (نيقوسيا : دار دلمون للنشر ١٩٨٥).

٢- د. فاروق عمر ، ***مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني*** ، (بغـداد : ١٩٧٩) ص ١٥٤.

٣- د. جمال زكريا قاسم ، ***الخليج العربي*** ، (القـاهرة : دار الفكر العـربي ، د . ت) ، ص ٥٢ – ٥٣ .

٤- المصدر السابق ، ص ٥٣ – ٥٤

٥- مـحـمد بن عبد الله الطنجي الشـهـير بابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) . ***تحفة النظار في غرائب الأمصار*** ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧) ، ص ٢٨٦ .

٦- انظر مصطفى عقيل الخطيب ، ***التنافس الدولي في الخليج العربـي ١٦٢٢- ١٧٦٣*** ، (بيروت : المكتبة العصرية ١٩٨١) ، ص ١٩ .

٧ - Robert Geran Landen, Oman Since 1856, (Princeton:1967), p. 19-20.

٨- ينسبهم ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن حجر ، ت ٨٥٢هـ) ، إلى بطن من بطون قريش ، ***الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة*** ، (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٦) ، ج ١ ، ص ٧٥. انظر تعليق عبد اللطيف ناصر الحميدان على ذلك في مقاله " العصفوريون وقصة . ١٥ عام غامضة في تاريخ البحرين " ***الوثيقة*** ، (تصدر عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين) ، العدد الثالث (١٨٩٣) ، ص ٦٦ .

٩- عبد اللطيف ناصر الحميدان ، " التاريخ السياسي لإمارة الجبور" ، ***مجلة كلية الآداب في جامعة*** البصرة ، العدد ١٦ (١٩٨٠) ، ص ٤٤ – ٥٢.

١٠-المصدر السابق ، ص ٧٠.

انظر كذلك مقال الدكتور على ابا حسين ، " الجبور عرب البحرين" ، الوثيقة ، العدد الثالث ، (١٩٨٣) ص٧٨- ١٠٠ .

١١- *الخليج العربي* ، ترجمة : د. عبد القادر يوسف ، (الكويت : د .ت.) ،ص ١٤٩. Beatrice de. Cardi, "Trucial Oman in the 16th and 17th centuries," in Antiquinty, vol. 44, (1970),p. 288.

١٢- *انظر كشف الغمة* ، ص ١٣٩. J.C.Wilkinson, " A Sketch of the Trucial Oman Down to the Beginning of the Sixteenth Century". in the Geographical Journal, vol. 130(1964), p. 339.

١٣- J.C. Wilkinson, (Bio-bibliographical background to the Crisis period in the Ibadi Imamate of Oman" in Arabian Studies, vol.3, p. 161.

١٤- في حوالي سنة ١٧٢١م ذكر صاحب *كشف الغمة* انه أثناء الحرب الأهلية في عهد يعرب بن بلعرب اليعربي ، "حرقت كتب كثيرة لم يكن لها نظير بعمان". في الرستاق بعد سقوطها . ص ٢١٧ – ٣٧٥.

١٥- Beatrice de Cardi, "Trucial Oman in the 16th and 17th Centuries", in Antiquity, vol 44 (1970), p.288.

١٦- يعتبر ديوان أبي بكر احمد بن سعيد الستالي ١١٨٩ – ١٢٧٨م من أهم المصادر المحلية التي تطرقت لفترة الملوك النبهانيين في عمان ، ولكن لا يعد تاريخا ، فهو مجموعة من الأشعار التي امتدح فيها الستالي ملوك وسلاطين بني نبهان . وقد عدد أسماء كثيرة لهؤلاء الملوك دون أن يعطي معلومات واضحة عن فترات حكمهم أو عن أهم الأحداث التي صارت في عصورهم . انظر :
J.C. Wilkinson, The Imamate Tradition of Oman, (Cambridge University press, 1987), p.213.

١٧- حميد بن محمد بن رزيق (ت: ١٢٧٤هـ) *الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين* ،

(مسقط: وزارة التراث القومي ، ١٩٧٧)، ص ٢٥٧ .

١٨- نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، (ت:١٣٣٢هـ)، ***تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان*** ، (مسقط : وزارة التراث القومي ١٩٨١)، ج١ ، ص٣٧١ - ٣٧٦ .

١٩- السالمي ، تحفة الأعيان ، ج١ ص ٣٧٩؛ كشف الغمة ، ص ٣٢١.

٢٠- السالمي ، ***تحفة الأعيان*** ، ج١ ، ص ٣٧٩"؛ ***كشف الغمة*** ، ص ٣٨٧.

٢١- ***كشف الغمة*** ، ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

٢٢- ***كشف الغمة*** ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

٢٣- Wilkinson, The Imamate, p. 217

٢٤- السالمي - ***تحفة الأعيان*** ، ج١ ، ص ٢٩٨

٢٥- انظر ***كشف الغمة*** ، ص ٣٤٤ ؛ السالمي ، ***تحفة الأعيان*** ، ص ٤٠٠.

٢٦- لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع انظر مقال د. عبد اللطيف ناصر ، " التاريخ السياسي لأمارة الجبور" ، ***مجلة كلية الإداب في جامعة البصرة*** ، العدد ١٦ (١٩٨٠) ، ص ٥٤ - ٥٦ " ؛ نوال حمزة يوسف الصيرفي ، ***النفوذ البرتغالي في الخليج العربي*** ، (الرياض : دارة الملك عبد العزيز ، ١٩٨٣) ص٥٣

٢٧- Wilkinson, The Imamate, p. 21 5

٢٨- د. عبد اللطيف ناصر ، " التاريخ السياسي لإمارة الجبور" ، ص ٥٨ .

٢٩- جميع الدلائل تشير إلى أن الجبور كانوا مهيمنين على مناطق واسعة في شمال عمان ، والتي اتخذوا منها قاعدة لتوسعهم السياسي في المنطقة . انظر مقال عبد اللطيف الناصر ، " التاريخ السياسي لإمارة الجبور"، ص ٥٧ .

٣٠- سلمة بن مسلم العوتبي (من أعيان القرن الخامس الهجري) ،

الأنساب ، (مسقط : وزارة التراث القومي ، ١٩٨٤). ج٢ ، ص ٢٢٥؛ ***كشف الغمة*** ، ص ٢٥١.

٣١- ***كشف الغمة*** ، ص ٧- ٢٥٨ .

٣٢- بنو سامة هؤلاء يذكر بانهم هاجروا إلى عمان قبل الاسلام بمدة طويلة وينسبون إلى قبيلة قريش . وفي نسبهم وهجرتهم اختلاف كبير عند علماء النسب الأوائل . هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت٢٠٤)، ***جمهرة النسب*** ، (بيروت : عالم الكتب ، ١٩٨٦) ، ص ١١٢.

٣٣- ***كشف الغمة*** ، ص ٧ - ٢٦٨ .

٣٤- ***كشف الغمة*** ، ص ٣٣٣ .

٣٥- سالم بن حمود السيابي ، ***اسعاف الأعيان في انساب أهل عمان*** (بيروت: مطابع المكتب الإسلامي ١٣٨٤هـ) ص ٩٨ .

٣٦- ***كشف االغمة*** ، ص ٣ - ٣٣٤ .

٣٧- ابن قيصر ، ***سيرة الإمام ناصر بن مرشد*** ، (مسقط: وزارة التراث القومي ، ١٩٨٣) ، ص٨ - ١١٣.

٣٨- ***كشف الغمة*** ، ص ٢٧٤ .

٣٩- ***إسعاف الأعيان*** ، ص ٥٨ .

٤٠- لمزيد من التفاصيل انظر مقال د. عبد اللطيف ناصر حميدان " العصفوريون وقصة ١٥٠ عام غامضة في تاريخ البحرين" ، ***الوثيقة*** (تصدر عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين) ، ج٣ ١٩٨٣، ص ٣٠ - ٣٣.

٤١- المصدر السابق ، ص ٣٤- ٣٩.

٤٢- المصدر السابق ، ص ٦٦ .

٤٣- د. علي أبا حسين " الجبور عرب البحرين " ، ***الوثيقة*** ج٣، (١٩٨٣) ، ص٩٨ .

٤٤- ***كشف الغمة*** ، ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

٤٥- المصدر السابق ، ص ٣٢٢ .

٤٦- اسعاف الأعيان ، ص ٥٩ ؛ ***كشف االغمة*** ، ص ٣٤٤ .

٤٧- ابن قيصر ، ***سيرة الإمام ناصر*** ، ص ١٨ ؛ ***كشف الغمة*** ، ص ٢٥٠.

٤٨- ابن قيصر ، ***سيرة الإمام ناصر*** ، ص ٨ - ٥٩ ؛ ***كشف الغمة*** ، ص ٣٥٤ - ٣٥٧ .

٤٩- ***سيرة الإمام ناصر بن مرشد*** ، ص ١٢ .

٥٠- اسعاف الأعيان ، ص ١١٩ .

٥١- انظر ***ديوان النبهاني*** (سليمان بن سليمان النبهاني ت ٩١٥هـ/١٥١٠م ، مسقط : وزارة التراث القومي ١٩٨٤). الصفحات : ١، ١٢، ١٥، ٢٣، ٩٨، ١١٤، ١٢٢، ١٣٠، ١٤٤، ١٥٧، ١٧٧، ٢١٦، ٢١٧، ٢٤١، ٢٥٤.

٥٢- النبهاني : ***ديوان،*** الصفحات ١٨، ٢٣، ٢٨، ١١٩، ١٣٢، ٢١٥، ٢٤١.

٥٣- يرى السيابي أن اليعاربة انفصلوا عن بني نبهان في أواخر عهدهم مثلما انفصلت بطون آخرى ، واصبح كل بطن يدير شئونه السياسية والاجتماعية بصورة مستقلة . كما يذكر المؤلف من خلال تطرقه لهذا الموضوع ، بأنه فقد كنزا علميا يضم جداول وشجرات أنساب مشاهير آل نبهان أو آل يعرب حتى سقوط دولتهم . ولو عثر على هذه الجداول ، فإنه مما لاشك فيه سيتم الكشف عن كثير من الحقائق والمعلومات التاريخية الخاصة بتلك الفترة المظلمة من تاريخ عمان . انظر ***اسعاف الأعيان*** ، ص ١١٨.

٥٤ - سالم بن حمود السيابي ، ***عمان عبر التاريخ*** ، (مسقط : وزارة التراث القومي ، ١٩٨٢) ، ج٣ ص ٨٣ - ١٠٠ .

٥٥- ***كشف الغمة*** ، ص ٣٣٥ .

* * * * * * * * * * * *

المحاور الفكرية والفنية
في شعر الكيذاوي العماني
(موسى بن الحسين بن شوال)
المتوفي سنة ١٠٣٣هـ

الدكتور/ شحادة خليل زغبر
قسم اللغة العربية - كلية الآداب
جامعة الامارات العربية المتحدة

المقدمـــة:

لم يحظ شعر موسى بن الحسين بن شوال الملقب: بالكيذاوي بالدراسة الأدبية الجادة فيما أعلم . وكل ماذكر عنه أنه شاعر مدح النباهنة. وهو من أصحاب مدرسة البديع . وذكر اسمه بعض المؤرخين العُمانيين في حديثهم عن بعض ملوك النباهنة المتأخرين الذين منحوه الجوائز.

والبحث عن الكيذاوي وشعره ـ كالبحث عن أشعار غيره من شعراء عمان ـ أمر غير ميسور دوما . ذلك لأن دواوين كثير منهم لم تنشر، رغم ماتقوم به وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان من جهد مشكور في هذا السبيل.

ومعروف أن أدب الأقاليم يفتقر ـ بصورة عامة ـ إلى المصادر التي تهتم به لأن مؤرخي الأدب العربي، ركزوا اهتمامهم على الأدب الذي نشأ في مراكز القوى السياسية . حتى إن بعض المراجع الأجنبية، التي اعتنت بمثل هذا الأدب ، لم تترجم بعد إلي العربية، فلولا الدكتور/ رمضان عبد التواب ـ شكر الله له ـ الذي طلبنا منه أن يترجم لنا مايتعلق بهذا الشاعر من الملحق الثاني لبروكلمان والذي لايزال الالمانية في مكتبته الخاصة ، لما عرفنا أن للشاعر ديوانا في المتحف البريطاني برقم ٦٥٦٠. ولما عرفنا سنة وفاته ، التي لم يشر اليها أي مصدر عربي ـ مما وقع تحت أيدينا ـ علاوة على إغفال ذكر اسمه في كتب التراجم العربية المشهورة.

هذا وقد بنيت دراستي هذه على النسخة التي نشرتها وزارة التراث القومي بلسطنة عمان سنة ١٩٨٥، وهي نسخة طبق الأصل عن المخطوطة المرقومة: (١٨ ز) في دائرة المخطوطات العمانية بمسقط، وجاءت في ثلاثمائة وأربعين صفحة وقد أخبرنا السيد مدير مكتب مستشار جلالة السلطان ـ في رسالة خطية ، أن هذه النسخة لاتحتوي جميع أشعاره ، وأ رسل لي شعرا في رثاء الشاعر لوالده ، كدليل على ذلك، ليس موجودا في النسخة المنشورة. غير أن هذا الديوان ثابت النسبة إلي الشاعر بناء على المقدمة التي كتبها بقلمه ، وعلى ماذكره المؤرخون لعمان.

وسرت في هذه الدراسة على النحو الآتي:

- عرفت بالشاعر ـ قدر الجهد الميسور ـ وبمكانته الشعرية

- تناولت ـ المحاور الفكرية التي ذكرها الشاعر، وكذلك المحاور الفنية التي ظهرت عنده: كبناء القصيدة والأطر التي سلسل بها أفكاره ، وعرجت على بعض الظواهر الاسلوبية وأثرها في شعره ، وكشفت عن طرائقه في استخدام البديع وتصرفه في أساليب البيان ، ثم ختمت البحث موجزا أهم ماتوصلت اليه. وأحب أن أشير بأنني كنت أقتصر على مثال واحد في الاتجاه موضوع الدراسة ، وأحلت القارىء في الهامش الى الصفحات التي تحتوي على الأمثلة المشابهة في ذات الاتجاه . فإن وفُقت فهذا المنى والطلب ، وإلا فحسبي الجهد والعمل.

الشاعر ومكانته الأدبية

إن أوفي ترجمة للشاعر جاءت في شقائق النعمان (أ) ، وهي على الصورة الآتية : موسى بن حسين بن شوال ـ الحسيني ـ المعروف بالكيذاوي ، وقد جرى عليه هذا الوصف مجرى اللقب ، فصار وساما له أي نيشانا يتميز به عن غيره من الشعراء لأنه لما تفوق شعره واشتهر ذكره وانتشر صيته في البلاد ، صار كرائحة هذه الشجرة المنتشرة رائحتها . فشعره مرغوب فيه لرقته وعذوبته ، يهواه جميع القراء فيتلذذون به في ألسنتهم (ب) ، وفي هذا دلالة على أن الناس يقبلون على شعره.

(أ) للخصيبي ـ ١ / ٥٤ وفي التعريف الذي وافانا به مكتب المستشار : موسى بن الحسين بن ثاني الحسيني (والحسيني نسبة الى سيدنا الحسين ـ حسب قول المؤلف)

(ب) جاء في تاج العروس للزبيدي ٣١٢/١٠ الكيذا نبت طيب الرائحة ، وطلعه هو الذي يصنع منه الدهن ـ وهو نبت ينتشر في عُمان . وجاء في لسان العرب مادة كَوَذ تعريف للشجرة قريب من ذلك . وكلا المصدرين ناقل عن أبي حنيفة في كتابه «النبات».

. وقد أغفلت كتب التراجم (التي وقفت عليها) ذكره ، إلا كتاب معجم المؤلفين (أ) ، فقد نقل عن بروكلمان : موسى بن حسين المحلّى العماني . شاعر له ديوان شعر . توفى سنة ١٠٣٢ هـ ، ولاشيء بعد ذلك ، ولم يشر إلى ديوانه الذي ذكره بروكلمان.

والمحلّى نسبة إلى بلدة المحليا التي ولد فيها (ب) وسماها الشاعر : أرض المحل في رثائه لولده الذي مات فيها .

وأجمعت كتب التاريخ العماني أنه مدح فلاح بن المحسن النبهاني وولده عرارا فأكرماه . وفي ديوانه سبع وأربعون قصيدة مدح في فلاح وحده ، وبلغ عدد ممدوحيه ستة عشر ، ولم يرث من ممدوحيه إلا اثنين وحسب . غير أننا لانعرف شيئا عن حياته الاولى سوى مكان ولادته المحليا ، ويبدو من أشعاره أنه كان مقيما فيها، يمدح الملوك في اقاليمهم ، ثم يعود إليها وكان كثير التنقل - حسب قوله ولكنه تنقل لايخرج عن دائرة الاقاليم العمانية ، لأنه ليس له شعر إلا في حكام عمان لاغير وكانت نزعة الطمع بادية في أشعاره ، إذ كان ملحاحا في السؤال ، ويعتب العتاب المر على الممدوح الباخل بالجائزة ، أو المتمهل في تقديمها ، غير أنه لم يهج أحدا . ولكنه تبرم من منتقدي شعره وحسب .. وظهر في شعره أنه كثير التوجع والمرارة ، فشكا دهره الذي خفضه - وهو الأديب الشاعر - ورفع الجهلة. وفي قوله:

فكم أنا أوتي أو أعد وكم وكم ،، أنوح وكم أبكي وكم أتوجّع

فإننا لاندير إن كان هذا الكم دليلا على شعر له في الرثاء ، وقد غاب عن ناسخ ديوانه أم أنه في شكوي زمانه؟

(أ) لعمر كحالة ٣٨/١٣ - نقلا عن بروكلمان - الملحق الثاني ، ص ٥٦٨

(ب) شقائق النعمان ٥٤/١ - وهي بلدة تقع في وادي عندام من الناحية الشرقية.

- مكانته الأدبية :-

من لقبه الكيذاوي عرفنا أنه ذائع الصيت ، مرغوب القول . وكان يمثل المدرسة التقليدية الصرفة، فكرا ومنهجا . وقد أتقن هذا التمثيل إتقانا جيدا ، إذ سار فيه على الطريقة التي ارتآها النقاد القدامى في تجويد الشعر.

وبدت لنا ثقافته الأدبية من الكم الهائل من أسماء الشعراء الذين ذكر أسماءهم ، وأشار إلي قضاياهم ، خاصة في محورية المدحي والغزلي ، ونقل بعض عباراتهم الجاهزة فأقنع السامعين ، لأنه لم يأت بشيء - في تقليده - غير مألوف لدى المجتمع العماني ، الذي كان يحيا نفس الحياة التي أظلت الشعراء المقلدين.

ووجدنا عنده من أنواع التصرف في الكلمات والألفاظ الغريبة - خاصة فيما يتعلق بالراحلة والصحراء - مايوحي باطلاعه على ماحواه المعجم اللغوي. غير أن شهرته لم تتعد أقاليم عُمان لعدم الابتكار في شعره ، فكان يقبل على مايرد على العين ويألفه الناس، وهذا هو السب الجوهري للألفة بين الناس وبين شعره في عُمان ، ولم يقدم لنا معرفة جديدة بموضوعاته. غير أننا لاننكر أن شعره يناسب بيئته وقتئذ.

ولم نعرف أحدا يجاريه في بيئته في جزالة الأسلوب إلا الشاعر الأمير سليمان بن سليمان النبهاني ، و الكيذاوي مداح خلع على ممدوحيه صفات الثناء ، في حين أن سليمان النبهاني فخور نسب إلي نفسه تلك الصفات.

(١)

المحاور الفكرية في شعر الكيذاوي

أ ـ المحور الديني :

وقد تمثل في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ ذكر فيه ماتحلى به من صفات الخلق العظيم ، وماتعلق به من معجزات أشارت إليها السنة المطهرة، مثل : تكليم الظبية ، وشكوى البعير ، وأنين الجذع ، وتظليل الغمام ، وهي خاصة به دون خلق الله: (١)

فهو في آياته مغترب ... وبها أضحى وحيدا منفرد

ثم ختمها بالتضرع والخوف في قوله :

يارسول الله إني خائف ... من ذنوب لست أحصيها عدد

كما تمثل لنا هذا الاتجاه الديني في تناوله بعض القضايا القرآنية.

وتمثل لنا هذه الاتجاه أيضا في بعض الصفات التي خلعها على ممدوحيه كالخشوع لله والحفاظ على الاسلام مشرقا ، في مثل قوله: (٢)

لولاك للعلم والإسلام ماشرقت ... شمس ولا انكشفت للجور ظلماء

ولاشك في أن تسود هذه الصفات في أشعاره ، لأن الشاعر قد عاش في بيئة إسلامية محافظة على الدين ، وظروف اجتماعية تتطلب أن يستمسك الملوك بمبادىء الإسلام ـ وسيطر هذا الجانب على المديح في المحور المادي في بحثنا هذا.

ب ـ المحور الوجداني أو الذاتي:

وقد تمثل في (١) نسيبه، (٢) ورثائه ، (٣) واعتزازه بشعره ، (٤) ونظرته إلي الحياة

١ ـ أما النسيب : فكان كما هائلا عنده ، لأنه مقدمات في حوالي مائة وسبع وأربعين قصيدة وسلك فيه مسلكين ظاهرين : الأول اقتصر فيه على شرح لوعته ووجده على طريقة العذريين ، والثاني اعتمد فيه على وصف جسم المرأة.

ـ ففي الاتجاه الاول جاء مثل قوله: (٣)

فـمـا حـيلتي في سـؤل قلبي أأنني أغنى بأسـمـا أم أغني بزينب

فـهـذي لهـا ونصف ونصـتف لهـذه ألا فـاعـجـبى يانفس كل التـعـجب

فنصف غـدا في ظعن حي مـشـرق ونصف غـدا في ظعن حي مـغـرب

وكثيرا ماكان يلحق بهذا الاتجاه وصفا لمحاسن المرأة النفسية والجسمية.

ـ اما في المسلك الثاني ، فقد تناول فيه مالا يخدش الحياء كوصف الخد والقد والوجه والشعر .. وكان يربط ذلك بالألوان ، ويبرز المحاسن عن طريق القرائن فالوجه أبيض كالشمس ، والشعر أسود كالليل والخد أحمر كالورد ، والريق حلو كالشهد .. كقوله مثلا : (٤)

بيـضـاء في حُمـرة تبـدو مـحـاسنهـا كـأنهـا فـضـة قـد خـالطت ذهبـا

٢ ـ أما رثاؤه : فله فيه خمس قصائد، ثلاث منها في رثاء ولده سعيد ، واثنتان في بعض ممدوحيه . وكان رثاء الباكي الملتاع ، ولم يخرج عن دائرة نفسه الحزينة ، من ذلك مثلا: (٥)

مـاكنت أدري أن يكون سـعـيـد مـقـيـمـا بأرض المحل وهو وحـيـد

وأحـثـو عليـه التـرب بالكف مـسـرعـا وقـد كنـت نمـل الأرض عنـه أنود

فيا كبدي نوبي أسى وتلهفا فقد ضاع وعد واستقام وعيد

وكانت معانيه مكرورة في مراثيه ، وإن حملت بعض تأملات فلسفية ساذجة كقوله (في رثاء بعض ممدوحيه): (٦)

ستمضي الليالي وليذيقن حتفها مرعرعها والكهل والشيخ والطفل

٣ـ ومن شعره الوجداني : اعتزازه بشعره: فقد حسب نفسه مفوها بليغا في القول، فاق البحتري ، وأنسى بشعره قريض زهير ، وقول طرفه في أطلال برقة ثهمد ، وأن شعره يصغي له فطاحل الشعراء كقوله : (٧)

وأنشد ما يصغي له من غرائبي جرير وميمون وقيس وقطرب

ولما سمع الشاعر أن هناك من يعيب بعض أشعاره ، انبري لهم ، فاتهمهم بالعمى وجهالة التمييز ، في مثل قوله: (٨)

لا يفقهون لما فوهت من حكم في الشعر والناس أعداء لما جهلوا

فغرة الشمس لم تحسن لذي رمد وروائق الورد لم يأنس به الجُعل

٤ـ ومن شعره الوجداني نظرته إلي الحياة ، وقد تفرعت لديه إلي ثلاثة فروع هي ـ نظرته إلي الدنيا ، ونظرة الطمع لديه، ونظرة الجزع . وكلها نظرات سطحية ، كقوله: (٩)

وأرى الزمان وذيله جمعت له صور العجب

كم قد دنا قسرا لديه الرأس وارتفع الذنب

ـ ونظرته الطامعة: فهو يرى أن الفقر موت ، كقوله: (١٠)

رأيت الفقر قبل الموت موتا — لصاحبه وقبل القبر قبرا

والرزق يأتي خبط عشواء ، (١١)

والرزق يجري على الأقدار ليس على — فضائل المرء من عقل وتدبير

أما نظرة الفزع ، فتتخلص في أن لكل حي مصيرا محتوما ، ولكن الناس غافلون ، كقوله:

والناس في الدنيا كركب سفينة — لاتستقر بهم غداة ركوب

تجري بهم لبلوغ آجال وهم — يلهون بالمأكول والمشروب

جـ - المحور المادي :

ويتمثل في المديح ، وهو المحور الرئيسي الذي تدور حوله أشعاره كلها . وقد كان ماهرا في هذا الفن لأنه يختار الصفات التي تدغدغ مشاعر الممدوح ، ذلك لأن البيئة التي عاش فيها الشاعر كانت منطقة تنافس بين السلاطين، فسادت فيها الحروب والفتن وعم الظلم . فاختار الشاعر النعوت التي تصلح لسلطان جدير أن يسود المنطقة ويسوسها ، فكان ممدوحه مثالا لكل مثال رائع.

فأرضى بهذه الصفات الحاكم ، وأطرب المحكوم ، ومن ذلك - مثلا - أقواله الآتية:

أجل ملوك الأرض قدرا ورتبة — وأدومهم في الملك عدلا وأفلح (١٣)

بك أشرق الإسلام واتضح الهدى — وانجال من ليل الجهالة غيهب (١٤)

لو بعد أحمد للرحمن من رسل — لكنت لله فينا خاتم الرسل(١٥)

لو كيف الرحمن للمجد صورة   لكنت لها رأسا وعينا وإنسانا (١٦)

ولو تتبعنا حصر مثل هذه الصفات .. لأعيانا الحصر ، وهي على كل حال صفات تمتع ولاتقنع ، ولكنها البضاعة الرابحة وقتئذ في سوق رائجة..

وفعلا قد صرح الشاعر بذلك أكثر من مرة كقوله: (١٧)

وقد أهديت من أدبي ومدحي   بضائع تمنح الأدب الأديبا

بضائع حكمة حملت ضمانا   لهادي نظمها ألا يخيبا

وكان يطلب من الممدحين أن يعجلوا بدفع قيمة البضاعة وإلا تعروضوا للعتاب المر.. كما في قوله: (١٨)

لقد طال حبسي وانتظاري وماقضى   لجودك لي عن مترف المزن مرعد

مضت لي وقد ولت ثلاثة أشهر   ولم يُقض لي ياسيدي منك موعد

وماكنتُ أدري أن أُخيب أو ارى   بضائع شعري عند مثلك تكسد!

د - المحور التاريخي :-

وأعنى الأحداث (خاصة المعارك التي دارت بين النباهنة وغيرهم) التي ألمح إليها وقد وردت تفاصيل لهذه الأحداث في بعض كتب التاريخ ، مثل كتاب تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، ونعني بها مشاهد زمانه التي أصبحت جزءا من التاريخ فقد وصف دور الفلاح في تجميع القبائل للحرب فقال: (١٩)

وفــرق الكتب من بهــلا إلي ســمـــد	إلي دبا آمــرا بالحــرب منتــصــرا
حــتي تكاملت الرايات جــامــعــة	عــســاكــرا تجــمع الأمــلاك والوزرا

وأخذ يصف المعركة وصفا تاريخيا لاوصفا مشهديا كما فعل أبو تمام - مثلا في وقعة عمورية . وفي موقعة أخرى سجل أسماء القبائل المشاركة في القتال والمناطق الى اجتازها الممدوح بجيشه ، فقال : (٢٠)

جــردت للحــرب ســيف العــزم منصلتــا	ولم تكن عن مــثــال الجــد بالواني
وســرت بالجــيش من بهــلا الى ســمــد	إلي ســيــاق الي صــور فــعــجــلان
وفــيــه آل عــمــيــر يقــدمــون على	صــواهل ضــمــر تهــوى بفــرســان
وآل مــحــرز أرباب العــلا وبنو	هناة هم خــيــر أنصــار وأعــوان

(٢)

المحــاور الفنيــة

– البناء الفني للقصيدة:

لقد سلسل الكيذاوي أفكاره في الإطار التالي:

(المطلع ، فوسيلة الانتقال من محور لآخر ، فالخاتمة).

- أولا : المطلع :-

فقد تنوعت مطالعه من ناحية الفكرة ، فبعضها يتعلق بالنسيب وهو الأغلب (٢١) والبعض الآخر يتعلق بالرثاء - وكان ذلك في قصائد الرثاء الخمس ، والبعض الآخر يتعلق بالخمرة - (في قصيدة واحدةوحسب).

ومطالعة كلها من ناحية الأسلوب - في جميع محاوره - تتفق ونظرة النقاد في شروط تجويد المطالع فهي : خالية من التعقيد ، لأنه أول العي ودليل الفهة ومثيرة تجذب انتباه السامع ، ولها روعة وعليها أبهة (٢٢) ونوَّع في أسلوب اختيار هذه المطالع ، فكان منها الطلبي (أو الانشائي) وهو الأعم الأغلب ثم الخبري (٢٣)..

ففي النسيب : اختار مايتناسب والبيئة البدوية : من ذكر الرسم والراحلة والبرق ، والعرار .. إلخ وكانت كلها مقدمات للمديح لاغير ، وكانت حافلة بصورة المرأة ، كما بدت مشاعره وراء كل فكرة يبديها ولاندري أنه قد أحب أم لا ، ولكننا ندري أنه : (٢٤)

إذا كـــان مـــدحـــا فـــالنســـيب المقـــدم أكل فـــصـــيح قـــال شـــعـــرا مـــتـــيم!!

وفـــي الرثـــــاء : كان يبدأ مطالعه بما يدل دلالة واضحة على الفجيعة ، وسيطرة الألم ، ومالاحظناه من جودة مطالعه في النسيب ، رأيناه في مطالع قصائد الرثاء ، فقد كان يراعي مناسبة المقال للمقام ، كما مر بنا في أبيات الرثاء السابقة أما في المطلع الخمري فجاء على النحو التالي : (٢٥)

قـم يانـديمـي أدر مـــــافي القـــــوارير من أدهـم مـــزمن في الدن مـــخـــمـــور

من مـــزج صـــرف كـــعين الديك صـــافـــيـــة مـــزاجـــهـــا كـــان من مـــسك وكـــافـــور

ضـــاءت وضـــاء لهـــا منهـــا الزجـــاج لنا نـــورا فـــكـــانـــت لـــنـــا نـــورا عـــلـــى نـــور

فهو مطلع تقليدي صرف ينسجم مع المطالع الجيدة المتعلقة بالوصف الخارجي للخمرة.

وهكذا بدا لنا الكيذاوي حريصا على تجويد مطالعه ، فخلت من العيوب التي وقع فيها بعض الشعراء الكبار السابقين ، ومافضل النابغة على الشعراء إلا لأنه: افصحهم كلاما وأقلهم سقطا وحشوا وأجودهم مقاطع واحسنهم مطالع (٢٦)

ثانيا : وسيلة الانتقال : في شعر الكيذاوي محوران أساسيان المدحي وهو غرضه الأول ، ثم الغزل (غرضا ثانويا) الذي جعله مطية ليصل بها إإلي غرضه الأصلي. وقد صرح بمثل هذا حين قال : (٢٧)

وهاكـهـا من بديع الشـعـر مـحكمـة   درية راق منـهـا المدح والغـزل

ولما كان النسيب هو المقدم في كل قصائده والمديح هو الغاية والقصد، كان لزاما عليه أن يسلك سبلا مختلفة ليصل بها من المقدمة إلي القصد . فكان منها السبل الآتية:

- السبيل الأول : ربط الغزل بالمديح ربطا مباشرا .

- السبيل الثانية : شعره.

- السبيل الثالثة: الطبيعة الساكنة والمتحركة.

- السبيل الرابعة : حلقات أخرى غير ماذكرنا - سوف نوضحها .

= فمثال على السبيل الأولى قوله (بعد أن طاف في دنيا الغزل بثالثة وعشرين بيتا):

غـيـداء لينة الأعطاف مـائسـة   كـأنهـا غـصن بان في تثنيـه

لازلت أصـبـو إليـهـا مـا حـييت كـمـا   يصـبـو فـلاح إلى إكـرام عـافـيـه

متوج في ارتكاب المشكلات

* * * * *

= السبيل الثانية: أشعاره : فكان يستخدمها مطية لسرد المدح كقوله: (٢٨)

وأحمل من دُر الكلام بضائعا ... إلى من لديه الشعر ليس بكاسد

إلى ابن سنان «عامر» عامر العلا ... وأورثها من والد بعد والد

ضياء عُمان بدرها وسراجها ... وكاشف ظلما خطبها في الشدائد

= السبيل الثالثة : استخدام الطبيعة الساكنة والمتحركة ، سواء أكان العنصران مشتركين في بيت ، أم لكل عنصر بيته الخاص به كقوله: (٢٩)

وأصبح الروض أحوى لونه بهج ... في حافتيه من الأزهار أشواق

وفاح نشر العرار الغض منتشرا ... كأنما من عرار فيه أخلاق

* * * * *

مليك يحيد عن الفعل الذميم وفي:

= أمّا الوسيلة الرابعة: فكانت مواقف يختلقها اختلاقا ، كشكوى حال ، أو تقديم نصيحة ساذجة ليست لها علاقة البتة بالنسيب كقوله: (٣٠)

ولما رأيت الدهر يقرع سروتي ... وفرق أحبابي وكدر مشربي

رحلت مطايا العزم في صحصح الدجى ... إلى ملك ينمو إلى آل يشجب

إلى كوكب العليا فلاح بن محسن..

ومن هنا نرى أن جميع السبل التي سلكها - عدا الأولى منها - كانت قفزات طارئة ونتوءات بارزة لاترتبط بما قبلها، إنما اختلقها ليجعلها مركبا يعبر به إلى شاطيء المديح وحسب.

- ثالثا : خواتيم القصائد : كان يولي اهتماما كبيرا بذلك ، فكان يحاول دوما أن يجعل البيت

الأخير - علاوة على المقطع - أجود مافيها وأدخل في المعنى الذي قصد إليه - وهذه في مجملها الوصايا التي يراها نقاد الشعر القدامى.

ولما كان الكيذاوي يهدف من قصائده - بالدرجة الأولى - إلي نشر المديح والثناء عن طريق أشعاره ، فقد رأيناه ينوع في خواتيم قصائده لتتفق وهدفه المعلن، فكانت الأبيات الاخيرة في القصيدة موضع اهتمامه ، وفي مجال المديح ونشر سمعة الممدوح - مثلا نراه يوجز الصفات التي وضعها للممدوح في البيت الأخير من القصيدة بقوله: (٣١)

أنت الوحيد وحيد العصر مالك من شكل ، وشكلك في الأملاك عنقاء

وختم حوالي ستين قصيدة بمثل هذه الخاتمة ، وهي إفراد الممدوح وقصر الحمد عليه . (٣٢). ومن هذه الخواتيم الدعاء للممدوح ، وكان يمزج هذه في العادة ، بطلب العطاء وشعوره بالرضاء عن الممدوح ، كقوله: (٣٣)

فأنت لازلت بالمعروف تكرمني وها أنا لم ازل بالمدح مداحا

- وقل مثل ذلك في خواتيم قصائد الرثاء (٣٤).

هذا التسلسل الفكري يقودنا للإشارة إلى الوحدة العضوية في قصائد الكيذاوي .. وهي غير موجودة البتة ، إذ كانت القصيدة الواحدة تحمل - بجانب الغرض الأساسي - افكارا جانبية علاوة على عدم ترابط الفقرة في أكثر ماوقفنا عليه من شعره . ولكن كل فقرة ترتبط أبياتها مع أختها بواسطة الفكرة ذات الشعب.

(٣)

من مظاهر الأسلوبية

لقد برز لنا بعض الظواهر الأسلوبية في شعر الكيذاوي ، لابد من الإشارة إليها ، منها :

١ ـ النص على اسم الشخص المعنى ، وعلى اسم البلد:

أ ـ فقد دأب على ذكر أسم الشخص المعني في القصيدة : وتمثل ذلك في المدح بصورة موسعة ، وفي الرثاء في نطاق محدود وسبب ذاك التوسع وهذه المحدودية يعود إلي اتساع محور المديح ، وضيق محور الرثاء . وكأن الشاعر ـ في النص على ذكر اسم الشخص ـ يريد أن يجعل سياجا حول مديحه وممدوحيه خاصة بأن يعلن أن شعره هذا ليس منحولا من غيره كما أنه لايمكن أن يُنحل لغير الشخص المعني الذي أنشيء من أجله ، لأنه قيده بذاك الاسم. وكان ماهرا في هذا كل المهارة، إذ بلغ من قدرته هذه ـ وهي بلاشك مسخرة لخدمة غرضه المدحي في الدرجة الأولى ـ أن ينص على اسمى الشخصين المقصودين ـ إذا كان الامر يتعلق باثنين ـ في البيت الواحد ، سواء أكان الغرض مدحا أم رثاء ففي المديح نجد قوله في حمير وكهلان ابني حافظ: (٣٥).

همـــا همـــا مـــوكـــبـــا عـــزوسلطنة	فليس بعـــدهمـــا في الفـــضل سلطان
فـــحـــمـــيـــر حـــمـــيـــر في المكرمـــات وفي	مـــســـتـــصـــعـــبـــات العـــلا كـــهـــلان كـــهـــلان

وكانت القصيدة كلها في الحديث عن الاثنين معا .

وفي الرثاء ، جاء قوله في عبد العزيز وولده شماس: (٣٦).

فـــجـــودي على عـــبـــد العـــزيز ونجـــهله	شـــمـــــاس بدمـع دون وابله القطر

وقد نوع الشاعر في مواقع اسم الممدوح بين حشو في البيت وقافية ، ففي حشو الأبيات

حدث ولاحرج ، وكان هذا لديه سهلا وميسورا ، فقد أحصيت له عشرات الأسماء في مواقع شتى ، ويكفي أن نشير إلى أنه مدح الفلاح بن المحسن. بسبع وأربعين قصيدة ، ووالده عرارا بست عشرة قصيدة ، وبلغ عدد ممدوحيه سبعة عشر ممدوحا .. وكان ينص في كل قصيدة على اسم الممدوح، او على كنيته على الأقل، ليحدد الشخص المعني.

وكان من براعته في هذا الاتجاه أنه كان يهيء للاسم ليقع في مكانه الصحيح بدون قلق . سواء أكان الاسم في حشو القصيدة ، أم وقع قافية.

وسأشير إلى بعض الأسماء التي وقعت قافية في بعض القصائد لأنه كان يعتمد أحيانا أن ينشيء القصيدة لتكون قافيتها على قد اسم الممدوح ، فالفلاح بن المحسن لابد أن يكون قافية في حائية من الحائيات ، وكل من عرار وحمير والمظفر في رائية من الرائيات الكثيرة ، و ناصر بن شماس في سينية و نبهان بن قحطان في نونية .. وهلم جرا..

ففي عرار مثلا ، جاء قوله ذاكرا الكنية والاسم معا: (٣٧).

فـــفـــاح بـهـــا نشـــر العـــرار كـــأنه	خـــــلاق أبي الطـيب المليك عـــــرار

وفي ناصر بن شماس ، قال : (٣٨)

يامـفلسـا إن شـئت تشـفي النفس من	مـــــاتشـــــتكي من علة الإفـــــلاس
جـد المسـيـر على النضـا واقـصـد إلى	الملك المتـــوج ناصـــر بن شـــمـــاس

وقس على ذلك في ذكر أسماء الممدوحين قافية. وقد تركنا الأسماء في حشو الأبيات لكثرتها.

٢ ـ النص على اسم البلد أو الاقليم :

كأنه ينبه إلي الواقع ، ويريد أن يمثل البيئة ، واستخدمها في محور المديح لأن هذه الأقاليم

إما كانت مراكز عز يتباهى بها الممدوح ، وإما أقاليم خضعت للممدوح نتيجة الغلبة.

- ففي الاتجاه الاول جاء قوله معتزا بـ بهلا عاصمة الفلاح : (٣٩)

هـــذي مرابـــع بهلا قـــد انحت بهـــا *** فالق العصـــا واحططن الكـــور والقببا

- وفي الاتجاه الآخر ، يقول في عمان و قلهات و الصير التي خضعت للممدوح: (٤٠)

دانت عمـــان لـــه بعـــد العـرامة من *** قلهـــات حتـــى تولاهـــا الـــى الصيـــر

عدد مدنا وأقاليم طواها جيش الممدوح ، مثل سمد و صحار و ظفار والرستاق و جلفار ..

وغيرها (٤١)

٢ ـ المبالغة وصيغة التفضيل:

- المبالغة: من مؤهلات المداحين لأنها تخدم أغراضهم . وقد هيأت ظروف البيئة العمانية وقتئذ أن يدخل الكيذاوي هذا المدخل من أوسع أبوابه . وكان مديحه لذي المكانة في مجتمعه من ملوك الأقاليم المختلفة ، وكان هدفه إشاعة مايستطيع إشاعة عن أولئك الملوك في محيط لهم فيه منافسون وخصوم كثر ، فكانت مبالغته في أطر خمس:

الأول : المبالغة الممقوتة التي وصلت إلى حد الاستحالة.

الثاني : إطار عام فيه هالة من العظمة والأبهة أقل درجة في المقت من الأول

الثالث : إطار حدد فيه صفة مخصوصة

الرابع : إطار خفف فيه من المبالغة الممقوتة باستخدام فعل المقاربة مثلا .

الخامس : استخدام صيغ مقبولة.

١ – أما الإطار الأول : فقد ورد في إفراد الممدوح ووحدانيته في مثل قوله : (٤٢)

جلت معاليــه وجــل جلـــلالـــه *** فـــي أن يكيـف بالمقـــال ويوصفـــا

يطيعـــه الفلك الـــدوار حيث جرى *** ويفعـــل الدهـــر ماقد شاء أو أمرا (٤٣)

ويمكن أن نلحق بهذه المبالغة الممقوتة التي وصلت إلى درجة الاستحالة قول الشاعر للمخاطب: (١٤)

انظـــر إليه تر الجلـالة والبهـــا *** وانعـــم برؤيـــة مـــاجـــد الحسنين

واسجد لغُــرة وجهـــه في دهشـــة *** شكـــرا لمـــن قـــد كـــون الـــكـــونين

٢ – والإطار الثاني : ـ إيغال شديد ، ولكنه أخف مقتا ـ وقد جاء في مثل قوله : (٤٥)

نور تصـــور في إجلـالاه بشـــرا *** فسبحـــان بـــارية بل سبحـــان باريه

٣ – والإطار الثالث : جاء في مثل قوله : (٤٦)

خاشـــع فـــي دينـــه تحسبـــــه *** ناسكـــا فـــي الدين والزهـــد نســـك

٤ – والإطار الرابع : خفف من المبالغة الممقوتة لتصبح مقبولة نوعا ما باستخدام لو ، او كاد التي تفيد وقوع الاستحالة كقوله : (٤٧)

لـــو بعـــد أحمد للـــرحمن من رسل *** لكنت للـــه فينـــا خـــاتم الرســـل

ولكن الشاعر أتى أحيانا بمبالغة لم تنفع في تخفيفها كاد او لولا كقوله : (٤٨)

لولا التقـــى من حيث كفيت شأنـــه *** لقلت لـــه سبحان سبحان سبحـــان !!!

٥ – والإطار الخامس ، استخدم المبالغة التي اتت على وزن مفعال وفعال وهما تفيدان الكثرة

، كما انهما من المبالغات المقبولة التي لاتحمل أكثر من تثبيت الصفة كقوله : (٤٩).

مطعـام ضيف ومطعـان غـداة وغـــي *** يعنـــو لــه كـل مطعـام ومطعـــان

وليست المبالغة لديه ممقوتة الصيغة وحسب ، ولكنه كررها مرات ، لانبالغ لو قلنا إنها نافت عن المائة حتى أصبحت سمة ظاهرة في شعره.

ب – صيغة التفضيل : كان يهتم بها لأنها تخدم غرضه المدحي خاصة ، وكانت تتحقق لديه بإحدى طريقتين:

الأولى بصيغة أفعل – والثانية بإطلاق التفضيل بدون تقييد أو موازنة بأحد ، وهذا أبلغ في التفضيل.

وكان استخدامه صيغ التفضيل على مستويين : أفقي ، ورأسي ، وفي حالتين مقيدة ، ومطلقة ، وكانت المفاضلة بين الممدوح والأعلام المشهورين بصفة محددة او بين الممدوح وعنصر من عناصر الطبيعة ، مثل (٥٠).

تراه مـــن المـــريخ أرفـــع رتبـــة *** وأشهـــر مـــن شمس النهـار وأشــرقا

وكان احيانا يفضل باستخدام كلمة تعني افضل ، ولكن بدون افعل كقوله : (٥١)

يعقب حـاتمـا كـــرمـــا ويعلـــــو *** علـى قيس بن عاصـــم فـــي الــــوقار

فكلمة يعلو على قيس ، تعني أعلى وافضل.

وفي اعتزازه بشعره : كانت قصائده فريدة جاءت بأفصح منطق وبيان (٥٢)

– تكرار أبيات وأشطر أبيات:

وهذه الظاهرة الأسلوبية تمثلت عنده في الأشكال الآتية:

١ – تكرار بيتين متتابعين في قصيدة واحدة (٥٣)

٢ – تكرار بيت بعينه في قصائد مختلفة ، وجاء التغيير في القافية وحسب (٥٤)

٣ – تكرار شطري بيتين متتابعين بالتحايل على المصرا ع لاغير (٥٥)

٤ – تكرار الشطر في البيت الواحد عن طريق التلاعب بالألفاظ في مثل قوله (٥٦)

تلقــاه متقبلا فـــي زي مكتهـــل *** فـــالـــزي مكتهـــل والسن مقتبـــل

فالشطرة الأولى هي بعينها الشطرة الثانية معنى ومبنى.

– تكرار حروف :

وهي كثيرة ، إلا أننا نخص الحروف الآتية:

السين ، وقد كررها في مثل قوله : (٥٧)

رئاســة فـــي حمـــى مستقـــر وسما *** مـــبذر مسـرف فـــي نســك أواه

مستيقـــظ لاكتساب الحمـــد منتبـــه *** وليـــس بـالنائم الخالي ولا الساهي

وسبسب مـــوحش جـــاوزته غلســا *** بأعـيس بازل فـــي السيـــر وهواه

وكرر الكاف كذلك في القصيدة التي مطلعها : (٥٨)

أســـاكنــــه وادي الأراك أراك *** تـــزينيـــن لـــي وادي الأراك أراك

و الهاء تكررت في مثل قوله : (٥٩)

هيهـــات هيهـــات أن أسلو هوى قمر *** وجـــه الـــزمان به مستبشـــر باه

والحاء وقد سيطرت على القصيدة التي مطلعها : (٦٠)

بكـــى وــــناح غرامـــا فى الهوى ناحا *** ويـــاح بـــالحب عن أحبـــابه باحا

لا لـــوم في نوحــــه إن ناح من ولــه *** ولـــو أقـــام مـــن الأنـــواح أنواحا

وقد دخلت الحاء في خمسة وعشرين بيتا من هذا النمط في القصيدة المشار إليها .

وتكرر حرف الغين وكان ثقيلا في قوله : (٦١).

وغيلان لـــم ينفـك مـــن حب ميــــة *** اســـيرا إلـــى أن غـــال غيلان غائل

وإنني أرى أن كل هذا التكرير لايخلو من التكلف ، ولم يكن له اية دلالة ، إلا كدلالة حرف السين في المقامة السينية عند الحريري.

- الألفاظ والتراكيب :

لقد صاغ الكيذاوي ألفاظه في مجملها فصيحة ومأنوسة ، وتراكيبه عربية صحيحة في أغلبها ، وليس فيها غموض ، واتكأ بقوة على ألفاظ وتراكيب المتقدمين (الجاهزة في شتى أغراضه) من جاهليين وإسلاميين إلى شعراء زمانه ضمن الصورة البدوية التي تناولناها في فقرة الصورة من هذا البحث وكانت ألفاظه وتراكيبه تحمل شيئا غير قليل من الجزالة والرصانة ، وكلامه فيه استواء وتناسق ، وكان يحكم قوله ويصوغه صياغة جيدة في مجمل شعره وإن كنا نلمح بعض كلمات غريبة سنشير اليها . غير أن الحكم على غربة الألفاظ أو ألفتها يخضع لعدة معايير ، منها اختلاف البيئة مثلا ، وامتداد الزمن.

وقد عاش الكيذاوي في بيئة بدوية لها خصوصيتها ، وتوفي قبل اربعة قرون ونيف لهذا كان

من المؤكد أن نجد بعض كلمات نعدها غريبة ، ولكن السياق الذي اتت به كشف عن معناها . وهذه الكلمات وجدت في محاور مختلفة ففي مدحه جاء قوله : (٦٢).

كفيل لنصل السيف في حومه الوغي *** بتفليق هامات العدا والقماحد

وفي نسيبه ، يقول : (٦٣)

خدلجة ترمي القلوب بأسهم *** رواشق عن قوس اللحاظ حداد

وكان لايكتفي بلفظه غريبة واحدة - (غريبة في مجتمعنا على الأقل) ، بل يردفها بأخرى ، كقوله يصف ناقته : (٦٤)

وعرندس جرف يخالط عزمها *** بين الرواحل شدة وتعجرف

تنفي اللغام إذا جدت فكأنما *** في هامها زبد اللغام الكرسف

وهذه الالفاظ الغريبة دليل على ثقافته اللغوية على كل حال . وهي اكثر انتشارا في وصف الناقة والصحراء.

(٤)

المعجم الشعري

هو من العناصر الأساسية التي يشكل منه الشاعر قصائده ، وهو من الظواهر الأسلوبية ، ويدخل فيه جانب من الموسيقى كبير ، غير أننا أفردنا له فقرة مستقلة عن الظواهر الأسلوبية ، وعن الموسيقى ، لأن له خصوصية مميزة عن كليهما بالشمول مرة ، وبالتحديد أخرى . على كل حال ، فإن هذه العناصر تتمثل في الكلمات التي يستخدمها الشاعر ، والصور التي يبدعها أو يقلدها (٦٥) وهي في مجموعها تخدم غرضه الشعري خاصة في المديح.

وقد اتضح لنا بعد دراسة ديوانه والتأمل في ضم كلماته أن أهم ظواهر معجمه هي : *الترديد والتكرار.*

ونحن نعرف أن التكرار في الشعر يكاد يرتبط ارتباطا وثيقا بظاهرة الانشاد ، فالشاعر الذي يقصد بشعره إلى المحافل والمناسبات والجمهور يكون دائما احرص مايكون على إبلاغ رسالته عن طريق تحفيظ المستمع مايقول (٦٦).

وقد تمثل ذلك في ثلاثة فروع رئيسية.

الاول : ترديد او تكرار كلمات مختلفة إما عن طريق الاشتقاق او بدونه (والكلمات المشتقة) ، مكرورة في البيت الواحد.

الثاني : تكرير كلمة محددة في صيغة واحدة.

الثالث : تكرير تراكيب محددة في صيغة واحدة.

مع ملاحظة ان كلا من الترديد والتكرير قد وقع في أشكال مختلفة ومحاور عدة ولتحقيق أغراض منوعة.

أما الفرع الاول : فقد جاء مثل قوله : (٦٧)

انوب صبـــابـــه وجـــوي وحــــق *** لمثلـــى فـــي الصبـــابـــة أن ينوبـــا

إذ عذل الغنول فمـــــــــا جوابي *** يكـــون لعـــاذلـــي إلا النحـيبـــا

ودلالة هذا التكرار توكيد المعنى ، إضافة الى مايحدثه من رنين ، وإن كان رنينا سمجا ثقيلا أحيانا ، كما في قوله : (٦٨)

أرى زمنـــــــي وأهليـــــــه أراه *** اراه مـــــارآهـــــم ما أرانـــــي

أما الفرع الثاني : فقد كرر كلمات محددة منها :

أ ـ كم الخبرية ، ب ـ ولفظه أملاك ، ج ـ وكلمة الزاكي ، د ـ والضمير أنا .

أ ـ كم الخبرية : وهي تفيد التكثير ، وقد اكثر من استخدامها ، وكانت وسيلة ناجحة في خدمة غرضه ، فالشاعر مداح ، ويريد ان يعظم ويعدد ويهول للمدوح مايريد تهويله فارتركز على هذه اللفظة لأن الغرض من كم إخراج المعنى في أحسن صورة موضحة له وإيصاله إلى فهم المخاطب من أقرب طريق واسهلها ، فإن ذلك عين البلاغة (٦٩).

وكثيرا ماكان يأتي بها مكرورة أكثر من مرة في البيت الواحد ، كقوله : (٧٠)

فكـــم أنـــا أرثي أو أعـــد وكـم وكم *** انـــوح وكـــم أبكـــي وكـــم أتـــوجع!

ب ـ لفظة أملاك : ملك : كلمة مفردة ، وجمعها ملوك واملاك ، والجمع الاخير جمع قلة ، غير أن الكيذاوي جعل اللفظة الأخيرة أكثر شيوعا في استخدامه لأنها تخدم غرضه المدحي ، وكأنه يريد ان يعلن أن ممدوحه من الطبقة النادرة القليلة ، وكان مجال استخادمها في أكثر الأحوال للتعظيم ، كقوله : (٧١)

إلـــى ملك مـــن آل نبهــــان شكله *** مـدى الدهـر فـي الأملاك عنقـاء مغـرب

ج ـ لفظه الزاكي : جاء في لسان العرب ، مادة زكا ، زكي اي زاك من قوم اتقياء ازكياء . ولم تزد دلالتها عن ذلك عنده . وأشعر أن هذه الكلمة كانت تأخذ منه جهدا ليضعها في مكانها اللائق بها ، اذ كان يضطر للتمهيد لها حتى تقع جوابا للطلب .. لأنها البوابة التي يدخل منها للمديح ، كقوله في محاورة مع من سألته اين الرحيل ، قال : (٧٢)

وقـالت إلـى أين الـرحيـل فقل لنـا *** فدينـــاك بالآباء مــــن قبـل نفتـــدي

فقلت إلى الزاكي ابي العرب الفتي ...

وكان يستخدمها مطلقة مرة ، كالبيت السابق ، ومقيدة في الغالب ، كقوله : (٧٣) زاكي الاصل و زاكي الاخلاق و زاكي الشمائل و زاكي السكينة ، حتى زاكي الوجه في قوله :

يحيط بوجهه الزاكي جلال *** احاط به جلال في جلال

ولفظه الزاكي محددة الدلالة غير انها رحبة الشمول في المديح ، فقد كل ممدوح عنده زاكيا إلا النبي كان أزكى ممدوح فقد وردت عنده بصيغة افعل في قوله :(٧٤)

قاصدا نحو النبي المصطفى *** خير مأمول وازكى مقتصد

د ـ ال «انا» : وقد اكثر منها لانه يريد ان يثبت وجوده كشاعر مؤثر فاعل وهي تحمل بتركيبها مع سواها طابع الاستمرار (٧٥) ، واستخدمها في قطاع دلالتين : أنا الاستقلالية ، و أنا التبعية الثنائية : أنا ـ أنت وفي كلتا الدلالتين ، يعتبر نفسه صاحب رسالة يقوم بها .

فمثال على الدلالة الاولى قوله : (٧٦)

إني امرؤ لست اهدي الدر في طمع *** إلا لأربابه إن عز او هانا

حتى في غزله كقوله : (٧٧)

على أني اذا ذكرت سعاد *** أكاد إلى منازلها اطير

وفي مجالات اخري تكون دلالتها مثلا : (انا الانسان ذو الخلق) و أنا الكيذاوي الشاعر و انا الكيذاوي الخبير . كقوله : (٧٨).

أيها السائل سلني إنني *** لكفيل بمقال الصدق لك

وقس على ذلك فيما لا استطيع حصره.

وفي الدلالة التبعية الثنائية : جاء مثل قوله : (٧٩)

فـــأنت لازلت بـــالمعـــروف تكـــرمني *** وهـــا أنـــا لم أزل بـــالمـــدح مـداحا

وقوله : (٨٠)

إنـــي لكـــم يا آل نبهـــان شاعـر *** مـــدائحـــه فيكـــم تغـــور وتنجـد

أبـــوك حبان بالمـــواهب مثـــل مـا *** نظمت لـــه المـــدح الذي ليـس ينفـد

أما الفرع الثالث : فيتمثل في عبارة أنت الوحيد ، وهي صيغة قصر غير اصطلاحية عند البلاغيين ، وكانت خاصة بمحوره المدحي ودلالتها قصر الصفات الحميدة على الممدوح وتفرده بها .

ولاحظنا أنه كان يلحق ـ أحيانا ـ بهذه العبارة ألفاظا أشبه بالقيد ليخصص الوحدانية المراد إبرازها . وكان هذا التركيب يأتي بين ابيات المديح تارة وخاتمة للقصيدة تارة أخرى.

ولاحظناه يأتي بألفاظ تحمل معنى هذا التركيب ، دون مبناه الحرفي كما في قوله : (٨١)

مليـــك تفرد بالعليـــا وصـــار بهـــا *** فـــردا وليس لـــه فـــي ذاك مـــن ثان.

(٥)

البديع في شعر الكذاوي

الجناس ، وقد استخدمه الشاعر ليحقق عدة أمور كإحداث الجرس الموسيقى أو ليدل عنده إالى معنى خاص ، مثل تقابل التضاد : كداء ودواء او نقابل تكامل مثل : سنا ، وسناء ، وسما

وسماء . في مثل قوله :

ملك سما شرفا سمـــــــاء فخـــاره *** حتـــي سمت فوق السمـــــــاء سماؤه

وكان شغوفا في استخدام الجناب بأنواه ويعده بلاغة ، وقد صرح بذلك في مقدمة ديوانه حين قال : (٨٢)

"أما بعد ، فهذا ديوان الشاعر المقوال ، حسين بن شوال ، المعروف بأقاليم عُمان .. ويظهر بتجنيسه فصاحة سبحان" . وكان كثيرا مايقع الجناس بين المصراع والقافية ، وساعده في ذلك أن جميع قصائده مصرعة إلا واحدة (٨٣).

المقابلة : وكان يستخدمها للمقابلة بين شقين ليقوي كل منهما الآخر ، وكان ينوع في موقعها من القصيدة الواحدة ، وقد استخدمها في جميع محاوره الفكرية ـ وخاصة في المديح ، كقوله : (٨٤)

واهب الآلاف فـــي يــــوم النــــدى *** ســالب الأعمـــار فـــي يـــوم الجلـاد

مراعاة النظير : وقد استخدم الكيذاوي هذا النوع من البديع في محاوره من مديح أو نسيب وغيرهما .

وكان يأتي بهذا اللون مركبا بأكثر من وجه ، كقوله : (٨٥)

غـــيث وليث فــــي النوال وفي الوغـي *** لغــــداة جـــود أو غـــداة حـــروب

ففي الشطرة الاولى وجدنا كلمتي ليث وغيث ، ثم النوال الذي (يناسب الغيث) والوغى ليناسب الليث ، وفي الشطرة الثانية جاء بقوله : لغداة جود لتناسب الغيث ايضا ، وقوله غداة حروب ، لتناسب الليث كذلك وكان يحلو له أن يكرر مثل هذا اللون المركب ـ إن جاز لنا هذا التعبير في المديح خاصة.

تجاهل العارف : وهو إبداء السؤال ـ والسائل أعلم بالحقيقة ـ لنكته في التشبيه ، ليوهم أن

شدة التشبيه الواقع بين المتناسبين أحدثت عنده التباسا بين المشبه والمشبه به ، والغرض من استخدام هذا النمط هو المبالغة في المعنى الذي يرمي اليه ، سواء أكان مدحا أم قدحا ام تغظيما.

واستخدم الكيذاوي هذا اللون في نسيبه خاصة عن طريق التشبيهات وتراكم الصور ، غير أن صوره كانت مبعثرة ومتفرقة ولكن تجمعها فكرة واحدة . وكان موقعه ـ في الأغلب ـ في مطالع القصائد ـ سواء أكان المطلع بيتا أم مقطعا ولم تخل منه بعض الأبيات حشو القصائد (٨٦) ، (والشاهد هنا مطلع متتابع الأبيات) (٧٨).

أهــذا الــذي تحت النقاب هــو الخذ؟ *** أم الجلنــار الغض هــذا أم الورد؟

وهــذاك طلــع أم بثغـرك أشــرقت *** ثنـايـاك أم در تضمنــه العقـد ؟

وريقك مــاء المــزن أم مــزج قرقف *** يخـالطــه الكافـور ام ريقك الشهد؟

وذاك الــذي فــي الصدر قد تم حجمه *** هــو الحــق حـق العاج ام ذاك النهد؟

(٦)

التصوير في شعر الكيذاوي

الصورة ومصادرها : لقد كان الشاعر حريصا على تحقيق إصابة الهدف من أقرب طريق ، مع الإثارة .. فاستغل الصورة . ونحن نهتم بتحسس خصائص المثل العليا في التصوير عنده لنرى بعينه ونعي بفؤاده .. ويمكن حصر مصادر الصورة عنده في فرعين رئيسيين.

أ ـ المصادر التجريبية   ب ـ والمصادر الثقافية.

أ ـ فالفرع الأول : يكون قد جربه الشاعر بحكم معاصرته في بيئة معينة أو بما حل في ذهنه

بفضل الطبيعة ، لابفضل الثقافة . وكانت الطبيعة - بشقيها الساكن والمتحرك - مصدرا مهما لديه ، وفي عناصر متعددة ، ولكل عنصر دلالاته الخاصة.

فالسماء دلالة عى السمو في مثل قوله: (٨٩)

سمـــا فـــوق السمـــا حتى تســـــامـى *** وحتـــى جـــلّ عـــن التســامــــــي

وصورة الشمس - للمرأة دلالة على البهاء ، وللممدوح دلالة على العلو والشمول (وشمس كمثل الشمس في حسنها ، وشمس إذا أسفرت تلألأ وجهها) وفي الممدوح : (٩٠).

حكـــى الشمس في كبد السماء وضوؤها *** يحــــــل مـــن الدنيـــا بكل مكـــان

أما صورة البحر ، فكانت كصورة الغيث ، والسيل لاتساع الكرم والمنفعة والمضرة أيضا (٩١).

وكان يرصف هذه الصور أحيانا جملة واحدة في بيت واحد كقوله : (٩٢).

كالشمـــس أو كالبـــــر او كالبحر أو *** كـــالغيث أو كـــالليث أو كـــالقســـور

اما صورة الصحراء فكانت دالة على بعد الشقة وزيادة المشقة ، ويكنيها أحيانا بالمفازة أو المجهولة ، وكان يهول في تصوير المشقة بغية مضاعفة الجائزة.

اما صورة الرياض بورودها وأزهارها واغصانها فكانت في مجملها خاصة بمقاطع الجمال في المرآة كقوله مثلا (٩٣).

فـــالخـــد مثل الورد صافي اللون في *** صفحـــاتـــه مـــاء النضـــارة جـــــار

وكان يحاول كعادته أن يجمع هذه الصور في بيت كقوله (وهي من الصور المكرورة) (٩٤)

دجـــى مدلهـــم تحتـــه البدر بازغ *** علـــى غصن بان فـــوق دعص من النقـــــا

أما صوره من الطبيعة المتحركة فكان بعضها يتمثل في الإنسان ، وبعضها الآخر يتمثل في الراحة (دلالة على وعثاء السفر) ، والحمائم : ودلالتها إثارة الشجن والحنين ، والغزال في مجال الرشاقة ، حتى القرد والحمار للدلالة على انحطاط الرتبة .. كقوله : (٩٥).

فكـــم مسح صـــــوف كان لليث ملبســـا *** وكـــم خلقـة رقـراقـة ألبست قـــردا

إذا مــــا المهـــــر قصـــــر فـــي سبـــاق *** فليـــس يفـــوز بالسبـــق الحمـــار (٩٦)

ب ـ المصادر الثقافية : ونقصد بذلك الصور التي وفرتها له اطلاعاته ، وكانت في ثلاثة فروع رئيسية : ١ ـ الدين ، ٢ ـ الادب العربي ، ٣ ـ التاريخ . وهذه الفروع متداخلة نوعا في أشعاره.

١ ـ ففي الفرع الديني ، كان بعض أعلام القصص القرآني وأحداثه مصدرا لصوره ، وكان محور المديح الساحة الممهدة لاستقبال مثل هذه الصور . وكان يأتي ـ أحيانا بالتعبير القرآني الجاهز كقوله: (٩٧).

إذا مــــانشدت المـــــدح فيك كأنننــــــي *** مـــن الصدق اثنـــي فيك سبـــع مثانـــي

٢ ـ أما في الفراع الأدبي : فكانت صوره مستمدة من أعلام الشعراء ، مقرونة بما اشتهروا به من مواهب كقوله : بديهة الجعدي ، عشق غيلان ، وهيام المجنون ولفظ البحتري ، ومقالات بعض المشهورين كقوله :

تنسيـــــك قـــــــول زهيـــــــــر *** فــــي هـــــرم الجـــــواد الأصـــــيد

ومقــــــالـــــة ابــــن العبــــــــد *** فـــــي أطلال برقـــــة ثهمـــــــــد

واستمد من هذا الفرع صورة الرسم والخط ، وصورة علم العروض ، والنحو واللغة كقوله: (٩٩).

أهــــدي لمجدك در النظم متسعا *** بسيطــــه بــاسط فيــــه وكامــله

فيــه العــرائس مــن نحـو ومن لغة *** فعنـــد إنشـــاده سحبـان قائـله

٣ـ ومن الفرع التاريخي : استمد صورا من أعلامه المشهورين مثل كسرى وقيصر ، وسيف ابن ذي يزن وغيرهم ، وكانت اغلبها في المديح.

(٧)

التشبيه وادواته

لجأ الكيذاوي إلى التشبيه ، وقد أتى به على صوره المختلفة ، كالتشبيه المرسل والبليغ والضمني والمقلوب .. إلخ..

واستخدمه في جميع محاوره الفكرية ، كما استخدم أدوات التشبيه المعروفة وكان يستخدم هذه الأدوات مرة بشكل أفقي وأخرى بشكل رأسي مكرورة.

ولكن استخدامه الفعل "يحكى" يمثل لديه ظاهرة خاصة من كثرة استخدامه له دون باقي أدوات التشبيه ، اذ ردد هذا الفعل حوالي خمس واربعين مرة، ولايحمل في كل مرة إلا دلالة واحدة ، وهي : يشبه ، كقوله : (١٠٠).

يحــاكـي نهـار الـوصل غـرة وجهـه *** ويشبــه ليل الهجـر منــه نـوائبـه

وقادته هذه التشبيهات إلى الاستعارات المستمدة من البيئة ، كقوله : (١٠١) ركبت عيس المشكلات ، وسقيتهم كأس الردى.

وكذلك إلى التشخيص في مثل قوله : (١٠٢) يافؤادي ذب جوى وياكبدي نوبي ويانفس جدي

.. الخ.

ولجأ إلى التشبيه بدون أداة وهو عند البلاغيين أعلى درجة كقوله : (١٠٣)

إذا جـاء فـي يـوم النـدى فهـو حـاتم *** وإن كـرفـي يـوم الـوغي فهـو عنتر

محـاسنهـا تبـدي مـن الـورد نرجسـا *** ووردا وتفـاحـا وطلعـا ورمّـانا (١٠٤)

وكثيرا ماكان يلجأ الى مايسميه البلاغيون تشبيه الحقيقة وأوجز تعريف له : تشبيه الشيء بنفسه (١٠٥) وقد استخدام هذا النوع من التشبيه حتى أصبح عنده ظاهرة واستخدمه في مختلف محاوره الفكرية . ومن ذلك قوله (١٠٦)

تـريك إن سفـرت عـن وجههـا قمـرا *** تضـيء كالقمـر الـوضـاح وضـاحـا

فبت أقطـف مـن أثمـار بهجتها *** كالـورد وردا وكـالتفـاح تفـاحـا

(٨)

المـوسيقـى

البحور والقوافي والموسيقى الداخلية

أولا : البحور والقوافي :

استخدم الكيذاوي بعض البحور التقليدية التي اصلّها الخليل بن أحمد ، وهي مرتبة حسب ـ كثرة استخدامها في ديوانه : فكان للبحر الطويل ثلاث وعشرون قصيدة ، والكامل سبع وعشرون ، والبسيط خمس وعشرون ، والوافر إحدى عشرة ، ومجزوء الكامل إحدى عشرة ، ثم الرَّمل ، فالمتقارب

والهزج ، ومجزوء الوافر والمتدارك بأعداد أقل من العشر لكل منها ، وله موشحه ، وليس له شيء في بحر السريع أو الرجز.

أما القوافي ، فقد استخدم حروف المعجم إلا القوافي الحوش والقوافي (١٠٧) النفر التي ابتعد عنها ، فيما عدا الشين - من القوافي النفر - استخدمها رويا في قصيدة واحدة ، وكانت ثقيلة - والحروف التي لم يستخدمها رويا هي (ث - خ - ذ - ز - ص - ض - ط - ظ - غ) .

وكانت الدال أكثر قوافيه استخدامها ، فوقعت قافية لثلاث وعشرين قصيدة تليها اللام ونالت عشرين قصيدة فالنون تسع عشرة ، وقد التزم بشروط العروضيين في استخدام الهاء والكاف قافيتين حيث اتكا على الف التأسيس قبل الروي (١٠٨).

وكان أحيانا يقترب من لزوم مالايلزم ، حيث وجدناه يلتزم بحرفي الروي ، كما في القصيدة التي مطلعها : (١٠٩)

نفس المتيم في الصبابة شأنها *** وصل الأحبة والهوى أديانها

وجاءت قوافيه متحركة إلا في اثنتين:

دالية كانت في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم - وكافية في مديح ابي العرب.

ثانيا: الموسيقى الداخلية:

فكانت تتمثل بصورة جلية في التقطيع الداخلي في إطار موسيقى البيت وكان هذا يقع في مستويين أفقي - وهو الاكثر - وعمودي وهو الاقل وكان يقع التقطيع الأفقي ثنائيا أو ثلاثيا او رباعيا ، وفي مواضع مختلفة من البيت ، وقد استخدمه في جميع محاوره الفكرية كقوله : (١١٠)

ففي الحرب كرار ، وفي الملك سائس *** وفي المجد سباق وفي الجود مسرف

أما التقطيع العمودي : فيتمثل في كلمات تقع مطالع في أبيات متتالية ، وكان ينوع في الكلمات المقطعة عموديا ، فمرة تكون الكلمة : كم ، وأخرى : قالوا وثالثة كأن .. (١١١).

وقد بالغ في التقطيع ليصل به إلى مايسميه البلاغيون التسميط.

إلا ان للتسميط خصوصية وهي أن يجعل الشاعر كل بيت بسمطة أربعة أقسام ، ثلاثة منها على سجع واحد بخلاف قافية البيت وللكيذاوي قصيدة فيها ثمانية وعشرون بيتا من ها القبيل وكانت على النحو الآتي :

———— ب ———— *** ———— ب ———— أ

ومنها الأبيات الآتية : (١١٢)

بيضـــاء عـــالية ، تـــزهـــو بغـاليـــة *** بضـــاء طـــاليـة ، من عطرهـــا القـــان

فـــي فـــرعهـــا غسق ، في خدها فلق *** فـــي ثغـــرهـــا دلق ، تـــزهـــو بألحان

وسنـــاء مقلتهـــا ، حسنـاء وجنتهـــا *** حببـــا برشفتهـــا ، من كأس نشـــوان

وهكذا تسير هذه القصيدة التي إن دلت على شيء فإنها تدل على معجم الشاعر فيه وإن كانت ـ بهذا الرصف ـ تحمل دلالة الصنعة المتكلفة والتي حظيت بسوق رائجة في ذاك العصر ، وتمجها الأذن لرتابتها المكرورة.

ومن اشكال الموسيقى الداخليج عند الكيذاوي : التعديد : وهو عبارة عن إيقاع أسماء منفردة على سياق واحد ، فان روعي في ذلك ازدواج او مطابقة أو تجنيس أو مقابلة ، فذلك الغاية فس حسن النسق (١١٣) وكان غرض الكيذاوي منه ـ التفصيل ـ لزيادة التأثير في السامع ـ والحصر لاستيفاء المعنى ، وكان يأتي به افقيا في البيت الواحد غالبا ، مستخدما الواو في ربط المعدودات في مثل قوله

مادحا : (١١٤) .

يسمـــو به المجـــد والملك البيسيـط معـــا *** والبيض والسمــــر والأقلام والصحـــــــف

ومثال تعديده لاستيفاء المعنى ، قوله : (١١٥)

متــــوج حـــــاز رايـــــات الثنــــا وحـــوى *** أوائل المجــــد الاوســــاط والطــــــرفـا

ولكن لابد من إلاشارة إلى بعض العيوب التي وقع فـها الشـاعر ، وتتعلق بالقافية ، ومنها : الإقواء والإيطاء . فقد وقعا في أماكن متفرقة ، وكان موقعهما من النوع المعيب (١١٦) علما أن للشاعر مواقف جعلتنا نشهد بخصب معجمه اللغوي ، اللهم إلا أن يكون الشاعر قد ظن ايطاءه من النوع المستملح كقوله: (١١٧)

يامـــن تفـــرد بالفعل الجميـــــــل ومن *** أضحت مراتبـــه تعلـــو علـــى الجـاه

إنــــي لأشكـــــر مـــــاعاينته من ما *** أوليتنــــي منك مــــن مــــال ومـــــن جاه

****

الخـــــاتمـــــة

تبين لنا من هذا العرض أن الشاعر موسى بن الحسين بن شوال الملقب بالكيذاوي شاعر عماني مولدا وحياة ووفاء ، وعاصر النباهنة المتأخرين وبعض اليعاربة ، فمدحهم ونال جوائزهم . فهو مداح محترف لمهنة المديح . وليس في شعره تعصب لأي مذهب أو عقيدة ، ومابدا منه من مبالغات ممقوتة (تذكرنا بشاعر الفواطم) فهو من باب التهويل والمبالغة لاغير . وكان مهتما بما يصلح حاله . واستغل المناسبات - وهي محدودة - في مديح النبهانيين ، فكان المدح لديه القصيد والغاية . وكان له نهج خاص لم يحد عنه . فقد اشتملت القصيدة عنده على المحاور الآتية:

النسيب : وكان مقدمة لقصائده كلها بين يدي الممدوحين إلا في الرثاء، وقصيدة واحدة في الفخر قالها على لسان الفلاح بن المحسن.

الانتقال من الغزل إلى المديح ، وتمثل في عناصر مختلفة.

المديح : وهو المحطة الأخيرة ليفرغ مافي جعبته على مسامع الممدوح.

وهو طويل النفس في قصائده . إذ وجدنا له قصيديدتين نافت كل منها عن الستين بيتا ، وست قصائد زادت كل منها عن خمسين . وتراوحت قصائده الباقية ما بين خمسة وعشرين إلى دون الخمسين بيتا ، وله اثنتا عشرة قصيدة دون الخمسة والعشرين بيتا .

وفي قصائده عامة أجرى المعاني مجرى العادة السائدة في القصيدة العربية التقليدية ، وكأنه تمثل نظرة قدامة بن جعفر الذي عد مخالفة العرف من عيوب المعاني.

ففي نسيبه خطا خطوات الغزليين الجاهليين والاسلاميين خاصة ، وبدا من النسيب في مقدمة قصيدته في مدح الرسول ، هوى قاتل وصبر زائل . وفي قصائد أخرى ، اتكأ على الوصف الحسي ، ولكنه وصف لايخدش الحياء وساد على نهج أصحاب المدرسة البدوية في الغالب في شرح وجده ، وحذا

حذو أصحاب المدرسة الحضرية في قصة اللقاء والوداع .. وكان اتجاهه محكوما بطبيعة المجتمع العماني المسلم المحافظ ، وأن دور الشاعر الفاعل في كل هذا تقريبا ، إذ لم يكن للمرأة دور لإظهار عواطفها إلا تلميحا بدا في ساعة الوداع.

وفي مديحه تقلب على الصور القديمة فيه ، وكان يضرب على حافر من سبقه ، وخص بالمديح الطبقة الحاكمة من نبهانيين ويعاربة ، فهو ينطبق عليه مالاحظه بعض المستشرقين على النابغة بأنه خلق في الادب العربي مايسمى بأدب الملوك او الشعر الارستقراطي ، لأنه يحيط الملوك وحدهم بالدعاية والرعاية وقد مدح كل من أمل عنده العطاء وشكر كل من توقع لديه الكرم . وكانت نعوته التي خلعها على ممدوحيه تتفق والبيئة العمانية المسلمة ، في ظروفها التي حكم عمان فيها ممدوحوه . وكان حريصا على النهج التقليدي في تجويد مطالعه ، ووسائل انتقاله ، وخواتيم قصائده.

كان عصر الشاعر : عصر الالحاح على طلب البديع واهم ماظهر لنا منه : الجناس بأنواعه والمقابلة ومراعاة النظير ، ومايسميه البلاغيون : تجاهل العارف ، وكان ينوع في مواضعها في قصائده ، وكثيرا ماكانت تقع موقعا حسنا لايبدو فيه أثر التكلف ، إلا إذا ألح - ليكثر - في طلبها ابتغاء إظهار مقدرته.

في مجال الصورة : فقد ظهرت لنا في فرعين : الأول من الطبيعة ، والثاني من الثقافة ، فصوره من الطبيعة كانت دلالتها موحية إيحاء مباشرا للعرف الذي يسود البيئة . وصوره في الثانية أظهرت لنا اتجاه ثقافته الأدبية خاصة في الشعراء الكثر الذين اقتبس من أقوالهم ، وأشار الى بعض قضاياهم ، في مناحيهم المختلفة.

وفي التشبيه استخدم ادواته المعروفة (في تشبيه البلاغة) ، واكثر من تشبيه الحقيقة في محاوره الفكرية المختلفة . فكانت محبوبته شمسا كالشمس وممدوحه بحرا كالبحر ، وشعره درا كالدر على حد قوله.

وكانت تشبيهاته تعتمد في صحتها على التناسب المنطقي ، ومدى دقة المطابقة العقلية والمادية بين أطرافه . وكان يكتفي بالنظرة المجملة التي تقدم فكرة سريعة سطحية عن الأشياء ، ويتقبل مايألفه الناس ، ونادرا مايتجاوز إلى النادر الذي لايعتاد . وغرضه من التشبيه لايعدو إثارة البهجة لجعل الأقل وضوحا اكثر وضوحا وظهورا مما هو عليه.

واستخدم البحور التقليدية ، وكانت حروف المعجم الذلل قوافي لقصائده وابتعد عن القوافي النفر والحوش ، وكثير من قوافيه كان يلازم ألفاظ البيت ، وهذا من خير القوافي عند النقاد . واقترب إلى مايسميه العروضيون : لزوم مالايلزم . وظهرت الموسيقى الداخلية في تقاطيع أبيات شعره هذا التقطيع الذي بلغ غايته في مسمطته اللامية.

وظهرت لنا جوانب واضحة من مظاهر الأسلوبية لديه ، مثل تحديد اسم الشخص المعني في القصيدة في محوري المديح والرثاء ، كما كان يلح على المبالغة والمفاضلة (وهي من أعلى مؤهلاته كشاعر مداح) . وكان يلجأ الى التعديد ورصف الصفات ، وبدا عنده تكرير غير مفيد ، مرده الى سرعة الخاطر وتزاحم الأفكار والألفاظ على المعنى الواحد.

أما لغته فكانت خاضعة للدلالة المعجمية ، متناسقة مع الغرض الذي قيلت فيه فكانت جزلة في المديح ، عذبة رقيقة في النسيب ، غريبة ـ أحيانا ـ فيما يتعلق بالصحراء والراحة مع اعترافنا أنه كان يبيح لنفسه الخروج عن قواعد اللغة أحيانا.

وفي معجمه الشعري : دأب على استخدام كلمات وعبارات مكرورة مثل لفظة كم و املاك بدلا من ملوك والضمير انا ... الخ..

اما من ناحية الاصالة والتجديد : فمع اعترافنا بمواهب الشاعر الفنية ، فلم تكن عنده القدرة العالية على اختراع المعاني وتوليدها والنفاذ إلى أغوارها . فلم تتح له ثقافته في بيئته آنذاك الاتصال

بالمصادر التي تمده بقيم جديدة ، فالموضوع واحد يحوم حوله ، ويعرضه عرضا يكاد يكون واحدا .

وتستطيع ان تقرأ بعض قصائده المدحية فتستغنى بها عن المائة والسبع والأربعين قصيدة مديح في سائر الديوان . الا أن معانيه جاءت معبرة عن ثقافته ، ومواهبه الفنية ، ومرغوبة بل مطلوبة في مجتمعه، وسبكها في أسلوب يراعي نوق ذاك المجتمع الذي خبر خصائصه ، فأجاد في حدود ذلك . ولم نكن نتوقع منه الخروج عن المعاني التي طرقها ، أو الأسلوب الذي سلكه ، لأنه لو فعل هذا لما انتشر شعره الذي ضاعت رائحته ، ولما تقبله الناس بقبول حسن ، والذي من أجله نسبوه إلى شجرة الكيذا ذات الريح الطيبة المعروفة في عمان ، فنسوا اسمه الحقيقي موسى بن الحسين بن شوال - أو كادوا - واطلقوا عليه لقب **الكيذاوي**.



الهـــــوامـــــش

١ – الديوان ، ص ٩٤ – وهي القصيدة الوحيدة فيه ، ومكونة من ٤١ بيتا

٢ – الديوان ، ص ٦ ـ وانظر ص ١٠.

٣ – الديوان ، ص ٢٤ ـ وانظر كذلك الصفحات : ١٣٨ ، ٢٤٧ مثلا ، وكان يسترسل احيانا فينشيء مايزيد عن شعرين بيتا في القصيدة الواحدة.

٤ – الديوان ، ص ٢٢ . وانظر الصفحات : ٥ ، ٦ ، ٢٧ ، ١٥٢ ، ٢٩٧.

٥ – الديوان ، ص ١٥٥

٦ – الديوان ، ص ٢٤٠

٧ – الديوان ، ص ٤١ ـ انظر الصفحات : ٢١ ، ٤٠ ، ١١٠، ١١٣، ١٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩، مثلا

٨ – الديوان ، ص ٢٢٢ ، وانظر ص ٩٩

٩ – الديوان ، ص ١٤ ، وانظر الصفحات : ١٠ ، ١١، ١٢ ، ١٤، ١٦ ، ٨٦، ٩٩، ١٤٤.

١٠ – الديوان ، ص ١٤٥

١١ – الديوان ص ١١٧ ، وانظر ص ١١٨

١٢ – الديوان ، ص ٣٥ ، وانظر ص ٢٨٨

١٣ – الديوان ، ص ٥٨ ، وانظر ص ، ١٤٥ ، وانظر في عدل الممدوح الصفحات ١٠، ٣٦ ، ٥٧ ، ١٤٨

١٤ – الديوان ، ص ١٩

١٥ – الديوان ، ص ٢٣٩

١٦ – الديوان ، ص ٣٠٧

١٧ – الديوان ، ص ٣٤

١٨ – الديوان ، ص ٨٦ ـ وانظر عتابا آخر في ص ١٠٦

١٩ – الديوان ، ص ١٢٣ ومابعدها واستغرق وصفه ثلاثين بيتا .

٢٠ – الديوان ، ص ٢٨٤ ـ والقصيدة في مديح الفلاح بن محسن ، وكان آل عمير يقيمون في سمايل (عن كتاب تاريخ عمان ص ٩٥)

٢١ – بلغ عدد مطالع قصائد النسيب ومايتعلق به حوالي ١٤٥ مطلعا .

٢٢ – انظر في تجويد المطالع ـ والتي نقلنا عنها العبارات ـ الكتب التالية: العمدة ٢٠٩/١ ، والصناعيتين ٤٣١ ، والمثل السائر ٢٣٦/٢ .

٢٣ – بلغ عدد المطالع الت جاءت بصيغة الأمر ٣٩ مطلعا ومابدأه بالاستفهام ٢٥ مطلعا ، ومايطلق عليه البلاغيون تجاهل العارف وله مطالع بدأها بـ ألا الاستفتاحية اما المطالع الخبرية فكان منها ٣٥ مطلعا بالفعل الماضي ، ١٨ مطلعا بالجملة الاسمية ، وثلاثة مطالع بالجار والمجرور.

٢٤ – العمدة ٢٣١/١ والبيت للمتنبي.

٢٥ – الديوان ، ص ١١٧ ، وهذا هو المطلع الخمري الوحيد في ديوانه . وقد ذكر الخرة في ثلاثة مواضع أخرى بين ثنايا القصيدة في الصفحات ٢٤ . ٥٢ . ٥٣ وكان ذكرا عابرا في بيتين أو ثلاثة في المرة الواحدة

٢٦ – الشعر والشعراء ١٠١/١

٢٧ - الديوان ، ص ٢٢٣ ، وله نظائر في ص : ٥٣ ، ١٠٥ ، ١٤٠ ، ٣٢٢

٢٨ - الديوان ، ص ١٠٧

٢٩ - الديوان ، ص ١٩٦ وانظر من هذا النمط الصفحات : ٦، ٦٤، ١٣٤ ، ٢٥٦

٣٠ - الديوان ، ص ٢٥

٣١ - الديوان ، ص ٨ وانظر في خواتيم القصائد : البديع في نقد الشعر ٢٨٧ والصناعتين ص ٤٤٣

٣٢ - وهي من الخوايم التي يراها مناسبة ، وسبب كثرة مثل هذا الخوايم يعود للكم الكبير من الممدوحين عنده.

٣٣ - الديوان ، ص ٦٠ وله ثماني خواتيم من هذا النهج.

٣٤ - وقصائد الرثاء في الصفحات : ٥١ ، ١١٥، ١٧٣، ١٧٥، ٢٤.

٣٥ - الديوان ، ص ٣٠٣

٣٦ - الديوان ، ص ٢٤٠ ، ولايوجد له رثاء في اثنين غيرهما .

٣٧ - الديوان ، ص ١٢٨ ، وكان يحاول أن يجمع - في مديح عرار - بين الاسم والكنية.

٣٨ - الديوان ، ص ١٦٠

٣٩ - الديوان ، ص ٢٣ ، وانظر في بلهلا الصفحات : ١٢٠ ، ٢٣، ٢٨٥ ، ٣٢٨. وفي عُمان الصفحات : ٢٩ ، ٦٠ ، ٢٨٩، ٣١٧، ٢٧٢، وفي قلهات الصفحات : ١٤٥. ٢٨٥.

٤٠ - الديوان ، ص ١١٨ ، وانظر على سبيل المثال) : ٨٩، ٦٠، ٢٨٩، ٣١٧، ٢٧٢

٤١ - انظر في سمد ص ١٢٣ ، وفي صحار ١٢٤ ، وفي ظفار ص ١٥٣، والرستاق ص ١٢٤ ، ١٨٤

، ١٨٥

٤٢ – الديوان ، ص ١٨٤ ، وانظر ص ١٣٥ على سبيل المثال.

٤٣ – الديوان ، ص ١٢٥

٤٤ – الديوان ، ص ٢٩٨ ـ وفي تقبيل التراب ص ١٠٦ ، ٣٢٤ . وفي السجود للممدوح ، ص ٢٩٨

٤٥ – الديوان ، ص ١٣٢ ، وانظر ص ١٧ ، ٢٧٠

٤٦ – الديوان ، ص ١٧

٤٧ – الديوان ، ٢٣٩ ، وانظر ص ٢٠٩ ، ٢١٦.

٤٨ – الديوان ، ص ٣٠٧.

٤٩ – الديوان ، ص ٢٨٤ ، وفي مبالغته في الغزل ، انظر ص ١١١ .

٥٠ – الديوان ، ص ١٩٥

٥١ – الديوان ، ص ١٣١

٥٢ – الديوان ، ص ٣١٧

٥٣ – الديوان ، ص ٨٠

٥٤ – الشاهد الأول ص ٣٦ والثاني ٢٧٢ ، وبنفس الطريقة كرر بيتا آخر في قصيدتين ص ١٢٨ ، ١٩٦.

٥٥ – الديوان ص ١٥٦

٥٦ – الديوان ، ص ٢٢٣

٥٧ – الديوان ، ص ٣١٨ ، والأبيات غير متتابعة ، وانظر الصفحات : ٢٦٥ ، ٢٢٩ ، ٢٧٥ ، ٣١٤ ، وكذلك القصيدة ص ٢٠٤ حيث ورد ثمانية عشر بيتا (متفرقة) تكرر حرف السين في كل بيت.

٥٨ – الديوان ، ص ٢٠٨ ، وانظر ص ١٦٠.

٥٩ – الديوان ، ص ٣١٨ ، وانظر ص ٢٣ ، ٢٦٤ ، حيث تكررت الهاء في كل بيت من الأبيات الخمسة عشر الاولى المتتابعة.

٦٠ – الديوان ، ص ٥٩ وانظر في تكرار حرف العين الصفحات : ٣٧ ، ٥٩

٦١ – الديوان ، ص ٢١٧ ، وانظر ص ٣٦ ، ٤٠ وفي تكرير الشين ص ٢٠٤ ، ٣١٨.

٦٢ – الديوان ، ص ١٠٨ ، والشاهد كلمة القماحد ، ومفردها قمحد ، وهي عظمة بارزة في مؤخرة الرأس فوق القفا . وانظر ص ٨٩

٦٣ – الديوان ، ص ٨٢ ، والخدلجة : الممتلئة الذراعين والساقين.

٦٤ – الديوان ، ص ١٨٩ ، والشاهد الكلمات : عرندس وجرف ، وتعجرف ، واللغام والكرسف . وانظر كلمات أخرى في الصفحات : ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦، ٥٤ ، ٦٠ ، ٧٥، ٧٦، ٨٧.

٦٥ – التراث والمعاصرة ، ص ١٠٥

٦٦ – المصدر السابق ، ص ١٠٩.

٦٧ – الديوان ، ص ٣٣ والأبيات من قصيدة واحدة . وله قصائد أخرى سيطر عليها مثل هذا التكرار . انظر مثلا ص ٥٩ وفيها حوالي ٢٥ بيتا من أصل ٣٧ على هذا النمط وفي ص ٢٦٤ عشرة أبيات من هذا القبيل.

٦٨ – الديوان ، ص ٣٠٤

٦٩ – ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١٩٤

٧٠ – الديوان ، ١٧٥ ، وكرر كم خمس مرات

٧١ – الديوان ، ص ٢٥ . وانظر ص ١٣١ ، ١٤٥ ، حيث ضمها إلى صيغة التفضيل .

٧٢ – الديوان ، ص ١٠٥ ، وفي استخدام لفظه الزاكي مطلقة انظر الصفحات ٩٠ ، ١٣٢ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ٢٧٩.

٧٣ – الديوان ، في الصفحات ٨ر٣، ٢٦٣، ١٨٢ والبيت ص ٢٩٥

٧٤ – الديوان ، ص ٩٥ ، ونعت حمير بذات الصفة ص ٢٦٣.

٧٥ – التراث والمعاصرة ، ص ١٠٦ ومابعدها.

٧٦ – الديوان ، ص ٣١٥ وللدكتور / أحمد طاهر حسنين بحث جيد في الـ أنا في شعر حافظ نشرته مجلة فصول ، المجلد ٣ سنة ١٩٨٣م.

٧٧ – الديوان ، ص ١٢١.

٧٨ – الديوان ، ص ٢٠٤ ، والعبارات السابقة وأمثالها وردت في الصفحات : ٤٣، ١١٢، ١٤٦، ١٥٠، ٣٢٣.

٧٩ – الديوان ، ص ٦٠

٨٠ – الديوان ، ص ٨٧، وانمظر ص ٨

٨١ – الديوان ، ص ٢٨٤ ، وانظر الصفحات : ٧٤، ١٠٤ ، ١٠٩، ١٤٩، ٢٨٤، ٣٠٥، ٣١٣، ٣١٨،

.٣٢٠

٨٢ – مقدمة الديوان ص ٣

٨٣ – وهي قصيدته الأولى في رثاء ولده سعيد ص ٥١ . وله مقطوعتان أخريان - وليستا قصيدتين - غير مصرعتين في آخر ديوانه ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، وله حوالي ثلاثين قصيدة كان المصراع مجانسا للقافية.

٨٤ – الديوان ، ص ٧٦

٨٥ – الديوان ، ص ٣٦ ، وانظر كذلك الصفحات : ٩٦، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٨٧.

٨٦ – انظر تجاهل العارف (حشو القصائد) في الصفحات الآتية : ٣٨ ، ١١١، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ٢٠٠

٨٧ – الديوان ، ص ٧٨ والابيات متتابعة ، وله حوالي عشرين مطلعا من هذا القبيل وكان يأتي بهذه الصفة حشو القصائد أيضا.

٨٨ – انظر في تساؤلاته وإجاباته عنها في الصفحات الآتية : ٦١، ١٠٥، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ٢٧١ . وفي مناجاة الحمام انظر الصفحات : ٢٩٤، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٩، ٣٢٩.

٨٩ – الديوان ، ص ٢٧٥ ، وانظر الصفحات : ٢٦٣ ، ٣٠٧ ، ٣٢٠ وهي صور خص بها الممدوح.

٩٠ – الديوان ، ٢٨٧

٩١ – انظر الصفحات : ١٨ ، ١٦٩ ، ٢١٦ ، ٢٧٩.

٩٢ – الديوان ، ص ١٤٣

٩٣ – الديوان ، ص ١٣٤، ٢٤٩

٩٤ – الديوان ، ص ١٩٤ ، وانظر ص ٢٧

٩٥ – الديوان ، ص ٧٠ ـ وهي في مجال التزمير من الناس.

٩٦ – الديوان ، ص ١٢٧ ـ ودلالتها واضحة في اليأس من البخلاء.

٩٧ – الديوان ، ص ٢٨٧ ، وانظر ص ٧٤ ، ١٨٠

٩٨ – الديوان ، ص ٦٧ ، وانظر الصفحات : ١٠٥ ـ ١٤٦

٩٩ – الديوان ، ص ٢٢٧

١٠٠ – الديوان ، ص ٢٧ ، وانظر الصفحات : ١٤ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ٥٥، ٦٩ ، ٨٣، ٩٢ ، ١١١ ، ١٣٠ ، ١٤٦ .. وصفحات أخرى كثيرة.

١٠١ – الديوان ، ص ٣٤ ، ١٧ على التوالي. انظر الصفحات ١٢، ١٨، ٢٠، ٢٢، ٢٧، ٢٩.

١٠٢ – الديوان ، ص ١٨٥ ، ١١٥ على التوالي.

١٠٣ – الديوان ، ص ١٤١ .

١٠٤ – الديوان ، ص ٣٠٦

١٠٥ – النكت في إعجاز القرآن للرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) وانظر رأي أبي هلال العسكري في المصدر نفسه ص ١٧١.

١٠٦– الديوان ، ص ٥٩ وقد احصيت له حوالي خمسة وعشرين تشبيها من هذا النوع ، ومن ذلك في النسيب مثلا الصفحات : ٢٥٩ ، ١٥٦ ، ١٦٦ ، ٢٥٧ ..إلخ وفي المديح ص ٢٤٤.

١٠٧– عن المرشد إلى فهم أشعار العرب ص ٦٢ القوافي الحوش ، هي : ث . خ . ذ . ش . ظ . غ .

والقوافي النفر (المرجع السابق ص ٥٩) هي : ز . ص . ض . ط والهاء الاصلية والواو.

١٠٨ – انظر موسيقى الشعر ص ٣٠٢ وانظر الديوان في الصفحات : ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٢٦ ، وقل كذلك في اللامية المتبوعة بالهاء ص ٢٢٦ ، فقد أتى بألف التأسيس قبل الحرف الذي سبق اللام . وجاءت الهاء ضميرا في أبيات القصيدة.

١٠٩ – الديوان ، ص ٢٩٩ ، والقصيداتان ذات الروي الساكن في ص ٩٤ ، ص ٢٠٤.

١١٠ – الديوان ، ص ١٨٠ ، وانظر الصفحات : ٢١٤ ، ٢٣٨ ، ٢١٣، حيث يوجد قصيدة كاملة خاضعة لهذا التقطيع.

١١١ – انظر الديوان ص ٣٨، ٦١، ٦٢، ٧١.

١١٢ – الديوان ، ص ٣٣٩ وانظر ص ٢١٣ حيث أتى التسميط حشو القصيدة .

١١٣ – خزانة الأدب ٢/ ٣٩٠ للحموي.

١١٤ – الديوان ، ص ١٨٢ ، وانظر ص ٥٤ ، ١٧٨.

١١٥ – الديوان ، ص ١٧٨ ، وانظر الصفحات : ٢١٥ ، ٢١٦، ٢٨١، ٢٨١ ، ٣٠٦.

١١٦ – الديوان ، ص ٧٨، وانظر في قصائد مرفوعة الروي وأدخل فيها رويا مكسورا : الصفحات : ١٨٩ ، ٢٢٣، ٢٩١ ، وفي الصفحات : ٧، ١٥٦ ، ٢٢٧، جاء الروي مرفوعا وادخل فيه ماحقه الرفع او النصب . انظر الصفحات (مثلا) : ٧٧ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٣٨ ، ٢٨١ ـ وفي مواقع الايطاء انظر الصفحات ٨٧ ، ١٥٦ ، ١٩٩ ، ٢٣٨.

١١٧ – الديوان ، ص ٣١٨ (والبيتان متتابعان).

****

المصادر والمراجع

- تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، تأليف سرحان بن سعيد الأزكوي العماني - تحقيق عبد المجيد القيسي - نشر وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان.

- تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان - جـ ١ - نور الدين عبد الله بن حميد السالمي مكتبة الاستقامة.

- التراث والمعاصرة : نماذج ودراسات نقدية . منشورة في مجلة فصول ، د. احمد طاهر حسنين.

- خزانة الأدب وعاية الارب - ابن حجة الحموي - دار ومكتبة الهلال بيروت . ط ١ ، سنة ١٩٨٧م.

- خصائص الأسلوب في الشوقيات . محمد الطرابلسي . ومنشورات الجامعة التونسية ١٩٨١ .

- ديوان سليمان بن سليمان النبهاني ، تحقيق سليمان خلفان الخروصي ، نشر وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان ، ط ٢ سنة ١٩٨٤م.

- الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان . حميد بن محمد بن رزيق . تحقيق عبد المنعم عامر . نشر وزارة التراث القومي بسلطنة عمان سنة ١٩٧٨م.

- الشعر العماني - مقوماته واتجاهاته وخصائصه - د. علي عبد الخالق علي . دار المعارف سنة ١٩٨٤م.

- شقائق النعمان على سموط الجمان في أسماء شعراء عمان . جـ ١ محمد بن راشد بن عزيز الخصيبي - طبع وزارة التراث القومي والثقافة - سلطنة عمان سنة ١٩٨٤م.

- الصورة الشعرية في الكتابة الفنية - الأصول والفروع . د. صبحي البستاني ، دار الفكر اللبناني جـ ١ سنة ١٩٨٦ .

- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب . د جابر عصفور ، دار التنوير . ط ٢ بيروت

سنة ١٩٨٣م.

- العمدة في محاسن الشعر - لابن رشيق . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الجيل ، ط ٤ ، سنة ١٩٧٢م.

- لسان العرب لابن منظور.

- المثل السائر - لابن الاثير.

- المديح في الادب العربي - سلسلة دار المعارف د. سامي الدهان - ط ٢ ، سنة ١٩٦٨.

- المرشد إلى فهم اشعار العرب وصناعاتها د. عبد الله الجزء الاول - دار الفكر بيروت.

- معجم المؤلفين : عمر كحالة.

- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية . إدارة إحياء التراث الاسلامي بقطر .

- النكت في إعجاز القرآن - للرماني - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ط ٣. دار المعارف سنة ١٩٧٦.

- موسيقى الشعر - إبراهيم أنيس . دار القلم بيروت . سنة ١٩٧٢ .

«الفهرست»

الصــفحة

(١)

المحاور الفكرية

(٢)

المحاور الفنية



التأثير البرتغالي على التجارة في الخليج العربي خلال القــرن السادس عشــر

الدكتور / خالد آل خليفـــــة

ملخـــــــــص

إن قضية التأثير البرتغالي على الشرق لا تزال تبحث وتناقش ولايزال المؤرخون والباحثون الغربيون والشرقيون ينقسمون حول مسألة التأثير الى مدرستين ، الاولى تمجد صنع البرتغاليون في اكتشاف رأس الرجاء الصالح وإقامة امبراطورية برتغالية امتدت من الخليج العربي وشرقي افريقيا غربا الى بحر الصين شرقا واحتكارهم الفعال لتجارة اسيا الداخلية ، اما الثانية فإنها تعتبر الانجاز الوحيد للبرتغاليين هو اكتشافهم لرأس الرجاء الصالح ، وان البرتغاليين فشلوا في التأثير على الشرق كفشلهم في احتكار التجارة الاسيوية بشتى طرقها البحرية . في هذا الورقة نتطرق الى ابراز التأثير البرتغالي لا على المحيط الهندي بأكمله بل على الخليج العربي كجزء من اهم اجزاءه ووحدة من اهم وحداته الاقتصادية ، ونثبت من خلالها ان التواجد البرتغالي في فترة القرن السادس عشر كان له تأثير كبير على اقتصاد منطقة الخليج العربي.

ففشل البرتغاليون في احتكار تجارة التوابل بين الشرق والغرب واقامة امبراطورية بحرية في المحيط الهندي لايعني انهم فشلوا كذلك في احكام قبضتهم على الخليج ، فتوافر السلع الشرقية وخاصة التوابل في موانيء البحر المتوسط وعدم تأثر تجارة البندقية وحلب والاسكندرية لايعني بأن مياه الخليج العربي ساهمت في تدفق هذه السلع الى البحر المتوسط . ان الادلة التي نستند عليها

لاثبات ان الخليج اعفى من تجارة الشرق والغرب كالتالي : ان الطرق البرية القديمة استعادت اهميتها ، فعلى سبيل المثال ان خط الهند ـ افغانستان ـ إيران ـ سوريا استعاد اهميته بعد تعطل لقرون ، فمدن كقندهار حيث ازدهرت في القرن السادس عشر بعد ان كانت خراب . ان جميع الاحصائيات التجارية المتوفرة لموانيء البحر المتوسط تثبت ان تسرب السلع الشرقية عن طريق البحر الاحمر قد ساهم مباشرة في تزويد موانيء البحر المتوسط بالسلع الشرقية . فهذه الادلة وغيرها تثبت ان البرتغاليين لم يحكموا قبضتهم على منطقة بحر العرب ولكنهم استطاعوا ان يسيطروا سيطرة تامة على الملاحة والتجارة في الخليج العربي.

اضافة الى ذلك فان القواد البرتغاليون في منطقة الخليج العربي اشتغلوا بالتجارة واحتكروا تجارة السلع المربحة كاللؤلؤ والخيول والتوابل ، كما فرض البرتغاليون نظام الرخص الملاحية (Cartaz) على السفن العربية ومنعوها من التجارة في السلع المحتكرة وتعمدوا احراق هذه السفن اذا ماالكتشف انها لاتحمل رخص ملاحية فدمروا بذلك الملاحة والتجارة العربية.

لقد ساهم العرب منذ اقدم العصور مساهمة بارزة في رسم الخطوط التجارية في المحيط الهندي فالاكتشافات الاثرية من اختام ومواد اخرى تدل على ان الاتصال التجاري البحري بالهند كان معروفا في الالف الثالث قبل الميلاد . وان حركة الاتصال هذه كانت مستمرة عامرة ، كما ان بعض المواضع الاثرية في الخليج كدلمن (البحرين) وماجان (عمان) كانت من مراسي السفن الشهيرة في تلك الفترة وتقصد هذه الموانيء السفن القادمة من العراق في طريقها الى الهند وبالعكس . (١) محملة بالمعادن والاخشاب والعطور وغيرها من المواد النفسية (٢).

وفي الفترة الاسلامية يمكننا حصر اهم مظاهر التجارة الخارجية العربية في المحيط الهندي في مظهرين اثنين : الاول ، توسع الملاحة العربية والابحار مباشرة الى الصين ، والثاني بروز مراكز تجارية ذات صيت عالمي كسيراف والابله وبعدهما هرمز.

اولا : توسيع الملاحة العربية:

اذا كان التاريخ القديم قد اوضح النشاط الملاحي العربي في شمال غرب المحيط الهندي ، فإن تاريخ الحقبة الاسلامية يثبت استخدام العرب لاطول الطرق البحرية في العالم في تلك الفترة . فالعرب اول من ابحر على الطريق البحري الممتد من الخليج حتي كانتون في الصين، ويعتبر هذا الطريق اول طريق بحري استعمله الانسان بشكل منتظم قبل التوسع الاوروبي والكشوف الجغرافية . ففي العهد العباسي (١٣٢هـ - ٤١٦) نشطت العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين الدولتين الاسلامية والصينية ، وزاد من ذلك النشاط اهتمام الحكومة العباسية - حيث تذكر المصادر الصينية تكثيف السفارات العباسية الى الصين ، تلك السفارات التي حملت الهدايا الثمينة الى امبراطور الصين والتي كان من ضمنها ثلاثون جوادا عربيا . وبهذا استطاعت الدولة العباسية توثيق العلاقات مع الصين ، فاصبحت العلاقة شبه متواصلة بين الطرفين ، تربطها روابط شعبية بالمعاهدات التجارية التي تتضمن مايشبه الامتيازات للتجار العرب كما استطاعت الدولة العباسية حماية الطرق التجارية المؤدية الى الشرق الاقصى (٣).

من الواضح هنا ان التاريخ الملاحي للعرب في الفترة الاسلامية تميز باتساع الخطوط البحرية المؤدية الى الصين ، ولكن ذلك لم يحدث الا بعد ان استطاع العرب السيطرة على منطقة بحر العرب والسواحل الغربية للهند . فقد تمرس العرب على الجزء الادنى من المحيط للوطن العربي ، كما ساعدت الفتوحات الاسلامية (٩٢هـ - ٤١٦هـ) - التي خلفت حكاما عربا في بلاد السند والهند - الملاحة العربية في تلك المناطق ودعمت التجارة العربية فيها (٤) . هذه الرفاهية الملاحية جعلت البحرية العربية تبحث عن موانيء جديدة فكانت النتيجة المغامرة والابحار الى الصين مباشرة وقبل الانتقال الى المظهر الثاني لابد من التمييز بين النشاط الملاحي لعرب الخليج وعرب البحر الاحمر لتبيين اهمية الخليج العربي التجارية في الفترة الاسلامية.

كانت منطقة الخليج العربي وعلى رأسها العراق منطقة مضطربة منذ اواخر عصر الراشدين وحتى نهاية العصر الاموي . فقد اشتعلت حركات وثورات مناهضة للامويين في جميع اقاليم الخليج العربي، ففي العراق اندلعت حركات موالية للعلويين واخرى موالية للخوارج وثالثة زبيرية ورابعة اقليمية عراقية ، وفي البحرين (الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية) نشطت حركة الخوارج وسرعان مادب الشقاق بين صفوف خوارج البحرين مما زاد الاوضاع سوءا ، وفي عمان بدأت الدعوة الاباضية بالنمو ، وفي الاحواز انتشرت حركات الخوارج وحركات قبلية اخرى . هذه الحركات والثورات المنتشرة حول مياه الخليج جعلت الدولة الاموية تنظر الى الخليج كمنطقة معادية للسلطة المركزية مما جعلها تنتهج حيالها سياسة الردع والتي منها حصر السلطة في الخليج في يد والي البصرة الذي بدوره عين ولاه اشداء ومخلصين للدولة الاموية ، فبدت شدة الولاه على اقاليم الخليج وقسوتهم من اهم مظاهر تاريخ هذه المنطقة في العصر الاموي . كما ان الدولة الاموية انتهجت سياسة الفتوح الاسلامية في الشرق لتشغل سكان المنطقة في هذه الفتوح ، وبهذا استطاعت الدولة الاموية كسب بدء الفتوح الاسلامية في الهند لرصيدها (٥) ورغم ان هذه الفتوح افاد التجارة والملاحة العربية فيما بعد الا ان الخليج العربي انذاك عاش جوا من التوتر بسبب الحملات العسكرية والحروب العربية الهندية . لذا انتقل مركز الصدارة والنشاط البحري في شمال غرب المحيط الهندي الى عرب البحر الاحمر ، فأستعادت موانيء البحر الاحمر خاصة عدن وجدة ازدهارها بعد ركود تجاري لفترة طويلة من الزمن (٦).

أما العباسيون فقد اختلفت رؤيتهم للخليج العربي تماما عن منهج الامويين . وكما ذكرنا سابقا ان العصر العباسي تميز بتنشيط البحرية العربية في المحيط وخاصة العلاقات التجارية مع الصين . ومن اهم العوامل التي ساعدت العباسيين على تبني الرؤية الجديدة هو انتقال مركز السلطة (العاصمة) الى العراق ، ولم يحدث ذلك صدفة ، وانما تتبين الحقيقة من قول المنصور عن اختياره لبغداد عاصمة لدولته" هذه دجلة ، ليس بيننا وبين الصين شيء" (٧).

وفي الفترة الممتدة بين سقوط الدولة العباسية (بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي) ووصول البرتغالين منطقة الخليج مع بداية القرن السادس عشر ، وبالرغم من الازمات السياسية التي واجهتها منطقة الخليج ، شهدت المنطقة نشأة مراكز تجارية هامة كقيس وهرمز التي لعبت دورا هاما في التجارة بين الشرق والغرب.

ثانيا : المراكز التجارية في الخليج :

في الفترة الممتدة بين ضعف وسقوط الدولة العباسية وحتي وصول البرتغاليون شهدت منطقة الخليج العربي بروز مراكز تجارية ذات صيت عالمي ، ومنها سيراف ثم قيس ، الابله ثم البصرة وهرمز وعمان والبحرين وغيرها . ان المقارنة في الاحوال الطبيعية بين هذه الموانيء توضح لنا حقائق رئيسية عن التركيب الاقتصادي لمنطقة الخليج العربي . ويمكننا فصل هذه المراكز لتكون ظاهرتين إقتصاديتين ، الاولى ظاهرة سيراف وهرمز والتي تعتبر ظاهرة غير طبيعية لعد توافر أساسيات الاحوال الطبيعية - الإقتصادية . اما الثانية فهي ظاهرة طبيعية لتوافر عوامل اساسية كثروات طبيعية ووقوعها كمنافذ لطرق تجارية هامة مما جعلها تتصف بكونها موانيء ، فالبصرة وعمان والبحرين تعتبر افضل الامثلة لذلك.

كانت سيراف هي المركز التجاري الرئيسي في منطقة الخليج في الفترة العباسية الثانية ، ويصفها المؤرخون العرب كأهم مدن العالم التجارية ومصرف التجارة العباسية مع الهند والصين وشرق افريقيا (٨). ويبدو ان السيرافيون اهم عنصر في نجاح وشهرة سيراف ، فيذكر المسعودي ان السيرافيون يقطعون بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة ويشدد ، بأن اكثر ملاحي المحيط الهندي من سيراف وعمان (٩). كما اسس جماعة من سيراف اكثر من مركز تجاري على الشاطيء الشرقي لافريقيا من بينها مقديشو وبرادة وكلوه (١٠) . ومما يعزز ذلك ان طبيعة سراف قاحلة وجرداء وخير وصف لذلك للحموي الذي يذكر انه ليس بها سوى الابنية ، ولا يوجد فيها مأكول

ومشروب ، الا مايحمل اليها من البلدان ، ولا بها زرع ولا ضرع.(١١).

اما هرمز فظروفها مشابهة لسيراف . انشئت هرمز مع بداية القرن الرابع عشر وفي خلال فترة وجيزة اصبحت مركزا تجاريا عالميا وحلقة اتصال تجاري بين الشرق والغرب حيث ملتقى السلع الشرقية بالاوروبية (١٢) ان وصف الرحالة الاوروبيون لهرمز ، الذي يعتبره بعض المؤرخين مبالغ يبرز عظمة هرمز ومكانتها التجارية قبيل وصول البرتغاليون المنطقة . فيذكر فارثيما (Varthema) الذي زارها في عام ١٥٠٢م انها جد جميلة .. وتكثر بها الابنية ... في بعض الاحيان يرسو في ميناءها اكثر من ثلاثمائة سفينة بأشكال مختلفة من العالم ، ويقيم بها بصفة دائمة حوالي اربعمائة تاجرا ووكيل من جنسيات مختلفة يتاجرون بسلع مختلفة كالحرير واللؤلؤ والاحجار الكريمة والتوابل (١٣).. وهناك الكثير من الرحالة الاوروبيون الذي اسهبوا في وصف جمال المدينة وابنيتها المتميزة وثراء اهلها الفاحش ومستوى معيشتهم المتقدم (١٤) ولعل المثل الايطالي السائر اذا كان العالم خاتما فإن هرمز جوهرته (١٥) يثبت مكانة هرمز التجارية في العالم . ولكن مايدعو للغرابة هو ان هرمز ، كسيراف ، جزيره جرداء خالية من الزراعة وارضها ملحية سبخة وتندر بها المياه ويصف احد الكراملة مناخها قائلا ان حرارتها ممزوجة برطوبة عالية ، وتخلو لياليها من نسمة ريح ، مما يجعل مناخها اشد مايمكن تحمله في بقاع العالم (١٦) وبلا شك ان هرمز لم تنتج شيئا يذكر في التبادل التجاري حالها حال سيراف ، وان معظم الرحالة الاوربيون يجزمون ان موقعها هو سر ازدهارها . الا ان الفرق بين سيراف وهرمز هو ان تجار وبحارى سيراف كانوا اكثر نشاطا في العلاقات الخارجية من اهالي هرمز ، فبينما توسع السيرافيون في بحر العرب والمحيط ركز الهرامزة نشاطهم على مياه الخليج العربي ، ولكن عنصر الفرد لم يخل من هرمز فقد نشأت على ايدي تجار هاجروا اليها من مراكزهم التجارية على الساحل الشرقي للخليج بسبب غارات التتار وبدو المنطقة الذين استطاعوا في فترة وجيزة انشاء هذا الميناء العظيم على الجزيرة المقابلة للساحل (١٧).

اما النوع الثاني من هذه المراكز فيختلف عن نوع سيراف وهرمز في كونه يتمتع بظروف طبيعية افضل ، فعلى سبيل المثال تتمتع البصرة بأنتاج زراعي جيد واهم هذه المنتوجات التمور ، ولكن اهم مايميز البصرة هو موقعها الاستراتيجي فتقع في آخر المطاف لسفن المحيط الهندي التي تنزل بضائعها لتنقل عبر الصحراء الى البحر المتوسط لذا تميزت البصرة بكونها ميناء بدلا من مركزا تجاريا او سوقا لتبادل السلع كهرمز وسيراف . بل وربما يتاجر البصراويون في سيراف وهرمز لينقلوا السلع الشرقية الى بغداد وحلب . اما البحرين فميزتها في لؤلؤها الناصع البياض ، ثم تحولت هذه الجزر الى مركز توزيع بضائع الى المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية . ولاشك ان لعمان دور مزدوج ، فتمتع عمان بوقوعها على مدخل الخليج لتشرف بذلك على بحر العرب مياه الخليج كما انها تتمتع بالطبيعة الخصبة اضافة الى ذلك ان العمانيون بحاره المحيط الهندي (كما يسميهم المسعودي) مما حول عمان الى سوق رائجة . ان هذه الظروف والاحوال الطبيعية التي تميزت بها هذه الموانيء جعلتها تتمتع باستمرارية دورها عبر العصور بعكس سيراف وهرمز . فالبصرة وعمان والبحرين تمتعت بهذا الدور في فترة العصور القديمة والاسلامية وقبل واثناء التواجد البرتغالي وبعده حتى القرن التاسع عشر ، الا انها لم تحصل على صيد هرمز العالمي الذي تحدث عنه البنادقة.

من خلال عرضنا للمراكز التجارية في الخليج وخاصة لظاهرة هرمز وسيراف يمكننا إستنتاج التالي اولا: ان للعنصر البشري دور هام في اهمية الخليج الاستراتيجية ، ومن خلال الملاحة والنشاط الملاحي للسكان استطاعت المنطقة ان تجذب الخط التجاري بين الشرق والغرب ، فالسيرافيون والعمانيون خرجوا الى المحيط وانشأوا كيانات سياسية في شرقي افريقيا ودعموا تجارتهم من الهند وجنوب شرق اسيا ، واستطاع الهرامزة ان يصنعوا من جزيرة قاحلة اجمل وانشط المدن التجارية في العالم . هذا ولايمكننا انكار تأثير الظروف السياسية المساعدة لذلك . ثانيا : ان اقتصاد المنطقة وازدهارها اعتمد اعتمادا اساسيا على التجارة . وان صادرات المنطقة لم تغط وارداتها في الميزان التجاري - فاللؤلؤ والتمور والحرير الايراني وبعض المصنوعات الخفيفة لم توف لقائمة السلع القادمة

من الهند والصين وجنوب شرق آسيا وشرقي افريقيا إلا ان عرب الخليج استطاعوا من خلال نشاطهم التجاري الخارجي ان يأتوا بالمعادن النفيسة وخاصة الذهب من شرقي افريقيا . ولاشك ان الدور الاهم هو دور تجار البحر المتوسط لتغطية الفرق وذلك عن طريق شراءهم للسلع الشرقية في موانيء الخليج.

نشاط البرتغاليون في الخليج العربي :

ان الفترة التي وصل فيها البرتغاليون الشرق بوجه عام - نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر - تعتبر من احرج الفترات للباحثين والمتخصصين في العلاقات بين الغرب والشرق (وخاصة المحيط الهندي) فبينما كانت دول وممالك الشرق تعاني من ركود عام في مراكزها السياسية والاقتصادية والتقنية كانت الدول الاوروبية في تطور سريع ولكن انظمتها مازالت متخلفة نسبيا عن الدول الشرقية . فعلى سبيل المثال ان الدول في المنطقة العربية تأثرت كثيرا من النواحي الاقتصادية والسياسية والتقنية منذ ضعف الدولة العباسية حتى مجيء البرتغاليون ، فتأثرت تجارة المنطقة بسبب الثورات ضد الدولة العباسية واضطربت الخطوط التجارية فتارة تنشط منطقة الخليج وتارة أخرى يسيطر البحر الاحمر على هذه الخطوط وفي احيان اخري تنشط الطرق التجارية البرية . ومن الناحية السياسية نجد انه بالرغم من ضعف المركز عند العباسين وبعد سقوط الدولة العباسية ، نشأت كيانات سياسية كالقرامطة والمماليك والصفويون فيما بعد واستطاعت هذه الهيئات الصمود ضد الكثير من الاعتداءات كما استطاعت ان تغير تنظيم التجارة والحياة الاقتصادية الا ان مختلف العلوم والتطور التقني شهدت جمودا هذه الفترة بالمقارنة مع فترات الدولة الاموية والعباسية الأولى . وبالرغم من ذلك فان المنطقة العربية ظلت محافظة علي ثراءها ومركزها بين الشرق والغرب.

اما بالنسبة للبرتغاليين فيصعب تحديد قوتهم العسكرية في مواجهة القوى الاخرى سواء في المحيط الهندي او البحر المتوسط ، فقد هزم البرتغاليون هزائم نكراء في معارك مختلفة طوال فترة القرنين الخامس عشر والسادس عشر (١٨) ومن اهم الهزائم التي لحقت بالبرتغاليين في البحر

المتوسط في المغرب العربي في موقعه طنجة في عام ١٤٣٧م (١٩) واستطاع العمثانيون ان يهزموا البرتغاليون في عدة مواقع في المحيط الهندي والخليج العربي (٢٠) الا ان البرتغاليون واصلوا سيطرتهم على الشرق وإن لم تكن سيطرة كاملة على المحيط الهندي - مما يجعل الكثير من الباحثين يسندوا تفكك القوى الآسيوية كسبب للانتصارات البرتغالية ، الا انه من الناحية الاقتصادية لم يصل البرتغاليون المحيط الهندي دون عناء او خبرة فقد ظل البرتغاليون طوال فترة القرن الخامس عشر يتمرسون على انشاء مستمرات وادارتها.

في عام ١٤٤٨ انشأ البرتغاليون قلعة وحامية في جزيرة ارقويم بالقرب من السنغال ومن هذه الجزيرة تاجروا بالرق والذهب حتى اصبحت البرتغال مركزا رئيسيا لتجارة الرق في البحر المتوسط (٢١)

ويبدو ان البرتغاليين طوال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ظلوا منهمكين في بناء القلاع على الساحل الغربي لافريقيا وفي تنظيم التجارة هناك وخاصة المتعلقة باستيراد الذهب ، ومن جانب آخر واصلوا البحث عن الذهب جنوبا(٢٢).

لذا عندما وصل البرتغاليون المحيط الهندي سارعوا بتطبيق خبرتهم وإدارتهم المكتسبة من سواحل غرب افريقيا ، فبناء القلاع والحاميات والاعتماد على القوة البحرية دون التوغل للداخل واحتكار التجارة والروح الصليبية قد اكتسبها البرتغاليون وطبقوها طوال فترة القرن الخامس عشر في غرب افريقيا الا ان الفرق بين الساحل الغربي لافريقيا والمحيط الهندي هو ان المحيط بحر واسع تميز بتمرس تجاري وملاحي اكثر تعقيدا ، كما ان المنافسون في المحيط سواء من الناحية التجارية او العسكرية اقوى بكثير من الوضع الشبه بدائي في غربي افريقيا . وبلا شك ان اهم ماتميز به الاستعمار البرتغالي هو السعي لاحتكار التجارية الاوروبية الاسيوية ثم تطورت هذه السياسة لتشمل السيطرة على تجارة آسيا الداخلية (بين مختلف الموانيء والبلدان الأسيوية) والنزعة الصليبية التي نزلت

بثقلها على المسلمين.

لاشك ان رحلة فاسكودي جاما (١٤٩٧ ـ ١٤٩٨) الى المحيط الهندي كانت رحلة استكشافية وذلك بعد ان اكتشف بارثلوميو دياز رأس الرجاء الصالح وفشل في العبور الى الجهة الاخرى من افريقيا ، وقد حددت رحلة دي جاما الاستكشافية الاهداف البرتغالية في الشرق . الهدف الاول يكمن في القضاء على الوساطة العربية مابين اوروبا والمناطق الاسيوية المنتجة للتوابل والعقاقير والعطور وغيرها وبذلك يتمكن البرتغاليون من تحويل البرتغال الى مركز تجاري ومالي و موزع رئيسيا للسلع الشرقية في اوربا . ومن ناحية اخرى ضرب الدولة العثمانية في عقر خزانتها . اما الهف الثاني فيتمثل في اكتساح الاراضي الاسلامية وفرض الديانة الكاثوليكية عليها ويوضح ذلك في القرارات البابوية التي كانت تمنح للملوك البرتغاليين حق جمع الجباية وبعض الامتيازات المالية الاخرى لتشجيعهم على الاستمرار في محاربة الاسلام والمسلمين وغزو اراضيهم ، لذا فأن السيطرة على الاراضي الغير مسحية والمسلمة خاصة واجب ديني بالنسبة للبرتغاليين في المحيط الهندي.

وفي الخليج العربي بدأت القوات البرتغالية تطبيق سياستها في السيطرة على الخليج لمنع تدفق السلع الشرقية عبر الخليج وخاصة به فشلهم في الاستيلاء على عدن في عام ١٥٠٧ والاكتفاء بأحتلال سو قطرة ، لذا احتلال مسقط وصور وقريات ومطرح وهرمز والبحرين واتباع سياسة احراق السفن العربية الراسية وتدمير الموانيء (ماعدا تلك التي خطط البرتغاليون فيما بعد لاستغلالها) والقرصنة على السفن العربية سواء في الخليج او المحيط ومصادره بضائعها وقتل ربابنتها واغراقها ماهي الا تصرفات توضح الهدف للتخلص من النشاط التجاري والملاحي العربي.

لم تستمر تلك السياسة البرتغالية لاكثر من نصف عقد ، فتوضع المراسلات بين القواد البرتغاليين في الخليج والملك في البرتغال ونائب الملك في جوا انه سرعان ماادخل تعديلا مهما على تلك السياسة بعد ان تبين للقواد ان العلاقة بين آسيا والعالم العربي علاقة عريقة وان اغلاق البحر في وجه

التجارة العربية ـ الاسيوية قد يؤدي الى تنشيط الطرق البرية التي لايمكن للبرتغاليين والتحكم فيها ولهذا لم يمضي العقدين الاولين من القرن حتي قرر البرتغاليون عدم اغلاق الخليج تماما في وجه الملاحة العربية ، بل اتبعوا سياسة فرض الوساطة البرتغالية عليهم تفاديا لاتصالهم بالمناطق المنتجة بريا . وعمل البرتغاليون على ان تكون هرمز قاعدة لامتصاص سلع الجزيرة العربية والعراق والشام وتوزيع سلع الهند والشرق الاقصى على موانيء الخليج . وفي رسالة بعث بها حاكم هرمز الى الملك البرتغالي في عام ١٥١٤ ذكر الحاكم بأنه يعلم بأن البصرة تقوم بتزويد العالم العربي وفارس والدولة العثمانية بالتوابل وغيرها من سلع شرقية ولأنه لايعتقد ان في ذلك تهديدا للمصالح التجارية البرتغالية مادامت الكميات المحصل عليها محدودة فلا تسمح بوصولها الى اوروبا . كما يذكر الحاكم انه سمح للسفن العربية بالتجارة شريطة حصولها على تصريح بمزاولة التجارة من الحاميات البرتغالية وشريطة الاتجار (في منطقة الخليج) مع هرمز وحدها (٢٣).

ان اهم الموارد الطبيعية التي لفتت انتباه القائد البرتغالي افونسو دالبوكيرك ملك البرتغال لؤلؤ الخليج وخاصة في المياه المحيطة بجزر البحرين ، لذا كتب البوكيرك الى الملك البرتغالي بعد شهور قليلة من احتلاله هرمز يذكر رغبته في احتلال البحرين وهرمز والسيطرة عليهما سيطرة مطلقة وفي رسالة اخرى ذكر انه يتمنى ان ينتزع اسم محمد من البحرين وذلك لان هذه الجزر منطقة جد غنية حيث يكثر بها اللؤ لؤ .. (٢٤) وفي عام ١٥١٤ عاود البوكيرك اتصاله بالملك البرتغالي حول اللؤلؤ في الخليج وذكر بأن لؤلؤ البحرين يرسل الى هرمز وجوا في الهند وان التجار المسلمون في البحرين يحتكرون التجارة باللؤلؤ وانهم يكسبون ارباحا طائلة من هذه التجارة واختتم البوكيرك رسالته : ان البحرين جوهرة لايمكن تركها في ايدي المسلمين (٢٥). وفي عام ١٥٢١م اجيز للبوكيرك احتلال البحرين فأحتلها وعين حاكما برتغاليا لإدارة ومراقبة صيد وتجارة اللؤلؤ . وفي ظل الفساد الذي عم الحاميات والقلاع البرتغالية في الشرق بشكل عام وربما في الخليج بشكل خاص ، وبسبب عمل القواد البرتغاليون لحسابهم الخاص ، بدأت حاصلات اللؤلؤ في جزر البحرين تتأثر بشكل كبير ، فقد كتب

الرحالة البرتغالي بيدرو تكسيرا في رحلاته التي بدأها في عام ١٦٠٤م ان قيمة اللؤلؤ الذي تصدره البحرين تبلغ حوالي ٥٠٠٠ر٥٠ دوكات وهناك مالايقل عن ٠٠٠ر١٠٠ دوكات من اللؤلؤ يهرب من قبل البحارة العرب وذلك خوفا من بطش القائد (الحاكم) البرتغالي والذي قد يصادر مايستهويه من كميات (٢٦) لاشك ان تلك السيطرة خفضت من دخل اللؤلؤ على اهالي المنطقة وخاصة وان هذه الحرفة اشتغل بها اكثر من ٠٠٠ر٣٠ عامل يستخدمون مالايقل عن ٥٠٠ر٤ سفينة ومما لاشك فيه ايضا ، ادى الى خفض مستوى دخل الفرد والمعيشة بشكل عام (٢٧).

أما السلعة الاخرى التي حاول البرتغاليون السيطرة عليها ، وتم لهم بالفعل السيطرة عليها خلال النصف الاول من القرن السادس عشر هي التجارة في الخيول العربية . عندما احتل البوكيرك جوا (GOA) على الساحل الشرقي لشبه القارة الهندية ، اكتشف ان التجارة في الخيول تحتل المرتبة الثانية بعد التوابل من حيث الاهمية ، وان مصدر هذه الخيول الخليج العربي - ويذكر احد الرحالة ان افضل الخيول في الشرق الخيول العربية والتي تستخدم لاغراض الحرب والتدريب وتليها الخيول الفارسية ، اما الخيول التي تنتجها منطقة كوجرات في الهند فليس لها اهمية تذكر من حيث التجارة . كما اكتشف البوكيرك ان الخيول القادمة من الخليج تشكل اكثر من نصف عائدات جوا الجمركية (بسبب ارتفاع اثمانها والرسوم الجمركية المفروضة عليها) وان جوا لوحدها تستورد مالايقل عن الف خيل سنويا . لذا فرض البوكيرك احتكارا على هذه في محاولة لتركيز التجارة بها في جوا ، فمنعت اي من السفن الاتجاه الى اي ميناء عن جوا اذا ماكان على ظهرها ولو خيل واحدة . لقد نجح ذلك الاحتكار ، ففي عام ١٥١٤م كانت عائدات جوا الجمركية من الخيول تقدر بحوالي ٠٠٠ر٥ كروسادوس وارتفعت في ١٥٢٣ الى ٠٠٠ر١٨ ، وفي الاربعينات وصلت الى ٠٠٠ر٦٥ إلا انها هبطت بشكل حاد في النصف الثاني من القرن نفسه وذلك بسبب القانون الملكي البرتغالي الجديد الذي يحرم بيع الخيول على عبدة الاوثان والمسلمين باعتبار ان الخيل آلة حربية (٢٨) ان سياسة البرتغاليون تجاه التجارة بالخيول سواء في مرحلتها الاحتكارية او التحريمية اثرت كثيرا على تجارة العرب بشكل عام فهذه

الخيول تأتي من البصرة والساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية عن طريق البحرين لتلتقي في هرمز ، وفي هرمز يستغل القواد قانون الاحتكار ليفرضوا شرائها بالاسعار التي تلائمهم (٢٩). ولاشك ان قانون التحريم اصبح مبررا لذلك.

ولم يحصل البرتغاليون في الخليج على مورد بحري آخر للسيطرة عليه فركزوا على التجارة الداخلية سواء بين موانيء الخليج بعضها ببعض او بينها وبين موانيء المحيط الهندي . تتعدد اشكال السيطرة البرتغالية على التجارة ، ويحددها الاستاذ بيرسون (M.N. Pearson) في التـالي ، اولا : احتكار تجارة التوابل الى اوروبا ، ثانيا : احتكار التجارة بين موانيء في اسيا (وهذا مايمكن ان نطلق عليه تجارة آسيا الداخلية - (Country Trade) ثالثا : السيطرة ثم توجيه التجارة في المحيط الهندي وفرض الضرائب على هذه التجارة واخيرا : التجارة الخاصة او الشخصية لكل برتغالي يعيش في الشرق(٣٠).

لاشك ان بيرسون يعني بتلك السيطرة التي فرضها البرتغاليون على تجارة المحيط الهندي بأكمله الا انه طبقت تلك السياسة في منطقة الخليج . وكما ذكرنا سلفا ان البرتغاليين ادركوا انهم لن يحتكروا التجارة دون القضاء على النشاط الملاحي والتجاري العربي لذا اتبعوا سياسة تعسفية تجاه السفن والموانيء العربية وسنذكر ابعاد ذلك وتأثيره على الملاحة العربية فيما بعد.

أما بالنسبة لاحتكار التجارة بين موانيء آسيا (تجارة آسيا الداخلية) فكما ذكرنا ان البرتغاليين احتكروا التجارة في الخيول وتدخلوا في تجارة اللؤلؤ ، الا ان أهم من ذلك هو تكثيف نشاطهم التجاري بين موانيء آسيا ومحاولة احتكارهم لهذه التجارة . ادرك البرتغاليون ان التجارة بين اسيا واوروبا ماهي الا جزء من التجارة في آسيا وان تجارة البرتغال المعتمدة على الاستيراد والتقدير لآسيا لاتشكل الا جزء من التجارة الاوروبية - الاسيوية - كمات ان الارباح التي تدرها التجارة داخل المحيط الهندي اكثر بكثير من تلك الارباح التي تجني من التجارة بين اوروبا وآسيا . ان الارباح التي

تجنيها رحلة تجارية من البرتغال الى الشرق لاتزيد عن ٣٢،٠٠٠ كروسادوس ذهابا وايابا بينما الرحلة الواحدة من جوا الى اليابان مارة ببعض الموانيء تنتج حوالي ٩٢،٠٠٠ كروسادوس . (٣١) لذا كثف البرتغاليون نشاطهم التجاري في آسيا سواء عن طريق الاحتكار الملكي او بيع التراخيص للتجارة الخاصة كما انه يوجد جانبا هاما وهو التجارة الغير مشروعة التي ادارها القواد البرتغاليون دون تصريح من الحكومة.

ولتحقيق الاحتكار البرتغالي للتجارة بشكليها ، الاسيوية ـ اوروبية والاسيوية لابد من ايجاد نظام للمراقبة والسيطرة لذا ابتدع البرتغاليون نظام (Cartaz) او الرخص الملاحية وفي الخمسينات وعندما شعر البرتغاليون باستمرار تدفق السلع الشرقية عبر البحر الاحمر الى موانيء البحر المتوسط وقدرة السفن العربية على ايجاد طريقها ابتدع البرتغاليون نظام (Cafilas) ، القافلة (ويعني الابحار في شكل قوافل بحرية وتحت الحماية البرتغالية . ويصل عدد السفن في هذه القوافل الى اكثر من مائتي سفينة) (٣٢) .

نظام الرخص الملاحية (Cartaz) يعتبر من اهم مصادر الدخل للخزانة الملكية ، كما ان اهميته تكمن في توجيه التجارة الى الموانيء البرتغالية ومراقبة التجارة في الشرق ، فبموجب هذا النظام يحتم على كل سفينة آسيوية الحصول على جواز عن طريق دفع ضريبة معينة في احدى الموانيء او المواقع البرتغالية ويحدد في كل تصريح او رخصة الموانيء التي يحق للسفينة دخولها والسلع التي يسمح لها بحملها . ويحق للسفن البرتغالية تفتيش اي سفينة آسيوية واذا ما اكتشف ان اية سفينة لاتحمل هذه التصاريح فيتم عقابها كالتالي : اذا كان من بين المخالفين برتغاليون او سفن برتغالية (تجارة خاصة) فان المرسوم الملكي يقضي بمصادرة جميع املاكهم ويفصلوا من الخدمة اذا كانوا من موظفي الحكومة ، اما اذا كانوا من المسلمين فانه يتم مصادرة جميع املاكهم بما فيها سفنهم (تدمير السفن) وسجنهم ويعاملوا معاملة سيئة . هذا من الناحية القانونية ولكن التطبيق يختلف

، فالمسلمون عندما يكتشفوا مخالفين فانهم يقلتون في الحال (٣٣).

والحقيقة ان نظام القافلة لم يطبق في الخليج بل استخدم بين اقليم كوجرات في الهند وموانيء شرق افريقيا واليمن ، الا ان نظام الرخص الملاحية كان من اهم ماشهدته منطقة الخليج اعتمدت اعتمادا اساسيا على التجارة والملاحة في ازدهارها مركزين نشاطهم الملاحي على شرقي افريقيا والساحل الغربي لشبه القارة الهندية التي استطاع البرتغاليون السيطرة عليها بقلاعهم وسفنهم وانظمتهم الادارية فمنعوا او على الاقل حددوا التعامل التجاري العربي مع تلك الموانيء.

اذا كانت الانظمة الادارية البرتغالية المبتدعة قد حددت من نشاط عرب الخليج التجاري والملاحي ، فان الفساد وسوء استغلال صلاحيات القواد والبيروقراطيين البرتغاليين في الشرق بشكل عام وفي الخليج بشكل خاص إضافة الى طغيان النزعة الصليبية والغطرسة الارستقراطية البرتغالية قد زاد من عتمة تلك السيطرة . لقد كان الربح السريع هدف جميع طاقم البيروقراطيين البرتغاليين . تذكر وثائق الكراملة الكاثوليك في الخليج الكثير من حوادث التفسخ والجشع الاداري في الحاميات البرتغالية ، في عام ١٦٠٧م. كتب كرملي هرمز شاكيا الى مسئولية : ان قائد (حاكم هرمز البرتغالي) هرمز يجبر التجار القادمون الى هرمز (عربا او غيرهم) بالقوة بيع سلعهم اليه وشراء السلع التي يعرضها عليهم بنفسه والتي لايرغبون بشرائها ناهيك عن الاسعار المرتفعة التي يحددها والتي عادة تكون مرتفعة عن معدل سعرها في السوق بما لايقل عن ستون في المائة . فعلى سبيل المثال ، عندما يصل التاجر (الآسيوي) الى هرمز ومعه ١٠٠٠ سكودي لشراء قماش (القماش الاوروبي من نوع- Cloth) يأخذ القائد البرتغالي النقود لشراء القماش من التاجر ويسلمه التوابل وبضائع لايرغب ذلك التاجر في شراءها ، ولكن باستخدام التهديد يضطر التاجر قبول هذه السلع ، التي لن يستطيع بيعها في بلاده ، بأسعار ارفع بكثير مما تسوى في سوق هرمز نفسها . ولعدم تحمل بعض التجار هذا الظلم قاموا بحرق البضائع التي اجبروا على شرائها امام القلعة البرتغالية . كما ان القواد صادرون

الخيول القادمة من الخليج والتي اتى بها التجار لبيعها في هرمز وبعد فترة يدفع القواد.. البرتغاليون مايحلو لهم لهؤلاء التجار - اقل بكثير عن سعر السوق ...(٣٤) ويواصل الكرملي رسالته فيذكر بأن ذلك التعرف عار على المسيحية.

إذا كان ذلك رأي الكراملة في الادارة البرتغالية لهرمز مع ان هؤلاء الكراملة يتسلموا مساعدات مالية من الحاميات ومساعدتهم كذلك في نشاطهم التنصيري وحمايتهم في الشرق ككل ، فلا بد ان الاوضاع في المقاعل البرتغالية في الخليج والشرق بشكل عام اسوأ بكثير من ذلك . فكما ذكرنا سابقا ان قتل المسلمين مباح بالرغم من ان القانون لايذكره بصراحة.

التأثير البرتغالي وأبعاده :

استطاع الكثير من المؤرخين خلال الثلاثة عقود الماضية اثبات ان البرتغاليين فشلوا في جميع خططهم للسيطرة على التجارة في المحيط الهندي ، وان نجاحهم الوحيد يكمن في اكتشاف رأس الرجاء الصالح . فلم ينجح البرتغاليون في احتكار التجارة الشرقية لذا لم يتحقق حلم تحويل البرتغال الى الموزع الوحيد للتوابل الشرقية في اوربا ، كما انهم لم يزيدوا من حجم التجارة بين القارتين ولم يضيفوا اليها سلع جديدة ، ولم يوفقوا في ايقاف النزيف الذي كانت تعاني منه اوربا من جراء التجارة مع اسيا ، ولم يحدث البرتغاليون اي اثر فعال في التجارة الاسيوية بل اتبعوا النمط الآسيوي للتجارة ، والاهم من ذلك هو انهم فشلوا في توجيه التجارة الآسيوية والسيطرة على الملاحة في المحيط (٣٥).

اذا كان البرتغاليون قد فشلوا في السيطرة على التجارة والملاحة في المحيط الهندي ، كما اثبت المؤرخون ، فانهم نجحوا في السيطرة التامة على منطقة الخليج العربي . وبالرغم من اننا نعتبر الخليج العربي وحده اقتصادية وحلقة من اهم الحلقات الاقتصادية للمحيط الهندي الا انه، وفي ظروف الاستعمار البرتغالي ، اختلف وضعه وسقط للسيطرة البرتغالية التامة.

ان الاثبات الوحيد الذي يستند اليه المؤرخون في قضية الاحتكار البرتغالي هو وصول التوابل والسلع الشرقية الاخرى الى موانيء البحر المتوسط دون الوساطة البرتغالية ، ولعل المفكر والمؤرخ بروديل (Brudel) من اهم هؤلاء المؤرخين ، ولابد لنا هنا من التطرق لبعض الامثلة . بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح اتخذت الحكومة البرتغالية بعض الاجراءات لتتدبر عملية الاحتكار ، ففي عام ١٥٠٤ تم اعلان احتكار التجارة بالتوابل للتاج البرتغالي وحدد الملك سعرا رسميا واحدا لبيع الفلفل . وفي العقود الثلاثة الاولى من القرن نجحت لشبونة في الاحتكار واخذت السفن البرتغالية ذاتها توزع التوابل على موانيء البحر المتوسط وفي عام ١٥٢٧ ولما شعر البنادقة بالضيق الاقتصادي توجه فريق من مجلس شيوخ البندقية الى لشبونة ليعرض على ملك البرتغال شراء كل التوابل القادمة الى لشبونة من الهند ، بمعنى آخر ان يصبحوا وكلاء البرتغاليين في البحر المتوسط ، الا ان طلبهم رفض . ومع بداية العقد الرابع تبدأ الوثائق والرسائل التجارية الخاصة تثبت لنا ان التوابل بدأت تصل البحر المتوسط بكميات تجارية ، ففي عام ١٥٤٠م اثرت التوابل القادمة عن طريق الموانيء العربية في البحر المتوسط في اسعار التوابل المستوردة عن طريق البرتغال . وفي عام ١٥٥٤م اشترى تجار البندقية حوالي ٣٠٠ طن توابل من الاسكندرية وقيل في حينها تمثل حوالي نصف مبيعات مصر . ومع بداية العقد السادس ذكر احد المراقبين البرتغاليين ان حركة بيع وشراء التوابل في مصر تتراوح بين ١٢٥٠ الى ١٥٠٠ طن سنويا . ففي عام ١٦٦٥ ذكر سفير البندقية في القاهرة ان ١٠٠٠ طن من الفلفل وصلت الى جدة من المتوقع ان تصل الى القاهرة والاسكندرية قريبا (٣٦) وفي نفس العام اشادت مصادر التجار البنادقة في القاهرة عن وصول ثلاث سفن من اجه ، وذكرت انه وصلت الى جدة خمس سفن من سومطرة وعشرون سفينة اخري من مختلف موانيء الهند وانه من المتوقع وصول سفينتين اخريين من اجه بحمولات كبيرة . وفي عام ١٥٦٦ بلغت حمولة السفن من الفلفل التي فرغت في جدة بحوالي ٢٤٠٠٠ كانترا . وتذكر مصادر العقد الثامن من القرن انه لايقل عن اربعين سفينة من الحجم الكبير تدخل البحر الاحمر محملة بالتوابل هذه الاحصائيات وغيرها تجعل بروديل (Brudel) يحدد

بأقل تقدير كمية التوابل التي تصل الى البحر المتوسط عن طريق البحر الاحمر تتراوح بين ٣٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ كوينتال ، مما يعني ان هذه الكمية وحدها تعادل الكمية التي تصل البرتغال عن طريق رأس الرجاء الصالح(٣٧).

لاشك ان هذه ادلة قاطعة لوصول البضائع عبر طريق البحر الاحمر الى البحر المتوسط وان البرتغاليون فشلوا في اغلاق البحر الاحمر في وجه الملاحة والتجارة الاسيوية ، سواء كانت هذه السفن عربية او هندية ـ فقد استطاعت هذه السفن تحاشي المواقع والسفن البرتغالية لتسريب البضائع الى موانيء البحر المتوسط . الا ان ذلك الوضع لايمكن تطبيقه على منطقة الخليج العربي ويخطيء الكثير من المؤرخين عندما يجزموا بأن وضع الخليج العربي مشابه من هذه الناحية للوضع في البحر الاحمر معتمدين على وصول بعض السلع الى حلب في بلاد الشام (٣٨) ولابد من عرض اهم هذه الامثلة ليتسنى لنا تحليها .

تشير المراسلات بين تجار حلب انه في عام ١٥٧٩ تم شحن سفينتين كبيرتين من سفن البندقية بالسلع من طرابلس الى الشام ، ونصت رسالة اخرى في نفس العام من تاجر حلبي يؤكد فيها وصول قافلة جلبت ٢٠٠ حمل من الحرير و ٢٥٠ حملا من التوابل يصحبها تجار فرس ومسيحيون . وفي نفس العام ايضا اعلن قنصل البندقية في الشام عن سفر سفينتين كبيرتين بندقيتين (احزبين) مشحونتين بالتوابل والحرير ومتجهتين الى البندقية.

وفي عام ١٥٨٣ يصف احد التجار المراقبين ان طرابلس الشام وحلب مدن مكتظة بالتجار المسيحيين ، وان هناك تجارة بحجم كبير ونشطة بين بغداد وحلب . اما بالنسبة للبصرة فيذكر انه شاهد حوالي ٢٥ غرابا تركيا راسيا في الميناء وان جميع هذه السفن ذات حمولات تتراوح بين ٤٠ و ٦٠ طن وتأتي للبصرة من هرمز محملة بمختلف انوا ع السلع الهندية وتشمل التوابل والعقاقير والنيلة واقمشة كاليكوت .. (٣٩).

ليس هناك ادنى شك في وصول السلع الشرقية الى حلب فجميع هذه الادلة وربما غيرها توكد على ان حلب وطرابلس ، وفي مصر الاسكندرية والقاهرة ، وفي ايطاليا البندقية ، وربما جميع موانيء البحر المتوسط لم تتأثر بالاحتكار البرتغالي للسلع الشرقية (اذا كان ذلك الاحتكار ناجحا) ولكن وصول السلع الى حلب وطرابلس الشام الذي يعتبره المؤرخون الاثبات على ان البرتغاليين فشلوا في السيطرة والتحكم في مياه الخليج العربي لايمكن الاعتماد عليه كدليل لذلك . ونستدل لاثبات ذلك على التالي:

اولا : ان وصول السلع الشرقية الى حلب لايعني انها وصلت عن طريق الخليج العربي فهناك ادلة قاطعة على ان الطرق التجارية البرية القديمة استعادت نشاطها بفعل السيطرة والتعسف البرتغالي في الخليج.

فيذكر التاجر (الوكيل) الانجليزي ستيل (Steele) في التقرير الذي رفعه الى مجلس ادارة شركته - شركة الهند الشرقية الانجليزية - في عام ١٦١٥ ان قنداهار بدأت تزدهر وتتوسع الى درجة ان ضواحيها الجديدة تعد اكبر من المدينة نفسها ويعد السبب الرئيسي لازدهارها هو انتعاش الخط التجاري المار من الهند الى فارس . في الوقت الحالي وربما لسنوات مضت يتجمع تجار كل الهند في لاهور لشراء بضائع بمبالغ ضخمة ويكونوا قوافل لعبور جبال قنداهار ليصلوا الى فارس . وتتكون هذه القوافل من اثنى عشرة الى اربعة عشر جملا محمل بكامل حمولته ، وهذا العدد اكثر بكثير مما كانت عليه القوافل التي تسلك نفس الخط في السابق حيث انها لم تتعدى الثلاثة الاف جمل والبقية تسلك الطريق البحري الى هرمز . وتؤكد رسالة برتغالية لاحد الكراملة (من هرمز الى اسبانيا) على تحول التجارة الى الطرق البرية بدلا من هرمز فيذكر ان الظروف الصعبة التي عاني منها التجار في هرمز كانت السبب الرئيسي لبحثهم عن طريق جديدة فاستخدموا الخط التجاري من ولاهور والمار بقنداهار الى فارس ويقترح الكرملي ان تحسن معاملة التجار في هرمز السماح لهم بنقل بضائعهم على السفن البرتغالية الى هرمز او اي من الموانيء البرتغالية.. ممكن اعادتهم للتجارة مع هرمز ...

وتذكر المصادر الاخري بأن الفرس ، وخاصة الشاه عباس ، شجعوا التجار الهنود وغيرهم لاستخدام هذا الطريق وتؤكد مصادر برتغالية في هرمز في محاولة لتبرير سبب قلة عائدات هرمز الجمركية قائلة ان السفن الكبيرة التي تأتي من موانيء الهند كانت تدفع ضرائب جمركية تقدر بحوالي ٤٥٠٠٠ باردوس الا انها في السنوات الاخيرة لاتدفع الا مايتراوح بين ٧٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ باردوس وذلك لقلة ماتجمله من بضائع (٤٠).

والحقيقة ان احتكار الملوك الصفويون لتجارة الحرير في فارس جعلهم يشجعون التحول في الخطوط التجارية والمساعدة في تنشيط طريق قداهار ، واعطى التجار تسهيلات وحسنت الطرق بين المدن الفارسية وبنيت بيوت الراحة للتجار والمسافرين على الطرق البرية ، وقد ساعد وجود هذه الطرق التي استخدمها اطول طريق تجاري في التاريخ - طريق الحرير الذي يبدأ من الصين وينتهي في بلاد الشام - لذا ماقام به التجار والملوك الصفويون هو استخدام هذا الطريق والعمل على الامن عليه.

ويعتبر الشاه عباس من اشهر الملوك الصفويون الذين اهتموا بالاصلاحات في القطاع التجاري ، ولا شك ان اهتمام الملوك الصفويون يرجع الى احتكارهم لتجارة الحرير الايراني . فجرت العادة في فارس بأن تكون احتكارا ملكي فيقوم موظفوا الحكومة بشراء الحرير من منتجي المناطق الشمالية ليتم تصديره للخارج (بلاد الشام ، الهند او روسيا) بواسطة عمال او تجار الملك الذين يشكل الارمن اغلبيتهم (٤١) واذا مادققنا في قائمة السلع الواصلة الى حلب او طرابلس الغرب من الشرق لوجدنا ان الحرير الايراني متواجد في معظمها ، مما يعني بأن هذه السلع لم تصل عن طريق البصرة بل عن الطريق التجاري البري بين فارس والعراق ، فمنطقيا ان الحرير لن يتجه الى جنوب فارس ليمر بهرمز ويدفع ضرائب للبرتغاليين ثم يشحن الى البصرة.

الاثبات الآخر لنشاط الطرق التجارية البرية هو انشاء الشركة الموسكوفية الانجليزية ، التي تخصصت في التجارة مع فارس عبر الاراضي الروسية وبحر قزوين . في بداية الخمسينات من القرن

وعندما وصلت معلومات الى لندن عن توفر البضائع الهندية في شمالي فارس اضافة الى الحرير الايراني وان هذه المنطقة تستهلك الاقمشة الصوفية ، ارسلت بعثات لتقوم بدراسة للطريق عبر بحر قزوين(٤٢).

وفي عام ١٥٦١ اعلن عن قيام الشركة المسكوفية التي قامت برحلة تجارية ناجحة في تلك السنة ، كما تلتها عدة رحلات ناجحة بالرغم من محدودية حجم تلك التجارة بشكل عام ، ولكنها درت الكثير من الارباح على التجارة المساهمين في هذه الشركة . ولاشك ان في مخيلة هؤلاء التجار انهم سيستطيعون امتصاص التجارة المتوسطية من البرتغاليين وسوريا . وفي بداية الثمانينات بدأت مفاوضات جادة بين الانجليز والاتراك للاتفاق حول تحويل تجارة التوابل الى بحر قزوين عن طريق البحر الاسود(٤٣).

إن نشاط الملوك الفرس ومحاولة التجار الانجليز إثبات أن الخطوط التجارية البرية نشطت مع بداية النصف الثاني من القرن ولعل ذكر توفر التوابل في شمال ايران يعتبر دليل آخر على وصول هذه السلع عن طريق بري بين الهند وفارس.

ثانيا : إن نصيحة قائد هرمز بعد الاستيلاء على الجزيرة الى الملك البرتغالي في عام ١٥١٤ والتي تقضي بالسماح بمرور بعض السلع عبر هرمز الى البصرة لتحاشي تنشيط الخطوط البرية القديمة يعتبر من اهم القرارات التي اتخذها البرتغاليون في ادارة المنطقة . لهذا نجد بعض الذكر للرحالة الذين وصلوا الخليج في تلك الفترة عن توافر السلع الهندية في البصرة ، كما ان هناك نسبة محدودة للسفن العربية التي استطاعت التهرب من الرقابة البرتغالية والتجار الذين استطاعوا تهريب بعض البضائع عبر هرمز بإرشاد القواد البرتغاليون.

هذه الاساليب لاتقنع لإستمرارية تدفق السلع عبر البصرة ، فالفساد الاداري البرتغالي له ايجابياته وسلبياته للتجار العرب وغيرهم من تجار الشرق فالقواد البرتغاليون سمحوا للتجار

المرور بالسلع ولكن بعد دفع الرشاوي الباهظة التي كانت ترفع اسعار هذه السلع الى مانسبته ستون في المائة.

ثالثا: إن مايتوجد من ادلة حول مرور السلع عبر البصرة لاتبدأ الا مع العقد الثامن من القرن، مما يعني بأن البرتغاليين سيطروا على الخليج لفترة قاربت الثمانون عاما ، وتشكل هذه الفترة اكثر من خمسة وسبعون بالمائة من فترة الاستعمار البرتغالي للخليج العربي .

رابعا : لاشك ان الرحالة الاوروبيون الذين مروا بهرمز خلال القرن السادس عشر دهشوا لازدهار تجارة هرمز ، الا ان ذلك لايعني ان هرمز لم تتأثر تجاريا فأن ماشاهده هؤلاء الرحالة لم يبلغ الا ربع ما كانت عليه تجارة هرمز يذكر أحد الكراملة في هرمز ان حجم تجارة هرمز في تدهور مستمر وان اكثر التجار المحليون توقفوا عن المجيء لهذه المدينة فتجارتها لاتمثل الا ثلث ماكانت عليه سابقا، وان السبب في ذلك هو بطش القائد (الحاكم) البرتغالي في هرمز (٤٤). لاشك ان الفساد الاداري وجشع وقسوة القواد البرتغاليين كان السبب الرئيسي وراء تدهور هرمز قبل سقوط هرمز في عام ١٦٢٢ ان سقوط هرمز في ايدي الانجليز (والمسلمون) يعتبر عقاب من الاله لخطايانا في معاملة الناس (٤٥) وبلا شك ان الكرملي يعني بذلك القواد البرتغاليون الذين تولوا حكم هرمز.

خامسا : ان ابعاد التأثير البرتغالي لاتكمن في فترة الاستعمار البرتغالي لمنطقة الخليج بل تمتد الى ما بعد خروج البرتغاليين من المنطقة ، وبالرغم من سعة هذا الموضوع وحجمه الا اننا سنحاول تحديد ذلك في الامور التالية:

١ - إن قضية تدهور هرمز ثم سقوطها للشاه عباس بالتحالف مع الانجليز في عام ١٦٢٢ يعتبر حدث هام في مجرى التاريخ الاقتصادي للمنطقة يجعله الاستاذ ستينسكارد (Steensgard) عنوان اطروحته للتاريخ الاقتصادي لمنطقة المحيط الهندي بأكمله . بعد الاستيلاء على هرمز امر

الشاه عباس بتدمير المدينة وهدم القلعة معلنا نهاية هرمز ، ثم بني ميناء جديدا على الساحل الايراني لكي يتسنى له السيطرة على اعماله اطلق عليه بندر عباس ، وامر بنقل النشاط التجاري اليه . لاشك ان الشاه عباس نجح في مخططه فالميناء الجديد بدأ يعمل بنشاط وازدهر في خلال فترة وجيزة وخاصة ان الشاه اعطى امتيازات تجارية للانجليز والهولنديون للتجارة في فارس كما انه اصلح الطرق المؤدية الى بندر عباس وبني استراحات للمسافرين عليها ونقاط حراسة..

الا ان نجاح بندر عباس يختلف كثيرا عن نجاح هرمز ، وذلك لأن هرمز كانت مركزا تجاريا بحريا تحدث عنه تجار العالم بأكمله سواء في البندقية او في الصين ، اما بندر عباس فيعتبر احد اهم موانيء المنطقة ولكنه لم يحظى بما حظيت به هرمز . وفي الحقيقة ان ظاهرة هرمز ومن قبلها سيراف وقيس لم تتكرر بعد الاحتلال البرتغالي للمنطقة مما يدل على ان النشاط التجاري قد سلك نمط آخر يختلف عن النمط الذي تحدثنا عنه في الجزء الاول من هذه الدراسة للفترة الممتدة بين سقوط الدولة العباسية والاستعمار البرتغالي.

٢ – تدهور الملاحة العربية يعتبر من اهم التأثيرات البرتغالية على المنطقة كما ذكرنا سابقا ان البرتغاليين انتهجوا سياسة ذات نزعة صليبة وحشدوا عداءهم كله ضد العرب دون غيرهم من شعوب اسيا . فالبرتغاليون لم يعارضوا تطور الملاحة الهندية ـ وهذا ربما يكون السبب في تسرب البضائع الهندية عبر البحر الاحمر ـ سواء للمسلمين او الهندوس ولم يتعرضوا لتلك السفن طالما دفعت الضرائب لهم ، ولكنهم ركزوا على إستئصال الملاحة العربية من المحيط الهندي . ومن هنا عندما بدأ العرب في استعادة مركزهم مع بداية القرن السابع عشر وجدوا ان ملاحة هندية نشطة حلت محلهم وبالرغم من ان عرب الخليج استطاعوا استعادة معظم مافقدوا مع نهاية القرن السابع عشر إلا انهم لم يتمكنوا من الهيمنة على منطقة بحر العرب ، فبعد

خروج البرتغاليون فقد عرف الخليج الكثير من النشاط الملاحي للسفن الهندية وخاصة في منطقة كوجرات التي ملك احد تجارها اكثر من النشاط الملاحي للسفن الهندية وخاصة السفن المسجلة لدى الوكل التي ملك احد تجارها اكثر من خمسون سفنية وقيل بأن عدد السفن المسجلة لدى الوكيل الانجليزي فقط اكثر من الف سفينة (٤٦) كما ان البحر الاحمر في القرنين السابع عشر والثامن عشر استجذب اكبر عدد من السفن الهندية ، ولعل ذلك سبب اعلان الادارة العثمانية في العراق عن التخفيض الحاد للرسوم الجمركية من ٨ و ١٠ في المائة الى واحد في المائة فقط مع نهاية القرن السابع عشر (٤٧) لذا فان بحرية الخليج العربي لم تستعد مكانتها بعد الاحتلال البرتغالي.

– أن قضية تأثير رأس الرجاء الصالح على التجارة الآسيوية ـ الاوروبية تناولها الكثير من المؤرخين واثبتوا بأن نسبة ماتناوله الطريق البحري الجديد عبر رأس الرجاء الصالح لم يتعد الثمانية واربعون في المائة كنسبة من اجمالي التجارة بين اوروبا واموانيء المحيط الهندي ، بل في اغلب الاحيان تراوحت هذه النسبة بين الاربعون والخمسة واربعون في المائة (٤٨) . الا ان اكشتاف رأس الرجاء الصالح واستخدامه كطريق تجاري وتأثيره على ممرات التدفق التجاري (الخليج والبحر الاحمر) لايكمن في فترة الاستعمار البرتغالي بل ظل يواصل تأثيره وخاصة في القرون التالية . فالتواجد الهولندي والانجليزي في الشرق كثف من النشاط التجاري عن طريق الرجاء الصالح . ان احد الاسباب الهامة التي ادت الى فشل البرتغاليين الى دفع تلك النسبة هو التكلفة العسكرية التي كانت مرتفعة جدا مما ادى الى ارتفاع اسعار السلع المستوردة عن طريق البرتغال ، فأدى ذلك الى تنشيط الطرق الاخرى القديمة عن طريق البحر الاحمر والطرق البحرية . لكن القوى الأوروبية الاخري.. الهولندية والانجليزية ، استطاعت ان تخفض من تلك التكلفة بالمقارنة مع البرتغاليين رغم انها لم تصل الى الحد المطلوب لتصبح اسعار السلع المستوردة عبر الرجاء الصالح اقل قيمة من منافسيها.

لذا فإن تأثير طريق رأس الرجاء الصالح ظل مستمرا وربما يكون ذلك هو السبب في عدم بروز ظاهرة هرمز وسيراف مرة اخرى بعد خروج البرتغاليون من المنطقة.



الخلاصـــــــــــة :

ذلك هو التأثير البرتغالي على اقتصاد وتجارة الخليج العربي ، فمن جانب اثر البرتغاليون مباشرة على الحياة الاقتصادية في المنطقة خلال فترة هيمنتهم واستعمارهم لها (١٥٠٧ ـ ١٦٢٢م) ، فلم يكن احتكار التجارة الاسيوية او الاسيوية الاوروبية هو السبب الرئيسي لذلك التأثير ، فهناك عدة اسباب متداخلة ادت الى تدهور الاوضاع الاقتصادية في المنطقة . فالاحتكار التجاري طبق بدافع ونزعة صليبيتين اعدمتا الملاحة العربية المسلمة ، اضافة الى ان فساد القواد البرتغاليين وسع نطاق ذلك الاحتكار ليشمل تجارتهم وضرائبهم الخاصة . وقد اثبتنا من خلال هذه الدراسة ان الاستعمار البرتغالي قد اثر على تجارة وازدهار المنطقة ، فهجر التجار هرمز وبدأت في تدهورها قبل عام ١٦٢٢م.

أما الجانب الآخر فهو ابعاد تأثير البرتغاليين والآثار التي خلفوها في التاريخ الاقتصادي للمنطقة بعد خروجهم في منتصف القرن السابقع عشر . وقد اوضحنا في هذه الدراسة بعض هذه الابعاد ، فعلى سبيل المثال ، ظاهرة المراكز التجارية على طراز هرمز وسيراف لم تتكرر في الخليج بعد خروج البرتغاليين هما يعني ان النمط التجاري للمنطقة قد تغير ، وحقيقة ان أهمية المنطقة كوسيط لنقل البضائع بين الشرق والغرب تضاءلت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . اما من ناحية اخري فقد فقدت الملاحة الخليجية الجزء الاكبر من نشاطها الملاحي في المحيط الهندي ولم تستطع استرجاع الا قليل منه فأستمرت الاهمية لمنطقة البحر الاحمر ورأس الرجاء الصالح تتطور على حساب الخليج العربي.

ولابد من الاشارة الى ان ابعاد التأثير البرتغالي موضوع خصب يحتاج الكثير من الدراسات والاطروحات العلمية المختصة بالتاريخ الاقتصادي.

الهوامـــــــــش :

١ – د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (بغداد ، ١٩٧٦) جـ ١ ، ص ٥٥٦

٢ – نفس المصدر : ص ٥٦٥

٣ – رمزية عبد الرهاب الخيرو : تجارة الخليج العربي واثرها في الحياة الاقتصادية في منطقة الخليج العربي والعراق منذ صدر الاسلام حتي نهاية القرن الرابع الهجري (بغداد ـ ١٩٨٧م) ص ١٢٢ ـ ١٢٥

٤ – د. احمد الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ، (القاهرة ـ الالف كتاب ـ ١٥٨) جـ ٢ ، ص ١١٨.

٥ – د. فاروق عمر : الخليج العربي في العصور الاسلامية (دبي ـ ١٩٨٣) ص ٦٧ ـ ١٢٧ ، ايضا د. رمزية خيرو ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢١ ـ ١٣١

٦ – د. محمد كريم ابراهيم : عدن ، دراسة في احوالها السياسية والاقتصادية (٤٧٦ ـ ٦٢٦هـ / ١٠٨٣ ـ ١٢٢٨م) منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، ١٩٨٥ ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

٧ – ابو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ اجزاء (القاهرة ـ ١٩٦٢م) جـ ٣ ، ص ٢٧٢.

٨ – ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١٠ اجزاء (القاهرة ـ ١٩٠٦ اعيد استنساخه) جـ ٣ ، ص ٢٩٥

٩ – د. رمزية ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٤.

١٠ – السلوه في اخبار كلوه (المؤلف غير معروف لهذا المخطوط) حققه محمد علي الصليبي ، اصدار وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٨٥ ، سلطنة عمان ، ص ٢٧ ـ ٢٩ . انظر ايضا ، احمد حمود العمري : عمان وشرقي افريقيا ، وزارة التراث ـ سلطنة عمان ١٩٧٩، ص ٤٤ ـ ٤٥

١١ – الحموي ، سبق ذكره ، جـ ٣ ، ص ٢٩٤.

١٢ – د. مصطفى عقيل الخطيب : التنافس الدولي الخليج العربي ١٦٢٢ ـ ١٧٦٣م (بيروت ١٩٨١) ص ١٨.

١٣ – Wilson, Sir A.T., "The Persian Gulf" London, 1928 P. 106

١٤ – Ibid, PP. 140 – 8–

١٥ – A chronicle of the Carmelites in Persia, (London, 1949) P. 1040.

١٦ – Ibid, P. 1041.

١٧ – د. مصطفى عقيل ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦

١٨ – لقراءة احدث ماكتب حول القوة العسكرية البرتغالية انظر د. عبد الامير محمد امين : نظرة جديدة للانجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا دراسة في عوامل تدهور الامبراطورية البرتغالية وانحلالها في دراسات مجلة علمية متخصصة تصدر من الجامعة الاردنية ، ١٥/٧ عام ١٩٨٨. ص ٢٦٧ ـ ٢٩٢.

١٩ – Davis, Ralph., "The Rise of the Atlantic Economies", (London 1973) P.

٢٠ – د. مصطفى عقيل ، مصدر سبق ذكره ص ٣٠ ـ ٣٧

٢١ – Davis, Op. cit., P. 6–7

٢٢ – Vilar, Pierree., " A History of gold and money. 1450–1920 (Translated into English by Ju- dith white) published in English in 1976 (London) p. O 53.

٢٣ – د. احمد بوشرب : مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الاحمر والخليج العربي مجلة الوثيقة (البحرين) العدد العاشر ـ السنة الخامسة ـ ١٩٨٧م. ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

٢٤ – احمد ابو شرب : مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الاول من القرن السادس عشر ، بحث نشر في مجلة الوثيقة الصادرة عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين ، العدد الرابع ١٩٨٤م ، ص ١٢١.

٢٥ – د. علي اباحسين و ب.ك. ناراين : وثائق تاريخية عن صيد اللؤلؤ في البحرين ، مجلة الوثيقة الصادرة عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين ، العدد ١٠ ، ١٩٨٧ ، ص ١١٦.

٢٦ – نفس لامصدر.

٢٧ – نفس المصدر ، ص ١١٨

٢٨ – Pearson. M.N., "The New Cambridege history of India : The Protuguese in India." Cambridge. 1987. PP. 49–50.

٢٩ – Carmelites, Op. Cit. 102

٣٠ - Pearson Op. Cit., P. 39

٣١ - Correia – Afonso, J., Indo – Portuguese History, Sources and Problems ed. Oxford Univ. Press Bombay. 1981, P. 101.

٣٢ - Pearson, Op. Cit., PP. 38–9

Correia – Afonso, J., Indo–portuguese History Sources and Problems, ed., Oxford Univ. Press Bombay 1981, P 101.

انظر ايضا : د. عبد الامير امين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٨٢.

٣٤ - Carmelites Op. Cit. P. 102

٣٥ - Van leur, "Indunesian Trade and society" (the hague – 1955) Brudel, F. " The Mediteranean– World in the Age of Philip, Trans. reprinted, London – 1985. Steensgard, Niels, " The Asian Trade Revolution of the 17th Century" (London 1984)

٣٦ - Brudel, Op. Cit See chapter III : The Peper trade

٣٧ - Boxer, C.R. Portuguese Conquest and Commerce in South Asia., London, 1985. pp -415-– 22

٢٨ – خوري، الوثيقة ص ١٣٧، انظر ايضا . Stensgard p. 103

٢٩ – نفس المصدر ، ص ٣٧

٤٠ - Brudel, Op. Cit., see chapter III, The Peper trade

٤١ – Keyvani, M "The Iranian Caravansarais during the Savavid period, "Ph. D Thesis-University of London – 1981) P. 74.

٤٢ – خوري ـ الوثيقة . مصدر سبق ذكره ص ٣٧

٤٣ – Brudel, Op. Cit.,

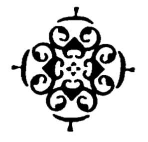
٤٤ – Carmelite, Op. Cit. P. 1040

٤٥ – Ibid, P. 267.

٤٦ – د. خالد الخليفة : دور العرب في مركز سورات التجاري في القرن الثامن عشر ، دراسة مقدمة للندوة الثالثة لسمنار قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة المنعقدة في الفترة من ٣ ـ ٥ ابريل ١٩٨٩ . ص ٧.

٤٧ – K.K. Alkhalifa, Conflict and commerce : The English East India Company Factories in the Gulf, 1700 – 1747, (University of Essex, 1988) P. 36

٤٨ – Kriedte, Peter., " Peasants, Landlords merchant Capitalists ; Europe in the world Economy, 1500–1800 (london – 1983) P 44





موقف الدولة العثمانية من النفوذ البرتغالي في الخليج العربي

الدكتور/ محمد رجائي ريان

مقدمـــة : -

يقع الخليج العربي في الجنوب الشرقي للوطن العربي الكبير ، ويبلغ طوله ٥٠٠ ميل وتتفاوت ابعاد عرضه بين ٢٠٠ الى ٥٠ ميلا ، ويصب في الخليج شط العرب الذي يتكون اصلا من نهري دجلة والفرات.

كان للخليج دور متميز خلال تطور الحضارة الانسانية ، ففي العصور القديمة كان ممرا رئيسيا من حيث كونه طريق المواصلات الوحيد الذي يربط بين اقليمين مناخيين متميزين مختلفين في نتاجهما الزراعي والحيواني ، هما اقليم البحر المتوسط والاقليم الاستوائي.

وعلى الرغم من ضعف تجارة المنطقة ردحا من الزمن بعد سقوط بابل ، فان الخليج العرب شهد تطورا كبيرا في التجارة الدولية ، وبقي يلعب دورا مهما في بناء الكيان الحضاري الانساني في جميع العصور التاريخية ، وبخاصة عندما توالت عليه هجرات القبائل العربية من الحجاز واليمن ، اذ استمر النشاط التجاري في الخليج العربي.

لقد تاثرت منطقة الخليج العربي تأثرا كبيرا بحركة الفتوح الاسلامية ، وساهم اهلها العرب المسلمون في نشاطاتها ، وازدهرت منطقة الخليج طيلة فترة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، حيث ارتبطت اوضاعها السياسية الى حد كبير بالاوضا ع العامة في العراق ، واصبح الخليج العربي واحدا من اهم المعابر التجارية في آسيا ، اذ عن طريقه راحت تمر تجارة منتجات الهند والصين وجزر الهند الشرقية الى الاسواق في بلاد فارس والشام ، وعلى العكس من ذلك ، كانت تعبر السلع الواردة من

الجزيرة العربية وبلاد فارس واوروبا من الطريق نفسها الى الهند والشرق الاقصى . كما قامت وازدهرت على سواحل الخليج العربي كثير من المدن التجارية المعروفة كالبصرة والبحرين وسيراف وهرمز وبوشهر . غير ان هذه المدن تعرضت للمحن والاضطرابات تحت ضغط الاحداث التي توالت على المنطقة فقلت اهميتها ، ثم زاد تدهور تجارة المنطقة بعد اكتشاف البرتغاليين للطريق البحري الى الهند في نهاية القرن الخامس عشر (١٤٩٨م) وفي اوائل القرن السادس عشر بدأ البرتغاليون في غزو اراضي الخليج العربي.

لقد كان لظهور البرتغاليين هذا اثر بعيد الخطر في تاريخ الخليج العربي واقطاره ، فهو من جهة يمثل بداية الاطماع الاوروبية والاستعمارية ، ومن جهة اخرى ، حول البرتغاليون طرق التجارة من مجراها التقليدي ، فحرمت منطقة الخليج من مصدر اساسي من مصادر ثروتها . وبعد ان وطد البرتغاليون انفسهم في اماكن استراتيجية مختلفة حول المحيط الهندي وفي الخليج العربي ، بدأ العثمانيون يظهرون في هذه المنطقة الاخيرة ، فأصبحت هناك قوتان كبيرتان تهتمان بشؤون الخليج ، وبذلك حصل الصراع بين القوتين المذكورتين.

ان قصة الغزو البرتغالي للخليج العربي واحداثه التي دامت من بداية القرن السادس عشر حتى منتصف القرن السابع عشر وماتخلل ذلك من اضرار اقتصادية اصابت الخليج قد درس دراسة كافية من قبل الكتاب العرب ، في حين ان الموقف العثماني من هذا الغزو لم يحظ بالعناية الكافية من جانب المهتمين بتاريخ العرب الحديث . ازاء هذه الخلفية يهدف البحث الحالي الى توضيح هذا الموقف والى القاء ضوء على الظروف والدوافع التي احاطت به ، وبالتالي على نتائجه فيما يخص منطقة الخليج ، وذلك اعمادا على مصادر تاريخية لم تكن متوفرة في السابق على ان البحث في هذه القضايا ينبغي ، من اجل الوضوح ان يقدم له بتقرير يبين كيف امتد النفوذ البرتغالي الى الخليج العربي وماهي دوافعه الحقيقية خلال الفترة التي سبقت ظهور العثمانيين على مسرح الاحداث هناك . وهكذا

اصبحت هذه الدراسة تتألف من ثلاثة اقسام رئيسية كما يلي :

(١) الغزو البرتغالي للخليج : دوافعه وقنواته.

(٢) وصول العثمانيين الى الخليج العربي: الدوافع والظروف المواكبة.

(٣) الصراع العثماني/ البرتغالي في الخليج العربي: الحيثيات والنتائج.

الغزو البرتغالي للخليج : دوافعه وقنواته .

استطاع فاسكو دي جاما (Vasco de Gama) الذي اقلع من لشبونه ان يصل الى الهند عام ١٤٩٨م ، عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ثم كر عائدا الى لشبونه متسخدما نفس الطريق . وقد مثلت تلك الرحلة العامل الحاسم في تاريخ العالم ، فهي بالنسبة للبرتغال ، قد مهدت لها الطريق الى اقامة الامبراطورية البرتغالية في الهند والشرق، وهي امبراطورية عاشت اربعة قرون حافلة بالاحداث . ان اعطاء صورة شاملة للامبراطورية البرتغالية في الهند هو موضوع يخرج عن اطار هذا البحث . واذا كنا لانريد ان نغض الطرف كلية عن النقاط الهامة في هذا التاريخ ، فانه حري بنا ان نتناول الاحداث التي لها صلة مباشرة بالخليج العربي.

فقبل أن يظهر البرتغاليون على المسرح في الخليج العربي كان عرب عمان واليمن يتحكمون في التجارة البحرية للشرق ، وكانت هذه التجارة تدر ثروات ضخمة لاصحابها عبر قرون عديدة ، ان كل مافعله البرتغاليون هو انهم انتزعوا تلك التجارة من ايدي اولائك العرب وتمكنوا من الاحتفاظ بها فترة تزيد على ٢٠٠ عام. كان فرانسسكودي الميدا (Francisco de Almedia) اول حاكم عام ونائب للملك مانويل (Manuel) ملك البرتغال في الهند. وكان هدفه مجرد انشاء مراكز هناك لمزاولة الاعمال التجارية البحتة . غير ان افونسودا البوكيرك (Afonso da Albuquerque) الذي خلفه في السلطة لم يكن من انصار هذا الرأي ، وقد ابحر هذا الاخير في النصف الثاني من سنة ١٥٠٦م كي

يقنع الميدا بوجهة نظره ذات الطابع الاستعماري ، وكان قبل ذلك قد ابحر الى آسيا عام ١٥٠٣م. وهكذا فان طموحات البوكيرك هي التي مهدت الطريق لانشاء امبراطورية برتغالية في الشرق.

كان البوكيرك يوجه اهتماما خاصا الى اقامة التحصينات والقلاع العسكرية في كل مكان كان يوجد للبرتغال مركز تجاري فيه ، ولم يكن الهدف مقصورا على حماية التجارة البرتغالية ، بل تجاوز ذلك الى تمكين البرتغاليين من تدعيم نفوذهم في تلك المناطق واخضاع شعوبها لسيطرتهم ، او بالاحرى ، ارغامهم في النهاية على الاعتراف بالسيادة البرتغالية(١).

وكانت سياسة البرتغال في المحيط الهندي بحرية احتكارية ، وكان الاسطول البرتغالي يقوم بفرض هذه السياسة بالقوة ، فالسفن غير الحائزة على تصريح من قبل البرتغاليين لم يكن يسمح لها بالمتاجرة في هذه المياه . وكانت تلك السياسة تتطلب ، اولا ، الاستيلاء على عدن لتتمكن القوة البرتغالية من السيطرة على مدخل البحر الاحمر على الاقل ، وثانيا ، الاستيلاء على هرمز ليتمكن البرتغاليون من الخليج العربي. (٢).

لقد صدرت هذه السياسة عن ادراك البرتغاليين لاهمية الاستيلاء على موانيء الجزيرة العربية في سعيهم لوقف حركة الملاحة والتجارة العربية بين الشرق والغرب ، وذلك عن طريق اغلاق منافذ التجارة التي يستخدمها العرب والمسلمون في البحر الاحمر والخليج العربي (٣)

ولتحقيق ذلك ، ارسل ملك البرتغال حملة بحرية في عام ١٥٠٦م بقيادة ترستودي كانه(Tresto de Conha) يساعده البوكيرك لاقامة قلعة في جزيرة سوقطرة من اجل فرض حصار على مدخل البحر الاحمر ، وكانت هذه الجزيرة تمثل موقعا نموذجيا وبالنسبة لاهداف الخطة البرتغالية ، فهي تقع في مواجهة الساحل الجنوبي لشبه جزيرة العرب وفي منتصف الطريق تماما بين الخليج العربي وبين البحر الاحمر (٤) واستولت الحملة البرتغالية على جزيرة سوقطرة عنوة وقتلت حامية قلعتها بعد ان رفض حاكمها السلطان ابراهيم تسليمها لهم ، واطلق دي كونها اسم القديس توماس عليها ،

وعين قريبه الفونسودي نورونها (Alfonso de Noronha) حاكما عليها (٥) ، وترك حامية برتغالية لتكون قاعدة بحرية تتحكم في تجارة البحر الاحمر. والمعروف انه لم يطل بقاء البرتغاليين في هذه الجزيرة ، فقد غادروها فيما بعد لعدم توفر مقومات الاستقرار بها ، وهي خطوة اضعفت استفادتهم منها حربيا وتجاريا (٦).

والجدير بالذكر ان تريستان دي كونها تابع سيره ، بينما استلم البوكيرك معظم السفن واتجه نحو باب المندب واحرق جزيرة بريم الصغيرة عند مدخل البحر الاحمر ، لكنه عجز عن النزول في عدن (٧) ، فارتد الى الشرق حيث اراد ان يجرب حظه امام المنفذ الثاني لتجارة المسلمين ، اي في الخليج العربي . والبوكيرك لم يكن اول البرتغاليين الذين حاولو الوصول الى الخليج العربي ، فقد سبقه الميدا عندما قاد اول اسطول برتغالي بلغ الخليج سنة ١٥٠٥م ، واقتصرت زيارته على الدرس والاستطلاع (٨).

لقد ارتبط ذكر الغزو البرتغالي لمراكز التجارة في الخليج العربي بسيرة البوكيرك فبعد مغادرته جزيرة سوقطرة وصل جزيرة مصيرة في او اخر آب (أغسطس) ١٥٠٧م ثم ابحر الى رأس الحد حيث اشعل النار في السفن العربية التي وجدها راسية فيه ، ثم غادرها متجها الى الغرب ورسا عند قلهات ، وكانت قلهات يومئذ محطة لتموين السفن القادمة من الهند ومحمية تابعة لمملكة هرمز الفارسية ، وكان البوكيرك قد خطط للقضاء على هذه المملكة بالاستيلاء على جميع الموانيء التابعة لها. وبعد وصوله الى مدينة قلهات بيوم واحد ارسل البوكيرك الى الحاكم وفدا يطلب تسليم المدينة دون قيد او شرط ونقل تبعيتها لملك البرتغال (٩) . لقد وافق الحاكم الفارسي على الطلب خوفا من تدمير المدينة وقدم للبوكيرك الامدادات اللازمة للاسطول وعقد معه صلحا (١٠) وعلى الرغم من هذا الصلح ، لم تسلم المدينة من التدمير والنهب (١١).

اما قريات التي تقع على بعد عشرة فراسخ من قلهات ، فقد وجد البوكيرك لدى سكانها

استعدادا للمقاومة ، لذلك لم يبعث اليهم بوفد كما فعل مع قلهات ، بل قصف المدينة بعنف فوجد استبسالا في التصدي والمقاومة مما اطال زمن المعركة ، ولكن في النهاية تغلبت الاسلحة البرتغالية القوية فتراجع أهل المدينة ودخلها البوكيرك وارتكب فيها مذبحة بشعة ، قتل البرتغاليون فيها كل من وقع في ايديهم من الاهالي (١٢).

بعد ذلك ابحر البوكيرك الى مسقط ، وكانت تعد من اقوى المعاقل العمانية ، فتقدم اليه وفد من اهالي المدينة عارضين استعدادهم سلما ، ورجوا منه عدم التعرض لمدينتهم بسوء .. وفي اثناء المفاوضات تلقت مسقط تعزيزات كبيرة من ملك هرمز ، مما جعل وفدها يتفاوض من مركز القوة . وقد اشترط عليهم البوكيرك دفع ضريبة سنوية وامداد اسطوله بالمؤن والماء والخضوع لملك البرتغال . لقد وافق الوفد على هذه الشروط باستثناء الخضوع لملك البرتغال ، ففشلت المفاوضات ، وبالتالي هاجم البوكيرك مسقط من عدة جهات . اما سكان المدينة فقد قاوموا بضراوة وانزلوا بقوات البوكيرك خسائر كبيرة ، لكن البرتغاليين استطاعوا في النهاية اقتحام المدينة والاستيلاء عليها ، وفي اعقاب ذلك اضرموا النار فيها واحرقوا السفن الراسية في مينائها(١٣).

بعد تدمير مسقط سار البوكيرك باسطوله الى صحار التي استسلمت دون مقاومة ، رغم وجود قلعة ضخمة فيها . وتم تسليم المدينة بواسطة حاكمها وبعض كبار الشخصيات ، ووافق القائد البرتغالي على ابقاء حاكم المدينة مسؤولا عنها ، بعد ان فرض عليه ضريبة سنوية والزمه بالاعتراف بالولاء للملك البرتغالي (١٤) . وبعد صحار توجه الاسطول البرتغالي الى خورفكان ، وبما ان سكان هذه البلدة هبوا لمقاومة البرتغاليين، فقد قرر البوكيرك تدميرها ونهبها (١٥).

والجدير بالذكر ان ماقام به البوكيرك من غزو المدن التي ذكرناها كان تمهيدا لما سيقوم به من غزو هرمز المسيطرة على معظم الموانيء العربية في الخليج العربي ، من جهة ، وفي تجارة الشرق الاقصى ، من جهة اخرى. ورغم ان الجزيرة قاحلة لاتنمو فيها النباتات والاشجار ، فانها كانت مع ذلك

على مستوى عال من الغنى والرفاهية ، واذا كانت هرمز تدين في بداية القرن السادس عشر بولاء اسمي لملك الفرس وتدفع له ضريبة سنوية فانها كانت رغم ذلك تتحكم في جل جزر الخليج العربي وموانيه من عمان الى القطيف الى البحرين (١٦).

ونظرا لاهمية هرمز السياسة والاستراتيجية حظيت باهتمام من لدن البوكيرك . لكن كان الامر يتطلب من البرتغاليين اتباع الحذر قبل القيام بأي هجوم عليها ، فقد علم البرتغاليون ان هناك تجمعات كبيرة للقوات المسلحة تحتشد على الساحل ، وعند ابلاغ ملك هرمز باقتراب اسطول البرتغال امر بالاستعداد للتصدي للهجوم ، وكان ملك هرمز سيف الدين ، وهو ابن اثنى عشر عاما ، تحت وصاية مربيه الشيخ خوجه عطار الذي عمل جاهدا على جمع اكبر قدر من القوات - من الفرس والعرب - لحماية الجزيرة (١٧) ، بالاضافة الى السفن المسلحة التي كانت تابعة لهرمز.

دعا البوكيرك ملك هرمز الى اعلان ولائه لملك البرتغال ، وبما ان هذه المحاولة لم تنجح وبالرغم من التفوق الهائل في قوات ملك هرمز ومعارضة مساعدي البوكيرك على القيام بأي عمليات عسكرية ضد هرمز ، الا انه فتح المعركة باسطوله الصغير نسبيا ، ويذكر ويلسون في كتابه ان البوكيرك استطاع ان يحقق نصرا بحريا كاملا وان لم يكن سهلا (١٨).

وانتهت المعركة بقبول الشيخ عطار والملك سيف الدين شروط الاستسلام ، وهي دفع ضريبة سنوية والخضوع لملك البرتغال وبناء قلعة على الجزيرة (١٩) مقابل اعتراف البرتغاليين بالشيخ سيف الدين حاكما على هرمز . ومن المعروف ان تهديدات الشاه الفارسي اسماعيل هي التي املت على الشيخ سيف الدين اتخاذه هذا الموقف (٢٠).

لقد اصبح سيف الدين بمقتضى الشروط التي جاءت في اتفاقية الاستسلام تابعا للتاج البرتغالي ، كما رفض سيف الدين رسالة من الشاه اسماعيل ، ملك فارس ، يطلب منه الولاء انصياعا لاوامر البوكيرك (٢١) . والاهم من ذلك كله هو ان السفن التي تبحر في الخليج العربي بأسره ، وليس

في مملكه هرمز وحدها ، اصبح لزاما عليها - بعد التوقيع على الاتفاقية ان تحصل على اذن خاص يصدره ممثلوا البرتغال في هرمز (٢٢) وبذلك العمل كتب البرتغاليون الفصل الاول في سفر سيادتهم البحرية والتجارية مع الخليج العربي.

ومن ناحية اخري ، فان هرمز نجت مؤقتا من الدمار الذي لحق بموانئها العربية وربما يعود ذلك الى تمرد ضباط الاسطول البرتغالي الذين رغبوا في الحصول على الثروة بدلا من القيام بمغامرات بحرية (٢٣) ، مما اضطر البوكيرك الى التوجه الى الهند ، وهناك اختلف مع نائب الملك البرتغالي الميدا ، وحين رفع الخلاف الى ملك البرتغال لتسويته (٢٤) اخذ بوجهة نظر البوكيرك وانتهى الامر بتعيين هذا الاخير حاكما برتغاليا في الهند بدلا من الميدا . ويقول صلاح العقاد ان السبب الرئيسي في هذا التغيير هو كره حكومة لشبونه بقاء اي شخص مدة طويلة في هذا المنصب الهام والبعيد عن مراقبة الدولة (٢٥).

وقد بدأ البوكيرك حكمه بأن نقل المقر الرئيسي للبرتغاليين من كنانور على الطرف الجنوبي لشبه جزيرة الهند الى جوا على ساحل ملبار المطل على بحر العرب ، فدل بذلك على انه ينوي توجيه سياسته التوسعية نحو الخليج العربي . وقد جعل من جوا قاعدة للحكم البرتغالي في الهند وقاعدة عسكرية قوية . ولتنفيذ ذلك قرر البوكيرك العودة الى العمل العسكري في منطقة الخليج العربي ، ، وكانت قد وصلت اليه في تلك الاثناء معلومات عن وفاة حاكم هرمز الذي كان خلال حياته يعارض بشدة وجود حامية برتغالية في جزيرة هرمز . لذلك قرر البوكيرك ارسال حملة بقيادة ابن اخيه بدرو دي البوكيرك (Pedro de Albuquerque) الذي وصل الى هرمز سنة ١٥١٤ ، غير انه لم يحقق نصرا يذكر من خلال المفاوضات التي اجراها بشأن الحامية ودفع الجزية ، ذلك ان ملك هرمز قد اعترف فعلا بسيادة الشاه اسماعيل ملك فارس (٢٦) وهكذا عاد بدرو ادراجه وقدم تقريرا الى عمه.

بموجب تقرير بدرو هذا ، قرر البوكيرك التوجه شخصيا الى هرمز فأبحر يرافقه سبع سفن

تحمل ١٥٠٠ برتغالي وبعض الجنود الهنود من ملبار (Malabar) (٢٧) ، وقبل وصول البوكيرك الى هرمز ، علم بأن ثورة اندلعت بها وان ملكها قد اصبح اسيرا لدى شخص يسمى رئيس احمد ، لكن كانت النتيجة ان قتل هذا وافرج عن الملك . وبعد مفاوضات طويلة مع توران شاه حاكم هرمز ووزيره نور الدين ، استرد البرتغاليين الحامية ورفع العلم البرتغالي على مقر الحاكم ، وبذلك توطدت سيادة البرتغاليين في هرمز ، وخضعت للحكم البرتغالي المباشر (٢٨). وتقرر بموجب الاتفاقية التي عقدت بين الطرفين دفع اتاوة تدفع كل سنة لتغطية مصاريف حصن البرتغاليين والحامية في هرمز واوكل حكم القلعة الى حاكم برتغالي (٢٩) ، وكان هذا الحاكم هو بدرو ابن اخي البوكيرك ، فقد عينه البوكيرك في هذا المنصب وزوده بالتعليمات المتعلقة بانجاز الاجراءات الخاصة بالحامية البرتغالية ، ثم اقلع على احدى السفن راجعا الى الهند ، حيث توفى في جوا بعد وصوله مباشرة في ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٥١٥(٣٠).

وبعد وفاة البوكيرك مارس البرتغاليون سيطرتهم القصوى في الخليج العربي ، وان لم تكن هادئة عموما ، واستمرت هرمز ، بحكم موقعها المتحكم في مدخل الخليج العربي تحتل مركزا رئيسيا في نشاطاتهم . وكانت كل تجارة البرتغال مع البصرة وغيرها من موانىء الخليج العربي بما فيها مسقط تمر عن طريق ميناء هرمز ، ان الوجود البرتغالي في هرمز ساهم في احتفاظ حكامها بالسلطة على التوالي ، لكنها كانت سلطة شكلية فقد ارغمهم البرتغاليون على الولاء لملك البرتغال ، ولم يكن يسمح لهم بمغادرة الجزيرة من غير موافقة الحاكم البرتغالي . ومع ذلك ، قامت اضطرابات في هرمز استدعت ارسال تعزيزات برتغالية كان من مهامها ايضا الاستيلاء على الجمارك ، حيث ان موضوع الجمارك اصبح ذات اهمية فائقة.

كان ملك البرتغال قد قرر في وقت مبكر ان المواطنين البرتغاليين ينبغي ان يحلوا محل المواطنين المحليين في دار الجمارك في هرمز ، وقاوم توران شاه هذا التغيير ، ولكن مقاومته باءت

بالفشل اذ انه اغتيل وجيء بأمير صغير ، محمد شاه ، ليخلفه على العرش وفي ١٥ تموز (يوليو) ١٥٢٣ م عقد دورات دي مينيزيس(Durate de Menizes) حاكم الهند ، مع الامير الجديد ووزيره شرف الدين ، اتفاقية تقضي برفع الجزية السنوية وتنص ايضا على عدد من التنظيمات تؤدي الى تعزيز موقع البرتغاليين في هرمز والى تكريس سيطرتهم على الفعاليات التجارية في الجزيرة (٣١) . كما الغت هذه الاتفاقية الحماية البرتغالية على الجزيرة وربطتها رأسا بالحكومة البرتغالية في لشبونه ، وبذلك ضعف امل سكان جزيرة هرمز في الحكم الذاتي (٣٢) ، واصبحوا جزءا من الامبراطورية.

والحقيقة ان الاضطرابات المعادية للبرتغاليين لم تحدث فقط في هرمز ، بل تكررت في كل من قلهات ومسقط في عام ١٥٢٦ ، وكان يتزعمها رجل يدعى رئيس شرف الدين . وجاءت تلك الحركات نتيجة لعمليات الابتزاز التي قام بها الحاكم البرتغالي في هرمز ، ديوجودي ميلو-Diogo de Mel) lo) (٣٣) ، لكنها تمت على يد حاكم الهند البرتغالي ، بمساعدة اسطوله الكبير.

وفي سنة ١٥٢٩ ارسل البرتغاليون حملة الى البحرين (٣٤) ويرجع سبب الحملة الى ان حاكم البحرين الرئيس بدر الدين ثار ضد هرمز وامتنع عن دفع الجزية التي كان يجب ان يدفعها ، فأرسل نونو دا كونها (Nuno da Cunha) نائب ملك الهند اخاه سيما داكونها (Simao da Cunha) برفقة خمس سفن وحوالي ٥٠٠ رجل الى البحرين . ولما رفض الرئيس بدر الدين - وكان تحت امرته ٨٠٠ رجل - تسليم حصن البحرين ، قصف البرتغاليون الحصن بالمدافع (٣٥) غير ان هذه العملية باءت بالفشل الذريع (٣٦) ، رغم كثافة القصف ، وبالتالي اجبر البرتغاليون على الانسحاب الى هرمز.

وفي سنة ١٥٢٩م نفسها ، جرت اولى المحاولات البرتغالية على رأس الخليج العربي حيث ظهر البرتغاليون للمرة الاولى في البصرة . فقد استعان امير البصرة راشد بن مغامس بالبرتغاليين ضد خصمه امير الحويزة (٣٧) فبعث دي كونها نائب الملك في الهند حملة بقيادة بلشوار دي سوسا تافاريز (Belchoir de Sousa Tavares) ، لكن دب الخلاف بين القائد البرتغالي وأمير البصرة ،

والسبب في ذلك - كما يذكر ويلسون - هو ان حاكم البصرة رفض تسليم سبع سفن من السفن التركية للبرتغاليين او ان يحول بين الاتراك وبين ممارسة التجارة في البصرة (٣٨) فقام القائد البرتغالى بتدمير بعض القرى العراقية التابعة للبصرة وعاد ادراجه الى هرمز (٣٩).

وفي عام ١٥٣٩ ، استولى ملك الاحساء ، ابن رشيد ، على القطيف التي كانت تدين بالولاء لملك هرمز ، الامر الذي جعل هذا الاخير يطلب من البرتغاليين ارجاعها اليه ، الا ان قلة امكانات البرتغاليين كانت تحول دون تحقيق تلك الرغبة ، وبما ان ملك هرمز تعهد بتحمل مصاريف الحملة ، فان البرتغاليين قبلوا بتوجيه حملة ضمت ٢٠٠ برتغالي وحوالي ٧٠٠٠ جندي من جنود ملك هرمز . وبعد استراحة الاسطول بالبحرين ، تم الهجوم على القطيف التي كان بها ٣٠٠٠ محارب . وقد ادى القصف المدفعي الكثيف الى فتح ثغرة صغيرة في السور عبر منها البرتغاليون مقتحمين المدينة ، التي سلمت من جديد الى ملك هرمز (٤٠).

مما سبق ذكره ، نلاحظ ان البرتغاليين استطاعوا مابين ١٥٠٧ و ١٥٣٩ ان يسيطروا على حركة الملاحة والتجارة في مياه الخليج ، منذ ان استولى البوكيرك على هرمز والموانيء العربية التابعة لها . وقد تمكن البرتغاليون من اخماد الثورات التي كانت تقوم ضدهم من آن الى آخر في مناطق الخليج التي سيطروا عليها مثل هرمز والبحرين ومسقط والقطيف .

ثانيا : وصول العثمانيين الى الخليج العربي : الدوافع والظروف المواكبة.

ادرك المماليك في عهد قانصوة الغوري (١٥٠١م - ١٥١٦ م) الاخطار البرتغالية التي هددت كيان مصر ، بعد تثبيت البرتغاليين سيطرتهم في المحيط الهندي ، لان البرتغاليين كان همهم الاول منع التجارة بين الهند والبحر الاحمر والخليج العربي ، لذلك حاولوا التصدي للبرتغاليين.

لقد استنجد حاكم الكجرات بالهند محمود خان الاول (١٤٥٨م - ١٥١١م) بالغوري وطلب منه

العون العاجل ضد البرتغاليين ، فأرسل السلطان المملوكي اسطوله بقيادة حسين بك سنة ١٥٠٨م. لكن هذا الاسطول هزم امام البرتغاليين في عدة معارك كانت اقساها هي موقعة ديو البحرية على شواطىء الهند سنة ١٥٠٩ م ،وهي الموقعة التي حطم فيها الميدا الاسطول المملوكي والحق به خسائر فادحة فعاد الى مصر . في اعقاب هذه الهزيمة استنجذ الغوري بالسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١م- ١٥١٢م) (٤٢) مناشدا اياه العون في اعداد ماتحتاجه مصر من سفن . وفي عام ١٥١١ وصلت عدة سفن عثمانية تحمل الاخشاب والحديد والبارود والمكاحل والبنادق (٤٣) بالاضافة الى مواد السفن ، مع الفنيين المختصين الى ميناء السويس.

لقد ادت هذه المساعدة العثمانية الى اعداد حملة بحرية في شهر آب (أغسطس) سنة ١٥١٥م عرفت حينذاك بحملة الهند ، وعين الرئيس سليمان العثماني قائدا للاسطول على ان يتولى قيادة الحملة حسين الكردي نائب جده بمجرد وصولها الى هناك (٤٤) ، غير ان هذه الحملة لم يكن مقدرا لها ان تصل الى هدفها النهائي في الهند، فالعقبات التي واجهتها امام السواحل اليمنية اجبرتها ، بالتظافر مع ظروف اخرى ، على التوقف عند عدن (٤٥) . وهكذا لم يستطع الاسطول تنفيذ المهمة الاساسية التي اسندت اليه ، لكن من جانب آخر ، ضعفت احتمالات دخول البرتغاليين الى البحر الاحمر . في غضون ذلك كانت الدولة المملوكية تدخل مرحلة الاحتضار.

لقد بدأ التوسع العثماني في البلاد العربية في نفس الفترة التي حدث فيها الغزو البرتغالي للمياه العربية . غير ان المجابهة العسكرية بين الطرفين كانت محتملة الوقوع في النصف الاول من القرن السادس عشر . وزاد من حتمية هذه المجابهة انتقال السيادة في العالم العربي من المماليك الى العثمانيين في سنة ١٥١٧ م. منذ ذلك الوقت بدأ هؤلاء الاخيرون يحملون بأنفسهم لواء الحرب ضد البرتغاليين في البحار الشرقية ، اذ كان عليهم ان يعالجوا اهم المشاكل السياسية والاقتصادية التي واجهوها في مصر ، بعد ان حول البرتغاليون طريق التجارة عنها وعن منطقة الشرق الادنى الى رأس

الرجاء الصالح (٤٧) . والذي زاد من خطورة البرتغاليين في نظر العثمانيين تحالفهم مع الشيعة الصفويين في ايران (٤٧) ، الذين كانوا على عداء مذهبي مع الدولة العثمانية.

والحقيقة التي لابد من ذكرها هنا ان العثمانيين ادركوا وفي وقت مبكر ان رخاء الشرق الادنى يعتمد على فتح الطريق التجارية بين الهند وتلك المنطقة (٤٨) . ففي عام ١٥٢٥ م اطلع السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) على نسخة منقحة لكتاب بيري رئيس (٤٩). المعنون كتابي بحرية ، وهو كتاب يعقد فيه المؤلف فصلا عن الرحلات الى العالم الجديد والمحيط الهندي . كذلك تسلم السلطان تقريرا مفصلا من القائد البحري سليمان رئيس حول حجم القوات العثمانية والبرتغالية الموجودة في المحيط الهندي واهدافها . وفي تقريره هذا دعا سليمان رئيس الى زيادة العمليات ضد البرتغاليين ، الذين صاروا يوجهون معظم التجارة الهندية الى البرتغال بعد ان كان اكثرها في الماضي يمر عبر مصر (٥٠) وهكذا يمكن القول ان من اسباب المجابهة العثمانية - البرتغالية في المياه العربية وخاصة بعد سقوط دولة المماليك ١٥١٧م ، عزم العثمانيون على اعادة الحياة للطرق التجارية القديمة مابين الهند والبلاد العربية ومحاولة تحطيم الاحتكار البرتغالي للتجارة الشرقية.

ولذلك نشط العثمانيون في متابعة النهوض بالعبء الذي ورثوه عن الدولة المملوكية ، وذلك باعداد الاساطيل لمدافعه البرتغاليين عن المياه والسواحل العربية . لقد اتخذوا السويس قاعدة بحرية لهم ، بل ظلت القاعدة الوحيدة لعملياتهم الحربية التي اشتدت حتى توغلت في الخليج العربي.

ان اول محاولة عثمانية في اتجاه الصراع مع البرتغاليين جاءت سنة ١٥٣٨ ، عندما استعان سلطان كجرات الهندية بالسطان سليمان القانوني . فقد ارسلت حملة بحرية ضخمة من السويس هدفها طرد البرتغاليين من ديو (٥١) لقد بعثت الاسر الحاكمة في الهند تستنجد بالسلطان سليمان ضد البرتغاليين منذ عام ١٥٢٧ . لكن مشاغل الدولة العثمانية ادت الى تأخير ذلك (٥٢) وقد عين سليمان باشا الخادم بيليربي مصر سابقا ليقود الحملة حيث ابحر الى الساحل الغربي للهند (٥٣)

وضرب حصارا على حصن ديو في كجرات ، لكن الحصار لم يكن ناجحا (٥٤) ومع هذا فقد ترك انطباعا قويا لدى البرتغاليين عن الخطر المحتمل للقوة البحرية العثمانية . وبعد ثلاث سنوات عبر ايستافودي جاما (Estavo de Gama) ابن فاسكو دي جاما البحر الاحمر هادفا الى مهاجمة السويس غير ان هذه الحملة لم تأت بنتائج مثمرة (٥٥) وبذلك ظل العثمانيون سادة البحر الاحمر.

وبعد ان أمن العثمانيون مدخل البحر الاحمر وابعدوا عنه الخطر البرتغالي ، احتدم الصراع بينهم وبين البرتغاليين في الخليج العربي . فقد كان من أهداف العثمانيين تطهير هذا الخليج من البرتغاليين الذين تمكنوا من انتزاع بعض مناطقه من أهاليه بالقوة . وكان هدفهم ايضا سد المداخل الجنوبية للمياه العربية في وجه الاسطول البرتغالي وتأمين سلامة المناطق العربية الواقعة بالقرب منها . وكان البرتغاليون يهدفون الى السيطرة على المناطق الاستراتيجية الحساسة في المياه العربية وعلى الشواطىء ايضا ، لتأمين تجارتهم والقضاء على خطر العثمانيين عليهم ، خاصة بعد ان تأكدوا من ان الدولة العثمانية لاتستطيع ان تواجههم في مياه الهند بشكل خاص ، وفي المحيط الهندي بشكل عام.

ومن ناحية اخرى ، فان وصول العثمانيين الى الخليج العربي كان مرتبطا باستراتيجية عثمانية ترتبط اساسا بالتصدي للصفويين ، وبالتالي ، ضم العراق والوصول الى رأس الخليج العربي الذي تقع عليه البصرة . وقد تم تنفيذ هذه الخطة في زمن السلطان سليمان القانوني.

لقد زحف السلطان سليمان نحو ايران وفي حملة استمرت مابين ١٥٣٤ م- ١٥٣٥م جلبت له مكاسب حيوية في شرق آسيا الصغرى ، كما شهدت هذه الحملة غزو العراق. لقد كان هناك عدد من الاعتبارات حملت العثمانيين على أن يشنوا حربا ضد الصفويين ، منها الرغبة في تحقيق السيادة الفعلية على طرق التجارة المهمة امثال طريق الحرير الذي كان يسير من تبريز الى ارضروم وبورصة ، وطريق التوابل الذي كان يمتد من البصرة الى بغداد وحلب كما ان احتلال العراق يمكن ينظر اليه من النواحي السياسية والعسكرية على انه استكمال منطقي للفتح العثماني لسوريا ومصر في ١٥١٦ م-

١٥١٧م ، فضلا عن تواجد حالة من الاحتكاك المستمر على الحدود الشرقية ، لاسيما آسيا الصغرى بين العناصر المؤيدة للصفويين وتلك المؤيدة للسلطات العثمانية . كل ذلك شجع الصدر الاعظم ابراهيم باشا على ان يحتل تبريز في عام ١٥٣٤م ثم انضم السلطان سليمان الى الصدر الاعظم . وبعد زحف مشترك ، دخل العثمانيون بغداد في كانون الاول (ديسمبر) من نفس العام عندما هرب القائد الصفوي تقيلي خان (٥٦).

وبذلك اعطت هذه الحملة العثمانيين فرصة اخذ المنطقة الواقعة حول ارضروم وشمال العراق واوساطه ، حتى ذلك التاريخ لم تمتد سيادتهم الفعلية الى البصرة والحسا ، اذ اكتفى العثمانيون باقامة ولايتين عثمانيتين في العراق هما بغداد والموصل ، بينما تركوا البصرة وماحولها لشيوخ القبائل العربية النازلة هناك (٥٧).

ومما لاشك فيه ان هذه الخطوة التي انتهت بدخول بغداد قد اوجدت تغييرا في موازين القوى في المنطقة حيث ابعد شبح سيطرة الصفويين عن البصرة وشرق الجزيرة العربية . غير ان الخطر الآتي من جانب البرتغاليين المنتشرين في الخليج العربي بقوات بحرية كبيرة اجبر حكام هذه المنطقة على عدم التباطؤ في تقوية ارتباطهم بالباب العالي. فقد نظر سكان الخليج العربي الى الدولة العثمانية على انها حامية الحرمين وهي الملجأ وقتذاك للعالم الاسلامي في الملمات ، فقد كانت دولة عظيمة ودولة بحرية تستطيع انزال اسطول بحري في الخليج العربي عن طريق السويس يواجه الاسطول البرتغالي ، لذلك بادر حكام الخليج فور استيلاء العثمانيين على بغداد الى التعبير عن ارتياحهم لانتصارات هؤلاء ورأو فيهم الضمانة الوحيدة ضد اعتداءات البرتغاليين ، فقرروا الواحد تلو الآخر الاعتراف بسيادة السلطان العثماني (٥٨).

فقد تسلم السلطان العمثاني خلال مدة بقائه في بغداد التي امتدت من كانون الاول (ديسمبر) ١٥٣٤م الى نيسان (ابريل) ١٥٣٥م مفاتيح البصرة التي ارسلها حاكم البصرة راشد بن مغامس

بواسطة ابنه ، كذلك قدم الرؤساء المحليون في اهوار الجذاير ، الفراف ، لورستان والحويزة بالقرب من خوزستان ولاءهم للعثمانيين ، وقدمت الى بغداد وفود من شيوخ القطيف والبحرين حاملين معهم رسائل الترحيب الى السلطان ، فأصبحوا كلهم تابعين للباب العالي ومنحوا القابا عثمانية وتأكيدات ثابتة بالدعم والحماية (٥٩) ، ومهما يكن فقد نجح هؤلاء في الحصول على حماية العثمانيين وهي الحماية التي كانوا بحاجة اليها ضد البرتغاليين.

تجددت سلطة الباب العالي في المرحلة الاولى بشكل اساسي في تكريس خطبة الجمعة للسلطان . وفي احسن الحالات ، كان العثمانيون يرسلون السلاح ويبنون الحصون وينشئون الحاميات الصغيرة . ومع مرور الوقت ، وانطلاقا من مصالح السلطنة العامة ، بدأوا يتدخلون في شؤون الحياة الداخلية للامارات التابعة لهم وفي تنظيم العلاقات فيما بينها . على ان الاتصالات المنفردة التي اخذ يجريها الحكام المحليون مع البرتغاليين وكذلك ايواؤهم للافراد البرتغاليين الهاربين من عقاب السلطان والقضاء العثماني - كانت تجاوزات ادت الى سوء تفاهم مع العثمانيين ، وحدث ان تطورت حالة سوء تفاهم من هذا القبيل الى صدام خطير بين السلطات العثمانية وحاكم البصرة ، فتحركت القوات العثمانية والاسطول النهري بقيادة والي بغداد في حملة باتجاه البصرة ، وبعد بضعة معارك تمكن العثمانيون في ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٥٤٦م من دخول البصرة (٦٠) وتحول جنوب العراق الى ولاية تابعة للسلطنة العثمانية . اما البصرة فقد صارت بيلر بيلك وتحت سيطرة عثمانية مباشرة. (٦١).

ثالثاً : الصراع العثماني البرتغالي

مما لاشك فيه ان استنجاد عرب الخليج بالعثمانيين ساهم في وصول هؤلاء الى المنطقة وبالتالي تدخلهم في شؤونها . لكن استيلاءهم على البصرة عام ١٥٤٦م كان فاتحة تواجدهم الفعلي في الخليج العربي.

لقد اصبحت البصرة القاعدة البحرية والعسكرية الثانية بعد السويس للسلطنة العثمانية في

البحار الجنوبية ، وحاول العثمانيون انطلاقا من هذه القاعدة طرد البرتغاليين من الخليج العربي وضمان امن ولاية الحسا التابعة لهم والتي كانت تضم نجد وكل شواطيء الخليج من الكويت حتى رأس مسندم على الشاطىء الغربي لمضيق هرمز (٦٢) . وبعد ان وطد العثمانيون اقدامهم في مناطق الحسا الداخلية عمدوا الى محاصرة القلاع البرتغالية على الشواطىء ، فاستسلم عدد منها وفي عام ١٥٥٠م احتل العثمانيون القطيف ـ نقطة الارتكاز الرئيسية للبرتغاليين في الخليج العربي. فقد حطم المواطنون الحامية البرتغالية واستولوا على القلعة وطلبوا مساعدة القوات العثمانية (٦٣) واعلنوا انهم لايدينون بالولاء لحاكم هرمز حليف البرتغاليين وانهم يفضلون ان يدخلوا في حماية العثمانيين (٦٤) . ولم يكد العثمانيون يدخلون المدينة حتى ظهر الاسطول البرتغالي قبالة ساحل القطيف ، فحدث صدام بين القوتين البرتغالية والعثمانية في سنة ١٥٥٠م ، وكان ذلك اول مواجهة عسكرية تقع في الخليج العربي بين الدولتين.

لقد افزعت هذه الحادثة البرتغاليين وجعلت الفونسو دي نورونها الحاكم البرتغالي في الهند ان يبادر الى تعيين انطاو دي نورونها قائدا لقوة تتألف من ١٢٠٠ رجل وسبع سفن كبيرة مصدرا اليه ، في نفس الوقت ، او امره بالتحرك ضد الاتراك في الخليج العربي . وعلاوة على ذلك ، طلب من توران شاه ، حاكم هرمز ان يمد انطاو بثلاثة آلاف رجل من اجل مغامرة القطيف هذه. كان الاتراك في القطيف حوالي ٤٠٠ رجل دافعوا عن انفسهم ببسالة ، لكنهم اخيرا استسلموا للبرتغاليين بعد حصار دام ثمانية ايام. في غمرة انتصارهم دمر البرتغاليون حصن القطيف ثم حاولوا الزحف نحو البصرة ، لكنهم لم يحققوا شيئا (٦٥).

ادرك العثمانيون بعد حادثة القطيف انه لا امل لهم في تحقيق انتصار حاسم ضد البرتغاليين ، ومن ثم فرض سيطرة طويلة الامد في الخليج ، دون اسطول قوي. فبدأت الاستعدادات لاقامة ترسانات وتشييد احواض لبناء السفن في البصرة ، كما قرر العثمانيون توحيد قواتهم في المحيط

الهندي ووضعها تحت قيادة باشا قابودان البحر الاحمر . وفي عام ١٥٥٢م ، عهد العثمانيون الى محيى الدين بيرى رئيس قابودان مصر باقامة حاجز بحري في الخليج العربي وعدم السماح بتكرار مأساة القطيف . واخيرا خرج بيري رئيس على رأس عمارة بحرية كبيرة مؤلفة من ثلاثين سفينة حربية على متنها ١٦ الف رجل من السويس متجها الى شواطىء الخليج العربي (٦٦).

استطاع الاسطول العثماني تدمير عدة محطات تجارية برتغالية وقام بالهجوم على مسقط وتدميرها وارغم قائد الحامية البرتغالي جواو دي لزبوا (Joao de Lisboa) على الاستسلام هو والحامية ، ثم اتجه الى هرمز (٦٧) . لقد قرر بيري رئيس الدخول الى مضيق هرمز ومهاجمة مدينة هرمز ذاتها ، مخالفا التعليمات التي كان قد اصدرها اليه الباب العالي ، ومن المحتمل ان السلطان سليمان القانوني كان يدرك صعوبة احتلال هرمز بسبب تحصيناتها القوية التي انشأها البرتغاليون خلال وجودهم هناك من اربعين سنة (٦٨).

وعند وصول الاتراك الى هرمز في ايلول (سبتمبر) ١٥٥٢م ، كان الفارو دي نورونها (Alvaro de Noronha) حاكما عليها منذ سنة ١٥٥٠ م ، وكان على علم بفعاليات ونشاطات الاسطول العثماني ، لذلك اتخذ كل التدبيرات اللازمة لمقاومة الهجوم ، وحاصر الاتراك مدينة هرمز واطلقوا المدفاع على القلعة بعد ذلك مباشرة ، وقد دافع البرتغاليون ـ وكانوا يحصون سبعمائة مقاتل ـ عن انفسهم دون ان يخاطروا بالخروج من القلعة ومهاجمة الاتراك (٦٩) . امام مقاومة البرتغاليين العنيدة ، اضطر بيرى الى رفع الحصار خوفا من وصول نجدات برتغالية من جوا وتوجه الى جزيرة قشم ، ثم غادرها نحو البصرة في نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٥٢م (٧٠).

وفعلا ، كان حاكم جوا ، الفونسو دي نورونها قد سمع بالخطر العثماني الذي يهدد النفوذ البرتغالي في الخليج العربي نتيجة لنشاط القائد التركي بيرى ، لذلك قرر ان يبحر الى هرمز على ظهر اسطول ضخم يضم اكثر من ثمانين سفينة. وقد علم فور وصوله الى ديو ان الاسطول العثماني قد

اقلع الى البصرة فقرر عدم الذهاب الى هرمز بنفسه ، بل بعث ابن عمه دي نوررنها على رأس الاسطول البرتغالي ووصل الى هرمز ليجد ان الخطر قد زال عنها (٧١).

والجدير بالذكر انه عند وصول بيري الى البصرة رفع قباد باشا بيليربي المنطقة تقريرا على السطان العثماني يتعلق بنشاطات بيرى وكان هذا التقرير في غير صالحه (٧٢) كذلك علم بيري وهو في البصرة ايضا بتقدم اسطول برتغالي قوي نحوه ، وبالتالي احتمال اغلاق مضيق هرمز في وجهه (٧٣) كل ذلك جعله يسرع في مغادرة البصرة بصحبة ثلاث سفن فقط تاركا بقية اسطوله هناك ، ثم عاد الى السويس . وقد اعدم بيرى في اسطنبول سنة ١٥٥٣ م فقد ادى عدم انصياعه للاوامر الى فشل الحملة وتدني سمعة البحرية العثمانية ، ثم انه ترك انطباعا في المنطقة مغادة ان البرتغاليين لايمكن ان يقهروا (٧٤) . بينما يذكر وندل فيليبس ان الخطأ الاساسي الذي ارتكبه بيري هو جمع الثروة لنفسه لا المزايا العسكرية للامبراطورية العثمانية (٧٥).

اما السلطان العثماني سليمان القانونى ، فانه لم يتوان في تعيين قائد يتولى مهمة ارجاع السفن الراسية في البصرة الى السويس . لقد عهد الى مراد ريس والي القطيف بقيادة الاسطول العثماني في البصرة ، وكلفه باعادته الى السويس مع ابقاء قسم منه للدفاع عنها (٧٦).

فخرج مراد بأسطول من البصرة في ٢١ آب (أغسطس) سنة ١٥٥٣م على ظهر اسطول مكون من ١٥ سفينة . وبالقرب من رأس مسندم على الساحل الشرقي للخليج العربي، التقى بالاسطول البرتغالي الذي كان يقوده ديجو دي نورونها ونشبت معركة بينهما وصفها ويلسون بأنها لم تسفر عن غالب او مغلوب (٧٧) . والمهم ان محاولة مراد رئيس لم تكلل بالنجاح ويعلل اوزبران ذلك بأن البرتغاليين كانوا على علم برحلة مراد رئيس وقد حصلوا على معلومات عنها بعد اسرهم سفينة (٧٨) ، وقد تكبد العثمانيون خلال المعركة اضرارا غير قليلة ادت بالتالي بمراد رئيس الى ان يقرر العودة الى البصرة(٧٩).

لم تنجح مهمة مراد رئيس الاساسية وهي اعادة الاسطول العثماني من البصرة الى السويس

ولهذا السبب ولرغبة العثمانيين في هذه المرحلة من مراحل الصراع مع البرتغاليين في اعادة محاولاتهم لاحتلال الموانيء العربية على الخليج العربي ، عهد السلطان سليمان القانوني الى سيدي على رئيس القيام بذلك . وسيدى على افضل قباطنة البحر العثمانيين في عصره ، وهو عالم فلكي شهير له مؤلفات في علوم البحار اشهرها كتاب سماه المحيط (٨٠) ، وهو احد قواد ترسانة السويس وكان في وقت سابق قد عمل في البحرية تحت قيادة خير الدين بربروسا وعقد عليه الباب العالي آمالا كبيرة . فسافر على عجل لتدارك الموقف في الخليج العربي وتخليص السفن المحاصرة في ميناء البصرة ، وقد سلك سيدى علي طريق حلب البرى الى البصرة فوصلها في شباط (فبراير) ١٥٥٤م (٨١).

بعد خمسة اشهر قضاها في التجهيز والاعداد ، اقلع سيدى على من البصرة تموز يوليو سنة ١٥٥٤م على ظهر اسطول ضم خمس عشرة سفينة ، قاصدا موانىء الساحل الشرقي في الخليج العربي وعند سواحل عمان دارت معركة حامية بين سيدى علي والاسطول البرتغالي المكون من خمس وعشرين سفينة يقودها كل من فرنانو دي مينيزيس (Fernando de Menezes) وانطونيو دي نورونها (Antonio de Noronha) وقد تمكن سيدى علي من اغراق سفينة برتغالية واحدة ، وفرت بقية السفن تحت ستار الظلام . بعد ذلك تابع سيدى علي السير ، حتى اذا وصل سواحل مسقط برزت له اثنتان وثلاثون سفينة برتغالية والتحم الاسطولان في معركة طويلة لم تحسم في صالح اي من الطرفين ، فتراجع الاسطول البرتغالي (٨٢) وقد وصف سيدى علي في كتابه مرآة الزمان هذا اللقاء بأنه ناجح - كما يخبرنا اوزيران (٨٣).

غير ان الاسطول البرتغالي اعاد تجهيز نفسه وظهر مرة اخرى في ٣٤ سفينة تحت قيادة فرنانو ، الذي اشتبك مع العثمانيين في معركة جديدة كبدهم فيها خسائر فادحة (٨٤) وبسبب اطلاقات مدافع البرتغاليين والرياح المعاكسة اندفع الاسطول العثماني دون خطة في اتجاه ساحل مكران . حتى اذا تزود بالماء العذب قصد موانىء اليمن ، لكن الرياح الشديدة قذفت به الى ساحل

الهند الغربي فوصل كجرات ، واثناء اقامته فيها تفرق عنه رجاله ودخل بعضهم في خدمة امراء الهند بينما عاد اكثرهم الى بلادهم سرا ، وبعد ان باع سيدي علي سفنه الباقية ومدافعه وذخائره الى حاكم سورات الهندي ، عاد سرا الي استنبول عن طريق بغداد فوصلها في آيار (مايو) ١٥٥٧م، ومعه خمسون من رفاقه وقد انعم عليه السلطان بالمنح والهدايا بعد وصوله(٨٦).

وعلى كل حال فان مرحلة جديدة من مراحل الصراع العثماني / البرتغالي في الخليج العربي بدأت منذ عام ١٥٥٦م واستمرت حتى عام ١٥٨١م، فقد عاود العثمانيون هجومهم على المراكز البرتغالية في الخليج العربي لكن بشكل متقطع ، وتخلل هذا الصراع فترات هدوء ومحاولات للوفاق. ففي عام ١٥٥٦م ابحر الفارودا سيلفيرا (Alvaro da Silveria) قائد الاسطول البرتغالي من جوا في اتجاه البصرة ، وعندما اقترب الاسطول من شط العرب هبت عاصفة ارجعت البرتغاليين الى هرمز دون ان يحققوا شيئا في صالحهم . وكان احد اهداف هذه الحملة البرتغالية مساعدة زعماء القبائل في البصرة ضد اسيادهم العثمانيين ، ولم يكن باستطاعة العثمانيين خلال ذلك ان يهيئوا اية مقاومة ، بسبب فقدان اسطولهم في سلسلة العمليات الحربية التي وقعت حتى ذلك الوقت (٨٧).

ومع ذلك ، ففي سنة ١٥٥٩م اخذ مصطفى باشا بيلربي الحسا على عاتقه القيام بحملة ضد جزيرة البحرين ، وقد تم تجهيز هذه الحملة دون اذن من السلطان (٨٨). وبالفعل ، وصل الاسطول التركي الجزيرة وكان مؤلفا من بارجتين وسبعين سفينة شراعية والعديد من الجنود كانوا عربا من البصرة والاحساء ، وفي الحال طلب الرئيس مراد ، حاكم الجزيرة (٨٩) مساعدة البرتغاليين في هرمز فوافوه بقوة كبيرة مؤلفة من اسطول برتغالي مكون من ٢٢ سفينة لانقاذ الجزيرة ، وكان الاسطول بقيادة جوادى نورونها (Joao de Noronha) ابن عم حاكم هرمز البرتغالي (٩٠) وانضم الى هذه القوة ٣٠٠ فارس جيدى التسلح من جماعة مراد ، وقد الحق مصطفى باشا بالبرتغاليين خسائر فادحة ، ولكن المشكلة كانت في موضوع القدرة على مواصلة خطوط التموين الامر الذي اضطر الاتراك في

النهاية الى قبول مصالحة غير مشرفة (٩١). ويذكر اوزبران في كتابه ان السلام الذي تحقق مع العثمانيين في البحرين كان نتيجة لظروف احاطت بالعملية بالجانبين العثماني والبرتغالي ، لذلك قرر الجانبان العثمانى والبرتغالى انهاء هذا التصارع (٩٢).

هذا وقد لوحظ انه منذ بدء الصراع العثماني / البرتغالي الذي جاء بعد الاحتلال العثماني للبصرة سنة ١٥٤٦م حيث أصبح الخليج العربي مسرحا للتصارع بين القوتين ، لم يستطع البرتغاليون ان يوطدوا انفسهم على سواحل البصرة والقطيف ، في الوقت الذي فشل فيه العثمانيون ان يسيطروا على مضيق هرمز ، وظلت جزيرة البحرين تشكل حدودا فاصلة بين القوى المتنازعة وبصورة عامة فان نتائج هذا الصراع كانت سلبية بالنسبة الى المصالح العثمانية(٩٣).

لذلك وانطلاقا من الفوائد الناجمة عن تشجيع التجارة في بلدان الدولة العثمانية واليها بعث بيلربي البصرة في عام ١٥٦٢م رسولا الى هرمز للتفاوض مع البرتغاليين من اجل اعادة العلاقات التجارية عبر الخليج العربي . وارسل نائب الملك في الهند ايضا شخصا يدعى انطونيو تكسيدا (Antonia Teixeria) الى السلطان ، وقد تقابل هذا الرسول مع السلطان في استنبول . وتكشف الرسالة التي بعثها السلطان الى ملك البرتغال عن الواقع الحقيقي للسياسة العثمانية ، فقد طلبت الرسالة من الملك تأمين سلامة الطرق البرية والبحرية وتوفير الحماية للاهالي والتجار التابعين للامبراطورية العثمانية الذين يمارسون التجارة مع البلدان الخاضعة للنفوذ البرتغالي (٩٤) . ويبدو ان هذه المحاولات للتفاهم والاتفاق لم تسفر عن نتيجة ايجابية.

ان عدم نجاح هذه المحاولات ليس امرا مستهجنا . فالمواجهات بين الطرفين كانت تقع من وقت الى آخر في المحيط الهندي ، مكرسة بذلك الاضطرابات في العلاقات بينهما (٩٥) . كما بدأت الدولة العثمانية تنتهج سياسة متشددة نحو البرتغاليين حيث سعت الى تحريض بيلربى البصرة والحسا راغبة في الرجوع الى سياسة اكثر عدائية فصارت البحرين مرة اخري هدفا للاطماع العثمانية ،

وتزايدت هذه الاطماع بصورة خاصة في سنة ١٥٧٥م ، فالسلطة المركزية طلبت من حكام البصرة والحسا وبغداد ان يتهيأوا ويعدوا العدة لحملة ثانية ، غير ان جميع هذه التحضيرات الاولية لم تأتي بنتائج مثمرة ، واكتفى العثمانيون في عام ١٥٥٧م بتعيين قائد للسفن الرأسية على سواحل الحسا لمراقبة الفعاليات المعادية للدولة العثمانية (٩٦).

حين أخذ النفوذ البرتغالي يضعف تدريجيا في منطقة الخليج العربي وفي المحيط الهندي في الربع الاخير من القرن السادس عشر لاسباب تتعلق بأساليب الحكم والادارة البرتغالية وانتشار الرشوة والفساد في صفوف الضباط ونقص التجهيزات والنجدات العسكرية الى الحاميات البرتغالية في الشرق بدأ العثمانيون يستعيدون نشاطهم العسكري البحري ضد المراكز البرتغالية. (٩٧).

ففي عام ١٥٨١ تحركت اربع سفن عثمانية من ميناء مخا في البحر الاحمر بقيادة الرئيس علي بك الذي كان تحت امرة الوالي العثماني في اليمن ، نحو المشرق بمحاذاة الساحل الغربي (٩٨) . والذي شجع والي اليمن في ارسال هذه الحملة ماتلقاه من معلومات حول غنى عمان وخلوها من وسائل الدفاع (٩٩).

لقد نجح علي بك في مفاجأة الحامية البرتغالية في مسقط وارغامها على الانسحاب المؤقت الى الداخل (١٠٠) حيث لم تكن الحامية البرتغالية مستعدة لصد الهجوم (١٠١) ، ويقول فيليبس كان العسكر البرتغاليون والاهالي المدنيون في مسقط نائمين غير مدركين عواقب الاهمال ، وفي ٢٢ كانون الثاني (ديسبمر) ١٥٨١ وقعت المباغتة الساحقة خلال الهجوم المشترك من الجهة البحرية حيث اطلقت السفن مدافعها بكثافة شديدة ومن ناحية البر عن طريق سرداب خلال المر الضيق الى مسقط (١٠٢) كذلك فان السلطات البرتغالية في هرمز لم تقدم لمسقط مساعدة عسكرية ذات اهمية ، بل اكتفت بتحذير حاميتها (١٠٣) بينما يذكر كل من لوريمر ومايلز انه ارسلت من هرمز حملة لتأديب علي بك لكنها بدل ذلك دمرت موانيء جوادر وتيس على ساحل مكران (١٠٤) وبعد انساحب علي بك عاد

البرتغاليون الى مسقط ، فوجدوا المدينة مدمرة في الوقت الذي فشلوا فيه في ملاحقة العثمانيين (١٠٥).

لقد استطاع علي بك ان ينزل بالبرتغاليين هزيمة ساحقة ، وبعدها توجه الى عدن ومن ثم الى شرقي افريقيا وهناك هاجم المراكز البرتغالية في ممباسا وماليندي ، وفي احدى المعارك هناك سنة ١٥٨٩ وقع علي بك في اسر البرتغاليين فارسلوه الى لشبونة حيث حاولوا تنصيره بالقوة ، ومات هناك نتيجة التعذيب (١٠٦).

لقد كانت المحاولات التي قام بها العثمانيون في البحرين عام ١٥٥٩م وفي مسقط عام ١٥٨١م آخر المحاولات الجدية في الصراع مع البرتغال ، ونجم عن ذلك احتلال عثماني مؤقت ، ولكن في كلتا الحالتين اجبرتهم الاساطيل البرتغالية على الانسحاب ، وكان ذلك ختام محاولاتهم البحرية في الخليج العربي.

نتائج الصراع العثماني/ البرتغالي : ـ

لم يستطع العثمانيون بعد وصولهم الى الخليج العربي عام ١٥٤٦ أن يقوموا بعمل حاسم فيه من حيث عجزهم عن تحطيم السيطرة البرتغالية وهي الغاية الرئيسية التي هدفوا اليها ، وبالتالي فشلوا في طرد البرتغاليين من البحرين ومسقط وهرمز ، بالرغم من المجهودات التي بذلوها في مياه الخليج ضد البرتغاليين.

ومع ذلك ، فالعثمانيين نجحوا في تخفيف الضغط البرتغالي على التجار العرب والامارات الساحلية العربية ونجحوا في منع العدوان البرتغالي من الامتداد والتوسع نحو الداخل حيث استطاعت الدولة العثمانية ارسال الحملات البحرية الى موانيء شرق الجزيرة العربية ، وهي الحملات التي اضعفت النفوذ البرتغالي في الخليج العربي وشتت قواه وكانت احد اسباب انهيار القوة البرتغالية في

القرن السابع عشر الميلادي ، كما استطاعت الدولة العثمانية وعن طريق هذه الحملات الى حد كبير اضعاف الاحتكار التجاري البرتغالي بالاضافة الى حمياتها لرأس الخليج العربي من البرتغاليين (١٠٧) . لقد استطاعت القوة البحرية العثمانية تحقيق كل ذلك متعاونة مع العرب حينا وغير متعاونة معهم احيانا (١٠٨).

اما لماذا لم يستطع العثمانيون تحقيق غايتهم الرئيسية وهي تحطيم السيطرة البرتغالية في الخليج العربي ولم يستطيعوا في الوقت نفسه مواصلة جهودهم البحرية في الخليج بعد عام ١٥٨١ فيمكن اعادتها الى امور متعددة.

فالعثمانيون حين وصلوا الى الخليج العربي وصلوا متأخرين ، فقد سبقهم البرتغاليون الى احتلال هرمز ومسقط ومراكز اخرى حصينة ، صحيح ان العثمانيين احتلوا القطيف والاحساء التي انشأوا فيها ولاية عثمانية ولكن هذا لم يؤد الى نتيجة حاسمة في بسط السيطرة البرتغالية في الخليج العربي.

ومن ناحية اخرى فان الشقة بين الخليج العربي وبين القاعدة العثمانية الاساسية في السويس بعيدة ، وقد ثبت ان السويس ابعد من ان تصلح لارسال حملات بحرية متوالية تتوغل حتى البصرة لهذا مالبثت ان انهارت السيطرة العثمانية في الاجزاء القليلة التي انبسطت عليها في الخليج العربي في النصف الاول من القرن السادس عشر (١٠٩)، هذا بالاضافة الى بعد مراكز بناء الاساطيل العثمانية في البحر المتوسط عن الخليج العربي والمحيط الهندي وصعوبة نقل الاخشاب لتصنيع السفن في البصرة(١١٠).

ان الصراع العثماني البرتغالي في الخليج العربي كان يتم اساسا عن طريق القوة البحرية ، والقوة البحرية العثمانية التي كانت متواجدة في البصرة والحسا كانت ضعيفة فقد كانت متخلفة تقنيا عن السفن البرتغالية ، كما ان دار صناعة السفن العثمانية في البصرة بقيت محدودة الامكانيات لانها

ظلت تخشى من انتقام السلطات البرتغالية في هرمز (١١١).

لقد كان الاسطول العثماني في القرن السادس عشر مؤلفا من سفن صغيرة (Galleys) غير قادرة على التأثير الفعال ضد السفن المحيطية الكبيرة يضاف الى ذلك صعوبة تجهيز وادامة اسطول عثماني تكفي قواته لمواجهة الاساطيل الاوروبية في البحر المتوسط والمحيط الهندي والخليج العربي في الوقت نفسه ، وخاصة لانشغال العثمانيين في الفترة التي وجدوا فيها بالخليج العربي بالحروب البرية الطويلة ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة وضد الدولة الصفوية (١١٢).

والجدير بالذكر ان العثمانيين كانوا يقومون في الخليج العربي بدور الدولة الاسلامية المسؤولة عن الدفاع عن المسلمين ، حيث رحب العرب في الخليج العربي بهذا الدور وقبلوا ان ينزلوا عن قيادة المعركة لهم ، مما مهد السبيل امام العثمانيين للسيطرة على مناطق في الخليح العربي ، لكن الحقيقة التي لابد من ذكرها ان العثمانيين عجزوا عن تحطيم النفوذ البرتغالي في الخليج العربي لعجزهم عن تآليف العرب والمسلمين في توحيد قواهم جميعا لمكافحة السيطرة البرتغالية . ويذكر مايلز في كتابه ان تفكك العالم الاسلامي وانتشار المنازعات فيه اعاق قيام تحالف اسلامي بين العثمانيين والصفويين وامبراطورية الهند المغولية الاسلامية وهذا بدوره ادى الى ضعف الجبهة الاسلامية التي كانت تشكل الدولة العثمانية فيها عنصرا مهما وبالتالي الى اضعاف قوة التصدي العثماني للنفوذ البرتغالي في الخليج العربي (١١٣).

ومن ناحية اخرى ، لايمكن اعفاء الدولة العثمانية من مسؤولية ضعف تصديها للبرتغاليين ، فالعاثمانيون في صراعهم مع البرتغاليين كانت تنقصهم وحدة الاهداف السياسية مما اضطرهم الى تبديل قادة الاساطيل خلال فترات قليلة . كما ان فشل حكمهم في مسقط كان ظاهرة جلية في معارضة الاهالي لهم ، ويذكر صلاح العقاد في كتابه ، سببا يتصل اتصالا مباشرا بالدولة العثمانية وهو ان العثمانيين تركوا معظم النشاط البحري لروح المغامرة عند بعض الافراد من البحارة المشهورين

، مثل بيري بك والرئيس مراد وعلي بك الذين كانوا يتمتعون بحماية الدولة واصابوا الملاحة البرتغالية بأضرار جسيمة ، ولكن هؤلاء البحارة لم يكلفوا انفسهم عناء الحكم المستقر (١١٤).

والحقيقة التي لابد من ذكرها هنا هي ان العثمانيين عجزوا عن اخراج البرتغاليين من الخليج العربي فتركوا هذه المهمة لغيرهم ، تركوها لدول اوروبية اخرى للهولنديين ثم للانجليز ، كما ساهمت القوى المحلية بقسط وافر في هذا المجال ، خاصة عرب عمان الذين انهوا الوجود العسكري البرتغالي في منطقة الخليج العربي.

الخاتمة :

في اطار استراتيجية هدفت الى احتكار حركة التجارة بين الشرق والغرب استطاع البرتغاليون في النصف الاول من القرن السادس عشر ان يمارسوا رقابة فعلية على مياه الخليج العربي دون منافسة حقيقية ، اذ شهدت تلك الفترة غياب قوة عظمى تتولى أمر مواجهتهم في المنطقة . اما السكان المحليون فانهم رفضوا هذا الغزو الاجنبي وابدوا مقاومة غير واهية ، لكن وسائل البرتغاليين المعززة باستخدام البطش والتنكيل ادت الى احباط هذه المحاولات الوطنية.

على ان مثل تلك المنافسة كان مقدر لها ان تولد مع امتداد السيادة العثمانية الى الوطن العربي ، وبالتحديد في اعقاب وصول العثمانيين الى البصرة في سنة ١٥٤٦م وماترتب على ذلك من فرض سيطرتهم على رأس الخليج . كان الصراع بين الطرفين محتوما ، وكانت السياسة التي تبناها السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م) تهدف الى توسيع رقعة سيادة الدولة العثمانية لتشمل الخليج بأسره والى اغلاق مداخل المياه العربية في الجنوب في وجه الاسطول البرتغالي وتأمين سلامة المناطق الساحلية المحلية ـ وهي اهداف صادفت استجابة من جانب السكان المحليين ، الذين نظروا الى الدولة العثمانية بوصفها حامية الديار الاسلامية ، وبالتالي ، لم يعترضوا على مبدأ تقديم الولاء للسلطان العثماني في سبيل الخلاص من قبضة البرتغاليين.

لكن نتيجة الصراع في صورتها الاجمالية اشارت الى اخفاق عثماني . لا جرم ان العثمانيين حققوا نجاحا نسبيا على مستوى تخفيف الضغط البرتغالي على التجار العرب وحالوا في الوقت نفسه بين البرتغاليين وبين مد نفوذهم الى المناطق الداخلية غير انهم ، في المقابل فشلوا فشلا ذريعا في تحقيق هدفهم الاستراتيجي المتمثل في وضع حد للسيادة البرتغالية في الخليج.

اما سبب هذا الفشل فانه يعود بالدرجة الاولى الى خبرة البرتغاليين الطويلة في المياه العربية ، وفوق هذا ، الى تفوق آلية الملاحة لديهم اضف الى ذلك ان العثمانيين ، في الجانب الآخر ، افتقروا الى ديناميكية العمل السياسي التي كانت ستمكنهم - لو وجدت - من توحيد القوى الاسلامية في الشرق ضد عدو مسيحي ، وايضا في تحجيم الاضطراب في اهدافهم السياسية المعلنة وغير المعلنة.



الهوامش

١ ـ ويلسون ، آرنولد : تاريخ الخليج ، ترجمة محمد امين عبد الله ، عمان ١٩٨٥ ، ص ٦٣ ـ ٦٤

٢ ـ محمد انيس : الدولة العثمانية والمشرق العربي ١٥١٤ ـ ١٩١٤، القاهرة ١٩٨٥، ص ١٢١

٣ ـ محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي من البر الي البحر القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٧٦.

٤ ـ صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٥

٥ ـ Miles , B. The Countries and Tribes of the Persian Gulf , London 1966, PP. 141 - 142.

٦ ـ فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ١٩٣٩ ـ ١٩١٨ ، القاهرة ١٩٨٧ ص ٤١

٧ ـ العقاد : المرجع السابق ، ص ١٥

فيما يتصل بالعوامل التي ادت الى عدم نجاح البوكيرك في احتلال عدن ، انظر : ويلسون ، المصدر السابق ، ص ٦٦.

٨ ـ امين سعيد : الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ، بيروت د. ت ، ص ٢٨

٩ ـ Miles, Op. Cit, P.144.

١٠ ـ نوال حمزة الصيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، الرياض ١٩٨٣ ، ص ١١٨ ـ ١١٩ ، نقلا عن : Sousa, Fairia. The History of the Discovery and Conquest of India by the Portuguese, translated by John Stevens, Vol.1, London 1894, PP. 126 -167.

١١ ـ فيما يتصل بتفاصيل ذلك ، انظر Miles, Op. Cit .PP. 152 -153

١٢ ـ Ibid, PP. 144 -145

١٣ ـ Howly, Donald. The Trucial States, London 1970 وللتوسع في هذا الموضوع ، انظر ويلسون : المصدر السابق، ص ٦٧ ـ ٦٨

١٤ ـ Miles, Op. Cit .PP. 149 - 150

١٥ ـ ويلسون : المصدر السابق ص ٦٩ ، لوريمر ج . ج : دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج ١ طبعة جديدة ومنقحة اعدها قسم الترجمة بكتب صاحب السمو امير دولة قطر ، الدوحة. ١٩٨٥ ، ص ١٣

١٦ ـ فيما يتصل بوضع هرمز حينما وصل اليها البرتغاليون ، انظر : العقاد : المرجع السابق ص ٩ ـ ١٠

١٧ ـ عبد العزيز نوار : تاريخ العرب الحديث ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٦٩

١٨ ـ ويلسون : المصدر السابق ، ص ٧٠

١٩ ـ نوال حمزة الصيرفي : المرجع السابق ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ نقلا عن :- Sousa : Op.Cit, PP. 131-132. ويمكن العودة الى تلك الشروط في قدري قلعجي : الخليج العربي ج ١ بيروت ١٩٦٥ ، ص ٣٦٥

٢٠ ـ محمود علي الداود العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي ١٥٠٧ ـ ١٦٥٠ مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد ، العدد الثاني (شباط ١٩٦٠) ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

٢١ ـ لوريمر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣

٢٢ ـ بوندا ريفسكي ، غريفوري : الخليج العربي بين الامبرياليين والطامعين في الزعامة ، موسكو ١٩٨١، ص ٣٦

٢٣ ـ حول هذا التمرد ونتائجه على البوكيرك ، انظر : ويلسون ، المصدر السابق ، ص ٧٢

Lockhart, Laurance : Persian Cities, London 196, P.172 ـ ٢٤

عبد الكريم غرايبة : مقدمة في تاريخ العرب الحديث ، ج ١ دمشق ١٩٦٠ ، ص ١٣ ـ ١٤

٢٥ ـ العقاد : المرجع السابق ، ص ١٦

٢٦ ـ ويلسون : المصدر السابق ، ص ٧٤

٢٧ ـ اوزبران ، صالح : الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٩٣٤ ـ ١٩٨١ ، ترجمة عبد الجبار ، ناجي بغداد ١٩٧٩ ، ص ١٩

٢٨ ـ ويلسون ، المصدر السابق ، ص ٧٧

٢٩ ـ اوزبران : المصدر السابق ، ص ١٩

٣٠ ـ ويلسون : المصدر السابق ، ص ٧٧

٣١ ـ اوزبران : المصدر السابق ، ص ٢٢

٣٢ ـ محمود علي الداود : المرجع السابق ، ص ٢٣٦

٣٣ ـ ويلسون : المصدر السابق ، ص ٨١ ، اوزبران ، المصدر السابق ص ٢٣.

٣٤ ـ لم تكن هذه الحملة الاولى من نوعها ، فقد سبقها حملات تمت في سنة ١٥١٥ و ١٥٢١ م ، وتم في الحملة الاولى اخضاع البحرين لملك البرتغال سلما ، وفي الحملة الثانية تم احتلالها بعد محاصرة المنامة وتدمير جزء كبير منها . حول هذه الحملات راجع:

محمد خليفة النبهان : التحفة النبهانية في امارات الجزيرة العربية ، ج ١ ، بغداد ، ١٣٣٢هـ ص ٦٠ ـ

٦١، سيد نوفل : الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ، ج ١ القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٣

٣٥ ـ اوزبران : المصدر السابق ، ص ٢٥

٣٦ ـ فيما يتصل بعوامل فشل المحاولة البرتغالية ، انظر:

احمد بوشرب مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين ، الوثيقة مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين ، العدد الرابع (السنة الثانية ، ربيع الاخر ١٤٠٤هـ/ يناير ١٩٨٤م) ص ١٢٥ ، لوريمر ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٥ عبد الكريم غريبة ، المصدر السابق ص ٣١.

٣٧ ـ الحويزة : موضع شرقي دجلة بين واسط والبصرة وخوزستان ، انظر : الحموي ياقوت بن عبد الله معجم البلدان ، ج ٢ بيروت ١٩٧٧ ، ص ٣٢٦

٣٨ ـ ويلسون ، المصدر السابق ص ٨٢

٣٩ ـ لوريمر ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٦

٤٠ ـ احمد بوشرب ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧

٤١ ـ احمد فؤاد متولي البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادي على ضوء الوثائق التركية ، مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، الرياض ، العدد الرابع ، (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ، ص ٣٨٣

٤٢ ـ Inalcik, Halil. The Ottoman Empire, London, 1943,P. 33

٤٣ ـ ابن اياس ، محمد بن احمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج ٤ القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٠١

٤٤ المصدر نفسه والجزء ، ص ٤٦٧

٤٥ ـ فاروق عثمان اباظة : المرجع السابق ، ص ٤٣.

٤٦ ـ محمد محمود السروجي سياسة مصر العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير ١٨٦٤ ـ ١٨٦٦ مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد التاسع (ديسمبر ١٩٥٥) ص ٩٣.

٤٧ ـ هذا التحالف تم بموجب اتفاقية عام ١٥١٥ م وفيها تمكن البرتغاليون من الحصول على اعتراف الصفويين بحق السيطرة البرتغالية على هرمز واعطوا موافقتهم على نشاط البرتغاليين في الخليج العربي مقابل عقد تحالف عسكرى ضد البرتغاليين ، انظر:

ايفانوف ، نيقولاى : الفتح العثماني للاقطار العربية ١٥١٦ م ـ ١٥٧٤م ، ترجمة يوسف عطا الله بيروت ١٩٨٨ م ، ص ٨٧

٤٨ ـ Stripling, George. The Ottoman Turks and the Arabs, 1511-1574. Urbana, Illinois 1942, P. 88.

٤٩ ـ هو بيري محي الدين رئيس ، ملاح عثماني ورسام للخرائط ، قام برحلات كثيرة تحت اشراف عمه كمال رئيس المتوفي عام ١٥١١ م والذي برز بعد ذلك تحت أمرة خير الدين بربروسة ، ثم نصب بيرى رئيس قابودان لمصر انظر بابنجر فرانز – بيري محي الدين رئيس في :

دائرة المعارف الاسلامية ، دار الفكر ، بيروت (د . ت) ، ص ٤٠٥

٥٠ ـ Hess, Andrew. C. "The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of the Oceanic Discoveries" 1453-1525", American Historical Review, Vol. LXXV (1970), PP. 1899-1900

٥١ ـ حول هذا الموضوع انظر:

النهروالي ، قطب الدين محمد بن احمد : البرق اليماني في الفتح العثماني ، تحقيق حمد الجاسر الرياض ١٩٦٧ م ، ص ٧٠ وانظر ايضا .Inalcik, Op. Cit., P. 126

٥٢ ـ .Stripling, Op. Cit, PP. 89-90

٥٣ ـ فيما يتصل بتفاصيل تلك الحملة ، انظر Serjeant, R.B. The Portuguese of the South Arabian Coast, Oxford 1963, P. 75.

٥٤ ـ النهروالي : المصدر السابق ، ص ٨٢ ـ ٨٤

٥٥ ـ اوزبران : المصدر السابق ، ص ٤٣

٥٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٧ ـ ٢٨

٥٧ ـ العقاد : المصدر السابق ، ص ١٢

٥٨ ـ ايفانوف : المرجع السابق ، ص ٩٠

٥٩ ـ لونج ريغ ، ستيفن هملي : اربعة قرون في تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط بغداد ١٩٦٨م ، ص ٢٥

٦٠ ـ ايفانوف : المرجع السابق ، ص ٩١

٦١ ـ Inalcik. Op. Cit., P.38; Stripling; Op. Cit., P.93

٦٢ ـ حول الاحتلال العثماني للحسا انظر : Mandville, J, The Ottoman Province of Alhasa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries " Journal of the American Oriental Society

Vol 90. No. 3 (July - September 1970), PP. 486-512.

٦٣ ـ ايفانوف المرجع السابق ، ص ٩٢

٦٤ ـ لوريمر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠

٦٥ ـ اوزبران : المصدر السابق ، ص ٤١ ـ ٤٢ ، ويلسون : المصدر السابق ، ص ٨٢ ـ ٨٣

٦٦ ـ انظر: Miles : Op. Cit. P. 168.

وللتوسع في ذلك انظر اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، القاهرة ١٣٢٢هـ ، ص ٥٤٩.

٦٧ ـ ويلسون : المصدر السابق ، ص ٨٣

وفيما يتصل بوضع مسقط عند حصار العثمانيين لها ، انظر اوزبران ، المصدر السابق، ٤٤

٦٨ ـ Stripling, Op. Cit. P. 94

٦٩ ـ اوزبران: المصدر السابق ، ص ٤٤ ـ ٤٥

٧٠ ـ اسماعيل سرهنك ، المرجع السابق ، ص ٥٤٩ غرايبه ، المرجع السابق ، ص ٣٣

٧١ ـ اوزبران : المصدر السابق ، ص ٤٦

٧٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٧

٧٣ ـ Stripling, Op. Cit. P. 94

٧٤ ـ Ibid., PP.94 - 95.

٧٥ ـ فيليبس ، وندل : تاريخ عمان ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، عمان ١٩٨٣

٧٦ ـ Belgrave, Journal of the Royal Asian Society., Vol. XXXIX, Part 1, (January 1952), P.75.

٧٧ ـ ويلسون : المصدر السابق ، ص ٨٥

٧٨ ـ اوزيران ، المصدر السابق ، ص ٤٨

٧٩ ـ Stripling, Op. Cit., P. 95.

٨٠ ـ انظر : Miles, Op. Cit., PP. 171-172

اسماعيل سرهنك ، المرجع السابق ، ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠

٨١ ـ احمد فؤاد متولي : المرجع السابق ، ص ٣٩١

٨٢ ـ فيما يتصل بتفاصيل هذه المعركة ، انظر لوريمر ، المصدر السابق ، ج ١، ص ١٧

٨٣ ـ اوزيران : المصدر السابق ، ص ٤٩

٨٤ ـ المصدر نفسه : ص ٤٩ ـ ٥٠

٨٥ ـ Cook, M.A., A History of the Ottoman Empire, London 1976, P.99.

ولمزيد من المعلومات ، انظر : Miles, Op. Cit, PP. 176-177.

٨٦ ـ Ibid., PP.177-178

٨٧ ـ اوزيران : المصدر السابق ، ص ٥١ ـ ٥٢

٨, ـ المصدر نفسه : ص ٥٣

٨: ـ اشير هنا ان مراد هذا حسب رأي احمد العناني كان صنيع البرتغاليين انضم اليهم مع بعض الاهالي ضد الاتراك ، بينما كان معظم الاهالي يشجعون الهجوم التركي على البحرين.

نظر احمد العناني ، البرتغاليون في البحرين وحولها خلال القرن السادس عشر والسابع عشر الوثيقة العدد الرابع (السنة الثانية ، ربيع الآخر ١٤٠٤هـ / يناير ١٩٨٤ م) ، ص ١٠٤

٩ ـ اوزبران : المصدر السابق ، ص ٥٤

٩ ـ احمد العناني ، المرجع السابق ، ص ١٠٤

٩ ـ اوزبدان : المصدر السابق ، ص ٥٤ ـ ٥٥

٩ ـ المصدر نفسه : ص ٥٥

٩ ـ المصدر نفسه : ص ٥٥ ـ ٥٦

٩ ـ لمزيد من المعلومات حول هذه الحوادث ، انظر المصدر نفسه ، ص ٥٦ ـ ٥٧

٩ ـ المصدر نفسه ص : ٥٨

٩' ـ عبد العزيز محمد عوض ، الاحتلال البرتغالي لمواني الجزيرة العربية المؤرخ العربي، الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ، بغداد ، العدد ٢٩ ، (السنة الثانية عشرة ١٩٨٦م) ، ص ٢٣

٩ ـ Reusch, Richard. History of the East Africa, Newyork 1961, P.241

٩ ـ فيلبيس : المصدر السابق ، ص ٥٢

١٠ ـ لوريمر : المصدر السابق ، ص ٥٣

١٠١ ـ ويلسون : المصدر السابق ص٨٥

١٠٢ ـ فيلييس : المصدر السابق ص ٥٣

١٠٣ ـ عبد العزيز محمد عوض : المرجع السابق ، ص ٢٣

١٠٤ ـ لوريمر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢ . Miles, Op. Cit, P. 181.

١٠٥ ـ ويلسون : المصدر السابق ، ص ٨٥

١٠٦ ـ Miles, Op. Cit, P. 181.

١٠٧ ـ حول هذا الموضع انظر محمد عي الداود ، المرجع السابق ، ص ٢٨٣ ، عبد الوهاب القيسي موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي للمياه العربية ، مجلة الخليج العربي ، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ، مجلد ١٢ ، عدد ١ (١٩٨٠) ، ص ٥٢

١٠٨ ـ احمد عزت عبد الكريم : دراسات في النهضة العربية الحديثة فصل العلاقات بين الشرق العربي واوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر) ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٢١٨

١٠٩ ـ احمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٦١ ـ ٦٢

١١٠ ـ العقاد : المرجع السابق ، ص ٢٠

١١١ ـ عبد الوهاب القيسي : المرجع السابق ، ص ٥٢

١١٢ ـ المرجع السابق ، ص ٤٩

١١٣ ـ Miles, Op. Cit., P. 171.

١١٤ ـ العقاد : المرجع السابق ، ص ٢٠

لا : العربية والمعربة

احمد أبوشرب : مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابه تاريخ البحرين ، مجلة الوثيقة ، مركز الوثائق التاريخية لدولة البحرين ، العدد الرابع ، (السنة الثانية ، ربيع الاخر ١٤٠٤هـ/ يناير ١٩٨٤).

أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، بيروت ١٩٧

———— : دراسات في النهضة العربية الحديثة (فصل العلاقات بين الشرق العربي واوروبا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر) ، بيروت ١٩٧٠م.

أحمد العناني البرتغاليون في البحرين وحولها خلال القرن السادس عشر والسابع عشر ، مجلة الوثيقة ، العدد الرابع ، (السنة الثانية ، ربيع الآخر ١٤٠٤ هـ / يناير ١٩٨٤م)

احمد فؤاد متولي : البحرية العثمانية والبرتغالية في القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي لميلادى على ضوء الوثائق التركية ، مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود ، الرياض، العدد الرابع ، (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)

اوزبران ، صالح : الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ - ١٥٨١ ، ترجمة عبد الجبار ناجي ، بغداد ١٩٧٩.

ايفانوف ، نيقولاى : الفتح العثماني للاقطار العربية ١٥١٦ - ١٥٧٤ ، بيروت ١٩٨٨.

اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، القاهرة ١٣٢٢هـ.

أمين سعيد : الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ، بيروت (د . ت)

بابنجر فرانز : بيري محي الدين رئيس ، دائرة المعارف الاسلامية ، دار الفكر ، بيروت (د ، ت) - ابن

اياس ، محمد بن أحمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج ٤ ، القاهرة ١٩٦١

- بوندار ريفسكي ، غريغوري : الخليج العربي بين الامبرياليين والطامعين في الزعامة ، موسكو ١٩٨١.

- الحموي ، ياقوت بن عبد الله : معجم البلدان ، ج ٢ ، بيروت ١٩٧٧ (مادة الحويزة)

- سيد نوفل : الاوضاع السياسة لامارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦١م.

- صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٨٣.

- عبد العزيز محمد عوض : الاحتلال البرتغالي لموانيء الجزيرة العربية ، مجلة المؤرخ العربي ، أمانة اتحاد المؤرخين العرب ببغداد ، العدد ٢٩ ، (السنة الثانية عشرة ١٩٨٦م)

- عبد الرهاب القيسي : موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي للمياه العربية مجلة الخلية العربي. مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ، مجلد ١٢، عددا ١٩٨٠

- عبد الكريم غرايبة : مقدمة في تاريخ العربي الحديث، ج ١ دمشق ، ١٩٦٠.

- عبد العزيز نوار : تاريخ العرب الحديث ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٧.

- فاروق عثمان أباظة: عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ١٨٣٩ ـ ١٩١٨ ، القاهرة ١٩٨٧

- فيليبس ، وندل : تاريخ عمان ، ترجمة محمد أمين عبد الله عمان ١٩٨٣.

- قدري قلعجي : الخليج العربي ، ج ١ ، بيروت ١٩٦٥

- لوريمر ، ج ج : دليل الخليج القسم التاريخ ، ج ١ الدوحة ١٩٨٥

- لونغ ريغ ، ستيفن همسلي : أربعة قرون في تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الطيار ، بغداد

١٩٦٨

ـ محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي في البر الى البحر ، القاهرة١٩٨٩

ـ محمود علي الدواد : العلقات البرتغالية مع الخليج العربي ١٥٠٧ ـ ١٦٥٠ مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد ، العدد الثاني (شباط ١٩٦٠)

ـ محمد انيس : الدولة العثمانية والمشرق العربية ١٥١٤ ـ ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٨٥

ـ محمد خليفة النبهان : التحفة التبهانية في امارات الجزيرة العربية ، ج ١ بغداد ١٣٣٢هـ .

ـ محمد محمود السروجي : سياسة مصر العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير ١٨٦٤ ـ ١٨٦٦ مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد التاسع (ديسمبر ١٩٥٥).

ـ النهروالي ، قطب الدين محمد بن احمد : البرق اليماني في الفتح العثماني ، تحقيق حمد الجاسر الرياض١٩٦٧.

ـ نوال حمزة الصيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الرياض ١٩٨٣

ـ ويلسون ، آرنولد : تاريخ الخليج ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، عمان ١٩٨٥.

– Belgravve, J.H.D. "History of the Bahrain Islands", Journal of the Royal Asian Society, Vol. XXIX, Part. 1, (January 1952).

– Cook, M.A. A history of the Ottoman Empire, London 1976.

– Hess, Andrew C. "The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of the

Oceanic Discoveries,-1453-1525", American Historical Review, Vol. LXXV (1970).

- Hawly, Donalt. The trucial States, London 1970.

- Inalcik, Halil. The Ottoman Empire, London 1943.

- Lockhart, Laurance : Perian Cities, London 1960.

- Miles, S. B. The Countries and Tribes of the Persian Gulf, London 1966.

- Mandaville, J. "The Ottoman Province of Al-hasa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", Journal of the American Oriental Society, Vol. go, No. 3, (July-Sept. 1970).

- Reusch, Richard. History of East Africa, New York 1961.

- Serjeant, R.B. The Portuguese of the South Arabian Coast, Oxford 1963.

- Sousa, Faria. The History of Discovery and Conquest of India by the Portuguese, Translated by John Stevens, Vol. 1, London 1984.

- Stripling, George. The Ottoman Turks and the Arabs, 1511-1574, Urbana, Illinois 1942.

****

الصـــراع العثمــاني - البرتغــالي في منطقة الخليج العربي خلال فترتي حكـم السلطانين سليم الاول وسليمان القانوني

د. فائق حمدي طهبوب

استاذ مساعد/ قسم التاريخ

جامعة الامارات العربية المتحدة

الاهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج العربي

تتمتع منطقة الخليج العربي بأهمية استراتيجية في الميزان السياسي الدولي، وتأتي هذه الاهمية في استراتيجية الموقع الجغرافي ، فسواحله الغربية كانت تؤلف المنافذ الطبيعية للاقاليم الداخلية وهي موقع رئيسي للتحكم في المواصلات البرية ، كما أنه كان طريق المواصلات والتجارة بين اوروبا والشرقيتين الادنى والاقصى ، بالاضافة الى قربة من مراكز الحضارات القديمة ، فأصبح صلة الوصل بينها ، هذا ويمكن القول بأن المنطقة تمثل عنصرا اساسيا من عناصر المحيط الهندي ، ولذلك تنافست الدول الطامعة فيه وفي خيراته منذ فترة مبكرة من التاريخ .

وقد اشتد التنافس الاستعماري الاوروبي على المنطقة منذ القرن الخامس عشر بعد الاكتشافات الجغرافية ، فقد كانت السفن العربية منذ القدم تسلك طريق المحيط الهندي ثم الخليج العربي تحمل الثروات والبضائع من الشرق الاقصى والهند الى حنوب العراق، ثم تنقل تلك الحمولات الى حلب ثم موانيء البحر المتوسط حيث تستقبلها سفن البندقية لنقلها الى اوروبا (١).

وقد عبر عدد من الباحثين ورجال السياسة في ابحاثهم عن الاهمية الاستراتيجية الكبيرة التي يتمتع بها الخليج العربي ومكانته في السياسة الدولية، فيقول (فيرجريف) ان مثل هذه المنطقة تمثل بطبيعتها وبيئتها منطقة انتقال تجمع بين الصفة البحرية والبرية بدرجات متفاوتة هي استراتيجيا جبهة تصادم ومن ثم ارض معركة فيما اذا حدثت بين القوى (٢) ويصف احد المؤرخين البرتغاليين أهمية منطقة الخليج بقوله هناك ثلاثة مراكز تعتبر المفاتيح الرئيسية لتجارة الشرق والسيادة على التجارة العالمية : مالطا وعدن وهرمز التي تتحكم في مضيق الخليج العربي، ويضيف قائلا لو سيطر ملك البرتغال على هذه المراكز الثلاث في الشرق لاصبح سيد العالم (٣) ، وهذا ماحصل فعلا للمنطقة حين اخذت القوى في التسابق لاستغلال هذا الموقع الجغرافي الخطير منذ القرن السادس عشر وحتى الآن ، ومع اكتشاف النفط تضافرت عوامل الجيولوجيا مع العامل الجغرافي لتجعل منه اليوم من أهم

المناطق الحيوية في العالم.

ولقد أعطت الاهمية الاقتصادية لمنطقة الخليج العربي بعدا استراتيجيا آخر، فقد كان الأساس الاقتصادي للاستعمار ينصب على عنصرين هامين هما:

اولا: جلب المواد الاولية بما فيها المعادن الثمينة (الذهب والفضة واللؤلؤ).

وثانيا: تأمين سوق لتصريف الفائض من البضائع الاوروبية ، وهذا بدوره ادى الى احتكار الاستعمار للموقع الجغرافي المتميز للخليج العربي وبالتالي احتكار طرقه التجارية مع الهند شرقا وافريقيا غربا.

وترجع أهمية منطقة الخليج من الناحية الاقتصادية الى انها كانت تحتوي قديما على ثروات طبيعية هائلة ، فالموارد الزراعية كانت مصدرا كبيرا من مصادر الاقتصاد القومي وخاصة الفاكهة والحنطة والقطن وكذلك ثروتها الحيوانية ، وقد وصف ابن بطوطة بلاد عمان بقوله «انها ذات انهار وحدائق واشجار نخيل» (٤) أما ياقوت الحموي فذكر بأنها بلاد كثيرة ذات نخيل وزرع ، أما المقدسي فقال «ان بها الزعفران واللؤلؤ والديباج والياقوت والنارجيل والحديد والرصاص والفلفل وادوات الصيدلة» (٥) واما ثروتها البحرية فتكاد تكون هائلة لطول شواطئها البحرية ، وقد أكد «باربوسا» الذي زار المنطقة في الفترة مابين ١٥٠٠ ـ ١٥١٧ توفر الاسماك بصورة كبيرة في مسقط وفي جلفار (رأس الخيمة) حيث يتم تمليحها وتجفيفها وتصديرها (٦) كذلك ابدى الرحالة البرتغالي «تكسيرا» اثناء زيارته لمسقط عام ١٥٨٧ اعجابه بكميات الاسماك الكثيرة التي كان يجري اصطيادها (٧) مما يؤكد الاهمية الاقتصادية والتجارية لمنطقة الخليج، ولابد هنا من ذكر مغاصات اللؤلؤ كاحدى الموارد الاقتصادية في الخليج وبخاصة مغاصات رأس الخيمة في الامارات وصور في عمان وجزيرة البحرين ، ويعتبر لؤلؤ منطقة الخليج من ارقى انواع اللؤلؤ في العالم ، وقد وصف الرحالة البرتغالي «تومي بيريز» الذي زار المنطقة في الفترة مابين ١٥١١ ، ١٥١٦ وفي كتابه المعرف باسم «سوما اورنيتال» وهو عبارة عن تقرير

بعثة الى الملك البرتغالي بقوله «ان الجزيرة الرئيسية في الخليج هي البحرين وتمتاز بتوفر افضل أنوا ع اللؤلؤ بها حيث ليس له وجود في مناطق غيرها ويشكل جزءا مهما من تجارة هرمز ، ذلك لأن هذا النوع من اللؤلؤ يمتاز بأنه انصع بياضا واكثر استدارة من غيره» (٨).

ولقد لعبت السوق الاقتصادية في الخليج العربي دورا هاما في ازدهار التجارة الخارجية ، وكان سبب ذلك حاجة المنطقة الى الاخشاب والمعادن والتوابل ، بالاضافة الى انها سوقا استهلاكية لتصريف المنتوجات الاوروبية ، وبذلك حولت الاكتشافات الجغرافية السوق الاقتصادية في منطقة الخليج من سوق وطنية داخلية الى سوق عالمية نشأ عنها نظام الاستعمار والنظام الرأسمالي الذي سيطر بعد ذلك على المستعمرات وحولها الى نظام وطني مستقل طفيلي يعش على حساب وحياة الآخرين. وكانت طبيعة التبادل في هذه السوق الاقتصادية الواسعة الممتدة من أندونيسيا شرقا الى بلاد الشام وشرق افريقيا وجنوب اوروبا تمارس صيغة المقايضة ، ولكن مع ازدهار التجارة ومجيء عصر الاستعمار البرتغالي الذي ارتبطت مقوماته بالتبادل الدولي أدى ذلك الى استعمال النقود بنطاق واسع وبخاصة النقود المعدنية من ذهب وفضة (٩).

ويرتبط بالاهمية الاستراتيجية للمنطقة ، القوى المحلية التي كانت تتنافس سواء للسيطرة على التجارة أو لاهداف سياسية في التوسع واحتلال الطرق والمواقع الاستراتيجية والعسكرية . ومع بداية القرن السادس عشر كان هناك قوتان متنافسان ، مملكة هرمز في مدخل الخليج العربي من ناحية وشيوخ الجبور من ناحية أخرى ، وقد خضعت لملكة هرمز بعض الاجزاء الساحلية من عمان وسواحل الاحساء والقطيف والبحرين (١٠) ، الا ان الجبور تمكنوا في بداية القرن السادس عشر من السيطرة على كثير من المقاطعات الداخلية في الجزيرة العربية بالاضافة الى الاحساء والقطيف والبحرين ، وقد وصف البوكيرك القائد البرتغالي مدى قوة ونفوذ بني جبر في عمان حيث قال بأن هذه المناطق كانت خاضعة لهم وأن معظم جزيرة العرب تدين لهم بالولاء كذلك يؤكد. المؤرخ البرتغالي باروس من أن

الجبور كانوا يشنون هجمات مستمرة على مملكة هرمز وأنهم كانوا يشكلوا خطرا عليها(١١) . ومما يلفت النظر ان مملكة هرمز لم تكن تابعة للدولة الصفوية في ذلك الوقت مما دفع جمال زكريا قاسم لتوجيه اتهامات الى الكتاب الايرانيين في انهم تمادوا في ادعائهم بأن نفوذ فارس كان يمتد على طول سواحل شرق الجزيرة العربية باعتبارها تابعة لهرمز وهذه تتبع السيادة الفارسية (١٢) . ويكن القول بأن الصراع بين ملوك هرمز وشيوخ الجبور كان هو الوضع السائد في الخليج حين وصل البرتغاليون الى المنطقة(١٣).

أما القوى الاخرى التي كانت تلعب دورا هاما في الاوضاع السياسة للمنطقة فكانت معظمها اسلامية ، لكنها انشغلت في صراعات مذهبية او توسعية فيما بينها مما اضعف تماسكها ، فالدولة الصفوية في بلاد فارس اعتبرت نفسها حامية للمذهب الشيعي والدولة العثمانية اعتبرت نفسها حامية للمذهب السني ، اما المماليك فكانوا يحكمون بلاد الشام ومصر ، وكانوا يتحكمون في فرض الرسوم على المنتوجات العابرة الى اوروبا وبالعكس ولكن تحول الخط التجاري الى طريق رأس الرجاء الصالح قلل من أهمية الطرق التجارية التي تمر عبر البحر الاحمر والخليج العربي كمنطقة عبور عالمية مما ساهم في تدهور الاوضاع في دولة المماليك (١٤) وقد اسفرت نتائج الحروب بين القوى الاسلامية الثلاثة عن تغييرات جذرية بعيدة المدى على الاوضاع السياسية في المشرق الاسلامي ، وأصبحت الظروف مواتية لظهور قوة اوروبية جاءت للسيطرة على تجارة المنطقة وهم البرتغاليون الذين لم يواجهوا تحالفا بين القوى الاسلامية الكبرى (١٥) فاستغلوا تلك الاوضاع لصالحهم.

السياسة البرتغالية في منطقة الخليج العربي

كانت الدولة البرتغالية يوما من الايام تحت حكم المسلمين قبل القرن الرابع عشر الميلادي (١٦) ، ثم تطورت البرتغال في المجال البحري مما ساهم في تنفيذ مخططها في الانتقام من العالم الاسلامي ، وبدأت بتعقب المسلمين في الاندلس وشمال افريقيا فاحتلت مدينتي سبتة ومليلة على

الشاطيء الافريقي (١٧) ، واصبحت البرتغال وريثة البنادقة في مجال الكشف وارتياد البحار (١٨).

ويعد العامل الاقتصادي من اهم العوامل التي دفعت البرتغاليين لبذل الجهود المتواصلة من أجل الوصول الى الشرق والاستئثار بثرواته التي كانت موردا كبيرا تنعم به البلاد الاسلامية والمدن الايطالية ، لذلك سعى البرتغاليون الى التخلص من احتكار المصريين واقطار الخليج العربي لتجارة الهند (١٩) . وقد نجح البرتغاليون في نهاية المطاف الى اكتشاف طريق بحري الى الهند (الرجاء الصالح) يتجنب طرق القوافل القديمة بين البحر المتوسط من جهة والبحر الاحمر والخليج العربي من جهة اخرى . ولم يقتصر الامر على سلب العرب تجارتهم وانما عمل البرتغاليون على تدمير الحضارة العربية والاسلامية عن طريق تجميد معظم اشكال الانتاج من صناعة وزراعة ، وتعريض الاقتصاد لحالة من الانهيار والتدهور (٢٠) ثم قاموا بتنفيذ مخططهم واصبحوا يحتكرون تجارة الشرق على اختلاف انواعها كالتوابل والبخور والعطور والعقاقير الطبية والاقمشة الحريرية واخذوا ينقلونها الى عاصمتهم «لشبونة» ثم يتم توزيعها الى اسواق اوروبا . ولتقوية مراكزهم التجارية في المحيط الهندي منعوا سفن المسلمين من مزاولة نشاطها التجاري بل قاموا بعمليات السلب والنهب ضد التجار المسلمين واستحوذوا على ثروات البلاد الطبيعية ، ونزعوا سلطة الملوك والامراء والرؤساء اصحاب البلاد الاصليين، كما دمروا الصناعات التقليدية الحرفية ، وحولوا الشعوب الى ايد عاملة لخدمتهم ، وارسلوا حملات متعاقبة الى المدن الاسلامية والجوامع لحرقها وهي مملوءة بالمصلين واكبردليل على وحشيتهم ان قائدهم «البوكيرك» هاجم بلدة خورفكان فقام بنهبها وتقطيع اذان وانوف السكان الذين كان يطلق سراحهم (٢١) وجاء في مذكرات هذا القائد أن عليه أن يخرب هرمز وان يجتث التجارة الاسلامية في البحار الاسلامية من جذورها (٢٢) ، وانه يهدف الى انشاء امبراطورية برتغالية عظيمة في الشرق والسيطرة على الحكام الوطنيين واجبارهم على الاعتراف بسلطة البرتغال عليهم (٢٣) ويذكر «تيفينو» في كتابة «رحلات تيفينو» والذي زار منطقة الخليج العربي عام ١٦٣٨ بان البرتغاليين ارتكبوا اعمالا وحشية مع سكان المنطقة حتى ان أحد القادة البرتغاليين أخذ طفلا من والدته ووضعه أمام مدفع

وأجبر والده ووالدته على اطلاق النار عليه وقلته (٢٤) . وقد عبر الملك عمانويل الاول الذي قامت في عهده أول حملة بحرية الى الشرق عن اهداف الرحلة بقوله «ان الغرض من اكتشاف الطريق البحري الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق (٢٥) .

ويعتبر العامل الديني من العوامل التي تشكل اثرا فعالا في حركة الكشوف البرتغالية ، حيث ان القضاء على الوجود الاسلامي في الشرق والمحيط الهندي كان غاية يطمع البرتغاليون الى تحقيقها وتباركها بابوية روما (٢٦) . ويرجع هذا العداء الى تاريخ الصراع بين المسلمين والمسيحيين في شبه جزيرة ايبيريا في العصور الوسطى ، وأما جنوره فترجع الى حركة الحروب الصليبية (٢٧) التي شنتها اوروبا على العالم العربي الاسلامي طيلة مائتي عام، ويمكن القول بأن اهدافها الدينية لم تكن هي حقيقة جوهرها ، وانما كان من أهم أهدافها اضعاف العرب والمسلمين بتدمير تجارتهم مع الهند والاستيلاء على طرقهم التجارية وتحويل اموالهم وكنوزهم الى رجال الاقطاع في اوروبا (٢٨) . أما البرتغاليون فقد كانوا تجسيدا جديدا للحركة الصليبية في جميع خطواتها، ولكن افكارها الدينية كانت اكثر تطرفا وتعصبا ، فقد جاء في المرسوم الذي بعثه البابا في روما الى امير البرتغال هنري الملاح عام ١٤٥٤ مايلي «ان سرورنا لعظيم ان نعلم ان ولدنا العزيز هنري قد سار على خطى ابيه الملك جان بوصفه جنديا قديرا من جنود المسيح ليقضي على اعداء الله واعداء المسيح من المسلمين الكفرة» (٢٩) ، وقد امر هنري الملاح بتسخير جميع الموارد لمشروعه الذي يهدف الى نشر الدين المسيحي وتقصي امتداد اراضي العرب، وامر بوضع شارة صليب احمر على اشرعة جميع سفنه (٣٠) واطلاق التسميات الدينية على السفن البرتغالية.

اما القائد البرتغالي البوكيرك فيقول «الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وبأطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لايندلع لها هنا بعد ذلك لهيب. ولو انتزعنا تجاره ملقا من ايدي المسلمين لاصبحت كل من القاهرة ومكة اثرا بعد عين (٣١).

ولقد انيطت العمليات العسكرية البرتغالية في منطقة الخليج العربي الى القائد الفونسودي البركيرك الذي نشأ في وقت كان الصراع فيه يدور على اشده بين المسلمين والمسيحيين في شبه جزيرة ايبيريا، فانغرست في قلبه الرغبة العنيفة في الانتقام من المسلمين (٣٢) ، ولذلك كان من ضمن خططه أن يقوم بمهاجمة المدينة المنورة ويستولى على الاماكن المقدسة ويقوم بنبش قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فاذا تم له هذا قايض به كنيسة القيامة في القدس وطلب مليون متطوع اوروبي ليأتوا الى منابع النيل ويحولوا مجراه بحيث يصب في البحر الاحمر وبذلك تموت مصر (٣٣) . ومن جهة اخرى كان من أهداف البرتغاليين الوصول الى الحبشة (٣٤) الى مملكة القديس يوحنا حاكم الحبشة المسيحي الذي كانت له شخصية اسطورية تناقلتها الشعوب المسيحية في أوروبا (٣٥) ، على أن يعقدوا معه تحالفا للالتفاف حول البلاد الاسلامية والقضاء على النشاط التجاري للعرب في المحيط الهندي والبحار المحيطة به. وأصبح من الطبيعي أن تقتفي البعثات التبشيرية البرتغالية خطى الاستعمار البرتغالي وأن تقيم كنائسها . ويذكر «سبور» عند وصفه لهرمز أثناء زيارته لها عام ١٧٦٥ بأنه لايزال يرى كنسيتين بنيتا فيها احداهما تستعمل كحانوت والاخري مقر الحاكم» (٣٦) . كذلك يصف (كوبينو» الكنيسة البرتغالية في مسقط عندما زارها في منتصف القرن التاسع عشربأنها لازالت باقية ولكنها قسمت من الداخل وهي محل لسكني احد اقارب الامام (٣٧).

وقد أدرك البرتغاليون أنه لايمكن تنفيذ مخططهم الاستعماري الصليبي الا بالتحكم في مركزين أساسيين لهما شأنهما العظيم في التحكم التجاري عبر البلاد العربية ، وهما جزيرة هرمز التي تتحكم في طريق التجارة عبر الخليج العربي وباب المندب وعدن ذلك المكان الذي يتحكم في الطريق التجاري الى البحر الاحمر ، ولذلك توجه البوكيرك في عام ١٥٠٧ الى جزيرة سو مطرة التي تمثل موقعا نموذجيا في مواجهة الساحل الجنوبي لشبه جزيرة العرب وفي منتصف الطريق تماما بين الخلج العربي والبحر الاحمر (٣٨) ، وقد انشأ في الجزيرة حصنا للاشراف على تجارة المحيط الهندي ، ثم توجه الى قرباط التابعة لحاكم هرمز فأحرقها (٣٩) بعد مقاومة عنيفة من السكان انتهت بانتصاره

، وبعد ذلك توجه الى مسقط، ورغم عروض حاكم المدينة بأن يصحبوا تابعين لملك البرتغلال وان يدفعوا له ماكانوا يدفعونه لحاكم هرمز غير أن تلك المفاوضات لم تجد نفعا ، ورغم المقاومة الباسلة من رجالها الا انهم استسلموا لبعض شروطه فأمر بتدمير واحراق المنازل وتعذيب الشيوخ والنساء والاطفال (٤٠) ، ثم احتل صحار وتوجه الى خورفكان التي قاومت فنهبها البرتغاليون وعملوا على تشويه اهاليها ثم احرقوها (٤١) ، ثم يأتي دور هرمز وهي مقر التجارة والوكالات ومهبط السفن التجارية من كل صوب وأقوى التنظيمات السياسية والاقتصادية في الخليج العربي، وكان يسكنها خليط من الشعوب الا ان اللغة العربية كانت هي لغة التعامل (٤٢) فأغلب سكانها من العرب وحاكمها عربي هو سيف الدين يبلغ من العمر اثنى عشر عاما تحت وصاية «خوجه عطا» الرجل السياسي المحنك ، وقد رأى البوكيرك أن السيطرة على هرمز سيؤدي الى احكام سيطرته على الخليج العربي لاهميتها الاستراتيجية ، ولكن رغم المفاوضات بين الطرفين ورغم القوة العسكرية لهرمز والاستعداد الكبير للمقاومة (٤٣) ، لكن اعاد حاكم هرمز النظر في موقفه خاصة بعد هزيمته في معركة بحرية كبيرة وكذلل معرفته بما أصاب المدن السابقة من تدمير وخسائر جسيمة ففضل الاستسلام عام ١٥٠٧ (٤٤) ، ووافق على تبعيته لملك البرتغال (٤٥) واعفاء السلع البرتغالية من الضرائب ورفع العلم البرتغالي وعليه شعار الصليب (٤٦) . وبهذا حقق البوكيرك الحلم الذي يستطيع بواسطته ضرب الامة الاسلامية دينيا واقتصادية ، فتمكن البرتغاليون من السيطرة على الملاحة في الخليج العربي وعلى طرق الملاحة الرئيسية الى الهند وأندونيسيا .

السياسة العثمانية في منطقة الخليج العربي

خضعت هرمز للقوة البرتغالية نظرا لاختلاف ميزان القوى بين الطرفين اضافة الى عدم توفر دعم من الدول الاسلامية المجاورة ، ويمكن القول بأن البرتغاليين كانوا يعرفون حقا مايعيشه العالم العربي والاسلامي انذاك من حروب وتفكك سياسي حيث انشغلت القوى الاسلامية في صراعات مذهبية

او توسعية فيما بينها أو فيما بينها وبين القوى الاخرى المجاورة لها مما اضعف من تماسكها ، فانتهز البرتغاليون فرصتهم للتقدم نحو المنطقة (٤٧) ، فكان سقوط هرمز يشكل القاعدة التي انطلق منها البرتغاليون للسيطرة على منطقة الخليج العربي.

ولو استعرضنا دور المماليك في مواجهة البرتغاليين وأثر ذلك على العلاقات مع الدولة العثمانية ، لادركنا ان المماليك بذلوا جهدا كبيرا رغم ضعف امكانياتهم، واستطاعوا تفادي الاخطارب البرتغالية التي كانت تهدف للوصول الى الامكان المقدسة. وبينما كان المماليك يحاولون بناء اسطولهم البحري استولى البرتغاليون على سو قطره عام ١٥٠٧ واستطاعوا بهذا العمل التحكم في مدخل السفن البحرية الى باب المندب، ومع ذلك تمكن السطان المملوكي قانصوه الغوري من ارسال حملة بحرية الى الهند بقيادة حسين الكردي بناء على طلب واستنجاد سلطان كجرات الاسلامية (٤٨) ، محمود خان الاول وقد انتصر الاسطول المملوكي على البرتغاليين في معركة شول عام ١٥٠٨ (٤٩) ، ولكن انتصار المسلمين لم يدم طويلا فقد عزز البرتغاليون قوتهم وتمكنوا من مهاجمة الاسطول الاسلامي في معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩ ، واوقعوا بالجيش الاسلامي الهزيمة وعاد قائد الحملة حسين كردي الى مصر (٥٠).

حاول الغوري الاستعانة بالبنادقة بصفتهم اعظم المتأثرين اقتصاديا من تحول الطريق التجاري الجديد، وحذرهم من عواقب سيطرة البرتغاليين عل المحيط ، كما ارسل الغوري الى البابا يوليوس الثاني والى بعض الدول الاوروبية محذرا من التصرفات البرتغالية ومهددا باغلاق كنيسة القيامة في مدينة القدس اذا لم تتخذ الاجراءات المناسبة (٥١) ، وذلك بتقديم مساعدات عسكرية يستطيع بواسطتها مواجهة البرتغاليين في المحيط المهندي. وقد اقترح عليه البنادقة حفر قناة السويس لكنه انشغل عن هذه الفكرة، ووجه أمله نحو الدولة العثمانية يطلب مساعدتها لتكوين اسطول عربي قوي، ولان الدولة العثمانية تعرف مدى خطر البرتغاليين على العالم الاسلامي لم تتردد في تقديم

المساعدة (٥٢) ، فسرعان ماأرسل السلطان بايزيد الثاني عام ١٥١١ ثلاثين سفينة محملة بالاخشاب والحديد والبارود والبنادق وغيرها من أنواع العتاد الحربي دون ثمن (٥٣). لكن حاكم رودس الصليبي هاجم السفن المصرية واستولى عليها ، ويصف ابن اياس تأثر الغوري بهذه الحادثة بقوله " فلما بلغ السطان تنكد للغاية وامتنع عن الاكل يومين ".

وجد سلطان المماليك ان الدولة العثمانية الاسلامية خير حليف له ، لذلك طلب مرة ثانية العون العسكري منها ، فأرسل له السلطان العثماني مساعدات عسكرية من بنادق وبارود ومدافع وأخشاب وسهام والفين من البحارة ، وتم بناء اسطول حربي في ميناء السويس (٥٤) ، وتوجه الاسطول تحت قيادة مشتركة مملوكية ـ عثمانية بقيادة كل من حسين الكردي وسلمان العثماني (سلمان الريس)، ووصلت الحملة الى جده ثم الى اليمن عام ١٥١٥ ، وكانت قد حدثت احداثا جسام في العالم الاسلامي منعت الحملة من متابعة رحلتها الى بلاد الهند لمنازلة البرتغاليين، فقد ظهرت على مسرح الاحداث قوتان اسلاميتان الاولى شيعية المذهب وهي الدولة الصفوية والثانية سنية المذهب وهي الدولة العثمانية ، وبدلا من ان تتوحد القوتان مع قوة المماليك لمحاربة البرتغاليين نشبت بينهما خلافات حادة انتهت بهزيمة الشاه اسماعيل الصفوي في معركة جالديران عام ١٥١٤ (٥٥).

جاء الى الحكم في الدولة العثمانية السلطان سليم الاول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠)، وقد انشغل في بداية حكمه بصراع مرير مع الصفويين ، ومنذ معركة جالديران اخذت العلاقات العثمانية المملوكية تسوء وتتأزم وذلك بسبب مؤقف المماليك المتخاذل خلال هذه المعركة ، بالاضافة الى ايواء المماليك لبعض افراد الاسرة العثمانية المناهضين للسلطان سليم ، وهنا انصرف السلطان العثماني للقضاء على دولة المماليك في مصر والشام خاصة وأنه اقتنع بعدم قدرة المماليك على ابعاد الخطر البرتغالي عن الاقطار العربية والاسلامية، ولذلك زحف باتجاه سوريا وهزم المماليك في معركة مرج دابق عام ١٥١٦ ثم اتجه الى مصر وهزم المماليك في معركة الريدانية عام ١٥١٧ (٥٦) وبذلك زالت دولة المماليك.

وباعلان شريف مكة السيد بركات تبعيته للسلطنة العثمانية (٥٧) اصبحت الدولة العثمانية تتحمل مسؤولية الكفاح ضد البرتغاليين سواء من اجل انقاذ الاراضي المقدسة الحجازية من تهديداتهم المتكررة لها او من حيث اعادة التجارة الشرقية الى مصر وبقية الاقطار العربية ، وبذلك بدأت صفحة جديدة من الصراع في المياه العربية بين العثمانيين والبرتغاليين.

لقد كان اندفاع القوى الاجنبية للسيطرة على الخليج العربي يسير ضمن محورين ، الاول فارسي يهدف الى الزحف نحو الخليج العربي للسيطرة عليه وضرب القوى العربية فيه ومن ثم الانفراد بالهيمنة على المنطقة ، وذلك ضمن التحالف مع اية قوى اجنبية اخرى، والثاني قوة اوروبية تهدف الى التحكم والاستيلاء على منافذ التجارة العربية بين الشرق والغرب، فكان احتلال البرتغاليين لجزيرتي قشم وهرمز وسيطرتهم على موانيء الخليج العربي، وظهور الاسرة الصفوية وتسلمها السلطة في بلاد فارس واحتلالها لبغداد عام ١٥٠٨ (٥٨) ، فرصة لالتقاء المحورين وتكوين تحالف عسكري للعمل المشترك قبيل ظهور الدولة العثمانية على مسرح الاحداث في الوطن العربي.

وقد أوردت بعض المصادر التاريخية رسالة بعث بها القائد البرتغالي البوكيرك الى شاه فارس عام ١٥٠٩ جاء فيها «اني اقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك واعرض عليك الاسطول والجند والاسلحة لاستخدامها ضد قلاع العثمانيين ، واذا اردت أن تنقض على بلاد العرب او تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الاحمر امام جدة او في عدن او في البحرين أو الطائف أو البصرة، وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ مايريد » (٥٩) . وتظهر الرسالة التحالف بين البرتغاليين والفرس ضد العثمانيين والعرب ، على ان مايلفت الانتباه في هذه الرسالة ويشكك في صحتها أن العثمانيين حتى عام ١٥٠٩ لم يشكلوا خطرا مباشرا على الفرس في منطقة الخليج العربي كما أن العلاقات العثمانية العربية لم تبدأ بشكل مباشر وقوي الا بعد حضور السلطان سليم الاول وضمه لكل من دمشق والقاهرة بعد عام ١٥١٦ ، كذلك كانت هرمز في ذلك الوقت مستقلة

وغير تابعة للدولة الصفوية الناشئة (٦٠) ، من جهة اخري كيف يسمح الشاه الصفوي للبرتغاليين ، باحتلال هرمز وهي جزء من بلاده كما يدعي ويتعاون معهم في نفس الوقت.

وكانت هزيمة الفرس امام العثمانيين في معركة جالديران عام ١٥١٤ فرصة جديدة للتعاون بينهم وبين البرتغاليين ضد الدولة العثمانية ، فقد وصل الى هرمز سفير الشاه اسماعيل الصفوي يحمل عدة مطالب ، وقد انتهت المباحثات الى عقد اتفاقية هرمز عام ١٥١٥ ، تعهد فيها البرتغاليون بمساعدة الفرس على عزو كل من البحرين والقطيف ، واقامة تحالف بين الطرفين ضد الدولة العثمانية ، وان يساعد البرتغاليون الشاه في قمع تمرد قام في مكران (٦١). وكان هدف الشاه هو استعادة الثقة بالاستيلاء على مناطق جديدة يعوض بها مافقده في معركة جالديران.

ويمكن القول انه لم تكد تمر سنوات قليلة على وصول البرتغاليين الى الهند ثم الى سواحل الخليج حتى قامت الحروب بين الدول الاسلامية الثلاث وهم المماليك والصفويين والعثمانيين ، وقد اسفرت نتائج تلك الحروب عن تغييرات جذرية بعيدة المدى على الاوضاع السياسية في الشرق الاسلامي ، حيث ساعدت تلك الاوضاع على توطيد السيطرة البرتغالية على بحار الشرق خلال القرن السادس عشر ، ولكن وفي نفس الوقت كانت الدولة العثمانية في اوج قوتها ولم تكن تواجهها أي قيادة اوروبية (٦٢) ، كما أنها قضت على سلطة المماليك وهزمت الفرس وأصبحت في مواجهة البرتغاليين وجها لوجه في منطقة الخليج العربي ، فهل استطاعت ان تدرك مدى خطورة اهداف البرتغالين التجارية والتبشيرية على الوطن العربي، وهل وضعت اسس سياسية للتعاون الاقليمي في مواجة هذا التسلل الاوروبي ، وهل تصدى الخليفة العثماني لحركات التبشير في منطقة الخليج العربي كما تصدى للغزو الاسباني لبلاد الاسلام في شمال افريقيا؟.

المجابهة العثمانية البرتغالية

ضم السلطان سليم الاول الى الدولة العثمانية كلا من سوريا ومصر والجزيرة العربية ولقب

خادم الحرمين الشريفين ، وأصبح حامي الاماكن المقدسة في مكة والمدينة ومسؤولا عن حماية طرق لحج المسلمين (٦٣) ، بل ان الخلافة الاسلامية صارت من الناحية العملية والشرعية مسؤولة لا عن حماية الحدود فقط بل أصبحت الدولة الام لجميع العالم الاسلامي ، وبدأت مرحلة جديدة من الصراع في المياه العربية والهندية ضد البرتغاليين تموله وتقوده الدولة العثمانية (٦٤).

لقد اختلفت الاهداف الاستراتيجية للعثمانيين والبرتغاليين في الاقطار العربية ، واصبحت المجابهة العسكرية بين الطرفين محتملة الوقوع ، فعندما عرف القائد البرتغالي «البوكيرك» باندحار الصفويين امام العثمانيين في معركة «جالديران» عام ١٥١٤ ، كتب الى الملك البرتغالي «عمانويل الاول» يطلب السماح له بتجهيز الشاه اسماعيل الصفوي بالمدفعية اللازمة كي يتمكن الصفويون من اضعاف القوى العثمانية وعرقلة تقدم العثمانيين صوب المياه العربية والهندية (٦٥)، ومن جهة اخري بدأ البرتغاليون بتشكيل قوة متعددة الاطراف في المنطقة ضد العثمانيين والعرب ، فاتصلوا بامبراطور «الحبشة» (٦٦) وبعض الامارات الهندية ، وبرزت روح المنافسة والتوسع عند البرتغاليين والعثمانيين في تصريحات كل من الملك البرتغالي والسلطان العثماني ، فقد كان يؤمن الاول بأنه لايخشى العرب لضعف قوتهم البحرية ولكنه يخشى سلطان مصر والاتراك العثمانيون الذين من المحتمل ان يجيؤا لمساعدة ابناء دينهم (٦٧) ، أما السلطان سليم فقد اعلن بعد احتلاله لمصر عام ١٥١٧ " والان فان كافة اقاليم مصر وحلب وسوريا ومدينة القاهرة ومصر العليا والحبشة وجميع الاراضي حتى تونس والحجاز ومدن مكة والمدينة والقدس قد اضيفت الى اراضي الامبراطورية العثمانية " (٦٨).

وبعد أن اطمأن البرتغاليون الى احتلال هرمز ومسقط والبحرين راحوا يعملون على اعاقة حركة النشاط التجاري عبر الطرق البرية التي ماتزال قائة بين بعض المراكز التجارية في الخليج العربي والبحر الاحمر وتلك الواقعة على البحر الابيض المتوسط ، واصبح هدفهم تقوية حركة النقل التجاري بحرا باتجاه «لشبونة» وعلى حساب الموانيء الموجودة في المشرق العربي، وهذا بدوره سبب

معاداة القوى القائمة آنذاك وعلى رأسها الدولة العثمانية(٦٩).

انشغل السلطان سليم في بداية توليه السلطة بصراع مرير ضد الحكام الصفويين والمماليك ، ولم يتخذ اجراءات كبيرة ضد البرتغاليين ، وعاد الى مقر حكومته ثم توفى عام ١٥٢٠ ، وجاء الى الحكم السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) الذي توجه الى التوسع الاقليمي صوب العراق والخليج العربي في وقت متأخر وهو عام ١٥٣٤ (٧٠) حيث كان في صراع مع الممالك الاوروبية ، علما بأن السلطان كان قد اطلع عام ١٥٢٥ على نسخة من كتاب «بيري» الذي تضمن وصفا مفصلا للرحلات والفعاليات البحرية للبرتغاليين في المحيط الهندي ، كما تسلم السلطان تقريرا مفصلا عن حجم واهداف القوات لعثمانية والبرتغالية الموجودة في المحيط الهندي ، وقد جاء في هذا التقرير الذي ارسله القائد البحري سليمان رئيسي الى انه لابد من القيام بهجمات اكثر ضد البرتغاليين الذين وجهوا التجارة الى البرتغال بعد ان كانت تمر بمصر (٧١) ، من جهة اخرى قام البرتغاليون بمحاولة فاشلة لغزو البصرة عام ١٥٢٩ بهدف الحيلولة بين العثمانيين والتجارة، مما جعل البصرة ذات اهمية كبرى في نظر العثمانيين ، وفي رسالة من قبطان هرمز الى الملك البرتغالي جوا الثالث بتاريخ ١٥٢٨/٧/١١ توضح اهمية البصورة الاقتصادية بالنسبة لهرمز حيث أنها تزودها بالقمح والمواد الدهنية وتقوم بتوزيع سلع الشرق الاقصى على الجزيرة العربية وبلاد الشام، ويشير قبطان هرمز الى الخطر الكبير على المنطقة اذا استطاع والى البصرة انشاء اسطول بحري (٧٣) ، ومع ذلك لم يأخذ السلطان العثماني موقفا مباشرا وقويا ضد البرتغاليين الا بعد ان تولى سليمان باشا الخادم ولاية مصر عام ١٥٣٨.

وخلال فترة انشغال الدولة العثمانية باعدائها أخذ العرب على عاتقهم مقاومة البرتغاليين، خاصة بعد أن احتل البرتغاليون عمان والبحرين والاحساء والقطيف من بني جبر ، وبعد ان قتل البرتغاليون السلطان مقرن بن زامل الجبري حاكم البحرين الذي استعان بالعثمانيين لبناء السفن

الحربية في البحرين ، واعلن تبعية البحرين والقطيف للاحساء وامتنع عن دفع الجزية لملك هرمز الذي يسلمها بدوره للبرتغاليين. وقد بادر توران شاه حاكم هرمز بالثورة على البرتغاليين في ٣ نوفمبر ١٥٢١ (٧٤) بعد ان تأكد له بأن البرتغاليين فرضوا عليه سيطرتهم العسكرية والاقتصادية وقاموا بتعيين موظفين برتغاليين في دار الجمارك محل المواطنين. وقد ساعده شيوخ البحرين ومسقط وقريات وصحار فهاجموا البرتغاليين في ليلة واحدة برا وبحرا وقتلوا الكثيرين منهم ، وحاصروا قلعة هرمز وفيها القائد «دوم جرسيا كويتهر» ، ، كما هاجم اهالي البحرين القلعة والقوا القبض على قائدها البرتغالي وأعدموه ، ولكن الحركة فشلت (٧٥) بسبب استمرار الخلافات بين شيوخ الجبور وملوك هرمز ، حتى ان الجبور استطاعوا قتل الملك توران شاه الذي التجأ الى جزيرة قشم هربا من البرتغاليين لأنهم اتهموه بمساعدة البرتغاليين في قتل سلطانهم مقرن بن زامل ، وبهذا استطاعوا أن يثاروا من عدوهم اللدود وان كان ذلك على حساب القضية العامة (٧٦) . ومن جهة اخرى قام المواطنون في كل من مسقط وقلهات بالثورة على البرتغاليين عام ١٥٢٦ مما اضطر نائب الملك البرتغالي «دي سامبايو» الى ارسال حملة اخري في مايو ١٥٢٧ (٧٧) لاقرار النظام وتقديم الوعود بالاصلاحات ، وكذلك قام سكان البحرين بالثورة على الرتغاليين عام ١٥٢٩ وذلك بسبب رفع البرتغاليين مبلغ الخراج الذي تدفعه البحرين الى هرمز وكذلك ضد تسلط ملك هرمز عليهم فانهزم البرتغاليون (٧٨).

والملاحظ هنا مدى اهتمام البرتغاليين بالسيطرة التامة على هرمز ، وتظهر اهميتها من خلال وثيقة وهي رسالة موجهة الى ملك البرتغال جوا االثالث بتاريخ ١٥٢٨/٧/١٠ حول مداخيل جمارك هرمز ، وجاء في الرسالة أنواع الضرائب ومنها ضريبة الولاء ، ومداخيل الجمارك وقدرها بحوالي ٧٠ ألف أشرفي (زيرافين) يعادل ٣٠٠ ريال ، ثم ضرائب الجمارك ، والغنائم البحرية وتقدر ٢٠ ـ ٢٥ الف اشرفي وقد أكد في الرسالة الاستفادة الكبرى التي تضمنها البرتغال من تحكمها في هرمز (٧٩) . ويمكن اعتبار حملة عام ١٥٢٦ أول حملة عثمانية تتوجه الى اليمن ثم الى الهند ، وكانت بقيادة سليمان ريس وخير الدين حمزة ، وقد ثار خلاف كبير بين قادة الحملة (٨٠) انتهت بأن تولى قيادة الحملة

مصطفى بيرم الذي توجه الى عدن فحاصرها خمسة أشهر وذلك خلال عام ١٥٢٩ (٨١)، والغريب في الامر ان حاكم عدن كان يعاني من هجمات البرتغاليين فقد هاجم «البوكيرك» عدن في وقت مبكر من وصوله الى المنطقة عام ١٥١٣ ولكنه فشل في ذلك اولا لحصانه المدينة وثانيا ان حكامها عروفوا الخطر البرتغالي على حقيقة فتعاونوا مع جيرانهم (٨٢)، وكان الاجدر بقائد الحملة العثمانية ان يتصل بحاكم عدن وان يتفاهم معه خاصة وانهما امام عدو مشترك ، لا ان يحاصر عدن ويضعف مقاومتها أمام البرتغاليين ، وهذا ماحصل فعلا في السنة التالية عندما كان القائد البرتغالي «داشلفيرا» متوجها باسطوله الى الحبشة وقد لمس ضعف عدن وخوف الوالي منه ، فاغتنم الفرصة وعقد معاهدة تنص على ان يدفع حاكم عدن جزية سنوية قدرها عشرة آلاف اشرفي والسماح للسفن باستعمال ميناء عدن (٨٣) ، وهذا الموقف من الحاكم المسلم أثار غضب واستنكار الاهالي ولذلك لم تدم المعاهدة سوى سنة واحدة فقط ، بعدها أعلن الوالي تبعية بلاده للدولة العثمانية (٨٤).

وبعد أن فشل القائد مصطفى بيرم في احتلال عدن توجه الى جزيرة كمران حيث غرقت له بعض السفن بجوار ساحل المخا ، ثم توجه الى الهند ، حيث التحق هناك بخدمة السلطان بهادر شاه سلطان كجرات الاسلامية ، فأكرمه وأنعم عليه بلقب (رومي خان) وولاه حكم (الديو) وانقطعت علاقته بالدولة العثمانية ، وأصبح رسميا في خدمة سلطان كجرات ، وقد شارك فعلا في صد هجوم برتغالي عن مدينة الديو ولكنه لم يقاتلهم باسم العثمانيين وانما كقوات تابعة لسلطان كجرات (٨٥).

وانشغل السلطان العثماني سليمان القانوني في حروبه بأوروبا ولكنه عزم على اعادة سيطرة الدولة على منطقة الخليج العربي فأسرع الى توقيع هدنة مع النسما عام ١٥٣٣ (٨٦) ، وفي العام التالي توجه الى ضم اذربيجان ثم استولى على العراق من الصفويين عام ١٥٣٤ (٨٧) ، ولما كانت عواطف معظم العرب تميل الى الدولة العثمانية في ذلك الوقت ، فقد جاءته الوفود من شيوخ القطيف والبحرين حاملين معهم رسائل الترحيب والطاعة والولاء لانهم كانوا بحاجة الى حماية العثمانيين من

البرتغاليين (٨٨) . ومن جهة اخرى عزم السلطان على اعادة الحياة الى الطرق التجارية القديمة التي تربط مابين الهند والبلاد العربية ، كما عزم على تحطيم الاحتكار البرتغالي للتجارة الشرقية ، الا ان خططه لم تكن جادة ، الى أن تم تولية سليمان باشا الخادم واليا على مصر عام ١٥٣٨، ففي نفس السنة أمر السلطان العثماني بارسال اسطول حربي ضخم من السويس ، هدفه طرد البرتغاليين من معقلهم الرئيس في الهند (ديوا) (٨٩) . وكان سلطان «كجرات» بهادر شاه قد استنجد بالسلطان العثماني لتعديات اساطيل البرتغاليين على بلاده ومنعها المواصلات التجارية التي كانت بينها وبين الديار المصرية ، ثم حصل ان هاجم البرتغاليون «كجرات» وقتلوا حاكمها ، مما أغضب السلطان العثماني ، كذلك اخذ البرتغاليون بمد الفرس بالمعونات الحربية للتعاون معهم ضد العثمانيين وخاصة بعد احتلال العثمانيين للعراق، فأمر بسرعة توجه الاسطول الى الهند ، وكانت هذه الحملة تتكون من ثمانين سفينة مختلفة الانواع تحمل عشرين الف جندي بقيادة سليمان باشا الخادم (٩٠) ، وتدل ضخامة هذه الحملة ان العثمانيين قرروا الدخول في مجابهة بحرية حاسمة مع البرتغاليين خاصة بعد تزايد خطرهم في الخليج العربي والبحر الاحمر.

توجه سليمان باشا الى الهند مارا بعدن حيث قتل اميرها عامر بن داود الظاهري (٩١) بحجة تعاونه مع البرتغاليين ، ونصب علها احد ضباطه (بهرام بك) وترك معه بعض الجنود والمدافع ، ثم ابحر بعد ذلك الى الساحل الغربي للهند وضرب حصارا على حصن (ديوا) في كجرات ، ولكن الحصار لم يكن ناجحا مع أنه ترك انطباعا لدى البرتغاليين عن الخطر المحتمل للقوة البحرية العثمانية في السويس ، وقد كانت فترة اقامة الحملة بالهند نحو شهرين ، ثم رجعت خائبة دون أن تحقق الهدف من رحلتها . ويرى (ستريلنك) في كتابة «العثمانيون والعرب» ان عدم نجاح هذه الحملة الضخمة لم يحدث بسبب أن العثمانيين كانوا ادنى من البرتغاليين في السفن والسلاح بل لأن قيادة الحملة كانت سيئة وجبانة وغير كفؤة ، ولو توفر للعثمانيين قائد بحري قدير لكان هناك احتمال قوي بعدم بقاء الهند تحت الحكم البرتغالي (٩٢) وهناك رأي آخر يذكر ان سليمان باشا خاف من صول اسطول برتغالي جديد

الى المنطقة فترك مدافعه الكبيرة لحاكم (ديوا) ورجع (٩٣) ، وهذا مايؤيد رأي ستربلنك بأن سليمان الخادم لم يكن قائدا شجاعا ، كذلك يظهر من تصرفاته انه لم يكن يتعاون مع الحكام العرب في المنطقة بل كان يعزلهم ويعين بدلهم ولاة اتراكا ، كما كان قاسيا في فرض اوامره محبا لسفك الدماء . اما بافقيه فيذكر ان سبب رجوع الحملة من الهند ان حاكم كجرات لم يقدم المساعدات للقائد العثماني بل ان ذلك الحاكم قبض على رسول القائد العثماني ولم يرد له جوابا (٩٤) ، ويؤكد هذا الرأي «جاهد بلطه جي» حين يذكر في بحثه ان محمود الثالث حاكم كجرات تحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين (٩٥).

رجع سليمان باشا الخادم من الهند دون ان يعطي أهمية كافية لتحقيق اهداف الرحلة (٩٦) ومر بمنطقة (شحر) في اليمن ، وقد فرض على سلطانها «بدر بوطويرق» ضريبة سنوية قدرها عشرة آلاف أشرفي، ثم استولى على (زبيد) (٩٧) وعين مصطفى باشا اميرا عليها وترك عنده نحو الفين من الجنود ، وأبقى بهرام في عدن ، ثم وصل الى جزيرة كمران فجمع الافرنج الذين كان قد أعطاهم الامان وهم تسعون ، وثلاثون آخرون كان سلطان شحر قد سلمهم له ، وقتلهم جميعا وقطع رؤوسهم وسار بها الى مصر (٩٨) . ثم توجه الى عاصمة الدولة العثمانية حيث عزل من منصبه ثم انتحر عام ١٥٥٣.

وكرد على حملة سليمان باشا قام البرتغاليون بتجهيز حملة عام ١٥٤٠ وقد اقلعوا من (جوا) قاصدين السويس لتحطيم وحرق الترسانة البحرية ، وكان عدد سفنهم حوالي سبعين سفينة ، وعندما وصلوا البحر الاحمر ساروا في الطريق المحاذي للساحل الافريقي، ، وعرجوا على جزر (دهلك)، (سواكن) و (القصير) ، ثم وصلوا الى مكان يعرف باسم طور سيناء ، ولما وصلوا الى السويس وجدوا الجنود على أهبة الاستعداد لاستقبالهم ، فقد وصلت أخبار هذه الحملة الى السويس في وقت مبكر ، فرجعت الحملة الى جزيرة دهلك وانتظرت موسم هبوب الرياح الجنوبية الغربية . والغريب في الامر ان الاسطول العثماني القوي لم يتحرك ويهاجم البرتغاليين ولم يقوموا بأي اجراء بل تركوا البرتغاليين

يخرجون بسلام من مضيق باب المندب (٩٩) . والسؤال هنا هل كان قائد الاسطول العثماني ينتظر الاوامر من السلطان كما رأينا سابقا وهل تحرك الاسطول ووجهته منوط بالسلطان فقط خاصة وان الاسطول البرتغالي كان بامكانه ان يتعرض للاماكن المقدسة في مكة والمدينة بل في الحقيقة كان يشكل خطرا كبيرا عليها.

سقطت بغداد في وقت مبكر بيد العثمانيين ، ولكن هؤلاء لم يكترثوا بالمناطق النائية مثل (البصرة) رغم أهميتها بالنسبة لاعدائهم البرتغاليين والصفويين ، وكان يحكم البصرة راشد بن مغامس الذي أعلن ولاءه للبرتغاليين ثم عاد واعلن ولاءه للعثمانيين (١٠٠) ، وقد اعترف هؤلاء بسلطته على شرط أن يسك النقود العثمانية وتقام الخطب بالمساجد باسم السلطان العثماني ، الا ان شيوخ البصرة اتبعوا وسائلهم القبلية في معالجة امورهم ، ولم يهتموا بالقوانين العثمانية، فاضطرب الامن في البصرة مما جعل والي بغداد يرسل حملة لاخضاع القبائل ، فخرجت الحملة من بغداد في ١٥ كانون اول ١٥٤٦ فاخضعت القبائل المنتشرة بين بغداد والبصرة (١٠١) ، وكان حاكم البصرة «راشد بن مغامس» قد أرسل الى البرتغاليين عارضا عليهم مساعدته في انتزاع البصرة من العثمانيين ، مقابل السماح لهم باقامة قاعدة برتغالية فيها (١٠٢) ، كذلك أرسل احد امراء اليمن وهو علي بن حسين الطواقي رسالة مماثلة الى حاكم الهند يطلب منه الحماية بعد ان تمكن من طرد الحامية التركية من عدن ، وقد اهتم حاكم الهند البرتغالي (دوم الفونسودي نورونها) بالامر وارسل حملتين عسكريتين ، الاولى تتجه الى اليمن والثانية الى الخليج العربي وكانت الحملة الاولى بقيادة «لويس فاغوريا» الذي التقى في طريقه بسفن عربية لأهالي منطقة ظفار في عمان حيث اشتبك معها فأوقعت به الهزيمة ففر الى الحبشة ، أما حملة الخليج فقد كانت بقيادة «دوم نورونها» وهي تتكون من تسع عشرة سفينة وتحمل ١٢٠٠ جندي برتغالي (١٠٣)، ولما وصلت الى هرمز قام حاكمها بتزويد الحملة بثلاثة آلاف جندي ، وتوجهت الى القطيف التي كانت حاميتها فقط أربعمائة جندي عثماني ، وقد قاتلوا بشجاعة ، ولكن الحصن العثماني استسلم بعد مقاومة دامت ثمانية أيام (١٠٤) . ثم توجهت الحملة الى البصرة

فوجد قائد الحملة في استقباله باشا البصرة الذي لم يكن مستعدا لحربه ، بل اراد مفاوضته فقط ، وفعلا انتهت المفاوضات بانسحاب «نورونها . وتذكر المصادر البرتغالية ان باشا البصرة خدع قائد الحملة حين ابلغه بأنه موجود في البصرة لغرض الاتفاق مع الشيخ المخلوع على صيغة تفاهم وتعاون وأنه لايرغب في مقاتلته بل باعادته الى السلطة ، ولهذا عاد «نورونها» الى هرمز (١٠٥) . أما المصادر التركية فتذكر ان حاكم البصرة قد طبق خطة ذكية لتفادي هذا الهجوم بحيث جعل القائد البرتغالي يعتقد بأن الاتراك والعرب قد شكلوا حلفا ضد البرتغاليين الامر الذي جعل قائد الحملة يقرر الانسحاب (١٠٦).

ولابد هنا من وقفة تقييم للعلاقات العربية العثمانية ، فقد تكرر خروج الزعماء العرب على الحكم العثماني وان دل ذلك على شيء فانما يدل على فشل الولاة العثمانيين في بناء علاقات سليمة ومتينة مع الامراء العرب ، فأسلوب السيطرة وخلع الحكام وسوء الادارة وفرض الغرامات جعل الحكام ينتظرون الفرصة المناسبة للخروج على العثمانيين رغم انهم بحاجة ماسة لمساعدتهم ضد اعدائهم الحقيقيين وهم البرتغاليون ، لكن يظهر ان الولاة العثمانيين جاءوا الى المنطقة وهم يحملون معلومات سيئة عن العرب ولذلك كان تعاونهم معهم ضعيفا جدا ، او ان الخلل كان في النظام الاداري والعسكري في الدولة العثمانية ، سواء في صلاحيات الولاة والقادة أو في سوء اختيار قادة الاساطيل والولاة.

وكان لابد للعثمانيين من ايجاد قوة بحرية تحمي موانيء ساحل الخليج العربي ، خاصة بعد امتداد نفوذهم الى البصرة ، ففي عام ١٥٤٩ توجهت حملة عثمانية بقيادة «بيري ريس» الى عدن لمهاجمة حاكمها علي بن سليمان الطوالقي الذي طرد الحامية العثمانية ، وقد نجح القائد العثماني باسترجاع عدن ، ولكنه تقاعس عن مهاجمة قوة البرتغاليين الذين حضروا لمساعدة حاكم عدن علما بأنه تأكد من جودهم حينما استولى على سفينتين جاءتا للاستطلاع (١٠٧) .

ومن جهة أخرى كان أهل القطيف قد خرجوا على حاكم هرمز عام ١٥٥٠ وفضلوا ان يدخلوا

في حماية العثمانيين الذين كانوا يحكمون البصرة (١٠٨) وكان حاكم هرمز تابعا للبرتغاليين ، الا ان البرتغاليين افشلوا هذا المشروع دون ان يستطيع العثمانيون التدخل وحماية أهل القطيف منهم (١٠٩) . ولايوجد مايبرر ذلك حيث ان مثل هذه المواقف تكررت من القادة العثمانيين مما يدل على ان سير الحملة والاشتباك مع الاعداء كان منوطا فقط بوصول امر من السلطان العثماني ، وهذا يعتبر سوء ادارة وقيادة .

وفي عام ١٥٥١ وبعد ان احتل «بيري ريس» عدن توجه الى مسقط ، وكان معه خمس وعشرون سفينة كبيرة واربع سفن اسبانية وسفينة نقل جنود ضخمة ، فيما كان عدد جنوده الفا وستمائة مقاتل (١١٠)، وقد وصلت اخبار هذه الحملة الى الحاكم العسكري البرتغالي في هرمز وعلم بأن الحملة ستهاجم هرمز والبحرين لتأمين حماية البصرة ، لذلك قرر أن يتصدى للحملة في عرض البحر وقبل وصولها الى هرمز ، ولما التقى الاسطولان تمكن القائد العثماني من تحطيم الاسطول البرتغالي واغراقه (١١١) ، فأصبح الطريق الى مسقط مفتوحا امامه وقد حاصر القائد العثماني مسقط ثمانية عشر يوما الى ان استسلم قائدها «جودي لسبون» (١١٢) ومعه ستون اسيرا برتغاليا ، ثم ترك مسقط دون ان يترك فيها حامية تركية او يستثمر الفوز بتسليم حصونها الى امراء عمان العرب بل اكتفى بأخذ مدافع المدينة ، ثم توجه الى هرمز لمقاتلة البرتغاليين خلافا لاوامر السلطان العثماني (١١٣) ولكنه فشل في احتلالها وانسحب منها بعد حصار دام شهرا كاملا وتوجه الى البصرة.

ترك «بيري ريس» اسطوله في البصرة وقفل راجعا الى السويس وبصحبته ثلاث سفن فقط وهناك آراء متعددة حول اسباب انسحاب القائد العثماني الى السويس وتركه لاسطوله في البصرة ، فالرأي الاول يذكر بأن «بيري ريس » علم بتقدم اسطول برتغالي كبير نحو الخليج واحتمال غلق مضيق هرمز بوجهه (١١٤) ، فأسرع في مغادرة البصرة تاركا بقية اسطوله هناك ، وهذا الموقف يذكرنا برأي «ستربلنك» حينما عزى فشل حملة سليمان باشا الخادم الى الهند بأن قيادة الحملة كانت سيئة وجبانة

وغير كفؤة ، أما الرأي الثاني يذكر أن «بيري ريس» التقى بوالي البصرة العثماني (قباد باشا) فوقع خلاف بين الرجلين بسبب ماأشيع عن استيلاء «بيري رئيس» على اموال تجار هرمز ومقايضته الاسرى البرتغاليين بمبالغ كبيرة من المال وخشيته من فقدان الغنائم التي حصل عليها (١١٥) . ومهما كانت الاسباب فهذه المواقف توضح مدى الفوضى وسوء الادارة للسلطة العثمانية في مجابهة البرتغاليين في منطقة الخليج العربي . واثناء رجوع القائد العثماني الى السويس فقد سفينة في البحرين ورجع بسفينتين فقط ، وكان بانتظاره جنود القوا القبض عليه ، وتمت محاكمته في القسطنطينية وتم اعدامه عام ١٥٥٣ (١١٦) ، بحجة عدم اطاعته للاوامر مما ادى الى فشل الحملة وتدني سمعة البحرية العثمانية واتهم بأنه ترك انطباعا عاما في المنطقة بأن البرتغاليين قوة لاتقهر (١١٧).

أرسل السلطان العثماني القائد البحري «مراد رئيس» لاعادة الاسطول العثماني من البصرة الى السويس وذلك عام ١٥٥٢ ، ولما وصل الى البصرة أصلح السفن وترك فيها بعض السفن للمحافظة عليها ، ثم توجه الى مضيق هرمز ومعه خمس عشرة سفينة ، وكان بانتظاره اسطول برتغالي ، فنشبت معركة بين الطرفين استمرت من الصباح الى المساء أصيب فيها كل منهما بخسائر جسيمة ، ولم يستطع «مراد رئيس» مواصلة السفر الى السويس فعاد باسطوله الى البصرة (١١٨).

وصلت أخبار المعركة الى مسامع الباب العالي لذلك أصدر أوامره عام ١٥٥٣ الى القائد العثماني «سيدي علي ريس» القائد العام للقوات العثمانية في مصر بالتوجه الى البصرة عن طريق البر وان يقوم بارجاع الاسطول العثماني الى السويس . وعند وصوله الى البصرة تسلم من الوالي العثماني خمس عشرة سفينة واقلع بها عام ١٥٥٤ متوجها الى هرمز (١١٩) ، وبالقرب من خورفكان تقابل مع اسطول برتغالي يتكون من ٢٥ سفينة ودارت بين الطرفين واحدة من اعنف المعارك البحرية ، وقد اجبر البرتغاليون على التراجع ، لكن الاسطول البرتغالي وصلته الامدادات وأعاد تنظيم نفسه ودخل في معركة ثانية مع العثمانيين الا ان الرياح المعاكسة القوية دفعت بالاسطول العثماني باتجاه

الساحل الهندي حيث وصل الى «كجرات» ومكث فيها فترة من الزمن ، وفي ميناء «سورات» تفرق رجال الاسطول وتركوا مالديهم من سفن وساروا في الطريق البري عائدين الى البصرة فاضطر «سيدي علي» الى بيع السفن وتسليم اثمانها الى الجهات المسؤولة في القسطنطينية التي وصلها عام ١٥٥٧ (١٢٠).

والملاحظ ان الخليج ظل مفتوحا أمام البرتغاليين لان العثمانيين حتى هذه الفترة لم تكن لديهم قوة بحرية كافية في البصرة لمقاتلتهم ، والغريب في الامر ان الباب العالي يرسل قائدا بحريا لارجاع الاسطول من البصرة في حين أن وجود قاعدة بحرية قوية في البصرة وهي ارض عثمانية ، وقاعدة اخرى قوية في السويس يجعل امكانية محاصرة ومتابعة الاساطيل البرتغالية اسهل واكثر قوة بل يستطيع الاسطول العثاني ان يسيطر على المنطقة من ناحية استراتيجية وعسكرية ، وفي اعتقادي ان اهتمام الباب العالي بقاعدة السويس انما يرجع الى قربها من الاماكن المقدسة ، أما قاعدة البصرة فيظهر أن سيطرة البرتغاليين على هرمز وهي عنق الزجاجة بالنسبة للخليج العربي جعل من البصرة قاعدة ضعيفة من الناحية الاستراتيجية.

ويمكن القول أنه منذ الاحتلال العثماني للبصرة عام ١٥٤٦ حتى عام ١٥٥٩ فان الخليج العربي انقسم بين النفوذ العثماني الذي امتد من البصرة الى سواحل القطيف ، ونقوذ البرتغاليين الذين سيطروا على هرمز وعمان (١٢١) ، بينما كانت البحرين تفصل بين مناطق نفوذ القوتين فهي تحت السيطرة البرتغالية مرة وفي فترة اخرى تحت السيطرة العثمانية ، ولذلك كانت المعلومات عن البحرين في تلك الفترة غامضة وتفسير احداثها غير دقيق.

ففي عام ١٥٥٩ كانت علاقات الدولة العثمانية بالبحرين علاقة ود وصداقة ، فقد منح الباب العالي سنة ١٥٥٩ حاكم البحرين لقب «سنجق بك» وهذا دليل على ان البحرين في هذه الفترة كانت موالية للدولة العثمانية ، ولكن حدث في نفس العام أن قام حاكم الاحساء مصطفى باشا باعداد حملة عسكرية لمهاجمة القاعدة العسكرية البرتغالية في البحرين ، وقد اختلفت الاراء حول دوافع الحملة ،

فهل كان هدفها انقاذ البحرين من هجوم برتغالي اشارت اليه وثيقة السلطان العثماني (١٢٢) الموجهة الى والي مصر عام ١٥٥٩ يخبره فيها بوصول البرتغاليين الى ناحية البحرين ، ام أن حاكم الاحساء قام بهذه الحملة كمطمع شخصي دفعه لتوسيع ولايته بالاحساء على حساب القطيف والبحرين دون علم السلطان العثماني (١٢٣) ، ومن جهة اخرى اختلفت الاراء حول «مراد بك» حاكم البحرين ، هل هو فارسي أو ممثل لحكومة هرمز البرتغالية ام وال تركي؟ فالمصادر البرتغالية تذكر انه فارسي يمثل حكومة هرمز في البحرين ، بينما المصادر العثمانية تذكر أنه وال عثمان (١٢٤).

وصلت الحملة الى البحرين في ١٣ رمضان ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩م وكانت مؤلفة من سبعين سفينة بين مقاتلة وناقلة جنود وعليها ١٢٠٠ جندي وقد توقفت الحملة أمام قلعة البحرين وحاصرتها ، وتذكر المصادر البرتغالية أن حاكم البحرين أرسل نداء مستعجلا الى حاكم هرمز (انطونيو دي نورونها) يطلب فيها النجدة ، فأرسل حملة بقيادة اخيه (دوم جوادي) لمقابلة العثمانيين ، وقد وصلت الحملة الى مشارف البحرين واشتبك الطرفان في سلسلة من المعارك أوشك فيها البرتغاليون على الانكسار ، فقد قتل قائد الحملة (دوم جوادي) ، لكن حاكم هرمز أرسل اسطولا برتغاليا آخر أحاط بالقوة العثمانية كما انضم الى الحملة البرتغالية بعض القوات الفارسية (١٢٥) الا أن مصطفي باشا توفى فانهارت معنويات الجيش العثماني ودبت المجاعة بين صفوفه ، ولذلك قرر العثمانيون اجراء مفاوضات مع البرتغاليين للانسحاب الى البصرة مقابل دفع مبلغ معين على سبيل التعويض وتسليم الاسرى (١٢٦)، ويبدو واضحا عدم وجود سياسة جيدة وقيادة عسكرية منظمة أثناء التحركات العثمانية ضد البرتغاليين في منطقة الخليج العربي بل ظهرت روح الارتجال واضحة وعدم وجود نظام عسكري وسياسي جيد يسود التحركات العثمانية منذ بداية وجودها في المنطقة ، ويمكن القول أن السيطرة الحقيقية للبرتغاليين على منطقة الخليج العربي قد اكتملت عام ١٥٥٩.

ولم تحدث مواجهات هامة بين البرتغاليين والعثمانيين حتى عام ١٥٦٦ حيث توفي السلطان

«سليمان القانوني (١٢٧) وتبع ذلك توقف أعمال المقاومة العثمانية ضد الوجود البرتغالي في المياه العربية ، ثم تجدد الكفاح ضد البرتغاليين عام ١٥٨٠ في زمن السلطان مراد الثالث لكن أكثر العمليات تركزت على ساحل افريقيا الشرقي (١٢٨).

ولقد تحولت الاهمية التجارية والاقتصادية لمنطقة الخليج العربي أثناء فترة الاستعمار البرتغالي الى أهمية استراتيجية ، والغريب في الامر كيف ان قادة العالم الغربي قد فهموا هذه الاهمية بينما القيادات العثمانية والعربية لم تفهم ذلك ، والاخطر من ذلك ان الدولة العثمانية كانت في اوج قوتها ، ولكنها لم تدرك أهمية وضع اسس سياسية للتعاون الاقليمي في مواجهة التسلل الاوروبي ، خاصة وأن هؤلاء الاوروبيون كانوا يحملون معهم مفاهيم ووسائل التبشير ، وكان من واجب الدولة العثمانية التركيز على العامل الديني في تعاونها مع حكام منطقة الخليج ، ومما يثير الدهشة أن القادة العثمانيين تعاملوا مع الحكام العرب في منطقة الخليج العربي بنفس الطريقة التي تعاملوا فيها مع مستعمر اتهم في اوربا ، دون أن يضعوا في اعتبارهم أنهم في ارض عربية اسلامية رحبت بهم وخضعت لهم بصدق ووفاء لانهم جند الخلافة الاسلامية ، وقد دلت الاحداث على سوء ادارة قادة الاساطيل العثمانية وعدم قدرتهم على خلق جو من التعاون مع الحكام العرب ، فنرى مثلا القائد العثماني مصطفي بيرم يتوجه الى عدن عام ١٥٢٩ ويحاصرها لمدة خمسة اشهر فيضعف مقاومتها مما ادى الى استسلامها للبرتغاليين في السنة التالية، وكان الاجدر بهذا القائد ان يتفاهم مع حاكم عدن المسلم خاصة وانهما امام عدو مشترك ، ومثال آخر اكثر وضوحا ، عندما هاجم القائد العثماني سليمان باشا الخادم عدن عام ١٥٣٨ وقتل حاكمها عامر الطاهري ، ونصب عليها أحد ضباطه ، واثناء رجوعه من الهند مر بمنطقة شحر وفرض على حاكمها ضريبة سنوية باهظة مقدارها عشرة آلاف اشرفي ثم استولى على مدينة زبيد وعين مصطفى باشا اميرا عليها. وهناك امثلة كثيرة لاحصر لها.

وهنا يحق لنا أن نتساءل ، لماذا تكرر خروج الزعماء والامراء العرب على الحكم العثماني ، بل

والوقوف الى جانب البرتغاليين ضد العثمانيين في كثير من المواقف ، هل اسلوب السيطرة وخلع الحكام وفرض الضرائب والغرامات وسوء ادارة القادة والولاه العثمانيين كان وراء تفكير الحكام العرب بالخروج على الدولة العثمانية ، رغم انهم بحاجة ماسة لها وامام عدو مشترك، أم ان القادة العثمانيون كانوا مسبقا يحملون معلومات سيئة عن العرب وحكامهم مما دفعهم الى عدم التعاون معهم ، بل اتجهوا الى اضطهادهم واخضاعهم بالقوة دون ان يضعوا في اعتبارهم ان التعاون معهم سيكون له فائدة كبرى لمجابهة العدو المشترك وهم البرتغاليون ، وهذا الموقف يضعنا امام الاسباب التي جعلت العثمانيين يفشلون في كسب كثير من معاركهم ضد البرتغاليين، بل فشلوا في أن يكونوا من أسباب طرد البرتغاليين من المياه العربية.

من جهة اخري نقرأ اعذارا متعددة يقدمها المؤرخون والكتاب لتبرير عدم مقدره العثمانيين على ابعاد البرتغاليين عن المياه العربية ، ومن هذه الاعذار ان سفن الاسطول العثماني كانت في الاغلب صغيرة لاتستطيع التصدي للسفن المحيطية الكبيرة (١٢٩) الا ان الاحصائيات والاحداث والحملات التي حصلت تؤكد عكس ذلك لكن السلطة العثمانية لم تستطع تنظيم الظهير العربي ليصبح سندا استراتيجيا قويا لها ، كذلك هناك من يدعي بأنه من الصعوبة تجهيز اسطول عثماني تكفي قواته لمواجهة الاساطيل البرتغالية في الخليج العربي والمحيط الهندي والسؤال هنا هل هناك اعظم من موقعي السويس والبصرة الاستراتيجيين لبناء اساطيل قوية وتزويدها بكل ماتحتاج اليه وبخاصة أن لكل منهما ظهيرا قويا وبعدا استراتيجيا وقوى عربية برية لو استغلت لاعطت نتائج افضل . وعذر ثالث ان الدولة العثمانية كانت مشغولة في حروبها في اوروبا ومع الدولة الصفوية ، الا ان الوقائع كانت تؤكد بأن الدولة العثمانية كانت قوية جدا في اوروبا وان اعداءها لاحول لهم ولاقوة ، أما الدولة الصفوية فبعد معركة جالديران اتجهت الى عقد تحالفات فقط ، وان كان تعاملها مع الدولة العثمانية والقيادات العربية دائما بسوء نية.

لكن يمكن الجزم بأن البرتغاليين فشلوا في تنفيذ مخططاتهم التبشيرية في منطقة الخليج العربي، واستطاع العثمانيون المحافظة على العالم الاسلامي وطريق الحج والمدن الاسلامية المقدسة ، وأعتقد ان فشل البرتغاليين في تحقيق هدفهم الديني يرجع بالدرجة الاولى الى تجذر الدين في المنطقة ، ورفض السكان التخلي عن دينهم ، ولو استغل العثمانيون العامل الديني في توحيد القوى العربية والاسلامية لكانت النتائج افضل.

من جهة اخرى يمكن القول بأن العثمانيين نجحوا الى حد ما في اضعاف السياسة التجارية البرتغالية في المنطقة ، واصبح واضحا قبل وفاة السلطان سليمان القانوني ان البرتغاليين فشلوا في فرض سيطرتهم المطلقة على المحيط الهندي والخليج العربي ، فلم تنقطع عمليات تبادل البضائع الهندية مع التجار الاوروبيين عن طريق حلب والقاهرة والقسطنطينية ، ويذكر الرحالة الانجليزي «الدريد» الذي زار البصرة في الربع الاخير من القرن السادس عشر ان سفنا مختلفة تصل شهريا الى ميناء البصرة قادمة من هرمز وهي محملة بجميع أنواع البضائع الهندية (١٣٠).

ويمكن القول بأن فشل العثمانيين في كثير من معاركهم ، وعدم قدرتهم على توحيد قوى المنطقة قد أظهر مدى ضعف العلاقات العثمانية مع القوى الاسلامية في منطقة الخليج العربي، فالعلاقات العثمانية الفارسية كانت سيئة جدا والعلاقات العثمانية العربية كانت ضعيفة وغير ثابتة ، والاسطول العثماني ليس بالقوة المطلوبة ، والقادة العثمانيون غير مؤهلين لقيادة معارك بحرية كبيرة ، كل ذلك دفع بأساطيل الامم الاوروبية الى استخدام تفوقها البحري للسيطرة على الاقطار الاسلامية (١٣١) ومراكزها الاستراتيجية في الخليج العربي والبحر الاحمر، فجاء الهولنديون ثم الفرنسيون ثم الانجليز الذين أحكموا قبضتهم على الخليج العربي دون ان تستطيع الدولة العثمانية التصدي لهم ، فاستمر الاستعمار البريطاني المباشر للمنطقة منذ معاهدة السلم العامة عام ١٨٢٠ حتى خروج الدولة العثمانية من المنطقة في اعقاب الحرب العالمية الاولى.

(١) S.A. Morrison. Midde East Survey London 1954. P. 14

(٢) جيمس فيرجريف : الجغرافية والسياسة العالمية ، ترجمه على رفاعه ومحمد عبد المنعم ، مكتبة النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٩٧

(٣) محمود علي الداود: تاريخ العلاقات الهولندية مع الخليج العربي ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد ، ١٩٨١، ص ٢٦١

(٤) سعيد عاشور: عمان حصن الامان للعروبة والاسلام، ندوة الدراسات العمانية مجلد (١) ، ص ٢٧٠. سلطنة عمان ، وزارة التراث القومي والثقافة .

(٥) المصردر السابق: ص ٢٧٢ ، ٢٧٣

(٦) Durate Barbosa: The Book of Barbosa 1518 Translated to English. 1918 Vo 1. 1,P 73

(٧) Pedro Teixeira: The travels of p. Teixeira, Translated and annoted by W. F Sinclar london, 1902, P.180.

(٨) Tome Pires : The Suma Oriental of T. P.1512-1515 translated by Armando Cortesae, London. 1944. P. 19

(٩) محمد عارف الكيالي : الاسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي خلال القرنين ١٦ ـ ١٧ . أبحاث ندوة الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي ـ رأس الخيمة١٩٨٧ ، ص ١١٣.

(١٠) فالح حنظل :معارك البحرية البرتغالية في الخليج العربي بحث مقدم الى ندوة رأس الخيمة التاريخية ١٩٨٨، ص (٢).

(١١) جمال زكريا قاسم: الاوضا ع السياسية في الخليج العربي ابان الغزو البرتغالي : بحث مقدم الى

ندوة رأس الخيمة التاريخية ١٩٨٧، ص ٣٠

(١٢) المصدر السابق: ص ٣٠.

(١٣) احمد العناني:البرتغاليون في البحرين وحولها خلال القرنين ١٦، ١٧ مجلة الوثيقة العدد ٤ السنة الثانية ، يناير ١٩٨٤م ، ص ٨٠

(١٤) احمد شلبي:موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٧، ط ٣ ص ٢٣٣ انظر ايضا ، سعيد عاشور ، مصر والشام في عهد الايوبيين والماليك ، بيروت ١٩٧٢، ص ٣٠٠

(١٥) جمال زكريا قاسم: المصردر الساق، ص ٢٦

(١٦) محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٣٢٢

(١٧) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٢٤

(١٨) Salomon Modell : A History of the Western World, Vol. 1 P.605

(١٩) بانيكار :المصدر السابق ، ص ١٠، ١١

(٢٠) R.B.Serjeant : The Portuguese of the South Arabian Coast Beirut 1974,PP 2-3.

(٢١) س ، بكنجهام :بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان ، حصاد ندوة الدرسات العمانية - وز ارة التراث القومي والثقافة المجلد ٦، ١٩٨٠، ص ١٨٧

(٢٢) عبد العزيز عبد الغني ابراهيم: علاقة ساحل عمان ببريطانيا . دراسة وثائقية الرياض ١٩٨٢ ، ص ٢٥

(٢٣) ارنولد ويلسون: الخليج العربي ترجمة عبد القادر يوسف ، ص ٢٠٤

(٢٤) Thevenot (De): Voyages De Mr. Thevenot. Paris. 1689 Vol.4. P.618 نقلا عن طارق نافع الحمراني . جامعة بغداد . رحالة البرتغاليون . ندوة رأس الخيمة التاريخية ١٩٨٧م

(٢٥) مصطفى سالم :الفتح العثماني الاول لليمن ، القاهرة ١٩٦٩ م ، ص ٤٦

(٢٦) بانيكار:المصدر السابق، ص ٢٥

(٢٧) C.R.Boxer : Race Relations in the Portuguese Colonial Impire. P.3.London 1963

(٢٨) احمد بوشرب :مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي للسواحل العربية مجلة الخليج العربي - جامعة البصرة - مجلد ١٦ سنة ١٩٨٤ م ص ٣٩. وثيقةبعث بها الملك عمانويل البرتغالي الى اسقف براغا بتاريخ ١٦/٨/١٥٠٨

(٢٩) عبد العزيز الشناوي : المراحل الاولى للوجود البرتغالي لجنة تدوين تاريخ قطرج ٢ ص ٦١٨

(٣٠) Encyclopedia Britanica : Vol.5. 1985. P.852

(٣١) بانيكار : المصدر السابق ص ٤٨

(٣٢) جمال زكريا قاسم : المصدر السابق ص ٢٧

(٣٣) فالح حنظل: المصدر السابق ص ٥

أنظر أيضا جمال زكريا قاسم: المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا ، المجلة التاريخية المصرية مجلد ١٤، ص ٩٨

(٣٤) احمد بوشرب: المصدر السابق وثيقة وهي عبارة عن رسالة من نائب الملك بالهند الى الملك عمانويل بتاريخ ١٦/١٢/١٥١٢ يخبره فيها بوصول مبعوث امبراطور الحبشة لعقد حلف ضد المسلمين تمهيدا لتخريب مكة.

(٣٥) المقريزي تقي الدين احمد بن علي : الالمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام نشرة د. رنك القاهرة ١٨٩٥م

(٣٦) صادق ياسين الحلو : الغزو البرتغالي للخليج العربي من خلال المصادر الفرنسية بحث مقدم الى ندوة رأس الخيمة التاريخية ١٩٨٧م ، ص ٢٤٣

(٣٧) المصدر السابق: ص ٢٤٦

(٣٨) صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٥

(٣٩) Miles : The Countries and Tribes of the (Persian Gulf). P 145

(٤٠) احمد العناني : البرتغاليون في البحرين وماحولها خلال القرنين ١٦ . ١٧ مجلة الوثيقة مركز الوثائق التاريخية ، البحرين ، العدد ٤، ص ٨٦

(٤١) Hawly, Donald: The Trusail States. P.71.

(٤٢) جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص ٢٧

(٤٣) Belgrave : The pivate Coast. P.6.

(٤٤) صالح اوزبران: الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ، ترجمة عبد الجبار ناجي، البصرة ١٩٧٩، ص ١٨ . ١٩

أنظر ايضا ويلسون ، المصدر السابق، ص ٢٠٨ يذكر ويلسون ان حامية المدينة كانت تتألف من ٣٠ الف محارب منهم ٤٠٠٠ فارس، والسفن ٤٠٠ منها ٦٠ كبيرة عليها ٢٥٠٠ رجل.

(٤٧) احمد العناني : المصدر الساق، ص ٧٩

(٤٨) جاهد بلطة جي : صراع الدولتين العثمانية والبرتغالية في الخليج العربي، بحث مقدم الى ندوة رأس الخمية التاريخية ١٩٨٨، ص ١

(٤٩) Jeudwine, J. W : Studies in Empire and trade London. 1923. P. 418

(٥٠) ابن إياس محمد بنأحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٤٤ ، ص ٣٠٨ . تحقيق محمد مصطفى ـ القاهرة ١٩٦١.

(٥١) Bailey, W. D. and George, D. W : Foundation of the Portugues Empire1415-1580. Minneapolis 1977, P. 230-31

انظر ايضا : احمد دراج : دراسات في التاريخ المصري، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٠٩

(٥٢) احمد طباق اوغلو: اهمية خليج العرب الاقتصادية في عهد الدولة العثمانية ، بحث مقدم الى ندوة رأس الخيمة التاريخية ١٩٨٨م ، ص ١

(٥٣) ابن اياس : المصدر السابق، ص ٧٨٧

(٥٤) المصدر السابق، ص ٢٠١

(٥٥) محمد انيس: الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ـ ١٩١٤) ص ، ١٠٦ القاهرة.

(٥٦) عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون (١٥١٦ ـ ١٩١٦) ، ص ٦٣

(٥٧) محمد انيس : المصدر السابق، ص ١٢٩

(٥٨) عبد العزيز نوار: الشعوب الاسلامية ١٩٧٣، ص ٢٢٤

(٥٩) Miles : OP Cit : P. 145

أنظر ايضا : صلاح العقاد ـ المصدر السابق ص ١٧

(٦٠) جمال زكريا قاسم : المصدر السابق ـ ص ٣٠

(٦١) ج ج لوريمر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨

(٦٢) Stanford. J. Show : History of the Ottoman Empire and Modern Turkey Vol.11. Cambridge. Univ. 1975. P.95

(٦٣) Hailil Inalcik : The Ottoman Empire, London, 1973. P.33

(٦٤) عبد العزيز نوار: التاريخ الحديث للشعوب الاسلامية ـ بيروت ١٩٧٣ ، ص ١٣٨

(٦٥) Andrew. C. Hess : The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the age of the Oceanic discoveries. American Historical Review vol. Lxxv, No. 7. 1970. P. 1899.

(٦٦) المقريزي تقي الدين احمد بن علي ـ المصدر السابق

انظر ايضا: Serjeant R. B. : Op Cit., P.40

لمعرفة التفاصيل انظر ايضا يوسف واحمد : الاسلام في الحبشة القاهرة ١٩٣٥م.

ومصطفى سالم: الفتح العثماني الاول لليمن ، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٤ كان غرض البرتغاليين من الاتصال بالحبشة تطويق البلاد العربية بقوة مسيحية وكان العثمانيون يؤيدون الممالك الاسلامية المحيطة بهضبة الحبشة بينما كانت البرتغال تؤيد مملكة الحبشة المعروفة باسم مملكة القديس يوحنا ، وقد ارسل ملك البرتغال بعثات قادها كل من «بدوري كوفلهام» «والفونسو دي بافيا» وذلك لجمع المعلومات عن الحبشة ومعرفة المصادر الاصلية للتوابل والطرق التجارية عبر الاقطار العربية.

(٦٧) أ. ب نيوتن: التوسع الاستعماري ونمو القوة البحرية في تاريخ العالم ، ترجمة لجنة في وزارة التربية والتعليم العالي ـ القاهرة ص ٢٨٩

(٦٨) A.C. Hess : OP. Cit. P. 1911.

(٦٩) C. F. Beckingham : Some early travels in Arabia. Jornal of Royal Asiatic Society. 1949. P. 162.

(٧٠) احمد طباق اوغلو : المصدر السابق ، ص ٣

(٧١) A. C. Hess : OP. Cit. P. 1914,1922.

(٧٢) لوريمر : المصدر السابق ـ ص ١٦

(٧٣) احمد بوشرب : المصدر السابق ، وثيقة عبارة عن رسالة من قبطان هرمز (كريستوفو دي مندوكا) الى الملك البرتغالي بتاريخ ١٩٢٨/٧/١١

(٧٤) Miles : OP. Cit., P. 159

انظر ايضا : نونو . بي سلفا: صفحات عن الغزو البرتغالي للبحرين ـ مجلة الوثقة العدد ٨ السنة ٤ يناير ١٩٨٦م

(٧٥) ضالح اوزبران: المصدر السابق، ص ٢١ ـ ٢٦

انظر ايضا: ابا حسين . صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين وثيقة رقم ١٢٠/١

(٧٦) جمال زكريا قاسم : المصدر السابق ، ص ٣٣

(٧٧) Miles : OP. Cit., P. 159

انظر ايضا : ويلسون : المصدر السابق ، ص ٢١٨

(٧٨) أحمد بوشرب : المصدر السابق: تقرير بعث به قبطان هرمز الى الملك البرتغالي جوا الثالث اشار فيه الى فشل هجوم برتغالي ضد البحرين التي اعلن واليها ثورته على ملك هرمز.

(٧٩) احمد بوشرب: المصدر السابق: رسالة من (جو دي. اريس) الى ملك البرتغال جوا الثالث بتاريخ ١٥٢٨/٧/١٠ يوضح فيها مداخيل جمارك هرمز.

(٨٠) النهرواني ، قطب الدين محمد بن احمد : غزوات الجراكسة والاتراك في جنوب الجزيرة العربية المسمى البرق اليماني في الفتح العثماني (مخطوط) الرياض ١٩٦٧، ص ٤٣.

(٨١) محمد بن عمر الطيب بافقيه : تاريخ حوادث السنين ووفيات العلماء العاملين والسدة المربين والاولياء الصالحين ، مخطوط ص ٦٧ . عن حسن صالح شهاب ، بحث مقدم الى ندوة رأس الخيمة التاريخية ١٩٨٨، ص ١٥

(٨٢) عبد العزيز نوار، المصدر السابق، ص ١٣١.

انظر ايضا : صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ١٨

(٨٣) مصطفى سالم : المصدر السابق، ص ١١١

(٨٤) بافقيه : المصدر السابق ، ص ٦٨ ب.

(٨٥) بافقيه : المصدر السابق ، ص ٧٩ ب.

(٨٦) Stanford. J. Show : Op. Cit., P. 95

(٨٧) احمد طباق أوغلو : المصدر السابق، ص ٣ انظر ايضا Show. P. 95

(٩٩) حسن صالح شهاب : البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الاحمر والخليج العربي: بحث مقدم الى ندوة رأس الخيمة ١٩٨٨ ، ص ٢٢

(١٠٠) صالح اوزيران: المصدر السابق، ص ٣٨

(١٠١) Stripling : OP. Cit.. P. 92, Show : OP. Cit., P. 95

(١٠٢) F. C. Dinvers : The Portugues in India. Vol.1. P. 119

(١٠٣) صالح اوزيران : المصدر السابق ، ص ٤٠

(١٠٤) لوريمر : المصدر السابق ، ص ١٠

(١٠٥) فالج حنظل : المصدر السابق ، ص ٩

(١٠٦) Dinvers : OP. Cit., P. 492.

انظر ايضا : صالح اوزيران: المصدر السابق ، ص ٤٠٢

(١٠٧) بافقيه : المصدر السابق، ص ١٣٥

(١٠٨) Hawley : OP. Cit., P. 73

(١٠٩) احمد ابو شرب : المصدر السابق ، ص ٣٨ وثيقة وهي رسالة من نائب الملك بالهند (الفونسو بوكيرك) ابن البوكيرالاول ، الى الملك جوا الثالث بتاريخ ١٥٥٢/١/٢٧ يخبره فيها باسترجاع حصن القطيف.

(١١٠) Miles : Op. Cit., P. 108

انظر ايضا : جاهد بلطجي ، المصدر السابق (ص٣)

(١١١) Bilgrave : Op. Cit., P.8

(١١٢)M. Long Worth Domes : the Portuguese and Turks In the Indian Ocean in 16th Cent;

Jornal of the Royal Asiatic Sociaty 1921. Part. 1 Jan. P. 20.

(١١٣) صالح اوزيران: المصدر السابق ، ص ٤٤.

يذكر اوزيران أن اوامر والي البصرة الى بيري ريس ، أن يحتل هرمز والبحرين ان امكن.

(١١٤) Stripling : Op. Cit., P. 95

(١١٥) Miles : OP. Cit., P. 170

(١١٦) Miles : OP. cit., P. 170, Hawley, Op. Cit., P. 73

انظر ايضا : احمد طباق اوغلو : المصدر السابق، ص ٣

(١١٧) Stripling : Op. Cit., P. 95

(١١٨) نونو . بي سلفا : المصدر السابق، ص ١٢٩

انظر ايضا : اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ص ٤٠، ج ٢

(١١٩) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين م ٤ ، ١٩٤٩، ص ٧٥

انظر ايضا : جعفر الخياط، تاريخ العراق في العصور المظلمة ، ص ٣٥

(١٢٠) عباس العزاوي : المصدر السابق ، ص ٨٠

(١٢١) فالح حنظل : المصدر السابق ، ص ١٥

(١٢٢) علي ابا حسين : ندوة رأس الخيمة التاريخية ، بحث مقدم بعنوان صفحات من تاريخ البحرين خلال الوثائق العثمانية ، ١٩٨٨،ص ١٠

(١٢٣) ي اورهونلو : تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين عام ١٥٥٩ . ترجمة حسين على الداقوقي مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، عدد ٢٤ ، السنة ٦ ، ص ٢١١

(١٢٤) فالح حنظل : المصرد السابق ، ص ١٥

(١٢٥) علي ابا حسين : المصدر السابق، ص ١٣

(١٢٦) Kelly : Arabian Gulf and the West 1982. P. 505-510.

انظر ايضا : اورهونلو : المصدر السابق ، ص ٢١٤

(١٢٧) عبد الوهاب القيسي : المجابهة البرتغالية العثمانية ، بحث مقدم الى ندوة رأس الخيمة التاريخية ١٩٨٨م ، ص ١٦١،

(١٢٨) M. Long Worth, Dames : Op. Cit., P. 26.

(١٢٩) Hess : Op. Cit., P. 1916

أنظر أيضا: Inalcik : Op. Cit. , P. 1916

(١٣٠) H. Inalcik : Op. Cit., P. 128.

أنظر أيضا : احمد بوشرب ، المصدر السابق، ص ٤٥

(١٣١) Arnold Toynbee : A study of History, London, Vol. 2. P. 444.

* * * * * * * * *


تم بحمد الله

مطابع دار صحف الوحدة ت: ٤٧٨٤٠٠ أبوظبي

(٨٨) صالح اوزبران: المصدر السابق ، ص ٢٩.

(٨٩) H. Inalcik : OP. Cit. P. 126

(٩٠) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ٢، ص ٣٨ ، القاهرة ١٣١٢هـ

انظر ايضا. George. W.Stripling : The Ottoman Turks and the Arabs., 1942. P. 90

(٩١) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق، ص ٣٩

انظر ايضا : النهرواني ، ص ٨٠

(٩٢) G. Stripling : OP.Cit. P. 93

(٩٣) ابراهيم خوري : توسع الدوة العثمانية في الخليج ونتائجه الاقتصادية بحث مقدم الى ندوة رأس الخيمة التاريخية ١٩٨٨ م ، ص ٢٥

(٩٤) بافقيه : المصدر السابقة ، ص ١٩٥

(٩٥) جاهد بلطة جي : المصدر السابق ، ص ٣

(٩٦) صلاح العقاد : دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج ، ندوة الدرسات العمانية ، نوفمبر ١٩٨٠ ، مجلد الرابع ، ص ٦٥

انظر ايضا : لوريمر المصدر السابق ص ٥٥

(٩٧) النهرواني : الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣٠١

(٩٨) بافقيه : المصدر السابق، ص ٩٥

انظر ايضا نونو . بي . سلفا: المصدر السابق، ص ١٢٩

